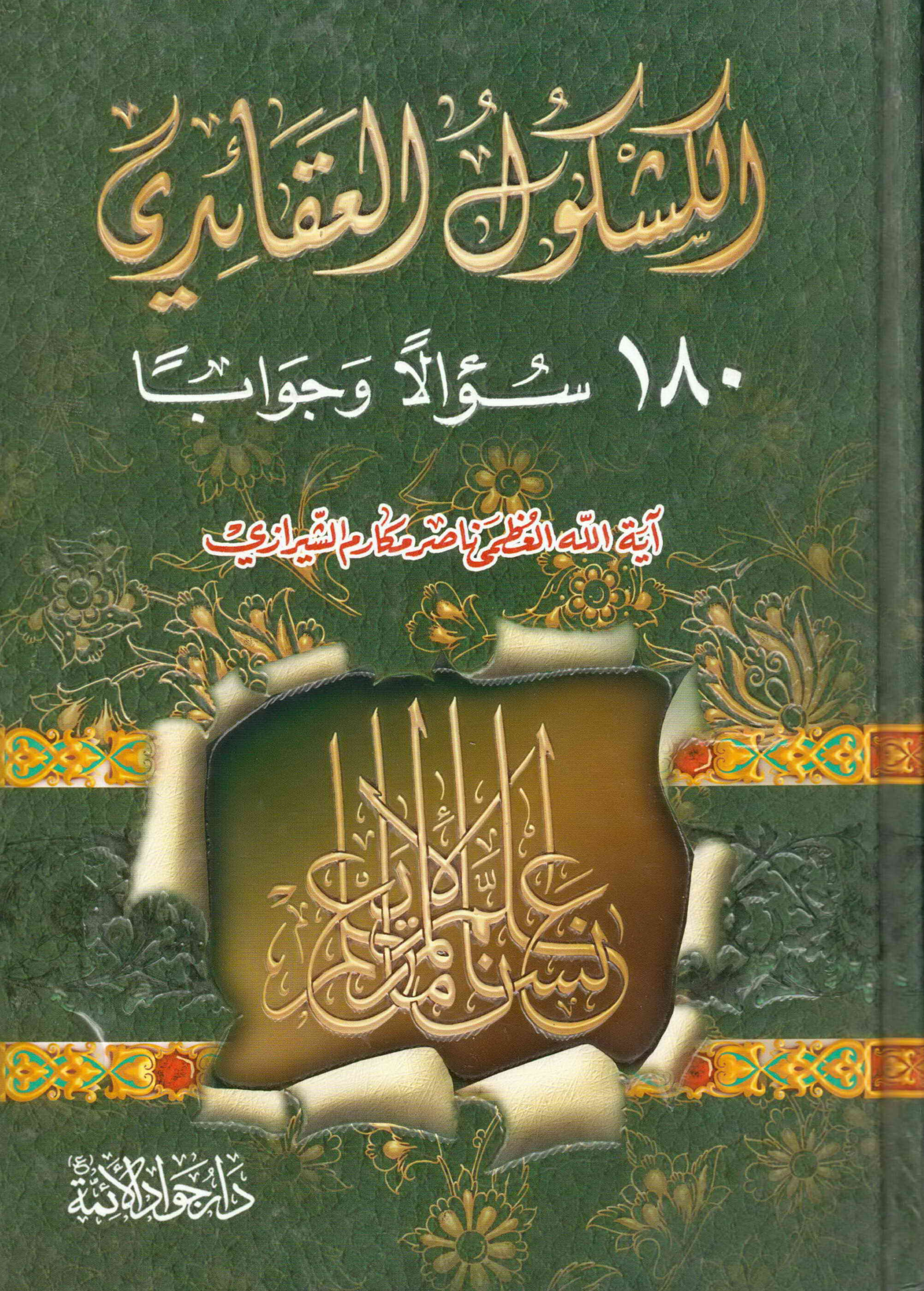

الكشكول العقائدي
١٨٠ سؤالاً وجواباً
آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي
دار جواد الأئمة (ع)

الكشكول العقائدي


بسم الله الرحمن الرحيم



آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي

إعداد

مجموعة من فضلاء الحوزة العلمية في قم

دار جواد الأئمة (ع)

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور
ت: 73 73 13 / 03 - 12 29 69 70 00961

الفهرس

معرفة الله

العدل الإلهي

الأنبياء

القرآن

الأئمة عليهم السلام

المعاد

فروع الدين

الصلاة

الصوم

الخمس

الزكاة

الحج

الجهاد

حقوق المرأة

فلسفة بعض المحرمات في الاسلام

متفرقات

***

تقديم آية الله العظمىٰ مكارم الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

كان السؤال ولا يزال مفتاح خزانة العلوم والمعارف البشريّة.

ولم يكن حظ الافراد والشعوب الذين لا يسألون كثيراً سوىٰ النزر اليسير من هذه الخزانة.

والسؤال والجواب حق كل انسان ولا يمكن حرمان شخص عن هذا الحق المنطقي.

وهذا ما يطرحه القرآن مراراً حيث يؤكّد علىٰ سؤال اهل العلم والذكر ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

و مما يوضح شموليّة هذا الامر القرآني أنّ الإسلام لا يرىٰ حداً أو خطأً احمراً للسؤال ويسمح للمسلمين وحتى لغيرهم «وذلك لأنّ الخطاب في الآية لغير المسلمين رغم أنّ مفهومها عام» طرح أي سؤال وفي أيّة قضيّة من القضايا المختلفة كالعقيدية والاجتماعيّة والاخلاقيّة والسياسيّة وغيرها على أهل الخبرة.

ومن الواضح أن طرح الأسئله المنحرفة لِتخريب العقائد والافكار البناءة أو

أحداث الشك والشبهة والتزعزع في الأفكار العـامّة أو الجـدال والمـراء والعـناد والعصبيّة تستثنىٰ من هذه القاعدة؛ لأنّها لا تعدّ سؤالاً في الحقيقة وانّما هي برامج هدّامة وغير انسانيّة ترتدي ثوب السؤال.

وعلىٰ أيّة حال فإنّ القرآن الكريم باعتباره الموسوعة الكـبرىٰ فـي المـعارف الإلهيّة والقضايا الإنسانيّة، يتعرض في كلّ موضوع منه و بما يتناسب إلى اسئلة لم تتطرق لها كتب المفسرين الأوائل لأنّها لم تكن موضع ابتلاء فبقيت دون جواب.

وقد حاولنا عند تأليف تفسير الأمثل «بمساعدة جمع من الفضلاء» طرح جميع هذه الأسئلة ـ لا سيّما فيما يرتبط بالقضايا المعاصرة ـ و التعرّض للإجابة بدقّة.

وبما أنّ اطلاع الجميع خصوصاً شبابنا الاعزاء المـتعلمين عـلى أجـوبة هـذه الأسئلة أمرٌ ضروري كما يبدو فقد بذل سماحة **حجّة الإسلام السـيد الحسـيني** وبصحبة عدد من فضلاء الحوزة العلميّة المحترمين الذين وردت أسمائهم في مقدّمة الكتاب، جهوداً كبيرة لاستخراج هذه الأسئلة والاجوبة من ٢٧ مجلداً من تـفسير الأمثل و ١٠ مجلداً من نفحات القرآن وتبويبها وكانت النتيجة **مائة وثمانين سؤالاً و جواباً** مهماً. والحقيقة انّهم ابدعوا في تنظيمها وتبويبها (شكر الله سعيهم). آمل أن تفتح هذه المجموعة أبواباً جديدة أمام الجميع لا سيّما الشباب المسلم العزيز في المسائل الاسلاميّة والقرآنيّة وتكون ذخيرة الجميع يوم المعاد.

قم الحوزة العلميّة

ناصر مكارم الشيرازي

المدخل

لقد ألّف أعاظم علماء الشيعة تفاسير عديدة للقرآن المجيد علىٰ طول التاريخ كان بعضها ولا يزال محطّة لتزوّد العلماء والحوزات العلميّة وعشّاق القرآن، ولكن كان هناك فراغ علىٰ مستوىٰ تفسير يتّسم بخصائص «تفسير الامثل» وبخاصّة في هذا الزمن الذي يتزايد فيه التوجّه لفهم القرآن من قبل جميع الطبقات والمستويات. وقد لبّىٰ سماحة آية الله العظمىٰ مكارم الشيرازي مع ثلّة من الفضلاء، هذه الحاجة الملحّة وقدّموا للقرآن المجيد خدمة جليلة. وهنا نشير إلىٰ بعض خصائص هذا التفسير والّتي منحته شموليّة وجذّابيّة:

١ ـ رغم أنّ هذا التفسير يفتح الآفاق لعامّة من يتطلّعون إلى درك القرآن ولكنّه لم يغفل عن الجانب العلمي والبحثي مما يجعل الفائدة تعمّ أهل الفضل والعلم أيضاً.

٢ ـ أكّد هذا التفسير علىٰ قضايا حياتيّة تعدّ من صميم واقع الإنسان الاجتماعي والفردي معرضاً عن الخوض في غير الضروري.

٣ ـ تطرّق بما يتناسب والعناوين الموجودة في الآيات إلىٰ أبحاث مختصرة ومستقلّة، تغني القارىء من خلال مطالعة اجماليّة عن الرجوع إلىٰ الكتب الاخرىٰ.

٤ ـ تجنّب الاصطلاحات العلميّة المعقّدة ولكنّه في نفس الوقت تضمّن حسب الضرورة في الهوامش توضيحات ينتفع بها العلماء والمفكّرون فضلاً عن غيرهم.

٥ ـ إن إحدىٰ الخصائص المهمّة لهذا التفسير هي الإجابة عن الأسئلة والقضايا المعاصرة ووضع الحلول للإشكالات والأسئلة المختلفة في أصول الدين وفروعه والمعارف الإسلاميّة وقد دفعتنا هذه الخصائص لنطلب من سماحة الأستاذ الموافقة بجمع أسئلة التفسير وأجوبته بصورة مستقلة لتقديمها للجميع لا سيّما جيل الشباب،

وقد تفضل علينا بالقبول مشكوراً. فتمّت مراجعة تفسير الأمثل والتفسير الموضوعي (نفحات القرآن) بشكل كامل وذلك بمساعدة الإخوة الأعزاء حجج الإسلام أحمد الجعفري و السيد علي رضا الجعفري والسيد مرتضى الموسوي والسيد أصغر الحسيني و محمد حسين المحمدي، واستخرجت جميع القضايا المرتبطة بالموضوع وكانت النتيجة هذا الكتاب الذي يشتمل على ١٨٠ سؤالاً و جواباً وأجد لزاماً أن أقدّم شكري للاخ العزيز محمود الغفاري الذي قام باستخراج المتون العربيّة لهذا الكتاب من المصادر المذكورة و الأخ العزيز أحمد فاضل السعدي.

ملاحظات ضروريّة

١. ربّما يكون جواب السؤال قد ذكر في عدّة مواضع من التفسير ولكنّنا قمنا بجمعها في مكان واحد و الربط فيما بينها.

٢. لم نتعرّض في هذه المجموعة إلى الأسئلة التفسيريّة التي تتعلّق بتفسير القرآن و ذلك لأنّ ما نبغيه هو جمع الأسئلة المطروحة في مجتمعنا المتدين، وليس الأمور التفسيريّة التي تتطلب الغور في التفسير للتعرف عليها.

٣. إن جمع هذا الكتاب، وإن تراءىٰ عملاً يسيراً، ولكن مراحل العمل المختلفة ـ سواء مطالعة الدورة التفسيريّة واستخراج الأسئلة والأجوبة وتبويبها والربط بينها ـ استدعت وقتاً كثيراً.

٤. إن هذه المجموعة المكونة من ١٨٠ سؤالاً وجواباً تمّ استخراج ١٤٣ مورداً منها من تفسير الأمثل و ٣٥ من التفسير الموضوعي (نفحات القرآن) و مورد منها من شرح نهج البلاغة لسماحة الأستاذ و سؤال و جواب من كتاب «آفريدگار جهان» (خالق العالم) ـ مجموعة من أبحاث سماحة الأستاذ ـ .

آمل أن يلقىٰ هذا العمل القليل رضا بقيّة الله الإمام المهدي ارواحنا فداه.

قم ـ السيد حسين الحسيني

معرفة الله

١

لماذا البحث عن معرفة الله؟

☑ لا توجد حركة بدون محفز، وبالطبع فلا يمكن للحركة في طريق معرفة مبدأ عالم الوجود أن تكون بلا محفّز. و من هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة محفزات أساسيّة للبحث عن الله، وجميعها مشار إليها في القرآن الكريم اشارات واضحة.

١ ـ الحافز العقلي.

٢ ـ الحافز الفطري.

٣ ـ الحافز العاطفي.

١ ـ الحافز العقلي

الانسان يعشق الكمال، ويعتبر هذا العشق عشقاً خالداً عند كلّ النّاس، يبقىٰ أن كل إنسان يرى كماله في شيء معين، فيذهب نحوه، والبعض يذهبون باتجاه السراب بدل الماء ويلهثون خلف القيم الوهميّة والكمالات الخياليّة و يتصورونها واقعاً.

قد يسمىٰ هذا المبدأ أحياناً بـ «غريزة حب المنفعة ودفع الضرر» التي يجد الإنسان علىٰ ضوئها بأنّه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلّق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).

لكن إطلاق كلمة «غريزة» علىٰ هذا العشق أمر غير سليم، فالغريزة عادة تطلق على أمور تؤثر في افعال البشر أو باقي الأحياء بدون تدخل التفكير، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات أيضاً.

وعلىٰ هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم عنوان (الميول السامية) التي استعملها بعض العلماء لمثل هذه الموارد.

وعلىٰ كلّ حال، فهذا العشق للكمال والميل نحو المصالح المعنويّة والماديّة ودفع كلّ انواع الضرر يجبر الإنسان على التحقيق حتى في مواضع الاحتمال، وكلما كان هذا الاحتمال أقوىٰ، وذلك النفع والضرر أعظم، كان التحقيق والنظر أوجب.

من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهم في مصيره، ولا يرىٰ من واجبه التحقيق حوله.

وقضيّة الإيمان بالله والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك. لأنّ هنالك في محتوىٰ الدين كلام عن القضايا المصيريّة، وعن القضايا التي يرتبط خير وشر الإنسان إرتباطاً وثيقاً.

البعض يذكر مثالاً من أجل ايضاح هذا الأمر، فيقولون: لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول: إنّ البقاء هنا خطر يقيناً، واختيار هذا الطريق (اشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر، والطريق الثاني هو طريق النجاة، ثمّ يذكر قرائن و شواهد لكل ما قاله. فما من شك أن أي عابر سبيل يرىٰ نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أن اللاأباليّة اتجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل.[١]

١ ـ نفحات القرآن، ج ٢، ص ١٨ ـ ١٩ .

الأصل العقلي المعروف بـ «دفع الضرر المحتمل»، فرعٌ من الحافز العقلي. القرآن يخاطب النبيّ ﷺ فيقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

ومن الواضح أن هذا الكلام إنّما يقال للاشخاص الذين لا ينفع معهم أيّ دليل منطقي لشدّة عنادهم وتعصبهم. فالآية تقول لهؤلاء: إذا كنتم ترفضون حقانية القرآن والتوحيد ووجود عالم ما بعد الموت وتصرون عليه، فأنتم لا تملكون حتماً دليلاً قاطعاً علىٰ هذا الرفض، لذا يبقىٰ ثمّة احتمال في أن تكون دعوة القرآن وقضية المعاد حقيقة موجودة، عندها عليكم أن تتصوروا المصير الأسود الموحش الذي ينتظركم لعنادكم وضلالكم ومعارضتكم الشديدة إزاء الدين الإلهي.

إنّه نفس الأُسلوب الذي نقرأ في محاججة أئمّة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرىٰ ذلك واضحاً في الحادثة التي ينقلها العلّامة الكليني في «الكافي» حيث يذكر فيه الحوار الذي دار بين الإمام الصادق عليه السلام وابن أبي العوجاء.

فمن المعروف أنّ «عبد الكريم بن أبي العوجاء» كان من ملاحدة عصره ودهريها، وقد حضر الموسم (الحج) أكثر من مرّة والتقىٰ مع الإمام الصادق في مجالس حوار، انتهت إلىٰ رجوع بعض أصحابه عنهُ إلىٰ الإسلام، ولكنّ ابن أبي العوجاء لم يسلم، وقد صرح الإمام عليه السلام بأن سبب ذلك هو إنّه أعمىٰ ولذلك لا يسلم.

والحادثة موضع الشاهد هنا، هي أنّ الإمام بصر بابن أبي العوجاء في الموسم فقال له: ما جاء بك إلىٰ هذا الموضع؟

فاجاب ابن أبي العوجاء: عادة الجسد، وسنة البلد، ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة!

---

١ ـ «أرأيتم» تأتي عادةً بمعنىٰ «أخبروني» وتفسّر بنفس المعنىٰ.

فقال لهُ الإمام: أنت بعد علىٰ عتوك وضلالك يا عبد الكريم[١].

وعندما أراد أن يبدأ بالمناقشة والجدال قال له الإمام عليه السلام: لا جدال في الحج. ثم قال لهُ: إن يكن الأمر كما تقول، وليس كما نقول، نجونا ونجوت. وإن يكن الأمر كما نقول، وهو كما نقول نجونا وهلكت.

فأقبل عبد الكريم علىٰ من معه وقال: وجدت في قلبي حزازة (ألم) فردّوني، فردوه فمات[٢] [٣].

٢ ـ الحافز العاطفي

ثمّة مثل معروف يقول: «إنّ النّاس عبيد الإحسان».

ورد نفس هذا المعنىٰ تقريباً في حديث عن أميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام: «الإنسان عبد الإحسان»[٤].

ونقرأ في حديث عن نفس الإمام عليه السلام: «بالإحسان تملك القلوب»[٥].

وفي حديث عن نفس الإمام أيضاً: «وأفضل على من شئت تكن أميره»[٦].

وجذور كل هذه المفاهيم في حديث الرسول صلى الله عليه وآله إذ يقول: «إنّ الله جعل قلوب عباده على حب من أحسن إليها و بغض من أساء إليها»[٧].

---

١ ـ يناديه الإمام بهذا الاسم، وهو اسمه الحقيقي مع كونه منكراً لله لكي يشعره مهانة ما هو عليه وهذا اسمه.

٢ ـ الكافي، المجلد الأوّل، ص ٧٧ ـ ٧٨، كتاب التوحيد باب حدوث العالم.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٥/ ٤٤٠.

٤ ـ غرر الحكم.

٥ ـ غرر الحكم.

٦ ـ بحار الانوار، المجلد ٧٧، ص ٤٢١.

٧ ـ تحف العقول، ص ٣٧ (تم كلمات النّبي صلى الله عليه وآله).

والخلاصة هي أن هنالك حقيقة تقول: إنّ الذي يسدي خدمة لشخص آخر أو ينعم عليه نعمة فسيكون محطاً لعواطفه، ويكون هذا الآخر محباً لصاحب الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان تحريك العواطف نحو «المنعم» و «معرفته» أكثر.

ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة «شكر المنعم» ومنذ القِدَم احدىٰ المحفزات علىٰ التحقيق حول الدين ومعرفة الله.

ولكن يجب الإنتباه إلى أنّ «شكر المنعم»، هو دستور عاطفي قبل أن يكون حكماً عقليّاً.

نختم هذه الإشارة ببيت شعر لأبي الفتوح البستي الشاعر العربي المعروف:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان إحسان

نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: انّه قال **«كان النّبي ذات ليلة عند عائشة فسألته: لماذا ترهق نفسك كلّ هذه الارهاق بالعبادة في حين قد غفر الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر فقال صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً.»**[1]

٣ ـ الحافز الفطري

عندما نتحدث عن الفطرة فمرادنا نفس تلك الاحساسات الداخليّة والادراكيّة التي لا تحتاج إلى أي استدلال عقلي.

عندما نشاهد منظراً طبيعيّاً جميلاً جداً أو زهرة ذات لون و رائحة طيبة نحسُّ في داخلنا بانجذاب قوي نحوها. ونسمي هذا الإحساس بالميل نحو الجمال وعشقه ولا نرىٰ أي حاجة للبرهنة هنا.

أجل، إنّ الإحساس بالجمال من الميول المتعالية للروح الإنسانيّة.

---

١ ـ اصول الكافي: ج ٢، باب الشكر حديث ٦.

والإندفاع نحو الدين وخاصّةً معرفة الله هو ايضاً من هذه الإحساسات الذاتيّة والداخليّة. بل هو من أقوىٰ الحوافز في أعماق طبيعة و روح جميع البشر.

ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمّة لا في الحاضر ولا في الماضي التاريخي لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينيّة تتحكم في فكرها وروحها. وهذه علامة علىٰ أصالة هذا الإحساس العميق.

عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فإنّه يؤكّد في عدّة مواضع علىٰ هذه النقطة وهي أنّ الرسالة الأصيلة للأنبياء تتمثل بإزالة آثار الشرك والوثنيّة (وليس إثبات وجود الله، لأنّ هذا الموضوع مخبّأ في أعماق طبيعة كلّ إنسان).

وبتعبير آخر: إنّهم لم يكونوا بصدد غرس «بذور عبادة الله» في قلوب النّاس، بل كانوا في صدد سقاية البذور الموجودة واستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المضرة التي قد تقتل أو تُذبل هذه البذور بصورة تامّة في بعض الأحيان.

وردت جملة ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ في كلام الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم، وهي عبارات تفيد نفي الأصنام وليس اثبات وجود الله كما جاء في دعوة رسول الإسلام ﷺ[١]، ودعوة النّبي نوح[٢]، ودعوة يوسف[٣]، ودعوة هود[٤].

وفضلاً عن هذا فإنّنا نمتلك في داخل أرواحنا أحاسيس فطريّة أصيلة أخرىٰ منها ما نراه في نفوسنا في الإنجذاب الشديد اتجاه العلم والمعرفة والإطلاع.

فهل من الممكن أن نشاهد هذا النظام العجيب في هذا العالم المترامي، ولا تكون لنا رغبة في معرفة مصدر هذا النظام؟

---

١ ـ هود، الآية: ٢.

٢ ـ هود الآية: ٢٦.

٣ ـ يوسف الآية: ٤٠.

٤ ـ الأحقاف، الآية: ٢١.

وهل من الممكن أن يجدّ عالِم لمدّة عشرين سنة من أجل التعرف على حياة النمل، و يثابر عالِم آخر عشرات السنين لمعرفة بعض الطيور أو الأشجار أو أسماك البحار بدون أن يكون في داخله حافز حب العلم؟ هل يمكن أنّهم لا يريدون معرفة مصدر هذا البحر اللامتناهي الذي يشمل الأشياء من الأزل إلى الأبد؟!

نعم، هذه حوافز تدعونا إلى «معرفة الله»، العقل يدعونا إلى هذا الطريق، العواطف تجذبنا نحو هذا الاتجاه، والفطرة تدفعنا إلى هذه الجهة.

كانت هذه خلاصة للمحفزات الواقعيّة والحقيقيّة لظهور الدين و معرفة الله[١].

---

١ ـ نفحات القرآن: ٢/ ٣٩.



هل مصدر ظهورالدين الجهل أوالخوف أوعوامل أخرىٰ؟

☑ هنالك اصرار عجيب من قبل بعض علماء الإجتماع والنفس الماديين في الغرب والشرق على أنّ مصدر ظهور الدين والعقيدة التوحيديّة معلول للجهل أو الخوف أو عوامل أخرىٰ من هذا القبيل.

ويمكن تحديد هذه النظريّات ـ أو بعبارة أدق هذه الفرضيّات ـ بشكل عام في خمس فرضيات:

١ ـ فرضية الجهل:

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين: «مع إن العلم والفن كشفا الكثير من الأسباب السريّة، إلّا أنّ الكثير من هذه الأسباب ما تزال هاربة من نطاق العلم وباقية في لفيف الأسرار، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين»[1].

---

١ ـ جامعه‌شناسى، ساموئيل كنيك، ص ٢٠٧، (علم الاجتماع، صاموئيل كنيك).

ويضيف أحد الفلاسفة الماديين: أنّ الإنسان عندما ينظر إلى الاحداث من زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح! وذلك لسبب واضح جداً. فالذي يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العليّة لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصوّرٌ يقول: إنّ بإمكان موجود خلق الموانع والعثرات في واقع الأحداث[1].

وبعبارة أبسط إنّهم يريدون الادعاء أنّ جهل الإنسان بالعلل الطبيعيّة كان السبب في تصوره لوجود قوّة وراء الطبيعة أوجدت هذه العالم و ما انفكت تديره. ولهذا فكلما اتضحت الأسباب والعلل الطبيعيّة تراجع الدين والاعتقاد بعبادة الله. إن الخطأ الأساسي لأتباع «فرضيّة الجهل» ينبع من:

أوّلاً: إنّهم ظنوا أنّ الإيمان بوجود الله يعني إنكار قانون العليّة، وإنّنا علىٰ مفترق طريقين: إما التسليم للعل الطبيعيّة او لوجود الله. في حين أنّ الإيمان بقانون العليّة والكشف عن العلل الطبيعيّة من وجهة نظر الفلاسفة الإلهيين يعد أحد أفضل طرق معرفة الله.

إننا لا نبحث عن الله وسط الفوضىٰ والحوادث الغامضة والمعتمة أبداً، بل نعثر عليه في وسط الأنوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأنّ وجود هذه النظم علامة واضحة علىٰ وجود مصدر علم وقدرة في عالم الوجود.

ثانياً: لماذا تراهم يغفلون عن هذه النقطة، وهي أنّ الإنسان ومنذ أقدم العصور لحد اليوم كان يرىٰ دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ نظاماً لا يمكن تبريره بالعلل التي لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامة علىٰ وجود الله. وكل ما في الأمر أنّ هذا

---

١ ـ الدنيا التي أراها، ص ٥٨ ـ وكم هو مضحك قول «أوغست كونت» أن العلم عزل أبا الكائنات من وظيفته وساقه إلى مكان منزوٍ (أي باكتشاف العلل الطبيعيّة لم يبق ثمّة محل للإيمان بالله). (الدوافع نحو الماديّة، ص ٧٦)

النظام كان معروفاً في الماضي بدرجة أقل، وكلما تطور علم البشر، اكتشفت منه دقائق وصغائر جديدة واتضح وبان علم وقدرة مبدأ عالم الوجود أكثر.

ومن هنا فإننا نعتقد أنّ «الايمان بوجود الله» و «الدين» يتقدم إلى الأمام بتقدم «العلوم». وكل اكتشاف جديد لأسرار ونظم هذا العالم انّما هو خطوة جديدة لمعرفة الله بصورة أفضل، فلم يكن بامكان السابقين أبداً أن يعرفوا الله بالشكل الذي نعرفه اليوم، لأنّ تطور العلوم لم يكن علىٰ ما هو عليه الآن.

٢ ـ فرضيّة الخوف:

يروي المؤرخ الغربي المعروف «ول ديورانت» في تاريخه ضمن بحث بعنوان منابع الدين عن الحكيم الروماني «لوكروتيوس» بأنّ «الخوف هو الأم الأولىٰ للآلهة، والخوف من الموت ذو مكانة أهم بين بقيّة أنواع الخوف... ولهذا لم يكن باستطاعة الإنسان البدائي أن يصدق بأنّ الموت ظاهرة طبيعيّة ولذا كان يتصور له سبباً ما ورائيّاً علىٰ الدوام»[١].

ويكرر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرىٰ في قوله:

«أتصور أن مصدر الدين هو الخوف والرهبة قبل كلّ شيء، الخوف من الكوارث الطبيعيّة، الخوف من الحروب و ما شاكل، والخوف من الأعمال غير اللائقة التي يرتكبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات عليه»[٢].

ويتضح بطلان هذه الفرضيّة من حيث أن أتباعها كأنّهم قد تعاهدوا جميعهم بشكل ضمني علىٰ الإتفاق بأنّه ليس ثمّة جذور ما ورائيّة للدين والإعتقاد بعبادة الله، ولا بدّ من البحث عن سبب له في الطبيعة، سبب يعود إلى نوع من الظن

---

١ ـ قصّة الحضارة لـ «وِل ديورانت» المجلد الأوّل، ص ٨٩.

٢ ـ «العالم الذي أعرفه» ص ٥٤.

والخيال، ولهذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعيّة وينسون المسألة الأصليّة.

صحيح أنّ الايمان بالله يمنع الإنسان طمأنينة واقتداراً روحياً، وصحيح أنّه يمده بالشجاعة قبال الموت والحوادث العصيبة، إلى درجة أنّه في بعض الأحيان يكون مستعداً لكل ألوان التضحية والفداء. لكن لماذا ننسىٰ ما هو أمام أعين البشر دائماً أي النظام الذي يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الإنسان ذاته؟!

وبعبارة أخرىٰ فإنّ الإنسان مهما كان بارعاً بعلم التشريح والفسلجة وما شابه، لكنّه حينما ينظر إلى بناء عينه وأذنه وقلبه ويده ورجله يراه بناء عجيباً ودقيقاً، وهذا لايمكن تفسيره ابداً بالوقائع والأسباب العمياء. ظهور غصن من الزهور، أو نحلة، ظهور الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقيّة الظواهر.

هذا هو الشيء الذي كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلي في ظهور الإيمان بوجود الله، لماذا يتجاهلون هذه الحقيقة البينة ويتشبثون بمسألة الخوف والجهل؟ أفليس لأنّهم خائفون من نمو العقائد الدينيّة؟ وإلّا لماذا يتركون الطريق الأصلي النيّر ويسلكون الطريق المنحرف؟ سوىٰ أنّ الأحكام المسبقة تحول أمامهم؟!

٣ ـ فرضيّة العوامل الإقتصاديّة:

إنّ أتباع هذه الفرضيّة أناس يعتقدون بأنّ القوّة التي تحرك التأريخ هو شكل وسائل الإنتاج، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعيّة سواء الثقافيّة منها أو العلميّة أو الفلسفيّة أو السياسيّة وحتى الدين ناتجة عن هذا الشيء؟

إنّ لهم تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الإقتصاديّة منها قولهم: إن الطبقة المستعمرة في المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشرائح المستعمرة وتخديرها، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لينين» المعروفة التي أوردها في كتابه «الاشتراكيّة والدين» والتي يقول فيها:

«الدين في المجتمع بمثابة المخدر والافيون»!

ولهم في هذا الموضوع كلام كثير هو في الغالب تكرار للمكررات.

ومن حسن الحظ أن اتباع هذه الفرضيّة (الاشتراكيون) قد أجابوا على أنفسهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة. فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً في حركة ونهوض أمّة متخلفة، وكيف أنزل عن العرش المستعمرين من أمثال السلاطين الساسانيين، وقياصرة الروم وفراعنة مصر و«تبابعة» اليمن، يضطرون إلى استثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخي.

وفوق كل هذا، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الاسلاميّة ضد المستعمرين (خاصّة في العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطيني ضدّ الكيان الصهيوني، فليس أمامهم سبيل سوىٰ أن يشكو في تحليلاتهم، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً في حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى الشمس المتجلية.

وعلىٰ كلّ حال، فبالنظر للتاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام، يتضح جيداً أن الدين و خلافاً لزعمهم ليس مادّة مخدّرة وأفيوناً أبداً. فضلاً عن أنّه السبب في ظهور أقوىٰ الحركات الاجتماعيّة واكثرها مثاراً للاعجاب، والقضايا الاقتصاديّة تشكل بدورها جزء من حياة الإنسان، وحصر الإنسان في الزاوية الاقتصاديّة يعتبر أكبر خطأ في معرفة الإنسان و معرفة نوازعه وميوله المتعالية.

٤ ـ الفرضيّة الجنسيّة:

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «فرويد» الذي يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و «الغريزة الجنسيّة» ويعتبر هذا وليداً لتلك !

إنّه يحاول أن يربط هذا الموضوع في فرضيّته باحدىٰ القبائل الوهميّة (للأب في هذه القبيلة الخياليّة نساء كثيرات، أمّا الأولاد الشباب فيعانون الحرمان، وأخيراً ثار

الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه، ثم ندموا على ذلك، وبغضّهم النـظر عـن نسـاء القبيلة عمدوا إلى إدانة وتقبيح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره «تابوا» أي «كبت» (حظر الزواج من المحارم).

ويضيف: يوجد في القبائل المتوحشة اليوم شيء باسم «التوتم» وهـو الأب أو السلب بالنسبة لاعضاء القبيلة، ويعتبر حاميهم وولي نعمتهم.

إنّهم يحترمون «التوتم» ويتصورون أن عليهم أن يتشبهوا به (هذا الاعتقاد بالتوتم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهميّة ايضاً).

يعتقد فرويد أنّ الإيمان بالكبت والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينيّة، ووفقاً لما ذكرنا اعلاه فإنّ له علاقة بالقضيّة الجنسيّة![1]

وفضلاً عن أن فرضيّة فرويد الجنسيّة قائمة على أسـاس اسـطورة (اسـطورة القبيلة الوهميّة). فإنّ تحليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والخرافة، وهذا ناتج من أنّه يرىٰ روح وجسم الانسان ذا الأبعاد والميول المتنوعة من زاوية واحدة وبـبعد واحد.

صحيح أنّ للإنسان غريزة جنسيّة، لكن من المسلم به أنّ وجـود الإنسـان لا يختصر كله في الغريزة الجنسيّة، فجسمه يقع تحت تأثير غرائز مختلفة، ولروحـه ميول متعالية مختلفة، «فالنظر من بعد واحد» بلاء لم يقع فيه فرويد فحسب بل إن الاشتراكيين الذين يختصرون وجود الإنسان في البعد الإقتصادي قـد وقـعوا فـيه بشكل آخر.

كان الاجدر بفرويد و بدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم أبصر نظاماً حاكماً على العالم المـترامـي وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعيّة غير العاقلة وغير العالمة. وكان

---

١ ـ الاقتباس من «فروید والفرويديّة».

هذا هو المنطلق في ظهور الاعتقاد بالله، فلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون الظلال؟!

٥ ـ فرضيّة الحاجات الاخلاقيّة

يقول «أنشتاين» في بحث بعنوان «الدين والعلوم»: بقليل من الدقّة يتضح أنّ الأحاسيس والانفعالات التي أدت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباينة جداً.. وبعد أن يشير إلى فرضيّة الخوف يضيف:

إن النزعة الاجتماعيّة عند البشر هي أيضاً من أسباب ظهور الدين. فالفرد يرىٰ أن أباه و أمّه، أصدقاءه و أقاربه، قادته وعظماءه يموتون، ويرحل من حوله واحداً واحداً، إذن فالرغبة في الهداية والمحبّة وأن يكون محبوباً في مجتمعه وأن يكون له أمل في شخص ما معتمداً عليه، تمهد الأرضيّة في نفسه لقبول الاعتقاد بالله[١].

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين.

وهنا أيضاً نلاحظ أنّ مقترحي هذه الفرضيّة قد خلطوا بين «الأثر» و «الدافع»، في حين أننا نعلم أن ليس كل أثر هو دافع بالضرورة، فمن الممكن أن نعثر على كنز اثناء حفرنا لبئر عميق، و هذا هو «أثر»، والحال أنّه لا شك في أنّ المحرك والدافع الأساسي لحفرنا البئر شيء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كنزٍ ما.

وعليه فصحيح أن بامكان الدين معالجة أوجاع وآلام الإنسان الروحيّة، وأن الإيمان بالله يخلصه من الإحساس بالوحدة عند فقد الأحبّة والأصدقاء ويملأ الفراغ الناتج من فقدانهم، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.

الحافز الأصلي للدين والذي يبدو منطقيّاً جداً هو في الدرجة الأولىٰ ما أشرنا إليه سابقاً، فحين يرىٰ الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام في عالم كلما تفكر فيه

---

١ ـ «الدنيا التي أراها»، ص ٥٣.

أكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته أكثر. فهو لايستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل مالها من ظرافة وبناء عجيب، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ظريف و دقيق ومعقد، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للـطبيعة غـير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء. وهنا يبحث الإنسان عن مبدأ لهذا النظام.

وبالطبع فهنالك أمور أخرىٰ تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.

والعجيب أنّ «انشتاين» نفسه الذي اقترح مثل هذه الفرضيّة بدّل كلامه في مكان آخر وأعرب عن عقيدته في موجد عالم الوجود وايمانه الراسخ بذلك المبدأ الكبير بشكل جذّاب آخر، يدل على انّه ينكر الإعتقاد الممتزج بالخرافات ولا ينكر التوحيد الخالص من أي خرافة.

إنّه يقول: «ثمّة وراء هذه الأوهام معنى واقعي لوجود الله لم يتوصل إليه سوىٰ القليل من الناس» ثم يصرح بعقيدته و عقيدة كبار العلماء بنوع من الايمان الديني الذي يسميه «الاحساس الديني بالخلق» أو «الوجود» ويدعوه في مكان آخـر بـ«الحيوة اللذيذة من نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والألطف من ذلك أنّه يقول: «إن هذا الإيمان الديني سراج درب البحوث في حياة العلماء»[١]. طبعاً الكلام هنا كثير و إذا أردنا أن نترك عنان القلم حسب التعبير الدارج فسوف نخرج عن شكل البحث في هذا الكتاب.

لهذا نعود إلى أصل الحديث مرّة أخرىٰ، وننهي هذا البحث، ونلفت النظر إلى إنّه يجب البحث عن حافز ظهور الدين في مطالعة عالم الخلقة أولاً (الحافز العقلي والمنطقي)، ثم في الجاذبيّة الذاتيّة العنيفة (الحافز الفطري)، ثم في التوجه نحو ذلك المبدأ الكبير بسبب التمتع بنمعه اللامتناهية (الحافز العاطفي)[٢][٣].

---

١ ـ «الدنيا التي أعرفها»، ص ٥٦ و ٦١.

٢ ـ من أجل مزيد من المعلومات في هذا المجال يراجع كتابنا «الحافز في ظهور الاديان».

٣ ـ نفحات القرآن، ٢/ ٤١.

٣

لم لا يصل العقل الى كُنه ذاته وصفاته؟

☑ إن النقطة الاساسيّة هي نزاهة الذات الإلهية المقدسة عن المحدودية من جهة، ومحدودّية عقولنا وعلومنا من جهة اخرىٰ.

فالله عزوجل وجودٌ لا نهاية له من جميع الجهات فذاته كصفاته غير محدودة وغير متناهية، ومن جهةٍ أخرىٰ فنحن محدودون، وجميع ما يتعلق بنا من علمنا وقدرتنا وحياتنا والمكان والزمان الذي نعيش فيه، محدود ايضاً.

وعلىٰ هذا فكيف يمكننا مع هذه المحدوديّة أن نحيط بذلك الوجود اللامحدود وصفاته؟ وكيف يستطيع علمنا المحدود ان يخبر عن ذلك الوجود اللامحدود؟

أجل، انه بامكاننا في عالم الفكر والتفكُّر ان نلمح شبحاً من بعيد، ونشير اجمالاً الىٰ ذاته وصفاته، اما الوصول الىٰ كُنه ذاته وصفاته، أي الاحاطة التفصيلية به، فهي غير ممكنة بالنسبة لنا ـ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرىٰ فإن الوجود اللامتناهي ليس له مثيل أو نظير من كل ناحية،

وفرد لا كفؤ له، فلو كان له كفؤ أو نظير لكان كلاهما محدودين.

فكيف يمكننا أن ندرك وجوداً لا نعرف له كفؤاً ولا نظيراً له أبداً؟، وكل ما نراه من الممكنات هو غيره، وصفاته تتفاوت تماماً عن صفات واجب الوجود[١].

نحن لا نقول بأننا نجهل أصل وجوده ـ سبحانه ـ ولا نعرف شيئاً عن علمه وقدرته وارادته وحياته، بل نقول بأ نّ لدينا معرفة اجمالية عن جميع هذه الامور ولا يمكننا أن ندرك كُنهها وعمقها بتاتاً، وحارت عقول جميع عقلاء وحكماء ـ العالم ـ دون استثناء ـ في هذا الطريق.[٢] كما يقول الشاعر:

حتى متى تفتخر بالعقل أيّها الحكيم

فبالفكر لا يمكن طيّ هذا الطريق

انّما يتسنّىٰ وصول العقل إلى كنه ذاته

إذا بلغ العشب الذي لا وزن له قعر البحر

ونقرأ في بعض الرّوايات عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»[٣].

أي لا تتكلّموا في ذات الله فإنّ العقول تحار فيه ولا تصل إلى حدّ فإنّه لا يمكن

---

١ ـ ان لم يكُن عجباً فإننا لا نستطيع أن نتصور حتىٰ مفهوم (اللامتناهي) فإن قيل لنا كيف تستعملون كلمة (اللامتناهي) إذاً ؟ وتتحدثون عنها وعن أحكامها ؟ أفهل يمكن التصديق بدون التصوّر؟!

في الاجابة علىٰ ذلك نقول: إننا أخذنا هذا المصطلح من كلمتين هما (لا) أي النفي والعدم و(متناهي) أي بمعنىٰ (المحدود)، أي أن نتصور هاتين الكلمتين منفصلتين عن بعضهما (لا ومتناهي) اولاً ثم نركبهما مع بعضهما لنشير بهما الى موجودٍ لا يسعه الخيال والتصور فنحصل منها علىٰ معنىً اجمالياً (تأمل جيداً).

٢ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ٢٥ ـ ٢٦.

٣ ـ تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لما جاء في نور الثقلين، ج ٥، ص ١٧٠.

للعقول المحدودة أن تفكّر في ما هو غير محدود لأنّه مهما فكّرت العقول فتفكيرها محدود وحاشا لله أن يكون محدوداً[١].

والعبارة الأوضح أنّنا حينما ننظر إلى عالم الوجود وجميع هذه العجائب والموجودات البديعة بما فيها من دقّة وعظمة وحتى عندما نلقي نظرة على وجودنا سوف نفهم إجمالاً أنّ هناك خالقاً ومبدئاً لكل ذلك وهذا هو العلم الاجمالي والذي يمثّل آخر مرحلة من مراحل قدرة معرفة الإنسان فيما يرتبط بالله (وبالطبع كلما احطنا علماً باسرار الوجود اكثر، تعرفنا على عظمته بصورة أكبر وكنا اقوىٰ في مسار معرفته الاجماليّة)، ولكن عندما نسأل انفسنا ما هو الله؟ وكيف هو؟ ونمد أيدينا نحو حقيقة ذاته المنزة فلن نجني سوىٰ الحيرة وهذا ما نقول من أن الطريق إليه مفتوح بشكل كامل وفي نفس الوقت مغلق تماماً.

ومن الممكن بيان هذه القضيّة من خلال مثال وهو أنّنا جميعاً نعلم بوجود طاقة تسمىٰ الجاذبيّة وذلك لأنّ كلّ شيء حينما يترك سوف يسقط ويجذب نحو الأرض واذا لم تكن هذه الجاذبيّة لما كان هناك استقرارٌ للموجودات على الأرض.

إنّ الإطلاع على وجود الجاذبيّة ليس شيئاً يختص بالعلماء بل هو مما يدركه الاطفال بصورة جيدة ولكن ماهي حقيقة الجاذبيّة هل هي امواج غير مرئيّة أو ذرات مجهولة أو طاقة اخرىٰ؟

والعجيب أنّ الجاذبيّة وخلافاً لما نعرفه في جميع عالم المادّة لا تحتاج ظاهراً إلى زمان للانتقال من نقطة إلى أخرىٰ فهي تختلف عن النور والذي يمتاز باسرع حركة في عالم المادّة ولكنه ربما احتاج إلى ملايين السنين للانتقال من نقطة إلى ثانية في الفضاء وأمّا الجاذبيّة فهي كأنّما تطوي المسافات في لحظة أو أنّها تمتلك من السرعة فوق ما سمعنا حتى الآن فما هذه الطاقة التي لها مثل هذه الآثار و ما

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٧/ ٢٧٠ .

هي حقيقة ذاتها؟ ليس هناك جواب واضح:

فاذا كان علمنا اجماليّاً بالنسبة إلى الجاذبيّة والتي هي أحدىٰ المخلوقات فكيف يمكن أن نحيط علماً بكنه ذات خالق عالم المادّة وما وراء المادّة والذي هو وجود لا حدّ له ولا نهاية؟ ولكننا مع كلّ ذلك نراه حاضراً في كلّ مكان و شاهداً و مع كلّ موجود في العالم.

لقـد تـجليت مـائة الف مـرة   حتى أراك بمائة الف عين[1]

---

١ ـ «پيام امام» شرح نهج البلاغة لآية الله العظمى مكارم الشيرازي : ٩١/١.

٤

هل للخالق خالق؟

يرد هذا السؤال عادةً في مباحث معرفة الله تعالىٰ ومن قِبَل الأفراد المبتدئين وهو: أنتم تقولون: ان لكل شيء خالقاً ومبدعاً، إذاً فمن خلق الله عز وجل؟

والعجيب هو أن بعض فلاسفة الغرب طرحوا هذه الأسئلة ايضاً، مما يدل على مقدار تصورهم السطحي في المباحث الفلسفيّة وتفكيرهم البدائي.

يقول الفيلسوف الإنجليزي الشهير (برتراند راسل) في كتابه (لِمَ لَم أكُن مسيحيّاً؟): (كنت اعتقد بالله في شبابي، وكنت أعتقد ببرهان علّة العلل كأفضل دليلٍ عليه، وهو أن كل ما نراه في الوجود ذو علّة معينة، ولو تتبّعنا سلسلة العلل لانتهت بالعلّة الأولى، وهي ما نُسميّه بالله.

لكنني تراجعت عن هذه العقيدة بالمرّة فيما بعد، لأنني فكرت بأنه لو كان لكلّ شيء علّة وخالق، لوجب أن يكون لله علة وخالق أيضاً)[١]!

لكننا لا نعتقد بأن أحداً له أدنى إطلاع على المسائل الفلسفية الخاصّة بمباحث معرفة الله تعالىٰ، وما وراء الطبيعة، يحار في الإجابة على هذا السؤال.

---

١ ـ برتراند راسل، في كتابه (لِمَ لَم أكُن مسيحيّاً).

☑ والمسألة واضحة جدّاً. فعندما نقول: ان لكل شيءٍ خالقاً وموجداً. نقصد (كُلّ شيء حادثٍ وممكن الوجود). لذا فهذه القاعدة الكليّة صادقة فقط بخصوص الأشياء التي لم تكُن من قبل وحدثت فيما بعد، لا بخصوص واجب الوجود الذي كان موجوداً منذ الأزل وسيقى إلى الأبد، فوجوده أزليٌّ لا يحتاج إلى خالق، لكي نسأل عن خالقه!؟ فهو قائم بذاته ولم يكن معدوماً من قبلُ أبداً، لكي يحتاج إلى علّة وجوديّة.

وبتعبيرٍ آخر: إنّ وجوده من ذاته لا مِن خارج ذاته، وهو لم يكُن مخلوقاً. هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى كان من الأفضل لـ(برتراند راسل) ومؤيّديه أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال: لو كان لله خالقٌ فسيرد نفس هذا الإشكال مع الخالق المفترض، وهو: من خلق ذلك الخالق!؟ ولو تكررت هذه المسألة وافترضنا إن لكلّ خالق خالقاً لأدى ذلك الى التسلسل، وبطلانه من الواضحات، ولو توصّلنا إلى وجودٍ يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج إلى موجدٍ وخالق آخر (أي واجب الوجود)، فذلك هو الله رب العالمين.

ويُمكن توضيح هذه المسألة ببيانٍ آخر وهو: اننا لو لم نكن من المؤمنين على سبيل الفرض وكُنّا نؤيّد عقيدة الماديّين، لواجهنا نفس هذا السؤال، فبتصديقنا قانون العليّة في الطبيعة، وأنّ كلّ شيء في العالم معلول لآخر، سيرد هذا السؤال الذي واجهه المؤمنون بالله تعالى وهو: لو كانت جميع الأشياء معلولة للمادّة فما هي العلّة التي أوجدت المادة إذاً؟

وسيضطرّون أيضاً للقول: بأن المادة أزليّة، وكانت موجودة منذ الأزل، وستبقى إلى الأبد، ولا تحتاج إلى علّة وجوديّة، وبتعبيرٍ آخر هي (واجب الوجود).

وعلى هذا الأساس نُلاحظ أنّ جميع فلاسفة العالم أعمّ الالهيين منهم والماديّين يؤمنون بوجودٍ أزليٍّ واحدٍ، وجودٍ لا يحتاج إلى خالقٍ ومُوجد، بل كان موجوداً منذ الأزل.

والتفاوت الوحيد هو أن الماديين يعتقدون بأن العلّة الأُولى فاقدة للعلم والمعرفة والعقل والشعور، ويعتقدون بأنّها جسم ولها زمان ومكان. لكن المؤمنين يعتقدون بأن العلّة الاولى ذات علمٍ وإرادة وهدف، وهو الله تعالىٰ وينزّهونه عن الجسميّة والزمان والمكان، بل يعتقدون بأنه فوق الزمان والمكان.

وعليه فقد أخطأ (راسل) في تصوره بأنه يستطيع التهُّرب من مخالب هذا السؤال بترك زمرة المؤمنين والإلتحاق بالمادّيين، لأن هذا السؤال ملازم له دائماً، حيث ان الماديين يعتقدون أيضاً بقانون العليّة ويقولون: بأنّ لكل حادثة علّة معينة.

إذاً، فالطريق الوحيد في حلِّ هذه المشكلة هو إدراك الفرق جيداً بين (الحادث) و(الأزلي)، وبين (ممكن الوجود) و (واجب الوجود)، لكي نعلم أن الذي يحتاج إلى خالقٍ هو الموجودات الحادثة والممكنة، أي أن كل مخلوقٍ يحتاج إلى خالق، وما ليس بمخلوق فلا يحتاج الى خالق.[1]

---

١ ـ نفحات القرآن، ج ٤ ص ١٧٩ ـ ١٨١.

٥

كيف نؤمن بإله لم نره؟

إنّ أبسط اشكالات الماديين على الإلهيين هو: «كيف يمكن للإنسان أن يعتقد بموجود لا يدركه بحواسه ويؤمن به، إنّكم تقولون إنّ الله لا جسم له و لا مكان و زمان ولا لون ولا...، فبماذا يدرك مثل هذا الموجود؟

اننا لا نؤمن إلّا بما لا تعجز عن ادراكه حواسنا و مثل هذا لا وجود له أصلاً».

☑ إنّ هناك عدّة ملاحظات ترد علىٰ هذا الإشكال...

١ ـ إن أهم الاسباب التي تؤدّي إلى مخالفة السادة الماديين موضوع معرفة الله تجلىٰ بوضوح في هذا الاشكال فغرورهم العلمي وتحكيم العلوم الطبيعيّة على كلّ شيء و على جميع الحقائق وقياس كلّ شيء بمقياس العلوم المـاديّة «المشـاهدة والتجربة» و حصر اداة الإدراك بالأسباب الطبيعيّة والماديّة تبرز بوضوح هنا.

إنّنا نسأل من هؤلاء السادة هل أنّ دائرة ومجال عمل ونفوذ علوم الطبيعة لها حدّ أم لا؟

إن الجواب بالإيجاب عن هذا السؤال امرٌ واضح وذلك لأنّ نطاق العلوم الطبيعيّة

انّما يقتصر على الموجودات الماديّة الطبيعيّة فقط.

وعلىٰ هذا الأساس كيف يمكن إدراك غير المحدود بأداة طبيعيّة.

إن الله و موجودات ما وراء الطبيعة خارجة عن حدود العلوم الطبيعة و ما كان كذلك لا يمكن أن يتصوّر ادراكه بالأسباب الطبيعيّة أبداً إن ما وراء الطبيعة لا يمكن أن يقاس بمقاييس العلوم الطبيعيّة كما هو واضح من خلال ما يحمل من اسم و كما هو الحال بالنسبة إلى الفروع المختلفة للعلوم الطبيعيّة فلكل فرعٍ، ادوات و مقاييس ولا تنفع في الفروع الاخرىٰ، إن ادوات الدراسات الفلكيّة والتشريحيّة والمكيروبيّة تختلف فيما بينها. وليس هناك عالم مادي يسمح أن يقال لعالم فلكي أثبت لنا المكروب الفلاني بالأدوات والحسابات الفلكيّة، كما لا يمكن أن ينتظر من اخصائي فرع علوم الميكروبات اكتشاف اقمار المشتري بادواته وذلك لأنّ لكل شخص حقّ البحث في حدوده العلميّة ولا يمكنه أن يبدي وجهة النظر خارج ذلك الإطار نفياً واثباتاً. فكيف نعطي الحق للعلوم الطبيعيّة البحث فيما هو خارج عن الطبيعة رغم أنّ منطقة نفوذها محدودة بالطبيعة وآثارها وخواصها؟!

إنّ أقصىٰ ما يثبت للعالِم الطبيعي من حقّه هو أن يقول: أنا أختار السكوت بالنسبة إلى ماوراء الطبيعة لأنّه خارج عن حدود دراستي واداة عملي لا أن ينكر ذلك و كما يقول «اجوست كونت» أحد واضعي أسس الفلسفة الحسيّة في كتاب «كلمات حول الفلسفة الحسيّة»: «بما أننا نجهل بداية الموجودات ونهايتها فلا يمكننا أنكار وجود موجود سابق أو لاحق كما لا يمكننا اثباته (تأمّلوا) والخلاصة إنّ الفلسفة الحسيّة بسبب جهلها المطلق في هذا القسم تمتنع عن ابداء أي رأي، وهكذا العلوم الفرعيّة والتي هي أساس الفلسفة الحسيّة عليها أن تحترز عن الحكم حول بداية الموجودات ونهايتها، أي لا ننكر علم الله وحكمته ووجوده ونحافظ على حياديتنا بين النفي والإثبات».

وهذا هو مقصودنا حيث إن عالم ماوراء الطبيعة لا يمكن مشاهدته عبر نافذة

العلوم الطبيعيّة وما يراد اثباته بالأدوات والاسباب الطبيعيّة لا يعتبر إلها من وجهة نظر الإلهيين لأنّ ما تثبته الأسباب الطبيعيّة لا يتعدّىٰ حدود المادّة وخواصها فكيف يمكن اعتبار ماهو مادي وطبيعي خالقاً للمادة والطبيعة؟

إن أساس عقائد الإلهيين هو أنّ الله منزّه من المادّة وعوارضها بصورة كاملة ولا يدرك بأيّة أداة من الأدوات الماديّة. إذن لا يمكن تصوّر مشاهدة خالق الموجودات تحت المجهر أو خلف تلسكوب في أعماق السماء، إنّه تصور غير صحيح ولا مجال له.

٢ ـ آياته

إنّ الطريق إلى معرفة كلّ موجود في العالم، آثاره عادة. ويمكن أن نعرف أي موجود عبر أثره فقط وهو ما نلاحظه في الموجودات التي تدرك بالعين والحواس الاخرىٰ أيضاً فهي قد عرفناها من خلال الآثار (تأمّلوا).

لأنّ أي موجود لا يدخل في حيّز الفكر ومن المحال أن يكون المخ ظرفاً للموجودات.

فعلىٰ سبيل المثال: إذا أردتم تشخيص جسم ما و إداركه فلا بدّ في البداية من وضع توجيه البصر نحو الجهة التي يحتمل وجوده فيها، فيشع النور عليه وتخرج من العين أشعة نورانيّة تنعكس علىٰ نقطة خاصّة تعرف بالشبكيّة فتستقبلها اعصاب البصر وتوصلها إلى المخ فيدركها الإنسان.

واذا كان عن طريق اللمس فإنّ الأعصاب الواقعة تحت الجلد ترسل معلومات إلى المخ إثر التماس الحاصل فيدركه الإنسان.

فادراك جسم يتحقق نتيجة لأثره (اللون، الشكل، التأثير على اللامسة) ولا يمكن أن يحلّ بنفسه في المخ، فاذا لم يكن هناك لون أو أعصاب لما تسنّىٰ ادراكه أو التعرّف عليه أبداً.

ولا بدّ أن نضيف أن معرفة موجود ما يكفي فيه وجود أثر واحد فاذا أردنا أن نعلم أنّ هناك نقطة من الأرض كانت آهلة بالسكان قبل عشرات الآلاف من السنين وأنها كانت بهذا الشكل أو ذاك يمكن الاقتصار على اكتشاف كوز فخاري أو سلاح متصدء تحت الأرض ليقوموا بدراسات واسعة على هذا الأثر والتوصل إلى أوضاع ونمط حياة وفكر و... تلك الأقوام.

فاذا كان كلّ موجود مادياً كان أم غيره لا بدّ من معرفته بأثره وأن وجود أثـر واحد يكفي في هذه المعرفة أفلا يكفي كلّ هذه الموجودات المـملوءة بـالاسرار والدقائق العجيبة التي يعجّ بها عالم الوجود باسره، لمعرفة الله؟

إنّكم تكتفون بأثر لمعرفة موجود ما و تتوصلون من خلال فخار إلى جانب من حالات أناس قبل آلاف السنين على الأقل بينما هناك آثار وموجودات لا نهاية لها، ونظم لا حدّ له لمعرفة الله؟!

إنّ كلّ زاوية من العالم تنظرون إليها تشاهدون آية من قدرته وعلمه ومع كلّ ذلك تقولون لم نر بأعيننا ولم نسمع بآذاننا لأنّنا لم نشاهد ذلك عبر مبضع التشريح أو خلف التلسكوب هل انّ العين لا بدّ منها في كلّ شيء؟

٣ ـ ما نراه و ما لا نراه

لقد منحتنا العلوم الماديّة ولحسن الحظ أفضل الأدوات لنفي العـقيدة المـاديّة والإلحاد.

فربّما كان بامكان العالم سابقاً أن يقول: لا أقبل ما لا تدركه الحواس ولكن ثبت الآن تطور العلم إنّ الموجودات التي لا يمكن احساسها في العالم هي أكثر بكثير مما أدرك حتى هذا الوقت فهناك موجودات في قلب الطبيعة لا تدرك بأيّة حاسّة والموجودات المدركة التي تقابلها هي من القلّة بحكم العدم! فعلىٰ سـبيل المـثال نشير إلى عدّة نماذج:

١ ـ يقولون في الفيزياء: إن أصل الألوان سبعة فقط أولها الأحمر وآخرها البنفسجي ولكن ما ورائها آلاف الألوان التي لا يمكننا ادراكها ويحدسون بأنّ بعض الحيوانات بامكانها مشاهدة بعضها.

إنّ سبب هذا الأمر واضح وذلك لأنّ اللون انّما يوجد إثر أمواج النور أي أنّ نور الشمس أو الأنوار الاخرىٰ مركّبة من ألوان مختلفة تكوّن بمجموعها اللون الأبيض واذا أشرقت على جسم هضم قساماً من ألوانها وردّ البعض منها وما نراه انّما هو المردود ولذا ليس للأجسام لون في الظلام كما أنّ اختلاف الألوان وتغييرها نتيجة شدّة ارتعاش امواج النور وضعفه أي أنّ شدة الإرتعاش إذا بلغ في الثانية إلى ٤٥٨ ألف مليارد كوّن اللون الأحمر و إلى ٧٢٧ الف مليارد حصل اللون الأحمر و اما ما دون ذلك و فوقه فهناك ألوان كثيرة لا يمكننا إدراكها.

٢ ـ إننا ندرك أمواج الصوت إذا كانت ما بين ١٦ مرّة و حتى ٢٠٠٠٠ في الثانية وأما ما زاد أو نقص عما ذكر لا ندركه.

٣ ـ إنّ ما نحسه من أمواج ارتعاشات النور إذا كان بين ٤٥٨ الف مليار و ٧٢٧ ألف مليار و غير ذلك لا يمكن أن يرىٰ مهما كان في الفضاء من امواج وارتعاشات.

٤ ـ اننا نعلم جميعاً بأنّ الفيروسات والبكتريا أكثر من الإنسان عدّة مرّات ولا يمكن مشاهدتها بالعين غير المسلّحة وربما كانت هناك مخلوقات أصغر من ذلك لم يتوصل إليها العلم حتى الآن.

٥ ـ انّ الذرة بتركيبتها الخاصّة ودوران الالكترونات حول البروتونات والطاقة العظيمة الكامنة فيها لا يدركها الحس رغم أنّ جميع الأجسام وموجودات عالم الطبيعة تتكوّن من الذرّة. و ذرّة الغبار التي نشاهدها بصعوبة في الهواء قوامها مئات الآلاف من الذرّات. ولم يكن كلام العلماء سابقاً حول الذرّة يتعدّىٰ حدود الفرضيّة

في الوقت الذي لم ينكر كلامهم أحد[1].

وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبار عدم الإحساس بشيء دليل على عدم وجوده أبداً فهناك الكثير من الأشياء غير المحسوسة التي تملأ الدنيا دون أن تدركها حواسنا فكما أنّ الذرّة أو الموجودات الصغيرة جداً لم يكن من حق أحد انكارها قبل اكتشافها وربما كان الكثير من الموجودات الأخرىٰ خافية علينا ولم يوفق العلم حتى الآن لأكتشافها ولكنه قد يميط عنها اللثام في المستقبل فلا يسمح لنا العقل والوجدان في مثل هذا الظروف (ضيق افق العلم وعجزه عن ادراكها) بابداء الرأي نفياً أو اثباتاً.

والخلاصة انّ دائرة الحواس والادوات الطبيعيّة محدودة ولايمكن قصر العالم عليها[2]

---

١ ـ انّ من الأمور غير المحسوسة والتي لا تخفىٰ حقيقتها على أحد من العلماء، الحركات المختلفة التي تتصف بها كرتنا التي نسكنها أي الكرة الارضيّة ومن جملتها «الجزر والمد» الذي يطرأ على سطح الأرض وإثر ذلك ترتفع الطبقة العليا من الأرض ٣٠ سانتيمتراً مرتين في كلّ يوم وليس هناك علامة تدلنا على وجود هذه الحركة (الجزر والمد).

ومن الأمور الاخرىٰ الهواء الذي يحيط بنا والذي له ثقل ووزن كبيرين جداً بحيث يتحمّل بدن الإنسان ١٦ ألف كيلو غرام منه وهو يعيش تحت ضغط عجيب بصورة مستمرة ولكن بما أنّ هذا الضغط يتبدد أمام الضغط الداخلي للبدن فلا يؤدي إلى عدم ارتياحنا بينما ليس هناك من يتصور أنّ الهواء له وزن وثقل وقد كان هذا الموضوع خافٍ على الجميع قبل غاليلو أو باسكال وهو ما يؤيده العلم الآن ولكن الحواس لا تدركه ومن الأمور غير المحسوسة التي يعترف بها الكثير من العلماء الطبيعيين هي الأثير إذ يعتقد السادة بأنّه يشمل كل مكان و كافّة الأشياء ويرى البعض انّه أصل جميع الموجودات ويصرحون بأنّه موجود لا وزن له ولا رائحة ولا لون و... وأنّه بين سائر الكواكب ويملأ كلّ مكان وقد نفذ في داخل كافّة الأشياء ولكنه لا يدرك بالنسبة لنا.

٢ ـ وتأييداً لهذا الأمر نذكر جمل من كلام «كاميل فلا ماريون» في كتاب «اسرار الموت» حيث يقول:

⇦

لا يشتبه الأمر فإننا لسنا نريد أن ندّعي بأنّ عالم ما وراء الطبيعة من الممكن أن يكتشف بالوسائل والادوات الطبيعيّة يوماً ما وذلك كالالكترونات والبروتونات أو بعض الألوان وأمثالها والتي اكتشفت بالوسائل العلميّة، وسوف تكتشف مجهولات جديدة نتيجة لتطوّر العلوم! كلا، إن هذا أمر غير ممكن لأنّه وكما قلنا إنّ ما وراء الطبيعة والمادّة لايمكن ادراكه من طرق ماديّة و طبيعيّة وهو خارج بشكل عام عن دائرة عمل الاسباب الماديّة

والمقصود كما أنّ إنكار هذه الموجودات قبل اكتشافها ودركها لم يكن مسموحاً به لنا ولم يحق لنا اعتبار عدمها أمراً مسلماً وذلك لأننّا لا ندركها وان الاسباب الطبيعيّة لم تكشف النقاب عنها و أن العلم لم يثبتها، فكذلك الأمر بالنسبة

⇦«لقد كان الناس يعيشون في وادي الجهل وغياب العلم فلم يكونوا يعلمون بأنّ التركيب البدني للإنسان لا يمكنه أن يهديه إلى الحقائق وأن الحواس الخمسة تخدعه في كلّ شيء والشيء الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى الحقائق انّما هو العقل والفكر والدقة العلميّة»! ثمّ يبدأ بذكر الأمور التي تعجز الحواس عن إدراكها ليثبت ضيق أفق كل حاسّة ليقول: «والنتيجة إذن هي انّ عقلنا و علمنا اليوم يقطعان بأنّ قسماً من حركة الذرات والهواء والأشياء والقوىٰ الموجودة لا نراها ولا يمكننا أن نشعر بها بالحواس الخمس. و علىٰ هذا الاساس فمن الممكن ان تكون في اطرافنا اشياء اخرىٰ غير هذه و ان توجد موجودات حيّة لا نحس بها. أنا لا أقول هي موجودة وإنّما من الممكن أن تكون. لأن نتيجة البيانات السابقة هي أنّنا لا يمكن أن ننكر ما لا نحس به اذن حينما يثبت لدينا الدليل العلمي بأن هذه الحواس الظاهرة ليس لديها القابليّة في كشف جميع الموجودات لنا بل ربما خدعتنا وقدمت لدينا ما هو خلاف الواقع و لا يمكن أن نتصور أن جميع حقائق الموجودات تنحصر فيما نحس به و انما علينا ان نعتقد خلافه ونقول من الممكن وجود اشياء لا نستطيع أن نحسّها و كما هو الحال بالنسبة إلى المكروب قبل اكتشافه فلم يكن هناك من يتصور أن ملايين المكروبات تقع في أطراف كل جسم و أنّه ساحة لحركتها. والنتيجة أن هذه الحواس الظاهرة ليس لديها القابليّة لتكشف لنا عن واقع الموجودات وحقيقتها وليس هناك سوىٰ العقل و الفكر الذي يمكن أن يوضح الدقائق بصورة كاملة.

من كتاب «علىٰ اطلال المذهب المادي» تأليف فريد وجدي مجلد ٤

إلى ما وراء الطبيعة فلا يمكن نفيها. فعلينا إذن ترك هذا المنهج الخاطىء ودراسة أدلة الإلهيين العقليّة بدقّة وابداء الرأي فيما بعده و من المسلّم أنّ النتيجة ستكون ايجابيّة[١].

١ ـ آفريدگار جهان (خالق العالم) مجموعة ابحاث آية الله العظمىٰ مكارم الشيرازي ص ٢٤٨ .

٦

ما هو توحيد الذات، الصفات، الأفعال والعبادة؟

☑ ١ ـ المفهوم الدقيق لتوحيد الذات

يقول كثير من الناس: إن معنىٰ توحيد الذات هو أن الله واحد وليس اثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد في الرواية عن امير المؤمنين عليه السلام لأن مفهومها الواحد العددي (اي أن يتصور الثاني لله عزوجل ولكن لا وجود خارجي له) ومن المسلّم ان هذا كلام غير صحيح، والصحيح هو أن يقال: إن توحيد الذات هو أن الله واحد ولا يتصور له الثاني، وبعبارة اخرىٰ: ان الله لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يشبهه شيء ولا هو يشبه شيئاً لان هذا الوجود اللامتناهي الكامل هو الذي يتصف بهذه الصفة.

ولذا نقرأ في حديث عن الامام الصادق عليه السلام حينما سأل أحد أصحابه: **أي شيء الله أكبر؟** فاجاب: الله اكبر من كل شيء. ثم قال الامام عليه السلام: **فكان ثَمَّ شيء فيكون أكبر منه؟!** فقال: فما هو (ما المراد من هذه الكلمة)؟ فاجاب عليه السلام: **الله اكبر من أن يوصف**[1].

١ ـ معاني الاخبار للصدوق: ص ٧ الحديث ١.

٢ـ مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول: إن توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإن مفهومه هو: كما أن ذات الله عزوجل ازلية وابدية فإن صفاته كالعلم والقدرة وامثالها ازلية وابدية ايضاً، هذا من جهة، ومن جهة اخرىٰ، هذه الصفات ليست زائدة علىٰ ذاته فلا يوجد فيها عارض ومعروض بل هي عين ذاته.

ومن جهة ثالثة لا تفصل الصفات عن بعضها، أي أن علمه وقدرته شيء واحد والاثنان عين ذاته!

بيان: عندما نراجع انفسنا نرىٰ أننا كنّا نفقد الكثير من الصفات، فلم نملك حين الولادة علماً ولا قدرة، ولكن هذه الصفات نمت فينا تدريجياً، ولذا نقول: إن هذه امور زائدة علىٰ ذواتنا، ولذا يمكن أن يمر بنا اليوم الذي نفقد فيه القوة العضلية والعلوم والافكار التي نملكها ونرىٰ بوضوح ايضاً إن علمنا وقدرتنا منفصلتان، فالقدرة الجسمية في عضلاتنا ولكن العلم موجود في الروح!

ولا يتصور في الله أي معنى من هذه المعاني، فذاته كلها علم وقدرة وكل شيء في ذاته واحد، ونسلّم طبعاً بأن تصور هذه المعاني ـ بالنسبة لنا نظراً لفقداننا لهذه الصفة ـ معقد وغير مألوف ولا سبيل اليه إلّا قوة المنطق والاستدلال الدقيق واللطيف.[١]

٣ـ التوحيد الأفعالي:

ويعني أن كلّ وجود وكلّ حركة وكلّ فعل في العالم يعود إلى ذاته المقدّسة، فهو مسبب الأسباب وعلة العلل. حتى الأفعال التي تصدر منّا هي في أحد المعاني صادرة عنه. فهو الذي منحنا القدرة والإختيار وحرية الإرادة. ومع أنّنا نفعل الأفعال

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٣ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

بأنفسنا، وأنّنا مسؤولون تجاهها. فالفاعل من جهة هو اللّه سبحانه لأنّ كلّ ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثر في الوجود إلّا اللّه).

٤ ـ التوحيد في العبادة:

أي تجب عبادته وحده دون سواه، ولا يستحق العبادة غيره. لأنّ العبادة يجب أن تكون لمن هو كمال مطلق. ومطلق الكمال، لمن هو غني عن الآخرين، ولمن هو واهب النعم وخالق كلّ الموجودات وهذه صفات لا تجتمع إلّا في ذات اللّه سبحانه.

الهدف الأصلي للعبادة هو الإقتراب من ذلك الكمال المطلق، والوجود اللامتناهي، هو السعي لإنارة النفس بقبس من صفات كماله وجماله... وينتج عن ذلك الإبتعاد عن الأهواء والشهوات والإتجاه نحو بناء النفس وتهذيبها.

هذا الهدف لا يتحقق إلّا بعبادة اللّه، وهو الكمال المطلق.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل، ٢٠ / ١٥٥ ـ ١٥٦.

٧

كيف يكون الدين فطريّاً؟

☑ مفهوم الفطرة هو ادراك الحقائق من دون الحاجة الىٰ أي استدلال (معقد أو بسيط) ويتفهمها بوضوح ويتقبّلها، فهو حينما يشاهد ـ مثلاً ـ باقة من الورد الجميل ذات عطر زكيّ يقر بجمالها، دونما حاجة الىٰ اقامة الدليل ابداً، ويقول بأنها جميلة حقاً ولا تحتاج الىٰ دليل.

والفهم الفطري في مجال المعرفة الالهية من هذا القبيل، فالانسان حينما يتدبر من اعماق روحه يبصر نور الحق ويسمع نداءه بقلبهِ، يدعوه الىٰ مبدأ العلم والقدرة التي لا مثيل لها في عالم الوجود، مبدأ هو الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو في هذا الفهم الوجداني ـ كما في جمال الورد ـ لا يشعر بحاجة الىٰ اقامة الدليل .

شواهد حيّة علىٰ فطرية الايمان بالله

ربمّا يقال بأن هذه كلها ادعاءات ولا سبيل لإثبات مثل هذه الفطرة في المعرفة الالهية، فمن الممكن أن أدعي بأني اشعر بهذا الاحساس في قلبي أي من أعماق روحي، ولكن كيف اقنع شخصاً يرفض هذا الكلام؟ لدينا شواهد كثيرة بـامكانها

اثبات فطرية المعرفة الالهية بشكل واضح جداً، بنحو يفحم المنكرين، ويمكن تلخيصها في اقسام خمسة:

أ-القضايا التاريخية:

إن القضايا التاريخية التي تمت دراستها من قِبَل اقدم المؤرخين في العالم تدل علىٰ عدم وجود دين لدىٰ الاقوام السابقة، بل كان كل قوم يؤمنون بمبدأ العلم والقدرة في عالم الوجود ويعبدونه، ولو اقررنا بحالات الاستثناء النادرة في هذا الأمر، فإن هذه القضية لا تضر بالاصل العام الذي يحكم بأن المجتمعات البشرية كلها كانت دائماً علىٰ طريق عبادة الله (كل قاعدة كلية لها استثناءات نادرة).

المؤرخ الغربي الشهير (ويل دورانت)في كتابه (تاريخ الحضارة) يُقر بهذه الحقيقة بعد الاشارة الىٰ بعض الموارد في الالحاد الديني ويقول: «الىٰ جانب هذه القضايا التي ذكرناها فان الالحاد الديني من الحالات النادرة، وهذا الاعتقاد القديم بأن التدين حالة بشرية عامة يتطابق مع الحقيقة...».

«تعتبر هذه القضية من القضايا التاريخية والنفسية الاساسية لدىٰ الفيلسوف، فهو لا يذعن بأن الاديان مملوءة باللغو والباطل بل يلتفت الىٰ هذه الحقيقة وهي أنّ الدين كان مع التاريخ منذ اقدم العصور»[1].

ويقول في تعبير آخر بهذا الشأن: «أين تكمن التقوىٰ التي لا تفارق قلب الانسان ابداً؟»[2].

كما يقول في كتابه (دروس التاريخ) وبتعبير ساخط ومتألم: «للدين مائة روح،

---

١ ـ تاريخ الحضارة ـ ويل دورانت: ج ١، ص ٨٧.

٢ ـ تاريخ الحضارة ـ ويل دورانت: ج ١ ص ٨٩.

كلما تقتله فإنه يسترجع الحياة مرة اخرىٰ!»[١].

ولو كان الايمان بالله والدين ناشئاً عن تقليد أو تلقين أو دعاية من قبل الآخرين لما كان عاماً وشاملاً بهذا الحجم ولما استمر طيلة التاريخ. وهذا افضل دليل علىٰ أنه امر فطري.

ب ـ الآثار التاريخية:

إنَّ الآثار المتبقية من العصور التي سبقت التاريخ (أي ما قبل اختراع الخط وكتابة احوال الانسان) تدل علىٰ أن البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون بالدين ويؤمنون بالله والمعاد والحياة بعد الموت، بدليل أنهم كانوا يدفنون الاشياء التي يحبونها معهم كي يستفيدوا منها بعد الموت! كما أن تحنيط اجساد الاموات حفظاً لها من الاندثار، وبناء المقابر نظير (أهرام مصر) لتبقىٰ ازماناً متمادية دليل علىٰ ايمان الاسلاف بالمبدأ والمعاد.

صحيح أن هذه الاعمال تدل علىٰ اقتران ايمانهم الديني بخرافات كثيرة إلّا أنها دليل علىٰ أن الايمان الديني في المراحل التي سبقت التاريخ لايمكن انكاره.

جـ ـ الدراسات النفسية ومكتشفات علماء النفس:

إن الابعاد الروحية للانسان وميوله الاساسية هي ايضاً دليل واضح علىٰ فطرية العقائد الدينية. وهي اربعة ميول سامية واصيلة عبرّ عنها بعض علماء النفس بأنها الابعاد الاربعة لروح الانسان وتشمل: (١ـ حبّ العلم، ٢ـ حب الجمال، ٣ـ حب الخير، ٤ـ حب الدين) وتمثل شاهداً حياً علىٰ هذا الامر[٢].

---

١ ـ الفطرة للشهيد المطهري: ص ١٥٣.

٢ ـ راجع مقالة (كوونتايم) في كتاب (الحس الديني أو البعد الرابع لروح الانسان).

البعد الرابع لروح الانسان والمعبّر عنه احياناً بالميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدس والالهي هو الذي يدفع الانسان نحو الدين، وهو يؤمن بوجود ذلك المُبديء العظيم بدون حاجة الىٰ دليل خاص، ويمكن أن يقترن هذا الايمان الديني بالوان من الخرافات وينتهي بعبادة الاصنام والشمس والقمر، غير أن بحثنا يدور حول الاساس فيه.

د ـ فشل الدعاية ضد الدّين:

نحن نعلم بأن الدعايات أشدّ شُنّت ضد الدين في القرون الاخيرة وخاصة في الغرب ولا نظير لها سعة واستخداماً للاجهزة المختلفة.

وكانت بداياتها في مرحلة النهضة العلمية في اوربا (رنسانس) وفيها تحررت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطغىٰ التيار المعارض للدين (كان الدين المسيحي هو السائد وقتئذٍ في اوربا) الىٰ درجة تُطرح فيها الافكار الملحدة في كل مكان واستغلّوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل خاص لرفض الاسس الدينية كلها حتىٰ فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة، وانعزل رجال الدين في اوربا واصبح الايمان بوجود الله والمعجزات والمعاد والكتب السماوية في عداد الخرافات.

وغدا من المسلمات لدىٰ كثير منهم أنَّ البشرية مرت بمراحل أربع هي (مرحلة الاساطير، مرحلة الدين، مرحلة الفلسفة، ومرحلة العلم) وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد انقرض في مرحلة سابقة!

والعجب أن كتب علم الاجتماع الحديثة التي تمثل الصورة المتكاملة لعلم الاجتماع السائد انذاك تفترض هذه القضية من المسلمات، وهي أن للدين عاملاً طبيعيا يتردد بين الجهل والخوف والمتطلبات الاجتماعية والامور الاقتصادية، فهناك اختلاف بصددها !

صحيح أن السلطة الدينية الحاكمة (أي الكنيسة) في القرون الوسطىٰ هي التي

يجب أن تدفع الغرامة بسبب تعندِها وظلمها وتعاملها السيّئ مع الناس بصورة عامة وعلماء الطبيعة بصورة خاصة. اضافة الىٰ اهتمام الكنيسة بالشكليات وبالامور التي لا تستحق الاهتمام ونسيان طبقات المجتمع. لكن العيب في هذا الأمر هو أن الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذاهب في العالم كلها.

وقد دخل (الشيوعيون) كغيرهم الميدان ليقضوا علىٰ الدين بكل ما يمتلكون من قوة، وسخّروا جميع الاجهزة الاعلامية وافكار فلاسفتهم من اجل ذلك وسَعَوْا سعيهم لاظهار الدين وكأنه افيون الشعوب!

بَيْد أنّا نشهد ان هذه التيارات العاتية ضد الدين لم توفق لاجتثاث الجذور الدينية المغروسة في القلوب والقضاء علىٰ النشاط الديني، وها نحن اليوم نرىٰ بأم اعيننا تفتّح الاحاسيس الدينية من جديد حتىٰ أنها انتشرت بصورة واسعة في البلدان الشيوعية، والاخبار التي تتناقلها وسائل الاعلام تحكي عن الرعب المتزايد الذي يعيشه الحكام في هذه المناطق ازاء الميول الدينية وخاصة الاسلامية. كما نلاحظ في الاقطار الشيوعية ـ التي تبذل محاولات يائسة وفاشلة للقضاء علىٰ الدين ـ ظهور حركات تطالب بانتشار الدين.

هذه الحقائق تدل بصورة واضحة علىٰ تجذر الدين في اعماق (الفطرة) البشرية، وبذلك استطاع أن يواجه التيارات الاعلامية المعارضة العاتية ولولاها لانقرض تماماً.

هـ ـ التجارب الشخصية في الأزمات:

إنَّ اغلب الناس جرّبوا هذه الحقيقة وهي: أن الانسان حينما يواجه مشكلات قاتلة، وشدائد الحياة الصعبة، ويُبتلىٰ بدوّامات البلاء وحينما توصد بوجهه الابواب ويبلغ السيل الزبىٰ، ففي هذه اللحظات المضطربة يورق أمل في اعماق روحه، يتوجه الىٰ المبدأ القادر علىٰ حل المشكلات كلها فيتعلق به ويستمد العون منه.

ولا يستثنىٰ من ذلك حتىٰ الاشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية في الظروف

الاعتيادية، حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرضهم للامراض الخطرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التي تتحدث عنها الآيات القرآنية حول فطرية المعرفة الالهية.

نعم، في زوايا قلب الانسان واعماق روحه نداء لطيف مليء بالرحمة وقوي وبيّن يدعوه الى الحقيقة الكبرى، وهي (الله) القادر والمتعالي والعالم، وبحثنا يدور حول الايمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها.

د ـ شهادة العلماء على فطرية الدين:

ليست قضية فطرة (معرفة الله) قضية مطروحة في القرآن الكريم والروايات الاسلامية فحسب، بل إن كلمات العلماء والفلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها:

فمثلاً، يقول اينشتاين في حديث طويل: «إن العقيدة والدين موجودان في الجميع دون استثناء... إني اسميه (الشعور الديني للخلق)... في هذا الدين يشعر الانسان الصغير بآمال واهداف البشرية العظيمة والجلال الكامن خلف هذه القضايا والظواهر، إنه يرى وجوده كسجن، وكأنه يريد التحرر من سجن الجسم ليدرك الوجود كله كحقيقة واحدة»[1].

ويقول العالم الشهير باسكال:

«للقلب ادلة لا يدركها العقل»[2].

ويقول ويليم جيمز:

«إني أقر تماماً بأن القلب هو المصدر للحياة الدينية، كما أُقر بأن القواعد

---

١ ـ العالم الذي اراه: (بتلخيص) ص ٥٣.

٢ ـ مسيرة الحكمة في اوربا: ٢ / ١٤.

الفلسفية تشابه موضوعاً مترجماً كُتب نصه بلغة اخرىٰ»[١].

ويقول ماكس مولر: «لقد خضع اسلافنا لله في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتىٰ علىٰ اطلاق اسم علىٰ الله»[٢].

وهو القائل في موضع آخر: «خلافاً لما تقوله النظرية الشهيرة بأن الدين ظهر اولاً بعبادة الطبيعة والاشياء والاصنام ثم وصل الىٰ عبادة الله الواحد. فلقد أثبت علم الآثار بأن عبادة الله الواحد كانت سائدة منذ اقدم الأيام»[٣].

ويقول المؤرخ الشهير (بلوتارك):

«لو لاحظتم العالم فإنكم ستجدون اماكن كثيرة لا عمران فيها ولا علم وصناعة وسياسة ودولة، ولكنكم لا تجدون موضعاً ليس فيه الله»[٤].

ويقول صموئيل كينغ في كتاب (علم الاجتماع): «كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب والرحالة والمبشرون (المسيحيون) الاوائل بذكر اسماء مجموعات لا تدين بدين أو مذهب، ولكن أقوالهم ـ كما عُلم فيما بعد ـ لم يكن لها اساس من الصحة فاحكامهم ناشئة فقط من ظنهم بأن اديان اولئك يجب أن تشابه ديننا»[٥].

ونختم هذا البحث بكلام لـ(ويل دورانت) المؤرخ المعاصر الشهير حيث قال: «إن لم نتصور للاديان جذوراً في عصر ما قبل التاريخ، فإننا لا يمكن ان نتعرف علىٰ حقيقتها في التاريخ»[٦].[٧]

---

١ ـ المصدر السابق: ص ٣٢١.

٢ ـ (مقدمة الدعاء): ص ٣١.

٣ ـ الفطرة للشهيد المطهري: ص ١٤٨.

٤ ـ (مقدمة الدعاء): ص ٣١.

٥ ـ علم الاجتماع لصموئيل كينغ: ص ١٩١.

٦ ـ تاريخ الحضارة: ١ / ٨٨.

٧ ـ نفحات القرآن ج ٣ ص ١١٦ ـ ١٢٤.



ما مفهوم «اللهُ حيٌّ» ؟

نقرأ في سورة البقرة الآية ٢٥٥ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هنا يثار سؤال وهو ما مفهوم «الله حيّ»؟

☑ في التعبير السائد نقول للكائن أنّه حيٌّ إذا كان يتّصف بـالنموّ والتـغذية والتكاثر والجذب والدفع، وقد يتّصف بالحسّ والحركة. ولكن لابدّ من الإنتباه إلى أنّ بعضاً من السذّج قد يحسبون حياة الله شبيهة بهذه، مع علمنا بأنّه لا يتّصف بأيّة واحدة من هذه الصفات. هذا هو القياس الذي يوقع الإنسان في أخطاء في حـقل معرفه الله، حين يقيس صفات الله بصفاته.

«الحياة» بمعناها الواسع الحقيقي هي العلم والقدرة، وعليه فإنّ من يملك العلم والقدرة اللامتناهيتين يملك الحياة الكاملة.

حياة الله هي مجموعة علمه وقدرته، وفي الواقع بالعلم والقدرة يمكن التمييز بين

الحيّ وغير الحيّ. أمّا النموّ والحركة والتغذية والتكاثر فهي صفات كائنات ناقصة ومحدودة، فهي تكمل نقصها بالتغذية والتكاثر والحركة، أمّا الذي لا نقص فيه فلا يمكن أن يتّصف بمثل هذه الصفات[١].

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/٢٤٤.

٩

ماهو الفساد الذي يترتب على القول بتعدد الآلهة إذا كانوا حكماء؟

نقرأ في سورة الأنبياء الآية ٢٢ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وهنا يُثار سؤال وهو: إنّ تعدّد الآلهة يكون منشأ للفساد عندما يحارب أحدها الآخر، أمّا إذا اعتقدنا بأنّ هؤلاء أفراد حكماء عالمون، فإنّهم يتعاونون فيما بينهم ويديرون العالم.

☑ وجواب هذا السؤال لا لَبْسَ فيه: فإنّ كونهم حكماء لا يزيل تعدّدهم، فعندما نقول: إنّهم متعدّدون، فإنّ معناه إنّهم ليسوا متحدّين من جميع الجهات، لأنّهم إن اتّحدوا من كلّ الجوانب أصبحوا إلهاً واحداً، وبناءً على ذلك فأينما وجد التعدّد وجد الإختلاف الذي يؤثّر في الإدارة والعمل شئنا أم أبينا، وهذا سيجرّ عالم الوجود إلى الهرج والمرج.

وقد استُنِد في بعض هذه الإستدلالات إلى أنّه لو كان هناك إرادتان حاكمتان على الخلق، لما كان هناك عالم أصلاً. في حين أنّ هذه الآية تتحدّث عن فساد العالم وإختلال النظام، لا عن عدم وجود العالم.

ومن اللطيف أن نقرأ في حديث يرويه هشام بن الحكم عن الإمام الصادقعليه السلام

في جواب الرجل الملحد الذي كان يتحدّث عن تعدّد الآلهة، أنّه قال: «لا يخلو قولك أنّهما إثنان من أن يكونا قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويّاً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويّين فلِمَ لا يدفع كلّ واحد منهما صاحبه وينفرد بالتدبير، وإن زعمت أنّ أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنّه واحد كما تقول، للعجز الظاهر في الثّاني، وإن قلت: إنّهما إثنان، لا يخلو من أن يكونا متّفقين من كلّ جهة أو متفرّقين من كلّ جهة، فلمّا رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، وإختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر، دلّ صحّة الأمر والتدبير وإئتلاف الأمر أنّ المدبّر واحد.

ثمّ يلزمك إن ادّعيت إثنين فلابدّ من فرجة بينهما حتّى يكونا إثنين، فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما فيلزمك ثلاثة، فإن ادّعيت ثلاثة لزمك ما قلنا في الإثنين حتّى يكون بينهما فرجتان فيكون خمساً، ثمّ يتناهى في العدد إلى ما لا نهاية في الكثرة»[١].

إنّ بداية هذا الحديث إشارة إلى برهان التمانع، ونهايته إشارة إلى برهان آخر يسمّى بـ (برهان الفرجة).

وفي حديث آخر: إنّ هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما الدليل على أنّ الله واحد؟ قال: «اتّصال التدبير، وتمام الصنع، كما قال الله عزّوجلّ: لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا»[٢][٣].

---

١ ـ التوحيد، «للصدوق» كما ورد في تفسير نور الثقلين، الجزء٣، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٠/١٤٦.

١٠

ماهو المقصود من لقاء الله؟

☑ التعبير بـ«لقاء الله» أو «لقاء الرب» قد ورد في آيات متعدّدة في القرآن المجيد.

وهذا التعبير معنىً عميق جداً، رغم ان عدداً من المفسرين قد مرّوا عليه مرور الكرام.

فقالوا حيناً إن المراد من «لقاء الله» ملاقاة ملائكة الله في يوم القيامة. وقالوا حيناً آخر إن المراد هو تلقي حسابه وجزاءه وثوابه.

وقالوا حيناً ثالثاً إنه بمعنىٰ ملاقاة حكمه وأمره.

وعلىٰ هذا الترتيب فإن كل واحد منهم جاء بكلمة لتقدير المعنىٰ مع اننا نعلم بأن التقدير خلاف الاصل وما لم يتوفر الدليل علىٰ التقدير فلا يجب الاخذ به.

مما لا شك فيه ان ملاقاة الربّ ليست حسيّة، وذلك لأن الملاقاة الحسيّة تصدق في موارد الجسم الذي له مكان وزمان ولون وكيفيات أُخرىٰ، علىٰ نحوٍ يمكن مشاهدتها بواسطة العين.

بل المراد هو المشاهدة الباطنية والملاقاة الروحية والمعنوية مع الله، وذلك لأن

الحُجُب نُرفع يوم القيامة، وتظهر آيات الله في المحشر وجميع مشاهد ومـواقـف القيامة بنحوٍ يجعل الكافرين ايضاً يشاهدون الله ويـلاقونه بـبصائر القـلوب! (وإن كانت تلك اللقاءات متفاوتة كيفياً).

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: «ينبيء أنه تعالىٰ هو الحق لا سترة عليه بوجه من الوجوه ولا علىٰ تقدير من التقادير فهو أبده البديهيات التي لايتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالىٰ هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين. كما جاء في الآية (٢٥) من سورة النور: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [١].

وفي حديث طويل أتىٰ رجل الىٰ الامام علي امير المؤمنين عليه السلام وقال: حصل لي شك في القرآن المجيد!

قال له الامام عليه السلام: وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟

قال: اني وجدت الكتاب يكذِّبُ بـعضهُ بـعضاً... ثـم قـال بـعد طـرحـه عـدَّة اشكالات: يقول القرآن الكريم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ويقول في موضع آخر ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

فقال له الإمام عليه السلام: «اللقاء هنا ليس بالرُّؤية، بل اللِّقاءُ هنا بمعنىٰ البعث فـافهَمْ جميع ما في كتاب الله في لقائهِ فانَّهُ يَعني بذلك البعث» [٢].

وفي الحقيقة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يفسّر مسألة لقاء الله تعالى بشيء يكون الله تعالى من لوازمه، أجل. فيوم القيامة يوم زوال الحجب وظهور آيات الحـق جـلّ وعلا، وتجلّيه للقلوب، ومن تعبير الامام عليه السلام هذا، يدرك كل شخص ما المقصود منه

---

١ ـ تفسير الميزان: الجزء ١٥ الصفحة ٩٥ وج ١٠ الصفحة ٦٩.

٢ ـ توحيد الصدوق الصفحة ٢٦٧ (مع التلخيص).

كلّ حسب أستعداده واختلاف مستواه، وكما قلنا سابقاً أنّ الشهود الباطني لاولياء الله يوم القيامة يختلف كثيراً عن شهود الافراد العاديين.[١]

وللفخر الرازي في تفسيره هنا بيان جميل يمكن جمعه مع ما قلناه، فهو يقول: إنّ الإنسان يغفل في هذه الدنيا عن الله غالباً نتيجة لغرقه في الأُمور المادية، والسعي لتحصيل المعاش، إلّا أنّه يتوجّه يوم القيامة بكلّ وجوده إلى ربّ العالمين، لأنّ كلّ هذه المشاغل الفكرية ستزول، وهذا هو معنى لقاء الله[٢][٣].

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس في هذه الدنيا. وفي «نهج البلاغة» نقرأ: أن «ذعلب اليماني» وهو من فضلاء أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، سأل علياً **هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ**؟

أجابه علي: **أَفَأَعْبُدُ مَا لاَ أَرى**؟!

وحين طلب ذعلب مزيداً من التوضيح قال الإمام:

«**لاَ تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ**»[٤].

هذا الشهود الباطني ينجلي للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد إلّا وقد آمن إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمة الله وقدرته في ذلك اليوم[٥].

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٥ ص ٣٣ ـ ٣٥.

٢ ـ التّفسير الكبير للفخر الرازي ذيل الآية مورد البحث.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٣/٢٩٣.

٤ ـ نهج البلاغه، الكلام ١٧٩.

٥ ـ تفسير الأمثل: ١/١٩٤.

١١

ما معنى «وجه الله»؟

☑ «وجه» بالإضافة إلى معناها المعروف قد تستعمل بـمعنى ذات، وعـندئذٍ ﴿وجه الله﴾ تعني ذات الله التي يجب أن يتوجّه إليها المنفقون في إنفاقهم، وعليه فإنّ ورود كلمة «وجه» في هذه الآية وفي غيرها إنّما يقصد به التوكيد، فمن الواضح أنّ قولنا «لوجه الله» أو «لذات الله» أكثر تأكيداً من قولنا «لله». فيكون المعنى أنّ الإنفاق لله حتماً لا لغير الله.

ثمَّ إنَّ الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهرة، ففيه أهمّ أعضاء الإنسـان كالبصر والسمع والنطق. ولهذا حيثما استعملت كلمة «الوجه» كان القـصد إيـصال معاني الشرف والأهميّة، واستعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الإحترام والأهميّة، وإلّا فإنّ الله منزّه عن الصورة الجسدية[١].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/٣٢٧.

١٢

ماهو المقصود من «ثار الله»؟

☑ يقول بعض المسيحيين ـ أحياناً ـ إنّها حين يسمّون المسيح عليه السلام بـ«ابن الله» إنّما يفعلون ذلك كما يفعل المسلمون في تسمية سبط الرّسول صلى الله عليه وآله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام بـ«ثار الله وابن ثاره» أو كالتسمية التي وردت في بعض الروايات لعلي بن أبي طالب عليه السلام حيث سمى فيها بـ«يدالله»، وهؤلاء المسيحيون يفسرون كلمة «ثار» بأنّها تعني الدم، أي أنّ العبارة الواردة في الحسين الشهيد عليه السلام تعني «دم الله وابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عين الخطأ:

أوّلاً: لأنّ العرب لم تطلق كلمة الثأر أبداً لتعني بها الدم، بل اعتبرت الثأر دائماً ثمناً للدم، ولذلك فإن معنى العبارة أن الله هو الذي يأخذ ثمن دم الحسين الشهيد، وأن هذا الأمر منوط به سبحانه وتعالى، أي أنّ الحسين عليه السلام لم يكن ملكاً أو تابعاً لعشيرة أو قبيلة معينة لتطالب بدمه، بل هو يخص العالم والبشرية جمعاء ويكون تابعاً لعالم الوجود وذات الله المقدسة، ولذلك فإن الله هو الذي يطالب ويأخذ ثمن دم هذا الشهيد ـ كما أن الحسين هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي استشهد في

سبيل الله، والله هو الذي يطالب ويأخذ ثمن دمه أيضاً.

وثانياً: حين يعبّر في بعض الأحيان عن بعض أولياء الله بعبارة «يد الله» فإن هذا التعبير ـ حتماً ـ من باب التشبيه والكناية والمجاز ليس إلّا.

فهل يجيز أي مسيحي لنفسه أن يقال في عبارة «ابن الله» الواردة عندهم في حق المسيحعليه السلام أنّها ضرب من المجاز والكناية؟ بديهي أنّه لا يقبل ذلك، لأنّ المصادر المسيحية الأصلية اعتبرت صفة البنوة لله سبحانه منحصرة بالمسيحعليه السلام وحده وليس في غيره، واعتبروا تلك الصفة حقيقية لا مجازية، وما بادر إليه بعض المسيحيين من الإدعاء بأن هذه الصفة هي من باب الكناية أو المجاز، إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

ولإيضاح هذا الأمر نحيل القاري إلى كتاب «القاموس المقدس» في مادة «الله» حيث يقول هذا الكتاب بأنّ عبارة «ابن الله» هي واحدة من القاب منجي ومخلص وفادي المسيحيين، وأن هذا اللقب لا يطلق على أي شخص آخر إلّا إذا وجدت قرائن تبيّن بأنّ المقصود هو ليس الابن الحقيقي لله[1].[2]

---

١ ـ القاموس المقدس، طبعة بيروت، ص ٣٤٥.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣/٥٥٥.

١٣

ما معنىٰ كون الله سميعاً بصيراً؟

☑ إنَّ جميع علماء الإسلام يذكرون الله تعالىٰ بصفات «السميع» و«البصير»، وذلك لتكرر هذه الصفات في القرآن الكريم.

ولكنهم اختلفوا في تأويلهما.

اعتقد المحققون بأن كون الله سميعاً وبصيراً لا يتعدىٰ احاطته وعلمه بالمسموعات والمبصرات، ولأن لهاتين الكلمتين مفهومان يستعملان للتعبير عن قوة سمعنا وبصرنا، فلذلك يتبادر الىٰ الذهن عضوا الأذن والعين، ولكن من البديهي أنهما عندما تُستعملان لوصف الباري سبحانه وتعالىٰ تتجّردان عن مفاهيم الآلات والأدوات والأعضاء الجسمانية، لأن ذاته المقدسة أسمىٰ وأجل من الجسم والجسمانيات.

وهذا ليس تعبيراً مجازياً طبعاً، وان سميناه مجازياً فهو مجازي ما فوق الحقيقة، لأنه يعلم ويحيط بالمسموعات والمبصرات وهي ماثلة بين يديه تعالىٰ بحيث يسبق ويفوق كل سمع وبصر، لذا فقد ورد وصفه تعالىٰ في الادعية بـاسمع السامعين

وأبصر الناظرين[١].

لكن جماعة من قدماء المتكلمين اعتقدوا بأن صفتي السميع والعليم، تختلفان عن صفة «العلم»، وهؤلاء لابد لهم من الاعتقاد بأن صفتي السميع والبصير من الصفات الزائدة علىٰ ذات الله، وهذا يعني الاقرار بتعدد الصفات الأزليّة، وهو نوع من الشرك، والا فكون الله سميعاً بصيراً لايمكن ان يكون سوىٰ علمه بالمسموعات والمبصرات.

وفي البحار عن الامام الصادق عليه السلام عن احد اصحابه قال له: ان رجلاً ينتحل موالاتَكم اهل البيت يقول: ان الله تبارك وتعالىٰ لم يزل سميعاً بسمع، وبصيراً ببصر، وعليماً بعلم، وقادراً بقدرة.

قال: فغضب عليه السلام ثم قال:

«من قال ذلك ودان به فهو مشرك، وليس من ولايتنا علىٰ شيء، ان الله تبارك وتعالىٰ ذاتٌ علاّمة سمعيةٌ بصيرةٌ قادرة»[٢][٣].

---

١ ـ من أدعية شهر رجب التي تقرء في كلّ يوم «يا اسمع السامعين و ابصر الناظرين و اسرع الحاسبين».

٢ ـ بحار الانوار: ج ٤، ص ٦٢ عن امالي الصدوق وكذلك التوحيد.

٣ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ١٠٦ ـ ١٠٨.

١٤

ماهو المقصود من صفات الجمال والجلال؟

☑ صفات الله تعالى تُقسّم إلى قسمين عادةً:

«صفات الذات» و «صفات الفعل».

وصفات الذات تقسم إلى قسمين أيضاً: صفات الجمال، وصفات الجلال.

والمراد من صفات الجمال الصفات الثابتة له تعالىٰ، كالعلم والقدرة والأزليّة والأبديّة، لذا تُسمّىٰ «بالصفات النبويّة». أمّا صفات الجلال فيُراد بها الصفات التي تتنزه ذاته المقدسة عنها، كالجهل والعجز والجسمانيّة وما شاكل.

لذا تُسمّىٰ بـ «الصفات السلبيّة». وكلا النوعين يسميان بصفات الذات، وبغض النظر عن أفعاله سبحانه فهي قابلة الادراك (أي يُمكن إدراكها).

ويقصد بصفات الفعل الصفات التي لها علاقة بأفعال الله، أي لا تطلق عليه قبل صدور فعل منه، وبعد صدوره يُتصف بها كالخالق والرازق والمحيي والمميت.

ونؤكّد مرّة أخرىٰ بأنّ صفات ذاته وصفات فعله لا متناهية، لأنّ كمالاته غير متناهية، وكذلك أفعاله ومخلوقاته لا متناهية و لامحدودة أيضاً.

ولكن مع هذا فإن قسماً من هذه الصفات يُعدُّ أساساً لبقيّة الصفات، والصفات

الأخيرة تعتبر فروعاً، وبالالتفات إلى هذه النقطة يمكن القول: بأنّ الصفات الخمسة التالية تُعدُّ أصلاً لجميع الأسماء والصفات الإلهيّة المقدسة، وما سواها تعدّ فروعاً لها، وهذه الصفات الخمسة هي:

(الوحدانيّة، العلم، القدرة، الأزليّة، الأبديّة)[١]

---

١ ـ نفحات القرآن، ج ٤، ص ٥٣ ـ ٥٤.

١٥

ماذا يعنى مفهوم المحبّة في حقّ الله

☑ نقرأ في سورة البروج الآية ١٢ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ هنا يثار هذا السؤال وهو ما المقصود من مفهوم المحبّة بالنسبة إلى الله جلّ شأنه؟

من البديهي اختلاف مفهوم المحبّة الإلهيّة مع مفهوم المحبّة الإنسانيّة، فالمحبّة في الإنسان نوعٌ من التوجّه القلبي والرغبة الروحيّة، في حين أنّ الله ليس له قلبٌ ولا روح، لهذا فإنّ محبته لعباده تأتي بمعنىٰ فعله لما يُسبب خير البشر وسعادتهم، وتدل على لطفه وعنايته.

إنّ المحبّة عندما تختصّ بالباري تعالى فإنّما يُقصد منها آثارها الخارجيّة، وليس هذا هو المكان الوحيد الذي يستوجب هذا المعنىٰ والتفسير، بل هنالك الكثير من الصفات والأفعال الإلهيّة من هذا القبيل بالضبط، كقولنا: إنّ الله يغضب علىٰ المذنبين، أي يتصرف معهم تصرُّف الغضبان، وإلّا فالغضب الذي يُعطي معنى الهياج والاضطراب في نفس الإنسان لا يصدق أن يكون في الباري تعالىٰ أبداً.[١]

---

١ ـ نفحات القرآن، (پيام قرآن ٤/ ٣١٩).

١٦

ما معنىٰ ارادة الله سبحانه؟

☑ لاشك في عدم امكانية مقايسة مفهوم ارادة الانسان بالارادة الالهية، لأن الانسان يتصور الفعل في البداية (مثل شرب الماء)، ثم فوائده، ثم يعتقد بفوائده، ثم يشتاق ويرغب الىٰ القيام بذلك الفعل، فعندما يصل شوقه هذا مراحله النهائية يصدر أوامره الىٰ العضلات، فيتحرك الانسان لانجاز هذا العمل.

لكننا نعلم أن كل هذه المفاهيم (التصور والاعتقاد، والشوق والامور وحركة العضلات) لا معنىٰ لها بخصوص الباري، لأنها جميعاً حادثة، فأين ارادته منها اذاً؟

من أجل هذا ذهب علماء الكلام والفلاسفة المسلمون ـ صوب مفهوم يتناسب مع الوجود البسيط المجرد، وبنفس الوقت يتناسب مع أي نوع من أنواع التعبير الحاصل لدىٰ الله تعالىٰ، فقالوا: ان ارادة الله تعالى علىٰ نوعين:

١ـ الارادة الذاتية.

٢ـ الارادة الفعلية.

١ـ الارادة الالهية الذاتية هي علمه بالنظام الاصلح لعالم التكوين، وعلمه بخير وصلاح العباد في الاحكام والقوانين الشرعية.

انه يعلم اي نظامٍ افضل وأصلح لعالم الوجود. ويعلم أفضل الاوقات المناسبة لايجاد الموجودات، وهذا العلم منبع تحقق الموجودات وحدوث الظواهر في الأزمنة المختلفة.

وكذلك هو يعلم مصلحة عباده الكامنة في هذه القوانين والأحكام، وان روح هذه القوانين والاحكام هي علمه بالمصالح والمفاسد.

٢ـ ارادته الفعلية عين الايجاد وتعدّ من صفاته الفعلية لذا فإن ارادته في خلق السموات والارض هي عين حدوثها، وارادته في فرض الصلاة هي عين وجوبها وفي تحريم الكذب هي عين حرمته.

وخلاصة الكلام هي أن إرادة الله الذاتية عين علمه، وعين ذاته. لذلك اعتبرناها من فروع العلم وارادته الفعلية عين الايجاد والتحقق.(١)

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ١٤١ ـ ١٤٢.

١٧

ماهو المقصود من كلام الله سبحانه؟

نقرأ في سورة النساء الآية ١٦٣ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ وإن لم يصرح القرآن الكريم بصفة «المتكلّم» لكنّه ذكر الفعل الدال عليها ولهذا عرف موسى بانّه كليم الله. علاوة على هذا فقد ورد في القرآن الكريم تعبير (كلام الله) في ثلاثة مواضع[١] وتعبير (كلامى) في موضع واحد[٢] و تعبير (كلمة ربّك) او (كلمة الله) في موارد عديدة. هنا يثار سؤال وهو انّه ماهو المقصود من كلام الله؟

☑ بديهيّ أنّ كلام الله ليس نطق اللسان، و عن طريق الأوتار الصوتيّة، لأنّها من عوارض الأجسام والله منزّه عن التجسّد، إنّما الكلام عن طريق الإلهام القلبي، أو عن طريق إحداث أمواج صوتية في الفضاء، وايصالها الى مسامع انبيائه ورسله لإبلاغهم بهذه الطريقة، كما ذكر القرآن حول تكليم الله موسى بن عمران عليه السلام في وادي ايمن، حيث أوجد الله في تلك الشجرة المباركة الخاصّة أصواتاً دعا موسىٰ بواسطتها[٣].

---

١ ـ البقرة ٧٥، التوبة ٦، الفتح ١٥.

٢ ـ الأعراف ١٤٤.

٣ ـ نفحات القرآن: ٣٤١/٤.

١٨

الاسم الاعظم أيُّ اسمٍ هو من اسماء الله تعالى؟

☑ لقد وردت روايات مختلفة في شأن الإسم الأعظم، ويستفاد منها أن من يعرف الإسم الأعظم لا يكون مستجاب الدعاء فحسب، بل تكون له القدرة على أن يتصرف في عالم الطبيعة وأن يقوم بأعمال مهمّة...

والإسم الأعظم، أيُّ اسمٍ هو من أسماء الله؟!

بحث علماء الإسلام كثيراً في هذا الشأن، وأغلب أبحاثهم تدور في أن يعثروا على اسم من بين أسماء الله له هذه الخصوصيّة العجيبة والأثر الكبير.

إلّا أن الأهم في البحث أن نعثر على اسم أو صفة من صفاته تعالى بتطبيقها على وجودنا نحصل على تكامل روحي تترتب عليه تلك الآثار.

وبتعبير آخر: إنّ المسألة المهمّة هي التخلق بصفات الله والإتصاف بها ووجودها في الإنسان، وإلّا كيف يمكن أن يكون الشخص الرديء الوضيع مستجاب الدعوة بمجرّد معرفته الإسم الأعظم؟!

وإذا ما سمعنا أنّ بلعمَ بن باعوراء كان لديه هذا الإسم الأعظم إلّا أنّه فقده، فمفهوم هذا الكلام أنّه كان قد بلغ ـ بسبب بناء شخصيته وإيمانه وعلمه وتقواه ـ إلى

مثل هذه المرحلة من التكامل المعنوي، بحيث كان مستجاب الدعوة عند الله. إلّا أنّه سقط أخيراً في الوحل، فقد تلك الروحية بسبب اتباعه لهوىٰ النفس وإنقياده لفراعنة زمانه، ولعل المراد من نسيان الإِسم الأعظم هو هذه الحالة أو هذا المعنى.

كما أنّنا لو قرأنا ـ أيضاً ـ أن الأنبياء والأئمّة الكرام كانوا يعرفون الإِسم الأعظم، فمهفوم هذا الكلام هو أنّهم جسّدوا اسم الله الأعظم في وجودهم، واستضاءوا بشعاعه، فأولاهم الله ـ بهذه الحال ـ مثل هذا المقامِ العظيمِ[1].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٥/٣٠٩.

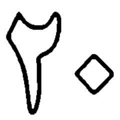
١٩

ما هو المقصود من الغضب الإلهي؟

نقرأ في سورة فاطر الآية ٣٩ ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً﴾ هنا يثار سؤال وهو أنّه ما المقصود من الغضب الإلهي؟

☑ إنّ الغضب الإلهي ليس بمعنى الغضب الذي يحصل للإنسان، لأنّ هذا الغضب في الإنسان عبارة عن نوع من الهيجان والإنفعال الداخلي الذي يكون سبباً في صدور أفعال قويّة وحادّة وخشنة، وفي تعبئة كافّة طاقات الإنسان للدفاع أو الإنتقام، وأمّا بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى فليس لأيّ من هذه الآثار التي هي من خواص الموجودات المتغيّرة والممكنة أثر في غضبه، فغضبه بمعنى رفع الرحمة ومنع اللطف الإلهي من شمول أُولئك الذين ارتكبوا السيّئات[١].

١ ـ تفسير الأمثل: ١٤/١٠٥.



ما المراد بالمكر الإلهي؟

نقرأ في سورة آل‌عمران الآية ٥٤ ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ هنا يثار سؤال وهو انّه ما المقصود من المكر الإلهي؟

في القرآن آيات مشابهة لهذه ينسب فيها المكر إلى الله[1].

☑ كلمة «المكر» بالمصطلح المعاصر تختلف كثيراً عن معناها اللغوي. فالمكر بالمعنى المعاصر هو وضع الخطط الشيطانية الضارّة. ولكن معناها بلغة العرب هو البحث عن العلاج لأمرٍ مّا، وقد يكون حسناً أو سيّئاً.

في كتاب «المفردات» للراغب نقرأ: **المكر: صرف الغير عمّا يقصد ـ خيراً كان أم شرّاً ـ.**

وفي القرآن وردت كلمة «المكر» مقرونة بكلمة «الخير»، إذ يقول ﴿وَٱللَّهُ خَـيْرُ

---

١ ـ انظر الآية ٣٠ من سورة الأنفال، أو الآية ٥٠ من سورة النمل وغيرهما.

﴿ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، كما وردت مع «السيّء»: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[١].

وعليه يكون المقصود من الآية هو أنّ أعداء المسيح وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه هذه الدعوة الإلهيّة. ولكن الله لكي يحفظ حياة نبيّه ويصون الدعوة مكَرَ أيضاً فأحبط كلّ ما مكَروه[٢].

---

١ ـ فاطر: ٤٣.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٢/٥١٤.

٢١

هل يمكن رؤية الله؟

☑ تثبت الأدلة العقلية أنّ الله لا يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّا الأجسام، أو على الأصح بعضاً من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشيء جسماً ولا كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأن لهذا الشيء حيزاً واتجاهاً وكتلة، في حين أنّ الله أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود في كل شيء.

في كثير من الآيات، وعلى الأخص في الآيات التي تشير إلى بني إسرائيل وطلبهم رؤية الله، نجد القرآن ينفي بكل وضوح إمكان رؤية الله .

ومن العجيب أنّ كثيراً من أهل السنة يعتقدون أنّ الله سيرى يوم القيامة، ويعبر صاحب تفسير المنار عن ذلك بقوله: هذا من مذاهب أهل السنة والعلم بالحديث.[1]

---

١ ـ تفسير المنار، ج ٧، ص ٦٥٣.

والأعجب من ذلك أنّ بعض المحققين المعاصرين الواعين يميلون ـ أيضاً ـ إلى هذا الإتجاه ويصرون عليه!

أمّا الواقع فإنّ بطلان هذه الفكرة إلى درجة من الوضوح بحيث لا يستوجب نقاشاً، لأنّ الأمر لا يختلف بين الدنيا والآخرة (إذا قلنا بالمعاد الجسماني)، إنّ الله فوق المادة، ولا يتبدل يوم القيامة إلى وجود مادي، ولا يخرج من لا محدوديته ليصبح محدوداً، ولا يتحول في ذلك اليوم إلى جسم أو إلى كيفية من كيفيات الجسم! وهل الأدلة العقلية على عدم إمكان رؤية الله في الدنيا هي غيرها في الآخرة»؟ أم هل يتغير حكم العقل بهذا الشأن يومذاك؟!

ولا يمكن تبرير هذه الفكرة بأنّ من المحتمل أن يصبح للإنسان في الآخرة نوع آخر من الرؤية والإدراك، لأنّ هذه الرؤية والإدراك إذا كانت في الآخرة فكرية وعقلانية، فإنّنا في هذه الدنيا أيضاً نشاهد الله وجماله بعين القلب وقوة العقل، أمّا إذا كانت الرؤية هي نفسها التي نرى بها الأجسام، فإنّ رؤية الله بهذا المعنى مستحيلة في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء.

وبناء على ذلك فإنّ القول بأنّ الإنسان لا يرى الله في هذه الدنيا، ولكن المؤمنين يرونه يوم القيامة غير منطقي وغير مقبول.

إنّ ما حمل هؤلاء على الذهاب إلى هذا المذهب والدفاع عنه هو وجود أحاديث في كتبهم المعروفة تقول بإمكان رؤية الله يوم القيامة، ولكن أليس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأي بالدليل العقلي، ونحكم باختلاق أمثال هذه الرّوايات وعدم اعتبار الكتب التي أوردت مثل هذه الرّوايات، (اللهم إلّا إذا قلنا أنّ المقصود من هذه الرؤية هي الرؤية القلبية) هل يصح أن نجانب حكم العقل والحكمة من أجل أمثال هذه الأحاديث؟!

أمّا الآيات القرآنية التي يبدو منها لأوّل وهلة أنّها تدل على رؤية، مثل ﴿وُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١] و ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢] فإنّها من باب الكناية والرمز، إنّنا نعلم أنّ أية آية قرآنية لا يمكن أن تخالف حكم العقل ومنطق الحكمة.

والملفت للنظر أنّ الأحاديث والرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تستنكر هذه العقيدة الخرافية أشد إستنكار، وتنتقد القائلين بها أشد إنتقاد، من ذلك أنّ أحد أصحاب الإمام الصّادق عليه السلام واسمه (هشام) يقول: كنت عند الإمام الصّادق عليه السلام فدخل عليه معاوية بن وهب (وهو من أصحاب الإمام أيضاً) وسأله قائلاً: يا بن رسول الله، ما قولك في ما جاء بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قد رأىٰ الله. فكيف رآه؟ وكذلك في الحديث المروي عنه أنّه صلى الله عليه وآله قال: إنّ المؤمنين في الجنّة يرون الله. فبأي شكل يرونه؟ فتبسم الإمام الصّادق إبتسامة ألم، وقال: **«يا معاوية بن وهب! ما أقبح أن يعيش المرء سبعين أو ثمانين سنة في ملك الله، ويتنعم بنعمه، ثمّ لا يعرفه حق المعرفة يا معاوية، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم ير الله رأي العين أبداً، إنّ المشاهدة نوعان: المشاهدة القلبية، والمشاهدة البصرية، فمن قال بالمشاهدة القلبية فقد صدق، ومن قال بالمشاهدة البصرية فقد كذب وكفر بالله وبآياته فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من شبه الله بالبشر فقد كفر»**[٣].

وفي (أمالي الصدوق) بإسناده إلى إسماعيل بن الفضل قال: سألت الإمام الصّادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى، وهل يرى في المعاد؟ فقال: **«سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، يا ابن الفضل، إنّ الأبصار لا تدرك إلّا ما له لون وكيفية، والله تعالى خالق الألوان والكيفية»**[٤].

---

١ ـ القيامة، ٢٣ و٢٤.

٢ ـ الفتح، ١٠.

٣ ـ معاني الأخبار، نقلاً عن «الميزان»، ج ٨، ص ٢٦٨.

٤ ـ نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٣.

من الجدير بالإنتباه أنّ هذا الحديث يؤكّد كـلمة «لون» ونـحن اليـوم نـعلم أنّ الجسم بذاته لا يرى مطلقاً، وإنما الذي نراه هو لونه، فإذا لم يكن للجسم أي لون فلن يرى[١].

١ ـ تفسير الأمثل: ٤/٤١٠.

٢٢

لماذا طلب موسى رؤية الله؟

نقرأ في سورة الأعراف الآية ١٤٣ من لسان موسى ﴿رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه هنا هو: كيف طلب موسى عليه السلام ـ و هو النّبي العظيم ومن أُولي العزم ـ رؤية الله وهو يعلم جيداً أن الله ليس بجسم، وليس له مكان، ولا هو قابل للمشاهدة والرؤية، والحال أن مثل هذا الطلب لا يليق حتى بالأفراد العاديّين من الناس؟

☑ صحيح أنّ المفسّرين ذكروا أجوبة مختلفة على هذا السؤال، ولكن أوضح الأجوبة هو أن موسى عليه السلام طرح مطلب قومه، لأنّ جماعة من جَهَلة بني إسرائيل أصرّوا على أن يروا الله حتى يؤمنوا (والآية ١٥٣ من سورة النساء خير شاهد على هذا الأمر) وقد أمر موسى عليه السلام من جانب الله أن يطرح مطلب قومه هذا على الله سبحانه حتى يسمع الجميع الجواب الكافي، وقد صُرّح بهذا في رواية مرويّة عن

الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام في كتاب عيون أخبار الرضا أيضاً[١].

ومن القرائن الواضحة التي تؤيد هذا التّفسير ما نقرأه في الآية (١٥٥) من نفس هذه السورة، من أنّ موسىعليه السلام قال بعدما حدث ما حدث: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

فيتّضح من هذه الجملة أنّ موسىعليه السلام لم يطلب لنفسه مثل هذا الطلب اطلاقاً، بل لعلّ الرجال السبعين الذين صعدوا معه إلى الميقات هم أيضاً لم يطلبوا مثل هذا الطلب غير المعقول وغيرالمنطقي، إنّهم كانوا مجرّد علماء، ومندوبين من جانب بني إسرائيل خرجوا مع موسىعليه السلام لينقلوا فيما بعد مشاهداتهم لجماعات الجهلة والغافلين الذين طلبوا رؤية الله سبحانه وتعالى ومشاهدته.[٢]

---

١ ـ تفسير نور الثقلين، المجلد الثّاني، الصفحة ٦٥.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٥/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

٢٣

ما هو عرش الله؟

أشير إلى كلمة «العرش الإلهي» عشرين مرّة في القرآن الكريم، هنا يطرح هذا السؤال: ما المقصود من عرش الله تبارك و تعالى؟

☑ إنّ ألفاظنا ـ الموضوعة أصلاً لتوضيح مشخصات الحياة المحدودة ـ لا تستطيع أن توضّح عظمة الخالق، أو حتىٰ أن تحيط بعظمة مخلوقاته جلّ وعلا، لهذا السبب فليس أمامنا سوىٰ استخدام ألفاظ ومعاني للكناية عن تلك العظمة.

وفي طليعة الألفاظ التي يشملها هذا الوضع كلمة (العرش) التي تعني لغوياً (السقف) أو (السرير ذا المسند المرتفع) في قبال (الكرسي) الذي هو (سرير ذو مسند منخفض). ثمّ استخدمت هذه الكلمة لتشمل (عرش) القدرة الإلهية.

وللمفسّرين والفلاسفة والمناطقة كلام كثير حول المقصود بالعرش، وما ينطوي عليه من معنىٰ كنائي.

فأحياناً فسّروا العرش بمعنىٰ (العلم اللامتناهي لله تبارك وتعالى).

وأُخرىٰ قالوا بأن المعنىٰ هو (المالكية والحاكمية الإلهية).

وفسّروا العرش أيضاً بأنّه إشارة إلىٰ أي واحدة من الصفات الكمالية والجلالية لله تبارك وتعالىٰ، لأنّ كلّ واحدة من هذه الصفات توضح عظمة منزلته جلّ وعلا، كما أنّ عرش السلطان (والأمثال تضرب ولا تقاس) يوضح عظمته.

فالخالق جلّ وعلا يملك عرش العلم، وعرش القدرة، وعرش الرحمانية، وعرش الرحيمية.

وطبقاً للتفاسير والآراء الثلاثة هذه، فإنّ مفهوم (العرش) يعود إلى صفات الخالق جل وعلا، ولا يعني وجود خارجي آخر له.

وفي بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيتعليهم السلام، ما يشير إلىٰ هذا المعنىٰ، ففي رواية عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه أجاب عندما سئل عن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أنّ المقصود بذلك علمه تعالىٰ شأنه[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً أنّه فسّر (العرش) بأنّه «العلم» الذي كشفه وعلّمه الله للأنبياء عليهم السلام، بينما (الكرسي) هو «العلم» الذي لم يعلمه لأحد ولم يطلع عليه أحد[٢].

وبين أيدينا تفاسير أُخرىٰ استندت إلىٰ روايات إسلامية، ففسّرت العرش والكرسي بأنّهما موجودات عظيمة من مخلوقات الله تبارك وتعالىٰ.

قالوا ـ مثلاً ـ إنّ المقصود بالعرش هو مجموع عالم الوجود.

وقالوا أيضاً: هو مجموع الأرض والسماء المتجسدة ضمن هذا الكرسي؛ بل إنّ السماء والأرض كالخاتم في الصحراء الواسعة مقايسة بينهما وبين (الكرسي) ثم قالوا: إنّ «الكرسي» في مقابل العرش كالخاتم في الصحراء الواسعة.

وفي تفاسير أُخرىٰ تستند بدورها إلى روايات إسلامية، أطلقوا كلمة (العرش)

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحة ٢٨، الحديث رقم ٤٦، ٤٧.

٢ ـ المصدر السابق.

للكناية عن قلوب الأنبياء والأوصياء والمؤمنين التامين الكاملين، كما جاء ذلك في الحديث: «إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن»[١].

وفي حديث قدسي نقرأ قوله تعالىٰ: «لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»[٢].

أما أفضل الطرق لإدراك معنىٰ العرش ـ بمقدار ما تسمح بـه قـابلية الإنسـان واستيعابه ـ فهو أن نبحث موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم، و نتفحص مدلولاتها بشكل متأنٍ.

في آيات كثيرة من كتاب الله نلتقي مع هذا التعبير، كما في قوله تـعالىٰ: ﴿ثـمّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٣]. ثمّ يرد تعبر ﴿يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ﴾ في بعض الآيات التي تأتي بعد مفاد الآية أعلاه (آية العرش) أو ترد جمل أُخرىٰ تعبّر عـن عـلم الله ودرايـة الخالق جلّ وعلا.

في آية أُخرىٰ من القرآن الكريم يوصف العرش بالعظمة: ﴿وَهُـوَ رَبُّ ٱلْـعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٤].

وأحياناً تتحدث الآية عن حملة العرش، كما في الآية التي نحن بصددها.

ومن الآيات ما تتحدث عن الملائكة المحيطة بالعرش، كما فـي قـوله تـعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰئِكَةَ حَآفِينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[٥]

وفي آية أُخرىٰ نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

من خلال مجموع هـذه المـوارد، والتـعابير الأُخـرىٰ الواردة فـي الأحـاديث

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحة ٣٩.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحة ٣٩.

٣ ـ الأعراف، الآية ٥٤.

٤ ـ التوبة، الآية ١٢٩.

٥ ـ الزمر، الآية ٧٥.

والروايات الإسلامية، نستنتج بشكل واضح أنّ كلمة (العرش) تطلق علىٰ معاني مختلفة بالرغم من أنّها تشترك في أساس واحد.

فأحد معاني العرش هو مقام (الحكومة والمالكية وخلق عالم الوجود) إذ تلاحظ أنّ الإستخدام الشائع للعرش يدلل ـ من خلال الكناية ـ علىٰ سيطرة الحاكم علىٰ أُمور دولته، فنقول مثلاً: «فلان شلّ عرشه» والتعبير كناية عن انهيار قدرته وحكومته.

والمعنىٰ الآخر من معاني العرش هو، «مجموع عالم الوجود» لأنّ كلّ الوجود هو دليل علىٰ العظمة.

وأحياناً يستخدم العرش بمعنىٰ «العالم الأعلى» والكرسي بمعنىٰ «العالم الأدنىٰ».

ويستخدم العرش أحياناً بمعنىٰ (عالم ما وراءالطبيعة) والكرسي بمعنىٰ (مجموع عالم المادة) بما في ذلك الأرض والسماء، كما جاء في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ولأنّ علم الخالق لا ينفصل عن ذاته المنزهة، لذا فانّ كلمة (عرش) تطلق أحياناً علىٰ «علم الله».

وإذا أطلق وصف (عرش الرحمن) علىٰ القلوب الطاهرة لعباد الله المؤمنين، فذلك يعود إلىٰ أنّ هذا المكان هو محل معرفة الذات الإلهية المنزهة، وهو بحدّ ذاته أحد أدلة عظمته وقدرته جلّ وعلا.

من كلّ ذلك يتضح أنّ كافة معاني العرش ـ التي وردت آنفاً ـ توضح عظمة الخالق جلّ وعلا.

وفي الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[1] يمكن

---

١ ـ المؤمن، ٧.

أن يكون المقصود من العرش هو نفس حكومة الله تعالى وتدبيره لعالم الوجود، وحملة العرش يقومون بتنفيذ إرادة الله الحاكمة في الخلق.

ويمكن أن يكون المعنىٰ هو مجموع عالم الوجود أو عالم ما وراء الطبيعة. أمّا حملة العرش الإلهي فهم الملائكة الذين تقع عليهم مسؤولية تدبير أمر هذا العالم بأمر الله تعالىٰ.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٢٠٢.

٢٤

ماهو العهد في عالم الذّر؟

نقرأ في سورة الأعراف الآية ١٧٣: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾

هذه الآية تتحدث عن أخذ العهد من ذريّة آدم، لكن كيف أُخِذَ هذا العهدُ؟!

☑ إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الإستعداد «والكفاءات»، و«عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأُمهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله الإستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلّهي في ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلي... كما أودعه في عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها.

فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: ألست بربكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته!

ومثل هذه التعابير غير قليلة في أحاديثنا اليوميّة، إذ نقول مثلاً: لون الوجه يُخبر عن سره الباطني «سيماهم في وجوههم»، أو نقول: إنّ عيني فلان المجهدتين تنبئان أنّه لم ينم الليلة الماضية.

وقد رُوي عن بعض أُدباء العرب وخطبائهم أنّه قال في بعض كلامِهِ: سَل الأرض من شق أنهارَكِ وغرس أشجارَكِ وأينع ثمارَكِ؟ فإنّ لم تُجبكَ حواراً أجابتك اعتباراً!...

كما ورد في القرآن الكريم التعبير على لسان الحال، كالآية (١١) من سورة فصلت، إذ جاءَ فيها ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ آئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٥/٢٨٦.

٢٥

ماهو المقصود من أنّ الهداية و الإضلال من الله؟

☑ «الهداية»: في اللغة تعني التوجيه والإرشاد بلطف ودقّـة[١]، وتـنقسم إلى قسمين (بيان الطريق)، و (الإيصال إلى المطلوب) وبعبارة أُخرىٰ (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية)[٢].

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الإنسان يصف أحياناً الطـريق للسـائل بـدقّة ولطـف وعناية ويترك السائل معتمداً على الوصف في قطع الطريق والوصول إلى المقصد المطلوب. وأحياناً أُخرىٰ يصف الإنسان الطريق للسـائل ومـن ثـمّ يـمسك بـيده ليوصله إلى المكان المقصود.

وبعبارة أُخرىٰ: الشخص المجيب في الحالة الأولىٰ يوضّح القـانون وشـرائـط سلوك الطريق للشخص السائل كي يعتمد الأخير على نـفسه فـي المـوصول إلى

---

١ ـ «مفردات» مادة (هدىٰ).

٢ ـ نلفت الانتباه إلى أن الهداية التكوينية هنا قد استخدمت بمعناها الواسع، حيث تشمل كلّ أشكال الهداية عدا الهداية التي تأتي عن طريق بيان الشرائع و التوجيه إلىٰ الطريق.

المقصد والهدف، أمّا في الحالة الثانية، فإضافة إلى ما جاء في الحالة الأولىٰ، فإنّ الشخص المجيب يهيء مستلزمات السفر، ويزيل الموانع الموجود، ويحلّ المشكلات، إضافة إلى أنّه يرافق الشخص السائل في سلوك الطريق حتّىٰ الوصول إلى مقصده النهائي لحمايته والحفاظ عليه.

و (الإضلال) هو النقطة المقابلة لـ (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لاتضح لنا ـ بصورة جيدة ـ أنّ القرآن يعتبر أنّ الظلالة والهداية من الله، أي أن الاثنين ينسبان إلى الله، ولو أردنا أن نعدد كل الآيات التي تتحدث بهذا الخصوص، لطال الحديث كثيراً، ولكن نكتفي بذكر ما جاء في الآية (٢١٣) من سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وفي الآية (٩٣) من سورة النحل: ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. وأمثال هذه الإيات ـ الخاصة بالهداية أو الضلال أو أحدهما ـ ورد في آيات كثيرة من القرآن المجيد[1].

وأكثر من هذا، فقد جاء في بعض الآيات نفي قدرة الرّسول الأكرمﷺ على الهداية وتحديد القدرة على الهداية بالله سبحانه وتعالى، كما ورد في الآية (٥٦) من سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. وفي الآية (٢٧٢) من سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

الدراسة السطحية لهذه الآيات وعدم إدراك معانيها العميقة أدىٰ الى زيغ البعض خلال تفسيرهم لها وانحرافهم عن طريق الهداية ووقوعهم في فخاخ المذهب الجبري، حتّىٰ أنّ بعض المفسّرين المعروفين لم ينجوا من هذا الخطأ الكبير، حيث اعتبروا الضلالة والهداية وفي كلّ مراحلها أمراً جبرياً. والأدهىٰ من ذلك أنّهم

---

١ ـ و منها ما ورد في السور والآيات التالية (فاطر ـ٨) و (الزمر ـ ٢٣) و (المدثر ـ ٣١) و (البقرة ـ ٢٧٢)و (الأنعام ـ ٨٨) و (يونس ـ ٢٥) و (الرعد ـ ٢٧) و (إبراهيم ـ ٤).

أنكروا أصل العدالة كي لا ينتقض رأيهم، لأنّ هناك تناقضاً واضحاً بين عـقيدتهم وبين مسألة العدالة والحكمة الإلهية. فاذا كنا أساساً نقول بالجبر، فلا يبقىٰ هناك داع للتكليف والمسؤولية وإرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

أمّا المعتقدون بمذهب الإختيار وأن الإنسان مخير في هذه الدنيا ـ وأن العقل السليم لا يقبل مطلقاً بأن الله سبحانه وتعالىٰ يجبر مجموعة من الناس علىٰ سلوك سبيل الضلال ثمّ يعاقبهم على عملهم ذلك، أو أنّه يهدي مجموعة أُخرىٰ إجبارياً ثم يمنحها ـ من دون أي سبب ـ المكافأة و الثواب، و يفضلها على الآخرين لأدائها عملاً كانت قد أجبرت على القيام به ـ

فهؤلاء انتخبوا لإنفسهم تفاسير أُخرىٰ لهذه الآيات.

إنّ أدق تفسير يتناسب مع كلّ آيات الهداية والضلال، ويفسرها جميعاً بصورة جيدة من دون أن يتعارض أدنىٰ تعارض مع المعنىٰ الظاهري، وهـو أنّ الهـدايـة التشريعية التي تعني (إراءة الطريق) لها خاصية عامّة وشاملة، ولا توجد فـيها أي قيود وشروط، كما ورد في الآية (٣) من سورة الدهر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وفي الآية (٥١) من سـورة آل عـمران: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومن البديهي أن دعوة الأنبياء هي مظهر دعوة الله تعالى. لأن كلّ ما عند النّبي هو من الله.

وبالنسبة الى مجموعة من المنحرفين والمشركين ورد في الآية (٢٣) من سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أمّا الهداية التكوينية فتعني الايصال إلى الغرض المطلوب، والأخذ بيد الإنسان في كلّ منعطفات الطريق، وحفظه وحمايته من كلّ الأخطار التي قد تواجهه في تلك المنعطفات حتىٰ إيصاله إلى ساحل النجاة. وهي أي الهداية التكوينية ـ موضع بحث الكثير من آيات القرآن الأُخرىٰ التي لا يمكن تقييدها بأية شروط. فالهداية هـذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصافهم في القرآن، أمّا الضلال الذي هو النقطة المـقابلة

للهداية فإنه يخص مجموعة أُخرىٰ ذكرت أوصافهم أيضاً في القرآن الكريم.

ورغم وجود بعض الآيات التي تتحدث عن الهداية والإضلال بصورة مطلقة، إلا أن هناك الكثير من الآيات الأُخرىٰ التي تبيّن ـ بدقة ـ محدوديتهما، وعندما تضع الآيات (المطلقة) إلى جانب (المحدودة) يتّضح المعنىٰ بصورة كاملة، ولا يبقىٰ أي غموض أو إبهام في معنىٰ الآيات، كما أنّها ـ أي الآيات ـ تؤكد بشدة على مسألة الإختيار وحرية الإرادة عند الإنسان ولا تتعارض معهما.

الآن يجب الإنتباه إلى التوضيح التالي:

القرآن المجيد يقول في إحدىٰ آياته: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ وفي مكان آخر يقول الباريء عزّوجلّ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] وهذا يبيّن أن الظلم مقدمة للظلال. ومن هنا يتّضح أن الفسق، أي عدم إطاعة أوامر الباريء تعالى وهو مصدر الضلال.

وفي موضع آخر نقرأ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2]، وهنا اعتبر الكفر هو الذي يهيء أرضية الضلال.

وقد ورد في آية أُخرىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[3] يعني أنّ الكذب والكفر هما مقدمة الضلال.

والآية التالية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[4] أي أن الإسراف والكذب يسببان الضلالة.

وبالطبع، فإنّ ما أوردناه كان جزءاً يسيراً من آيات القرآن التي تتناول هذا

---

١ ـ البقرة، ٢٥٨.

٢ ـ البقرة، ٢٦٤.

٣ ـ الزمر، ٣.

٤ ـ غافر، ٢٨.

الموضوع، فبعض الآيات وردت مرات عديدة في سور القرآن المختلفة وهي تحمل المعاني والمفاهيم.

إن ما يمكن استنتاجه هو أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الضلالة الإلهية تشمل كلّ من توفرت فيه هذه الصفات (الكفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الكذب). (الإسراف) فهل أن الضلالة غير لائقة بمن تتوفر فيه مثل هذه الصفات!

وبعبارة اُخرىٰ: هل ينجو قلب من يتصف بتلك الصفات القبيحة، من الغرق في الظلمات والحجب؟!

وبعبارة اُخرىٰ أوضح: أنّ لهذه الأعمال والصفات آثاراً تلاحق الإنسان شاء أم أبىٰ، إذ ترمي بستائرها على عينيه وأذنيه وعقله، وتؤدي به إلى الضلال، ولكون خصوصيات كلّ الأشياء وتأثيرات كلّ الأسباب إنّما هي بأمر من الله، ومن الممكن أيضاً أن ينسب الإضلال إليه سبحانه وتعالىٰ في جميع هذه الموارد، وهذه النسبة هي أساس اختيار الإنسان وحرية إرادته.

هذا فيما يتعلق بالضلالة، أمّا فيما يخص الهداية، فقد وردت في القرآن المجيد شروط وأوصاف تبيّن أنّ الهداية لا تقع من دون سبب وخلاف الحكمة الإلهية.

وقد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التي تجعل الإنسان مستحقاً للهداية ومحاطاً باللطف الإلهي، منها: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

إذن فإتباع أمر الله، وكسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية.

وفي مكان آخر نقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[٢] إذن فالتوبة والإنابة تجعلان الإنسان مستحقاً للهداية.

---

١ ـ المائدة، الآية ١٦.

٢ ـ الرعد، الآية ٢٧.

وفي آية أُخرىٰ ورد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١] فالجهاد، وخاصة (الجهاد الخالص في سبيل الله) هو من الشروط الرئيسية للهداية.

وأخيراً نقرأ في آية أُخرىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾[٢] أي أن قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للإستمرار فيه بلطف الباريء عزّوجلّ.

نستنتج من ذلك أنّه لو لم تكن هناك توبة وإنابة من العبد، ولا اتباع لأوامر الله، ولا جهاد في سبيله ولا بذل الجهد وقطع مقدار من طريق الحق، فإن اللطف الإلهي لا يشمل ذلك العبد، وسوف لا يمسك الباريء بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب.

فهل أنّ شمول هؤلاء الذين يتحلون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنّه دليل على هدايتهم بالإجبار؟

من الملاحظ أنّ آيات القرآن الكريم في هذا المجال واضحة جدّاً ومعناها ظاهر، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلال ابتلوا بمثل هذا الإبتلاء و (لأنّهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا في طيق الخيال).

إذن يجب القول بأنّهم هم الذين اختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أية حال، فإنّ المشيئة الإلهية في آيات الهداية والضلال لم تأت عبثاً ومن دون أي حكمة، وإنّما تتمّ بشرائط خاصّة، بحيث تبيّن تطابق حكمة الباريء عزّوجلّ مع ذلك الأمر[٣].

---

١ ـ العنكبوت، الآية ٦٩.

٢ ـ محمّد، الآية ١٧.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٨٨.

٢٦

ما هو المقصود من تسبيح الكائنات؟

☑ تذكر الآيات القرآنية المُختلفة تسبيح وَحمد جميع موجودات عالم الوجود لله تعالىٰ، وإِنَّ أكثر الآيات صراحة بهذا الخصوص هي الآية ٤٤ من سورة الأسراء ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ والتي تذكر لنا ـ بدون استثناء ـ أنَّ جميع الموجودات في العالم، الأرض والسماء، النجوم والفضاء، الأناس والحيوانات وأوراق الشجر، وَحتىٰ الذرات الصغيرة، تشترك جميعاً في هَذا التسبيح والحمد العام.

يبيّن القرآن الكريم أنَّ عالم الوجود قطعة واحدة مِن التسبيح والحمد، وأنَّ كل موجود يؤدي هَذا التسبيح وَيقوم به بشكلٍ معين وَيثني علىٰ الباري عزَّوجلّ، وأنَّ أزير هَذا التسبيح والحمد يملأ عالم الوجود المترامي الأطراف، ولكن الجهلاء لا يستطيعون سماع هَذا الأزيز، بعكس المستبصرين المتأملين والعلماء الذين أضاءَ الله قلوبهم وأرواحهم بنور الإِيمان، فإِنَّ هَؤلاء يسمعون هَذا الصوت من جميع الجهات بشكل جيِّد.

هُناك كلام كثير بين العلماء والمفسّرين والفلاسفة حول تفسير حقيقة هَذا الحمد

والتسبيح، فبعضهم اعتبر الحمد والتسبيح (حالاً) والبعض الآخر (قولاً)، أمّا خلاصة أقوالهم فهي:

١ ـ البعض يعتقد أنَّ جميع ذرات الوجود في هَذا العالم لها نوع مِن الإدراك والشعور، سواء كانت هَذِهِ الموجودات عاقلة أو غير عاقلة. وَهِي تقوم بالتسبيح والحمد في نطاق عالمها الخاص، بالرغم مِن أنّنا لا نستطيع إدراك ذلك أو الإحساس بهَذا الحمد والتسبيح وَسماعه. آيات كثيرة تؤكّد هَذا المعنىٰ مِنها الآية رَقم (٧٤) مِن سورة البقرة واصفة الحجارة أو نوع مِنها: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ﴾. ثمّ قوله تعالىٰ في الآية (١١) مِن سورة فصّلت: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

٢ ـ الكثير يعتقد أنَّ هَذا التسبيح والحمد هو علىٰ شاكلة ما نسميه بـ «لسان الحال» وَهو حقيقي غيرمجازي إلّا أنَّهُ بلسان الحال وَليس بالقول. (تأمّل ذلك).

ولتوضيح ذلك تقول: قد يحدث أن نشاهد آثار عدم الإرتياح والألم، وَعدم النوم في وَجه أو عيني شخصٍ ما وَنقول له: بالرغم مِن أنّك لم تتحدث عن شيء مِن هَذا القبيل، إلّا أن عينيك تقولان بأنّك لم تنم الليلة الماضية، وَوجهك يؤكّد بأنّك غير مرتاح ومتألم! وَقد يكون لسان الحال مِن الوضوح بدرجة بحيث أنَّهُ يُغطي علىٰ لسان القول لو حاول التستر عليها قولاً.

وَهَذا هو المعنى الذي صرّح به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «ما أضمر أحد شيئاً إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وَجهه»[١].

مِن جانب آخر هل يمكن التصديق بأنَّ لوحة فنية جميلة للغاية تدل علىٰ ذوق وَمهارة رسامها، لا تمدحُه أو تثني عليه؟ وهل يمكن انكار ثناء دواوين أشعار أساطين الشعر والادب وتمجيدها لقرائحهم واذواقهم الرفيعة؟.. أو يمكن انكار أن بناءً عظيماً أو مصنعاً كبيراً أو عقولاً الكترونية معقدة أو أمثالها، أنّها تمدح صانعها

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٦.

وَمُبتكرها بلسان حالها غير الناطق؟

لذا يجب التصديق والتسليم بأنَّ عالم الوجود العجيب ذا الأسرار المتعدِّدة والعظمة الكبيرة، والجزئيات العديدة المُحيِّرة، يقوم بتسبيح وَحمد الخالق عزَّوجلّ، وإِلَّا فهل «التسبيح» سوىٰ التنزيه عن جميع العيوب؟ فنظام عالم الوجود ناطق بأنَّ خالقهُ ليسَ فيه أي نقصٍ أو عيب:

ثمّ هل «الحمد» سوىٰ بيان الصفات الكمالية؟ فنظام الخلق والوجود كلّه يتحدث عن الصفات الكمالية للخالق وعلمه وَقدرته اللامتناهية وَحكمته الوسيعة.

خاصّة وأنَّ تقدم العلوم البشرية وكشف بعض أسرار وَخفايا هَذا العالم الواسع، توضح هَذا الحمد والتسبيح العام بصورة اجلى. فاليوم مثلاً آلّف علماء النبات المؤلفات العديدة عن أوراق الأشجار، وَخلايا هَذِهِ الأوراق، وَالطبقات السبع الداخلة في تكوينها، والجهاز التنفسي لها، وَطريقة التغذية وَسائر الأُمور الأُخرىٰ التي تتصل بَهذا العالم.

لذلك، فإنَّ كل ورقة توحد الله ليلاً وَنهاراً، وَينتشر صوت تسبيحها في البساتين والغابات، وَفوق الجبال وَفي الوديان، إِلَّا أنَّ الجهلاء لا يفقهون ذلك، وَيعتبرونها جامدة لا تنطق.

إِنَّ هَذا المعنى للتسبيح والحمد الساري في جميع الكائنات يمكن دركه تماماً، وَليست هُناك حاجة لأن نعتقد بوجود إِدراك وَشعور لكل ذرات الوجود، لأنّه لا يوجد دليل قاطع علىٰ ذلك، والآيات السابقة يحتمل أن يكون مقصودها التسبيح والحمد بلسان الحال.

الجواب على سؤال:

يبقىٰ سؤال واحد، وَهو إِذا كان الغرض مِن الحمد والتسبيح هو تعبير نظام الكون عن نزاهة وَعظمة وَقدرة الخالق عزَّوجلّ، وتبيان الصفات السلبية والثبوتية، فلماذا

يقول القرآن: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ لأنّه إذا كانَ البعض لا يـفقه، فـإنَّ العـلماء يفقهون ويعلمون؟.

هُناك جوابان علىٰ هَذا السؤال هما:

الأوّل: إنَّ الآية توجِّه خطابها إلىٰ الأكثرية الجاهلة مِن عموم الناس، خصوصاً إلىٰ المشركين، حيثُ أنَّ العلماء المؤمنين قِلَّة وَهم مستثنون مِن هَذا التعميم، وُفقاً لقاعدة ما مِن عام إلَّا وَفيه استثناء.

الثّاني: هو أنَّ ما نعلمهُ مِن أسرار وَخفايا العالم في مقابل ما لا نعلمُه كالقطرة في قبال البحر، وَكالذرة في قبال الجبل العظيم. وإذا فكرنا بشكلٍ صحيح فلانستطيع أن نسمّي الذي نعرفه بأنّه (علم). إنّنا في الواقع لا نستطيع أن نسمع تسبيح وَحمد هَذِهِ الموجودات الكونية مهما أوتينا مِن العلم، لأنَّ ما نسمعهُ هو كلمة واحدة فقط مِن هَذا الكتاب العظيم!!

وَعَلىٰ هذا الأساس تستطيع الآية أن تخاطب العالم بأجمعه وَتقول لهم: إنّكم لا تفقهون تسبيح وَحَمد الموجودات بلسان حالها، أمّا الشيء الذي تـفقهوه فـهو لا يساوي شيئاً بالنسبة إلىٰ ما تجهلون.

٣ ـ بعض المفسّرين يحتمل أنَّ الحمد والتسبيح هو تركيب من لسان: «الحال» و«القول». وبعبارة أُخرىٰ: يعتقدون بأنَّهُ تسبيح تكويني وَتشريعي، لأنَّ أكثر البشر وَكل الملائكة يحمدون الله عَن إدراك وشعور؛ وكل ذرات الوجـود تـتحدَّث عـن عظمة الخالق بلسان حالها. وَبالرغم مِن أنّ هَذين النوعين مِـن الحـمد والتسـبيح مُختلفين، إلَّا أنّهما يشتركان في المفهوم الواسع لكلمتي الحمد والتسبيح.

وَلكن التّفسير الثّاني ـ حسب الظاهر ـ أكـثر قـبولاً للـنفس مِـن التّـفسيرين الآخرين[1].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١١/٩ .

٢٧

هل يحلُّ الله في شيء؟

☑ يعتقد جماعة من المسيحيين بأن الله تعالىٰ قد حل في المسيح عليه السلام، واعتقد جماعة من المتصوّفة بمثل ذلك اقطابهم، اذ قالوا إن الله تعالىٰ قد حلَّ في وجودهم.

وكما قال العلّامة المرحوم الحلّي رحمه الله في (كشف المُراد):[١] «لاريب في سخافة وزيف هذه العقيدة، لأن ما يُمكن تصوُّره من الحلول هو: أن يحل موجود قائم في موجودٍ آخر ـ كقولنا: حلّ العطر في الورد ـ وهذا المعنىٰ لا يُمكن تَصوره بخصوص الله، لأنه يستلزم اشغال حيزٍ من المكان والحاجة إليه، وهو أمر محال بالنسبة لواجب الوجود، والذين يعتقدون بحلول الله في شيء سيتورطون بنوع من الشرك، وهم خارجون عن سلك الموحدين»[٢].

المتصوّفة ومسألة الحلول:

قال العلامّة الحلّي في كتاب (نهج الحق): «إن إتحاد الله مع غيره بحيث يصيران

---

١ ـ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلّامة الحلي ص ٢٢٧.

٢ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ٢٤٢.

شيئاً واحداً باطل، بل وبطلانه يُعَدُّ من البديهيات»، ثم أضاف قائلاً: رفض جماعة من متصوفة أهل السُّنة هذه الحقيقة وقالوا: (إن الله يتحد مع بدن العرفاء ويصيرا شيئاً واحداً!)! وحتى قال بعضهم: الله عين الموجودات وكل موجودٍ هو الله (إشارة إلى مسألة وحدة الوجود المصداقيّة) ثم قال: هذا عين الكفر والإلحاد، والحمد لله الذي أبعدنا عن أصحاب هذه العقائد الباطلة ببركة الإلتزام بمذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقال في بحث الحلول: من المسائل المسلَّم بها أن أيّ موجودٍ يريد أن يحلّ في آخر يحتاج إلى مكان، ولأن الله واجب الوجود ولا يحتاج إلى شيء، إذاً فحلوله في الأشياء مُحال.

ثم أضاف قائلاً: «رفض متصوفة أهل السُّنَة هذه المسألة واعتقدوا بإمكانية حلول الله في بدن العرفاء»، ثمَّ ذمَّ هذه الجماعة بشدة وقال: ولقد شاهدتُ جماعة من الصوفية في حضرة الإمام الحسين عليه السلام وقد صلّوا صلاة المغرب سوى شخصٍ واحدٍ منهم كان جالساً لم يُصلِّ، ثم صلّوا بعد ساعةٍ صلاة العشاء سوى ذلك الشخص الذي ظلّ جالساً!

فسألتُ بعضهم عن ترك صلاة ذلك الشخص فقال: ما حاجة هذا الى الصلاة وقد وصل! أفهل يجوز أن يجْعلَ بينه وبين الله تعالى حاجباً؟ فقلتُ: لا فقال الصلاة حاجب بين العبد وربه![١]

وقد ورد نفس هذا المفهوم في مقدمة الدفتر الخامس لكتاب المثنوي بنحوٍ آخر، يقول: (يصح ذلك إذا بلغت المقصود، لذا فقد قالوا: «لو ظهرت الحقائق بطلت الشرائع»! وشبّه الشريعة بعلم الكيمياء (العلم الذي يمكن بواسطته استخلاص الذهب من النحاس) فقال: ما حاجة الذهب الأصيل، أو الذهب

---

١ ـ نهج الحق: ص ٥٨ و ٥٩.

المستخلص إلى علم الكيمياء!؟ فكما قالوا: طلب الدليل بعد الوصول إلى المدلول قبيح![١]

وقد نُقلَ عنْ (صاحب المواقف) في كتاب (دلائل الصدق) في شرح (نهج الحق) قوله بأن نفي (الحلول) و(الإتحاد) ثلاث طوائف، واعتبر بعضَ المتصوّفة من الجماعة الثانية وقال: إن كلامهم متذبذب بين الحلول والإتحاد (يُقصد بالحلول نفوذ الله في الأشياء ويُقصد بالإتحاد الوحدة بينه وبين الأشياء).

ثم أضاف قائلاً: رأيتُ بعض (المتصوّفة الوجوديين) يُنكرون الحلول والإتحاد، ويقولون: توحي هاتان الكلمتان بمغايرة الله للمخلوقين، ونحن لا نؤمن بذلك! فنحن نقول: (ليس في دار الوجود غيره ديّار)!!

وهنا يقول صاحب المواقف: ان هذا العذر أقبح من الذنب[٢].

وبالطبع فان للمتصوفة الكثير من قبيل هذا الكلام الذي لايتناسب مع الموازين ومنطق العقل، ولا مع منطق الشرع.

وعلى أي حال فإن الأتحاد الحقيقي بين شيئين محالٌ، كما ورد في كلام المرحوم العلاّمة، لأن هذا الكلام عين التّضاد، فكيف يُمكن لشيئين أن يصيرا شيئاً واحداً، إضافةً إلى ذلك فلو اعتقد أحدٌ باتحاد الله مع جميع المخلوقات أو خواص العرفاء والواصلين، لاستلزم أن يتصف بصفات الممكنات كالزمان، والمكان، والتغيُّر، وما شاكل ذلك.

وأمّا بخصوص (الحلول)، أي نفوذ الله في الأشياء، فيستلزم خضوعه للمكان، وهذا شيءٌ لا يتناسب أبداً مع وجوب وجود الله سبحانه وتعالىٰ[٣].

---

١ ـ دفتر المثنوي الخامس: ص ٨١٨ طبع سبهر طهران.

٢ ـ دلائل الصدق: ج ١، ص ١٣٧.

٣ ـ يجدر الأنتباه إلى ان نفس هذا المفهوم بخصوص بُطلان الحلول والإتحاد قد ورد في شرح ⇦

والخلاصة أن الصوفيين يعتقدون بعدم إمكانية إثبات مثل هذه الإدّعاءات بالأدلة العقليّة، وغالباً ما يفصلون طريقهم عن طريق العقل، ويستعينون بسلسلة من المسائل الذوقيّة الخياليّة التي يسّمونها (طريق القلب)، ومن المسلم به لا يُمكن التوقُّع ممن يرفض منطق العقل سوى هذا الكلام المتناقض.

ولذلك فقد ابتعد عنهم كبار العلماء وطردوهم دائماً وفي جميع العصور.

فالقرآن الكريم يستند في الكثير من آياته على العقل والبرهان ويعدّهما طريقاً لمعرفة الله.[1]

⇦تجريد العقائد للعلامة الحلّي باستدلالٍ مفصَّل. (كشف المراد، ص ٢٢٧، باب انه تعالى ليس بحالٍّ في غيره ونفي الإتّحاد عنه).

١ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦.

٢٨

كيف يمكن تصوّر علم الله بالحوادث المستقبليّة؟

كيف يمكن تصور علم الله بالحوادث المستقبلية التي ليس لها وجود خارجي في الوقت الحاضر حتىٰ تقع في دائرة علم الله ؟ فهل توجد لدىٰ الله مفاهيم وصور ذهنية عنها ؟ مع تقدّسه سبحانه عن أن يكون له ذهن، أو أن يكون علمه حصولياً ؟ اذاً ما علينا إلا أن نستسلم ونقول: بأنه سبحانه لا يعلم بالحوادث المستقبلية! لأن العلم الحضوري منتفٍ بالنسبة الىٰ المعدوم، والعلم الحصولي لله تعالىٰ غير صحيح أيضاً.

علىٰ الرغم من أن هذا السؤال والاشكال قد طرح حول العلم بالحوادث المستقبلية، إلاّ أنه يرد بنفسه حول الحوادث الماضية المعدومة أيضاً، لأن الحوادث الماضية لا وجود لها الآن، فصورة (فرعون) أو بني إسرائيل وأصحاب (موسىٰ) مثلاً لا وجود لها حالياً وقد تلاشت، كما أن تأريخها قد فات أيضاً، فنحن نستطيع الوقوف على الماضي بمجرد أن نستحضر في أذهاننا صوره فحسب. لأن علمنا علم حصولي يتحقق بواسطة المفاهيم والصور الذهنية فقط، وبما أن علم الله علمٌ حضوري فهو لايعرف أي لون من الوساطة والمفاهيم. فكيف يمكن تصوُّر علمه بالحوادث الماضية ؟

☑ ١ـ إن الله محيط دائماً بذاته المقدسة التي هي علّة جميع الكائنات، وهذا العلم الإجمالي بجميع حوادث وموجودات الوجود أزلي وأبدي (أي قبل الايجاد وبعده).

وبتعبير آخر لو علمنا علل الاشياء، لاستطعنا أن نعلم نتائجها ومعلولاتها أيضاً، لأن كُل علة تستبطن جميع كمالاتها معلولها وأكثر.

ويمكن شرح هذا الكلام بشكل أوضح كما يلي:

إن الحوادث الماضية لم تنمح تماماً، فان آثارها موجودة في طيّات الحوادث الآتية، وكذلك بالنسبة الىٰ الحوادث المستقبلية فهي غير منفصلة عن الحوادث الآنية، ولها علاقة معها، وعليه فـ«الماضي» و«الحاضر» و«المستقبل» يشكلون معاً سلسلة شبيهة بالعلة والمعلول، بحيث لو اطلّعنا علىٰ كل واحدة منها بدقة، لشاهدنا فيه الحلقات القبلية والبعدية لهذه السلسلة.

فمثلاً لو أحَطْتُ علماً وبدقة بمناخ جميع الكرة الأرضية، وبكل مميزاته، وجزئياته، وعلله، ومعلولاته، وحركة الكرة الارضية، ومسألة الفعل ورد الفعل، لاستطعت أن أُحيط علماً بوضعية المناخ قبل أو بعد ملايين السنين بصورة دقيقة. لأن شواهد الماضي والمستقبل موجودة فعلاً، لا الشواهد الإجمالية بل تفصيلات الشواهد المنعكسة في جزئيات الحاضر.

فالحاضر يعكس الماضي، والمستقبل يعكس الحاضر، والاحاطة العلمية الكاملة بجزئيات الحاضر، معناها الإحاطة الكاملة بحوادث الماضي والمستقبل.

لذا فعندنا تكون حوادث الحاضر ماثلة بين يدي الله تعالىٰ بجميع خصوصياتها، فإنها بمعنىٰ مثول الماضي والمستقبل أيضاً بين يديه عزّوجل.

فالحاضر مرآة للماضي والمستقبل، ويمكن مشاهدة جميع الحوادث الماضية والمستقبلية في مرآة الحاضر (فتأمل).

٢ـ ويوجد طريق آخر للإجابة علىٰ هذا السؤال نوضحه بالمثال التالي: تصوروا أن شخصاً محبوسٌ في غرفة صغيرة لايوجد فيها سوىٰ ثقب صغير يُطلُّ علىٰ

الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذا الثقب، فإنّ هذا السجين سوف يشاهد رأس بعير أولاً، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الابل الأُخرىٰ، فصغر الثقب هذا هو السبب في ايجاد حالات من الماضي والحاضر والمستقبل لدىٰ الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماماً بالنسبة للواقف علىٰ سطح الغرفة وينظر الىٰ الصحراء نظرة شاملة، فهو يُشاهد جميع إبل القافلة في وقتٍ واحد.

ومن هنا يتضح أن ايجاد مفاهيم الماضي والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الانسان، فما هو ماضٍ بالنسبة لنا كان مستقبلاً لأقوام قد سبقونا وما هو مستقبل بالنسبة لنا الآن ماضياً بالنسبة لأقوامٍ ستأتي فيما بعد.

أما الذات الموجودة في كل مكان وقد أحاطت بالأزل والأبد، فإن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لها لا معنىٰ له، فجميع حوادث الدهر ماثلة بين يديها (ولكن كل واحدة في موقعها الخاص)، وهي محيطة علماً بجميع الحوادث وموجودات العالم، سواءً بالماضي، وبالحاضر، وبالمستقبل بصورة متساوية.

ونحن نُقرّ طبعاً بأن تصوّر هذه المسألة بالنسبة لنا نحن المحبوسين في سجن الزمان والمكان، أمر صعب ومعقّد، ولكنه في نفس الوقت قابل للتدقيق والمطالعة.

٣ـ الطريق الآخر الذي إستند عليه الكثير من الفلاسفة، هو أن الله تعالىٰ عالم بذاته المقدسة، وبما أن ذاته علّة جميع المخلوقات، فإن العلم بالعلة سيكون سبباً للعلم بالمعلول وبتعبير آخر فإن الله تعالىٰ جامع لجميع الكمالات الموجودة في جميع المخلوقات بأتم صورة، وما هو غير موجود في ذاته المقدسة هو نقائص المخلوقات فقط.

اذن، فعلمه تعالى بذاته هو بالحقيقة علمه بجميع المخلوقات. (وهناك فرق دقيق بين هذا الطريق والطريق الأول يتّضح من خلال التأمل).[1]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ٨٥ ـ ٨٨.

٢٩

ما هو البداء؟

نقرأ في سورة الرعد الآية ٣٩ ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هنا يثار سؤال و هو ما المقصود من البداء بالنسبة إلى الله تبارك و تعالى؟

☑ «البداء» أحد البحوث العويصة بين الشيعة والسنّة.

يقول الرازي في تفسيره الكبير في ذيل الآية ـ محلّ البحث ـ: «يعتقد الشيعة أنّ البداء جائز على الله، وحقيقة البداء عندهم أنّ الشخص يعتقد بشيء ثمّ يظهر له خلاف ذلك الإعتقاد، ولإثبات ذلك يتمسكون بالآية ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ ثمّ يضيف الرازي: إنّ هذه العقيدة باطلة، لأنّ علم الله من لوازم ذاته، ومحال التغيير والتبديل فيه».

وممّا يؤسف له حقّاً عدم المعرفة بعقيدة الشيعة في مسألة البداء أدّت إلى أن ينسب كثيرون تهماً غير صحيحة إلى الشيعة الإماميّة.

ولتوضيح ذلك نقول:

«البداء» في اللغة بمعنى الظهور والوضوح الكامل، وله معنىً آخر هو الندم، لأنّ

الشخص النادم قد ظهرت له ـ حتماً ـ أُمور جديدة.

لا شكّ، إنّ هذا المعنى الأخير بالنسبة إلى الله تعالى مستحيل، ولا يمكن لأي عاقل وعارف أن يحتمل أنّ هناك أُموراً خافية على الله ثمّ تظهر له بمرور الأيّام، فهذا القول هو الكفر بعينه، ولازمه نسبة الجهل وعدم المعرفة إلى ذاته المقدّسة، وأنّ ذاته محلّاً للتغيير والحوادث.

وحاشا للشيعة الإماميّة أن يحتملوا ذلك بالنسبة لذات الله المقدّسة! إنّ ما يعتقده الشيعة من معنى البداء ويصرّون عليه، هو طبقاً لما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام: ما عرف الله حقّ معرفته من لم يعرفه بالبداء.

كثيراً ما يكون ـ وطبقاً لظواهر العلل والأسباب ـ أن نشعر أنّ حادثة ما سوف تقع أو أنّ وقوع مثل هذه الحادثة قد أخبر عنه النّبي، في الوقت الذي نرى أنّ هذه الحادثة لم تقع، فنقول حينها: إنّ «البداء» قد حصل، وهذا يعني أنّ الذي كنّا نـراه بحسب الظاهر سوف يقع وإعتقدنا تحقّقه بشكل قاطع قد ظهر خلافه.

والأصل في هذا المعنى هو ما قلناه في بحثنا السابق، وهو أنّ معرفتنا مرّةً تكون فقط بالعلل الناقصة، ولا نرى الشروط والموانع ونقضي طبقاً لذلك، ولكن بعد أن نواجه فقدان الشرط أو وجود المانع ويتحقّق خلاف ما كنّا نتوقّعه سوف ننتبه إلى هذه المسائل. وكذلك قد يعلم النّبي أو الإمام بأُمور مكتوبة في لوح المحو والإثبات القابل للتغيير طبعاً، فقد لا تتحقّق أحياناً لمواجهتها بالموانع وفقدان الشروط.

ولكي تتّضح هذه الحقيقة لابدّ من مقايسة بين «النسخ» و «البداء»: نحن نعلم أنّ النسخ جائز عند جميع المسلمين، يعني من الممكن أن ينزل حكم فـي الشـريعة فيتصوّر الناس أنّ هذا الحكم دائمي، لكي بعد مدّة يعلن الرّسول صلى الله عليه وآله عن تـغيير هذا الحكم وينسخه، ويحلّ محلّه حكماً آخر (كما قرأنا في حادثة تغيير القبلة).

إنّ هذا في الحقيقة نوع من «البداء» ولكن في القـضايا التشـريعيّة والقـوانـين والأحكام يسمّونه بـ«النسخ» وفي الأُمور التكوينيّة يسمّى بـ«البداء» ويقال أحياناً:

(النسخ في الأحكام نوع من البداء، والبداء في الأُمور التكوينيّة نوع من النسخ).

فهل يستطيع أحد أن ينكر هذا الأمر المنطقي؟ إلّا إذا كان لا يفرّق بين العلّة التامّة والعلل الناقصة. أو كان واقعاً تحت تأثير الدعايات المغرضة ضدّ شيعة أهل البيت عليهم السلام، ولا يجيز له تعصّبه الأعمى أن يطالع عقائد الشيعة من نفس كتبهم، والعجيب أنّ الرازي قد ذكر مسألة «البداء» عند الشيعة في ذيل الآية ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ بدون أن يلتفت إلى أنّ البداء ليس أكثر من المحو والإثبات، وهجم على الشيعة بعصبيته المعروفة وإستنكر عليهم قولهم بالبداء.

اسمحوا لنا هنا لِن نذكر أمثلة مقبولة عند الجميع:

١ ـ نقرأ في قصّة «يونس» أنّ عدم طاعة قومه أدّت إلى أن ينزل العذاب الإلهي عليهم، وقد تركهم النّبي لعدم هدايتهم وإستحقاقهم العذاب، لكن فجأةً وقع البداء حيث رأى أحد علمائهم آثار العذاب، فجمعهم ودعاهم إلى التوبة، فقبل الجميع ورفع العذاب ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوْا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

٢ ـ وجاء في التأريخ الإسلامي أنّ السيّد المسيح عليه السلام أخبر عن عروس أنّها سوف تموت في ليلة زفافها، لكنّها بقيت سالمة! وعندما سألوه عن الحادثة قال: هل تصدّقتم في هذا اليوم؟ قالوا: نعم. قال: الصدقة تدفع البلاء المبرم[2]!.

لقد أخبر السيّد المسيح عليه السلام عن هذه الحادثة بسبب إرتباطه بلوح المحو والإثبات، في الوقت الذي كانت هذه الحادثة مشروطة (مشروطة بأن لا يكون هناك مانع مثل الصدقة) وبما أنّها واجهت المانع أصبحت النتيجة شيئاً آخر.

٣ ـ ونقرأ في قصّة إبراهيم عليه السلام ـ محطّم الأصنام ـ في القرآن الكريم أنّه أُمر

---

١ ـ يونس، ٩٨.

٢ ـ بحار الأنوار الطبعة القديمة المجلّد الثّاني صفحة ١٣١ ـ عن أمالي الصدوق.

بذبح إسماعيل، وذهب بإبنه إلى المذبح وتـلّه للـجبين، فـعندما أظـهر إسـماعيل إستعداده للذبح ظهر البداء الإلهي وظهر أنّ هذا الأمر إمتحان لكي يرى الله تعالى مستوى الطاعة والتسليم عند إبراهيم عليه السلام.

٤ ـ ونقرأ في سيرة موسى عليه السلام أنّه أُمر أن يترك قومه أوّلاً ثلاثين يوماً ويذهب إلى مكان الوعد الإلهي لإستلام أحكام التوراة، لكن المدّة زادت عليها عشرة أيّام أُخرىٰ (وذلك إمتحاناً لبني إسرائيل).

هنا يأتي هذا السؤال: ما هي الفائدة من هذه البداءات؟

الجواب على هذا السؤال ليس صعباً بالنظر إلى ما قلناه سـابقاً، لأنّـه تـحدث مسائل مهمّة ـ أحياناً ـ مثل إمتحان شخص مع قومه، أو تأثير التوبة والرجوع إلى الله (كما في قصّة يونس) أو تأثير الصدقة ومساعدة المحتاجين وعمل الخير، كلّ ذلك يؤدّي إلى دفع الحوادث المفجعة وأمثالها، وهذا يعني أنّ الحوادث المستقبلية قد نُظِّمَت بشكل خاص ثمّ تغيّرت الشرائط فأصبحت شيئاً آخر، حتّى يعلم الناس أنّ مصيرهم بأيديهم، وهم قادرون أن يغيّروا مصيرهم من خـلال تـغيير سـيرتهم وسلوكهم، وهذه أكبر فائدة نلمسها من البداء «فتدبّر».

فما ورد من أنّ أحداً إذا لم يعرف الله بالبداء لم يعرفه معرفةً كاملة، فهي إشارة لتلك الحقائق.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما بعث الله عزّوجلّ نبيّاً حتّى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، وخلع الأنداد، وأنّ الله يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء»[١].

وفي الحقيقة إنّ أوّل عهد مرتبط بالطاعة والتسليم لله. وثاني عهد محاربة الشرك، والثّالث مرتبط بمسألة البداء، ونتيجته أنّ مصيره بيده، فيستطيع أن يغيّر الشـروط فيشمله اللطف أو العذاب الإلهي.

---

١ ـ أُصول الكافي، المجلّد الأوّل، صفحة ١١٤ ـ سفينة البحار، المجلّد الأوّل، صفحة ٦١.

الملاحظة الأخيرة في هذا المجال .. يقول علماء الشيعة: إنّنا حينما ننسب البداء إلى الله جلّ وعلا فإنّه يكون بمعنى «الإبداء» بمعنى إظهار الشيء الذي لم يكن ظاهراً لنا من قبل ولم يكن متوقّعاً.

وإنّ ما ينسب إلى الشيعة بأنّهم يعتقدون أنّ الله يندم على عمله أحياناً، أو يخبر عن شيء لم يعلمه سابقاً، فهذه من أكبر التُّهم ولا يمكن الصفح عنها أبداً.

لذلك نقل عن الأئمّة عليهم السلام أنّهم قالوا: «من زعم أن الله عزّوجلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرئوا منه»[1][2].

---

١ ـ سفينة البحار، المجلّد الأوّل، صفحة ٦١.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٧/٤٣٤.

٣٠

هل التوسل بأولياء الله ينسجم مع التوحيد؟

☑ ١ ـ الجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعني ـ أبداً ـ طلب شيء من شخص النّبي أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن ـ عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النّبي والإمام ـ بطلب الشفاعة منهم إلى الله، أو أن يقسم بجاههم وبدينهم (وهذا يعتبر نوعاً من الإحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من الله بذلك حاجته، وليس في هذا المعنى أيّ أثر للشرك، و لا يخالف الآيات القرآنية.

٢ ـ هناك آيات قرآنية تدل بوضوح على أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند الله، وطلب شيء من اللّه عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند الله، لا يعتبر أمراً محظوراً ولا ينافي التوحيد.

فنحن نقرأ في الآية (٦٤) من سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ٦٨٩/٣.

التوسّل في الروايات الإسلاميّة

إنّ الروايات العديدة التي وردت عن طرق الشيعة والسنة تفيد بوضوح أنّ التوسل لا ريب ولا شبهة فيه، بل أنّه يعد عملاً جيداً أيضاً، وهذه الرّوايات كثيرة وقد نقلتها كتب عديدة، ونحن نورد بعضاً منها مما ورد في مصادر جمهور السنّة على سبيل المثال لا الحصر.

١ ـ جاء في كتاب «وفاء الوفا» لمؤلّفه العالم السنّي المشهور «السمهودي» إن طلب العون والشفاعة من النّبيﷺ أو التوسل إلى الله بجاه النّبي وشخصه جائز قبل أن يولدﷺ وبعد ولادته ووفاته وفي عالم البرزخ وفي يوم القيامة، ثمّ ينقل «السمهودي» في هذا المجال عن عمر بن الخطاب الرواية المعروفة التي تتحدث عن توسل آدمعليه السلام إلى الله بنبي الإسلام محمّدﷺ وذلك لعلم آدم بأنّ هذا النّبي سيأتي إلى الوجود في المستقبل، ولعلمه بالمنزلة العظيمة التي يحظى بها عند الله، فيقول آدم: **«ربّ إنّي أسألك بحق محمّد لما غفرت لي»**[1].

ثمّ ينقل «السمهودي» حديثاً آخر عن جماعة من رواة الحديث كالنسائي والترمذي، وهما عالمان مشهوران من أهل السنّة، كدليل على جواز التوسل بالنّبيﷺ في حياته وخلاصة هذا الحديث إنّ رجلاً بصيراً طلب من النّبي أن يدعو له بشفاء مريضه، فأمره النّبيﷺ بتلاوة هذا الدعاء: **«اللّهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرّحمة يا محمّد إنّي توجهت بك إلى ربّي في حاجتي لتقضي لي، اللّهم شفعه فيّ»**[2].

وبعد هذا الحديث ينقل «السمهودي» حديثاً ثالثاً في جواز التوسل بالنّبيﷺ بعد وفاته، فيذكر أن صاحب حاجة جاء في زمن عثمان إلى قبر النّبيﷺ، فجلس

---

١ ـ وفاء الوفاء، ج ٣، ص ١٣٧١، في كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» نقل الحديث المذكور أعلاه كواحد من دلائل النبوة، ص ٢١٥.

٢ ـ كتاب (وفاء الوفاء)، ص ١٣٧٢.

بجوار القبر ودعا الله بهذا الدعاء: «اللّهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّنا محمّدﷺ نبي الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجه بك إلى ربّك أن تقضي حاجتي».

ثمّ يضيف «السمهودي» إنّه لم تمض فترة حتى قضيت حاجة الرجل[١].

٢ ـ صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» الذي يعارض بشدة موضوع التوسل فهو ينقل (٢٦) حديثاً من كتب ومصادر مختلفة ينعكس منها جواز التوسل، ومع أنّه سعى في أن يطعن بإسناد تلك الأحاديث، إلّا أنّ الواضح هو أنّه متى ما كانت الروايات كثيرة ـ في موضوع معين لدرجة التواتر ـ لا يبقى عند ذلك مجال للطعن، والتجريح في سند الحديث، والروايات التي وردت في المصادر الإسلامية بشأن التوسل قد تجاوزت حدّ التواتر لكثرتها.

ومن هذه الأحاديث التي رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالي: نقل «ابن حجر المكي» صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام «الشافعي»، وهو أحد أئمّة السنّة الأربعة المشهورين، أنّه كان يتوسل إلى أهل بيت النّبي ويقول:

آل النّـــبي ذريـــعتي ... وهـــم إليـــه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غـداً ... بيد اليمين صحيفتي[٢]

وينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضاً عـن (البـيهقي) أن الجـفاف أصـاب المسلمين في أحد الأعوام من عهد الخليفة الثّاني، فذهب بلال ومـعه عـدد مـن الصـحابة إلى قـبر النّـبيﷺ وقـال: «يـا رسـول الله اسـتسق لأُمـتك ... فـإنّهم قد هلكوا...»[٣].

ونقل أيضاً عن «ابن حجر» من كتاب «الخيارات الحسان» أنّ الإمام الشافعي

---

١ ـ وفاء الوفاء، ص ١٣٧٣.

٢ ـ كتاب «التوصل ...»، ص ٣٢٩.

٣ ـ كتاب التوصل ...، ص ٢٥٣.

كان أثناء وجوده في بغداد يزور أبا حنيفة ويتوسل إليه في حوائجه[١].

ومن صحيح «الدارمي» ينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضاً، أن بعض الصحابة في المدينة اشتكوا إلى عائشة ما يعانونه من الجفاف الشديد الذي أصاب البلدة في أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوة في سقف المسجد على قبر النّبيﷺ حتى ينزل الله المطر ببركة قبر النّبيﷺ ففعلوا ذلك ونزل مطر غزير!

ونقل «الآلوسي» في تفسيره الكثير من الأحاديث والروايات الشبيهة بالأحاديث المارة الذكر، ولكنّه بعد إجراء تحليل ونقاش طويل حولها حتى أنّه تشدد في نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنّه بعد البحث الذي أجراه لا يرى مانعاً من التوسل إلى الله بمقام النّبيﷺ سواء في حياته أو بعد وفاته، ثمّ أطال البحث في هذا المجال، وقال بأنّ التوسل إلى الله بمقام غير النّبي لا مانع فيه ـ أيضاً ـ شريطة أن يكون المتوسل به صاحب منزلة عند الله[٢].

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا نرى معه أي حاجة إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

ملاحظات ضرورية:

نرى من الضروري ـ هنا ـ الإشارة إلى عدّة اُمور:

١ ـ لقد أسلفنا القول بأنّ التوسل ليس معناه طلب الحاجة من النّبي أو الإمام، بل المراد منه جعل النّبي أو الإمام شفيعاً إلى الله في قضاء الحاجة، وهذا الأمر ـ في الحقيقة ـ توجه إلى الله، لأن احترام النّبيﷺ إنّما هو من أجل أنّه رسول الله والسائر على هداه، والعجب هنا أن يدعي البعض أن هذا التوسل نوع من الشرك،

---

١ ـ كتاب التوصل ....، ص ٣٣١.

٢ ـ روح المعاني، (ج ٤ ـ ٦)، ص ١١٤ ـ ١١٥.

في حين أنّ المعروف عن الشرك هو القول بوجود من يشارك الله سبحانه في صفاته وأعماله، والتوسل الذي تحدثنا عنه لا صلة له مطلقاً ولا تشابه مع الشرك.

٢ ـ يصرّ البعض وجود الفرق بين حياة النّبي ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام وبين وفاتهم، وكما رأيت فإنّ الكثير من الأحاديث السالفة كان يخص ما بعد وفاة النّبي ﷺ، بالإضافة إلى ذلك فإن الفرد المسلم يعتقد بأن للنّبي والصالحين بعد وفاتهم حياة برزخية أوسع من الحياة الدنيا، وقد صرّح القرآن في هذا المجال بخصوص حياة الشهداء، حيث أكّد أنّهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربّهم[١]... .

٣ ـ وأصرّ آخرون على أنّ هناك فرقاً بين طلب الدعاء من النّبي ﷺ وبين القسم على الله بجاه النّبي، فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء ولا يجيزون ما سواه، في حين لا يوجد بين هذين الأمرين أي فرق منطقي.

٤ ـ يسعى البعض من كتاب وعلماء السنة وبالأخص «الوهابيون» منهم، وبعناد خاص، إلى الإدعاء بضعف جميع الأحاديث الواردة في موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتى الحجج الواهية.

وهؤلاء يبحثون هذا الموضوع بأُسلوب خاص يظهر من خلاله لكل ناظر محايد أنّهم اختاروا في البداية هذا الإعتقاد لأنفسهم، ثمّ يحاولون ـ بعد ذلك ـ فرضه على الرّوايات الإسلامية ويعمدون بشكل من الأشكال إلى إزاحة كل من يخالف معتقدهم هذا عن طريقهم، وهذا الأُسلوب المشوب بالعصبية ومجافاة المنطق لا يقبل به أي باحث منصف مطلقاً.

٥ ـ لقد بيّنا أنّ أحاديث التوسل قد وصلت بكثرتها إلى حد التواتر، أي أنّها لوفرتها تغني الباحث عن التحقيق في أسانيدها، إضافة إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الروايات والأحاديث الصحيحة، فلا يبقى بذلك لمن يريد

---

١ ـ آل عمران، ١٦٩.

الإعتراض على بعض الأسانيد أي مجال.

٦ ـ ويتبيّن ممّا قلناه سابقاً أن لا تناقض بين الروايات التي وردت في تفسير الآية الأخيرة تلك التي تقول بأن النّبي دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيلة من الله، أو ما جاء عن الإمام علي عليه السلام في كتاب «الكافي» من أنّه قال: بأنّ (الوسيلة) هي أرفع وأسمى منزلة في الجنّة فلاينافي ما ذكرناه نحن في تفسير الآية، لأنّ الوسيلة ـ كما أوضحنا ـ تشمل كل أنواع التقرب إلى الله، وإن تقرب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله، وكذلك ما قيل عن أرفع منزلة في الجنّة، هما من مصاديق الوسيلة[١].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/٦٩٠.

٣١

لماذا لا تقبل توبة المرتدّ الفطري؟

☑ لايواجه الإسلام الذين لا يعتنقون الإسلام من (أهل الكتاب) بالشدّة والقسوة وإنّما يدعوهم باستمرار ويتحدث معهم بالمنطق السليم، فإذا لم يقتنعوا وراموا البقاء علىٰ ديانتهم فيعطون الأمان والتعهد بحفظ أموالهم وأرواحهم ومصالحهم المشروعة بعد أن يعلنوا قبول شرط أهل الذمة في عهدهم مع المسلمين.

أمّا الذين يقبلون الإسلام ومن ثمّ يرتدون عنه فيواجهون بشدّة وعنف، لأنّ عملاً كهذا يؤدي إلىٰ أضرار فادحة تصيب المجتمع الإسلامي، وهو بمثابة نوع من الحرب ضد الحكومة الإسلامية، وغالباً ما يصدر مثل هذا العمل مستبطناً النية السيئة بإيصال أسرار المجتمع الإسلامي (ونقاط القوة والضعف) ليد الأعداء المتربصين للمسلمين الدوائر.

فلهذا، مَنْ انعقدت نطفته وكان أبواه مسلمين عند انعقاد النطفة (مسلم الولادة) ثمّ تثبت المحكمة الإسلامية بأنّه قد ارتد عن الإسلام يباح دمه، تقسّم أمواله علىٰ ورثته، تبيّن عنه زوجته، وظاهراً لا تقبل توبته، أيْ أنّ هذه الأحكام الثلاثة تجري

في حقه علىٰ كل حال، ولكن إذا ندم وتاب صادقاً، فإنّ توبته ستقبل عند اللّه تعالىٰ (وتوبة المرأة تقبل علىٰ الأطلاق).

وإذا ارتدَّ إنسان ما عن الإسلام ولم يكن مسلماً بالولادة، يتعيّن عليه التوبة، فإنَّ تاب قُبِلَتْ توبته وينجو من العقاب.

وقد يُنْظَر للحكم السياسي الصادر بحقّ المرتدّ الفطري علىٰ أنّ فيه نوعاً من الخشونة والقسوة وفرضاً للعقيدة وسلباً لحرية الفكر، ولكنّ حقيقة هذه الأحكام تختص بمن يظهر عقائده المخالفة أو يدعو لها ولا تطال من يعتقد باعتقادات مخالفة ولكنّه لم يظهرها للناس، لأنّ الدعوة للعقائد المخالفة تمثل في واقعها حرباً للنظام الإجتماعي الموجود، وعليه فلا تكون الخشونة والحال هذه عبثاً، ولا تتنافىٰ وحرية الفكر والإعتقاد، وكما قلنا فإنّ شبيه هذا القانون موجود في كثر من دول الغرب والشرق مع بعض الإختلافات.

وينبغي الإلتفات إلىٰ أنّ قبول الإسلام يجب أن يكون طبقاً للمنطق، والذي يولد من أبوين مسلمين وينشأ بين أحضان بيئة إسلامية، فمن البعيد عدم ادراكه محتوىٰ الإسلام، ولهذا يكون ارتداده وعدوله عن الإسلام أشبه بالخيانة منه من عدم إدراك الحقيقة، ولذلك فهو يستحق ما خُطَّ في حقه من عقاب.

علىٰ أنّ الأحكام عادةً لا تخصص لشخص أو شخصين وإنّما يلحظ فيها المجموع العام.

غير أنّ لهذا الحكم فلسفة أساساً، وهي حفظة الجبهة الداخلية في بلاد الإسلام ضدّ نفوذ المنافقين والأجانب، وللحيلولة دون تفكّكها واضمحلالها. إنّ الإرتداد ضرب من التمرّد على نظام البلد الإسلامي، وحكمه الإعدام في أنظمة الكثير من قوانين العالم اليوم. إذ لو أُجيز لمن يشاء أن يعتنق الإسلام متىٰ شاء وأن يرتدّ عنه متىٰ شاء، لتحطّمت الجبهة الداخلية سريعاً، ولانفتحت أبواب البلد أمام الأعداء وعملائهم، ولساد المجتمع الإسلامي الهرج والمرج. وبناءً على ذلك فإنّ هذا الحكم

حكم سياسي في الواقع، ولابدّ منه لحماية الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي وللضرب على أيدي العملاء والأجانب.

أضف إلى ذلك أنّ من يتقبّل الإسلام بعد التحقّق والتدقيق، ثمّ يتركه ليعتنق ديناً آخر، لا يمتلك دوافع سليمة ومنطقية، وهو بذلك يستحقّ أشدّ العقوبات. أمّا تخفيف هذا الحكم بالنسبة للمرأة، فلأنّ جميع العقوبات تخفّف بشأنها[١].

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/٥٨٦.

٣٢

لماذا نرفع أيدينا إلىٰ السماء أثناء الدعاء ؟

غالباً ما يُطرح هذا السؤال من قبل عامّة النّاس وهو: إذا لم يكن لله تعالىٰ مكانٌ معيّنٌ فلماذا ننظر إلىٰ السماء أثناء الدعاء؟ ونرفع ايدينا نحو السماء؟ فهل هو سبحانه موجودٌ في السماء «والعياذ بالله»؟

☑ وقد طُرح هذا السؤال في زمان الأئمة المعصومينعليهم السلام أيضاً، فقد روىٰ «هشام بن الحكم» أن زنديقاً دخل علىٰ الأمام الصادقعليه السلام وسأله عن آية ﴿الرَّحْمٰنُ عَلى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ﴾.

فأجابه الإمامعليه السلام موضحّاً: «... ونفينا أن يكون العرش أو الكرسي حاوياً له، وان يكون عزّوجلّ محتاجاً الىٰ شيء مما خلق، بل خلقه محتاجون اليه».

فقال السائل: اذاً، لا فرق في أن ترفعوا أيديكم اثناء الدعاء الىٰ السماء أو تنزلوها الىٰ الأرض!

فقال الامامعليه السلام «ذلك في علمه واحاطته وقدرته سواء، ولكنه عزَّ وجلّ امر اوليائه وعباده برفع ايديهم الىٰ السماء نحو العرش، لأنه جعله معدن الرزق، فثبتنا

ما ثبته القرآن والاخبار عن الرسولﷺ حيث قال: ارفعوا ايديكم الىٰ الله عزّوجلّ، وهذا يجمع عليه فرق الأمة كلها»[١].

ورد في الخصال عن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام، في حديثٍ آخر أنّه قال: «إذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه إلىٰ السماء، ولينصبّ في الدعاء فقال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين اليس الله عزوجل في كل مكان؟ قال: بلىٰ، قال: فلم يرفع يديه الىٰ السماء؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فمن اين تطلب الرزق اَلا من موضع الرزق وما وعد الله عزّوجلّ السماء»[٢].

وطبقاً لما جاء في هذه الروايات فانّ أغلب أرزاق الناس تنزل من السماء، (فالمطر الذي يُحيي الأرض الميتة ينزلُ من السماء، ونور الشمس الذي يُعَدُّ منبعاً للحياة، يشعُ من السماء، والهواء الذي يُعد العامل المهم الثالث للحياة، موجود في السماء، فإن السماء عُرِفَتْ كمعدنٍ للبركات والأرزاق الإلهية، وتُرفَعُ الأيدي نحوها عند الدعاء طلباً ورجاءً من خالق ومالك كل تلك الأرزاق في حل المعضلات.

ويستنتج من بعض الروايات وجود فلسفة أخرى لهذا العمل وهو إظهار الخضوع والتذَلُّل للباري، لأن الإنسان يرفع يديه حينما يظهر خضوعه واستسلامه لشخص أو شيء معين.[٣]

١ ـ البحار: ج ٣، ص ٣٣٠ ـ توحيد الصدوق ـ ص ٢٤٨، ج ١، الباب ٣٦.

٢ ـ البحار: ج ٩٠، ص ٣٠٨، الحديث السابع. وقد ورد الحديثان السابقان في تفسير نور الثقلين: ج ٥، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

٣ ـ نفحات القرآن ج ٤ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

العدل الإلهي

٣٣

التفاوت الطبيعي بين النّاس لماذا؟:

نقرأ في سورة النساء الآية ٣٢ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ نظراً إلى هذه الأية كثير من النّاس يطرحون على أنفسهم السّؤال التالي: لماذا خلق البعض بمواهب وقابليات أكثر، وآخرون بمواهب وقابليات أقل، والبعض متحلين بالجمال، وآخرون خُلوٌ منه، أو بجمال قليل، والبعض بامتيازات جسمية عالية وقوية متفوقة، وآخرون عاديين، هل يتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهي؟؟.

☑ في الإجابة على هذه التساؤلات لابدّ من الإلتفات إلى النقاط التالية:

١ ـ إنّ بعض الفروق الجسمية والروحية بين الناس ناشئة عن الإختلافات الطبقية والمظالم الإجتماعية، أو التفريط الفردي الذي لا علاقة له بنظام الخلق وجهاز الإيجاد أبداً، فمثلاً كثير من أبناء الأغنياء أقوى من أبناء الفقراء وأكثر جمالاً وتقدماً من ناحية المواهب والقابليات بسبب أن الفريق الأوّل (أولاد الأغنياء) يحظى بإمكانيات أكبر من حيث الغذاء والجوانب الصحية، في حين يعاني الفريق الثاني من حرمان ونقصان من هذه الجهة. أو أن هناك من يخسر الكثير من طاقاته

الجسمية والروحية بسبب التواني، والبطالة، والتفريط والتقصير.

إنّنا يجب أن نعتبر هذه الفروق وهذا التفاوت تفاوتاً ومصطنعاً ومزيفاً، وغير مبرر، ويتحقق القضاء عليها من خلال القضاء على النظام الطبقي، وتعميم العدالة الإجتماعية في الحياة البشرية، والقرآن الكريم والإسلام لا يقرّ أي شيء من هذه الفروق، وأي لون من ألوان هذا التفاوت والتمييز أبداً.

٢ ـ إنّ القسم الآخر من الفروق وألوان التفاوت أمر طبيعي، وشيء لازم من لوازم الجبلة البشرية، بل وضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، يعني أنّ مجتمعاً من المجتمعات حتى إذا كان يحظى بالعدالة الإجتماعية الكاملة لا يمكن أن يكون جميع أفراده متساوين وعلى نمط واحد وصورة واحدة مثل منتجات معمل. بل لابدّ أن يكون هناك بعض التفاوت، ولكن يجب أن نعلم أنّ المواهب الإلهية والقابليات الجسمية والروحية قد قسمت ـ في الأغلب ـ تقسيماً يصيب فيه كل واحد قسطاً من تلك المواهب والقابليات. لا أن يحظى بعض بجميع المواهب، ويحرم آخرون من أي شيء منها، وبمعنى أنّه قل أن يوجد هناك من تجتمع فيه كل المواهب جملة واحدة، بل هناك من يحظى بالمقدرة البدنية الكافية، وآخر يحظى بموهبة رياضية جيدة، ومن يحظى بذوق شعري رفيع، وآخر يحظىٰ برغبة كبيرة في التجارة، ومن يتمتع بذكاء وافر في مجال الزراعة، وآخر بمواهب وقابليات خاصّة أُخرىٰ.

المهم أن يكتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلك المواهب والقابليات، وأن يقوموا بتربيتها وتنميته في بيئة سليمة، حتى يتمكن كل إنسان إظهار ما ينطوي عليه من نقطة ضعف ويستفيد منها.

٣ ـ يجب أن نذكر القارىء أيضاً بأنّ المجتمع مثل الجسد الإنساني بحاجة إلى الأنسجة والعضلات والخلايا المختلفة، يعني كما أنّ البدن لو تألف جميعه من خلايا دقيقة ورقيقة مثل خلايا العين والمخ لم يدم طويلاً، ولو تألف جميعه من خلايا غليظة وخشنة لا تعرف انعطافاً مثل خلايا العظام، فقدت القدرة الكافية على القيام

بوظائفها، بل لابدّ أن تكون الخلايا المكونة للجسم متنوعة، ليصلح بعضها للقيام بوظيفة التفكير، وبعضها للمشاهدة والنظر، وآخر على الإستماع ورابع على التحدث، هكذا لابدّ لوجود «المجتمع الكامل» من وجود عناصر ذات مواهب وقابليات وأذواق، وتراكيب مختلفة متنوعة، بدنية وفكرية، لكن لا يعني هذا أن يعاني بعض أعضاء الجسد الإجتماعي من حرمان، أو تستصغر خدماته أو يستحقر دوره، تماماً كما تستفيد كل خلايا البدن الواحد رغم ما بينها من تفاوت وفروق من الغذاء والهواء وغيرها من الحاجات بالمقدار اللازم لكل واحد.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الفروق وأشكال التفاوت في البنية الروحية والجسمية في الجوانب الطبيعة (التي لا هي ظالمة ولا هي مفروضة) إنّما هي في الحقيقة مقتضى «الحكمة الرّبانية»، والعدل لا يمكنه بحال أن ينفصل عن الحكمة.

فعلى سبيل المثال إذا كانت خلايا الجسم البشري مخلوقة في شكل واحد كان ذلك بعيداً عن الحكمة كما أنّه خال عن العدل الذي يعني وضع كل شيء في محله وموضعه المناسب، وكذلك إذا تشابه الناس في يوم من الأيّام في التفكير أو تشابهوا في القابلية والموهبة لتهافت بنيان المجتمع برمته في ذلك اليوم(١).

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/٢١٢.

٣٤

هل التفاضل في الرّزق من العدالة؟!...

☑ نقرأ في سورة النمل الآية ٧١ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل أنّ إيجاد التفاوت والإختلاف في الأرزاق بين الناس، ينسجم مع عدالة اللّه عزَّ وجلّ ومساواته بين خلقه، التي ينبغي أن تحكم نظام المجتمع البشري؟

لأجل الإجابة، ينبغي الإلتفات إلىٰ الملاحظتين التاليتين:

١ ـ إنّ الإختلاف الموجود بين البشر في جانب الموارد المادية يرتبط بالتباين الناشيء بين الناس جراء اختلاف استعدادتهم وقابليتهم من واحد لآخر.

والتفاوت في الإستعدادين الجسمي والروحي يستلزم الإختلاف في مقدار ونوعية الفعالية الإقتصادية للأفراد، ممّا يؤدي إلىٰ زيادة وارد بعض وقلّة وارد البعض الآخر.

ولا شك أنّ بعض الحوادث والاتفاقات لها دخل في اشراء بعض الناس، الّا أنّه لا يمكن أن نعوّل عليها عند البحث لأنّها ليست أكثر من استثناء، أمّا الضابط في أكثر الحالات فهو التفاوت الموجود في كمية وكيفية السعي (ومن الطبيعي أن بحثنا

يتناول المجتمع السليم والبعيد عن الظلم والإستغلال، ولا نقصد به تلك المجتمعات المنحرفة التي تركت قوانين التكوين والنظام الإنساني جانباً وانزلقت في طرق الظلم والإستغلال).

وقد يساورنا التعجب حينما نجد بعض الفاقدين لأي مؤهل أو استعداد يتمتعون برزق وافر وجيد، ولكننا عندما نتجرّد عن الحكم من خلال الظواهر ونتوغل في أعماق مميزات ذلك البعض جسمياً ونفسياً وأخلاقياً، نجد أنّهم يتمتعون بنقاط قوة أوصلتهم إلىٰ ذلك (ونكرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع سليم خالٍ من الإستغلال).

وعلىٰ أية حال .. فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالإستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلٰهية أيضاً، وإنْ أمكن أنْ يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابي قطعاً. فإذنْ وجود التفاوت في الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الإقتصادية، ويتمّ ذلك حتىٰ داخل المجتمعات السليمة.. إلّا إذا افترضنا وجود مجموعة أفراد كلهم في هيئة واحدة من حيث: الشكل، اللون، الإستعداد ولا يعتريهم أيّ اختلاف! وإذا ما افترضنا حدوث ذلك فإنّه بداية المشاكل والويلات!

٢ ـ لو نظرنا إلىٰ بدن إنسان ما، أو إلىٰ هيكل شجرة أو باقة ورد، فهل سنجد التساوي بين أجزاء كل منها ومن جميع الجهات؟

وهل أنّ قدرة ومقاومة واستعداد جذور الشجرة مساوية لقدرة ومقاومة واستعداد أوراق الوردة الظريفة؟ وهل أن عظم قدم الإنسان لا يختلف عن شبكية عينه؟

وَهل من الصواب أن نعتبر كل ذلك شيئاً واحداً؟!

ولو تركنا الشعارات الكاذبة والفارغة من أيِّ معنىٰ، وافترضنا تساوي الناس من جميع النواحي، فنملأ الأرض بخمسة مليارات من الأفراد ذوي: الشكل الواحد،

الذوق الواحد، الفكر الواحد، بل والمتحدين في كل شيء كعلبة السجائر.. فهل نستطيع أن نضمن أنّ حياة هؤلاء ستكون جيدة؟ ستكون الإجابة بالنفي قطعاً، وسيحرق الجميع بنار التشابه المفرط والرتيب الكئيب، لأنّ الكل يتحرك في جهة واحدة، والكل يريد شيئاً واحداً، ويحبون غذاءاً واحداً، ولا يرغبون إلّا بعمل واحد!

وبديهياً ستكون حياة كهذه سريعة الإنقراض، ولو افترض لها الدوام، فإنّها ستكون متعبة ورتيبة وفاقدة لكل روح. وبعبارة أشمل سوف لا يبعدها عن الموت بون شاسع.

وعلىٰ هذا فحكمة وجود التفاوت في الإستعدادات المستتبعة لهذا التفاوت قد ألزمتها ضرورة حفظ النظام الإجتماعي، وليكون التفاوت في الإستعدادات دافعاً لتربية وإنماء الإستعدادات المختلفة للأفراد. ولا يمكن للشعارات الكاذبة أن تقف في وجه هذه الحقيقة التي يفرضها الواقع الموضوعي أبداً.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا الكلام أنّنا نريد منه إيجاد مجتمع طبقي أو نظام استغلالي واستعماري، لا. أبداً .. وإنّما نقصد بالإختلافات التفاوت الطبيعي بين الأفراد (وليس المصطنع) الذي يعاضد بعضه الآخر ويكمله (وليس الذي يكون حجر عثرة في طريق تقدم الأفراد ويدعو إلىٰ التجاوز والتعدي علىٰ الحقوق).

إنّ الإختلاف الطبقي (والمقصود من الطبقات هنا: ذلك المفهوم الإصطلاحي الذي يعني وجود طبقة مستغِلة وأُخرىٰ مستغَلة) لا ينسجم مع نظام الخليقة أبداً، ولكنّ الموافق لنظام الخليقة هو ذلك التفاوت في الإستعدادات والسعي وبذل الجهد، والفرق بين الأمرين كالفرق بين السماء والأرض ـ فتأمل.

وبعبارة أُخرىٰ، إن الإختلاف في الإستعدادات ينبغي أن يوظف لخدمة مسيرة البناء، كما في اختلاف طبيعة أعضاء بدن الإنسان أو أجزاء الوردة، فمع تفاوتها إلّا أنّها ليست متزاحمة، بل إنّ البعض يعاضد البعض الآخر وصولاً للعمل التام علىٰ أكمل وجه.

وخلاصة القول: ينبغي أن لا يكون وجود التفاوت والإختلاف في الإستعدادات وفي الدخل اليومي للأفراد دافعاً لسوء الإستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقي.

ولهذا يقول القرآن الكريم في ذيل الآية مورد البحث: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وذلك إشارة إلىٰ أن هذه الإختلافات في حالتها الطبيعية (وليس الظالمة المصطنعة) إنّما هي من النعم الإلٰهية التي أوجدها لحفظ النظام الإجتماعي البشري[١].

١ ـ تفسير الأمثل: ٢٥٢/٨ ـ ٢٥٥.

٣٥

ماهي علّة المصائب التي تصيب الإنسان؟

نقرأ في سورة الشورىٰ الآية ٣٠ ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هنا يواجهنا سؤال: ماهي علّة المصائب التي تصيب الإنسان؟

☑ من الضروري الإنتباه إلى بعض الملاحظات الواردة في هذه الآية:

١ ـ تبيّن هذه الآية وبوضوح أن المصائب التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي (بالرغم من وجود بعض الإستثناءات التي سنشير إليها فيما بعد).

وبهذا الترتيب سيتوضح لنا جانب من فلسفة الحوادث المؤلمة والمشاكل الحياتية.

والطريف في الأمر أنّنا نقرأ في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه نقل عن الرّسول صلى الله عليه وآله قوله: «خير آية في كتاب الله هذه الآية، يا علي ما من خدش عود، ولا نكبة قدم إلا بذنب، وما عفىٰ الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب

عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده»[١].

وهكذا فإنّ هذه المصائب إضافة إلى أنّها تقلل من حمل الإنسان، فإنها تجعله يتزن في المستقبل.

٢ ـ بالرغم من عمومية الآية وشمولها كلّ المصائب، لكن توجد استثناءات لكلم عامّ، مثل المصائب والمشاكل التي أصابت الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام بهدف الإختبار أو رفع مقامهم.

وأيضاً المصائب بهدف الاختبار التي تشمل غير المعصومين. أو المصائب التي تحدث بسبب الجهل أو عدم الدقة في الأمور وعدم الإستشارة والتساهل والتي هي آثار تكوينية لأعمال الإنسان نفسه.

وبعبارة أُخرىٰ فإن الجمع بين الآيات القرآنية المختلفة ـ والأحاديث ـ يقتضي التخصيص في بعض الموارد بالنسبة لهذه الآية العامة، وليس هذا موضوعاً جديداً ليكون محل نقاش بعض المفسّرين.

وخلاصة القول فإنّ هناك غايات مختلفة للمصائب والمشاكل التي تصيب الإنسان، حيث تمّت الإشارة إليها في المواضيع التوحيدية وبحوث العدل الإلهي.

فالملكات تنمو وتتكامل تحت ضغط المصائب، ويكون هناك حذر بالنسبة للمستقبل، ويقظة من الغرور والغفلة وكفارة للذنب و...

وبما أن أغلب أعمال الأفراد لها طبيعة جزائية وتكفيرية، لذا فإنّ الآية تطرح ذلك بشكل عام.

ولذا فقد ورد في الحديث أنّه وعندما دخل علي بن الحسين عليه السلام على يزيد بن

---

١ ـ مجمع البيان، المجلد ٩، ص٣١ (نهاية الآيات التي نبحثها) وقد ورد ما يشبه هذا الحديث في (الدر المنثور) وتفسير (روح المعاني) مع بعض الإختلاف وذلك في نهاية الآيات التي نبحثها، والأحاديث في هذا المجال كثيرة.

معاوية، نظر إليه يزيد وقال: يا علي، ما أصابكم من مصيبة فبماكسبت أيديكم (إشارة إلى أنّ مأساة كربلاء هي نتيجة أعمالكم).

إلّا أنّ الإمامعليه السلام أجابه مباشرة: «كلا ما نزلت هذه فينا، إنّما نزل فينا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَـٰكُمْ﴾ فنحن الذين لا نأسىٰ على مافاتنا من أمر الدنيا، ولا نفرح بما أوتينا»[١].

وننهي هذا الكلام بحديث آخر عن الإمام الصادقعليه السلام فعندما سئل عن تفسير الآيةأعلاه قال: تعلمون أن علياً وأهل بيته قد أصيبوا بالمصائب من بعده، فهل كان ذلك بسبب أعمالهم؟ في حين أنّهم أهل بيت الطهر، والعصمة من الذنب، ثمّ أضاف: نص إنّ رسول الله كان يتوب إلى الله ويستغفر في كلّ يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إنّ الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب[٢].

٣ ـ البعض يشكك في أن يكون المقصود من المصائب في هذه الآية مصائب الدنيا، لأن الدنيا هي دار العمل وليس دار الثواب والجزاء.

وهذا خطأ كبير، لوجود آيات وروايات متعددة تؤكد أن الإنسان يرىٰ ـ أحياناً ـ جانباً من نتيجة أعماله في هذه الدنيا، وما يقال من أن الدنيا ليست داراً للجزاء ولا تتم فيها تصفية جميع الحسابات، لا يعني عدم الجزاء بشكل مطلق، حيث أن إنكار هذه الحقيقة يشبه إنكار البديهيات، كما يقول المطّلعون علىٰ المفاهيم الاسلامية.

٤ ـ أحياناً قد تكون المصائب جماعية، وبسبب ذنوب الجماعة، كما نقرأ في الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

١ ـ تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لنور الثقلين، المجلد الرابع، ص ٥٨٠.
٢ ـ أصول الكافي طبقاً لنور الثقلين، المجلد الرابع، ص٥٨١.

وواضح أن هذا يختص بالمجتمعات الإنسانية التي أصيبت بـالمصائب بسـبب أعمالها.

وورد في الآية ١١ من سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُـغَيِّرُواْ مَـا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وهذه الآيات تدل على وجود إرتباط وعلاقة قريبة بين أعمال الإنسان والنظام التكويني للحياة. فإذا سار الناس وفقاً لأصول الفطرة وقوانين الخلق فستشملهم البركات الإلهية، وعند فسادهم يفسدون حياتهم.

وأحياناً قد يصدق هذا الأمر بخصوص آحاد الناس، فكل إنسان سيصاب في جسمه وروحه أو أمواله ومتعلقاته الأُخرىٰ بسبب الذنب الذي يرتكبه، كما جاء في الآية أعلاه[١] [٢].

وبهذا الخصوص هناك روايات كثيرة في المصادر الإسلامية نشـير إلى بـعضها لتكميل الموضوع:

١ ـ ورد في إحدى خطب نهج البلاغة: «ماكان قوم قط في غض نعمة من عيش، فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، وأصلح لهم كلّ فاسد»[٣].

٢ ـ وهناك حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في (جامع الأخبار) حيث يقول: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»[٤].

---

١ ـ الميزان، المجلد ١٨، ص٦١.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٥٣٥ ـ ٥٣٧ .

٣ ـ نهج البلاغة ـ الخطبة ١٧٨.

٤ ـ بحار الأنوار، المجلد ٨١، ص١٩٨.

وهذا الحديث خير شاهد للإستثناءات التي ذكرناها لهذه الآية.

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادقعليه السلام في الكافي أنّه قال: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها، ابتلاه بالحزن ليكفرها»[١].

٤ ـ وهناك باب خاص لهذا الموضوع في كتاب أصول الكافي يشمل ١٢ حديثاً[٢].

وكل هذه هي غير الذنوب التي صرحت الآية أعلاه بأن الخالق سيشملها بعفوه ورحمته، حيث أنّها ـ بحد ذاتها ـ كثيرة.

اشتباه كبير

قد يستنتج البعض بشكل خاطىء من هذه الحقيقة القرآنية ويقول بوجوب الإستسلام لأي حادثة مؤسفة، إلّا أن هذا الأمر خطير للغاية، لأنّه يستفيد من هذا الأصل القرآني التربوي بشكل معكوس ويستنتج نتيجة تخديرية.

فالقرآن لا يقول أبداً بالإستسلام حيال المصائب وعدم السعي لحل المشاكل، والركون للظلم والجور والمرض، بل يقول: إذا شملتك المصائب بالرغم من سعيك ومحاولاتك لدفعها، فاعلم أن ذلك هو كفارة الذنوب التي قمت بها وارتكبتها، عليك أن تفكر بأعمالك السابقة، وتستغفر لذنوبك، وتصلح نفسك وتكتشف نقاط ضعفك.

وإذا ورد في الروايات أن هذه الآية من أفضل آيات القرآن، فذلك بسبب تأثيرها التربوي المهم، ومن جانب آخر تقوم بتخفيف هموم الإنسان، وتعيد الأمل وعشق الخالق إلى قلبه وروحه[٣].

---

١ ـ الكافي، ـ المجلد الثّاني، كتاب الإيمان والكفر ـ باب تعجيل عقوبة الذنب ـ الحديث ٢.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٥٣٨ ـ ٥٤٠.

٣٦

ماهي فلسفة خلق الشيطان؟

الكثير يتساءل إن كان الإنسان خلق من أجل التكامل ونيل السعادة عن طريق عبوديته لله، فما هي أسباب وجود الشيطان الذي هو موجود مدمّر يعمل ضدّ تكامل الإنسان؟ وهو في نفس الوقت موجود ذكي، مكّار، يثير العداوة والبغضاء.

☑ إنّنا لو تفكّرنا قليلاً فسوف ندرك أنّ وجود هذا العدو عامل مساعد لدفع التكامل الإنساني إلى الإمام وتقدّمه.

لا نذهب بعيداً، فقوّات المقاومة التي تدافع دائماً وبشدّة ضدّ العدوّ تزداد قـوّة يوماً بعد آخر ..

والقادة والجنود المدرّبون الأقوياء هم الأشخاص الذين يقاتلون الأعداء بعنف في المعارك الكبيرة.

والسياسي المحنّك القوي هو الذي يتمكّن في الأزمات السياسيّة الشـديدة أن يتصدّى للأعداء الأقوياء ويتغلّب عليهم.

وأبطال المصارعة الكبار هم الذين نازلوا مصارعين أقـوياء أشـدّاء، إذن فـلم

العجب من أنّ عباد الله الكبار بجهادهم المستمر المرير ضدّ الشيطان، يصبحون أقوياء يوماً بعد آخر.

فعلماء اليوم قالوا بشأن فلسفة وجود الميكروبات: لولا وجود هذه الميكروبات لكان جسم الإنسان ضعيفاً عديم الإحساس، ويحتمل أيضاً توقّف نمو الإنسان بسرعة بحيث لا يتجاوز طوله الثمانين سنتيمتراً، ولكان جميع البشر على شكل أقزام صغار، وبهذا الشكل فإنّ مبارزة جسم الإنسان للميكروبات المهاجمة تعطيه قوّة وقدرة على النمو.

وكذلك الحال بالنسبة إلى روح الإنسان في جهادها ضدّ الشيطان وهوى النفس.

وهذا لا يعني أنّ الشيطان مكلّف بإغواء عباد الله، فالشيطان كان طاهراً في بداية خلقه، كبقيّة الموجودات، ولكن الإنحراف والإنحطاط والتعاسة التي اُصيب بها إنّما كان برغبته وإرادته، وبهذا فإنّ الباريء عزّوجلّ لم يخلق إبليس منذ اليوم الأوّل شيطاناً، وإنّما إبليس هو الذي أراد أن يكون شيطاناً، وفي نفس الوقت فإنّ ممارساته الشيطانية لا تجلب الضرر لعباد الله المخلصين إطلاقاً، بل قد تكون سلّماً لرقيّهم وسموّهم.

وفي النهاية يبقى هذا السؤال: لماذا تمّت الموافقة على طلبه في البقاء حيّاً، ولماذا لم يُهلك في تلك اللحظة؟

جواب هذا السؤال هو ما ذكرناه أعلاه، وبعبارة اُخرى:

إنّ عالم الدنيا هذا هو ساحة للإختبار والإمتحان (الإختبار الذي هو وسيلة لتربية وتكامل الإنسان) وكما هو معروف فإنّ الإختبار لا يتمّ من دون مواجهة عدو شرس ومجابهة مختلف أنواع الأعاصير والمشاكل.

وبالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإنّ هوى النفس ووساوسها هي التي تضع الإنسان في بودقة الإختبار، ولكن حرارة هذه البودقة تزداد بوجود الشيطان، لأنّ

الشيطان سيكون في هذه الحالة العامل الخارجي المؤثّر على الإنسان، وهوى النفس والوساوس ستكون العامل الداخلي.[١]

الأجابة علىٰ سؤال:

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو: كيف أمكن أن يتركنا الله لوحدنا نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمة الله وعدله؟

يمكننا الاجابة علىٰ هذا السؤال بالالتفات الىٰ نقطة، وهي: إن الله ـ وكما جاء في القرآن الكريم ـ يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي الملائكة، ويوظف القوىٰ الغيبة التي في العالم لأن تتماشىٰ معهم في طريق جهاد النفس والعدو:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَلاٰ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيٰاؤُكُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. (فصلت / ٣٠ ـ ٣١)

النقطة المهمة الاخرىٰ:

هي: إن الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يعبر حدود دولة الروح من دون جواز، إن هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا، نعم انه يدخل من الباب لا من النافذة، ونحنُ نفتح له الباب، كما يقول القرآن في هذا المجال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ـ إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل / ٩٩ ـ ١٠٠)

في الحقيقة ان أعمال الانسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان، وذلك ما يقوله القرآن: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كٰانُوا إِخْوٰانَ الشَّيٰاطِينِ﴾ (الاسراء / ٢٧).

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٥٦١/١٤.

إلاّ انه لا طريق للنجاة من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من الشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المنحرفة والثقافات الفاسدة، إلاّ اللجوء الىٰ الايمان والتقوىٰ والتظلّل بألطاف الله والتوكل علىٰ ذاته المقدسة، وكما يقول القرآن: ﴿لَوْ لاٰ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطٰانَ إِلاّٰ قَلِيلاً﴾ (النساء / ٨٣).[1]

١ ـ نفحات القرآن ج ١ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

٣٧

هل ينسجم الخلود في النّار مع العدل الإلهي؟

نقرأ في سورة هود الآية ١٠٦ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل ينسجم الخلود في النّار مع العدل الإلهي؟

☑ ان الذين يطرحون هذا الاعتراض يغفلون نـقطة اسـاسية وهـي الفـارق الموجود بين العقوبة الوضعية والعقوبة التكوينية التي هي النتيجة الطبيعية للاعمال أو الحياة في محيط تلك الاعمال.

و توضيح ذلك:

ان المقنن: قد يسُن احياناً قانوناً يقول فيه ان من يرتكب المخالفة الفلانية فعليه ان يدفع مقداراً من المال كغرامة مالية او يُسجن مدة من الزمن، فمن البديهي فـي مثل هذا الموقف ان يكون هناك تناسب بين «الجريمة» و«العقاب»، فلا يمكن ان تُقَرّر مثلاً عقوبة الاعدام أو السجن المؤبد للمخالفة البسيطة وبعكس ذلك فمن غير

المعقول تحديد عقوبة القتل بسجن يوم واحد، فالحكمة والعدالة تستوجب التناسب الكامل بين تلك الحالات.

لكن العقوبات التي هي في الحقيقة الآثار الطبيعية للعمل وتعتبر من خاصيته التكوينية أو نتيجة حضور ذات العمل امام الانسان، لا تقر مثل هذه الأقوال سواءً بشأن آثار العمل في هذا العالم أم في العالم الآخر.

فلو قيل مثلاً ان من يخالف تعليمات المرور ويقود سيارته بسرعة عالية ويتسابق بلا مبرر ويجتاز المناطق الممنوعة قد يتعرض ـ وبسبب عدّة لحظات من المخالفة ـ الىٰ اصطدام عنيف يؤدي الىٰ كسر يديه ورجليه ويبقىٰ مقعداً طوال عمره فهنا لا يستطيع احد ان يقول ان هذه النتيجة المريرة غير عادلة ازاء هذه المخالفة البسيطة لان من المسلّم به ان امثال هذه العقوبات ليست من وضع ادارة المرور حتّىٰ يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين المخالفة والعقوبة، بل هو الأثر الطبيعي للعمل الذي فعله الانسان بارادته واوقع نفسه فيه.

وكذلك الحال، اذا قيل بضرورة اجتناب المشروبات الكحولية أو المخدرات لأنها تتلف القلب والمعدة والمخ والاعصاب خلال فترة وجيزة، ولكن لو تعمد احد تناولها واصيب بضعف الاعصاب الشديد وبأمراض القلب والشرايين والقرحة كل ذلك في مقابل الفسق والمجون لأيام معدودة، او يبقىٰ الىٰ آخر عمره يقاسي من شدّة الألم والعجز والضعف ففي مثل هذا الحال لايمكن لأحد ان يتحدث عن عدم التناسب بين الذنب وعقوبته.

ولو افترضنا انَّ هذا الشخص قد عَمّر في هذه الدنيا بدل المائة عام الف عام أو مليون عام، فينبغي عليه تحمل العذاب والألم طوال هذه المدّة المديدة ازاء عدّة ايام قضاها في اللهو والمجون.

اما في ما يخص العقوبات الأخروية فالمسألة أعمق من هذا بكثير، فالاثار التكوينية للاعمال ونتائجها بالغة الأهمية قد تبقىٰ ملازمة للانسان الىٰ الأبد، بل ان

ذات العمل (كما ذكر في موضوع تجسّد الاعمال) يتجسد امام الانسان وبما ان ذلك العالم خالد، فان الاعمال الصالح منها والطالح تبقىٰ خالدة مع الانسان وتكون وسيلة اما لشقائه أو لسعادته.

إنّ ثواب وعقاب يوم القيامة يتصف بالآثار التكوينية وخواص العمل الذي أتىٰ به الانسان في الدنيا، كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَبدا لَهُم سيئات ما عَمِلوا وَحاق بِهم ما كانُوا بِه يَستَهزِئون﴾ الجاثية ـ ٣٣.

وجاء في الآية (٥٤) من سورة يس: ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وورد نفس هذا المضمون مع قليل من الاختلاف في آيات اخرىٰ عديدة.

وبناءً علىٰ هذا لايبقىٰ هناك اي مجال لطرح هذا التساؤل وهو لماذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين الذنب والعقوبة؟

ينبغي ان يحلّق الانسان في سماء السعادة بجناحي «الايمان» و «العمل الصالح» لينال بنعيم الجنّة الأيدي ولذّة القرب الالهي. فان كان قد كسر جناحيه في لحظة من لحظات المجون أو خلال المائة سنة التي قضاها في هذه الدنيا، فعليه ان يعيش الىٰ الأبد في الذلة والشقاء، فالقضية هنا ليست قضيّة الزمان والمكان وحجم الجريمة، بل هي قضية العلة والمعلول آثاره قصيرة المدىٰ وبعيدة المدىٰ، وقد يكفي عود واحد من الثقاب لاحراق مدينة بأكملها. وقد يؤدي غرام واحد من بذور الشوك الىٰ تغطية صحراء واسعة بالاشواك بعد مدة وجيزة ويكون سبباً دائمياً في ايذاء الانسان، كما قد تكفي عدّة غرامات من بذور الورد الىٰ تغطية صحراء شاسعة بأجمل الورود واشذاها رائحة تفوح منها العطور فتملأ النفوس والقلوب بهجة وارتياحاً.

فان قال قائل ما التناسب بين عود الثقاب واحراق مدينة بأكملها؟ وما العلاقة التناسبية بين عدّة بذور من الشوك أو من الورد وبين الصحراء الفسيحة؟

فهل ان هذا السؤال منطقي؟ من المؤكد، لا.

فاعمالنا الصالحة والطالحة علىٰ هذا النمط أيضاً، فقد تخلّف وراءها آثاراً خالدة واسعة وكبيرة (فتأمل).

والمسألة المهمّة هنا هي ان القادة الربانيين والانبياء العظام واوصيائهم كانوا يحذروننا باستمرار من ان نتيجة امثال هذه الذنوب هي العذاب الأبدي، ونتيجة الاعمال الصالحة هي النعمة الأبدية الخالدة. تماماً كالبستاني الماهر الذي يبين لنا مسبقاً الآثار الواسعة التي تنتج عن بذور الورد أو الشوك، ونحن الذين نختار مسارنا بوعي خلال هذا الطريق.

فهل نلوم احداً في هذه الحال؟ ولمن نؤاخذ ؟ وعلىٰ من نعترض سوىٰ علىٰ انفسنا؟[١]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٦ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٢.

الأنبياء

٣٨

كيف تتناسب الخاتمية مع سير الإنسان التكاملي؟

هل يمكن أن يتوقّف المجتمع الإنساني؟ أترى يوجد لسير البشر التكاملي حدّ محدود؟ ألسنا نرى بأُمّ أعيننا أنّ بشر اليوم قد وصلوا في العلم والثقافة إلى مرحلة تفوّق مستوى سابقيهم؟ فمع هذا الحال كيف يمكن أن يغلق سجل النبوّة مطلقاً، فيحرم الإنسان من قيادة أنبياء جدد في سيره التكاملي؟

☑ إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتّضح بالإلتفات إلى مسألة واحدة، وهي أنّ الإنسان يصل أحياناً إلى مرتبة من النضج الفكري والثقافي بحيث يكون قادراً على الإستمرار في طريقه بالإستعانة المستمرة بالأُصول والتعليمات التي تركها له النّبي الخاتم بصورة جامعة، دون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا الأمر يشبه تماماً أن يكون الإنسان محتاجاً لمعلّم جديد ومربّ آخر في كلّ مرحلة من مراحل الدراسة المختلفة، حتّى يقضي المراحل المختلفة. أمّا إذا حصل على الدكتوراه، أو أصبح مجتهداً له رأيه في العلم أو العلوم المختلفة فإنّه لا يحتاج في دراسته إلى أُستاذ جديد، بل يباشر البحث والمطالعة والتحقيق إستناداً

إلى ما اكتسبه من الأساتذة السابقين، وخاصّة أُستاذه الأخير.

وبتعبير آخر، فإنّه يحلّ المشاكل والعقبات التي تعترضه بالإستعانة بتلك الأُصول الكليّة التي تعلّمها من أُستاذه الأخير، وبناءً على هذا فلا حاجة لأنّ يظهر دين جديد على مرّ الزمان (تأمّلوا ذلك).

وببيان آخر، فإنّ كلّ واحد من الأنبياء السابقين قد مهّد جانباً من مسير التكامل ليكون الإنسان قادراً على سلوك هذا الطريق الصعب نحو التكامل وينال الأهـلية لإستقبال منهج كامل وجامع لهذا الطريق على يد آخر نبي أُرسل من قِبل الله تعالى.

من البديهي أنّه مع إستلام الخريطة الكاملة والمخطّط الجامع سوف لا تكـون هناك حاجة إلى مخطّط آخر، وهذا في الحقيقة هو التعبير الذي ورد في الرّوايات الدالة على كونه ﷺ خاتماً، والتي عدّت نبيّ الإسلام آخر لبنة، أو واضع آخر لبنة في قصر الرسالة البديع المحكم. وكلّ ذلك يؤكّد عـدم الحـاجة إلى ديـن جـديد وشريعة مستحدثة.

أمّا فيما يتعلّق بمسألة القيادة والإمامة، والتي تعني الإشراف التامّ على تنفيذ هذه الأُصول، والأخذ بأيدي الناس في هذا الطريق، فهي مسألة أُخـرى لا يـمكن أن يستغني الإنسان عنها في أيّ حين، ولذلك فإنّ ختام سلسلة النبوّة لا يعني أبداً نهاية سلسلة الإمامة، لأنّ «تبيين» و «توضيح» هذه الأُصول و «تحقّقها في الخارج» لا يمكن أن يتمّ من دون الإستعانة بوجود قائد وإمام معصوم[١].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٣/٢٨٢ ـ ٢٨٤.

٣٩

كيف تتلاءم القوانين الثابتة مع الحاجات المتغيّرة؟

إنّنا نعلم أنّ مقتضيات الأزمنة والأمكنة ومتطلباتها متفاوتة، وبتعبير آخر فإنّ حاجات الإنسان في تغيّر مستمر، في حين أنّ للشريعة الخاتمة قوانين ثابتة، فهل تقوى هذه القوانين الثابتة على أن تؤمّن حاجات الإنسان المتغيّرة على مدى الزمان؟

☑ لو كانت لكلّ قوانين الإسلام صفة الجزئية، وأنّها قد عيّنت لكلّ موضوع حكماً جزئياً معيناً لكان هناك مجال لهذا السؤال، أمّا إذا عرفنا بأنّ في تعليمات الإسلام سلسلة من الأُصول الكلية الواسعة جدّاً، والتي تقدر على أن تطابق الحاجات المتغيّرة وتؤمّنها، فلا يبقى مجال لهذا الإشكال.

إنّنا نرى إستحداث سلسلة من الإتّفاقيات الجديدة والروابط الحقوقية بين البشر لم يكن لها وجود في عصر نزول القرآن بتاتاً، فمثلاً لم يكن في ذلك العصر شيء اسمه «الضمان» بفروعه المتعدّدة[1]، وكذلك أنواع الشركات التي ظهرت في عصرنا

---

١ ـ طبعاً يوجد في الإسلام موضوعات تشبه الضمان في حدود خاصّة، كمسألة ضمان الجريرة، أو تعلّق ديّة الخطأ المحض بالعاقلة، إلّا أنّ لها مجرّد شبه بالمسألة كما قلنا.

وزماننا حسب الإحتياج اليومي، لكن يوجد لدينا في الإسلام أصل عامّ ورد في بداية سورة «المائدة» بعنوان «لزوم الوفاء بالعهد والعقد»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وهو قادر على احتواء كلّ هذه الإتفاقيات.

وطبعاً هناك قيود وشروط بصورة عامّة وضعت لهذا الأصل العامّ في الإسلام، يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار أيضاً.

بناءً على هذا فالقانون الكلّي ثابت في هذا الباب بالرغم من أنّ مصاديقه متغيّرة، فلا مانع من أن يظهر مصداق جديد له في كلّ يوم.

ونضرب مثالاً آخر، وهو: لدينا في الإسلام قانون مسلّم بـه، وهـو قـانون (لا ضرر) يمكن من خلاله تحديد أيّ حكم يكون منبعاً ومصدراً للضرر والخسارة في المجتمع، وعن هذا الطريق ترفع كثير من الإحتياجات. إضافة إلى أنّ مسائل «لزوم حفظ المجتمع»، و «وجوب مقدّمة الواجب»، و «تقديم الأهمّ على المهمّ» يمكن أن تكون حلاً للمشاكل في كثير من الموارد.

وعلاوة على كلّ ذلك فإنّ الصلاحيات التي تمنح للحكومة الإسلامية عن طريق «ولاية الفقيه» تضع تحت تصرفها إمكانيات واسعة لحلّ المشاكل في إطار أُصول الإسلام العامّة.

إنّ بيان كلّ واحد من هذه الأُمور، مع الأخذ بنظر الإعتبار كون باب الإجتهاد ـ أي إستنباط الأحكام الإلهية من المصادر الإسلامية ـ يحتاج إلى بحث واسع يبعدنا تناوله عن الموضوع ولكن مع ذلك فإنّ ما أوردناه هنا من باب الإشارة يمكن أن يكون جواباً للإشكال المذكور.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٣/٢٨٤ ـ ٢٨٥.

٤٥

ماذاكان دين الرّسول الأعظم قبل نبوته؟

☑ لا يوجد شك في أن الرّسول الأكرمﷺ لم يسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم ينحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنىٰ، إلّا أن العلماء يختلفون في الدين الذي كان عليه:

فذهب بعضهم أنّه دين المسيحؑ، لأن المسيحية كانت الدين الوحيد الرسمي غير المنسوخ قبل بعثة الرّسولﷺ.

وقال البعض الآخر: إنه دين إبراهيمؑ، لأنّه (شيخ الأنبياء) وأبوهم، وقد ذكرت بعض آيات القرآن أن دين الإسلام هو دين إبراهيم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

أمّا البعض الآخر فلم يذكر شيئاً واكتفىٰ بالقول بأننا نعلم بأنّه كان على ديـن معين إلّا أنّه لم يتوضح لنا ما هو.

وبالرغم من أن كلاً من هذه الأقوال يستند إلى دليل معين، إلّا أنّها ليست قطعية، وأفضلها قول آخر وهو: لقد كان الرّسولﷺ يملك برنامجاً خاصاً من قبل الخالق

---

١ ـ الحج، الآية ٧٨.

وكان يعمل به، وفي الحقيقة فقد كان له دين خاص حتىٰ زمان نزول الإسلام عليه .

والدليل على هذا الكلام الجملة التي ذكرناها قبل قليل، والوارد في نهج البلاغة، وهو «ولقد قرن الله به ومن لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

والدليل الآخر هو أنّ التاريخ لم يذكر لنا أبداً أن الرّسولﷺ انشغل بالعبادة في معابد اليهود أو النصارى أو الأديان الأُخرىٰ، ولم يكن إلىٰ جوار الكفار في معابدهم، ولا إلى جوار أهل الكتاب في كنائسهم، وفي نفس الوقت فقد استمر في سلوك طريق التوحيد وكان متمسكاً بقوة بالأصول الأخلاقية والعبادة الإلهية.

وقد وردت عدّة روايات ـ وفقاً لنقل العلّامة المجلسي في بحار الأنوار ـ في المصادر الإسلامية عن أن الرّسولﷺ كان مؤيداً منذ بداية عمره بروح القدس. وحتماً فإنّه كان يعمل وفقاً لما يستلهمه من روح القدس[١].

ويرىٰ العلّامة المجلسي أن الرّسولﷺ كان نبياً قبل أن يكون رسولاً، فالملائكة كانت تتحدث معه أحياناً وكان يسمع صوتها، وأحياناً كان الإلهام الإلهي ينزل عليه ضمن الرؤيا الحقيقية الصادقة، وبعد أربعين سنة وصل إلى منزلة الرسالة ونزل القرآن والإسلام عليه، وقد ذكر لذلك ستة أدلة حيث يتلاءم بعضها مع ما ذكرناه أعلاه (للإستزادة راجع المجلد ١٨ من بحار الأنوار ص٢٧٧ فما بعدها).[٢]

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ١٨، ص٢٨٨.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٥٨٩ .

٤١

هل توجد بشارات بظهور النّبي في العهدين؟

نقرأ في سورة الأعراف الآية ١٥٧ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، هنا يثار سؤال وهو انّه هل توجد بشارات بظهور النبي محمدﷺ في العهدين؟

☑ إنّ الشواهد التأريخية القطعية، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أن هذه الكتب ليست هي الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى‎عليهما السلام وأن يد التحريف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هي إلّا خليط من نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التي نزلت على موسى وعيسى‎عليهما السلام ممّا بقي في أيدي تلامذتهم.

وعلى هذا الأساس لا غرور ولا عجب إذا لم نقف على عبارات صريحة حول البشارة بظهور النّبي الأكرمﷺ.

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ في ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمّن اشارات

معتدّ بها حول ظهور هذا النّبي العظيم، وقد جمعها ثلّة من علمائنا في كتب ومؤلفات مستقلة، أو مقالات تتحدث في هذا المجال. وحيث أن ذكر كل تلك البشائر وما حولها من حديث وكلام ممّا يطول به المقام، فإنّنا نكتفي بذكر بعضٍ منها على سبيل المثال لا الحصر.

١ ـ جاء في سفر التكوين الإصحاح ١٧ العبارة ١٧ إلى ٢٠: «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله... وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه (أي دعاءك في حقه) ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جيداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أُمّة كبيرة».

٢ ـ في سفر التكوين الباب ٤٩، العبارة ١٠: «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجيله حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب».

والجدير بالإنتباه أن أحد معاني شيلون ـ حسب تصريح المستر هاكس في كتاب قاموس الكتاب المقدس ـ هو الإرسال، وهو يوافق كلمة «رسول» أو «رسول الله».

٣ ـ وفي إنجيل يوحنا الباب ١٥ العبارة رقم ١٦ جاء ما يلي: «وأمّا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم».

٤ ـ وكذا جاء في إنجيل يوحنا ذاته الإصطلاح ١٦ العبارة رقم٧: «لكنّي أقول لكم الحق: إنّه خير لكم أن أنطلق. لأنّه إن لَم أنطلق لا يأتيكم المعزّي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك هو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنّه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية».[1]

والنقطة الجديرة بالإهتمام أنّه جاءت الكلمة في إنجيل يوحنا باللغة الفارسية

---

١ ـ كل النصوص المنقولة هنا مقتبسة من كتاب العهد القديم والجديد طباعة وإصدار دارالكتاب المقدس في العالم العربي عام ١٩٧٩.

«المسلّي» ولكنّها في الإنجيل العربي طبعة لندن (مطبعة وليام وطس عام ١٨٥٧) جاء مكانها: «فارقليطا»[1].

شاهد حيّ آخر:

«فخر الإسلام» ـ الذي كان من كبار قساوسة المسيحيين، وتتلمذ عند علمائهم حتىٰ حاز مراتب كبيرة في الدراسات الكنيسة ـ يتحدث في مقدمة كتابه «أنـيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحية إلى الإسلام فيقول:

«... بعد بحث طويل وعناء كبير وتجوال في المدن، عثرت علىٰ قسيس كـبير متميز في زهده وتقواه، كان يرجع إليه الكاثوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه زمناً مذاهب النصارى، وكان له طلاب كثيرون، ولكنه كان ينظر إليّ من بينهم نظرة خاصة، وكانت كل مفاتيح البيت بيدي، إلا مفتاحاً واحداً لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده .... .

وفي يوم اعتلّت صحة القسيس، فقال لي: قل للطلاب إني لا أستطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى **«فارقليطا»** في السريانية، و **«پريكلتوس»** في اليونانية ... واستمر بينهم النقاش، وكل كـان يـدلي برأيه .... .

بعد أن عدت إلى الأُستاذ سألني عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: وما رأيك؟

قلت: اخترت الرأي الفلاني.

قال القسيس: ما قصّرت في عملك، ولكن الحقّ غير ذلك. لأن حقيقة هذا الأمر لا يعلمها إلا الراسخون في العلم، وقليل ماهم. أكثرت في الالحاح عليه أن يوضح

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٥/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

لي معنى الكلمة. فبكى بكاءً مرّاً وقال: لم أخف عليك شيئاً ... إن لفهم معنى هذه الكلمة أثراً كبيراً، ولكنه إن انتشر فستتعرض للقتل! فإن عاهدتني أن لا تفشيه فسأخبرك ... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لأحد. فقال: إنه اسم من أسماء نبي المسلمين، ويعني «أحمد» و«محمّد».

ثم أعطاني مفتاح الغرفة وقال: افتح الصندوق الفلاني، وهاتِ الكتابين اللذين فيه، جئت إليه بالكتابين وكانا مكتوبين باليونانية والسريانية علىٰ جلد، ويعودان إلى عصر ما قبل الإِسلام.

الكتابان ترجما «فارقليطا» بمعنى أحمد ومحمّد، ثم أضاف الأُستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد ومحمّد»، ولكن بعد ظهور محمّدﷺ، غيّروا هذا المعنى حفظاً لمكانتهم ورئاستهم وأوّلوه، واخترعوا له معنى آخر لم يكن علىٰ الإِطلاق هدف صاحب الإِنجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجيء الإِسلام، وكرر ذلك ثلاثاً، ثم قلت:

ما هي طريقة النجاة والصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنما هي باتباع محمّدﷺ.

قلت: وهل التابعون له ناجون؟

قال: إي والله، وكرر ذلك ثلاثاً.

ثم بكى الأُستاذ وبكيت كثيراً ثم قال: إذا أردت الآخرة والنجاة فعليك بدين الحق ... وأنا أدعو لك دائماً، شرط أن تكون شاهداً لي يوم القيامة أنّي كنت في الباطن مسلماً، ومن أتباع محمّدﷺ ... وما من شك أن الإِسلام هو دين الله اليوم علىٰ ظهر الأرض»[1].

---

١ ـ نقلاً باختصار عن «الهداية الثانية» مقدمة كتاب «أنيس الأعلام».

وكما يلاحظ فإن هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء أهل الكتاب بعد ظهور نبي الإسلامﷺ من تحريف لتفسير اسم النّبي وعلاماته، تحقيقاً لمصالحهم الشخصية.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ١/١٨٩ ـ ١٩١.

٤٢

من هم أولو العزم من الرسل؟

نقرأ في سورة الأحقاف الآية ٣٥ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: من هم أولو العزم من الرسل؟

☑ هناك بحث واختلاف كبير جدّاً بين المفسّرين في: مَن هم أولو العزم؟ وقبل أن نحقق في هذا، ينبغي أن نحقق في معنىٰ (العزم)، لأنّ (أولو العزم) بمعنىٰ ذوي العزم.

«العزم» بمعنىٰ الإرادة الصلبة القوية، ويقول الراغب في مفرداته: إنّ العزم هو عقد القلب علىٰ إمضاء الأمر.

وقد استعملت كلمة العزم في مورد الصبر في آيات القرآن المجيد أحياناً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

وجاءت أحياناً بمعنىٰ الوفاء بالعهد، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ

١ ـ الشورىٰ، الآية ٤٣.

﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[١].

لكن بملاحظة أنّ أصحاب الشرائع والأديان الجديدة من الأنبياء قد ابتلوا بمشاكل أكثر، وواجهوا مصاعب أشد، وكانوا بحاجة إلىٰ عزم وإرادة أقوىٰ وأشد لمواجهتها، فقد أطلق علىٰ هذه الفئة من الأنبياء (أولو العزم) والآية مورد البحث إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ ظاهراً. وهي تشير ضمناً إلىٰ أن نبيّ الإسلام ﷺ من هذه الفئة، لأنّها تقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾.

وإذا كان البعض قد فسّر العزم والعزيمة بمعنىٰ الحكم والشريعة فمن هذه الجهة، وإلّا فإنّ كلمة العزم لم تأتِ في اللغة بمعنىٰ الشريعة.

وعلىٰ أية حال، فطبقاً لهذا المعنىٰ تكون (من) في (من الرسل) تبعيضية، وإشارة الىٰ فئة خاصّة من الأنبياء كانوا أصحاب شريعة، وهم الذين أشارت إليهم الآية ٧ من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً﴾.

فقد أشارت الآية إلىٰ هؤلاء الأنبياء الخمسة بعد ذكر جميع الأنبياء بصيغة الجمع، وهذا دليل علىٰ خصوصيتهم.

وتتحدث الآية (١٣) من سورة الشورىٰ عنهم أيضاً، فتقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينَ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِىَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

وقد رويت في هذا الباب روايات كثيرة في مصادر الشيعة والسنّة، تدل علىٰ أنّ الأنبياء أولي العزم كانوا خمسة، كما ورد في حديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «ومنهم خمسة: أولهم نوح، ثمّ إبراهيم ثمّ موسىٰ، ثمّ عيسىٰ، ثمّ محمّد»[٢].

---

١ ـ سورة طه، الآية ١١٥.

٢ ـ مجمع البيان، المجلد ٩، صفحة ٩٤، ذيل الآيات مورد البحث.

وجاء في حديث آخر عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «**منهم خمسة أولو العزم من المرسلين: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد**». وعندما يسأل الراوي: لم سموا (أولو العزم)؟ يقول الإمام عليه السلام مجيباً: «**لأنّهم بعثوا إلىٰ شرقها وغربها، وجنّها وإنسها**»[١].

وكذلك ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**سادة النبيّين والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دارت الرحىٰ: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمّد**»[٢].

وروي هذا المعنىٰ في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً، بأنّ الأنبياء أولي العزم هم هؤلاء الخمسة[٣].

إلّا أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ (أولو العزم) إشارة إلىٰ الأنبياء الذين أُمروا بمحاربة الأعداء وجهادهم.

واعتبر البعض عددهم (٣١٣) نفراً[٤]، ويرىٰ البعض أنّ جميع الأنبياء (أولو عزم) أي أصحاب إرادة[٥] صلبة وطبقاً لهذا القول، فإنّ (من) في (من الرسل) بيانية لا تبعيضية.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أصح منها جميعاً، وتؤيده الروايات الإسلامية.[٦]

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ١١، صفحة ٥٨، حديث ٦١، ويتحدث الحديث ٥٥، صفحة ٥٦، من المجلد المذكور بصراحة في هذا الباب.

٢ ـ الكافي، المجلد ١، باب طبقات الأنبياء والرسل، حديث ٣.

٣ ـ الدر المنثور، المجلد ٦، صفحة ٤٥.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ المصدر السابق.

٦ ـ تفسير الأمثل: ١٦/٣٠٣ ـ ٣٠٥.

٤٣

كم كان عدد الأنبياء؟!

☑ الرواية المشهورة في هذا المجال تذكر أنّ عددهم مائة وعشرون ألف نبي، في حين تقتصر روايات أُخرىٰ على ثمانية آلاف، أربعة الآف منهم هم أنبياء بني إسرائيل، والباقون من غيرهم[١].

وقد جاء في حديث عن الإمام علي بن موسىٰ الرضاعليه السلام أنّ النّبيصلى الله عليه وآله قال: **«خلق الله عزّوجلّ مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبيّ، أنا أكرمهم على الله ولا فخر، وخلق الله عزّوجلّ مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي، وعلي أكرمهم على الله وأفضلهم»**[٢].

وفي رواية أُخرىٰ عن أنس بن مالك أنّ رسول الله قال: **«بعثت على أثر ثمانية آلاف نبيّ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل»**[٣].

---

١ ـ مجمع البيان: أثناء الحديث عن هذه الآية.

٢ ـ بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٣٠، حديث رقم ٢١.

٣ ـ بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٣١، حديث رقم ٢٢.

هذان الحديثان لا يتناقضان فيما بينهما، إذ يمكن أن يكون الحديث الثّاني قد أشار إلى الأنبياء العظام، كما يذكر ذلك العلّامة المجلسي في توضيح هذا الكلام.

وفي حديث آخر أنّ رسول الله ﷺ أجاب على سؤال لأبي ذر رضي الله عنه عن عدد الأنبياء قائلاً بأنّهم (١٢٤) ألف نبي، وعن سؤال حول عدد الرسل منهم، أنّهم (٣١٣) رسول فقط[١].

وفي حديث آخر أنّ رسول الله ﷺ بعد أن ذكر العدد (١٢٤) ألف قال: خمسة منهم أولوالعزم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد ﷺ[٢].

وهناك روايات أُخرىٰ في هذا المجال تؤيد العدد المذكور أعلاه.

من هنا يتضح أنّ هذه الرواية (حول عدد الأنبياء) ليست خبراً واحداً كما يقول «برسوئي» نقلاً عن بعض العلماء في تفسير «روح البيان»، بل هناك روايات متعدّدة ومستفيضة تؤكد أنّ عدد الأنبياء الإلهيين كان (١٢٤) ألف نبي. وأنّ مثل هذه الروايات موجودة في المصادر الإسلامية المختلفة.

والطريف في الأمر أن عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم هو (٢٦) نبي فقط هم: آدم ـ نوح ـ إدريس ـ صالح ـ هود ـ إبراهيم ـ إسماعيل ـ إسحٰق ـ يوسف ـ لوط ـ يعقوب ـ موسىٰ ـ هارون ـ زكريا ـ شعيب ـ يحيىٰ ـ عيسىٰ ـ داود ـ سليمان ـ إلياس ـ اليسع ـ ذوالكفل ـ أيوب ـ يونس ـ عزير ـ ومحمّد (عليهم الصلاة والسلام).

ولكن هناك أنبياء آخرون أشار إليهم القرآن وإن لم يذكر أسماءهم صراحة مثل «أشموئيل» الذي ورد ذكره في الآية (٢٤٨) من سورة «البقرة» في قوله تعالىٰ: ﴿وقال لهم نبيّهم﴾.

---

١ ـ بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٣٢، حديث رقم ٢٤.

٢ ـ بحارا لأنوار، مجلد ١١، صفحة ٤١، حديث رقم ٤٣.

والنّبي «أرميا» الوارد في الآية (٢٥٩) من سورة البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ... ﴾[١].

و «يوشع» المذكور في الآية (٦٠) من سورة «الكهف» في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾.

و «الخضر» الوارد ذكره إشارة في الآية (٦٥) من سورة الكهف في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ﴾.

وورد ذكر لأسباط بني إسرائيل، وهم زعماء قبائل بني إسرائيل كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[٢].

وإذا كان هناك أنبياء من بين إخوة يوسف عليه السلام فقد أشير إليهم مرات عديدة في سورة يوسف.

وخلاصة القول هنا أنّ القرآن أشار إلى قصص وحوادث ترتبط بأكثر من (٢٦) نبياً وهم المصرّح بأسمائهم مباشرة في القرآن الكريم.[٣]

---

١ ـ ثمّة بحث بين المفسّرين عن اسم هذا النّبي، إذ فيهم من قال: إنّه «أرميا» والبعض قال: إنّه «الخضر» وقال جمع: إنّه «عزير».

٢ ـ النساء ـ ١٦٣.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٥/ ٣٢٧.

٤٤

ما هو الفرق بين النّبوة والإمامة والرسالة؟

☑ يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أن حَمَلة المهمات من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفة:

١ ـ منزلة النّبوة: أي إستلام الوحي من الله، فالنبي هو الذي ينزل عليه الوحي، ومايستلمه من الوحي يعطيه للنّاس إن طلبوا منه ذلك.

٢ ـ منزلة الرسالة: وهي منزلة إبلاغ الوحي، ونشر أحكام الله، وتربية الأفراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرّسول إذن هو المكلف بالسعي في دائرة مهمته لدعوة النّاس إلى الله وتبليغ رسالته، وبذل الجهد لتغيير فكري عقائدي في مجتمعه.

٣ ـ منزلة الإمامة: وهي منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام الله عملياً عن طريق إقامة حكومة إلهية وإستلام مقاليد الأمور اللازمة. وإن لم يستطع إقامة الدولة يسعى قدر طاقته في تنفيذ الأحكام.

بعبارة أُخرىٰ، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقتصر مهمة الرّسول علىٰ تبليغ هذه الأوامر. وبتعبير آخر أيضاً، مهمة الرّسول، إراءة الطريق، ومهمة الإمام «الإيصال إلى المطلوب» (إضافة إلى المهام الثقيلة الأُخرىٰ المذكورة).

من نافلة القول أن كثيراً من الأنبياء كنبيّ الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام حازوا علىٰ المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحي، ويبلغون أوامر الله، ويسعون إلى أقامة الحكومة وتنفيذ الأحكام، وينهضون ـ بما لهم من تأثير روحي ـ بمهمة تربية النفوس.

الإمامة ـ بعبارة موجزة ـ هي منزلة القيادة الشاملة لجميع المجالات المادية والمعنوية والجسمية والروحية والظاهرية والباطنية. الإمام رئيس الدولة وزعيم المجتمع ومعلم الأخلاق وقائد المحتوى الداخلي للأفراد المؤهلين.

فهو بقوّته المعنوية يقود النفوس المؤهلة علىٰ طريق التكامل.

وبقدرته العلمية يعلم الجهلة.

وبقوّة حكومته أو أية قوّة تنفيذية أُخرىٰ يطبق مبادي العدالة.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١/ ٣٧٣.

٤٥

كيف يمكن النّبوة في الطفولة؟

نقرأ في سورة مريم الآية ١٢: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، هنا يثار سؤال وهو انّه كيف يمكن النبوّة والإمامة من الطفولة؟

☑ صحيح أنّ مرحلة النضج العقلي للإنسان لها حدّ معين عادة، إلّا أنّه يوجد أفراد استثنائيون بين البشر دائماً، فأي مانع من أن يختصر الله هذه المرحلة لبعض عباده لمصالح ما، ويجعلها تتلخص في سنوات أقل؟ كما أن مرور سنة أو سنتين على الولادة أمر محتم من أجل التمكن من النطق عادة، في حين أنّنا نعلم أنّ عيسى عليه السلام قد تكلم في أيّامه الأُولىٰ، وكان كلاماً عميق المحتوى من شأنه أن يصدر ـ عادة عن أناس كبار في السن، كما سيأتي في تفسير الآيات القادمة إن شاء الله تعالىٰ.

من هنا يتّضح عدم صحة الإشكال الذي طرحه بعض الأفراد حول بعض أئمة الشيعة، بأنّه كيف تسلّم بعضهم أُمور الإمامة في سن صغيرة؟

نطالع في رواية عن علي بن أسباط، أحد أصحاب الإمام الجواد محمّد بن علي

النقي عليه السلام أنّه قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ، فأجدت النظر إليه، وجعلت أنظر إلىٰ رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر. فبينا أنا كذلك قعد فقال: «يا عليّ، إنّ الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج به في النّبوة، قد يقول ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وقد يقول ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين»[١].

كما أنّ هذه الآية تتضمن جواباً مفحماً لأُولئك المعترضين الذين يقولون: إنّ علياً عليه السلام لم يكن أوّل من آمن بالنّبي صلى الله عليه وآله من الرجال، لأنّه كان ابن عشر سنين في ذلك اليوم، ولا يقبل إيمان صبي في العاشرة من عمره!

ولا بأس من ذكر الرّواية الشريفة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وهي أن جماعة من الأطفال قالوا للرضا عليه السلام أيّام طفولته: أذهب بنا نلعب، قال: «ما للعب خلقنا» وهذا ما أنزل الله تعالىٰ ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٢].

يجب الإلتفات إلىٰ أن اللعب هنا هو الإشتغال بما لا فائدة فيه، وبتعبير آخر لا هدف يطلب منه، لكن قد يستتبع اللعب واللهو ـ أحياناً ـ هدفاً منطقياً وعقلائياً ويسعى إليه، فمن البديهي أن لهذا اللعب حكماً مستثنى.[٣]

---

١ ـ نور الثقلين، الجزء ٣، ص ٣٢٥.

٢ ـ نور الثقلين، الجزء ٣، ص ٣٢٥.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٩/٤١٩.

٤٦

ماهي حقيقة الوحي؟

☑ لا يمكننا الاحاطة ـ بلا شك ـ بحقيقة الوحي وارتباطاته، لأنّه نوع من الإدراك خارج عن حدود إدراكنا، وهو ارتباط خارج عن حدود ارتباطاتنا المعروفة. فعالم الوحي بالنسبة لناعالم مجهول وفوق إداركاتنا، فكيف يستطيع إنسان ترابي أن يرتبط مع مصدر عالم الوجود؟!

وكيف يرتبط الخالق الأزلي الأبدي مع مخلوق محدود وممكن الوجود! وكيف يتيقن النّبي عند نزول الوحي أن هذا الإرتباط معه؟

هذه أسئلة يَصْعُب الجواب عليها بالنسبة لنا، ولا داعي للإصرار علىٰ فهمها.

أمّا الموضوع الذي يعتبر معقولاً بالنسبة لنا ويمكن قبوله فهو وجود ـ أو إمكانية وجود ـ هذا الإرتباط المجهول.

فنحن نقول: لا يوجد أيّ دليل عقلي ينفي إمكانية مثل هذا الأمر، بل على العكس من ذلك حيث نرى ارتباطات مجهولة في عالمنا نعجز عن تفسيرها، وهذه الإرتباطات تؤّكد وجود مرئيات ومدركات أُخرىٰ خارج حدود حواسنا وارتباطاتنا.

ولا بأس من ذكر مثال لتوضيح هذا الموضوع...

لنفرض أنّنا كنا في مدينة كلّ أهلها من العميان (عـميان مـنذ الولادة) ونـحن الوحيدون ننظر بعينين، فكل أهل المدينة لهم أربعة حواس (على فرض أن الحواس الظاهرية للإنسان خمسة) ونحن الوحيدون نملك خمسة حواس. عندها سنشاهد أحداثاً كثيرة في هذه المدينة، وعندما نخبر أهل هذه المدينة سيتعجبون جميعهم من هذه الحاسة الخامسة التي تستطيع أن تدرك هذه الحوادث المـتعددة، ومـهما حاولنا شرح حاسة النظر لهم وفوائدها وآثارها فإنّهم لا يستطيعون فهم ذلك. فمن جانب لا يستطيعون نكران ذلك لإدراكهم آثارها، ومن جانب آخر لا يقدرون على درك حقيقة حاسة النظر، لأنّهم غير قادرين على النظر طيلة حـياتهم ولو للـحظة واحدة.

ولا نريد القول أن الوحي هو (الحاسة السادسة)، بل هـو نـوع مـن الإرتـباط والإدراك لعالم الغيب والذات الإلهية المقدسة، ولأننا نفقد ذلك لا نستطيع أن ندرك كنهه بالرغم من إيماننا بوجود الوحي لوجود آثاره.

إنّنا نرىٰ رجالاً عظماء يدعون الناس الى أُمور هي فوق مستوى أفكار البشر، ويدعوهم إلى الدين الإلهي، وعندهم من المعاجز الخارقة ما يفوق طاقة الإنسان، حيث توضح هذه المعاجز ارتباطهم بعالم الغيب، فالآثار واضحة إلّا أن الحـقيقة مخفية.

هل توصلنا ـ نحن إلى معرفة جميع أسرار هذا العالم، كي ننفي الوحي لصعوبة إداركه بالنسبة لنا؟!

وحتى في عالم الحيوانات، فهناك ظواهر مجهولة نـعجز عـن تـفسيرها، فـهل توضحت لنا الحياة المجهولة لبعض الطيور المهاجرة التي قد تقطع ثمانية عشر ألف كيلومتر من القطب الشمالي وحتىٰ الجنوبي أو العكس؟ فكيف تعرف هذه الطيور الطريق بدقة مع أنّها قد تسافر أحياناً في النهار وأحياناً أُخرىٰ في الليالي المظلمة،

في حين أنّنا لا نستطيع أحياناً أن نسير مقداراً يسيراً من طريقها ما لم يكن لدينا أجهزة ووسائل معينة توضح لنا لمسير؟

وهناك بعض الأسماك التي تعيش في أعماق البحار والمحيطات، وعندما تريد أن تضع بيوضها تعود إلى مسقط رأسها الذي يبعد أحياناً آلاف الكيلومترات، فكيف تستطيع هذه الأسماك أن تهتدي إلى مسقط رأسها بهذه السهولة؟!

وهناك العديد من هذه الأمثلة المجهولة في حياتنا تمنعنا انكار ونفيكل شيء، وتذكرنا بوصية الفيلسوف «ابن سينا» الذي يقول: **«كل ما قرع سمعك من الغرائب فضعه في بقعة الإمكان ما لم يزدك عنه قاطع البرهان.»**

والآن لنر ادلّة الماديين في إنكار الوحي.

منطق منكري الوحي:

يذكر بعض الماديين لدى طرح مسألة الوحي بأن الوحي خلاف العلم!

وإذا سألناهم كيف ذلك؟ يقولون بلهجة المغرورة والواثق من نفسه: إنّه يكفى لانكار شيء أن العلوم الطبيعية لم تثبته. ونحن لا نقبل إلّا المواضيع التي أثبتتها العلوم التجريبية وفق معاييرها الخاصة.

وإضافة لذلك فنحن لم نواجه في تحقيقاتنا العلمية حول جسم الإنسان وروحه، شيئاً مجهولاً يستطيع أن يربطنا بعالم ماوراء الطبيعة.

كيف يمكننا أن نصدق بأن الأنبياء، الذين هم بشر مثلنا، لهم إحساس غير إحساسنا وادراك فوق ادراكنا؟

الايراد الدائمي والرد الدائمي:

مثل هذا التعامل للماديين مع الوحي لا يرتبط بهذا الخصوص فحسب، فهؤلاء لهم مثل هذا التحليل حيال جميع القضايا التي تختص بما وراء الطبيعة، ولأجل

التوضيح نقول لهم دائماً: لا تنسوا أن حدود العلم هي عالم المادة، والأجهزة والوسائل المستخدمة في البحوث العلمية ـ كالمختبرات والتلسكوبات والميكروسكوبات وقاعات التشريح ـ كلها محدود بحدود هذا العالم، فهذه العلوم وأجهزتها لا تستطيع أن تتحدث أبداً عما هو موجود خارج حدود عالم المادة، لا بالنفي ولا بالإثبات، والدليل على ذلك واضح، لأن هذه الأجهزة والوسائل لها قدرة محدودة ومحيط خاص بها.

بل إنّ أجهزة كلّ واحد من العلوم الطبيعية لا يستطيع أن يكون فاعلاً بالنسبة للعلم الآخر، فمثلاً نحن لا نستطيع أن ننكر وجود ميكروب السل إذا لم نشاهده بواسطة التلسكوب العظيم المستخدم في النجوم، أو ننفي وجود كوكب البلوتون لأنّنا لم نشاهده بواسطة الميكروسكوب أو المجهر.

فالوسائل تتناسب مع نوع العلم دائماً، أما الوسائل المستخدمة لمعرفة ما وراء الطبيعة، فهي ليست سوىٰ الإستدلالات العقلية القوية التي تفتح لنا الآفاق نحو ذلك العالم الكبير.

فالذين يخرجون العلم عن محيطه وحدوده ليسوا علماء ولا فلاسفة، إنّما يدعون ذلك، وفي نفس الوقت هم خاطئون وضالون.

المهم إنّنا نرىٰ أشخاصاً عظاماً جاؤوا وذكروا لنا أُموراً هي خارج حدود معرفة البشر، وهذا يؤكّد ارتباطهم بما وراء عالم المادة. أمّا كيف يكون هذا الإرتباط المجهول؟ فهذا مالم يتضح لنا، إنّما المهم هو أنّنا نعلم بوجود مثل هذا الإرتباط.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٥/ ٥٨٠.

٤٧

كيف كان النّبي أُميّاً؟

☑ هناك احتمالات ثلاثة معروفة حول مفهوم «الأُمّي»:

أوّلها: أن معناه: الذي لم يدرس.

الثّاني: أنّ معناه: المولود في أرض مكّة، والناهض منها.

الثّالث: أنّ معناه الذي قام من بين صفوف الجماهير.

ولكن الرأي الأشهر هو التّفسير الأوّل، وهو أكثر انسجاماً مع موارد استعمال هذه اللفظة، ويمكن أن تكون المعاني الثلاثة مرادة برمتها أيضاً، كما قلنا.

ثمّ إنّه لا نقاش بين المؤرخين بأنّ الرّسول الأكرمﷺ لم يدرس، ولم يكتب شيئاً، وقد قال القرآن الكريم ـ أيضاً ـ في الآية (٤٨) من سورة العنكبوت حول وضع النّبي قبل البعثة: **﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾**.

وأساساً كان عدد العارفين بالكتابة والقراءة في المحيط الحجازي قليلاً جداً، حيث كان الجهل هو الحالة السائدة على الناس بحيث أن هؤلاء العارفين بالكتابة

والقراءة كانوا معروفين بأعيانهم وأشخاصهم، فقد كان عددهم في مكّة من الرجال لا يتجاوز (١٧) شخصاً، ومن النساء امرأة واحدة[١].

من المسلّم أن النّبيﷺ لو كان قد تعلّم القراءة والكتابة ـ في مثل هذه البيئة ـ لدىٰ أستاذ لشاع ذلك وصار أمراً معروفاً للجميع، وعلى فرض أنّنا لم نقبل بنبوته، ولكن كيف يمكنهﷺ أن ينفي ـ في كتابه ـ بصراحة هذا الموضوع؟ ألا يعترض عليه الناس ويقولون: إن دراستك وتعلّمك للقراءة والكتابة أمر مسلّم معروف لنا، فكيف تنفي ذلك؟

إنّ هذه قرينة واضحة على أُميّة النّبي.

وعلى كل حال، فإنّ وجود هذه الصفة في النّبيﷺ كان تأكيداً على نبوته حتى ينتفي أي احتمال في إرتباطه إلّا بالله وبعالم ما وراء الطبيعة في صعيد دعوته.

هذا بالنسبة إلى فترة ما قبل النّبوة، وأمّا بعد البعثة فلم ينقل أحد المورّخين أنّه تلقىٰ القراءة أو الكتابة من أحد، وعلى هذا بقيﷺ على أُميّته حتى نهاية عمره.

ولكن من الخطأ الكبير أن تتصوّر أنّ عدم التعلّم عند أحد يعني عدم المعرفة بالكتابة والقراءة، والذين فسّروا «الأُمّية» بعدم المعرفة بالكتابة والقراءة كأنّهم لم يلتفتوا إلى هذا التفاوت.

ولا مانع أبداً من أنّ النّبيﷺ كان عارفاً بالقراءة والكتابة بتعليم الله، ومن دون أن يتتلمذ على يد أحدٍ من البشر، لأنّ مثل هذه المعرفة هي بلا شك من الكمالات الإنسانية ، ومكملة لمقام النّبوة.

ويشهد بذلك ما ورد في الأحاديث المروية عن أهل البيتعليهم السلام[٢] أن نص الرواية

---

١ ـ فتوح البلدان، للبلاذري، ط مصر، الصفحة ٤٥٩.

٢ ـ تفسير البرهان المجلد الخامس، الصفحة ٣٧٣ ذيل آيات سورة الجمعة.

ولكنّه لأجل أن لا يبقىٰ أي مجال لأدنى تشكيك في دعوته لم يكن ﷺ يستفيد من هذه المقدرة.

وقول البعض: إنّ القدرة على الكتابة والقراءة لا تعدّ كمالاً، فهما وسيلة للوصول إلى الكمالات العلميّة، وليسا بحدّ ذاتها علماً حقيقياً ولا كمالاً واقعياً فإن جوابه كامن في نفسه، لأنّ العلم بطريق الكمال كمال أيضاً.

قد يقال: إنّه نفي في روايتين عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام بصراحة تفسير «الأُمّي» بعدم القراءة والكتابة، بل بالمنسوب إلى «أم القرى» (مكّة).

ونقول في الردّ: إنّ إحدى هاتين الروايتين «مرفوعة» حسب اصطلاح علم الحديث فلا قيمة لها من حيث السند، والرواية الأُخرىٰ منقولة عن «جعفر بن محمّد الصوفي» وهو مجهول.

وأمّا ما تصوّره البعض من أن الآية الثّانية من سورة الجمعة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وآيات أُخرىٰ دليل على أن النّبي ﷺ كان يتلو القرآن على الناس من شيء مكتوب، فهو خطأ بالغ، لأنّ التلاوة تطلق على التلاوة من مكتوب على شيء، كما تطلق على القراءة حفظاً ومن ظهر القلب، واستعمال لفظة التلاوة في حق الذين يقرأون الأشعار أو الأدعية حفظاً ومن على ظهر القلب كثير.[1]

١ ـ تفسير الأمثل: ٥/٢٤٧.

٤٨

هل كان المعراج جسدياً أم روحياً؟

☑ إن ظاهر الآيات القرآنية الواردة في أوائل سورة الإسراء، وكذلك سورة النجم تدل علىٰ وقوع المعراج في اليقظة، ويؤكّد هذا الأمر كبار علماء الإسلام من الشيعة والسنة.

وتشهد التواريخ الإسلامية أيضاً علىٰ صدق هذا الموضوع. ونقرأ في التأريخ أن المشركين أنكروا بشدّة قضية المعراج عندما تحدث بها الرّسولﷺ، وأخذوها عليه ذريعة للإستهزاء به، ممّا يدل بوضوح علىٰ أن الرّسول لم يدّع الرؤية أو المكاشفة الروحية أبداً، وإلّا لما استتبع القضية كل هذا الضجيج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصري أنّه (كان في المنام رؤيا رآها) أو عن عائشة أنّه: (واللّه ما فُقِدَ جسد رسول اللّه ولكن عرج بروحه)، فيبدو أنّ لذلك منظور سياسي، لإخماد الضجّة التي أثيرت حول قضية المعراج.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٨/ ٣٩٠ ـ ٣٩١.

٤٩

ماهو الهدف من المعراج؟

☑ إنّ هدف المعراج لم يكن تجوالاً للرّسول ﷺ في السماوات للقاء اللّه كما يعتقد السذج، وكما نقل بعض العلماء الغربيين ـ ومع الأسف ـ لجهلهم أو لمحاولتهم تحريف الإسلام أمام الآخرين، ومنهم (غيور غيف) الذي يقول في كتاب (محمد رسول ينبغي معرفته من جديد، ص ١٢٠)، (بلغ محمد في سفر معراجه إلىٰ مكان كان يسمع فيه صوت قلم اللّه، ويفهم أنّ اللّه منهمك في تدوين حساب البشر! ومع أنّه كان يسمع صوت قلم اللّه إلّا أنّه لم يكن يراه! لأنّ أحداً لا يستطيع رؤية اللّه وإن كان رسولاً).

وهذا يُظهر أن القلم كان من النوع الخشبي! الذي يهتز ويولد أصواتاً عند حركته علىٰ الورق!! وأمثال هذه الخرافات والأوهام.

كلا. فالهدف كان مشاهدة الرّسول ﷺ لأسرار العظمة الإلٰهية في أرجاء عالم الوجود، لا سيما العالم العلوي الذي يشكل مجموعة من براهين عظمته، وتتغذىٰ بها روحه الكريمة وتحصل علىٰ نظرة وإدراك جديدين لهداية البشرية وقيادتها.

ويتّضح هذا الهدف بشكل صريح في الآية الأُولىٰ من سورة الإسراء، والآيـة (١٨) من سورة النجم.

وهناك رواية أيضاً منقولة عن الإمام الصادقعليه السلام في جوابه علىٰ سبب المعراج. أنّه قالعليه السلام: «إن اللّه لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزَّ وجلّ أراد أن يشرف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه»[١][٢].

١ ـ تفسير البرهان، المجلد ٢، ص ٢٠٠.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣٩١/٨.

٥٠

كيف ينسجم المعراج مع العلوم العصرية؟

☑ كان بعض الفلاسفة القدماء يعتقد بنظرية «الأفلاك البطليموسية التسعة» والتي تكون علىٰ شكل طبقات البصل في إحاطتها بالأرض، لذلك فقد أُنكر المعراج بمزاعم علمية تقوم علىٰ أساس الإيمان بنظرية الهيئة البطليموسية والتي بموجبها يُلزَم خرق هذه الأفلاك ومِن ثمّ التئامها ليكون المعراج ممكناً[١].

ولكن مع انهيار قواعد نظرية الهيئة البطليموسية أصبحت شبهة خرق والتئام الأفلاك في خبر كان، وضمتها يد النسيان، ولكن التطوّر المعاصر في علم الأفلاك أدّىٰ إلىٰ إثارة مجموعة مِن الشبهات العلمية التي تقف دون إمكانية المعراج علمياً، وهذه الشبهات يمكن تلخيصها كما يلي:

أوّلاً: إنّ أوّل ما تواجه الذي يريد أن يجتاز المحيط الفضائي للأرض إلىٰ عمق الفضاء هو وجوب الإنفلات مِن قوة الجاذبية الأرضية، ويحتاج الإنسان للتخلّص مِن الجاذبية إلىٰ وسائل إستثنائية تكون معدّل سرعتها علىٰ الأقل (٤٠) ألف كيلومتر في الساعة.

---

١ ـ بعض القدماء يعتقد بعدم إمكان خرق هذه الأفلاك ثمّ التئامها.

ثانياً: المانع الآخر يتمثل في خلو الفضاء الخارجي مِن الهواء، الذي هو القوام في حياة الإنسان.

ثالثاً: المانع الثّالث يتمثل بالحرارة الشديدة الحارقة (للشمس) والبرودة القاتلة، وذلك بحسب موقع الإنسان في الفضاء مِن الشمس.

رابعاً: هناك خطر الإشعاعات الفضائية القاتلة كالأشعة الكونية والأشعة ما وراء البنفسجية وأشعة إكس، إذ مِن المعروف أنّ الجسم يحتاج إلىٰ كميات ضئيلة مِن هذه الإشعاعات، وهي بهذا الحجم لا تشكّل ضرراً علىٰ جسم الإنسان ووجود طبقة الغلاف الجوي يمنع من تسربها بكثرة إلىٰ الأرض.. ولكن خارج محيط الغلاف الجوّي تكثُر هذه الإشعاعات إلىٰ درجة تكون قاتلة.

خامساً: هُناك مُشكلة فقدان الوزن التي يتعرض لها الإنسان في الفضاء الخارجي، فمن الممكن للإنسان أن يتعوَّد تدريجياً علىٰ الحياة في أجواء انعدام الوزن، إلّا أنَّ انتقاله مرّة واحدة إلىٰ الفضاء الخارجي ـ كما في المعراج ـ هو أمرٌ صعب للغاية، بل غير ممكن.

سادساً: المشكلة الأخيرة هي مُشكلة الزمان، حيثُ تؤكد علوم اليوم علىٰ أنَّهُ ليست هُناك وسيلة تسير أسرع مِن سرعة الضوء، والذي يريد أن يجول في سماوات الفضاء الخارجي يحتاج إلىٰ سرعة تكون أسرع مِن سرعة الضوء!

في مُواجهةِ هذه الأسئلة:

أوّلاً: في عصرنا الحاضر، وبعد أن أصبحت الرحلات الفضائية بالإستفادة مِن معطيات العلوم أمراً عادياً، فإنَّ خمساً مِن المشاكل الست الآنفة تنتفي، وتبقىٰ ـ فقط ـ مشكلة الزمن. وهذه المشكلة تثار فقط عند الحديث عن المناطق الفضائية البعيدة جداً.

ثانياً: إنَّ المعراج لم يكن حدثاً عادياً، بل أمرٌ إعجازي خارق للعادة تمّ بالقدرة

الإلٰهية. وكذلك الحال في كافة معجزات الأنبياء وهذا يعني عدم استحالة المعجزة عقلاً، أمّا الأُمور الأُخرىٰ فتتم بالإستناد إلىٰ القدرات الإلٰهية.

وإذا كانَ الإنسان قد استطاع باستثمار لمعطيات العلوم الحديثة أن يوفَّر حلولاً للمشكلات الآنفة الذكر، مثل مشكلة الجاذبية والأشعة وانعدام الوزن وما إلىٰ ذلك، حتىٰ أصبح بمستطاعه السفر إلىٰ الفضاء الخارجي .. فألا يمكن لله ـ خالق الكون، صاحب القدرات المطلقة ـ أن يوفَّر وسيلة تتجاوز المشكلات المذكورة؟!

إنّنا علىٰ يقين من أنَّ اللّه تبارك وتعالىٰ وضع في مُتناول رسـولهﷺ مـركباً مَناسباً صانهُ فيه عن كل المخاطر والأضرار في معراجه نحو السماوات، ولكن ما اسم هذا المركب هل هو «البُراق» أو «رفرف»؟ وعلىٰ أي شكل وهيئةٍ كان؟ كل هذه أُمور غامضة بالنسبة لنا، ولكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمَّ، وإذا أردنا أن نتجاوز كل هذه الأُمور فإنَّ مشكلة السرعة التي بقيت ـ لوحدها ـ تحتاج إلىٰ حل، فـإنَّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكلة بعد أن وجدت لها حلولاً مناسبة بالرغم ممّا يُؤكّده «إنشتاين» في نظريته من أن سرعة الضوء هـي أقـصىٰ سرعة معروفة اليوم.

إنّ علماء اليوم يُؤكدون أنَّ الأمواج الجاذبة لا تحتاج إلىٰ الزمن، وهي تنتقل في آنٍ واحد من طرفٍ من العالم إلىٰ الطرف الآخر منه وهناك احتمال مطروح بالنسبة للحركة المرتبطة بتوسّع الكون (مِن المعروف أنَّ الكون في حالة اتساع وأنّ النجوم والمنظومات السماوية تبتعد عن بعضها البعض بحركة سريعة) إذ يلاحظ أنَّ الأفلاك والنجوم والمنظومات الفضائية تبتعد عن بعضها البـعض وعـن مـركز الكـون إلىٰ أطرافه، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء!

إذن، بكلام مُختصر نقول: إنَّ المشكلات الآنفة ليس فيها ما يحول عـقلاً دون وقوع المعراج، ودون التصديق به، والمعراج بذلك لا يعتبر مِن المحالات العقلية، بل بالإمكان تذليل المشكلات المثارة حوله بتوظيف الوسائل والقدرات المناسبة.

وبذلك فالمعراج لا يعتبر أمراً غير ممكن لا مِن وجهة الأدلة العـقلية، ولا مِـن وجهة معطيات وموازين العلوم المعاصرة. وهو بالإضافة إلىٰ ذلك أمـرٌ إعـجازي خارق للعادة. لذلك، إذا قام الدليل النقلي السـليم عـليه فـينبغي قـبوله والإيـمان به[١][٢]

---

١ ـ للمزيد مِن التفاصيل يمكن مُراجعة كتاب: «الكل يريد أن يعرف» والذي يبحث في قضية المعراج وشق القمر بالإضافة إلىٰ قضايا أُخرىٰ.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٨/٣٩٢ ـ ٣٩٥.

٥١

هل عصمة الانبياء صفة «جبريّة» ؟

الكثير من الاشخاص حينما يقرأون بحث عصمة الانبياء، يتبادر إلىٰ اذهانهم فوراً هذا السؤال بأ نّ مقام العصمة موهبة الهية مفروضة علىٰ الانبياء والائمة، وكل من نال هذه «الموهبة» فقد حُفظ من المعصية والخطأ، ومن هنا فلن تعد معصوميتهم فضيلة وفخراً، لكونها امراً الهياً مفروضاً كما تقدم.

وبناءً علىٰ هذا فارتكاب الخطأ مع وجود مقام العصمة مستحيل، وواضح انه لا فضيلة في ترك المحال، فعدم ظلمنا مثلاً للناس الذين سيأتون بعد مائة عام او الذين عاشوا قبل مائة عام لا يعد لنا فضيلة وفخراً، لان اداء مثل هذا العمل بالنسبة لنا محال!

☑ بالرغم من أ نّ هذا الاشكال لايتعرضّ إلىٰ عصمة الانبياء عليهم السلام، بل إلىٰ كونها فضيلة أم لا، مع ذلك فالتمعّن في عدة ملاحظات يمكن ان يزيحَ الستار عن الغموض المحيط بهذا السؤال:

١ـ إنّ الذين يثيرون هذا الاشكال لايلتفتون إلىٰ جذور عصمة الانبياء عليهم السلام، بل

يتصورون ان مقام العصمة مثلاً هو كالمناعة من بعض الامراض والتي تحصل للانسان عن طريق بعض اللقاحات، فكل من يلقح بمثل هذا اللقاح لن يبتلىٰ بذلك المرض شاء أم أبىٰ. لكننا عرفنا في الابحاث السابقة ان مصونية المعصومين من المعاصي نابعة من مقام معرفتهم وعلمهم وتقواهم، بالضبط كاجتنابنا لقسم من الذنوب لعلمنا واحاطتنا بسلبياتها، كعدم الخروج إلىٰ الزقاق عراةً فهكذا من له اطلاع تام بالاثار السلبية للمواد المحذرة ويعلم بان الادمان عليها يتسبب في موت تدريجي بطيء، فسوف لايطلبها. فمن المسلم ان تركه هذا يعدّ فضيلة حتىٰ لو كان الدافع لهُ علىٰ تركها هو علمه بمفاسدها، وذلك لقدرته علىٰ استعمالها اذ لا اجبار في البين.

ولهذا السبب نسعىٰ لرفع مستوىٰ معرفة وتقوىٰ الافراد عن طريق التربية والتعليم، لتضمن ابتعادهم عن الذنوب الكبيرة والاعمال الشنيعة علىٰ أقل تقدير.

أفلا يعد ترك البعض لقسم من هذه الاعمال نتيجة للتربية والتعليم فضيلة؟!

وبعبارة اخرىٰ إنّ ترك الانبياء للذنوب محال عادي لا عقلي، ونعلم بعدم المنافاة بين المحال العادي وبين الاختبار، وكمثال علىٰ المحال العادي هو ان يصطحب عالم جليل معه خمراً إلىٰ المسجد ويشربه بين صفوف الجماعة، فهذا محال عادي لا عقلي كما لايخفىٰ.

خلاصة القول ان المستوىٰ الرفيع للايمان ومعرفة الانبياء عليهم السلام والذي يعدّ بنفسه فضيلة وافتخاراً، هو السبب في فضيلة اخرىٰ، الا وهي مقام العصمة (تأمل جيداً).

ولو قيل من أين لهم هذا الايمان وتلك المعرفة؟ لقلنا من الامدادات الالهية، الاّ أنها لا تعطىٰ لأي شخص اعتباطاً، بل لوجود اللياقة الكامنة فيهم، بالضبط كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لابراهيم الخليل من انه لم يبلغ مقام الامامة الا بعد اجتيازه للامتحانات الالهية الخطيرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً﴾ (البقرة / ١٢٤) اي ان ابراهيم وبعد طيه لهذه المراحل

بمحض ارادته واختياره، نال تلك الموهبة الالهية العظيمة.

وكما يقول بالنسبة ليوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ اَشُدَّهُ اٰتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف / ٢٢) وذلك بعد تكامله البدني والروحي واستعداده لتلقي الوحي.

إنّ جملة ﴿وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تُعدُّ شاهداً قوياً علىٰ مرادنا، اذ يقول القرآن: ان أعمال يوسف الايجابية ولياقته هي التي هيأته لتلك الموهبة الالهية العظيمة، كما ان هناك تعابير توضح هذه الحقيقة بالنسبة لموسىٰ عليه السلام حيث يقول القرآن: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِيْنَ فِي اَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلىٰ قَدَرٍ يٰا مُوسىٰ﴾(طه / ٤٠).

ومن الواضح وجود لياقات وقابليات كامنة في نفوس هؤلاء العظماء، لكن تنميتها وتقويتها ليس فيه صفة اجبارية مطلقاً، بل انهم قد قطعوا هذا الطريق بمحض اختيارهم وارادتهم، وما اكثر اولئك الذين يتمتعون بالقابليات لكنهم مع ذلك لايسعون لتطويرها ورفع مستواها، هذا من جهة.

ومن جهة اخرىٰ، فتمتع الانبياء عليهم السلام بمثل هذه المواهب، قد وضع بالمقابل مسؤوليات خطيرة في اعناقهم، وبعبارة اخرىٰ إنّ الله تعالىٰ انما يهب الشخص قدرة وطاقة بحيث تتناسب والمسؤولية التي يضعها علىٰ عاتقه، ثم يختبره في اداء وظيفته.

٢ـ الجواب الاخر لهذا السؤال هو انه ومع فرض كون الانبياء مصونين من ارتكاب اي ذنب وخطأ، بامداد الهي اجباري لغرض كسب ثقة الخلق، وليكونوا مشعلاً ينير الطريق لهدايتهم، فلا زال الطريق في «ترك الاولىٰ» اي العمل الذي لا يتناسب وشأنهم مع عدم كونه معصية، مفتوحاً امامهم بالرغم من كل ذلك.

ففضيلتهم تعود إلىٰ عدم تركهم حتىٰ للاولىٰ مع كونه اختيارياً بالنسبة اليهم، وتعرضّ البعض من الانبياء للخطاب والعتاب الالهي الشديد اللهجة والابتلاء

بالحرمان في بعض الاحيان، انما هو لاحتمال تركهم للاولىٰ نادراً. وأيـة فـضيلة اسمىٰ من اجتنابهم لتركِ الأولىٰ طاعة لاوامر الحق؟

اذن، الفخر في الانبياء يكمن في تحملهم للمسؤولية بـحجم هـذه المـواهب، واجتنابهم حتىٰ لترك الاولىٰ، ولو حدث ان صدر منهم ترك للاولىٰ استثناء فسرعان ما يبادرون إلىٰ تعويضه.[١]

١ ـ نفحات القرآن ج ٧ص ١٨٩ ـ ١٩٢.

٥٢

ما هو الفرق بين المعجزة و سحر السحرة و خرق المرتاضين للعادات؟

☑ ١ ـ **المعجزة مستندة علىٰ القوة الالهية** في حين ان سحر السحرة وخرق المرتاضين للعادات ينبعان من القوة البشرية، ولذا فالمعجزات عظيمة جداً وغير محدودة، بعكس السحر وخرق العادات المحدودين.

وبعبارة اخرى فالسحرة والمرتاضون علىٰ استعداد لاداء تلك الامور التي تمرنوا عليها لا غير، دون التي تقترح عليهم، ولم يحدث الىٰ الآن ان عَبَّرَ السحرة او المرتاضون عن استعدادهم لاداء ما يشير اليه الاخرون، وذلك لِتدُّربِ كل واحد منهم علىٰ نوع معين.

صحيح ان الانبياء عليهم السلام كانوا يبادرون الىٰ اظهار المعجزات حتىٰ قبل ان يطالبهم بها الناس، (كالقرآن بالنسبة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ومعجزة عصا موسىٰ ويده البيضاء، واحياء المسيح للموتىٰ) لكنهم مع ذلك لم يستنكفوا ابداً من العمل باقتراحات الامم عليهم، كمسألة شق القمر، او رفع الفتن والبلايا عن الفراعنة، او نزول مائدة سماوية

للحواريين، وامثال ذلك (طبعاً علىٰ شرط كون ذلك بدافع الكشف عن الحقيقة لا التّعنّت).

ولذا نجد في قصة موسىٰ عليه السلام ان الفراعنة طلبوا منه مزيداً من الوقت لجمع السحرة وترتيب مقدمات العمل، وذلك تحت عنوان: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾[1]، في حين ان موسىٰ كان في غنىً عن مثل هذه المقدمات. كما انه لم يطلب منهم امهاله الفرصة للتفكير في كيفية مقاومة السحرة، حتىٰ بعد اطلاعه علىٰ سحرهم، وذلك لاعتماده علىٰ القوة الالهية واعتماد السحرة علىٰ القوة البشرية المحدودة.

ومن هنا فالخرق البشري للعادات قابل للمعارضة والمقابلة بالمثل، وبامكان الاخرين الاتيان بمثله، ولنفس هذا السبب ايضاً لا يجرؤ من يأتي بهذا العمل علىٰ «التحدي» اي الدعوة للمقابلة والادعاء بعجز الكل عن اداء ما يؤديّه، في حين ان المعجزات كانت مرفقة بالتحدي دائماً، وذلك لعجز ايّ انسان عن الاتيان بمثلها ابداً (اعتماداً علىٰ القوة البشرية). فهذا نبي الإسلام صلى الله عليه وآله مثلاً يقول: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ...﴾[2].

ومن هنا ايضاً فسرعان ما تُقْهر الخوارق البشرية أمامَ المعجزات، ولا يستطيع السحر مبارزة المعجزة ابداً لعجزه عنها، بالضبط كعجز اي انسان عن الوقوف امام الخالق.

المثال الواضح لهذه المسألة في القرآن الكريم قصة موسىٰ وفرعون، اذ انهم جمعوا كل السحرة من مختلف اصقاع مصر، واخذوا قسطاً وافراً من الوقت لترتيب مقدمات ابداء السحر، وقاموا برسم الخطط لذلك، لكنهم ما لبثوا ان تقهقروا في لحظة واحدة امام اعجاز موسىٰ وأضحىٰ سحرهم كسراب بقيعة.

---

١ ـ (طه / ٦٤).

٢ ـ (الاسراء / ٨٨).

٢ـ نظراً لكون المعجزات من قبل الله فهي غنية عن التربية والتعليم الخاصين

في حين ان السحر ورياضات المرتاضين مسبوقة دائماً بضرب من التعليم والتمارين المستمرة، الىٰ درجة أنّ التلميذ لم يتقن تعليمات استاذه لاحتمل عجزه عن اداء ذلك امام الناس وافتضاحه في خاتمة المطاف.

وبعبارة اخرى يمكن للمعجزة ان تتحقق في لحظة واحدة وبدون اية مقدمات، في حين ان الخوارق الاخرى للعادات عبارة عن تلك الامور التدريجية التي تحصل الاحاطة بها والسيطرة عليها بمرور الايام، والتي لا يمكنها الظهور بشكل دفعي فجائي ابداً.

وقد تمت الاشارة في قصة موسىٰ وفرعون الىٰ هذه المسألة ايضاً، حيث يتهم فرعون السحرة بكونهم تلامذة موسىٰ، وانه استاذهم الذي اطلعهم علىٰ اسرار السحر: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[1]، ومن هنا يحدث احياناً ان يستغرق السحرة عدة اشهر وسنين في تعليم تلاميذهم والتدرب معهم.

٣ـ احوال صاحب المعجزة دليل علىٰ صدقه

الطريق الاخر لتمييز المعجزات عن خوارق العادات البشرية هو المقارنة بين حالات أصحابها. فاصحاب المعجزات من قبل الله مسؤولون عن هداية الناس، ولذا نراهم متصفين بأوصاف تتناسب ودورهم ذلك. في حين ان السحرة والكهنة والمرتاضين لا يهدفون الى الهداية، ولا يتكفلون بمتابعة مثل هذه الاهداف، بل ينحصر هدفهم عادة في واحد من الامور الثلاثة التالية:

١ـ استغفال البسطاء من الناس.

---

١ ـ (طه / ٧١).

٢ـ كسب الشهرة بين عامة الناس.

٣ـ المكاسب المادية التي تجنىٰ عن طريق اشغال الناس والهائهم.

حينما ينزل هذان الفريقان (الانبياء، والسحرة وامثالهم) الىٰ الميدان لايتمكنون ابداً من كتمان امنياتهم واهدافهم مدة طويلة، بالضبط كما طلب السحرة وقبل نزولهم للميدان اجراً عظيماً من فرعون، وموافقته علىٰ ذلك: ﴿قٰالُوا إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ كُنّٰا نَحْنُ الْغٰالِبِينَ قٰالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [1].

في حين ان الانبياء يكررون القول: ﴿وَمٰا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ﴾ [2] (وقد ورد هذا التعبير في حق الكثير من الانبياء في العديد من الآيات).

وقوف السحرة في خدمة فرعون يكفي بنفسه للتمييز بين «السحر» و «المعجزة».

لايخفىٰ ان حقيقة الانسان لابد وان تنعكس من خلال تصرفاته، وان اجاد في التغطية علىٰ افكاره واهدافه.

خلاصة القول هي ان الوقوف علىٰ بدايات حياة امثال هؤلاء الاشخاص وكيفية استفادتهم من خرقهم للعادات التي يؤدونها، مع الاخذ بنظر الاعتبار مكانة امثالهم بين مختلف شرائح المجتمع، بالاضافة الىٰ نوعية تصرفاتهم واخلاقهم، يمكنها بمجموعها ان تكون دليلاً حسناً لتمييز «السحر» عن «المعجزة»، ومع قطع النظر عن موارد الاخلاق الاخرى التي ذكرت اعلاه، نجد أنّ من السهل تشخيص المعجزات عن السحر وبقية خوارق العادات من خلال هذا السبيل.

وقد اشار القرآن الىٰ هذه الحقيقة بتعابير دقيقة، اذ يقول في موضعٍ: ﴿قٰالَ مُوسىٰ

---

١ ـ (الاعراف / ١١٣ و ١١٤).

٢ ـ (الشعراء / ٩٠).

مٰا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

أجل فالسحرة اشخاص مفسدون ذووا اعمال باطلة، ومن الواضح ان اعـمالاً كهذه لا يمكنها ابداً ان تكون لها حيثية ايجابية في المجتمع.

وفي موضع اخر حينما يخاطب الله تعالىٰ موسىٰ يـقول: ﴿لا تَـخَفْ إِنَّكَ اَنْتَ الأَعَلىٰ﴾ ثم يضيف: ﴿وَاَلْقِ مٰا في يَمينِكَ تَلْقَفْ مٰا صَنَعُوا اِنَّمٰا صَنَعُوا كَيْدُ سٰاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السّٰاحِرُ حَيْثُ اَتىٰ﴾[٢].

نعم، فعمل الساحر مكر وخديعة، ولابد لميوله النفسية ان تتلاءم وعمله هذا، انهم اشخاص متقلبون مخادعون، كما يسهل تشخيصهم بسرعة من خلال صفاتهم وتصرفاتهم، في حـين ان اخـلاص وصـدق وصـفاء الانـبياءﷺ دليـل مـقرونَ باعجازهم أضفىٰ عليهم المزيد من الجلاءِ والوضوح[٣].[٤]

---

١ ـ (يونس / ٨١).

٢ ـ (طه / ٦٨ و ٦٩).

٣ ـ ورد نظير هذا المعنىٰ في سورة يونس الآية ٧٧.

٤ ـ نفحات القرآن ج ٧ص ٢٩٤ ـ ٢٩٩.

٥٣

هل ارتكب آدم معصية؟

نقرأ في سورة طه الآية ١٢١ ﴿وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل ارتكب آدم معصية؟

☑ المصادر الإسلامية ـ عقلاً ونقلاً ـ تقول لنا: إنّ الانبياء لايرتكبون إثماً، وإنّ منصب إمامة الناس وهدايتهم لا يُعطىٰ لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية. ونحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلّهيين، وعلى هذا الأساس فإنّ كل ما ورد في هذه الآيات مثل غيرها من التعابير التي جاءت في القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعني «العصيان النسبي» و «ترك الأَولىٰ» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك:

أن المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و«المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هي مخالفة النهي التحريمي، وتجاهل الأمر الإلّهيّ القطعيّ، وهي تشمل كلَّ نوعٍ من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام.

ولكن المعصية النسبية هي أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه، وربّما يكون إتيان عمل مباح ـ بل ومستحب ـ لا يليق بشأن الشخصيات الكبيرة، وفي هذه الصورة يُعدّ إتيان ذلك العمل «معصية نسبية»، كما لوساعد مؤمنٌ واسع الثراء فقيراً لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه، فإنه ليس من شك في أنّ هذه المعونة المالية مهما كانت صغيرة وحقيرة لا تكون فعلاً حراماً، بل هي أمر مستحب، ولكن كل من يسمع بها يذمُ ذلك الغني حتى كأنّه ارتكب معصية واقترف ذنباً، وذلك لأنّه يتوقّع من مثل هذا الغني المؤمن أن يقوم بمساعدة أكبر.

وانطلاقاً من هذه القاعدة وعلى هذا الأساس تقاس الأعمال التي تصدر من الشخصيات الكبيرة بمكانتهم وشأنهم الممتاز، وربّما يطلق على ذلك العمل ـ مع مقايسته بذلك ـ لفظ (العصيان» و«الذنب».

فالصّلاة التي يقوم بها فرد عادي قد تعتبر صلاة ممتازة، ولكنّها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء الله، لأن لحظة واحدة من الغفلة في حال العبادة لا تناسب مقامهم ولا تليق بشأنهم. بل نظراً لعلمهم وتقواهم ومنزلتهم القريبة يجب أن يكونوا حال عبادة الله تعالى مستغرقين في صفات الله الجمالية والجلالية، وغارقين في التوجه إلى عظمته وحضرته.

وهكذا الحال في سائر أعمالهم، فإنّها على غَرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولىٰ» عوتبوا من جانب الله، والمراد من ترك الأَولىٰ، هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل، ويعمد إلى عمل جيد أو مُستحبّ أدنىٰ منه في الفضل.

فإنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أن ما أُصيب به يعقوب من محنةِ فراقِ ولده يوسف، كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم وقف على باب بيته عند غروب

الشمس يطلب طعاماً، فغفل يعقوب عن اطعامه، فعاد ذلك الفقير جـائعاً مـنكسراً خائباً.

فلو أنّ هذا الصنيع صدر من إنسان عادي من عامّة الناس لما حظي بمثل هذه الأهمية والخطورة، ولكن يُعدّ صدوره من نبيّ إلٰهيٍّ كبيرٍ، ومن قائد أُمّة أمراً مُهمّاً وخطيراً استتبع عقوبةً شديدةً من جانبِ الله تعالى[1].

إنّ نهي آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان ترك أَوْلىٰ، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عُدَّ صدورُه أمراً مـهماً وخـطيراً، واسـتوجب مخالفة هذا النهي (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذة من جانب الله تعالى.[2]

---

١ ـ نور الثقلين، المجلد الثاني ص ٤١١، نقلاً عن كتاب علل الشرائع.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٤/٥٩٧ ـ ٦٠٠.

٥٤

هل ولادة عيسى عليه السلام دون أب تخالف تحقيقات العلماء؟

☑ مما لا شك فيه أنّ هذه المسألة قد تمت عن طريق الإعجاز، إلّا أنّ العلم اليوم لا ينفي إمكان وقوع مثل هذا الأمر أيضاً، بل صرح بإمكان ذلك، خاصّة وأن موضوع إنجاب البكر قد لوحظ بين كثير من الحيوانات، وإذا علمنا أن مسألة انعقاد النطفة لا تختص بالإنسان، فإنّ هذا يثبت إمكان حدوث هذا الأمر بصورة عامّة.

لقد كتب الدكتور «الكسيس كارل»، الفيزيائي وعالم الحياة الفرنسي المعروف، في كتاب «الإنسان ذلك المجهول»، عندما نفكر في مقدار مساهمة كل من الأب والأم في تكوين أمثالهما، فيجب أن نتذكر تجارب (لوب) و (باتايون) بأنّه يمكن إنتاج ضفدعة جديدة من بيضة ضفدعة غير ملقحة بدون تدخل الحيامن، بل بواسطة أساليب خاصّة.

وعلىٰ هذا فإنّ من الممكن أن يحل عامل كيمياوي أو فيزياوي محل حيمن الذكر، ولكن لابدّ علىٰ كل حال من وجود أحد العوامل كمادة ضرورية دائماً.

بناء علىٰ هذا، فإنّ المؤكّد من الناحية العلمية لتكوّن الجنين هو وجود نطفة الأُم (البيضة)، وإلّا فإنّ نطفة الذكر (الحيمن) يمكن أن يقوم مقامها عامل آخر، ولهذا

فإن مسألة حمل وولادة البكر من المسائل الواقعية التي يتقبلها ويعترف بها الأطباء في عالمنا المعاصر، وإن كانت نادرة الحدوث.

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ هذه المسألة في مقابل قوانين الخلقة وقدرة الله، هي كما يصورها القرآن حيث يقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١]. أي إنّ خرق العادة هذا ليس بأهم من خرق العـادة الأوّل ذاك.[٢]

---

١ ـ آل عمران، ٥٩.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٩/٤٤١ ـ ٤٤٢.

٥٥

إذا كانت شريعة موسى كاملة فما الحاجة إلى شريعة عيسى و الإسلام؟

☑ إنَّ كلّ شريعة من الشرائع إنّما تكون شريعة جامعة وكاملة بالنسبة لعصرها، ومن المستحيل أن تنزل شريعة ناقصة من جانب الله تعالى.

بيد أنّ هذه الشريعة التي تكون كاملةً بالنسبة إلى عصرٍ معيَّنٍ يمكن أن تكون ناقصةً غير كاملةٍ بالنسبة إلى العصور اللاحقة، كما أنّ البرنامجَ الكاملَ الجامعَ المُعَدّ لمرحلة الدراسة الإبتدائية، يكون برنامجاً ناقصاً بالنسبة إلى مرحلة الدراسة المتوّسطة، وهذا هو السرّ في إرسال الأنبياء المتعددين بالكتب السماويّة المختلفة المتنوعة حتى ينتهي الأمرُ إلى آخر الأنبياء وآخر التعاليم.

نعم إذ تَهيّأ البشر لتلقّي التعاليم النهائية، وصدرت إليهم تلك التعاليم والأوامر، لم يبق حاجةٌ ـ بعد ذلك ـ إلى دينٍ جديدٍ، وكان شأنهم حينئذٍ شأنَ المتخرّجين الذين يمكنهم بما عندهم من معلومات الحصول على نجاحات علمية عن طريق المطالعة والتأمل.

إن أتباع مثل هذه الشريعة، ومثل هذا الدين (النهائي) لن يحتاجوا إلى دين جديد، وإنّما يكتسبون طاقة حركتهم وتقدمهم من نفس ذلك الدين الإلّهي.[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٤/٥١٦ ـ ٥١٧.

٥٦

هل يمكن من ناحية العلوم المعاصرة معجزة شقّ القمر؟

نقرأ في سورة القمر ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إستناداً إلى الرّوايات المشهورة التي ادّعى البعض تواترها إجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فلقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله ربّه أن يعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فلقتين ورسول الله ينادي: «يافلان يافلان، اشهدوا»**[١].

ولعلّ التساؤل يثار هنا عن كيفية حصول هذه الظاهرة الكونية: (إنشقاق هذا الجرم السماوي العظيم) وعن مدى تأثيره على الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية، وكذلك عن طبيعة القوّة الجاذبة التي أعادت فلقتي القمر إلى وضعهما السابق، وعن كيفيّة حصول مثل هذا الحدث؟ ولماذا لم يتطرّق التاريخ إلى ذكر شيء عنه؟ بالإضافة إلى مجموعة تساؤلات أُخرى حول هذا الموضوع.

وللإجابة على هذا السؤال وبناءً على النتائج التي توصّل إليها العلماء الفلكيون،

---

١ ـ ذكر في مجمع البيان وكتب تفسير أُخرى في هامش تفسير الآية مورد البحث.

فإنّ مثل هذا الأمر في نظرهم ليس بدرجة من التعقيد بحيث يستحيل تصوّره ... إنّ الإكتشافات العلمية التي توصّل إليها الباحثون تؤكّد أنّ مثل هذه الحوادث مضافاً إلى أنّها ليست مستحيلة فقد لوحظت نماذج عديدة من هذا القبيل ولعدّة مرّات مع إختلاف العوامل المؤثّرة في كلّ حالة.

وبعبارة أُخرى: فقد لوحظ أنّ مجموعة إنفجارات وإنشقاقات قد وقعت في المنظومة الشمسية، بل في سائر الأجرام السماوية.

ويمكن ذكر بعض النماذج كشواهد على هذه الظواهر ....

أ ـ ظهور المنظومة الشمسية:

إنّ هذه النظرية المقبولة لدى جميع العلماء تقول: إنّ جميع كرات المنظومة الشمسية كانت في الأصل جزءاً من الشمس ثمّ إنفصلت عنها، حيث أصبحت كلّ واحدة منها تدور في مدارها الخاصّ بها غاية الأمر هناك كلام في السبب لهذا الإنفصال ..

يعتقد (لاپلاس) أنّ العامل المسبّب لإنفصال القطع الصغيرة من الشمس هي: (القوّة الطاردة) التي توجد في المنطقة الإستوائية لها، حيث أنّ الشمس كانت تعتبر ولحدّ الآن كتلة ملتهبة، وضمن دورانها حول نفسها فإنّ السرعة الموجودة في المنطقة الإستوائية لها تسبّب تناثر بعض القطع منها في الفضاء ممّا يجعل هذه القطع تدور حول مركزها الأصلي (الشمس).

ولكن العلماء الذين جاءوا بعد (لاپلاس) توصّلوا من خلال تحقيقاتهم إلى فرضية أُخرى تقول: إنّ السبب الأساس لحدوث الإنفصال في الأجرام السماوية عن الشمس هو حالة المدّ والجزر الشديدين التي حدثت على سطح الشمس نتيجة عبور نجمة عظيمة بالقرب منها.

الأشخاص المؤيّدون لهذه النظرية الذين يرون أنّ الحركة الوضعية للشمس في

ذلك الوقت لا تستطيع أن تعطي الجواب الشافي لأسباب هذا الإنفصال، قالوا: إنّ حالة المدّ والجزر الحاصلة في الشمس أحدثت أمواجاً عظيمة على سطحها، كما في سقوط حجر كبير في مياه المحيط، وبسبب ذلك تناثرت قطع من الشمس الواحدة تلو الأُخرى إلى الخارج، ودارت ضمن مدار الكرة الأُمّ (الشمس).

وعلى كلّ حال فإنّ العامل المسبّب لهذا الإنفصال أيّاً كان لا يمنعنا من الإعتقاد أنّ ظهور المنظومة الشمسية كان عن طريق الإنشقاق والإنفصال.

ب ـ (الأستروئيدات):

الأستروئيدات: هي قطع من الصخور السماوية العظيمة تدور حول المنظومة الشمسية، ويطلق عليها في بعض الأحيان بـ (الكرات الصغيرة) و (شبه الكواكب السيارة) يبلغ قطر كبراها (٢٥) كم، لكن الغالبية منها أصغر من ذلك.

ويعتقد العلماء أنّ «الأستروئيدات» هي بقايا كوكب عظيم كان يدور في مدار بين مداري المريخ والمشتري تعرّض إلى عوامل غير واضحة ممّا أدّى إلى إنفجاره وتناثره.

لقد تمّ إكتشاف ومشاهدة أكثر من خمسة آلاف من (الأستروئيدات) لحدّ الآن، وقد تمّ تسمية عدد كثير من هذه القطع الكبيرة، وتمّ حساب حجمها ومقدار ومدّة حركتها حول الشمس، ويعلّق علماء الفضاء أهميّة بالغة على الأستروئيدات، حيث يعتقدون أنّ بالإمكان الإستفادة منها في بعض الأحيان كمحطّات للسفر إلى المناطق الفضائية النائية.

كان هذا نموذج آخر لإنشقاق الأجرام السماوية.

ج ـ الشهب:

الشهب: أحجار سماوية صغيرة جدّاً، حتّى أنّ البعض منها لا يتجاوز حجم

(البندقة)، وهي تسير بسرعة فائقة في مدار خاصّ حول الشمس وقد يتقاطع مسيرها مع مدار الأرض أحياناً فتنجذب إلى الأرض، ونظراً لسرعتها الخاطفة التي تتميّز بها ـ تصطدم بشدّة مع الهواء المحيط بالأرض، فترتفع درجة حرارتها بشدّة فتشتعل وتتبيّن لنا كخطّ مضيء وهّاج بين طبقات الجوّ ويسمّى بالشهاب.

وأحياناً نتصوّر أنّ كلّ واحدة منها تمثّل نجمة نائية في حالة سقوط، إلّا أنّها في الحقيقة عبارة عن شهاب صغير مشتعل على مسافة قريبة يتحوّل فيما بعد إلى رماد.

ويلتقي مداري الشهب والكرة الأرضية في نقطتين هما نقطتا تقاطع المداريين وذلك في شهري (آب وكانون الثاني) حيث يصبح بالإمكان رؤية الشهب بصورة أكثر في هذين الشهرين.

ويقول العلماء: إنّ الشهب هي بقايا نجمة مذنّبة إنفجرت وتناثرت أجزاؤها بسبب جملة عوامل غير واضحة ... وهذا نموذج آخر من الإنشقاق في الأجرام السماوية.

وعلى كلّ حال، فإنّ الإنفجار والإنشقاق في الكرات السماوية ليس بالأمر الجديد، وليس بالأمر المستحيل من الناحية العلمية، ومن هنا فلا معنى حينئذ للقول بأنّ الإعجاز لا يمكن أن يتعلّق بالحال.

هذا كلّه عن مسألة الإنشقاق.

أمّا موضوع رجوع القطعتين المنفصلتين إلى وضعهما الطبيعي السابق تحت تأثير قوى الجاذبية التي تربط القطعتين فهو الآخر أمر ممكن.

ورغم أنّ الإعتقاد السائد قديماً في علم الهيئة القديم طبق نظرية (بطليموس) وإعتقاده بالأفلاك التسعة التي هي بمثابة قشور البصل في تركيبها ـ الواحدة على الأُخرى ـ فأيّ جسم لا يستطيع أن يخترقها صعوداً أو نزولاً، ولذلك فانّ أتباع هذه النظرية ينكرون المعراج الجسماني وإختراقه للأفلاك التسعة. كما أنّه لا يمكن وفقاً لهذه النظريات إنشقاق القمر، ومن ثمّ التئامه، ولذلك أنكروا مسألة شقّ القمر، ولكن

اليوم أصبحت فرضية (بطليموس) أقرب للخيال والأساطير منها للواقع، ولم يـبق أثر للأفلاك التسعة، وأصبحت الأجواء لا تساعد لتقبّل مثل هذه الآراء.

وغني عن القول أنّ ظاهرة شقّ القمر كانت معجزة، ولذا فإنّها لم تتأثر بـعامل طبيعي إعتيادي، والشيء الذي يراد توضيحه هنا هو بيان إمكانية هذه الحادثة، لأنّ المعجزة لا تتعلّق بالأمر المحال.[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٧/٢٩٦ ـ ٣٠٠.

٥٧

ما هو الفرق بين اطلاع الانبياء على الغيب واخبارات الكهنة الغيبيّة؟

☑ الالتفات إلىٰ نكتة واحدة يكشف الاجابة علىٰ هـذا السـؤال، وهـي إن توقعات المرتاضين واخبارات الكهنة الغيبية لم تكن ابداً أخباراً يـمكن الاعـتماد عليها، فضلاً عن عدم خلوّها من الاشتباه باي حال من الاحوال فقد تصدق احياناً وقد تكون كاذبة احياناً اخرىٰ، وهناك امثلة كثيرة جداً عليها. وبناءً علىٰ هذا فلا يمكن ابداً اعتبار هذه الاخبار والمعلومات من علم الغيب، بل انهم يعترفون بانفسهم احياناً بان هذه الاخبار هي عن الشياطين الذين لا يصدقون القول معهم ابداً!

وبعبارة اخرىٰ ان هناك اشباحاً تتراءىٰ فـي افـق اذهـانهم بسـبب ريـاضتهم، فيفسرون هذه الاشباح من عندهم، لتقع تارة صحيحة واخرىٰ خاطئة، مثل الاحلام التي يراها الناس، والتي تكون تفاسيرهم لها صحيحة احياناً واخرىٰ غير صحيحة.

هذه المعلومات والمطالب الخاطئة والتي يخالطها الشك لا يمكنها ابداً ان تعد من علم الغيب.(١)

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٧ ص ٢٣٨.

٥٨

كيف نجمع بين الآيات والرّوايات التي ينفي بعضها علم الغيب لغير اللّه وإثبات البعض الآخر لغيره؟

هناك طرق مختلفة للجمع بينها:

١ ـ أشهر طرق الجمع هو أنّ المراد من اختصاص علم الغيب باللّه تعالى هو العلم الذاتي والإستقلالي، ولهذا لا يعلم الغيب إلّا هو، وما يعلمونه فهو من اللّه، وذلك بلطفه وعنايته، والدليل على هذا الجمع هو الآية ٢٦ من سورة الجن التي تقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وقد أُشير إلى هذا المعنى في نهج البلاغة عندما كان أمير المؤمنين عليه السلام يُخبرُ عن الحوادث المقبلة (وهو يتصور هجوم المغول على البلاد الإسلامية) فقال أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين، هل عندك علم الغيب؟ فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «ليس هو بعلم غيب، إنّما هو تعلم من ذي علم».[١]

وقد وافق على هذا الجمع كثير من العلماء المحققين.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

٢ ـ أسرار الغيب قسمان: قسم خاص بالله عزّوجلّ لا يعلمه إلّا هو كقيام الساعة، وغيرها ممّا يشابه ذلك، والقسم الآخر علّمه الأنبياء والأولياء، كما يقول علي عليه السلام في نهج البلاغة في ذيل تلك الخطبة المشار إليها: «وإنّما علم الغيب علم الساعة، وما عدده الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1].

ثمّ أضاف الإمام عليه السلام في شرح هذا المعنىٰ.

يمكن لبعض الناس أن يعلموا بزمان وضع الحمل أو نزول المطر ومثل ذلك علماً إجمالياً، وأمّا العلم التفصيلي والتعرف على هذه الأُمور فهو خاص بذات الله تعالى المقدسة وإنّ علمنا بشأن يوم القيامة هو علم إجمالي ونجهل جزئيات وخصوصيات يوم القيامة.

وإذا كان النّبي صلى الله عليه وآله أو الأئمّة المعصومون عليهم السلام قد أخبروا البعض في أحاديثهم عمّن يولد أو عمن ينقضي عمره، فذلك يتعلق بالعلم الإجمالي.

٣ ـ الطريق الآخر للجمع بين القسمين من الآيات والرّوايات هو ثبوت أسرار الغيب في مكانين: في اللوح المحفوظ (الخزانة الخاصّة لعلم الله وهو غير قابل للتغيير ولا يمكن لأحد أن يعلم عنه شيئاً).

ولوح المحو والإثبات الذي هو علم المقتضيات وليس العلّة التامة، ولهذا فهو قابل للتغيير، وما لا يدركه الآخرون يرتبط بهذا القسم.

لذا نقرأ في حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ لله علماً لا يعلمه إلّا هو، وعلماً أعلمه ملائكته ورسله، فما أعلمه ملائكته وأنبياءه ورسله فنحن نعلمه»[2].

---

١ ـ المصدر السّابق.

٢ ـ بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٦٠، الحديث ٥، هناك روايات متعددة في هذا الإطار قد نقلت

ونقل عن علي بن الحسين عليه السلام أيضاً أنّه قال: «لولا آية في كتاب اللّه لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة» فقلت له: أيّة آية؟ فقال: «قول اللّه: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾»[1].

وطبقاً لهذا الجمع يكون تقسيم العلوم على أساس حتميته أو عدمه، وفي الجمع السابق يكون على أساس مقدار المعلومات.

٤ ـ والطريق الآخر هو أنّ اللّه تعالى يعلم بكل أسرار الغيب، وأمّا الأنبياء والأولياء فإنّهم لا يعلمونها كلّها، ولكنّهم إذا ما شاءوا ذلك أعلمهم اللّه تعالى بها، وبالطبع هذه الإرادة لا تتمّ إلّا بإذن اللّه تعالىٰ.

ومحصلة ذلك أنّ الآيات والرّوايات التي تقول إنّهم لا يعلمون بالغيب هي إشارة إلى عدم المعرفة الفعلية، والتي تقول إنّهم يعلمون تشير إلى إمكان معرفتهم لها.

وهذا في الحقيقة كمن يسلم رسالة بيد شخص ما ليوصلها إلى آخر، ويمكن القول هنا: إنّ الشخص الموصل لها لا يعلم بمحتوىٰ الرسالة، ولكن يمكنه فتحها والتعرف على ما فيها إذا ما حصل على الموافقة على قراءتها، ففي هذه الصورة يمكن القول على أنّه عالم بمحتوىٰ الرسالة، وربّما لا يُسمح له ذلك.

والدليل على هذا الجمع هو ما نقرأه في الرّوايات المنقولة في كتاب الكافي للكليني رحمه الله في باب (أنّ الأئمّة إذا شاءوا أن يعلموا أُعلموا) ومنها في حديث ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه للّه ذلك»[2].

وهذا الوجه من الجمع يمكن أن يحلّ الكثير من المشاكل المتعلقة بعلم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام، منها أنّهم كانوا يتناولون مثلاً الغذاء المسموم في حين أن

⇦من هذا المصدر.

١ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥١٢، الحديث ١٦.

٢ ـ كتاب الكافي باب (أنّ الأئمّة إذا شاءوا أن يعلموا أُعلموا) الحديث ٣، ونقلت روايات عديدة في هذا الباب بنفس المضمون.

تناول ما يؤدي بالإنسان إلى الهلاك غير جائز، فكيف يكـون ذلك؟ فـلهذا يـجب القول: إنّ في مثل هذه الموارد ما كان يسمح لهم معرفة أسرار الغيب.

وهكذا تقتضي المصلحة أحياناً في ألّا يتعرّف النّبيﷺ أو الإمام على أمرٍ من الأُمور، أو يعرض إلى اختبار ليتكامل بتجاوزه مرحلة الإختبار، كما جاء في قصّة ليلة المبيت عندما بات الإمام عليّ؈ في فراش النّبيﷺ وهو لا يعلم هـل أنّ الإمام؈ سوف ينجو من المشركين عندما يهجمون على أم يستشهد، فـالمصلحة هنا تقتضي ألّا يعلم الإمام عاقبة هذا الأمر ليتحقق الإختبار الإلهي، وإذا كان الإمام بنجاته عند هجوم القوم عليه لم يكن له حينئذ أيّ ، ولم يكن ما ذكر في الآيات الكريمة والرّوايات في أهمية هذا الإيثار محل من الاعراب.

نعم، إنّ مسألة العلم الإرادي هي جواب لكلّ هذه الإشكالات.

٥ ـ هناك طريق آخر أيضاً لجمع الرّوايات المختلفة في علم الغيب (وإن كان هذا الطريق صادقاً في بعض هذه الرّوايات) وذلك هو أنّ المخاطبين في هذه الرّوايات هم على مستويات مختلفة، فمن كان له الإستعداد الكامل والتهيؤ لقبول مسألة علم الغيب للأئمّة؉ كانت تستوفي لهم المطاليب بتمامها، وأمّا المخالفون والضعفاء فقد كان الحديث معهم على قدر عقولهم.

فنقرأ مثلاً في حديث أنّ أبا بصير وعدّة من أصحاب الإمام الصادق؈ كانوا ذات يوم في مجلس فدخل عليهم الإمام؈ غضبان، وعندما جلس قال: «ياعجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب! ما يعلم الغيب إلّا اللّـه عـزّوجلّ لقـد هـممت بـضرب جاريتي فلانة، فهربت منّي فما علمت في أي بيوت الدار هي».[1]

يقول الراوي: فلمّا قام الإمام ودخل الدّار قمنا خلفه، وقلنا له: فدتك نفوسنا قلت هذا عن جاريتك، ونحن نعلم أنّ لكم علوماً كثيرة، ولا نسمّي ذلك بـعلم الغـيب؟

١ ـ أُصول الكافي، ج ١، باب نادر فيه ذكر الغيب الحديث ٣.

عندئذ قال الإمام: «إنّ ما أردته كان العلم بأسرار الغيب».

يتّضح من ذلك أنّ الجالسين كانوا لا يملكون الاستعداد والتهيؤ لإدراك مثل هذه المعاني ويجهلون مقام الإمامعليه السلام.

ويجب الإلتفات إلى أنّ هذه الطرق الخمسة لا تتنافىٰ مع بعضها، ويمكن أن تكون كلّها صادقة.

٢ ـ الطريق الآخر لإثبات علم الغيب للأئمّةعليهم السلام

يوجد هنا طريقان لإثبات حقيقة أنّ النّبيصلى الله عليه وآله والأئمّةعليهم السلام المعصومين يعلمون الغيب بصورة إجمالية:

الأوّل: هو أنّنا نعلم أنّ مهمتهم لم تجدّد بمكان وزمان خاص، بل أنّ رسالة النّبيصلى الله عليه وآله وإمامة الأئمّةعليهم السلام هي عالمية وخالدة، فكيف يمكن لمن يملك هذه المهمّة ألّا يعلم شيئاً سوىٰ ما يحيط به وبزمانه؟ هل يمكن لمن يتسلم مهمّة الإمرة على إمارة، والمحافظة على قسم عظيم من بلادٍ ما وهو لا يعلم منها شيئاً، وفي نفس الوقت يطلب منه أن ينفذ المهمّة على أحسن وجه؟!

وبعبارة أُخرىٰ، أنّ النّبيصلى الله عليه وآله أو الإمام عليه أن يبيّن الأحكام الإلهية ويطبقها في فترة حياته بحيث يلبّي احتياجات البشرية في كلّ زمان ومكان، وهذا لا يمكن إلّا بمعرفته على الأقل لقسم من أسرار الغيب.

ثمّ هناك ثلاث آيات في القرآن المجيد إذا وضعت إلى جانب بعضها البعض فسرعان ما يتّضح لنا ما يتعلق بعلم الغيب النّبيصلى الله عليه وآله والأئمّةعليهم السلام فالأوّل ما يذكره القرآن حول من أحضر عرش ملكة سبأ في طرفة عين (وهو آصف بن برخيا) فيقو تعالى في كتابه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَـٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى﴾[١]، ونقرأ في آية أُخرىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢].

ومن جهة أُخرىٰ نقل في أحاديث مختلفة في كتب الخاصّة والعامّة أنّ أباسعيد الخدري قال سألت النبيﷺ عن معنىٰ الآية: ﴿ٱلَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقال: «هو وصي أخي سليمان بن داود» قلت ومن المراد في : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؟ فقال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب»[٣].

فالملاحظ فيما يقوله إنّ (علم من الكتاب) الذي جاء فيما يخص «آصف» هو علم جزئي، وأمّا حينما يقول في (علم الكتاب) الذي ورد فيما يخص علياًعليه السلام هو علم كلي، وهذا ما يوضح الإختلاف بين المقام العلمي لآصف وبين المقام العلمي لعليعليه السلام.

ومن جهة ثالثة: نقرأ في الآية (٨٩) من سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰناً لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فمن الواضح أنّ من يعلم بأسرار مثل هذا الكتاب، لابدّ أن يكون مطّلعاً على أسرار الغيب، وهذا دليل واضح على إمكان الإطلاع والمعرفة على أسرار الغيب بأمر من اللّه لإنسان هو من أولياء اللّه.[٤]

---

١ ـ النّمل، ٤٠.

٢ ـ الرعد، ٤٣.

٣ ـ راجع الجزء الثالث من (إحقاق الحقّ) ص ٢٨٠ ـ ٢٨١، ونور الثقلين، ج ٢، ص ٥٢٣.

٤ ـ تفسير الأمثل: ١٩/ ١١٠ ـ ١١٦.

٥٩

هل ينسجم امكان النسيان للانبياء مع عصمتهم؟

يستفاد من عدة آيات من سورة الكهف أنّ موسىٰ عليه السلام ابتلي بالنسيان، فهو تارة يقول: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ (الكهف / ٦١)، اذن فلقد وجد النسيان طريقه اليهما.

وفي آيتين بعدها ينقل عن صاحب موسىٰ عليه السلام: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ (الكهف / ٦٣).

فلو كان صاحبه هو يوشع بن نون ـ كما هو معروف بين اقطاب المفسرين ـ وكان في تلك الحالة نبياً، فسيثبت جواز النسيان للانبياء.

كما نقرأ في عدة آيات بعدها وعلىٰ لسان موسىٰ عليه السلام، أنّه حينما التقىٰ بذلك الرجل الالهي «الخضر» تعّهد بألاّ يسأله عن السّروراء تصرفاته إلىٰ أن يبيّنها هو بنفسه. لكن موسىٰ عليه السلام نسي ذلك في أول مرة. ولذا اعترض علىٰ الخضر لخرقهِ تلك السفينة السالمة، وحينما ذكّره الخضر بالعهد قال: ﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (الكهف / ٧٣)، كما تكرر هذا الشيء ثانية وثالثة ايضاً.

ألّا يستفاد من مجموع هذه الآيات امكـان نسـبة النسـيان للانـبياء؟! أوَ ليس الصون عن الخطأ والنسيان احد فروع العصمة ؟

☑ سلك المفسرون طرقاً شتىٰ للاجابة علىٰ هذا السؤال: اذ قال البعض أنّ «النسيان» يعني تارة ترك الشيء وان لم يكن منسياً، كما نقرأ في قصة آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ...﴾ (طه / ١١٥).

من المسلم أنّ آدم لم ينس العهد الالهي فيما يتعلق بـالاجتناب مـن الشـجرة الممنوعة، لكن نظراً لعدم اهتمامه بذلك العهد فقد عبّر عنه بالنسيان.

وقال البعض ايضاً ان «الناسي» هو في الحقيقة صـاحب مـوسىٰ عليه السلام لا نـفس موسىٰ عليه السلام، وليس من المسلّم كونه نبياً، اذ لم يثبت ذلك فـيما لو اقـتصرنا عـلىٰ الآيات القرآنية علىٰ اقل تقدير، فنحن نقرأ في الآيات انّ صاحب مـوسىٰ عليه السلام قـد شاهد سقوط السمكة في الماء واستعادتها للحياة والحركة، وقرر اخبار موسىٰ عليه السلام بذلك لكنه نسي. اذن فالناسي هو لا غيره باعتباره الشاهد الوحيد لهذه الحـادثة، والنسبة اليهما في جملة «نسيا» هي من قبيل نسبة عمل الفرد إلىٰ الجماعة وهـي شائعة الاستعمال.

ولو قيل: كيف يعقل إيداع مسألة بكل هذه الاهمية في زاوية النسيان؟ لقلنا بأنّ صاحب موسىٰ عليه السلام كان قد شاهد معجزات أهم من هذه، فضلاً عن كونهما في هذه السفرة يطلبان مسألة أهم، فنسيان تلك بسبب هذه لا يدعو للعجب.

ونسبة النسيان إلىٰ الشيطان، قد تكون لوجود علاقة بين حادثة احياء السمكة ومسألة العثور علىٰ ذلك الرجل العالم، الذي كان من المقرر ان يستفيد موسىٰ عليه السلام من علمه. وحيث ان عمل الشيطان هو الاغواء والحؤول دون بلوغ بني الانسـان أهدافهم المقدسة، أو تأخيرهم عنها علىٰ أقل تقدير، فقد زرع النسيان في ذهـن «صاحب موسىٰ».

جاء في بعض الروايات عن النبي الاكرمﷺ أنّ موسىٰ كان نائماً حين تحركت السّمكة وسقطت في البحر وذهبت في سبيلها، وان صاحبه «الذي يشاهد هذا الموقف» لم يرغب في ايقاظه واخباره بذلك، كما أنّه نسي ان يخبره بعد استيقاظه ايضاً ولذلك فقد واصلوا مسيرهم يوماً وليلة آخرين، ثم تذكر هذا الرجل الحادثة وقصّها علىٰ موسىٰ‌ؑ فاضطرا للرجوع إلىٰ مكانهما الاول، الذي سقطت فيه السمكد في الماء[1].

كما قال البعض ايضاً أنّ الانبياء معصومون من النسيان المرتبط بدعوتهم، دون ماله علاقة بأمر عادي يومي، فنسيان أمر عادي لا يرتبط من قريب او بعيد، بمسألة الوحي والنبوة والتربية والتعليم والتبليغ، بل ان عدم ترابطهما امر واضح للجميع ولا يخدش هذا في مقام عصمة الانبياء، والنسيان الوارد في الآيات اعلاه هو من هذا القبيل.[2]

---

١ ـ تفسير المراغي الجزء ١٥ الصفحة ١٧٤.

٢ ـ نفحات القرآن ج ٧ ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

٦٠

ما هو روح القدس؟

نقرأ في سورة البقرة الآية ٨٧ ﴿وَأَيَّدْنَـاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ هنا يثار سؤال: ماهو روح القدس؟

☑ للمفسرين آراء مختلفة في معنى روح القدس:

١ ـ قالوا إنّه جبرائيل، فيكون معنىٰ الآية علىٰ هذا إن الله أيّد عيسى بجبرائيل. وشاهدهم علىٰ ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[١]

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، والجانب الروحي في الملائكة أمر واضح، وإطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، وإضـافة الروح إلى «القُدسِ» إشارة إلى طهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

٢ ـ وقيل: إن «روح القدس» هو القوّة الغيبية التي أيّدت عيسى عليه السلام، وبهذه القوة الخفية الإلهية كان عيسى يحيي الموتى.

---

١ ـ النحل، ١٠٢.

هذه القوّة الغيبية موجودة طبعاً بشكل أضعف في جميع المؤمنين علىٰ اختلاف درجة إيمانهم. وهذا الإمداد الإلهي هو الذي يعين الإنسان في أداء الطاعات وتحمل الصعاب، ويقيه من السقوط في الذنوب والزلات. من هنا ورد عن رسول الله ﷺ قوله لحسان: «لَنْ يَزَالَ مَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ مَا ذَبَبْتَ عَنَّا» وقول بعض أئمة أهل البيت لشاعر قرأ أبياتاً ملتزمة: «إِنَّمَا نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ عَلىٰ لِسَانِكَ».

٣ ـ ومن المفسرين من قال إن روح القدس هو «الإنجيل»[١] ويبدو أن التّفسيرين السابقين أقرب إلى المعنى.[٢]

١ ـ تفسير المنار، ذيل الآية المذكورة.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١/٢٩٤ .

٦١

لماذا ظهر الانبياء الكبار من منطقة خاصة؟

يثار احياناً السؤال عن ظهور الانبياء اولي العزم اصحاب الشريعة والكتاب السماوي من الشرق الاوسط طبقاً لصريح تواريخهم، فقد ظهر نوحعليه السلام في ارض العراق[١]، وكان مركز دعوة ابراهيمعليه السلام العراق والشام كما سافر الىٰ مصر والحجاز.

وظهر موسىٰعليه السلام في مصر ثم جاء الىٰ فلسطين، وكان مركز ولادة وظهور ودعوة المسيحعليه السلام الشام وفلسطين، وظهر نبي الإسلامصلى الله عليه وآله في الحجاز.

كما عاش الانبياء الاخرون غالباً في هذه المناطق وبشكلٍ بحيث يمكن القول بان: منطقة الشرق الاوسط كانت مركزاً لظهور الانبياء في العالم!

فما هو السبب وراء ظهور كل اولئك من هذه المنطقة من العالم بالذات؟ وهل يا ترىٰ كانت المناطق الاخرىٰ في غنىً من بعثة الانبياء او قبولهم؟

---

١ ـ نقرأ في حديث عن الامام الصادقعليه السلام انه قال: «كانت الكوفة ومسجدها في زمن نوحعليه السلام وكان منزل نوح وقومه في قرية علىٰ متن الفرات مما يلي غربي الكوفة» (تفسير العياشي، تفسير سورة هود، الحديث ١٩).

☑ التأمل في كيفية نشوء المجتمعات البشرية وظهور حضارتها لايبقي هناك من هذه المسألة ما يبعثُ للدهشة. اذ أن أقطاب مؤرخي العالم يصرحون بان الشرق (خصوصاً الشرق الاوسط) كان مهداً للحضارة الانسانية. وان المنطقة التي يطلق عليها اسم الهلال الخصيب (الهلال الخصيب اشارة الىٰ المنطقة التي تبدأ من وادي النيل وتمتد الىٰ مصب دجلة والفرات وشط العرب. وتظهر في الخارطة علىٰ شكل هلال كبير) هي مهد الحضارات العظيمة في العالم.

حضارة مصر القديمة التي تعد اقدم حضارة عرفتها البشرية. وحضارة بابل في العراق وحضارة اليمن في جنوب الحجاز. وكذلك حضارة ايران والشامات. كلها نماذج للحضارات البشرية المعروفة.

والآثار التأريخية الباقية في هذه المناطق والكتابات الحجرية. كلها شواهد حية علىٰ هذا المدعىٰ.

إنّ عودة الحضارة الانسانية في هذه المناطق الىٰ سبعة آلاف سنة او اكثر من جهة. والملازمة الشديدة بين الحضارة البشرية وبين ظهور الانبياء الكبار. نظراً للحاجة الماسة للناس المتحضرين الىٰ الاديان الالهية اكثر من غيرهم. ضماناً للقوانين الحقوقية والاجتماعية. وتفجيراً لطاقات فطرتهم الالهية. مع الحد من الاعتداءات والمفاسد من جهة اخرىٰ. دفعتنا للقول بان حاجة إنسان اليوم الىٰ الدين خصوصاً في الدول الصناعية المتطورة هي اكبر من اي زمان آخر.

الاقوام المتوحشة او البعيدة عن الوان المدنية ليس لها ذلك الاستعداد لتقبل الاديان. بل ليس لها القدرة علىٰ نشرها علىٰ فرض تقبلها لها.

لكن حينما يظهر الدين في المراكز المتحضرة لا يلبث ان يمد بجذوره ليشمل باقي النقاط. وذلك لاستمرارية تردد الاخرين علىٰ مثل هذه المناطق. املاً في حل مشاكلهم فضلاً عن تمركز وسائل الدعاية والاعلام فيها اكثر من غيرها.

يمكن ان يقال: اذن فلماذا ظهر الإسلام الذي هو اكبر الاديان السماوية في

منطقة متأخرة حضارياً؟

لكن لو دققنا النظر في الخارطة الجغرافية لرأينا ان هذه المنطقة المتأخرة اي «مكة» كانت في الواقع همزة وصل بين آثار خمس حضارات كبيرة وعريقة، بل هي بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لتلك الحضارات.

ففي الشمال حضارة الروم الشرقية والشامات، وفي الشمال الشرقي حضارة ايران والكلدانيين والآشوريين، وفي الجنوب حضارة اليمن، وفي الغرب حضارة مصر القديمة.

ولنفس هذا السبب بالضبط وضع الإسلام وضمن مرحلة انتشاره واتساعه كل امتدادات هذه الحضارات الخمس تحت سيطرته واذابها في بودقته حيث اخذ ايجابياتها والغىٰ سلبياتها، كما اضاف اليها مسائل عقائدية وعملية مهمة حتىٰ اشرقت شمس الحضارة الاسلامية علىٰ كل هذه المناطق من اقصاها الىٰ اقصاها.

الخلاصة هي انه ومع الاخذ بنظر الاعتبار لما ذكرناه سابقاً يتضح السبب وراء بعث الله الحكيم لانبيائه الكبار من منطقة الشرق الاوسط، ولماذا كان مشرق الارض قاعدة لانطلاق الاديان الالهية الكبيرة؟[١]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٧ ص ٣٨١.

٦٢

هل كان مرض أيوب منفّراً؟

☑ رغم أنّ الباريء عزّوجلّ أشاد بالروح الكبيرة لهذا النّبي الكبير الذي هو مظهر الصبر والتحمّل في قرآنه المجيد في سورة (ص) في أوّل القصّة الخاصّة بـه وفي آخرها. فإنّ قصّة هذا النّبي الكبير ـ ممّا يؤسف له ـ لم تحفظ من أيدي الجهلة والأعداء، حيث دسّوا فيها خرافات تافهة لا تليق بـمقامه المـحمود المـنزّه عـنها والمطهّر منها، ومن تلك الخرافات القول بأنّ الدود غطّى بدنه أثناء فـترة مـرضه، وتعفّن جسده، بحيث أنّ أهل قريته ضاقوا به ذرعاً وأخرجوه من قريتهم.

ودون أدنى شكّ، فإنّ مثل هذه الروايات مزيّفة رغم ورودها في طيّات كـتب الحديث، لأنّ رسالة الأنبياء تفرض أن يكون النّبي المرسل ـ في أي زمان ـ بعيداً عن مثل تلك التقوّلات، كي ينجذب إليه الناس برغبة وشوق، وأن لا تـتوفّر فـيه أشياء تكون سبباً لتنفّرهم فـيه وإبـتعادهم عـنه، كـالأمراض والعـيوب الجسـدية والأخلاق السيّئة، لأنّها تتناقض مع فلسفة الرسالة. فـالقرآن المـجيد يـقول بشأن رسول الله ﷺ في الآية (١٥٩) من سورة عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ

وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وهذه الآية دليل على أنّ النّبي يجب أن لا يكون بحالة تـجعل المـحيطين بـه يتفرّقون عنه.[1]

١ ـ تفسير الأمثل: ١٤/٥٢٥ ـ ٥٢٦.

٦٣

كيف كان زواج أبناء آدم؟

☑ قال سبحانه: ﴿بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾[1] هذه العبارة يستفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، وتكاثره قد تمّ عن طريق آدم وحواء فقط، أي بدون أن يكون الموجود ثالث أي دخالة في ذلك.

وبعبارة أُخرىٰ أنّ النسل البشري الموجود إنّما ينتهي إلى آدم وزوجته من غير أن يشاركهما في ذلك غيرهما من ذكر أو أُنثى.

وهذا يستلزم أن يكون أبناء آدم (أخوة وأخوات) قد تزاوجوا فيما بينهم، لأنه إذا تمّ تكثير النسل البشري عن طريق تزوجهم بغيرهم لم يصدق ولم يصح قوله: «منهما».

وقد ورد هذا الموضوع في أحاديث متعددة أيضاً، ولا داعي للتعجب والإستغراب إذ طبقاً للإستدلال الذي جاء في طائفة من الأحاديث المنقولة عن

---

١ ـ النساء: ١ .

أهل البيت عليهم السلام إنّ هذا النوع من الزواج كان مباحاً حيث لم يرد بعد حكم بحرمة «تزوج الأخ بأخته».

ومن البديهي أن حرمة شيء تتوقف على تحريم الله سبحانه له. فما الذي يمنع من أن توجب الضرورات الملحة والمصالح المعينة أن يبيح شيئاً في زمان، ويحرمه بعد ذلك في زمن آخر.

غير أنّه قد صرّح في أحاديث أُخرىٰ بأن أبـناء آدم لم يـتزوجوا بأخـواتـهم، وتحمل بشدّة على من يرى هذا الرأي ويذهب هذا المذهب.

ولو كان علينا عند تعارض الأحاديث أن نرجح ما وافق مـنها ظـاهر القـرآن لوجب أن نختار الطائفة الأُولىٰ، لأنها توافق ظاهر الآية الحاضرة كما عرفت قبل هذا.

ثمّ أنّ هاهنا احتمالاً آخر يقول: إن أبناء آدم تزوجوا بمن تبقى من البشر الذين سبقوا آدم ونسله، لأن آدم ـ حسب بعض الروايات ـ لم يكن أوّل إنسـان سكـن الأرض.

وقد كشفت الدراسات والتحقيقات العلمية اليوم أن النوع الإنساني كان يـعيش في الأرض منذ عهد ضارب في القدم، في حين لم يمر على تاريخ ظهور «آدم» في الأرض زمن طويل، فلابدّ إذن من القبول النظرية التي تقول: بأنّه كان يعيش فـي الأرض قبل آدم بشر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا. فما المانع من أن يكون «أبناء آدم» قد تزوجوا ببقايا النوع البشري السابق الذي كان في أواخر إنقراضه؟

ولكن هذا الإحتمال هو أيضاً لا يتوافق وظاهر الآية الحاضرة (وهـذا البـحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/٨١ ـ ٨٢.

٦٤

ماهي حكمة تعدّد زوجات النّبي؟

☑ إنّ زواج النّبي ﷺ من عدّة نساء كان لحلّ سلسلة من المشاكل الإجتماعية والسياسية في حياته.

لأنّا نعلم أنّ النّبي ﷺ كان وحيداً حينما صدع بنداء الإسلام ورفع شعاره، ولم يؤمن به بعد مدّة طويلة سوى عدّة معدودة، فإنّه ثار ضدّ كلّ معتقدات عصره وبيئته الخرافية، وأعلن الحرب ضدّ الجميع، فمن البديهي أن تتّحد كلّ الأقوام والقبائل ضدّه.

في هذا الوضع كان لابدّ من أن يستعين بكلّ الوسائل ويستغلّها لكسر إتّحاد الأعداء اللامشروع، وكانت إحدى هذه الوسائل هو الزواج من القبائل المختلفة لإيجاده علاقة قرابة ونسب، لأنّ رابطة القرابة كانت تعدّ أقوى الروابط بين عرب الجاهلية، وكانوا يعتبرون الصهر من نفس القبيلة، والدفاع عنه واجباً، وتركه وحيداً جريمة وذنباً.

إنّ لدينا قرائن كثيرة تبيّن أنّ زواج النّبي ﷺ المتعدّد كان له صبغة سياسيّة في كثير من الموارد على أقلّ تقدير. وأحدها ـ كزواجه بزينب ـ كان لكسر سنّة

جاهلية، وقد بيّنا تفصيله في ذيل الآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

وبعضه لتقليل العداوة، أو لجلب محبّة أشخاص أو أقوام متعصّبين عنودين.

من الواضح أنّ شخصاً يتزوّج وهو في سنّ الخامسة والعشرين، حيث كان في عنفوان شبابه، بامرأة أيم لها أربعون سنة، ويكتفي بها حتّى الثالثة والخمسين من عمره، وبهذا يكون قد قضى مرحلة الشباب وبلغ سنّ الكهولة، ثمّ يقدم على الزواج المتعدّد، لابدّ أن يكون له سبب وفلسفة، ولا يمكن أن يفسّر بأيّ وجه من الوجوه بأسباب العلاقة والرغبة الجنسية، لأنّه لم يكن هناك مانع إجتماعي، أو ظروف مالية صعبة، أو أدنى نقص يمنع النّبي ﷺ من الزواج المتعدّد في سنّي شبابه، خاصّة وأنّ تعدّد الزوجات كان أمراً طبيعياً بين العرب آنذاك، بل ربّما كانت الزوجة الأُولى تذهب لخطبة الزوجة الثّانية، ولم يكونوا يعترفون بأيّ حدّ في إتّخاذ الزوجات.

والطريف أنّه قد ورد في التواريخ أنّ النّبي لم يتزوّج إلّا بكراً واحدة، وهي عائشة، وباقي نسائه كنّ أيامى جميعاً ومن الطبيعي أن لا يتمتعنّ بإثارة جنسية ملحوظة[1].

بل نقرأ في بعض التواريخ أنّ النّبي ﷺ تزوّج بعدّة زوجات، ولم يجر إلّا مراسم العقد، ولم يباشرهنّ أبداً، بل إنّه اكتفى في بعض الموارد بخطبة بعض نساء القبائل فقط[2].

وقد كان هؤلاء يفرحون ويسرّون ويفتخرون بأنّ امرأةً من قبيلتهم قد سمّيت بزوجة النّبي ﷺ فحصل لهم هذا الفخر، وبذلك فإنّ علاقتهم الإجتماعية بالنّبي كانت تشتدّ وتقوى، ويصبحون أكثر تصميماً على الدفاع عنه.

ومن جانب آخر، فمع أنّ النّبي ﷺ لم يكن رجلاً عقيماً، إلّا أنّه لم يكن له من

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلّد ٢٢، صفحة ١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ المصدر السابق.

الأولاد إلّا القليل، في حين أنّ هذا الزواج المتعدّد لو كان بسبب جاذبية هذه النسوة، وإثارتهنّ الجنسية، فينبغي أن يكون له من الأولاد الكثير.

وكذلك ينبغي الإلتفات إلى أنّ بعض هذه النساء ـ كعائشة ـ كانت صغيرة جدّاً عندما أصبحت زوجة للنبي ﷺ، وقد مرّت سنين حتّى إستطاعت أن تكون زوجة حقيقية له، وهذا يوحي بأنّ الإقتران بمثل هذه البنت الصغيرة كانت له أهداف أُخرى، وكان الهدف الأصلي هو ما أشرنا إليه قبل قليل.

وبالرغم من أنّ أعداء الإسلام أرادوا أن يتّخذوا من تعدّد زواج النّبي ﷺ حربة لأشدّ هجماتهم المغرضة، ويحوكون منها أساطير أوهى من خيط العنكبوت للطعن في نبي الإسلام ﷺ إلّا أنّ سنّ النّبي المتقدّمة عند إقدامه على تكرار الزواج من جهة، والظروف الخاصّة المتعلّقة بالنساء من ناحية العمر والقبيلة من جانب آخر، والقرائن المختلفة التي أشرنا إلى قسم منها آنفاً من جهة ثالثة تجعل الحقيقة واضحة كالشمس، وتحبط مؤامرات المغرضين وتفضحها.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٣/٣١٢ ـ ٣١٤.

القرآن

٦٥

هل القرآن محرّف؟

☑ المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين شيعة وسنة، أنّ القرآن لم يتعرض لأي نوع من التحريف، وأن الذي بين أيدينا هو عين القرآن الذي نزل علىٰ صدر الحبيب محّمد النّبي ﷺ. فلا زيادة أو نقصان، حتىٰ ولو بكلمة واحدة، أو قل بحرف واحد.

ومن جملة مَنْ صرح بهذا من العلماء الأعلام الشيعة (من المتقدمين والمتأخرين) تغمّدهم اللّه برحمته.

١ ـ الشّيخ الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (٤٦٠ هـ ق)، وله بحث صريح وقاطع بهذا الشأن في أوّل تفسيره المعروف بـ (التبيان).

٢ ـ الشريف المرتضىٰ، ويعتبر من كبار علماء الإمامية في القرن الرّابع الهجري.

٣ ـ الشّيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه المعروف برئيس المحدثين، حيث يقول في بيان عقائد الإمامية: (إَن اعتقادنا بالقرآن أنّه سالم من أي تحريف).

٤ ـ المفسّر الكبير الشّيخ الطبرسي، وله في مقدمة تفسيره بحث مفصل بهذا الشأن.

٥ ـ المرحوم الشّيخ محمد حسين كاشف الغطاء، من كبار العلماء المتأخرين.

٦ ـ المرحوم المحقق اليزدي، وقد نقل في كتابه (العروة الوثقىٰ) مسألة عدم تحريف القرآن عن جمهور مجتهدي الشيعة.

٧ ـ بالإضافة إلىٰ جمع من العلماء الآخرين، أمثال: الشّيخ المفيد، الشّيخ البهائي، القاضي نور اللّه مع سائر محققي الشيعة.

وقد نحىٰ هذا المنحىٰ علماء ومحققوا أهل السنة.

وقد نُقل عن بعض مُحدِّثي الشيعة وبعض أهل السنة، اعتقادهم بوقوع التحريف في القرآن. إلاّ أن كبار علماء الفريقين بأدلتهم القاطعة قد أبطلوا زعم هؤلاء وأدخلوه في حيز النسيان.

وأفاد العلّامة الشريف المرتضىٰ في جواب (المسائل الطرابلسيات) «إن صحة نقل القرآن واضحة وبيّنة كمعرفتنا لعواصم العالم والحوادث المهمّة في التأريخ والكتب الشهيرة»

فهل هناك مَنْ يشك في وجود مدن كمكّة والمدينة أو لندن وباريس وإن لم يزرها؟! أو هل هناك مَن ينكر وقوع الهجوم المغولي علىٰ الشرق، الثورة الفرنسية، الحرب العالمية الأُولىٰ أو الثّانية؟!

فإنّ لم يكن هناك من يشك أو ينكر، بسبب تواتر ذكر وجودها، فكذلك آيات القرآن الكريم، وهذا ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه.

وإذا كان بعض المغرضين قد نسبوا للشيعة اعتقادهم بتحريف القرآن، فغايتهم إشعال فتيل التفرقة والفتنة بين الشيعة والسنة، وقد فندت كتب كبار علماء الشيعة هذه الأباطيل الفاقدة لأي دليل منطقي.

ولا نستغرب من الفخر الرازي قوله في ذيل الآية ٩ من سورة الحجر: (إنّ الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ﴾ دليل علىٰ بطلان قول الشيعة في حصول التغيير والزيادة والنقصان في القرآن)، ممّا نعلمه عن هذا الرجل من حساسية

و تعصب تجاه الشيعة.

وهنا.. لابدّ من كلمة: إن كان يقصد بالشيعة كبار علمائهم ومحققيهم، فليس هناك مَنْ يعتقد بذلك.

وإن كان يقصد بوجود قول ضعيف بهذا الشأن بين أوساط الشيعة، فإنَّ نظيره موجود في أوساط السنة أيضاً، وهو ما لم يُعتَن به من قبل الطرفين.

وقد تطرق لذلك بوضوح المحقق الشّيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء في كتابه (كشف الغطاء) بقوله: لا ريب أنّه (أيْ القرآن) محفوظ من النقصان بحفظ المَلك الديان، كما دل عليه صريح القرآن، وإجماع العلماء في كل زمان، ولا عبرة بنادر[1].

إنّ التأريخ الإسلامي مزدحم بالتهم الباطلة المتغذية من ثدي العصبية المقيتة، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام يقفون وراء حياكة ونشر هذه التهم لإيقاع البغضاء بين أبناء الدين الواحد، وأنّ غاية ما يسعون إليه أن يروا المسلمين أُمّةً مفككة غير قادرة علىٰ القيام بمهامها الوحدوية التوحيدية.

ترىٰ كاتباً معروفاً (من أهل الحجاز) في عرض ذمّه للشيعة من خلال كتابه (الصراع) يقول: (والشيعة هم أبداً أعداء المساجد)[2].

والحال لو أجرينا إحصاءاً لعدد المساجد في شوارع وأسواق وأزقة المدن الشيعية لأخذ منّا الوقت الطويل لكثرتها، لدرجة أنّ بعضاً من الشيعة بات يُشكِل علىٰ كثرة المساجد في المنطقة الواحدة ويرىٰ لو يلتفت المحسنون لدور الأيتام والمستشفيات الخيرية وما شاكلها، بدلاً من بناية المساجد لكفاية الموجود ومع هذا

---

١ ـ تفسير آلاء الرحمٰن، ٣٥.

٢ ـ الصراع، لعبد اللّه علي القصيمي، ج٢، ص٢٣، علىٰ ما نقل عنه العلّامة الأميني في الغدير، ج٣، ص٣٠٠.

ترىٰ كاتباً معروفاً يتحدث بصراحة عن أمر يدعو إلى الضحك.

وعليه فلا ينبغي الإستغراب لما افتراه الفخر الرازي.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ٨/٢٠ ـ ٢٣.

٦٦

كيف يكون القرآن معجزة؟

يجدر بنا أن ننقل جملاً من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن.

١ ـ أبو العلاء المعري (المتهم بمعارضة القرآن) يقول:

«وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمّد كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوه بالإرجاز، ما حذى علىٰ مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ... ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، وأن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق، والظهرة البادية في جدوب»[1].

٢ ـ الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته وحسن تدبيره، ولذلك سمي «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع

---

١ ـ رسالة الغفران، ص ٢٦٣.

إلى قوم من بني مخزوم فقال لهم:

«والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلىٰ عليه»[١].

٣ ـ العالم المؤرخ البريطاني «كارليل» يقول حول القرآن:

«لو ألقينا نظرة علىٰ هذا الكتاب المقدس لرأينا الحقائق الكبيرة، وخصائص أسرار الوجود، مطروحة بشكل ناضج في مضامينه، ممّا يبين بوضوح عظمة القرآن. وهذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، ولا توجد في أي كتاب علميّ وسياسي وإقتصادي آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيراً عميقاً في ذهن الإنسان، ولكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا ينبغي أن نقول: المزايا الأساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق وعواطف طاهرة، ومسائل كبيرة، ومضامين هامة لا يعتريها شك وترديد. وينطوي هذا الكتاب علىٰ كل الفضائل اللازمة لتحقيق تكامل البشرية وسعادتها»[٢].

٤ ـ جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار إلى محمّد والقرآن». يقول:

«القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج إلى أدنى إصلاح أو تصحيح، وقد يقرؤه شخص من أوّله إلىٰ آخره دون أن يحسّ بأي ملل»[٣].

ويقول: «لا خلاف في أن القرآن نزل بأبلغ لسان وأفصحه، وبلهجة قريش أكثر العرب أصالة وأدباً ... ومليء بأبلغ التشبيهات وأروعها»[٤].

٥ ـ غورة الشاعر الألماني يقول:

---

١ ـ مجمع البيان، ج ١٠، سورة المدثر.

٢ ـ من مقدمة كتاب «التنظيمات الحضارية في الإمبراطورية الإسلامية».

٣ ـ المصدر نفسه، ص ١١١.

٤ ـ المصدر نفسه، ص ٩١.

«قد يحسّ قرّاء القرآن للوهلة الأُولىٰ بثقل في العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغّل فيه ينجذب ـ دون إختيار ـ إلى جماله الساحر»(١).

وفي موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النّبي محمّد، ولكن كلما خطونا علىٰ طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشرية»!

ويقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، ولكن هذا الكتاب ألفت أنظارنا، وحيّرنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادىء وقوانين علمية كبرى»!

٦ ـ «ويل ديورانت» المؤرخ المعروف يقول: «القرآن أوجد في المسلمين عزّة نفس وعدالة وتقوى لا نرى لها نظيراً في أية بقعة من بقاع العالم».

٧ ـ المفكر الفرنسي «جول لابوم» في كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر في العالم علىٰ يد المسلمين، والمسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) وهو بحر العلم، وفرّعوا منه أنهاراً جرت مياهها في العالم ...».

٨ ـ المستشرق البريطاني دينورت يقول:

«يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعية والفلكية والفلسفة والرياضيّات التي شاعت في أوربا، هي بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، ونحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن أوربا من هذه الناحية من بلاد الإسلام»(٢).

٩ ـ الدكتورة لورا واكسيا واغليري أستاذة جامعة نابولي في كتاب «تقدم الإسلام السريع» تقول:

---

١ ـ عن كتاب «الإعتذار إلى محمّد والقرآن».

٢ ـ المعجزة الخالدة.

«كتاب الإسلام السماوي نموذج الإعجاز ...(القرآن) كتاب لا يمكن تقليده، وأسلوبه لا نظير له في الآداب، والتأثير الذي يتركه هذا الإسلوب في روح الإنسان ناشيء عن إمتيازاته وسموّه ... كيف يمكن لهذا الكتاب الإعجازي أن يكون من صنع محمّد، وهو رجل أميّ؟! ... .

نحن نرى في هذا الكتاب كنوزاً من العلوم تفوق كفاءة أكثر النّاس ذكاء وأكبر الفلاسفة وأقوى رجال السياسة والقانون.

من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلّم عالم»[١] [٢].

أحد الأدلة التي تثبت أنّ القرآن حقّ، وأنّه منزل من الله الحكيم العليم خلوه المطلق من كل تناقض أو إختلاف.

ولتوضيح هذه الحقيقة نقول:

الجوانب الروحية للإنسان تتغير باستمرار، «قانون التكامل» ـ في الظروف العادية الخالية من الأوضاع الإستثنائية ـ يستوعب الإنسان وجوانبه الروحية وأفكاره، وبمرور الأيّام يتغير بموجب هذا القانون كلام الإنسان وفكره وأحاديثه.

لو أمعنا النظر فيما يكتبه الكتاب، لما وجدنا مؤلفات الكاتب الواحد على نمط واحد، بل أن بداية كل كتاب تختلف أيضاً عن نهايته.

هذا التغيير يزداد سرعة حين يعيش الإنسان في خضم أحداث كبرى كالتي تصاحب إرساء قواعد ثورة فكرية وإجتماعية وعقائدية شاملة، الشخص الذي يعيش مثل هذه التحولات الإجتماعية الكبرى لا يستطيع أن يسيطر على وحدة كلامه، ولا يمكنه أن يوجد إنسجاماً كاملاً في أقواله، خاصّة إذا كان هذا الشخص غير متعلم، وكان ناشئاً في بيئة إجتماعية متخلفة.

---

١ ـ تقدم الإسلام السريع «نقلاً عن محمّد والقرآن ...».

٢ ـ تفسير الأمثل: ١/١٢٦ .

والقرآن كتاب نزل خلال مدّة (٢٣) عاماً بحسب ما يحتاجه الناس من تربية وتوجيه في الظروف المختلفة، وموضوعات القرآن متنوعة، فهو لا يشبه كتاباً عادياً متخصصاً في بحث إجتماعي أو سياسي أو فلسفي أو حقوقي أو تاريخي، بل هو يتحدث تارة عن التوحيد وأسرار الخليقة، وتارةً يطرح القوانين والأحكام والآداب والسنن، وتارةً يقص علينا أخبار الأُمم السابقة، وتارة يتناول المواعظ والنصائح والعبادات وإرتباط العبد بخالقه.

وكما يقول (غوستاف لوبون): القرآن ـ كتاب المسلمين السماوي ـ لا يقتصر على التعاليم الدينية، بل يتناول ـ أيضاً ـ الأحكام السياسية والإجتماعية للمسلمين.

مثل هذا الكتاب ـ بهذه الخصائص ـ لا يمكن أن يكون ـ عادة ـ خالياً من التناقض والتضاد والإختلاف والتأرجح، أمّا حين نرى هذا الكتاب ـ مع كل ذلك ـ متناسقاً متوازناً في آياته خالياً من كل تضاد وإختلاف نستطيع أن نفهم ـ بوضوح ـ أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر بشري، بل هو من قبل الله تعالى، كما تذكر الآية الكريمة أعلاه[١].

إنّ الآيات ١٤ ـ ١٢ من سورة هود تؤكّد إعجاز القرآن مرّة أُخرىٰ وتقول: ليس هذا كلاماً عادياً يترشح من الفكر البشري، بل هو وحي السماء الذي ينزل بعلم الله اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنّه يتحدّى جميع البشر أن يواجهوه بمثله ـ مع ملاحظة أنّ المخالفين من معاصري النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعدهم إلى يومنا هذا عجزوا عن ذلك، وفضلوا مواجهة الكثير من المشاكل على معارضة القرآن، وهكذا يتّضح أن مثل هذا العمل لم يكن من صنع البشر ولايكون، فهل المعجزة شيء غير هذا؟!

هذا نداء القرآن ما زال في أسماعنا، وهذه المعجزة الخالدة تدعو العالمين إليها وتتحدى جميع المحافل البشرية، لا من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال العبارات

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/٣٤٧ ـ ٣٤٨.

وجاذبيتها ووضوح المفاهيم فحسب. بل من حيث المحتوى والعلوم التي فيه والتي لم تكن موجودة في ذلك الزمان، والقوانين التي تتكفل بسعادة البشرية ونـجاتها، والبيان الخالي من التناقض، والقصص التاريخية الخالية من الخرافات، وأمثالها.[١]

وذكر سيد قطب في تفسيره: أنّ جمعاً من الماديين فـي روسـيا عـندما أرادوا الإنتقاص من القرآن في مؤتمر المستشرقين المنعقد في سنة (١٩٥٤ م) قالوا: إنّ هذا الكتاب لا يمكن أنْ ينتج من ذهن إنسان واحد «محمّد» بل يجب أنْ يكـون حاصل سعي جمع كثير من الناس بما لا يصدق كونهم جميعاً من جزيرة العرب، وإنّما يقطع باشتراك جمع منهم من خارج الجزيرة[٢].

ولقد كانوا يبحثون ـ وفقاً لمنطقهم الإلحادي ـ عن تفسير مادي لهذا الأمر من جهة، وما كانوا يعقلون أن القرآن نتاج إشراقة عقلية لإنسان يعيش في شبه الجزيرة العربية من جهة أُخرىٰ، ممّا اضطرَّهم لأنْ يطرحوا تفسيراً مضحكاً وهو: إشـتراك جمع كثير من الناس ـ في تأليف القرآن ـ من داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها!! علىٰ أنَّ التاريخ ينفي ما ذهبوا إليه جملة وتفصيلاً[٣].

١ ـ تفسير الأمثل: ٦/٤٨٥ ـ ٤٨٦.

٢ ـ في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨٢.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٨/٣٣١.

٦٧

هل اعجاز القرآن ينحصر في جوانب الفصاحة والبلاغة؟

☑ لاشك أنّ إعجاز القرآن لاينحصر في جوانب الفصاحة والبلاغة وحلاوة البيان وكمال التعبيرات كما ظن ذلك جماعة من قدماء المفسّرين، بـل إن جـانب الإعجاز يتمثل أيضاً إضافةً لما مر في بيان المعارف الدينية، والعلوم التي لم تكن معروفة حتى ذلك اليوم، وبيان الأحكام والقوانين، وذكر تأريخ السابقين من دون أي خطأ أو تلبس بخرافة، وعدم وجود الإختلاف والتضادّ فيه[١].[٢]

بل إنّ موسيقى ولحن لغات وكلمات القرآن الخاصّة ـ أيضاً ـ معجزة نادرة في نوعها كما ذكر ذلك بعض المفسّرين.

وقد ذكروا شواهد مختلفة جميلة على هذا الموضوع، ومن جملتها الحادثة أدناه التي وقعت لسيد قطب المفسّر المعروف:

يقول: «ولن أذكر نماذج ممّا وقع لغيري ولكنّي أذكر حادثاً وقع لي وكان معي

---

١ ـ لمزيد الإطلاع راجع المجلد الأوّل من تفسير الأمثل: الآية (٢٣) و (٢٤) من سورة البقرة.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣٥٧/٨.

شهود ستة، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً..

كنّا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم .. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! واللّه يعلم ـ أنّه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر ممّا كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، حاول أن يزاول تبشيره معنا!...

وقد يسر لنا قائد السفينة ـ وكان إنجليزياً ـ أن نقيم صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة طهاتها وخدمها ـ وكلّهم نوبيون مسلمون ـ أن يصلي منهم معنا من لا يكون في «الخدمة» وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرّة الأُولىٰ التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة ..

وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب ـ معظمهم ـ متحلقون يرقبون صلاتنا! ..

وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح «القدّاس»!!! فقد كان هذا أقصىٰ ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد ـ عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم «تيتو» وشيوعيته! ـ كانت شديدة التأثر والإنفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها، جاءت تشدّ على أيدينا بحرارة؛ وتقول: ـ في إنجليزية ضعيفة ـ إنّها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! .. وليس هذا موضع الشاهد في القصّة.. ولكن ذلك مان في قولها: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها «قسيسكم»! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم «الصلاة» إلّا قسيس ـ أو رجل الدين ـ كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! وقد صححنا لها هذا الفهم!. وأجبناها ..

فقالت: إنّ اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإنّ كنت لم أفهم منها حرفاً.. ثمّ كانت المفاجأة الحقيقة لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع

الذي أُريد أت أسأل عنه .. إنّ الموضوع الذي لفت حسي، هو أن «الإمام» كانت ترد في أثناء كلامه ـ بهذا اللغة الموسيقية ـ فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية كما لو كان ـ الإمام ـ مملوءاً من الروح القدس! ـ حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها!

تفكرنا قليلاً، ثمّ أدركنا أنّها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة ! وكانت ـ مع ذلك ـ مفاجأة تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم ممّا نقول شيئاً![(١)] [(٢)].

---

١ ـ تفسير في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٤٢٢.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٨/٣٦٠ ـ ٣٦٢.

٦٨

هل جيء بمثل القرآن؟

نقرأ في سورة البقرة الآية ٢٣ ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ هنا يطرح سؤال: وهو انّه هل جيء بمثل القرآن؟

☑ الجواب علىٰ هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة علىٰ الظروف والملابسات التي عاصرت نزول القرآن، وعلىٰ تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة مايشبه القرآن.

غير خفيّ أن الرسالة في عصر النّزول وما بعده، واجهت خصوماً ألدّاء من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين. وهؤلاء توسّلوا بكل ما لديهم من قوة وحيلة للوقوف بوجه الدعوة. (حتى إن بعض المنافقين مثل (ابوعامر) الراهب ومن وافقه من المنافقين اتّصلوا بأمبراطور الرّوم للتآمر علىٰ الإسلام، وبلغ الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيّدوا «مسجد ضرار» في المدينة، وحدثت علىٰ أثر ذلك وقائع عجيبة أشار اليها القرآن في سورة التوبة).

من الطبيعي أن هؤلاء الأعداء الألدّاء من المنافقين وغيرهم كانوا يتربصون

بالمسلمين الدوائر، ويتحينون كل فرصة للإضرار بالمسلمين. ولو كان هؤلاء قد حصلوا علىٰ كتاب يجيب علىٰ تحدي القرآن، لتهافتوا عليه ونشروه وطبّلوا له وزمّروا، أو لسعوا في حفظه علىٰ الأقل.

ولذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالاً ضعيفاً أنهم عارضوا القرآن، مثل:

«عبد الله بن المقفع»، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرّة اليتيمة» بينما لا نعثر في هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم علىٰ إشارة إلى هذه المعارضة، ولا نعرف لماذا وجهت التهمة إلى ابن المقفع بهذا الكتاب؟

والمتنبي، أحمد بن الحسين الكوفي الشاعر، ذكر في زمرة المعارضين وأصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتنبي وأدبه، أنه كان ينطلق في شعره غالباً من روح الخيبة في بلوغ المناصب الرفيعة، ومن الحرمان العائلي.

وأبو العلاء المعرّي، اتهم بهذا أيضاً، ونقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمة كتاب الله العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، وأتىٰ بآيات!! أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، ومن ذلك.

١ ـ ما قاله معارضاً سورة «الذاريات»: «والمبذرات بذراً. والحاصدات حصداً. والذاريات قمحاً. والطاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. والخابزات خبزاً. والثاردات ثرداً. واللاقمات لقماً. اهالة وسمناً»[1].

٢ ـ من النماذج الأُخرىٰ لآياته: «يا ضفدع نقّي فإنّك نعم ما تنقين، لا وارداً تنفرين، ولا ماء تكدرين»[2].[3]

---

١ ـ إعجاز القرآن، الرافعي.

٢ ـ نقلاً عن كتاب «إعجاز القرآن» للخطيب، ج ١، ص ٤٨٣.

٦٩

ماهو المقصود من الحروف المقطعة في القرآن؟

☑ تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة، وهذه الحروف ـ كما هو واضح من اسمها ـ لا تشكل كلمة مفهومة.

هذه الحروف من أسرار القرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة، وأضاف لها العلماء المعاصرون تفاسير جديدة من خلال تحقيقاتهم.

جدير بالذّكر أن التاريخ لم يحدثنا أنّ عرب الجاهلية والمشركين عابوا علىٰ رسول الله ﷺ وجود هذه الحروف المقطعة في القرآن. ولم يتخذوا منها وسيلة للطعن والإستهزاء. وهذا يشير إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين تماماً بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا من التفاسير الكثيرة لهذه الحروف، عدداً من التفاسير باعتبار مسنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات في هذا المجال. وسنذكر هذه التفاسير بالتدريج في بداية هذه السّورة، وسورة آل عمران، وسورة الأعراف، إن شاء الله. ونبدأ الآن

---

٣ ـ تفسير الأمثل: ١/١٢٤ ـ ١٢٦.

بأهمها:

١ ـ هذه الحروف إشارة إلى أن هذا الكتاب السماوي، بعظمته وأهميّته التي حيرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدت الجن والإنس في عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة في متناول الجميع.

ومع أنّ القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فإن ما فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب والروح، ويملأ النفس بالرضا والإعجاب، ويفرض احترامه علىٰ الأفكار والعقول.

في القرآن من الفصاحة والبلاغة ما لا يخفى على أحد، وليس هذا مجرّد ادّعاء، فخالق الكون تحدّى بهذا الكتاب جميع (الجن والإنس)، ليأتوا بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١]، ولكنهم عجزوا جميعاً عن ذلك، وتلك دلالة علىٰ أن هذا الكتاب لم يصدر عن فكر بشر.

وكما إن الله تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقدة محيّرة، وكأنواع الطيور الجميلة الرائقة، والأحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما إننا ننتج من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتداولة، موضوعات ومعان سامية، في قوالب لفظية جميلة، وعبارات موزونة، وأسلوب خاص مدهش معجز، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.[٢]

وهناك ملاحظة تؤيد ما ذهبنا إليه في تفسير معنى الحروف المقطعة، وهي أن هذه الحروف في السور الأربع والعشرين التي ذكرناها، يتلوها مباشرة ذكر لعظمة

---

١ ـ الإسراء، ٨٨.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١/٦٩ ـ ٧٠.

القرآن، وهذا يدل علىٰ الإرتباط بين الحروف المقطعة وعظمة القرآن. وعلىٰ سبيل المثال نذكر الآيات التالية:

١ ـ ﴿الر، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١].

٢ ـ ﴿طَس، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢].

٣ ـ ﴿الَم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[٣].

٤ ـ ﴿آلمص، كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[٤].[٥]

٢ ـ أنّه يمكن أن يكون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب إنتباه المستمعين، ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأنَّ وجود هذه الحروف في مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل في نظر العرب، ومن شأنـها أن تـثير فـي العـربي حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

ومن الإتفاق أنّ غالب السور المبدوءة بالحروف المقطّعة هي السور التي نزلت في مكّة، ونحن نعلم أن المسلمين في مكّة كانوا أقليّة، وكان أعداؤهم وخصومهم خصوماً ألدّاء اشتد عنادهم إلى درجة أنّهم ما كانوا على استعداد حـتى لاسـتماع كلام رسول الله ﷺ، بـل ربّـما أثـاروا ضـجيجاً، ورَفَـعوا الأصـوات فـي وجـه رسول الله ﷺ عند قراءته للآيات القرآنية ليضيع في زحمتها وخضمّها نداؤه ﷺ، وهو ما أشارت إليه بعض الآيات (مثل الآية ٢٦ سورة فصلت ـ السجدة).

٣ ـ كما أننا نقرأ في بعض الرّوايات والأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الحروف رموز وإشارت إلى أسماء الله، فـ: «آلـمص» في السورة المبحوثة مثلاً

---

١ ـ هود، ١ ـ ٢.

٢ ـ النمل، ١ ـ ٢.

٣ ـ لقمان، ١ ـ ٢.

٤ ـ الأعراف، ١ ـ ٢.

٥ ـ تفسير الأمثل: ١/٧٢.

إشارة إلى جملة: أنا الله المقتدر الصادق.

وبهذا الطريق يكون كل واحد من الحروف الأربعة صورة مختصرة عن أحد أسماء الله تعالى.

ثمّ إنّ موضوع إحلال الصياغات المختصرة محلّ الصياغات المفصَّلة للكلمات كان أمراً رائجاً من قديم الزمان، وإن حصل مثل هذا في عصرنا أيضاً بشكل أوسع، حيث اختصِرت الكثير من العبارات الطويلة، وكذا أسامي المؤسسات أو الهيئات في كلمةٍ قصيرةٍ أو أحرفٍ معدودةٍ.

على أن ثمّة نقطةً تستحقُ التنويه بها هنا، وهي أنّ التفاسير والتحاليل المختلفة عن «الحروف المقطعّة» لا تتنافى ولا تتناقض فيما بينها، ويمكن أن تكون جميع التفاسير بطوناً مختلفة من بطون القرآن.[1]

٤ ـ أن من الممكن أن يكون لكل هذه الحروف المقطعة ـ أو على الأقل لقسم منها ـ معان ومفاهيم خاصّة، تماماً كالكلمة الواحدة التي تتضمّن محتوى معيناً.

إنّنا نلاقي في كثير من الرّوايات وكلمات المفسّرين في بداية هذه السورة وسورة «يس» هذا البحث، وهو أن «طه» تعني: يا رجل، ونرى كلمة «طه» في بعض شعر العرب أيضاً، ولها معنى شبيه بـ (يا رجل) أو قريب منه، ويمكن أن تعود هذه الأشعار إلىٰ بداية ظهور الإسلام، أو إلىٰ ما قبل الإسلام[2].

وقد نقل لنا أحد المطلعين أن بعض علماء الغرب الملمين بالدراسات الإسلامية، يعممون هذه النظرية على كل الحروف المقطعة في القرآن، ويعتقدون أن الحروف المقطعة في بداية كل سورة هي كلمة لها معنى خاص، أصبح بعضها متروكاً مع مرور الزمن، ووصل إلينا البعض، وإلّا فإنّ من المستبعد أن مشركي العرب يسمعون

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٤/٥٥٦ ـ ٥٥٧.

٢ ـ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

الحروف المقطعة ولا يفهمون منها شيئاً، ولا يدركون لها معنى، ثمّ لا نراهم يسخرون ولا يستهزؤون منها، في حين أنّه لا يُرى ولا يلاحظ في أي من التواريخ أنّ هؤلاء الحمقى المتتبعين للعيوب والهفوات قد اتخذوا الحروف المقطعة وسيلة للقيام بردود فعل ضدها وضد الإسلام.

وطبعاً من الصعب قبول هذا الرأي بصورة عامّة، وبالنسبة إلىٰ كل حروف القرآن المقطعة، إلّا أنّه يمكن قبوله في البعض منها، وقد بُحث هذا الموضوع أيضاً في الكتب الإسلامية.

وممّا يلفت النظر، وهو أنّنا نقرأ في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام: «إنّ طه من أسماء النّبيصلى الله عليه وآله، ومعناه: يا طالب الحق الهادي إليه» ويظهر من هذا الحديث أنّ طه مركب من حرفين رمزيين، فالطاء إشارة إلىٰ طالب الحق، والهاء إلىٰ الهادي إليه، ونحن نعلم أن استعمال الحروف الرمزية وعلامات الإختصار فيما مضى وفي يومنا هذا أمر طبيعي وكثير الإستعمال، خاصّة في عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول والإستعمال جدّاً.

وآخر كلام في هذا الباب هو أنّ (طه) كـ (يس) قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبيصلى الله عليه وآله، حتى أنّهم يسمون آل النّبيصلى الله عليه وآله آل طه أيضاً، وعُبِّر عن الإمام المهدي عجل الله فرجه في دعاء الندبة بـ (يا بن طه).[١]

٥ ـ وقد ذكر العلّامة الطباطبائي إحتمالاً آخر يمكن أن نضيفه إلى ما استخلصه العلّامة الطبرسي من الأقوال الأحد عشر ليكون المجموع اثنا عشر تفسيراً.

وما ذكره العلامة الطباطبائي وإن كان مثله مثل غيره من الأقوال ممّا لم يقم الدليل القاطع عليه، إلّا أنّه من المفيد أن نستعرضه بإيجاز.

يقول العلّامة الطباطبائي: «إنك إن تدبرت بعض التدبُّر في هذه السور التي

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٥٢٤/٩ ـ ٥٢٥.

تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراءات والطـواسـين والحـوامـيم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين، وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور».

«ويؤكّد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ، كما في مفتتح الحواميم من قوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ أو ما هو في معناه، وما في مفتتح الراءات من قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أو ما في معناه، ونظير ذلك في مفتتح الطواسين، ومـا فـي مفتتح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه».

«ويمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً، ويؤيد ذلك ما نجده في سورة الأعـراف المـصدّرة بـ «المص» في مضمونها كأنّها جامعة بين مضامين الميمات و ص [أي مـا افـتتح بـ «ألم» و«ص»] وكذا سورة الرعد المصدّرة بـ «المر» في مضمونها كأنّها جامعة بين مضامين الميمات والراءات».

«ولعلّ المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف، وقايس مضامين السور التي وقعت فيها بعضها إلى بعض، لتبيّن له الأمر أزيد من ذلك»[1] [2].

---

١ ـ الميزان، للعلّامة محمد حسين الطباطبائي، المجد١٨، صفحة ٨ ـ ٩.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٤٥٩.

٧٠

هل القرآن يصدّق التوراة والانجيل؟

نقرأ في آيات عديدة ما يفيدنا أن القرآن يصدّق الكتب الماضية ففي سورة المائدة الآية ٤٨ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ بعض دعاة اليهودية والنصرانية. استدلوا بهذه الآيات لإثبات عدم تحريف التوراة والإنجيل. وقالوا: إن التوراة والإنجيل في عصر نبي الإسلام لا يختلفان حتماً عمّا عليه الآن. وإن أصابهما تحريف فهذا التحريف يعود إلى فترة سابقة علىٰ ذلك العصر. ولما كان القرآن قد أيّد صحة التوراة والإنجيل الموجودين في عصر نبي الإسلام، فعلىٰ المسلمين أن يعترفوا بصحة هذين الكتابين الموجودين بين ظهرانينا اليوم.

☑ يؤكد القرآن في مواضع عديدة وجود علائم نبي الإسلام ودينه في تلك الكتب المحرفة التي كانت موجودة في أيدي اليهود والنصارى آنذاك. وهذا يعني وجود حقائق في تلك الكتب لم تمتد إليها يد التحريف. ذلك لأنّ التحريف لا يعني تغيير كل نصوص تلك الكتب السماويّة، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها

حقائق، ومن تلك الحقائق علامات النّبي الخاتم (ولا زالت بعض هذه البشائر مشهودة في الكتب الموجودة الآن).

بعثة النّبي الخاتمﷺ وكتابه السماوي تصديق لما جاء في تلك الكتب من علامات، أي تحقيق عملي لِتلك العلامات. وكلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملي) وردت في مواضع أُخرىٰ من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيّه إبراهيمؑ: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[١].

أي أنك قد حققت عملياً رؤياك.

وتصرح الآية ١٥٧ من سورة الأعراف بأن الرّسول الأعظمﷺ تحقيق عملي لما يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأَنْجِيلِ ...﴾[٢].

علىٰ أي حال، ليس في الآيات المذكورة دلالة علىٰ تصديق جميع محتويات التوراة والإنجيل، بل دلالتها تقتصر علىٰ «التصديق العملي» لما جاء في الكتب الموجودة بيد اليهود والنصارى بشأن النّبي الخاتم وكتابه. هذا، إلى جانب وجود آيات عديدة في القرآن تتحدث عن تحريف اليهود والنصارى لآيات التوراة والإنجيل، وهو شاهد حيّ صريح علىٰ مسألة التحريف.[٣]

---

١ ـ الصافات، ١٠٥.

٢ ـ الأعراف، ١٥٧.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١/١٨٨ .

٧١

هل القرآن جمع في زمن النّبي ﷺ؟

☑ «فَاتِحَةُ الْكِتَاب» اسم اتخذته هذه السّورة في عصر رسول الله ﷺ، كما يبدو من الأخبار والأحاديث المنقولة عن النّبي الأعظم ﷺ.

وهذه المسألة تفتح نافذة علىٰ مسألة مهمّة من المسائل الإسلامية، وتلقي الضوء علىٰ قضية جمع القرآن، وتوضّح أنّ القرآن جُمع بالشكل الذي عليه الآن في زمن الرّسول ﷺ، خلافاً لما قيل بشأن جمع القرآن في عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست أول سورة في ترتيب النّزول حتىٰ تسمّىٰ بهذا الاسم ولا يوجد دليل آخرلذلك، وتسميتها بفاتحة الكتاب يرشدنا إلى أنّ القرآن قد جمع في زمن الرّسول ﷺ بهذا الترتيب الذي هو عليه الآن.

وثمّة أدلّة أُخرىٰ تؤيّد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذي بأيدينا اليوم في عصر الرّسول ﷺ وبأمره.

روى عليّ بن إبراهيم، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِعَلّي عليه السلام:

«يَا عَلِيُّ، إنَّ الْقُرْآنَ خَلْف فِرَاشِي فِي الصُّحُفِ وَالْحَرِيرِ وَالْقَرَاطِيس، فَخُذُوهُ وَأجْمِعُوهُ وَلاَ تُضَيِّعُوهُ كَمَا ضَيَّعَتِ الْيَهُودُ التَّوْرَاةَ، وانطَلَقَ عَلِيٌّ عليه السلام فَجَمَعَهُ فِي ثَوْبٍ

أَصْفَرَ، ثُمَّ خَتَمَ عَلَيْهِ»[١].

ويروي (الخوارزمي) في المناقب عن (علي بن رباح) أنّ علي بن أبي طالب وأُبيّ بن كعب جمعا القرآن في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى (الحاكم) في (المستدرك) عن (زيد بن ثابت) قال: «كُنّا نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ».

ويقول العالم الجليل السيد المرتضى رحمه الله: «إِنَّ الْقُرْآنَ كَانَ عَلىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مَجْمُوعاً مُؤَلَّفاً عَلىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ الآن»[٢].

ويروي الطبراني وابن عساكر عن الشعبي أنّ القرآن جمعه ستة من الأنصار في عصر النّبي صلى الله عليه وآله[٣].

ويروي قتادة أنّه سأل أنس عن جمع القرآن في عصر النّبي صلى الله عليه وآله فَقَالَ: أَرْبَعَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ هُمْ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمَعَاذٌ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ[٤] و هناك روايات أُخرىٰ يطول ذكرها.

علىٰ أيّ حال، اتّخاذ سورة الحمد اسم (فاتحة الكتاب) دليل واضح علىٰ إثبات هذه المسألة، إضافة إلى الأدلة الأُخرىٰ المستفيضة في مصادر الشيعة والسنّة.

سؤال:

وهنا يثارُ سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النّبي صلى الله عليه وآله.

وفي الجواب نقول: ما روي بشأن جمع القرآن علىٰ يد الامام عليّ عليه السلام بعد عصر

---

١ ـ تاريخ القرآن، أبو عبد الله الزنجاني، ص ٤٤.

٢ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٥.

٣ ـ منتخب كنز العمال، ج ٢، ص ٥٢.

٤ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٠٢.

الرّسول، لم يكن القرآن وحده، بل مجموعة تتضمّن القرآن وتفسيره وأسباب نزول الآيات، وما شابه ذلك ممّا يحتاجه الفرد لفهم كلام الله العزيز.

وأمّا ما فعله عثمان في هذا الصدد، فتدلّ القرائن أنّه أقدم علىٰ كتابة قرآن واحد عليه علامات التلاوة والإعجام، منعاً للإختلاف في القراءات، إذ لم يكن التنقيط معمولاً به حتى ذلك الوقت.

وما نراه من إصرار لدى جماعة علىٰ عدم جمع القرآن في عصر رسول الله ﷺ، وعلىٰ نسبة هذا الأمر للخليفة عثمان أو للخليفة الأول أو الثاني، فإنّما يعود إلى ظروف وملابسات وعصبيات تأريخية لسنا بصددها الآن.

وإذا رجعنا إلى استقصاء طبيعة الأشياء في مجال جمع القرآن، ألفينا أنّه من غير المعقول أن يترك النّبي ﷺ هذه المهمّة الكبيرة، بينما نجده يهتمّ بدقائق الأُمور المرتبطة بالرسالة.

أليس القرآن دستور الإسلام، وكتاب هداية البشرية، وأساس عقائد الإسلام وأحكامه؟

أليس من الممكن أن يتعرّض القرآن ـ إن لم يجمع ـ في عصر الرّسول الله ﷺ إلى الضياع، وإلى الإختلاف فيه بين المسلمين؟!

اضف إلى ذلك أنّ (حديث الثقلين) المروي في المصادر الشيعية والسنّية، حيث أوصى رسول الله ﷺ بوديعته: كتاب الله وعترته، يؤكّد أيضاً أن القرآن كان قد جمع في مجموعة واحدة في عصر الرّسول الأعظم.

أمّا اختلاف الرّوايات في عدد الصحابة الذين جمعوا القرآن خلال عصر النّبي فلا يشكّل عقبة في البحث، ومن الممكن أنّ تتّجه كلّ رواية إلى ذكر عدد منهم.[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢٣/١ ـ ٢٥.

٧٢

ما المقصود بالآيات المحكمة والمتشابهة ؟

نقرأ في سورة آل‌عمران الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: ما المقصود من الآيات المحكمة والمتشابهة؟

☑ «المحكم» من «الإحكام» وهو المنع. ولهذا يقال للمواضيع الثابتة القويّة «محكمة» أي أنّها تمنع عن نفسها عوامل الزوال. كما أنّ كلّ قول واضح وصريح لا يعتوره أيّ احتمال للخلاف يقال له «قول محكم».

وعليه فإنّ الآيات المحكمات هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة التي لا مجال للجدل والخلاف بشأنها، كآية: ﴿قل هو الله أحد﴾[١] و ﴿ليس كمثله شيء﴾[٢] و

---

١ ـ سورة الأخلاص: ١.

٢ ـ الشورى: ١١.

﴿الله خالق كلّ شيء﴾[١] و **﴿للذكر مثل حظّ الأُنثيين﴾**[٢] وآلاف أُخرىٰ مثلها ممّا تتعلّق بالعقائد والأحكام والمواعظ والتواريخ، فهي كلّها من «المحكمات».

هذه الآيات المحكمات تسمّىٰ في القرآن «أُمّ الكتاب» أي هي الأصل والمرجع والمفسّرة والموضّحة للآيات الأُخرىٰ.

و «المتشابه» هو ما تتشابه أجزاؤه المختلفة. ولذلك فالجمل والكلمات التي تكون معانيها معقّدة وتنطوي على احتمالات مختلفة، توصف بأنّها «متشابهة». وهذا هو المقصود من وصف بعض آيات القرآن بأنها «متشابهات»، أي الآيات التي تبدو معانيها لأوّل وهلة معقّدة وذات احتمالات متعدّدة، ولكنّها تتّضح معانيها بعرضها على الآيات المحكمات.

وعلى الرغم من أنّ المفسّرين أوردوا احتمالات متعدّدة في تفسير «المحكم» و «المتشابه»[٣]، ولكن الذي قلناه يناسب المعنى الأصلي لهذين المصطلحين كما يتّفق مع سبب نزول الآية، وكذلك مع الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية، ومع الآية نفسها، لأنّنا نقرأ بعد ذلك أن المغرضين يتّخذون من الآيات المتشابهات وسيلة لإثارة الفتنة. وهم بالطبع يبحثون لهذا الغرض عن الآيات التي لها تفسيرات متعدّدة. وهذا نفسه يدلّ على أن معنى «المتشابه» هو ما قلناه.

ويمكن إدراج بعض الآيات التي تخصّ صفات الله والمعاد كنماذج من الآيات المتشابهات، مثل **﴿يد الله فوق أيديهم﴾**[٤] بشأن قدرة الله، **﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾**[٥]

---

١ ـ الزمر: ٢٦.

٢ ـ النساء: ١١.

٣ ـ ذكر «الطبرسي» في مجمع البيان خمسة تفاسير لذلك، وذكر «الفخر الرازي» أربعة أقوال و «العلّامة» في الميزان ستة عشر قولاً وفي «البحر المحيط» عشرين قولاً تقريباً عن تفسيرها.

٤ ـ الفتح: ١٠.

٥ ـ البقرة: ٢٢٤.

بشأن علم الله، و ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾[١] بشأن طريقة حساب الأعمال.

بديهيّ أنّ الله لا يد له «بمعنى العضو» ولا أذن «بالمعنى نفسه» ولا ميزان مثل موازيننا يزن بها الأعمال. هذه كنايات عن مفاهيم كلّية لقدرة الله وعلمه وميزانه.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ كلمتي «المحكم والمتشابه» قد وردتا في القرآن بمعنى آخر. ففي أوّل سورة هود نقرأ: ﴿كتابٌ أُحكمت آياته﴾ فهنا أُشير إلى أنّ جميع آيات القرآن محكمات، والقصد هو قوّة الترابط والتماسك بينها. وفي الآية ٢٣ من سورة الزمر نقرأ: ﴿كتاباً متشابهاً﴾ أي الكتاب الذي كلّ آياته متشابهات، وهي هنا بمعنى التماثل من حيث صحّتها وحقيقتها.

يتّضح ممّا قلنا بشأن المحكم والمتشابه أنّ الإنسان الواقعيّ الباحث عن الحقيقة لابدّ له لفهم كلام الله أن يضع الآيات جنباً إلى جنب ثمّ يستخرج منها الحقيقة. فإذا لاحظ في ظاهر بعض الآيات إبهاماً وتعقيداً، فعليه أن يرجع إلى آيات أُخر لرفع ذلك الإبهام والتعقيد ليصل إلى كنهها.

تعتبر الآيات المحكمات في الواقع أشبه بالشارع الرئيسي، والمتشابهات أشبه بالشوارع الفرعية، لاشكّ أنّ المرء إذا تاه في شارع فرعي سعىٰ للوصول إلى الشارع الرئيسي ليتبيّن طريقه الصحيح فيسلكه.

إنّ التعبير عن المحكمات بأُم الكتاب يؤيّد هذه الحقيقة أيضاً، إذ أنّ لفظة «أُم» في اللغة تعني الأصل والأساس، وإطلاق الكلمة على «الأُم» أي الوالدة لأنّها أصل الأُسرة والعائلة والملجأ الذي يفزع إليه أبناؤها لحلّ مشاكلهم. وعلى هذا فالمحكمات هي الأساس والجذر والأُم بالنسبة للآيات الأُخرى.[٢]

---

١ ـ الأنبياء: ٤٧.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٢/٣٩٦ ـ ٣٩٩.

٧٣

لماذا تشابهت بعض آيات القرآن ؟

إنّ القرآن جاء نوراً لهداية عموم الناس، فما سبب احتوائه على آيات متشابهات فيها إبهام وتعقيد بحيث يستغلّها المفسدون لاثارة الفتنة ؟ هذا موضوع مهمّ جدير بالبحث والتدقيق. وعلى العموم يمكن أن تكون النقاط التالية هي السرّ في وجود المتشابهات في القرآن :

أوّلاً: إنّ الألفاظ والكلمات التي يستعملها الإنسان للحوار هي لرفع حاجته اليومية في التفاهم. ولكن ما إن نخرج عن نطاق حياتنا الماديّة وحدودها، كأن نتحدّث عن الخالق الذي لا يحدّه أيّ لون من الحدود، نجد بوضوح أنّ ألفاظنا تلك لا تستوعب هذه المعاني، فنضطّر إلى استخدام ألفاظ أُخرى وإن تكن قاصرة لا تفي بالغرض تماماً من مختلف الجهات. وهذا القصور في الألفاظ هو منشأ الكثير من متشابهات القرآن. إنّ آيات مثل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[١] أو ﴿الرحمن على العرش استوىٰ﴾[٢] أو﴿إلى ربها ناظرة﴾[٣] التي سوف يأتي تفسيرها في موضعه، تعتبر

١ ـ الفتح : ١٠.
٢ ـ طه : ٥.
٣ ـ القيامة : ٣.

من هذه النماذج. وهناك أيضاً تعبيرات مثل «سميع» و «بصير»، ولكن بالرجوع إلى الآيات المحكمات يمكن تفسيرها بوضوح.

ثانياً: كثير من الحقائق تختصّ بالعالم الآخر، أو بعالم ما وراء الطبيعة ممّا هـو بعيد عن أُفق تفكيرنا، وإنّنا ـ بحكم وجودنا ضمن حدود سجن الزمان والمكان، غير قادرين على إدراك كنهها العميق. قصور أُفق تفكيرنا من جهة، وسمّو تلك المعاني من جهة أُخرى، سبب آخر من أسباب التشابه في بعض الآيات، كالتي تتعلّق بيوم القيامة مثلاً.

وهذ أشبه بالذي يريد أن يشرح لجنين في بطن أُمّه مسائل هذا العالم الذي لم يره بعد، فهو إذا لم يقل شيئاً يكون مقصّراً، وإذا قال كان لابدّ له أن يتحدّث بأُسلوب يتناسب مع إدراكه.

ثالثاً: من أسرار وجود المتشابهات في القرآن إثارة الحركة في الأفكار والعقول وإيجاد نهضة فكرية بين الناس. وهذا أشبه بالمسائل الفكرية المعقّدة التي يعالجها العلماء لتقوية أفكارهم ولتعميق دقّتهم في المسائل.

رابعاً: النقطة الأُخرىٰ التي ترد بشأن وجود المتشابهات في القـرآن، وتـؤيّدها أخبار أهل البيت عليهم السلام، هي أنّ وجود هذه الآيات في القرآن يصعّد حاجة الناس إلى القادة الإلهيّين والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأوصياء، فتكون سبباً يدعو الناس إلى البحث عـن هؤلاء وإعتراف بقيادتهم عملياً والإستفادة من علومهم الأُخرىٰ أيضاً. وهذا أشـبه ببعض الكتب المدرسية التي أُنيط فيها شرح بعض المواضيع إلى المدرّس نـفسه، لكي لا تنقطع علاقة التلاميذ بأُستاذهم، ولكي يستمرّوا ـ بسبب حاجتهم هذه ـ في التزوّد منه على مختلف الأصعدة.

وهذا أيضاً مصداق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[(١)] [(٢)].

---

١ ـ مستدرك الحاكم: ج ٣ ص ١٤٨.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٢/٣٩٩ ـ ٤٠١.

٧٤

هل البسملة جزء من السّورة؟

☑ أجمع علماء الشيعة علىٰ أنّ البسملة جزء من سورة الحمد وكلّ سور القرآن، وكتابتها في مطالع السور أفضل شاهد علىٰ ذلك، لأنّنا نعلم أن النصّ القرآني مصون عن أيّة اضافة، وذكر البسملة معمول به منذ زمن النّبي ﷺ.

أمّا علماء السنّة فاختلفوا في ذلك، وصاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلي:
«أجمع المسلمون علىٰ أن البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل. واختلفوا في مكانها من سائر السور، فذهب إلى أنّها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة ـ فقهاؤهم وقراؤهم ـ ومنهم: ابن كثير. وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي من القراء، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة، والشافعي في الجديد وأتباعه، والثوري وأحمد في أحد قوليه، والإمامية، ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة عليّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة، ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك. وأقوى حججهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم علىٰ إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة البراءة

(التوبة) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه. ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة ...».

ثم ينقل عن مالك والحنفية وآخرين، أنّهم ذهبوا إلى أنّ البسملة آية مستقلّة نزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها.

وعن حمزة من قرّاء الكوفة وأحمد «الفقيه السنّي المعروف» أنّها من الفاتحة دون غيرها من سور القرآن[١].

ومن مجموع ما ذكر يستفاد أنّ الأكثرية الساحقة من أهل السنة يرون أنّ البسملة جزء من السّورة كذلك.

ننقل هنا طائفة من الروايات المنقولة في هذا الصدد بطرق الشيعة والسنة:

١ ـ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: إذا قُمْتُ لِلصَّلاَةِ أقْرَأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فِي فاتِحَةِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: فَإذا قَرَأْتُ فَاتِحَةَ الْقُرْآنِ أَقْرَأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مَعَ السُّورَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»[٢].

٢ ـ ما أخرجه الدارقطني بسند صحيح عن علي عليه السلام: «أَنَّـهُ سُئِلَ عَنِ السَّبْعِ الْمَثَانِي، فَقَالَ: اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّمَا هِيَ سِتُّ آيَاتٍ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ آية»[٣].

٣ ـ روى البيهقي بسنده عن ابن جبير، عن ابن عباس، قال: «إِسْتَرَقَ الشَّيطانُ مِنَ النَّاسِ أَعْظَمَ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم: (إشارة إلى شيوع عدم قراءتها في مطالع السور)[٤].

أضف إلى ذلك، أنّ سيرة المسلمين جرت دوماً علىٰ قراءة البسملة في مطالع

١ ـ تفسير المنار، ج ١، ص ٣٩ ـ ٤٠.

٢ ـ الكافي، ج ٣، ص ٣١٢.

٣ ـ الإتقان، مجلد ١، ص ١٣٦. نقلاً عن البيان، ص ٤٤١.

٤ ـ البيهقي، ج ٢، ص ٥٠.

السور لدى تلاوة القرآن، وثبت بالتواتر قراءة النّبي لها. وكيف يمكن أن تكون أجنبية عن القرآن والنّبي والمسلمون يواظبون علىٰ قراءتها لدى تلاوتهم القرآن؟!

وأمّا ما ذهب إليه بعضهم من احتمال أنّ البسملة آية مستقلّة وليست جزءً من سور القرآن، فهو احتمال واهٍ ضعيف، لأن مفهوم البسملة يشعر ببداية العمل، ولا يفصح عن معنى منفصل مستقل.

وفي اعتقادنا أنّ الإصرار علىٰ فصل البسملة عن السور تعصّب لا مبرر له، ولا ينهض عليه دليل، في حين أنّ مضمونها مسفر عن أنّها بداية لما بعدها من الأبحاث.

يبقى إيراد واحد، هو أنّ البسملة لا تحتسب في عدّ آيات سور القرآن (عدا بسملة سورة الحمد)، بل يبدأ العدّ من الآية التالية للبسملة.

والجواب علىٰ ذلك ما ذكره (الفخر الرازي) في تفسيره الكبير، إذ قال: لا يمنع أن تكون البسملة لوحدها آية في سورة الحمد، وأن تكون جزءً من الآية الأُولىٰ في سائر سور القرآن (أي أنّ مطلع سورة الكوثر مثلاً: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يعتبر كلّه آية واحدة.

والمسألة ـ علىٰ أيّ حال ـ واضحة إلى درجة كبيرة حتى روي: أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَلّىٰ بِالنَّاسِ في فَتْرَةِ حُكُومَتِهِ فَلَمْ يَقْرَأْ اَلْبَسْمَلَةَ، فَصَاحَ جَمْعٌ مِنَ الْمُهاجِرينَ وَالْأَنْصَارِ بَعْدَ الصَّلاَةِ: أَسَرَقْتَ أَمْ نسِيتَ؟[1] [2].

---

١ ـ البيهقي، ج ٢، ص ٤٩. والحاكم في المستدرك، ج ١، ص ٢٣٣.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١/٢٩ ـ ٣٢.

٧٥

لماذا يحرم اعطاء القرآن للكافر؟

☑ لا يجوز إعطاء القرآن لغير المسلم إن كان ذلك الشخص يـهدف إهـانة وهتك القرآن، ولكن إن حصل علم بأن ذلك الكافر يفكر حقّاً بالتحقيق في الإسلام من خلال القرآن للوصول إلى هذا الهدف، فإن إعـطاء القـرآن هـنا لا يـعدّ أمـراً ممنوعاً، بل يعدّ واجباً، والعلماء الذين حرّموا ذلك لا يقصدون هذا المعنىٰ.

ولهذا فإنّ الجمعيات الإسلامية الكبيرة تصرّ بشدّة على ترجمة القرآن إلى بقية اللغات الحية في العالم، ليوضع تحت تصرف المتعطشين لمعرفة الحقيقة.[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٥/ ٥٣.

الأئمة عليهم السلام

٧٦

ماهي الإمامة وهل هي من الأصول أو الفروع؟

☑ فيما يتعلق بتعريف الامامة هنالك اختلاف كثير في وجهات النظر، ولابد من وجود هذا الاختلاف، فالامامة في نظر طائفة «الشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام» من اصول الدين والأُسس العقائدية، بينما تعتبر في نظر طائفة اخرىٰ «اهل السّنة» من فروع الدين والاحكام العملية.

فمن البديهي ان لا تتشابه نظرة الطائفتين الىٰ مسألة الامامة، وان لا يكون لهما تعريف واحد لها.

من هنا نرىٰ عالماً سنّياً يعرِّف الإمامة هكذا:

الامامة رئاسة عامة في امور الدين والدنيا، خلافة عن النبي صلى الله عليه وآله(١).

واستناداً الىٰ هذا التعريف، فالامامة مسؤولية ظاهرية في حدود الحكومة، غاية الأمر انّ الحكومة تتأطّر بإطارٍ ديني، واتخذت طابع خلافة النبي صلى الله عليه وآله «الخلافة

١ ـ شرح التجريد للقوشجي: ص ٤٧٢.

والنيابة في أمر الحكومة». وبطبيعة الحال يمكن انتخاب مثل هذا الامام من قبل الناس.

واعتبر البعض انّ الامامة تعني «خلافة شخص للنبيﷺ في اقامة الاحكام الشرعية وحراسة الدين بنحوٍ تكون اطاعته واجبة علىٰ جميع الامة»[١].

وهذا التعريف لايختلف عن التعريف الاول نوعاً ما، لانه يحتوي علىٰ نفس المفهوم والمضمون.

كما ان ابن خلدون قد سار علىٰ نفس هذا المعنىٰ في مقدمة تاريخه المعروف[٢].

ويقول الشيخ المفيد في «اوائل المقالات» في بحث العصمة مايلي:

ان الائمة القائمين مقام الانبياء في تنفيذ الاحكام، واقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام معصومون كعصمة الانبياء[٣].

فطبقاً لهذا التعريف الذي يجاري ما يعتقد به اتباع اهل البيتعليهم السلام ان الامامة أعلىٰ مرتبة وأشمل من الزعامة والحكومة علىٰ الناس، بل انّ جميع واجبات الانبياء «سوىٰ استلام الوحي وما شابهه» ثابتٌ للائمة. من هنا فشرط العصمة المتوفر في الانبياء متوفر في الائمة ايضاً (تأملوا جيداً).

لهذا فقد جرىٰ تعريف الامامة في نظر الشيعة في كتاب شرح احقاق الحق كما يلي: **«هي منصبٌ الهي حائز لجميع الشؤون الكريمة والفضائل الّا النبوة وما يلازم تلك المرتبة السامية»**[٤].

---

١ ـ الشرح القديم للتجريد لشمس الدين الاصفهاني نقلاً عن توضيح المراد، تعليقة علىٰ شرح تجريد الاعتقاد للسيد هاشم الحسيني الطهراني، ص ٦٧٢.

٢ ـ مقدمة ابن خلدون: ص ١٩١.

٣ ـ اوائل المقالات: ص ٧٤، ط مكتبة الداوري.

٤ ـ احقاق الحق، ج ٢، ص ٣٠٠ (الهامش الاول).

بناء علىٰ هذا التعريف، فالامام ينصب من قبل الله تعالىٰ عن طريق النبيﷺ، ويمتلك نفس الفضائل والخصائص التي يمتلكها النبيﷺ «عدا النبوة»، ولا ينحصر عمله في الحكومة الدينية فقط.

لهذا يعتبر الايمان بالامامة جزءً من اصول الدين لا من فروع الدين.

هل الامامة من الاصول أم من الفروع؟

يتبين جواب هذا السؤال مما قيل في البحث السابق، لأن الآراء مختلفة في مسألة الامامة، يقول «الفضل بن روزبهان» صاحب «نهج الحق» الذي يعتبر «احقاق الحق» رداً عليه، ما يلي: «ان مبحث الامامة عند الاشاعرة ليس من اصول الديانات والعقائد بل هي عند الاشاعرة من الفروع المتعلقة بافعال المكلفين»[١].

كما ان سائر مذاهب اهل السنّة لايختلفون مع الاشاعرة في ذلك، لانهم يعتبرونها من التكاليف العملية الموكولة الىٰ الناس، في حين ان الشيعة واتباع أهل البيتعليهم السلام ونفر قليل من اهل السنة كالقاضي البيضاوي وبعض من اتباعه يعتبرونها من اصول الدين[٢].

والدليل هو انهم يعدون الامامة منصباً الهياً يجب أن يعين من قبل الله تعالىٰ، وأحد شروطها العصمة التي لا يعلمها الاّ الله، والايمان بالائمة واجب كالايمان بالنبيﷺ الباني الأول لقواعد الشريعة، الّا انّ هذا لايعني ان الشيعة يعتبرون المخالفين لهم في قضية الامامة كافرين، بل انهم يعتبرون جميع الفرق مسلمين، وينظرون اليهم علىٰ انهم اخوةٌ في الدين، وان لم يقبلوا آرائهم في مسألة الامامة، ومردُّ ذلك لكونهم يقسمون أُصول الدين الخمسة الىٰ قسمين، الاصول الثلاثة

---

١ ـ احقاق الحق، ج ٢، ص ٢٩٤، دلائل الصدق، ج ٢، ص ٤.

٢ ـ دلائل الصدق، ج ٢، ص ٨.

الاولىٰ، التوحيد والنبوة والمعاد علىٰ إنها اصول الدين، والامامة والعدل بأنها اصول المذهب.

نختتم هذا الكلام بحديث عن الامام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام ـ الذي يعتبر ملهماً لاتباع اهل البيت عليهم السلام ـ في مسألة الامامة: «انّ الامامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، ان الامامة أُسُّ الإسلام النامي وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وامضاء الحدود والاحكام، ومنع الثغور والاطراف، الامام يحلُّ حلال الله، ويحرّم حرام الله، ويقيم حدود الله ويذبُّ عن دين الله، ويدعو الىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة»[١].[٢]

ـ اصول الكافي: ج ١، ص ٢٠٠.

ـ نفحات القرآن: ج ٩، ص ١٠.

٧٧

متىٰ بدأ البحث في الامامة ؟

☑ بعد رحيل النبيﷺ جرىٰ جدلٌ حول من يخلف النبي، فطائفة كانوا يعتقدون بانّ النبيﷺ لم ينصب احداً لخلافته، واوكل هذا الامر الىٰ الأمة، بأنْ يجلسوا ويختاروا قائداً من بينهم، القائد الذي يمسك بزمام الحكم، ويحكم الناس باعتباره موكلاً من قبلهم، وان لم يجر هذا الاختيار ابداً، بل انّ مجموعة صغيرة من الصحابة قامت باختيار الخليفة في مرحلة، وفي المرحلة الاخرىٰ اتخذ انتخاب الخليفة طابعاً تعينياً، وفي المرحلةالثالثة اوكل هذا الاختيار الىٰ مجلس من ستة اشخاص كلهم معينون.

ويطلق على اتباع هذا المنحىٰ «اهل السّنة».

وفريق آخر كانوا يعتقدون بوجوب تعيين الامام وخليفة النبيﷺ من قبل الله تعالىٰ، لأنه يجب ان يكون مثل النبيﷺ معصوماً من الزلل والخطأ، وذا علم خارق للعادة لكي يتحمل قيادة الائمة معنوياً ومادياً، ويحفظ اساس الإسلام، ويبين مشاكل الاحكام، ويشرح دقائق القرآن، ويعمل علىٰ استمرار الإسلام.

ويطلق علىٰ هذه الطائفة «الامامية» أو «الشيعة». وقد اخذت هذه الكلمة عن

الاحاديث المعروفة والصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله.

فقد روي في تفسير الدر المنثور وهو من المصادر المعروفة لدىٰ اهل السنة عن جابر بن عبدالله الانصاري تعقيباً علىٰ الآية الكريمة: ﴿أولئك هم خير البرية﴾، انه قال: كنا عند النبي فاقبل علي عليه السلام فقال النبي صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده ان هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

فكان اصحاب النبي صلى الله عليه وآله اذا اقبل علي، قالوا جاء خير البرية[1].

ويروي الحاكم النيسابوري وهو من علماء اهل السنة المعروفين في القرن الخامس الهجري هذا المعنىٰ في كتابه المعروف شواهد التنزيل بطرق مختلفة عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد تجاوز عدد رواياته العشرين.

منها ما نقله عن ابن عباس، لما نزلت آية: ﴿انّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية﴾، قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: هم انت وشيعتك[2].

وجاء في رواية اخرىٰ عن ابي برزة: لما تلا النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية، قال لعلي عليه السلام: هم انت وشيعتك يا علي[3].

كما ذكر هذا الحديث الكثير من علماء الإسلام لاسيما من اهل السنّة مثل ابن حجر في صواعقه ومحمد الشبلنجي في نور الابصار[4].

بناءً علىٰ شهادة هذه الروايات، فان النبي صلى الله عليه وآله هو الذي اختار لاتباع علي عليه السلام

---

١ ـ الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩ (ذيل الآية ٧ سورة البينة).

٢ ـ شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧.

٣ ـ المصدر نفسه: ص ٣٥٩.

٤ ـ الصواعق: ص ٩٦ ونور الابصار ص ٧٠ و ١٠١، ومن اجل المزيد من الاطلاع على رواة هذا الخبر والكتب التي ذُكر فيها راجعوا الجزء الثالث من احقاق الحق، ص ٢٨٧ وما بعدها والجزء ١٤، ص ٢٥٨.

ومحبيه هذه التسمية «الشيعة»، فهل يبقىٰ مجال للعجب في انزعاج البعض من هذا الاسم ويعتبرونه شؤماً ونحساً، ويعدون حرف الشين الذي في مطلعه سبباً «للشر» و«الشؤم» وسائر الالفاظ التي تبتدئ بحرف الشين؟!

انّ هذه التعابير تعتبر بحق مثيرة للدهشة بالنسبة للباحث الذي يرغب في ان يسير في ظل البراهين المنطقية دائماً. والحال يمكن اختيار كلمات حسنة أو سيئةلكل حروف الهجاء بدون استثناء.

علىٰ اية حال فتاريخ ظهور الشيعة ليس بعد ارتحال النبيﷺ بل في حياتهﷺ، حين اطلق هذه الكلمة علىٰ محبي واتباع عليؑ، وكلُّ الذين يعتقدون بالنبيﷺ علىٰ انه رسول الله، يعرفون انه لا يتكلم عن الهوىٰ، ﴿وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ﴾ واذا ما قال لعليؑ: أنت وشيعتك المفلحون يوم القيامة فهذه حقيقة.(١)

١ ـ نفحات القرآن ج ٩ ص ١٣ ـ ١٥.

٧٨

من هم أولوا الأمر؟

نقرأ في سورة النساء الآية ٥٩: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ هنا يأتي سؤال وهو: من هم أولي الأمر؟

☑ ثمّة كلام كثير بين المفسّرين في المقصود من أُولي الأمر في هذه الآية، ويمكن تلخيص أوجه النظر في هذا المجال في مايلي:

١ ـ ذهب جماعة من المفسّري أهل السنّة إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأمراء والحكام في كل زمان ومكان، ولم يستثن من هؤلاء أحداً، فتكون نتيجة هذا الرأي هي: إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومة وسلطة مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومة المغول، ودولتهم الجائرة.

٢ ـ ذهب البعض من المفسّرين ـ مثل صاحب تفسير المنار وصاحب تفسير في ظلال القرآن وآخرون ـ إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» ممثلو كافة طبقات الأمة، من الحكام والقادة والعلماء وأصحاب المناصب في شتى مجالات حياة الناس، ولكن لا تجب طاعة هؤلاء بشكل مطلق وبدون قيد أو شرط، بل هي مشروطة بأن لا تكون على خلاف الأحكام والمقررات الإسلامية.

٣ ـ ذهبت جماعة أُخرىٰ إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم القادة المعنويون والفكريون، أي العلماء والمفكرون العدول العارفون بـمحتويات الكـتاب والسـنة معرفة كاملة.

٤ ـ وذهب بعض مفسّري أهل السنة إلى أنّ المراد من هذه الكلمة هم «الخلفاء الأربعة» الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول الله خاصّة ولا تشمل غيرهم، وعلى هذا لا يكون لأُولي الأمر أي وجود خارجي في الأعصر الأُخرىٰ.

٥ ـ يفسر بعض المفسّرين «أُولي الأمر» بصحابة الرّسول الأكرم ﷺ.

٦ ـ هناك احتمال آخر يقول ـ في تفسير أُولي الأمر ـ إنّ المراد منه هم القادة العسكريون المسلمون، وأمراء الجيش والسرايا.

٧ ـ ذهب كلّ مفسّري الشيعة بالإتفاق إلى أنّ المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين أُنيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المـادية والمـعنوية فـي جميع حقول الحياة من جانب الله سبحانه والنّبي الأكرم ﷺ، ولا تشمل غيرهم، اللّهم إلّا الذي يتقلد منصباً من قبلهم، ويتولى أمراً في إدارة المجتمع الإسلامي من جانبهم ـ فإنّه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معينة، ولا تـجب طـاعته لكونه من أُولي الأمر، بل لكونه نائباً لأُولي الأمر ووكيلاً من قبلهم.

والآن لنستعرض التفاسير المذكورة أعلاه باختصار:

لا شك أنّ التّفسير الأوّل لا يناسب مفهوم الآية وروح التعاليم الإسلامية بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعة كل حكومة ـ مهما كانت طبيعتها ـ ومن دون قـيد أو شرط بإطاعة الله والنّبي، ولهذا تصدى كبار علماء السنة لنفي هذا الرأي والتّفسير مضافاً إلى علماء الشيعة.

وكذا التّفسير الثّاني: فإنّه لا يناسب إطلاق الآية الشريفة، لأنّ الآية توجب إطاعة أُولي الأمر من دون قيد أو شرط.

وهكذا التّفسير الثّالث، يعني تفسير «أُولي الأمر» بالعلماء والعدول والعـارفين بالكتاب والسنة، فهو لا يناسب إطلاق الآية، لأنّ لإطاعة العلماء وإتباعهم شروطاً

من جملتها أن لا يكون كلامهم على خلاف الكتاب والسنة، وعلى هذا لو ارتكبوا خطأ (لكونهم عرضة للخطأ وغير معصومين) أو انحرفوا عن جادة الحقّ لأي سبب آخر لم تجب طاعتهم، في حين توجب الآية الحاضرة إطاعة أُولي الأمر بنحو مطلق كإطاعة النّبيﷺ، هذا مضافاً إلى أنّ إطاعة العلماء إنّما هي في الأحكام التي يستفيدونها من الكتاب والسنة، وعلى هذا لا تكون إطاعتهم شيئاً غير إطاعة الله وإطاعة النّبيﷺ، فلا حاجة إلى ذكرها بصورة مستقلة.

وأمّا التّفسير الرّابع (وهو حصر عنوان أُولي الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأُولي الأمر بين المسلمين في هذا الزمان هذا مضافاً إلى عدم وجود دليل على مثل هذا التخصيص.

والتّفسير الخامس والسّادس: يعنيان تخصيص هذا العنوان بالصحابة أو القادة العسكريين المسلمين، ويرد عليها نفس الإشكال الوارد على التّفسير الرّابع، يعني أنّه لا يوجد أي دليل على مثل هذا التخصيص أيضاً.

وقد أراد جماعة من مفسّري السنة مثل «محمّد عبده» العالم المصري المعروف ـ تبعاً لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازي ـ أن يقبل بالإحتمال الثّاني (القاضي بأنّ أُولي الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامي من العلماء والحكام وغير هؤلاء من طبقات وفئات المجتمع الإسلامي) مشروطاً ببعض الشروط ومقيداً ببعض القيود، مثل أن يكونوا مسلمين (كما يستفاد من كلمة «منكم» في الآية) وأن لا يكون حكمهم على خلاف الكتاب والسنة، وأن يحكموا عن اختيار لا جبر ولا قهر، وأن يحكموا وفق مصالح المسلمين، وأن يتحدثوا في مسائل يحقّ لهم التدخل فيها (لا مثل العبادات التي لها قوانين وأحكام ثابتة في الإسلام) وأن لا يكون قد ورد في الحكم الذي أصدروه نص خاص من الشرع، وأن يكونوا ـ فوق كل هذا ـ متفقين في الرأي والحكم.

وحيث إنّ هؤلاء يعتقدون أن مجموع الأُمّة أو مجموع ممثليها لا تخطأ ولا تجتمع على خطأ، ـ وبعبارة أُخرىٰ ـ أن مجموع الأُمّة معصومة (أو أنّ الأُمّة بوصفها

معصومة) تكون نتيجة هذه الشروط وجوب إطاعة مثل هذا الحكم بشكل مطلق ومن دون قيد أو شرط تماماً مثل إطاعة النّبيﷺ (ومؤدىٰ هذا الكلام هو حجّية الإجماع). ولكن ترد على هذا التّفسير أيضاً إشكالات واعتراضات عديدة وهي:

أوّلاً: إنّ الإتفاق في الرأي في المسائل الإجتماعية قلّما يتفق وقلّما يتحقق، وعلى هذا فإن هذا الرأي يستلزم وجود حالة من الفوضى والإنتظام في أغلب شؤون المسلمين وبصورة دائمة.

وأمّا إذا أراد هؤلاء قبول رأي الأكثرية فيرد عليه: إنّ الأكثرية لا تكون معصومة أبداً، ولهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانياً: لقد ثبت في علم الأُصول، أنّه ليس هناك أي دليل على عصمة مجموع الأُمّة من دون وجود الإمام المعصوم بينهم.

ثالثاً: إنّ أحد الشرائط التي يذكرها أنصار هذا التّفسير هو أن لا يكون حكم هؤلاء «أي أُولوا الأمر» على خلاف الكتاب والسنة، فيجب حينئذ أن نرى من الذي يشخّص أن هذا الحكم مخالف للكتاب والسنة أو لا، لا شك أن ذلك من مسؤولية المجتهدين والفقهاء العارفين بالكتاب والسنة، ويعني هذا إنّ إطاعة أُولي الأمر لا يجوز بدون إجازة المجتهدين والعلماء، بل تلزم أن تكون إطاعة العلماء أعلى من إطاعة أولي الأمر، وهذا لا يناسب ولا يوافق ظاهر الآية الشريفة.

صحيح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزءً من أُولي الأمر «ولكن الحقيقة أن العلماء والمجتهدين ـ وفق هذا التّفسير ـ اعترف بهم على أنّهم المراقبون والمراجع العليا من بقية ممثلي مختلف فئات الأُمّة، لا أنّهم في مستوى بقية الممثلين المذكورين، لأنّ على العلماء والفقهاء أن يشرفوا على أعمال الآخرين ويشخصوا موافقتها للكتاب والسنة، وبهذا يكون العلماء مراجع عُليا لهم، وهذا لا يناسب التّفسير المذكور ولا يوافقه.

وعلى هذا الأساس يواجه التّفسير الحاضر (أي الثّاني) إشكالات ومآخذ من وجهات عديدة.

فيبقى تفسير واحد سليماً من جميع الإعتراضات السابقة وهو التّفسير السّابع: (وهو تفسير أُولي الأمر بالأئمّة المعصومينعليهم السلام لموافقة هذا التّفسير لإطلاق وجوب الإطاعة المستفاد من الآية المبحوثة هنا، لأن مقام «العصمة» يحفظ الإمام من كلّ معصية ويصونه عن كل خطأ، وبهذا الطريق يكون أمره ـ مثل أمر الرّسول ـ واجب الإطاعة من دون قيد أو شرط، وينبغي أن يوضع في مستوى إطاعته صلى الله عليه وآله، بل وإلى درجة أنها تعطف على إطاعة الرّسول من دون تكرار «أطيعوا».

والجدير بالإنتباه إلى أنّ بعض العلماء المعروفين من أهل السنة، ومنهم المفسر المعروف الفخر الرازي اعترف بهذه الحقيقة في مطلع حديثه عند تفسير هذه الآية حيث قال: «إنّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بإطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ أن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت إن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ».

وأضاف قائلاً: «ذلك المعصوم إمّا مجموع الأُمّة أو بعض الأُمّة، ولا يجوز أن يكون بعض الأُمّة لأن إيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم، ونحن عاجزون عن الوصول إليهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأُمّة، ولمّا بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله: «وأولي الأمر» هم أهل الحل والعقد ومن الأُمّة (أي الأُمّة كلها وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأُمّة حجّة)[1].

وهكذ نرى الفخر الرازي مع ما نعهد منه من كثيرة الإشكال في مختلف المسائل

---

١ ـ التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٠، ص ١٤٤، طبعة مصر، عام ١٣٥٧.

العلمية، قد قبل دلالة هذه الآية على أنّ أُولي الأمر يجب أن يكونوا معصومين، غاية ما في الأمر حيث أنّه لم يكن عارفاً بمذهب أهل البيت النبوي عليهم السلام وأئمّة هذا المذهب تجاهل إحتمال أن يكون «أُولي الأمر» أشخاصاً معنيين من الامة، فاضطر إلى تفسير «أُولي الإمر» بمجموع الأُمّة (أو ممثلي عموم فئات الأُمّة)، في حين أن هذا الإحتمال لا يمكن القبول به، لأن أُولي الأمر ـ كما قلنا في ما سبق ـ يجب أن يكونوا قادة المجتمع الإسلامي، وتتمّ الحكومة الإسلامية والحكم بين المسلمين بهم، ونعلم أنه لا يمكن لا في الحكومة الجماعية (المتألفة من مجموعة الأُمّة) بل ولا من ممثلي فئاتها أن يتحقق إجتماع واتفاق في الرأي مطلقاً، لأنّ الحصول على إجماع من جانب الأُمّة جميعاً أو من جانب ممثليها في مختلف المسائل الإجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية والإقتصادية، لا يتيسر ولا يتحقق في الأغلب، كما أنّ إتّباع الأكثرية ـ كذلك ـ لا يعد إتّباعاً لأُولي الأمر، ولهذا يلزم من كلام الرازي ومن تبعه من العلماء المعاصرين أن تتعطل مسألة إطاعة «أُولي الأمر»، أو تصير مسألة نادرة واستثنائية جداً... .

ومن كل ما قلناه نستنتج أنّ الآية الشريفة تثبت قيادة وولاية الأئمّة المعصومين الذين يشكلون نخبة من الأُمّة الإسلامية (تأمل).

أجوبة على أسئلة:

ثمّ إنّ هناك اعتراضات ومآخذ على هذا التّفسير (السّابع) يجدر طرحها هنا بتجرّد وموضوعية:

١ ـ إذا كان المراد من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فإنّ ذلك لا يناسب مع كلمة «أُولي» التي هي بصيغة الجمع، لأنّ الإمام المعصوم في كل عصر، شخص واحد لا أكثر.

والجواب على هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم وإن كان في كل عصر شخصاً واحداً لا أكثر، إلّا أنّ الأئمة المتعددين في الأعصر المختلفة يشكلون جماعة،

ونحن نعلم أنّ الآية لا تحدد وظيفة الناس في عصر واحد.

٢ ـ إنّ أُولي الأمر ـ بهذا المعنى ـ لم يكونوا في عصر النّبيﷺ فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضاً من الكلام السابق، لأنّ الآية لا تنحصر (أو لا تعني) زماناً خاصاً، بل توضح وتبيّن وظيفة المسلمين وواجبهم في جميع العصور والقرون.

وبعبارة أُخرىٰ، يمكن أن نقول أن أُولي الأمر في زمان النّبيﷺ كان شخص النّبي بالذات، لأن النّبيﷺ كان له منصبان منصب «الرسالة» الذي أشير إليه في الآية المذكورة تحت عنوان ﴿أطيعوا الرّسول﴾ والآخر منصب «قيادة الأُمّة الإسلامية» الذي ذكره القرآن الكريم تحت عنوان ﴿أُولي الأمر﴾.

وعلى هذا يكون القائد وولي الأمر المعصوم في عهد النّبي هو النّبيﷺ، فهو مضافاً إلى ما له من منصب الرسالة وإبلاغ الأحكام الإسلامية، له منصب قيادة الأُمّة وولاية أمرها، ولعل عدم تكرار جملة (وأطيعوا) بين (الرّسول» و«أُولي الأمر» لا يخلوا عن الإشارة إلى هذه النقطة.

وبعبارة أُخرىٰ إن منصب «الرسالة» ومنصب «أولي الأمر» منصبان مختلفان اجتمعا في شخص رسول اللهﷺ، ولكن المنصب الثّاني فقط يتوفر في كل إمام على حدة، فللإمام منصب اولي الأمر فقط.

٣ ـ إذا كان المقصود من «أُولي الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فلماذا أشار سبحانه في ذيل الآية إلى مسألة التنازع والإختلاف بين المسلمين إذ قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِاللهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ فإنّنا لا نشاهد هنا أي حديث عن «أُولي الأمر» بل أشير إلى الله تعالى (كتاب الله ـ القرآن) والنّبي (السنة) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الإختلاف والتنازع.

في الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أوّلاً: إنّ هذا الإشكال لا يختص بالتّفسير الشّيعي لهذه الآية، بل يردّ على بقية التفاسير أيضاً، إذا أمعنا النظر قليلاً.

وثانياً: لا شك أنّ المراد من الإختلاف والتنازع في العبارة الحاضرة هو الإختلاف والتنازع في الأحكام، لا في المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنّه في هذه المسائل يجب إطاعة أُولي الأمر (كما صرّح بذلك في الجملة الأُولىٰ من الآية المبحوثة هنا).

وعلى هذا فالمراد من الإختلاف هو الإختلاف في الأحكام والقوانين الكلية الإسلامية التي يعود أمر تشريعها إلى الله سبحانه ونبيّه ﷺ، لأنّنا نعلم أنّ الإمام مجرّد منفذ للأحكام الإلهية وليس مشرعاً، ولا ناسخاً لشيء من تلك الأحكام، وإنّما عليه فقط أن يطبق الأحكام والأوامر الإلهية والسنة النّبوية في حياة الأمة، ولهذا جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام إنّهم قالوا: **«إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب الله وسنة نبيّه فاضربوه عرض الحائط ولا تقبلوه»** أي يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ.

وعلى هذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسلمون لحل خلافاتهم في الأحكام الإسلامية هو الله سبحانه والنّبي الأكرم ﷺ الذي يوحى إليه، وإذا ما بيّن الأئمّة المعصومون أحكاماً، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب الله، أو هي من العلوم التي وصلت إليهم من النّبي الأكرم ﷺ، وبهذا تتّضح علّة عدم ذكر أُولي الأمر إلى جانب المرجع في حلّ الإختلاف في الأحكام المذكورة في هذا الجزء من الآية[1][2].

---

١ ـ وإذا رأيناه سبحانه يرجع الأُمّة في حلّ بعض إختلافاتها إلى أُولي الأمر في الآية (٨٣) من هذه السورة فالمراد منه ليس هو الإختلاف في الأحكام والقوانين الإسلامية الكلية، بل هو ـ كما سيأتي في تفسير هذه الآية ـ الإختلاف في المسائل المتعلقة بطريقة تطبيق الأحكام الإسلامية.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣/٢٨٧ ـ ٢٩٥.

٧٩

من هم أهل البيت عليهم السلام؟

نقرأ في سورة الأحزاب الآية ٣٣: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: من هم أهل البيت عليهم السلام؟

☑ صحيح ان هذه الآية تتوسط الآيات المتعلقة بنساء النبي صلى الله عليه وآله الا أنها تحمل نغمة مختلفة عنها، وتشير الىٰ معنىً آخر. فجميع الآيات التي سبقتها وتلتها جاءت بضمير «جمع المؤنث» بينما جاءت الآية محل البحث بضمائر «جمع المذكر»!

ففي مستهل هذه الآية خاطب تعالىٰ نساء النبي صلى الله عليه وآله وأمرهنّ بالمكوث في بيوتهن، وان لايخرجن بين الناس كما كان سائداً في الجاهلية، ويحافظن على معايير العفة، وان يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن الله ورسوله ﴿وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لاٰ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولىٰ وَ أَقِمْنَ الصَّلاٰةَ وَ آتِينَ الزَّكٰاةَ وَ أَطِعْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ﴾. فجميع الضمائر الستة التي وردت في هذا المقطع من الآية هي على صورة جمع المؤنث (تأملوا جيداً).

ثم يتبدل لحن الآية، ويقول: ﴿إِنَّمٰا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ

يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وقد استخدم في هذا المقطع من الآية ضميرين جمع بصورة جمع المذكر.

صحيح ان مطلع ونهاية كل آية يستهدف امراً واحداً، الا ان هذا الكلام يجري في المكان الذي لا تتوفر فيه قرينة على الخلاف، وعلى هذا فالذين رأوا ان هذا الجانب من الآية ناظرٌ الى نساء النبي ﷺ ايضاً فقد نطقوا خلافاً لظاهر الآية والقرينة التي فيها، أي تباين الضمائر.

بالاضافة الى ذلك نمتلك روايات عديدة فيما يتعلق بهذه الآية حيث نقلها اكابر علماء المسلمين سواء الشيعة أم السنة عن النبي ﷺ وجاءت بشكل واخر في اشهر كتب الفريقين التي تحظى بقبولهم.

هذه الروايات باجمعها تفيد ان المخاطب في هذه الآية هو النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (لا نساء النبي) كما سيأتي بالتفصيل فيما بعد.

المراد من «اهل البيت»

رأى بعض من مفسري اهل السنة ان المراد من أهل البيت، نساء النبي ﷺ، ولكن كما قلنا فان تغيير سياق الآية، وتبديل الضمائر من «جمع المؤنث» ـ فيما قبل وبعد هذه الآية ـ الى «جمع المذكر» دليل بيّنٌ على ان لهذه العبارة مضموناً منفصلاً، وان المراد منها أمر آخر. أليس الله حكيماً والقرآن في اعلى مراتب الفصاحة والبلاغة وجميع عباراته تخضع للحساب.

وطائفة اخرى من المفسرين خصتها بالنبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، والروايات الكثيرة الواردة في مصادر اهل السنة والشيعة والتي نشير الى بعضها لاحقاً شاهدٌ على هذا المعنى.

وبسبب وجود هذه الروايات ربما ذكر الذين لايحصرون الآية بهؤلاء العظماء معنىً واسعاً لها بحيث يشملهم ويشمل نساء النبي ﷺ وهذا تفسير ثالث للآية.

أما الروايات التي تدل على اختصاص الآية بالنبي ﷺ وعلي عليه السلام وسيدة نساء

العالمين فاطمة الزهراءعليها السلام وابنيهما الحسن والحسينعليهما السلام فهي ـ وكما اشرنا ـ كثيرة للغاية، منها ثمانية عشرة رواية نقلت خمس منها في تفسير «الدر المنثور» عن أُم سلمة، وثلاث عن ابي سعيد الخدري، وواحدة عن عائشة، وواحدة عن انس، واثنتان عن ابن عباس، واثنتان عن ابي الحمراء، وواحدة عن واثلة بن الاسقع، وواحدة عن سعد، وواحدة عن الضحاك بن مزاحم، وواحدة عن زيد بن الارقم[١].

ويحصي المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان» الروايات التي وردت بهذا الصدد بما يربو عن سبعين رواية ويقول: وهي روايات جمة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق اهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة، ويضيف رواة آخرين سوى الذين ذكرناهم اعلاه (الرواة الذين ذكرت رواياتهم في غير تفسير الدر المنثور).

وذكر البعض ان عدد الروايات والكتب التي نقلت فيها بلغ المئات ولا يُستبعد ان يكون كذلك.

وهنا نذكر طائفة من هذه الروايات فقط مع ذكر مصادرها ليتبين قول الواحدي في «اسباب النزول»: ان الآية نزلت في النبيصلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين: خاصة لايشاركهم فيها غيرهم[٢].

ويمكن اختصار هذه الروايات في اربعة اقسام:

١ـ الروايات التي نقلت عن بعض نساء النبيصلى الله عليه وآله تقول بصريح التعبير، عندما كان النبيصلى الله عليه وآله يتحدث عن هذه الآية سألناه هل نحن منهم؟ فقال: لا ولكنكم على خير!

منها ما يرويه الثعلبي في تفسيره عن «ام سلمة» زوجة النبيصلى الله عليه وآله ان النبي كان

---

١ ـ الدر المنثور: ج ٥، ص ١٩٦ و ١٩٩.

٢ ـ الميزان: ج ١٦، ص ٣١١.

في بيتها وجاءته فاطمةعليها السلام بالطعام، فقال لهاصلى الله عليه وآله: «ادع لي بعلك وابنيك» فجاؤوا فتناولوا الطعام ثم نشرصلى الله عليه وآله عليهم الكساء وقال: **اللهم هؤلاء اهل بيتي وعترتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**، ونزلت آية انما يريد الله.... فقلت يارسول الله وانا معكم؟! فقال: انكِ على خير[1].

وكذلك الثعلبي وهو من العلماء المعروفين لدى اهل السنة الذي عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، وتفسيره الكبير معروف، يروي عن عائشة زوجة النبيصلى الله عليه وآله ما يلي: عندما سئلت عن رحب الجمل ودورها في تلك الحرب المدمرة، قالت (بتأسف): لقد كان تقديراً الهياً! وعندما سئلت عن عليعليه السلام قالت:

«تسألني عن احب الناس كان الى رسول الله، وزوج احب الناس كان الى رسول الله، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وجمع رسول اللهصلى الله عليه وآله بثوب عليهم، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت: فقلت يارسول الله انا من اهلك قال تنحي فانك الى خير.

فمثل هذه الروايات تؤكد بصراحة ان نساء النبيصلى الله عليه وآله لم يكنّ من اهل البيت في هذه الآية.

٢ـ وردت قصة حديث الكساء في روايات كثيرة للغاية وبتعابير مختلفة والمضمون المشترك لها جميعاً هو ان رسول اللهصلى الله عليه وآله دعا علياًعليه السلام وفاطمة والحسن والحسينعليهما السلام ـ أو انهم حضروا عند رسول اللهصلى الله عليه وآله ـ أو انه غطاهم بالكساء أو بقماش، وقال: الهي هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس، فنزلت آية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

والجدير بالاهتمام ان هذا الحديث روي في صحيح مسلم عن «عائشة»،

---

١ ـ ذكر الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية محل البحث، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٥٦، الحديث اعلاه.

وكذلك نقله الحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «السنن»، وابن جرير في «تفسيره»، والسيوطي في «الدر المنثور»[١].

واورده الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ايضاً[٢]. كما نقل هذا الحديث في صحيح «الترمذي» مزاراً، ففي موضع رواه عن «عمرو بن ابي سلمة» وفي موضع آخر عن «ام سلمة»[٣].

والملاحظة الاخرى هي ان «الفخر الرازي» يضيف في ذيل آية المباهلة (سورة آل عمران الآية ٦١) بعد نقله لهذا الحديث (حديث الكساء):

واعلم انّ هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين اهل التفسير والحديث[٤].

كما يجدر ذكر هذه الملاحظة وهي: ان الامام «احمد بن حنبل» أورد هذا الحديث في مسنده بطرق مختلفة[٥].

٣ـ نقرأ في جانب آخر من الروايات العديدة والكثيرة ايضا ان النبي ﷺ وبعد نزول آية التطهير كان يمر من دار فاطمة ولعدة اشهر «في بعضها ستة اشهر، وفي بعضها ثمانية أو تسعة اشهر» اثناء ذهابه لصلاة الصبح وينادي: «الصلاة يا اهل البيت! **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**».

وروي هذا الحديث في «شواهد التنزيل» للمفسر الشهير «الحاكم الحسكاني» عن «انس بن مالك»[٦].

---

١ ـ صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٨٨٣، الحديث ٢٤٢٤ (باب فضائل اهل بيت النبي ٩).

٢ ـ شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٣٣، الحديث ٣٧٦.

٣ ـ صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٩٩، الحديث ٣٨٧١ (باب فضل فاطمة) طبعة احياء التراث.

٤ ـ تفسير الفخر الرازي: ج ٨، ص ٨٠.

٥ ـ مسند احمد: ج ١، ص ٣٣٠ وج ٤، ص ١٠٧ و ج ٦، ص ٢٩٢ (نقلاً عن فضائل الخمسة: ج ١، ص ٢٧٦ وما بعد).

٦ ـ شواهد التنزيل: ج ٢، ص ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ٩٢ (انتبهوا الى ان شواهد التنزيل

وجاء في نفس الكتاب رواية اخرىٰ عن «ابي الحمراء» يذكر فيها ان المدة كانت «سبعة اشهر».

ورويت هذه الواقعة ايضاً في نفس الكتاب عن «ابي سعيد الخدري» ذاكراً ان المدة كانت «ثمانية اشهر»[١].

ان الاختلاف في هذه التعابير امر طبيعي، فربما شاهد أنس هذا الامر لمدة ستة أشهر، وابو سعيد الخدري لمدة ثمانية أشهر، وابو الحمراء لمدة سبعة اشهر وابن عباس تسعة اشهر[٢].

فكل منهم نقل ما رآه، بلا تضارب بين كلامهم.

على اية حال، فاستمرار هذه الحالة وتكرار هذا الكلام خلال تلك الفترة الطويلة من قبل النبي الاكرمﷺ كان امراً مخططاً له، فهو كان يريد ان يبين بوضوح ان المراد من «اهل البيت» هم أهل هذه الدار فقط، لئلا يبقى شك بالنسبة لأي شخصٍ في المستقبل، وليعلم الجميع ان هذه الآية نزلت بحق هذه الزمرة فقط، والعجيب ان القضية بالرغم من هذا التكرار والتأكيد بقيت غامضة بالنسبة للبعض.

لاسيما وان الدار الوحيدة التي كانت بابها مفتوحة على مسجد النبيﷺ هي دار النبيﷺ وعليعليه السلام، (فقد أمر النبيﷺ باغلاق جميع الابواب التي كانت تفتح على المسجد ماعدا هاتين البابين).

ويذكر ان الكثير من الناس طالما سمعوا هذا الحديث عن رسول اللهﷺ اثناء الصلاة، وبعد هذا التأكيد والاثبات أليس من المدهش ان يصر بعض المفسرين علىٰ سعة مفهوم الآية لتشمل نساء النبيﷺ ايضاً، مع ما قلناه سابقاً في ان عائشة زوجة

⇦نقل هذا الرواية بطرق عديدة).

١ ـ شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٢٨، واحقاق الحق: ج ٢، ص ٥٠٣ الى ٥٤٨.

٢ ـ الدر المنثور: ج ٥، ص ١٩٩.

النبيﷺ واستناداً الى شهادة التاريخ لم تَدعْ شيئاً اثناء ذكرها لفضائلها وتفاصيل حياتها مع النبيﷺ ، فهي لم تر نفسها غير مشمولة بهذه الآية فحسب، بل تقول: ان النبي قال لي: «لستِ منهم»!

٤ـ الروايات العديد المروية عن الصحابي المعروف ابي سعيد الخدري التي اشارت الى آية التطهير تقول بصراحة: نزلت في خمسة في رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[١].

وملخص الحديث هو: ان الروايات التي وردت في المصادر الاسلامية بشأن آية التطهير واختصاصها بالنبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين من الكثرة بحيث يجعلها في صف الروايات المتواترة، ولا يبقىٰ فيها ادنىٰ شك من هذه الناحية، حيث ان صاحب شرح احقاق الحق ينقلها عن ما يربو علىٰ سبعين مصدراً من مصادر أهل السنة (بالاضافة الى المصادر المعروفة لدى اتباع أهل البيت) ويقول: «لو احصينا كافة هذه المصادر لتجاوزت الالف»[٢].[٣]

---

١ ـ ورد في شواهد التنزيل اربع روايات بهذا الصدد، ج ٢ من الصفحة ٢٤ ـ ٢٧ (الحديث ٦٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦١ و ٦٦٤).

٢ ـ اقتباساً من ج ٢ من احقاق الحق: من الصفحة ٥٠٢ الى ٥٦٣.

٣ ـ نفحات القرآن ج ٩ ص ١١٩ ـ ١٢٧.

٨٥

ماهي حادثة الغدير؟

﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾.

جاء في الكثير من كتب علماء السنّة (وكافة كتب الشيعة المعروفة) سواءً التفسير أو الحديث أو التاريخ، انّ الآية اعلاه نزلت بحق علي عليه السلام.

وروىٰ هذه الروايات جمعٌ كثير من الصحابة، منهم «ابو سعيد الخدري، وزيد بن ارقم، وجابر بن عبدالله الانصاري، وابن عباس، والبراء بن عازب، وحذيفة، وابو هريرة، وابن مسعود، وعامر بن ابي ليلىٰ»، وجاء في رواياتهم انّ هذه الآية نزلت بشأن علي عليه السلام وواقعة يوم الغدير.

واللطيف انّ بعض هذه الروايات نُقلت بطرق متعددة منها:

رواية ابي سعيد الخدري عن أحد عشر طريقاً.

رواية ابن عباس عن احد عشر طريقاً ايضاً.

ورواية البراء بن عازب نُقلت عن ثلاثة طرق:

ومن بين الذين اوردوا هذه الروايات (بشكل واسع أو بالاجمال) في كتبهم، العلماء المعروفون المدرجة اسماؤهم ادناه:

«ابو الحسن الواحدي النيشابوري في اسباب النزول ص ١٥٠.

«ابن عساكر الشافعي نقلاً عن «الدر المنثور»، ج ٢، ص ٢٩٨.

«الفخر الرازي في التفسير الكبير ج ٣، ص ٦٣٦.

«ابو اسحاق الحمويني في «فرائد السمطين» (مخطوط).

«ابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمة» ص ٢٧.

«جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور» ج ٢، ص٢٩٨.

«القاضي الشوكاني في «فتح القدير» ج ٣، ص ٥٧.

«شهاب الدين الالوسي الشافعي في «روح المعاني» ج ٦، ص ١٧٢.

«الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في «ينابيع المؤدّة» ص ١٢٠.

«بدرالدين الحنفي في عمدةالقاري في «شرح صحيح البخاري» ج ٨، ص ٥٨٤.

«الشيخ محمد عبدة المصري في تفسير المنار ج ٦، ص ٤٦٣.

«الحافظ ابن مردويه (المتوفي عام ٤١٨ هـ ق) (علىٰ ضوء نقل السيوطي في الدر المنثور) وكثيرٌ غيرهم.

وبالطبع لاينبغي نسيان انّ بعض هؤلاء العلماء في الوقت الذي ينقلون به الرواية وشأن النزول فانهم يمرون بها مرور الكرام للاسباب التي سنشير اليها لاحقاً، أو يبادروا الىٰ نقدها، حيث سنتطرق الىٰ بحث اقوالهم بشكل دقيق في البحوث القادمة ان شاء الله.

حادثة الغدير

ادركنا من البحث الآنف بشكل اجمالي ان هذه الآية وعلىٰ ضوء الشواهد التي لاتحصىٰ قد نزلت بحق علي عليه السلام، وانّ الروايات التي نقلت في الكتب المعروفة لاهل السنّة ـ فضلاً عن كتب الشيعة ـ اكثر من ان يستطيع احدٌ انكارها.

وبالاضافة الىٰ الروايات اعلاه، فلدينا روايات اخرىٰ تفيد بصريح القول: انّ هذه الآية وردت اثناء واقعة الغدير وخطبة النبيﷺ في التعريف بعليعليه السلام علىٰ أنه الوصي والولي، وعددها يربو علىٰ الروايات السابقة، حتىٰ انّ المحقق الكبير العلامة «الاميني» ينقل في كتاب الغدير، حديث الغدير عن ١١٠ من صحابة رسول اللهﷺ بالاسناد والوثائق الحية، وكذلك عن ٨٤ من التابعين و ٣٦٠ من مشاهير علماء المسلمين ومؤلفيهم.

انّ كلّ من يلقي نظرةً علىٰ مجموعة هذه الاسانيد والوثائق يدرك بانّ حديث الغدير من اكثر الروايات الاسلامية جزماً، ومصداقاً واضحاً للحديث المتواتر ومن يشك في تواتره، فعليه ان لايؤمن بايّ حديث متواتر.

وحيث انّ الولوج في هذا البحث بنحوٍ واسعٍ يخرجنا عن أسلوب هذا الكتاب، فنكتفي بهذا القدر بشأن اسناد الرواية وشأن نزول هذه الآية، ونتطرق الىٰ مضمون الرواية، ونحيل الذين يريدون المزيد من المطالعة حول اسناد الرواية الىٰ الكتب التالية:

١ـ كتاب الغدير، ج ١.

٢ـ احقاق الحق، تأليف العلامة الكبير القاضي «نور الله الشوشتري» مع شرح مفصلٍ لآية الله النجفي، ج ٢ و ٣ و ١٤ و ٢٠.

٣ـ المراجعات للمرحوم السيّد «شرف الدين العاملي».

٤ـ عبقات الانوار للعالم الكبير «ميرحامد الحسيني الهندي» (من الافضل مراجعة خلاصة العبقات، ج ٧ و ٨ و ٩).

٥ـ دلائل الصدق، تأليف العالم الكبير المرحوم «المظفر»، ج ٢.

مضمون روايات الغدير

وهنا نأتي بقصة الغدير بشكل مختصر كما يستفاد من مجموع الروايات اعلاه، (وطبعاً فان هذه الواقعة وردت في بعض الروايات بشكل مفصّل ومطوّل، وفي

بعضها بشكل مختصرٍ وقصير. وفي بعضها اشير الىٰ جانبٍ من هذه القصة وفي البعض الىٰ جانب آخر. ومنها جميعاً يستفاد ما يلي):

في السنّة الاخيرة من حياة النبيﷺ اقيمت مراسم حجة الوداع بكل جلال بمشاركة النبيﷺ. وكانت الافئدة تمتلئ بالمعنويات ولم تزل اللذة المعنوية لهذه العبادة العظيمة ينعكس اشعاعها في النفوس.

وكان اصحاب رسول اللهﷺ الذين كان عددهم كثيراً للغاية لاتسعهم انفسهم نتيجة لادراكهم هذا الفيض والسعادة العظيمة[١].

ولم يكن اهل المدينة وحدهم الذين يرافقون رسول اللهﷺ في هذا السفر. بل كان المسلمون من مختلف بقاع الجزيرة العربية كانوا برفقتهﷺ لنيل هذا الفخر التاريخي العظيم.

وكانت شمس الحجاز تضفي علىٰ الجبار والاودية حرارة لا تطاق. إلّا ان حلاوة هذا السفر المعنوي النادر كانت تيسر كل شيء. وقد اقترب الظهر. واخذت منطقة الجحفة. وصحراء «غدير خم» الجافة الرمضاء تبدو للعيان.

ومن هذا المكان الذي يتشعب الىٰ اربعة طرق يفرق اهل الحجاز. فطريق يتجه الى الشمال نحو المدينة. وطريق الىٰ الشرق نحو العراق. وطريق الى الغرب نحو مصر. وطريق الىٰ الجنوب نحو اليمن. وهنا يجب ان تُطرح آخر المستجدات في هذا السفر. ويتفرق المسلمون بعد استلامهم لآخر حكم وهو في واقع الامر كان خط النهاية في الواجبات الناجحة للنبيﷺ.

كان ذلك في يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة. وقد مضت عشرة ايام علىٰ عيد الاضحى. وفجأة صدر الامر من الرسولﷺ الى الذين معه بالتوقف. ونادىٰ

---

١ ـ ذكر البعض ان عدد الذين كانوا مع رسول اللهﷺ ٩٠ ألفاً. والبعض ١١٢ ألفاً. وبعضٌ ١٢٠ ألفاً. وبعضٌ ١٢٤ ألفاً.

المسلمون باعلى اصواتهم أصحابَهم الذين تقدموا الركب بالتوقف والعودة، وامهلوا المتأخرين حتىٰ يصلوا، وزالت الشمس وصدح صوت مؤذن رسول اللهﷺ بالاذان: الله اكبر، داعياً الناس الى صلاة الظهر، وسرعان ما استعد الناس للصلاة، إلّا ان حرارة الجو كانت الى الحد الذي اجبر البعض علىٰ ان يغطي ارجله بقسم من ازاره ويستر رأسه بالقسم الآخر، وإلّا فان حصىٰ الصحراء واشعة الشمس ستحرق ارجلهم ورؤوسهم.

فلا خيمة في الصحراء، ولا خضرة، ولا نبات، ولا شجرة، سوىٰ بعض الاشجار البرية الجرداء التي تقاوم حرارة الصحراء، والتي لاذ بها البعض، ووضعوا قطعة من القماش على احداهما وجعلوها ظلاً لرسول اللهﷺ، إلّا ان الرياح اللاهبة تهب تحتها وتلفها بحرارة الشمس المحرقة.

وانتهت صلاة الظهر، وعزم المسلمون على اللجوء الى خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم، بيد ان النبيﷺ اوعز لهم بالاستعداد لسماع بلاغ الهي جديد يُوضَّح ضمن خطبة مفصلة، ولم يكن بمقدور البعيدين عن رسول اللهﷺ رؤية وجهه الملكوتي وسط زحام الناس، لذا فقد صنعوا له منبراً من اربعة من أحداج الابل، فارتقاهُ النبيﷺ، وفي البداية حمد الله واثنى عليه واستعاذ به، ثم خاطب الناس قائلاً:

ايها الناس: يؤشك ان ادعىٰ فاجيب.

انا مسؤول، وانتم مسؤولون.

فكيف تشهدون بحقي؟

فصاح الناس: **نشهد انك قد بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، ثم قال: الستم تشهدون ان لا إله إلّا الله، وانّي رسول الله اليكم، وان البعث حق، وان الله يبعث من في القبور؟! فقالوا: نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد، ثم قال:**

ايها الناس اتسمعوني؟ قالوا: نعم، ثم عم السكوت الصحراء فلم يسمع الا

صوت الريح، فقال ﷺ: فانظروا ماذا صنعتم بالثقلين من بعدي؟

فقال رسول من بين القوم: ما هذا الثقلان يارسول الله؟

قال ﷺ: أما الثقل الاكبر فهو كتاب الله حبل ممدود من الله اليكم، طرفه بيد الله والطرف الآخر بايديكم، فلا تدعوه، وأما الثقل الاصغر فهم عترتي وقد اخبرني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتىٰ يردا علي الحوض، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا.

ونظر الناس الى رسول الله ﷺ وهو يلتفت حوله، وكأنه يبحث عن أحد، ولما وقعت عيناه علىٰ علي عليه السلام التفت اليه واخذ بيده ورفعها حتى بان بياض ابطيهما، وشاهدهما جميع القوم، وعرفوا انه ذلك الفارس المقدام، وهنا ارتفع صوت النبي ﷺ، وقال: **ايها الناس من اولى الناس بالمؤمنين من انفسهم؟** قالوا: الله ورسوله اعلم، فقال النبي ﷺ: **الله مولاي، وانا مولى المؤمنين واولى منهم بانفسهم**، ثم قال: **فمن كنت مولاه فعلي مولاه**، وكرر هذا الكلام ثلاثة مرات، وكما قال ارباب الحديث: انه كرره اربعاً، ثم رفع رأسه نحو السماء، وقال:

اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه، واحب من احبه وابغض من ابغضه وانصر من نصره واخذل من خذله وادر الحق معه حيث دار.

ثم قال ﷺ: الا فليبلغ الشاهد الغائب.

هنا انتهت خطبة الرسول ﷺ وكان العرق يتصبب من النبي ﷺ والجميع، وما زال الناس لم يتفرقوا من ذلك المكان حتىٰ نزل عليه الوحي وقرأ هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال رسول الله ﷺ:

الله اكبر، الله اكبر على اكمال الدين واتمام النعمة ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي من بعدي.

في هذه الاثناء عم الناس النشاط والحركة، واخذوا يهنئون علياً عليه السلام بهذا المقام،

وكان من الذين هنئوه، ابو بكر وعمر حيث نطقا بهذه العبارة امام اعين الحاضرين: بخ، بخ لك ياابن ابي طالب اصبحت وامسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

اثناء ذلك قال ابن عباس: «والله انه عهد سيبقى في اعناقهم»، واستاذن النبيّ ﷺ الشاعر المعروف «حسابن بن ثابت» لينشد شعراً بهذه المناسبة، ثم استهل قصيدته المعروفة:

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخمٍّ وأسمع بالرسول مناديا
فقال فمن مولاكم ونبيكم؟	فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا
الهك مولانا وانت نبينا	ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا علي فانني	رضيتك من بعدي اماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له اتباع صدق مواليا
هناك دعا اللهم والِ وليه	وكن للذي عادىٰ علياً معاديا[1]

بحث وتحليل مستجد حول آية التبليغ

لو تغاضينا عن جميع الروايات الواردة بشأن نزول الآية اعلاه، وكذا الروايات الواردة حول قصة الغدير، وامعنا النظر بمضمون الآية نفسها وما تلاها من الآيات، نستطيع من خلال عمق هذه الآيات استجلاء موقفنا ازاء مسألة خلافة النبي ﷺ.

والتوضيح هو: ان الآية اعلاه باختلاف التعابير التي وردت فيها تؤكد على أنها ناظرة الى قضية ذي ثلاث مزايا مهمة:

١ـ أنها قضية تحظى باهمية فائقة من وجهة نظر الإسلام الى الحد الذي يؤمر

---

١ ـ رویٰ هذا الشعر جماعة من كبار علماء السنة منهم: الحافظ «ابو نعيم الاصفهاني»، والحافظ «ابو سعيد السجستاني»، و«الخوارزمي المالكي»، والحافظ «ابو عبدالله المرزباني»، و«الكنجي الشافعي»، و«جلال الدين السيوطي»، و«سبط بن الجوزي»، و «صدر الدين الحموي».

النبيﷺ بابلاغها، وان لم يفعل فما بلغ رسالة الله! وبتعبير آخر فقد كانت امراً مرادفاً لقضية النبوة، فان لم يؤد تبقى رسالة النبيﷺ ناقصة؟

ومن البديهي أنّهُ ليس المراد ان هذا أمرٌ الهيٌّ عاد وكل أمر الهي لايبلغ لم تبلغ رسالة الله، فهذا الكلام من قبيل توضيح الواضح وغني عن البيان، بينما ظاهر الآية هو ان القضية المشار اليها تحظىٰ باهتمام خاص من حيث أنها خلاصة الرسالة والنبوة.

٢ـ ان هذه القضية لاتتعلق بالصلاة والصوم والحج والزكاة وما شابه ذلك من قواعد تعاليم الإسلام، لانها من آيات سورة المائدة، ونحن نعلم ان سورة المائدة هي آخر سورة نزلت على النبيﷺ (أو من أواخر السور) أي في اواخر عمر النبيﷺ المبارك حيث كان قد تم بيان كافة الاركان المهمة للاسلام[١].

٣ـ ان عبارات الاية تدلل على ان القضية المقصودة من الآية كانت مسألة قد اتخذ البعض ازاءها موقفا متصلباً، ولربما تعرضت حياة النبيﷺ الى الخطر بسببها، من هنا اعلن الباري تعالى دعمه الخاص لنبيه في هذا الصدد وقال:

﴿وَ اللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾.

ثم يؤكد تعالى في نهاية الآية:

﴿إِنَّ اللهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ﴾.

وهذه العبارة بحد ذاتها دليل على المواقف السلبية لبعض المخالفين.

انَّ مجموع هذه الامور الثلاثة التي تستنتج من الآية تؤكد على ان المراد منها

---

١ ـ يقول الفخر الرازي في ذيل هذه الآية: قال اصحاب الآثار انه لما نزلت هذه الآية على النبيﷺ لم يعمر بعد نزولها الا احد وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً (التفسير الكبير): ج ١١، ص ١٣٩. وجاء في تفسير المنار ايضاً وبعض الكتب الاخرى ان سورة المائدة جميعها نزلت في حجة الوداع (المنار، ج ٦، ص ١١٦) وبالطبع فقد نقل البعض بشأن عدد الايام اعلاه، اقل من ذلك.

ليس الا ابلاغ خلافة ووصاية النبي صلى الله عليه وآله.

نعم، فمثل هذا الامر يمكن ان يحظى بالبحث والتمعن في اواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله، وليس سائر دعائم الإسلام التي كانت قد بُينت انذاك، ومثل هذا الامر باستطاعته ان يكون مرادفاً للنبوة ومماثلاً لها، وربما تثار الاعتراضات نتيجة لاظهار مثل هذا الأمر قبل هذا الوقت ويكمن فيه الخوف من الخطر.

ان اي تفسير آخر يعطىٰ للآية اعلاه عدا ما يتعلق بالولاية والامامة والخلافة، لاينسجم معها.

فلو طالعتم جميع كلمات المفسرين الذين ارادوا صرف مضمون الآية الى قضايا اخرىٰ، لم يستطع اي منهم ان يُشير الىٰ الامر الذي تؤكد عليه الآية، وهذا ما حدا بهم الىٰ ان يتوقفوا عن تفسيرها.

توضيحات:

١ـ معنىٰ الولاية والمولىٰ في حديث الغدير

لقد اطلعنا علىٰ حديث الغدير المتواتر بشكل اجمالي، والعبارة المشهورة التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع الكتب وهي: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه توضح الكثير من الحقائق، وان أصرّ كثيرٌ من كتاب اهل السنّة علىٰ تفسير كلمة «المولىٰ» هنا بمعنىٰ «الصديق والمحبّ والناصر»، لانّ هذا أحد المعاني المعروفة لـ«المولىٰ».

ونحن نسلّم بانّ احدىٰ معاني «المولىٰ» الصديق والمحب والناصر، إلّا انّ ثمة قرائن عديدة تثبت انّ المولىٰ في الحديث اعلاه تعني «الولي والمشرف والقائد» وهي كما يلي بايجاز:

١ـ ان قضية محبة علي عليه السلام مع جميع المؤمنين لم تكن امراً خفياً وسرياً ومعقداً، بحيث يحتاج الىٰ هذا التأكيد والايضاح، وبحاجة الىٰ ايقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة والقاء خطبة عليهم لأخذ الاقرارات من ذلك الجمع.

فالقرآن يقول بصريح القول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات / ١٠).

وفي موضع آخر يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة / ٧١).

والخلاصة، ان الاخوة الاسلامية ومودة المسلمين مع بعضهم من اكثر المسائل الاسلامية بداهة، حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، وطالما اكد عليها النبيُّ ﷺ مراراً بالاضافة الىٰ عدم كونها مسألة تحتاج الىٰ بيان بهذا الاسلوب الحاد في الآية، وان يشعر النبي ﷺ بالخطر من البوح بها (تأملوا جيداً).

٢ـ ان عبارة: «أَلَسْت اولىٰ بكم من أنفسكم» الواردة في الكثير من الروايات لاتتناسب ابداً مع بيان مودّة عادية، بل انه يريد القول بان تلك الاولوية والتصرف الذي لي تجاهكم وانني امامكم وقائدكم، فانه ثابت لعلي عليه السلام، وان اي تفسير لهذه العبارة غير ما قيل فهو بعيد عن الانصاف والواقعية، لاسيما مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «من أنفسكم» (انا اولىٰ بكم من انفسكم).

٣ـ التهاني التي قدمها الناس لعلي عليه السلام في هذه الواقعة التاريخية، لاسيما التهاني التي قدمها ابو بكر وعمر، اذ أنها تبرهن علىٰ ان القضية لم تكن سوىٰ تعيين الخلافة التي يستحق التبريك والتهاني، فالاعلان عن المودة الثابتة لدىٰ كل المسلمين بشكل عام لا يحتاج الىٰ تهنئة.

جاء في مسند الامام احمد ان عمراً، قال لعلي بعد خطبة النبي ﷺ:

هنيئاً لك ياابن ابي طالب اصبحت وامسيت مولىٰ كل مؤمن ومؤمنة [١].

ونقرأ في العبارة التي ذكرها الفخر الرازي في ذيل الآية: ﴿يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ان عمراً قال: هنيئاً لك اصبحت مولاي ومولىٰ كل مؤمن ومؤمنة، وبهذا فإن عمراً يعده مولاه ومولىٰ المؤمنين جميعاً.

---

١ ـ مسند احمد: ج ٤، ص ٢٨١ (علىٰ ضوء نقل الفضائل الخمسة، ج ١ص ٤٣٢).

وفي تاريخ بغداد جاءت الرواية بهذا الشكل: **بخٍ بخٍ لك ياابن ابي طالب! اصبحت مولاي ومولىٰ كل مسلمٍ**[١].

وجاء في «فيض القدير»، «والصواعق»، ان ابا بكرٍ وعمراً باركا لعلي بالقول: **امسيت ياابن ابي طالب مولىٰ كل مؤمن ومؤمنة**[٢].

ومن نافلة القول: ان المودة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، وهذا لاينسجم إلّا مع الولاية التي تقضي الخلافة.

٤ـ ان الشعر الذي نقلناه آنفاً عن «حسان بن ثابت» بذلك المضمون والمحتوىٰ الرفيع، وتلك العبارات الصريحة والجلية شاهد آخر علىٰ هذا الادعاء، وتشير الىٰ هذه القضية بما فيه الكفاية (راجعوا تلك الايات مرة آخرىٰ).

٢ ـ سائر آيات القرآن في تأييد حديث الغدير

رویٰ كثيرٌ من المفسرين ورواة الحديث في ذيل الآيات الاولىٰ من سورة المعارج: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ شأن النزول وخلاصتُهُ:

ان النبي ﷺ عين علياً خليفة يوم غدير خم وقال بحقه: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»، فما لبث ان انتشر الخبر، فجاء «النعمان بن الحارث الفهري» ـ (وكان من المنافقين)[٣] ـ الىٰ النبي ﷺ وقال: لقد أمرتنا ان نشهد ان لا اله إلّا الله وانك محمد رسول الله، فشهدنا، ثم امرتنا بالجهاد والحج والصلاة والزكاة فقبلنا، فلم ترض بكل ذلك، حتىٰ اقمت هذا الفتىٰ «مشيراً الىٰ عليّ ؑ» خليفة لك، وقلت: مَنْ كنتُ مولاه

---

١ ـ تاريخ بغداد: ج ٧، ص ٢٩٠.

٢ ـ فيض القدير: ج ٦، ص ٢١٧ ـ الصواعق، ص ١٠٧.

٣ ـ جاء في بعض الروايات انه «الحارث بن النعمان» وفي بعضها «النضر بن الحارث».

فعليّ مولاه فهل هذا منك ام من الله»؟ قال النبي ﷺ «والله الذي لا معبود سواه انه من الله»، فالتفت إليه «النعمان بن الحارث»، وقال: «إلهي ان كان هذا حقاً منك فانزل علينا حجارة من السماء»!

وفجأةً نزلت حجارة من السماء علىٰ رأسه وقتلته فنزلت آية ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

ما ورد اعلاه يطابق الرواية التي نقلت في مجمع البيان عن ابي القاسم الحسكاني وقد نقل هذا المضمون الكثير من مفسري اهل السنّة ورواة الاحاديث مع شيء من الاختلاف، مثل: القرطبي في تفسيره المعروف[1]، والآلوسي في تفسير روح المعاني[2]، وابو اسحاق الثعلبي في تفسيره[3].

وينقل العلّامة الاميني هذه الرواية في كتاب الغدير عن ثلاثين من علماء السنة (مع ذكر المصدر ونص العبارة)، منها السيرة الحلبية، «فرائد السمطين» للحمويني، «درر السمطين» للشيخ محمد الزرندي، و«السراج المنير» لشمس الدين الشافعي، «شرح الجامع الصغير» للسيوطي، و«تفسير غريب القرآن» للحافظ ابو عبيد، الهروي، و«تفسير شفاء الصدور» لابي بكر النقاش الموصلي، وكتب أُخرىٰ.[4]

---

١ ـ الجامع لاحكام القرآن: ج ١٠، ص ٦٧٥٧.

٢ ـ روح المعاني: ج ٢٩، ص ٥٢.

٣ ـ وفقاً لنقل نور الابصار للشبلنجي: ص ٧١.

٤ ـ نفحات القرآن ج ٩ ص ١٦١ ـ ١٧٣.

٨١

ما هو المقصود من الولاية التكوينيّة و الولاية التشريعيّة؟

☑ نحن نعلم ان الولاية على نحوين:

١ ـ الولاية التشريعية.

٢ ـ الولاية التكوينية.

المراد من الولاية التشريعية هو الحكم والاشراف القانوني والالهي الذي يكون تارة بشكل محدود كولاية الاب والجد على الصغير، وتارة بشكل واسع وشامل كولاية الحاكم الاسلامي على كافة القضايا المتعلقة بـ«الحكومة» و «ادارة الامة الاسلامية».

أما المراد من الولاية التكوينية، هو قدرة الانسان على التصرف بصالح الخلق والتكوين بامر الله واذنه، والاتيان بافعال خلافاً للمعتاد والمسيرة الطبيعية لعالم الاسباب، فمثلاً يبريء المريض الذي لا علاج له باذن الله، وذلك من خلال الهيمنة والنفوذ الذي وهبه الله تعالىٰ له، أو يحيي الموتىٰ، واعمال اخرى من هذا القبيل، وكل اشكال التصرف المعنوي غير الاعتيادي في ارواح واجسام البشر، وهذا النوع

يشمل الطبيعة ايضاً.

و ربما تكون لـ«الولاية التكوينية» اربع حالات بعضها «مقبولة» وبعضها «غير مقبولة».

١ـ«الولاية في امر الخلقة وخلق العالم»:

بمعنى ان الله تبارك وتعالىٰ يمنح عبداً من عباده أو ملكاً من ملائكته قدرة خلق العوالم أو محوها من الوجود، ومن المسلم به ان هذا الامر ليس مستحيلاً، لان الله على كل شيء قدير وقادرٌ على منح اي نحو من القدرة لاي انسان، بيد أن آيات القرآن تؤكد في كل المواضع على ان خلق عالم الوجود والسموات والارضين والجن والانس والملائكة والنباتات والحيوانات والجبال والبحار قد حصل بقدرة الله جل وعلا، لا عن طريق عباده الخاصين أو ملائكته، لذا فقد نسب الخلق اليه في جميع الاحوال، ولم ينسب هذا الامر الىٰ غيره «بنحو واسع» في اي موضع ابداً، وعليه فان خالق السموات والارضين والنبات والحيوان والانسان هو الله وحده.

٢ـ«الولاية التكوينية في ايصال القبض»:

بمعنى ان كل امداد ورحمة وبركة وقدرة من قبل الله تعالى تصل الى عباده أو سائر الكائنات في عالم الوجود بواسطة اولياء الله وخاصة عباده، كمياه الشرب بالنسبة للبيوت في مدينة ما التي تمر من خلال الانبوب الرئيس وهذا الانبوب الكبير يستلم المياه من مصدرها ويوصلها الى جميع النقاط، ويعبر عنه بـ«الواسطة في الفيض».

وهذا المعنى ليس محالاً ايضاً من الناحية العقلية، ويشاهد نموذجه في العالم الصغير، وبناء الانسان، وتوزيع المواد الغذائية الى كافة الخلايا عن طريق شريان القلب، فما المانع من ذلك في العالم الكبير ايضاً؟

ولكن مما لا شك فيه ان اثباته بحاجة الى دليل مقنع. واذا ما ثبت فهو باذن الله تعالىٰ.

٣ـ ولاية تكوينية في حدود معينة:

كاحياء الموتىٰ وشفاء المرضىٰ الذين لا علاج لهم ونحو ذلك.

وقد وردت نماذج من هذا النوع من الولاية بشأن بعض الانبياء في القرآن الكريم بصراحة، والروايات الاسلامية شاهد على ذلك ايضاً. من هنا فان هذا الفرع من الولاية التكوينية ليس ممكناً من ناحية العقل فحسب. بل هنالك ادلة نقلية عليه ايضاً.

٤ـ الولاية التي تعني الدعاء من اجل تحقيق المطالب:

ويأتي ذلك بقدرة الله تعالىٰ. بهذا فان النبيﷺ أو الامام المعصوم يدعو فيتحقق ما طلبه من الله تعالىٰ.

وهذا المعنى ليس فيه اي محذور عقلي ولا نقلي، وان الآيات والروايات مليئة بنماذج منه. بل ربما لا يمكن اطلاق اسم الولاية التكوينية عليه لان استجابة دعائه تأتي من قبل الله تعالى.

ويشاهد في الكثير من الآيات اشارات الى الـ«الاسم الاعظم» الذي كان لدى الانبياء والائمة أو بعض اولياء الله (من غير الانبياء والائمة)، ومن خلاله كانوا يستطيعون التصرف بعالم التكوين.

وبغض النظر عن المراد من «الاسم الاعظم» فإن مثل هذه الروايات ربما تكون ناظرة الى القسم الثالث من الولاية التكوينية وتنطبق عليه بشكل تام.[١]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٩ ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

٨٢

ما هي ماهية البيعة، و ماهو الفرق بينها و بين الانتخابات؟

☑ ماهيّة البيعة هي نوع من العقد والمعاهدة بين المبايع من جهة والمبايَع من جهة أخرىٰ، ومحتواها الطاعة والإتّباع والدفاع عن المبايَع، ولها درجاتٌ طبقاً للشروط الذي يذكرونها فيها: ويستفاد من لحن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنّ البيعة نوع من العقد اللازم من جهة المبايع، ويجب العمل طبقاً لما بايع عليه، ويكون مشمولاً بالقانون الكلّي «أوفوا بالعقود» فعلىٰ هذا لا يحقّ للمبايع الفسخ، ولكن المبايَع له أن يفسخ البيعة إن وجد في الأمر صلاحاً وفي هذه الصور يتحرر للمبايع من بيعته[١].

ويرىٰ البعض أنّ البيعة شبيهة بالإنتخابات أو نوعاً منها، في حين أنّ الإنتخابات علىٰ العكس منها تماماً، أي أنّ ماهيتها نوع من إيجاد المسؤولية الوظيفة والمقام

---

١ ـ نقرأ في حادثة كربلاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه ليلة العاشر من المحرم وأحلّ بيعته من أصحابه بعد أن أظهر تقديره لهم وشكرهم علىٰ مواساتهم إيّاه لينطلقوا حيث يشاؤون فقال: «انطلقوا في حِلٍّ منّي ليس عليكم منّي ذمام» لكنّهم لم يتركوا الحسين عليه السلام وبقوا علىٰ وفائهم [الكامل: لابن الأثير، ج ٤، ص ٥٧].

للمنتخب، أو بتعبير آخر هي نوع من التوكيل في عملٍ ما بالرغم من أنّ الإنتخاب يقتضي وظائف علىٰ المنتخِب أيضاً «كسائر الوكالات» في حين أنّ البـيعة ليست كذلك!

وبتعبير آخر إنّ الإنتخابات تعني إعطاء «المقام» وكما قلنا هي شبيهة بالتوكيل في حين أنّ البيعة تعهد بالطاعة!

ومن الممكن أن يتشابه كلٌّ من البيعة والإنتخاب في بعض الآثـار، لكـن هـذا التشابه لا يعني وحدة المفهوم والماهية أبداً..

ولذلك لا يمكن للمبايع أن يفسخ البيعة، في حين أنّ المنتخبين لهم الحق فـي الفسخ في كثير من المواطن بحيث يستطيع جماعةٌ ما أن يعزلوا المنتخب «فلاحظوا بدقة»![1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٦/ ٤٦٢.

٨٣

هل للبيعة تأثيرٌ في وجوب طاعة النّبي أو الإمام؟

☑ بالنسبة للنبي ﷺ والأئمّة المعصومين المنصوبين من قبل الله تعالىٰ لا حاجة لهم بالبيعة، أي أنّ طاعة النّبي ﷺ والإمام المعصوم والمنصوب من قبل الله واجبة سواءً علىٰ من بايع أو لم يبايع!

وبتعبير آخر: إنّ لازم مقام النبوّة والإمامة وجوب الطاعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١].

لكن ينقدح هنا هذا السؤال وهو إذا كان الأمر كذلك فعلامَ أخذ النّبي من أصحابه ـ البيعة كراراً ـ أو المسلمين الجدد، وقد ورد في القرآن الإشارة إلىٰ حالتين منها بصراحة إحداهما «بيعة الرضوان» ـ محل البحث ـ والأُخرىٰ «البيعة مع أهل مكّة» المشار إليها في سورة الممتحنة!.

وفي الإجابة علىٰ هذا السؤال نقول: لا شك أنّ هذه المبايعات كانت نوعاً من التأكيد علىٰ الوفاء، وقد أُديّت في ظروف خاصة ولا سيما في مواجهة الأزمات

١ ـ النساء، الآية ٥٩.

والحوادث الصعبة لتنبض في ظلّها روح جديدة في الأفراد كما وجدنا تأثيرها المذهل في بيعة الرضوان في البحث السابق!..

إلّا أنّه فيما يتعلّق بمبايعة الخلفاء فقد كانت البيعة علىٰ أساس أنّها قبول لمقام الخلافة وإن كنّا لا نعتقد بخلافة من يخلف النّبي والتي تؤخذ البيعة لها عن طريق الناس، بل هي من قبل الله وتتحقّق بالنص من قِبل النّبي أو الإمام السابق علىٰ اللاحق!

ومن هذا المنطلق فإنّ البيعة التي بايعها المسلمين لعلي عليه السلام أو للحسن أو الحسين عليهما السلام فيها (جنبة) تأكيد علىٰ الوفاء وهي شبيهة ببيعة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ويستفاد من بعض عبارات النهج أنّ البيعة ليست أكثر من مرة واحدة ولا سبيل لتجديد النظر فيها وليس فيها اختيار الفسخ، ومن يخرج منها فهو طاعن، ومن يتريث ويفكر في قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بيعة واحدة لا يثنّىٰ فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار؛ الخارج منها طاعن والمروّي فيها مداهن](١).

ويستفاد من مجموع هذه التعابير أنّ الإمام عليه السلام استدلّ علىٰ من لم يقبلوا بأنّ إمامته منصوص عليها من قِبل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكانوا يتذرّعون بحجج واهية ـ بالبيعة التي كانت عندهم من المسلم بها، ولم تكن لهم الجرأة علىٰ أن يرفضوا طاعة الإمام ويسمعوا لمعاوية وأمثال معاوية. فكما أنّهم يرون مشروعية الخلافة للخلفاء الثلاثة السابقين، فعليهم أن يعتقدوا بأنّ خلافة الإمام مشروعة أيضاً وأن يذعنوا له «بل إنّ خلافته أكثر شرعيةً لأنّ بيعته كانت أوسع وكانت حسب رغبة الناس ورضاهم».

فبناءً علىٰ هذا لا منافاة بين الاستدلال بالبيعة ومسألة نصب الإمام بواسطة الله والنّبي صلى الله عليه وآله وسلم وتأكيد البيعة.

---

١ ـ نهج البلاغة: من كتاب له برقم ٧.

لذلك فإنّ الإمام يشير في مكانٍ من (نهج البلاغة) نفسه بحديث الثقلين الذي هو من نصوص الإمامة[١] كما يشير في مكان آخر إلىٰ مسألة الوصية والوراثة[٢]. [فلاحظوا بدقّة].

كما يشير عليه السلام في بعض عباراته الأُخرىٰ إلىٰ لزوم الوفاء بالبيعة وعدم إمكان الفسخ والنكث وتجديد النظر وعدم الحاجة إلىٰ التكرار وهذه هي مسائل مقبولة بالنسبة للبيعة أيضاً.

ويستفاد من هذه التعابير ضمناً بصورة جيّدة أنّ البيعة إذا كانت فيها «جنبة» إكراه أو إجبار أو أخذت علىٰ حين غرّة من الناس فلا عبرة بها ولا قيمة لها بل البيعة الحق التي تكون في حال الاختيار والحرية والإرادة والتفكّر والتدبّر.

وينبغي الإلتفات إلىٰ هذه «اللطيفة» وهي أن مقام نيابة الوليّ الفقيه في نظرنا مقام منصوص عليه من قبل الأئمة المعصومين عليهم السلام ولا حاجة له بالبيعة وبالطبع فإنّ اتباع الناس للولي الفقيه وطاعتهم له يمنحه الإمكان من الاستفادة من هذا المقام ويعطيه ـ كما هو مصطلح عليه ـ بسط اليد، لكنّ هذا لا يعني أنّ مقامه مشروط بتبعيّة الناس له، ثمّ إنّ اتباع الناس إيّاه لا علاقة له بالبيعة، بل هو عمل بحكم الله في شأن ولاية الفقيه «فلاحظوا بدقّة»[٣].

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة رقم ٨٧.
٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢.
٣ ـ تفسير الأمثل: ١٦/٤٦٣ ـ ٤٦٧.

٨٤

هل يصح اسلام غلامٍ في العاشرة من عمره؟

هذا السؤال، سؤال معروف كان مطروحاً بين بعض «المرجفين» منذ القرون الأولىٰ لظهور الإسلام، وهو «صحيحٌ أنّ عليّاًعليه‌السلام اوّل من أسلم من الرجال ،ولكن: هل يصح اسلامٌ غلامٍ في العاشرة من عمره؟» ولو سلّمنا بجعل زمان بلوغه معياراً فإنّ جمعاً آخر آمنوا بالإسلام قبله على هذا الأساس.

☑ من المناسب أن نورد هنا المحاججة التي جرت بين «المأمون» الخليفة العباسي، مع أحد علماء أهل السنّة المعروفين في عصره ويُدعىٰ «اسحاق»، وقد أورد هذا الحديث «ابن عبد ربّه»، في «العقد الفريد».

إذ قال له: «المأمون»: يا اسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

قال اسحاق: الاخلاص بالشهادة، قال المأمون: أليس السبق إلى الإسلام؟ قال: إنّ عليّاً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبوبكر أسلم و هو مستكمل يجوز عليه الحكم... فقال المأمون: أخبرني عن اسلام علي حين أسلم؟ فهل يخلو رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلف ذلك من

نفسه؟ ثمّ قال: يا اسحاق لا تنسب رسول الله إلى التكلف فإن الله يقول: و ما أنا من المتكلّفين، قال اسحاق: دعاه بأمر الله. قال المأمون: فهل من صفة الجبار جلّ ذكره أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم قد تكلف رسول الله ﷺ من دعاء الصبيان ما لا يطيقون... أترىٰ هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى رسول الله ﷺ؟ قال اسحاق: أعوذ بالله[١].

ويضيف المرحوم العلامة الأميني رحمه الله بعد نقله هذا الحديث من «العقد الفريد»: قال ابو جعفر الاسكافي المعتزلي المتوفي سنة ٢٤٠ في رسالته: قد روى الناس كافّة افتخار علي عليه السلام بالسبق إلى الإسلام وأنّ النّبي ﷺ استنبىء يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء، وأنّه كان يقول: صليت قبل النّاس سبع سنين و أنّه ما زال يقول: أنا أوّل من أسلم و يفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه، وما دحوه، وشيعته في عصره، وبعد وفاته، والأمر في ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من النّاس فيما خلا استخف باسلام علي عليه السلام، ولا تهاون به، ولا زعم أنّه أسلم إسلام حدث غرير و طفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثّر القلة علىٰ الكثرة[٢].

وخلاصة الحديث توضح من خلال النقاط التالية:

أوّلاً: انّ رسول الله ﷺ قَبِل اسلام علي عليه السلام، و من لم يقرّ باسلامه في ذلك السنّ، فإنّه في الواقع انّما يُشكل على الرسول الأكرم ﷺ.

ثانياً: من خلال الروايات المشهور التي تمت الاشارة إليها آنفاً ورد في قصّة يوم الدار أنّ الرسول الأكرم ﷺ، اعدّ طعاماً ودعا عشيرية الاقربين من قريش لتناول

---

١ ـ العقد الفريد: ج ٣، ص ٤٣، بشكل مختصر.

٢ ـ الغدير: ج ٣، ص ٢٣٧.

الطعام ودعاهم للإسلام وأنّ: أوّل من يلبي دعوته صلى الله عليه وآله في الدفاع عن الإسلام سيكون أخاه ووصيه، فلم يلب أحد دعوته صلى الله عليه وآله سوىٰ علي بن أبي طالب، حيث قال عليه السلام: «أنا اعينك وأبايعك»، فقال صلى الله عليه وآله: «أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي».

فهل يصدّق أحد أنّ الرسول الأكرم يتخذ ـ من لم يبلغ في ذلك اليوم سنّ البلوغ، ولم يكن اسلامه مقبولاً أيضاً بعد حسب قول المرجفين ـ أخاً ووصيّاً وخليفة له من بعده ويدعو الآخرين لمؤازرته إلى أن يصل الأمر ليقول رؤوس الشرك لأبي طالب مستهزئين: يجب أن تسمع لابنك وتؤازره.

إنّ سن البلوغ ليس شرطاً في صحّة الإسلام بدون أدنىٰ شك، فكل صبّي مميز عاقل بما فيه الكفاية يؤمن بالإسلام على فرض عدم اسلام أبيه، يفصل عن أبيه ويحتسب في زمرة المسلمين.

ثالثاً: يستفاده من القرآن الكريم بأنّ البلوغ ليس شرطاً حتى في النبوّة، وان بعض الأنبياء بلغوا هذا المقام في سنّ الطفولة، كما يقول تعالى بخصوص النّبي يحيىٰ ﴿وَ ءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٢).

وقد جاء كذلك في قصّة عيسىٰ عليه السلام أنّه قال بصريح الكلام حين طفولته: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠).

واكثر من هذه الأمور جميعاً أنّ رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قَبِل علياً عليه السلام حتى أنّه اتخذه في يوم الدار أخاً ووصيّاً ووزيراً وخليفة له من بعده.

وعلى أي حال فإنّ الروايات التي تقول بأنّ علياً عليه السلام هو أوّل من قَبِل دعوة الرسول صلى الله عليه وآله تعد فضيلة لامثيل لها للإمام لا يساويه فيها أحد، ولهذا السبب فإنّه أفضل الأمّة لخلافة الرسول صلى الله عليه وآله.[١]

---

١ ـ نفحات القرآن، ج ٩، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧.

٨٥

لماذا شرب الإمام الحسن عليه السلام من مـاء الجـرّة المســموم و تناول الإمام الثامن من العنب المسموم؟

☑ لا كلام في مسألة اطلاع الانبياء والائمة المعصومين عليهم السلام علىٰ علم الغيب عن طريق التعليم الالهي.

لكن هناك كلاماً مطوّلاً حول كيفية هذا العلم ومساحته، وهذه المسألة تُعدّ من اعقد المسائل التي تواجَه في مثل هذه الابحاث، وقد وردت بحقّها اخبار متفاوتةً كما وتلاحظ هنالك آراء متنوعة من قبل العلماء ايضاً، ومجموع هذه الاحتمالات الاساسية في هذه المسألة كالتالي:

انهم يعلمون كل هذه الامور لكن «بالقوة» لا «بالفعل»، اي انهم كلما شاؤا ان يعلموا شيئاً من اسرار الغيب الهمهم الله به، او انهم يمتلكون قواعد واصول يستندون عليها للاطلاع علىٰ كل اسرار الغيب، او ان معهم كتباً يطلعون علىٰ اسرار الغيب من خلال التأمل فيها، او انهم يعلمون بهذه الاسرار كلما شاء الله ذلك، اي كلما منحهم حالة البسط إصطلاحاً، في حين ان هذه العلوم تختفي عند عودة المشيئة وحصول حالة القبض كما يصطلح علىٰ ذلك.

الدليل علىٰ هذا القول (في الحالة الاولىٰ) هو الروايات القائلة: ان الائمة والقادة المعصومين اذا ارادوا ان يعلموا شيئاً علموه، وقد عقد المرحوم الكليني في اصول الكافي باباً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «ان الائمة اذا شاؤا ان يعلموا علموا»[١].

هذا البيان يحل الكثير من المشاكل المتعلقة بعلم الانبياء والائمة ايضاً، من جملتها انه لماذا شرب الامام الحسنعليه السلام مثلاً من ماء الجرّة المسموم؟، وتناول الامام الثامنعليه السلام العنب او الرمان المسموم؟ لماذا انتخبوا فلاناً غير المناسب للقضاء او القيادة؟ ولماذا كان يعقوب قلقاً الىٰ ذلك الحد علىٰ ابنه؟ مع ان ابنه كان يتدرج في المناصب الحساسة، ثم استبدل الفراق الىٰ الوصال في خاتمة المطاف، لماذا... ولماذا...؟

يمكن القول انهم وفي كل هذه الموارد لو شاؤا ان يعلموا لعلموا، لكنهم كانوا يعلمون ان الله لم يجز لهم الاطّلاع اما اختباراً او لمصالح اخرى.

يمكن توضيح هذه المسألة بذكر هذا المثال: لو اعطىٰ احد رسالة حاوية على اسماء اشخاص او مناصبهم او علىٰ حقائق سرية اخرى، لشخص اخر.

فبامكان ذلك الشخص الاطلاع علىٰ هذه الحقائق بمجرد فتح الرسالة، لكن حيث أنها لم تفتح بعد فليس له اطلاع علىٰ محتواها، كما إنّ الشخص المهم الذي اعطاه الرسالة كان قد أوكل فتح الرسالة باذنه واجازته هو.[٢]

---

١ ـ المصدر نفسه الصفحة ٢٥٨ (ذكرت في هذا الباب ثلاث روايات بنفس هذا المضمون)، كما اشار إليها المرحوم العلامة المجلسي في مرآة العقول الجزء ٣، الصفحة ١١٨.

٢ ـ نفحات القرآن ج ٧ ص ٢٥١ ـ ٢٥٣.

٨٦

ماهي فلسفة الإنتظار؟

☑ الإعتقاد بظهور المهدي (عج) لم يكن ممّا طرأ على التعاليم الإسلامية، بل هو من أكثر المباحث القطعية المأخوذة عن مؤسس دعائم الإسلام صلوات الله عليه، ويتفق على ذلك عموم الفرق الإسلامية، والأحاديث في هذا الشأن متواترة أيضاً.

والآن لنقف على آثار الإنتظار في المجتمعات الإسلامية وما هي عليه من أحوال، لنرىٰ هل أن الإيمان بظهور الإمام المهدي عليه السلام يجعل الانسان عارفاً في الوهم والخيال ثمّ ليستسلم لجميع الظروف، أو هو نوع من الدّعوة إلى النهوض وبناء الإنسان والمجتمع؟!

هل يدعو إلى التحرك، أم إلى الركود؟

هل يبعث في الانسان روح المسؤولية، أم هو مدعاة للفرار منها؟

وأخيراً: أهو مخدّر، أم موقظ؟

إلّا أنّه قبل أن نوضح الإجابة على هذه الأسئلة ـ لابدّ من الإلتفات إلى هذه الملاحظة وهي أن أسمى المفاهيم وأكرم الدساتير متى ما وقعت في أيدي أناس

جهلة أو غير جديرين بها، فمن الممكن أن تُمسخ بسوء استفادتهم فتكون النتيجة خلافاً للهدف الأصلي تماماً وتتعاكس في المسار، ومثل هذا واقع بكثرة، وسنرى أن مسألة انتظار المهدي عليه السلام من هذه المسائل أيضاً.

ومن أجل تحاشي والأخطاء والإشتباهات في مثل هذه المباحث، ينبغي ـ كما قيل ـ أن ننهل الماء من معينه العذب، لئلانجد فيه كدر الأنهار أو السواقي المشوبة. أي علينا أن نراجع النصوص الإسلامية الأصيلة مباشرة وأن نفهم الإنتظار من لسان رواياتها المختلفه، حتى نطّلع على الهدف الأصليّ منها!

الرّوايات الشّريفة:

١ ـ سأل بعضهم الإمام الصّادق عليه السلام: **ما تقول في رجل موالٍ للأئمّة عليهم السلام وينتظر ظهور حكومة الحق، ثمّ يموت وهو على هذه الحال؟!**

فقال الإمام الصادق عليه السلام: **هو بمنزلة من كان مع القائم في فسطاطه. ثـمّ سكت هنيئة، ثمّ قال: هو كمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله**[1].

وهذا المضمون نفسه ورد في روايات متعددة بتعابير مختلفة:

٢ ـ إذ جاء في بعضها: **بمنزلة الضارب بسيفه في سبيل الله.**

٣ ـ وفي بعضها: **كمن قارع مع رسول الله بسيفه.**

٤ ـ وفي بعضها: **بمنزلة من كان قاعداً تحت لواء القائم.**

٥ ـ وفي بعضها: **بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله.**

٦ ـ وفي بعضها: **بمنزلة من اسُتشهد مع رسول الله.**

فهذه التشبيهات السبعة في الرّوايات الست المذكورة، آنفاً في شأن المهدي عليه السلام، تبيّن هذه الواقعية وهي أنّ هناك علاقه وارتباط بين مسألة الإنتظار مـن جـانب،

---

١ ـ محاسن البرقي، طبقاً لما ورد في البحار، الطبعة القديمة، ج ١٣، ص ١٣٦.

وجهاد العدوّ في أشدّ أشكاله من جانب آخر «فتأملوا بدقّة».

٧ ـ كما ورد في روايات متعددة أن انتظار مثل هذه الحكومة الحقة من أفضل العبادات، وهذا المضمون ورد في بعض أحاديث النّبيﷺ وكلام الإمام أميرالمؤمنين عليؑ.

فقد ورد عن النّبيﷺ أنّه قال: «أفضل أعمال أُمّتي إنتظار الفرج من الله عزّوجلّ».[1]

وقالﷺ في حديث آخر: «أفضل العبادة انتظار الفرج».[2]

وهذان الحديثان يشيران إلى انتظار الفرج، سواء الفرج بمفهومه الواسع العام أو بمفهومه الخاص أي انتظار ظهور المصلح ويبيّنان أهمية الإنتظار بجلاء أيضاً.

ومثل هذه التعابير تعني أنّ الإنتظار معناه الثورية المقرونة بالتهيؤ للجهاد، فلابدّ أن نتصوّر هذا المعنى لنفهم المراد من الإنتظار، ثمّ نحصل على النتيجة المتوخاة.

مفهوم الإنتظار!

الإنتظار: يطلق عادةً على من يكون في حالة غير مريحة وهو يسعى لإيجاد وضع أحسن.

فمثلاً المريض ينتظر الشفاء من سقمه، أو الأب ينتظر عودة ولده من السفر، فهما أي المريض والأب مشفقان، هذا من مرضه وذاك من غياب ولده، فينتظران الحال الأحسن ويسعيان من أجل ذلك بما في وسعهما.

وكذلك ـ مثلاً ـ حال التّاجر الذي يعاني الأزمة السوقية وينتظر النشاط

---

١ ـ الكافي، حسب ما جاء في البحار، ص ١٣٦ و ١٣٧.

٢ ـ المصدر السّابق.

الإقتصادی. فهاتان الحالتان أي: الاحساس بالأزمة، والسعيُ نَحْوَ الأحسن هما من الإنتظار.

فبناءً على ذلك، فإنّ مسألة إنتظار حكومة الحق والعدل، أي حكومة «المهدي عليه السلام» وظهور المصلح العالمي، مركبة في الواقع من عنصرين: عنصر نفي، وعنصر إثبات، فعنصر النفي هو الإحساس بغرابة الوضع الذي يعانيه المنتظر، وعنصر الإثبات هو طلب الحال الأحسن!

وإذا قُدّر لهذين العنصرين أن يحلّا في روح الإنسان فإنّهما يكونان مدعاة لنوعين من الأعمال وهذان النوعان هما:

١ ـ ترك كل شكل من أشكال التعاون مع أسباب الظلم والفساد، بل عليه أن يقاومها، هذا من جهة.

٢ ـ وبناء الشخصية والتحرك الذاتي وتهيئة الإستعدادات الجسمية والروحية والمادية والمعنوية لظهور تلك الحكومة العالمية الإنسانية، من جهة أُخرىٰ.

ولو أمعنّا النظر لوجدنا أنّ هذين النوعين من الأعمال هما سبب في اليقظة والوعي والبناء الذاتي.

ومع الإلتفات إلى مفهوم الإنتظار الأصيل، ندرك بصورة جيدة معنى الرّوايات الواردة في ثواب المنتظرين وعاقبة أمرهم، وعندها نعرف لم سمّت الرّوايات المنتظرين بحقّ بأنّهم بمنزلة من كان مع القائم تحت فسطاطه «عجل الله فرجه» أو أنّهم تحت لوائه، أو أنّهم كمن يقاتل في سبيل الله بين يديه كالمستشهد بين يديه، أو كالمتشحط بدمه! ... الخ ... .

تُرى أليست هذه التعابير تشير إلى المراحل المختلفة ودرجات الجهاد في سبيل الحق والعدل، التي تتناسب ومقدار الإستعداد ودرجة انتظار الناس؟

كما أنّ ميزان التضحية ومعيارها ليس في درجة واحدة، إذا أردنا أن نزن تضحية المجاهدين، في سبيل الله ودرجاتهم وآثار تضحياتهم، فكذلك الإنتظار وبناء

الشخصيّة والإستعداد، كل ذلك ليس في درجة واحدة، وإن كان كلّ من هذه «العناوين» من حيث المقدمات والنتائج يشبه العناوين آنفة الذكر. فكلّ منهما جهاد وكل منهما استعداد وتهيؤ لبناء الذات، فمن هو تحت خيمة القائد وفي فسطاطه يعني أنّه مستقر في مركز القيادة، وعند آمرية الحكومة الاسلامية! فلا يمكن أن يكون إنساناً غافلاً جاهلاً، فذلك المكان ليس مكاناً لكل أحد وإنّما هو مكان من يستحقه بجدارة!

فكذلك الأمر عندما يقاتل المقاتل بين يدي هدا القائد أعداء حكومة العدل والصلاح، فعليه أن يكون مستعداً بشكل كامل روحياً وفكرياً وقتالياً.

ولمزيد التعرف على الآثار الواقعية لإنتظار ظهور المهدي عليه السلام لاحظوا التوضيح التّالي:

الإنتظار يعني الإستعداد الكامل:

إذا كنتُ ظالماً مجرماً، فكيف يتسنىٰ لي أن أنتظر من سيفه متعطش لدماء الظالمين؟!

وإذا كنتُ ملوّثاً غير نقي فكيف أنتظر ثورة يحرق لهبها الملوّثين؟!

والجيش الذي ينتظر الجهاد الكبير يقوم برفع معنويات جنوده ويلهمهم روح الثورة، ويصلح نقاط الضعف فيهم إن وجدت، لأنّ كيفية الإنتظار تتناسب دائماً والهدف الذي نحن في انتظاره.

١ ـ انتظار قدوم أحد المسافرين من سفره.

٢ ـ انتظار عودة حبيب عزيز جداً.

٣ ـ انتظار حلول فصل اقتطاف الثمار وجني المحاصيل.

كل من هذه الأنواع من الإنتظار مقرون بنوع من الإستعداد، ففي أحدها ينبغي تهيئة البيت ووسائل التكريم، وفي الآخر ما ينبغي أن يقتطف به من الادوات

والسلال وهكذا ... والآن سنتصوّر كيف يكون إنتظار ظهور مصلح عالمي كبير وكيف نكون في انتظار ثورة وتغيير وتحول واسع لم يشهد تأريخ الإنسانية مثيلاً له؟

الثورة التي ليست كسائر الثورات السابقة، إذ هي غير محدودة بمنطقة ما، بل هي عامّة وللجميع، وتشمل جميع شؤون الحياة والناس، فهي ثورة سياسية، ثقافية، اقتصادية، أخلاقية.

الحكمة الأُولىٰ، بناء الشّخصية الفرديّة:

إنّ بناء الشّخصية ـ قبل كل شيء ـ بحاجة إلى عناصر معدّة ذات قيم إنسانية، ليمكن للفرد أن يتحمل العبء الثقيل الإصلاحي للعالم، وهذا الأمر بحاجة ـ أوّلاً ـ إلى الإرتقاء الفكري والعلمي والإستعداد الروحي، لتطبيق ذلك المنهج العظيم. فالتحجر، وضيق النظر والحسد، والإختلافات الصبيانية، وكل نفاق بشكل عام أو تفرقة لا تنسجم ومكانة المنتظرين الواقعيين.

والمسألة المهمّة ـ هنا ـ أنّ المنتظر الواقعي لا يمكنه أن يقف موقف المتفرج ممّا أشرنا إليه آنفاً، بل لابدّ أن يقف في الصف الآخر، أي صف الثائرين المصلحين، فالإيمان بالنتائج وما يؤول إليه هذا التحول، لا يسمح له أبداً أن يكون في صف «المثبطين» المتقاعسين، بل يكون في صف المخلصين المصلحين، ويكون عمله خالصاً وروحه أكثر نقاءً، وأن يكون شهماً عارفاً معرفةً كافية بالأُمور.

فإذا كنتُ فاسداً معوجّاً فكيف يمكنني أن أنتظر نظاماً لا مكان فيه للفاسدين؟ أليس مثل هذا الإنتظار كافياً لأن أُطهّر نفسي وفكري، وأغسل جسمي وروحي من التلوّث؟!

والجيش الذي ينتظر جهاداً تحررياً لابدّ له أن يكون في حالة من الإستعداد الكامل، وأن يُهيىء السلاح الجدير بالمعركة، وأن يصنع الملاجىء والمواضع العسكرية اللازمة وأن يرفع المعنويات القتالية في صفوف أفراده، ويقوي

روحيّاتهم، يُسرج في قلوبهم شعلة العشق للمواجهة فإنّ جيشاً ليس فيه مثل هذه الإستعدادات لا يكون جيشاً (منتظراً) وإذا ادعى الإنتظار فهو «كاذب»!

إنّ انتظار المصلح، « العالمي» معناه الإستعداد الكامل فكرياً، وأخلاقياً، مادياً ومعنوياً، الإستعداد لإصلاح العالم كلّه. فتصوّروا أنّ مثل هذا الإستعداد كم يكون بنّاء؟!

فإصلاح المعمورة كلّها، وإنهاء الظلم والفساد والنواقص ليس عملاً بسيطاً، ولا هو بالمزاح أو الهزل، بل الإستعداد لمثل هذا الهدف الكبير ينبغي أن يتناسب معه، وأن يكون بسعته وعمقه!

فلابدّ من وجود رجال كبار مصممين ذوي إرادة أقوياء لاينكصون ولا ينهزمون أبداً، ذوي نظرة واسعة واستعداد تام وتفكير عميق، حتى تتحقق مثل هذه الثورة الإصلاحية العالمية.

وبناء الشخصية لمثل هذا الهدف يستلزم الإرتباط بأشد المناهج الأخلاقية، والفكرية والإجتماعية أصالة وعمقاً، فهذا هو معنى الإنتظار الواقعي! تُرى هل يستطيع أن ينكر أحد فيقول: إن مثل هذا الإنتظار لا يكون فاعلاً.

الحكمة الثّانية، التعاون الإجتماعي:

إنّ المنتظرين بحق في الوقت الذي ينبغي عليهم أن يهتمّوا ببناء «شخصيتهم» عليهم، أن يراقبوا أحوال الآخرين، وأن يجدّوا في إصلاحهم جدّهم في إصلاح ذاتهم... لأنّ المنهج العظيم الذي ينتظرونه ليس منهجاً فرديّاً، بل هو منهج ينبغي أن تشترك فيه جميع العناصر الثورية، وأن يكون العمل جماعياً عاماً، وأن تتسقَ المساعي والجهود بشكل يتناسب وتلك الثورة العالمية هم في انتظارها.

ففي ساحة معركة واسعة يقاتل فيها مجموعة جنباً إلى جنب، لا يمكن لاحد منهم أن يغفل عن الآخرين بل عليه أن يشدّ أزرهم وأن يسدّ الثغرة ويصلح نقطة

الضعف إن وُجدت ويرمم المواضع المتداعية ويدعم ما ضعف منها، لأنّه لا يمكن تطبيق مثل هذا المنهج دون مساهمة جماعية نشيطة فعّالة متسقة متناسقة!

فبناءً على ذلك فالمنتظرون بحقّ عليهم أن يصلحوا حال الآخرين بالإضافة إلى اصلاح حالهم.

فهذا هو الأثر الآخر البنّاء، الذي يورثه الإنتظار لقيام مصلح عالمي، وهذه حكمة الفضائل التي ينالها، المنتظرون بحق.

الحكمة الثّالثة، المنتظرون بحق لا يذوبون في المحيط الفاسد:

إنّ الأثر المهم الآخر للإنتظار هو عدم ذوبان المنتظرين في المحيط الفاسد، وعدم الإنقياد وراء المغريات والتلوّث بها أبداً.

وتوضيح ذلك: أنّه حين يعم الفساد المجتمع، أو تكون الأغلبية الساحقة منه فاسدة، فقد يقع الإنسان النقي الطاهر في مأزق نفسي، أو بتعبير آخر: في طريق مسدود «لليأس من الإصلاحات التي يتوخّاها».

وربّما يتصور «المنتظرون» أنّه لا مجال للإصلاح، وأن السعي والجدّ من أجل البقاء على «النقاء» والطهارة وعدم التلوّث، كل ذلك لا طائل تحته، أو لا جدوى منه، فهذا اليأس أو الفشل قد يجرّ الإنسان نحو الفساد والإصطباغ بصبغة المجتمع الفساد، فلا يستطيع المنتظرون عندئذٍ أن يحافظوا على أنفسهم باعتبارهم أقليّة صالحة بين أكثرية طالحة، وأنّهم سيفتضحون إن أصروا على مواصلة طريقهم وينكشفون لأنّهم ليسوا على شاكلة الجماعة.

والشيء الوحيد الذي ينعشُ فيهم الأمل ويدعوهم الى المقاومة والتجلد وعدم الذّوبان والإنحلال في المحيط الفاسد، هو رجاؤهم بالإصلاح النهائي، فهم في هذه الحال ـ فحسب ـ لا يسأمون عن الجد والمثابرة، بل يواصلون طريقهم في سبيل المحافظة على الذات وحفظ الآخرين وإصلاحهم أيضاً.

وحين نجد ـ في التعاليم الإسلامية ـ أن اليأس من رحمة الله وثوابه من أعظم الذنوب والكبائر، فقد يتعجب بعض الجهّال: كيف يكون اليأس من رحمة الله من الكبائر والى هذه الدرجة من الأهمية، حتى أنّه أشدّ من سائر الذنوب الأُخرىٰ، فإنّ حكمته و«فلسفتة» في الحقيقة هو ما أشرنا إليه آنفاً، لأنّ العاصي الآيس من رحمة الله لا يرى شيئاً ينقذه ويخلصه من عذاب الله، فلا يفكر بإصلاح الخلل، أو ـ يكفّ عن الذنب على الأقل لأنّه يقول في نفسه: أنا الغريقُ فهل أحشىٰ من البلل؟ والنهاية الحتمية جهنّم، وقد أشتريتها، فما عسى أن أفعل؟ ... وما الى ذلك.

إلّا أنّه حين تنفتح له نافذة الأمل، فإنّه سيرجو عفو ربّه، ويتجه نحو تغيير نفسه وحاله، ويحصل له منعطف جديد في حياته يدعوه الى التوقف عن مواصلة الذنوب والعودة نحو الطهارة والنقاء والإصلاح.

ومن هنا يمكننا أن نعتبر أنّ الأمل عامل تربوي مهم ومؤثر في المنحرفين أو الفاسدين، كما أنّ الصالحين لا يستطيعون أن يواصلوا مسيرهم في المحيط الفاسد إذا لم يكن لهم أمل بالإنتصار على المفاسد.

والنتيجة أنّ معنى إنتظار ظهور المصلح، هو أنّ الدنيا مهما مالت نحو الفساد أكثر كان الأمل بالظهور أكثر، والإنتظار يكون له أثر نفسي كبير، فيضمن للنفوس القوّة في مواجهة الأمواج والتيارات الشديدة كيلا يجرفها الفساد، فهم ليسوا أربط جأشاً فحسب، بل بمقتضى قول الشاعر:

عندما يأزف ميعاد الوصال   فلظى العشّاق في أيّ اشتعَال

إذن فهم يسعون أكثر للوصول الى الهدف المنشود، وتنشد همتهم لمواجهة الفساد ومكافحته بشوق لا مزيد عليه.

وممّا ذكرناه ـ آنفاً ـ نستنتج أن الأثر السلبي للإنتظار إنّما يكون في صوره ما لو مسخ مفهومه أو حُرّف عن واقعه، كما حرفه المخالفون والأعداء، ومسخه الموافقون، غير أنّه لو أخذ بمفهومه الواقعي لكان عاملاً تربويّاً مهمّاً بنّاءً محرّكاً

باعثاً على الأمل والرجاء.

وممّا يؤيد هذا الكلام ما ورد عن الأئمّة الطّاهرين عليهم السلام في تفسير هـذه الآيـة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ جاء أنّ المراد من الآية هو «القائم وأصحابه».[1]

كما جاء في حديث آخر أنّها، أي هذه الآية نزلت في المهدي عليه السلام.

وقد عبّرت هذه الآية عن الإمام المهدي وأصـحابه بـ ﴿ٱلَّـذِينَ ءَامَـنُوا مِـنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

فبناءً على ذلك فإنّ تحقّق هذه الثورة الإصلاحية بدون إيمان مستحكم يقضي على كل أنواع الضعف والتحلّل وبدون عمل صالح يفتح الطريق لإصلاح العالم، فإن هذا التحقّق مستبعد جدّاً.

والطالبون لهذا التحقّق عليهم أن يزدادوا إيماناً ومعرفة، وأن يجدّوا في العـمل الصالح وإصلاح ذاتهم.

وهؤلاء هم طليعة تلك الحكومة العالمية وأملها المشرق، لا من ركن الى الظلم والجور ... .

وليس المنتظر لتلك الحكومة الاشخاص الضعاف الهمة والجبناء الذين يخافون حتى من ظلّهم.

ولا البطّالون الساكتون عن الحق التّاركون للآمر بالمعروف والنهي عن المنكر في محيطهم الفاسد. أجل ... هذا هو الأثر الإيجابي البناء لانتظار قيام المهدي عليه السلام في المجتمع الأسلامي.[2]

---

١ ـ راجع البحار الطبعة القديمة ج ١٣، ص ١٤.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٦/٢١ ـ ٣٠

المعاد

٨٧

ماهي الدلائل العقليّة على المعاد؟

☑ فضلاً عن الدلائل النقلية الكثيرة على المعاد سـواء الواردة فـي القـرآن المجيد، والتي تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص، فإنّ هناك أدلّة عقليّة واضـحة أيضاً على هذه المسألة، والتي نحاول ذكرها هنا بشكل مختصر:

أ ـ برهان الحكمة:

إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر، فسيكون فارغاً وبلا معنى تماماً، كما لو افترضنا بوجود الحياة في الأطوار الجنينية بدون الحياة في هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضي بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرّد نزولهم من بطون أُمّهاتهم ويموتون، فإنّ الدور الجنيني سيكون بلا معنى؟ كذلك لو كانت الحياة في هذا العالم مبتورة عن الحياة في العالم الآخر، فسنواجه نفس الإضطراب والحيرة، فما ضرورة أن نعيش سبعين عاماً أو أكثر أو أقل في هذه الدنيا وسط كلّ هذه المشكلات؟ فنبدأ الحياة ونحن لا نملك تجربة معيّنة، وحين بلوغ تلك المرتبة يهجم الموت وينتهي العمر .. نسعى مدّة لتحصيل العلم والمعرفة، وحينما نبلغ درجة

منه بعد إشتعال الرأس شيباً يستقبلنا الموت.

ثمّ لأجل ماذا نعيش؟ الأكل واللبس والنوم والإستيقاظ المتكرّر يومياً، وإستمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟

فهل حقّاً إنّ هذه السماء المترامية الأطراف وهذه الأرض الواسعة، وكلّ هذه المقدّمات والمؤخّرات وكلّ هؤلاء الأساتذة والمعلّمين والمربّين وكلّ هذه المكتبات الضخمة وكلّ هذه الأُمور الدقيقة والأعمال التي تداخلت في خلقنا وخلق باقي الموجودات، كلّ ذلك لمجرّد الأكل والشرب واللبس والحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، ويقدمُ بعضهم على الإنتحار للتخلّص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفتخر به.

وكيف يمكن لمن يؤمن بالله وبحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون إرتباطها بحياة أُخرى ذات قيمة وذات شأن؟

يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.[1] أيّ أنّه لو لم يكن رجوع بعد هذه الدنيا إلى الله، فإنّ الحياة في هذه الدنيا ليست سوى عبث في عبث.

نعم فإنّ الحياة في هذه الدنيا تجد معناها ويكون لها مفهوماً ينسجم مع حكمة الله سبحانه وتعالى عندما تعتبر هذه: «الدنيا مزرعة للآخرة» و «الدنيا قنطرة» ومكان تعلّم، وجامعة للإستعداد للعالم الآخر ومتجر لذلك العالم، تماماً كما يقول أمير المؤمنين علي (عليه الصلاة والسلام) في كلماته العميقة المعنى «إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عاقبة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله،

---

١ ـ المؤمنون، ١١٥.

ومتجر أولياء الله»[١].

خلاصة القول، إنّ الفحص والمطالعة في وضع هذا العالم يـؤدّي إلى الإعـتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.[٢]

ب ـ برهان العدالة:

التدقيق في نظام الوجود وقوانين الخلق، يستنتج منه أنّ كلّ شيء منها محسوب بدقّة متناهية. ففي مؤسسة البدن البشري، يحكم نظام عادل دقيق، بـحيث أنّـه لو تعرّض لأدنى تغيير أو عارض ما لأدّى إلى إصـابته بـالمرض أو حـتّى المـوت، حركات القلب، دوران الدم، أجفان العين، وكلّ جزء من خـلايا الجسـم البشـري مشمول بهذا النظام الدقيق، الذي يحكم العالم بأسره «وبالعدل قـامت السـموات والأرض»[٣] فهل يستطيع الإنسان أن يكون وحده النغمة النشاز في هـذا العـالم الواسع؟!

صحيح أنّ الله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان بعض الحرية في الإرادة والإختيار لكي يمتحنه ولكي يتكامل في ظلّ تلك الحرية ويطوي مسير تكامله بنفسه، ولكن إذا أساء الإنسان الإستفادة من تلك الحرية فماذا سيكون؟! ولو أنّ الظالمين الضالّين المضلّين بسوء إستفادتهم من هذه الموهبة الإلهية استمرّوا على مسيرهم الخاطىء فماذا يقتضي العدل الإلهي؟!

وصحيح أنّ بعضاً من المسيئين يعاقبون في هذه الدنيا ويلقون مصير أعمالهم ـ على الأقل قسم منهم ـ ولكن المسلّم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحقّ. كما أنّ

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار كلمة ١٣١.

٢ ـ الواقعة، ٦٢.

٣ ـ تفسير الصافي، المجلّد الخامس، صفحة ١٠٧.

جميع المحسنين الأطياب لا يتلقّون جزاء أعمالهم الطيّبة في الدنيا. فهل من الممكن أن تكون كلا المجموعتين في كفّة عدالة الله سواء؟!

ويقول القرآن الكريم: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.(١)

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.(٢)

على كلّ حال، فلا شكّ في تفاوت الناس وإطاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، كما أنّ محاكم «القصاص والثواب الدنيوية» و «محكمة الوجدان» و «الآثار الوضعية للذنوب» كلّ ذلك لا يكفي لإقرار العدالة على ما يبدو، وعليه يجب القبول بأنّه لأجل إجراء العدالة الإلهية يلزم وجود محكمة عدل عامّة تراعي بدقّة الخير أو الشرّ في حساباتها، وإلّا فإنّ أصل العدالة لا يمكن تأمينه أبداً.

وبناءً على ما تقدّم يجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهي مساوٍ بالضرورة لوجود المعاد والقيامة، القرآن الكريم يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.(٣)

ويقول: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾.(٤)

ج ـ برهان الهدف:

على خلاف ما يتوهّمه المادّيون، فإنّ الإلهيين يرون أنّ هناك هدفاً من خلق الإنسان، والذي يعبّر عنه الفلاسفة بـ «التكامل» وفي لسان القرآن والحديث فهو «القرب إلى الله» أو «العبادة» ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.(٥)

---

١ ـ القلم، ٣٥ و٣٦.

٢ ـ ص، ٢٨.

٣ ـ الأنبياء، ٤٧.

٤ ـ يونس، ٥٤.

٥ ـ الذاريات، ٥٦.

فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكلّ شيء؟!

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم ويستمرّ فيه سير الإنسان التكاملي، وهناك يحصد ما زرع في هذا العالم، وكما قلنا في موضع آخر فإنّه في ذلك العالم الآخر يستمرّ سير الإنسان التكاملي ليبلغ هدفه النهائي.

الخلاصة: أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، وإذا قطعنا الإرتباط بين هذا العالم وعالم ما بعد الموت، فكلّ شيء سيتحوّل إلى ألغاز، وسوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٤/٢٦١ ـ ٢٦٥.

٨٨

هل المعاد جسماني أو روحاني؟

☑ المقصود من المعاد الجسماني ليس إعادة الجسم وحده في العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح والجسم معاً، وبتعبير آخر فإنّ عودة الروح أمر مسلّم به، والحديث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحي فقط، وينظرون إلى الجسد على أنّه مركّب، يكون مع الإنسان في هذه الدنيا فقط، وبعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل الجسد ويندفع نحو عالم الأرواح.

ولكن العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأنّ المعاد يشمل الروح والجسم، وهنا لا يقيّد البعض بعودة الجسم السابق، ويقولون بأنّ الله قيّض للروح جسداً، ولكن شخصيّة الإنسان بروحه فإنّ هذا الجسد يعدّ جسده.

في حال أنّ المحقّقين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذي يصبح تراباً ويتلاشى، يتلبّس بالحياة مرّة أُخرى بأمر الله الذي يجمعه ويكسوه بالحياة. هذه العقيدة نابعة من متون الآيات القرآنية الكريمة.

إنّ الشواهد على المعاد الجسماني في الآيات القرآنية الكريمة كثيرة جدّاً، بحيث

يمكن القول قطعاً بأنّ الذين يعتقدون بإقتصار المعاد على المعاد الروحي فـقط لا يملكون أدنى إطّلاع على الآيات العديدة التي تبحث في موضوع المعاد، وإلّا فإنّ جسمانية المعاد واضحة في الآيات القرآنية إلى درجة تنفي أدنـى شكّ فـي هـذه المسألة.

فهذه الآيات التي قرأناها في آخر سورة يس، توضّح هذه الحقيقة حيث حينما تساءل الإنسان: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أجابه القرآن بصراحة ووضوح: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

إنّ كلّ تعجّب المشركين والمخالفين لمسألة المعاد هو هذه القضيّة، وهي كيف يمكن إحياؤنا بعد الموت وبعد أن نصبح تراباً متناثراً وضائعاً فـي هـذه الأرض؟ ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.[١]

إنّهم يقولون: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾.[٢] وتعجّبوا من هذه المسألة إلى درجة أنّهم اعتبروا إظهارها دليلاً على الجنون أو الكذب على الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.[٣]

لهذا السبب فإنّ إستدلالات القرآن الكريم حول إمكانية المعاد عـموماً تـدور حول هذا المحور وهو «المعاد الجسماني» وما عرضناه في الفصل السابق في ستّة طرق كانت دليلاً وشاهداً على هذا الإدّعاء.

علاوةً على أنّ القرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً بأنّكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم والقبور مرتبطة بالمعاد الجسماني.

---

١ ـ السجدة، ١٠.

٢ ـ المؤمنون، ٣٥.

٣ ـ سورة سبأ، ٧.

والأوصاف التي يذكرها القرآن الكريم عن المواهب المادية والمعنوية للـجنّة، كلّها تدلّل على أنّ المعاد معاد جسمي ومعاد روحي أيضاً، وإلّا فلا معنى للـحور والقصور وأنواع الأغذية والنعيم في الجنّة إلى جنب المواهب المعنوية.

على كلّ حال، فلا يمكن أن يكون الإنسان على جانب يسير من المنطق والثقافة القرآنية وينكر المعاد الجسماني. وبتعبير آخر: فإنّ إنكار المعاد الجسماني بـنظر القرآن الكريم مساوٍ لإنكار أصل المعاد.

علاوةً على هذه الأدلّة النقلية، فإنّ هناك أدلّة عقلية بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لاتّسع البحث كثيراً، لا شكّ أنّ الإعتقاد بالمعاد الجسماني سيثير أسئلة وإشكالات كثيرة، منها شبهة الآكل والمأكول والتي ردّ عليها العلماء الإسلاميون.[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٤/٢٦٧ ـ ٢٧٠.

٨٩

ماهي شبهة الآكل والمأكول؟

يذكر معظم المفسّرين والمؤرخين في تفسير الآية ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ...﴾، الحكاية التالية:

مرّ إبراهيم عليه السلام يوماً علىٰ ساحل البحر فرأىٰ جيفة مرميّة على الساحل نصفها في الماء ونصفها على الأرض تأكل منها الطيور والحيوانات البرّ والبحر من الجانبين وتتنازع أحياناً فيما بينها علىٰ الجيفة، عند رؤية إبراهيم عليه السلام هذا المشهد خطرت في ذهـنه مسـألة يـودّ الجـميع لو عـرفوا جـوابـها بـالتفصيل، وهـي كيفيّة عـودة الأموات إلى الحياة مرّة أُخرىٰ، ففكّر وتأمّل في نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان وأصبح طعاماً لحيوانات كثيرة، وكان بالتالي جـزءً مـن بـدن تـلك الحيوانات، فكيف يحصل البعث ويعود ذلك الجسد الإنساني نفسه إلى الحياة؟

فخاطب إبراهيم عليه السلام ربّه وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

فأجابه الله تعالى: أوَلم تؤمن بالمعاد؟ فقال عليه السلام: بلىٰ ولكن ليطمئنّ قلبي.

فأمره الله أن يأخذ أربعة طيور ويذبحها ويخلط لحمها، ثمّ يقسّمها عدّة أقسام ويضع علىٰ كلّ جبلٍ قسماً منها، ثمّ يدعو الطيور إليه، وعندئذٍ سوف يرىٰ مشهد يوم

البعث، فأمتثل إبراهيم للأمر واستولت عليه الدهشة لرؤيته أجزاء الطيور تتجمّع وتأتيه من مختلف النقاط وقد عادت إليها الحياة[١].

ما ذكرناه من الدافع الذي دفع بإبراهيم عليه السلام إلى طلب مشاهدة إحياء الموتىٰ وحكاية الجيفة التي كان يأكل منها حيوانات البرّ والبحر، نفهم أنّ إهتمام إبراهيم عليه السلام كان منصبّاً على أن يعرف كيف يمكن إرجاع جسد ميّت إلى حالته الأُولى بعد أن أكلته الحيوانات وأصبح جزءاً من أجساد تلك الحيوانات؟ وهذا ما يطلق عليه في علم العقائد اسم «شبهة الآكل والمأكول».

لتوضيح ذلك نقول: إنّ الله سبحانه يعيد الإنسان في يوم القيامة بهذا الجسد المادّي. وبعبارة أُخرى يعود جسم الإنسان وتعود روحه أيضاً.

في هذه الحالة يبرز تساؤل يقول: إذا استحال جسد الإنسان إلى تراب، وامتصّته جذور الأشجار والنباتات وأصبح ثمراً أكله إنسان آخر وغدا جزءاً من جسده. أو إذا افترضنا مثلاً سنوات قحط شديدة أكل فيها إنسان لحم إنسان، فإلى أيّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟ فإذا غدت جزء من الجسد الأوّل أصبح الجسد الثاني ناقصاً، وإن بقيت جزء من الجسد الثاني نقص الأول أو انعدم.

☑ هذا الإعتراض القديم أجاب عليه الفلاسفة وعلماء العقائد إجابات مختلفة لا نرىٰ ضرورة لدرجها جميعاً هنا. وهناك آخرون لم يستطيعوا أن يعثروا على جواب مقنع، فراحوا يؤوّلون الآيات المرتبطة بالمعاد الجسماني وعمدوا إلى اعتبار شخصية الإنسان منحصرة بالروح والخصائص الروحية، مع أنّ شخصية الإنسان لا تنحصر بالروح فقط، ولا الآيات الخاصّة بالمعاد الجسماني غامضة بحيث يمكن تأويلها، بل هي صريحة صراحة قاطعة كما قلنا.

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/ ٢٨٠.

وهناك غيرهم قالوا بنوع من المعاد الجسماني الذي لا يختلف كثيراً عن المعاد الروحاني، إلّا أننا نجد أمامنا طريقاً أكثر وضوحاً بالإعتماد على النصوص القرآنية ويتّفق مع ما توصّل إليه العلم الحديث، ويحتاج توضيحه إلى عدّة مقدّمات.

١ ـ إننا نعلم أنّ أجزاء جسد الإنسان تتبدّل مرّات عديدة من الطفولة إلى الموت، حتّى خلايا الدماغ التي لا تتغيّر من حيث العدد، تتغيّر من حيث الأجزاء، فهي من جهة تتغذّى ومن جهة أُخرى تتجزّأ، وهذا نفسه يؤدّي إلى تبديلها الكامل على مدى الزمن، بحيث إنّه بعد مرور عشر سنوات لا تبقىٰ أيّة ذرّة من ذرّات الجسم القديمة.

ولكن الذرّات السابقة عندما تكون على أعتاب الهلاك تنقل جميع خـواصّـها وآثارها إلى الخلايا الجديدة، لذلك فإنّ مميّزات الإنسان الجسمية كالطول والشكل والهيئة وغيرها من الكيفيات الجسمانية تبقىٰ ثابتة على مرور الزمان، وهذا لايكون إلّا بانتقال هذه الصفات إلى الخلايا الجديدة، (لاحظ هذا بدقّة).

وعليه فإنّ الأجزاء الأخيرة من كلّ إنسان، عندما تتبدّل بعد الموت إلى تراب، تكون حاوية على مجموعة من الصفات التي اكتسبتها على امتداد العمر، فهي تاريخ ينطق بمسيرة جسم الإنسان على امتداد العمر كلّه.

٢ ـ صحيح أنّ الروح هي الأساس الذي تبنىٰ عليه شخصية الإنسـان، ولكـن ينبغي أن نعرف أنّ الروح تتكامل وتتربّىٰ بالجسم، وهما يتبادلان التأثير. لذلك فكما أنّ جسدين لايتشابهان من جميع الجهات، كذلك لا تـتشابه روحـان مـن جـميع الجهات أيضاً.

ولهذا السبب فإنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلاً كاملاً إلّا مع الجسد الذي تربّت وتكاملت معه. لذلك ففي البعث لابدّ من حضور الجسد السابق نفسه لكـي تستطيع الروح الإندماج به وتستأنف نشاطها في عالم أسمىٰ، ولتجني ثمار أعمالها.

٣ ـ تتمثّل في كلّ ذرّة من ذرّات الجسم جميع صفاته، أي أنّنا لو أمكننا أن نربّي كلّ خليّة من خلايا جسم الإنسان لتصبح إنساناً كاملاً، فإنّ ذلك الإنسـان سـوف

يحمل جميع صفات الإنسان الذي أُخذ منه هذا الجزء، (لاحظ بدقّة).

هل أن الإنسان كان في اليوم الأوّل أكثر من خلية واحدة؟ خلية النطفة التي كانت تحمل جميع الصفات، ثمّ راحت كلّ خلية تنشطر إلى خليتين على التوالي حتى اكتملت جميع خلايا الجسم، وعليه فإنّ كلّ خلية في جسم الإنسان هي جزء من الخلية الأُولى بحيث لو أنّها تربّت لأستحالت إلى إنسان شبيه بالأوّل يحمل صفاته من جميع الجهات.

والآن مع أخذ هذه المقدّمات الثلاث بنظر الإعتبار نباشر بالإجابة على الإعتراض المذكور.

في القرآن آيات تقول بوضوح: إنّ الذرّات الموجودة في جسم الإنسان عند الموت هي التي تعود إلى ذلك الجسد يوم القيامة[1]. فإذا كان شخص آخر قد طعم من لحمه فإنّ الأجزاء التي طعمها تنفصل عنه وتعود إلى الجسم الأصلي، كلّ ما في الأمر أنّ جسم الشخص الآخر يصبح ناقصاً، ولكن ينبغي أن نقول إنّه لا ينقص، بل يصغر، لأنّ أجزاء الجسم المأكول تكون قد انتشرت في كلّ أجزاء جسم الآكل، ولذلك فإنّ جسم الآكل حين تُسترجع منه الأجزاء ينحف ويصغر بنسبة ما يؤخذ منه. فالذي يزن ستين كيلوغراماً، مثلاً، حين يؤخذ منه أربعون كيلوغراماً لتعطىٰ للشخص الأوّل يصغر بحيث لا يزيد على وزن طفل.

وهل يسبّب هذا مشكلة؟ كلّا طبعاً، لأنّ هذا الجسد الصغير يكون حاوياً على جميع صفات الشخص دون زيادة ولا نقصان، وعند البعث يكون كالطفل الذي يولد صغيراً ثمّ ينمو ويكبر ويحشر بهيئة إنسان كامل. وليس في هذا النوع من النموّ عند البعث أيّ إشكال عقلي أو نقلي.

هل هذا النموّ عند البعث فوريّ أم تدريجي؟ هذا ما لانعلمه، ولكن الذي نعلمه

---

١ ـ انظر الآيات التي تشير إلى أنّ الله يبعث من في القبور.

هو أنّه سواء أكان هذا أم ذاك، فلا يثير أيّة مشكلة، والمسألة محلولة في كلتا الحالتين.

ويبقى سؤال واحد، وهو: إذا كان كلّ جسد الشخص الآكل مكوّناً من أجزاء جسد الشخص المأكول، فما العمل؟

الجواب بسيط، لأنّ حالة كهذه مستحيلة الوجود، فقضية الآكل والمأكول تقتضي أن يكون هناك أوّلاً جسد معيّن، ثمّ يتغذّى على جسد آخر وينمو، وعلى هذا فلا يمكن أن تكون جميع أجزاء جسم الآكل متكونة من أجزاء جسم المأكول، إذ ينبغي أن نفترض أوّلاً وجود جسم سابق حتى يمكن أن يتغذّى على جسم آخر، وعليه فإنّ جسم الثاني سوف يكون جزء من جسم الأوّل لا كلّه، فتأمّل.

يتّضح من هذا الشرح أنّ مسألة المعاد الجسماني لجسم الإنسان نفسه ليس فيه أيّ إشكال، ولا حاجة إلى تأويل الآيات الصريحة في إثبات هذا الموضوع.(١)

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/٢٨٧ ـ ٢٨٩ .

٩٠

ما هي الرّوح؟ وكيف يمكن اثبات اصالتها؟

☑ نقرأ في سورة الأسراء الآية ٨٥، ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّـى وَمَا أُوتِيتُم مِّـنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

مفسّرو الإسلام الكبار ـ السابقون مِنهم واللاحقون ـ لهم كلامُ كثير عن الروح ومعناها، ونحن في البداية سنشير إِلىٰ معنىٰ كلمة (روح) في اللغة، ثمّ موارد استعمالها في القرآن، وأخيراً تفسير الآية والرّوايات الواردة في هذا المجال.

وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة النقاط الآتية:

١ ـ (الرّوح) في الأصل اللغوي تعني (النفس) والبعض يرىٰ بأنَّ (الروح) و(الرّيح) مُشتقّتان مِن معنىً واحد، وإِذ تمَّ تسمية روح الإنسان ـ التي هي جوهرة مستقلة ـ بهذا الإِسم فذلك لأنّها تشبه النَفَس والريح مِن حيث الحركة والحياة، وكونها غير مرئية مثل النَفَس والريح.

٢ ـ استخدمت كلمة (الرّوح) في القرآن الكريم في موارد ومعاني مُتعدِّدة، فهي في بعض الأحيان تعني الروح المقدَّسة التي تساعد الأنبياء علىٰ أداء رسالتهم كما

في الآية (٢٥٣) مِن سورة البقرة والتي تقول: ﴿وآتينا عيسىٰ بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾.

وفي بعض الأحيان تطلق علىٰ القوّة الإلهية المعنوية التي تقوي المؤمنين وتدفعهم، كما في قوله تعالىٰ في الآية (٢٢) مِن سورة المجادلة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وفي موارد أُخرىٰ تأتي للدلالة علىٰ (الملك الخاص بالوحي) ويوصف بـ(الأمين)، كما في الآية (١٩٣) مِن سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

وفي مكانٍ آخر وردت بمعنىٰ (الملك الكبير) مِن ملائكة الله الخاصين، أو مخلوق أفضل مِن الملائكة كما في الآية (٤) مِن سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾. وفي الآية (٣٨) مِن سورة النباء: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

ووردت ـ أيضاً ـ بمعنىٰ القرآن أو الوحي السماوي، كما في الآية (٥٢) مِن سورة الشورىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

وأخيراً وردت الروح في القرآن الكريم بمعنىٰ الروح الإنسانية، كما في آيات خلق آدم: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[١]. وكذلك قوله تعالىٰ في الآية (٢٩) مِن سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَـٰجِدِينَ﴾[٢].

٣ ـ والآن لنر مِن خلال هذه النقطة ما هو المقصود بالروح في الآية التي نبحثها؟ ما هي الرّوح التي سأل عنها جماعةٌ رسول الله ﷺ فأجابهم بقوله تعالىٰ:

---

١ ـ السجدة، ٩.

٢ ـ قُلنا سابقاً: إنَّ إضافة (روح) إلىٰ الله هي إضافة تشريفية، والهدف هو الروح الكبيرة التي وهبها الله تبارك وتعالىٰ للآدميين.

﴿ويسئلونك عن الروحِ قل الروحُ مِن أمرِ ربّي وما أوتيتم مِن العلم إلّا قليلاً﴾؟

يُمكن أن نستفيد مِن مجموع القرائن الموجودة في الآية أنَّ المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التي تُميِّز الإنسان عن الحيوان، وقد شرفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كل نشاطاتنا وفعالياتنا مِنها، وبمساعدتها نجول في الأرض ونتأمّل السماء، نكتشف أسرار العلوم، ونتوغل في أعماق الموجودات ... إنّهم أرادوا معرفة حقيقة أعجوبة عالم الخلق!!

وَلأنَّ الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، ولها أُصول تحكمها تختلف عن الأُصول التي تحكم المادة في خواصها الفيزيائية والكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلىٰ الرّسول ﷺ أن يقول لهؤلاء في جملةٍ قصيرة قاطعة: **﴿ويسئلونك عن الروحِ قل الروحُ مِن أمرِ ربّي﴾**. ولكي لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا مِن هذا الجواب فقد أضافت الآية: **﴿وما أوتيتم مِن العلم إلّا قليلاً﴾** حيثُ لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم مِن أنّها أقرب شيء إليكم.

وفي تفسير العياشي نقل الإمام الباقر والصّادق عليهما السلام أنّهما قالا في تفسير آية **﴿ويسئلونك عن الروحِ﴾** ما نصّه: **«إنّما الروح خلق مِن خلقه، لهُ بصرٌ وقوّة وتأييد، يجعلهُ في قلوب الرسل والمؤمنين»**[١].

وفي حديثٍ آخر عن الإمامين الباقر والصادق أنّهما عليهما السلام قالا: **«هي مِن الملكوت، مِن القدرة»**[٢].

وفي الرّوايات المتعدّدة التي بين أيدينا من طرق الشيعة وأهل السنّة نقرأ أنّ هذا السؤال عن الروح أخذهُ المشركون مِن علماء أهل الكتاب الذين يعيشون مع قريش، كي يختبروا به رسول الله ﷺ، إذ قالوا لهم: إذا أعطاكم الرّسول ﷺ

---

١ ـ نور الثقلين، ج ٣، ص ٢١٦.

٢ ـ المصدر السّابق.

معلومات كثيرة عن الروح فهذا دليل علىٰ عدم صدقه. لذلك نراهم قد تعجبوا مِن إِجابة الرّسول صلى الله عليه وآله المليئة بالمعاني رغم قصرها وقلّة كلماتها.

ولكن نقرأ في بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، في تفسير هذه الآية، أنَّ الروح مخلوق أفضل مِن جبرائيل وميكائيل، وكان هذا المخلوق برفقة النّبي صلى الله عليه وآله وبرفقة الأئمّة الصادقين عليهم السلام من أهل بيته مِن بعده، حيثُ كان يعصمهم مِن أي انحراف أو زلل خلال مسيرتهم[1].

إِنَّ هذه الرّوايات لا تعارض التّفسير الذي قلناه، بل هي مُتناسقة معهُ وداعمة له، لأنَّ الروح الإِنسانية لها مراتب ودرجات، فتلك المرتبة مِن الروح الموجودة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي في مرتبة ودرجة عالية جدّاً، ومن آثارها العصمة من الخطأ والذنب وكذلك يترتب عليها العلم الخارق. وبالطبع فإِنَّ روحاً مِثل هذه هي أفضل مِن الملائكة بما في ذلك جبرئيل وميكائيل. (فتدبّر)

أصالة واستقلال الرّوح:

يُظهر تأريخ العلم والمعرفة الإِنسانية أنَّ قضية الروح وأسرارها الخاصّة كانت محط توجّه العلماء، حيث حاول كل عالم الوصول إِلىٰ محيط الروح السري. ولهذا السبب ذكر العلماء آراء مُختلفة وكثيرة حول الروح.

ومِن الممكن أن تكون علومنا ومعارفنا اليوم ـ وكذلك في المستقبل ـ قاصرة عن التعرف علىٰ جميع أسرار الروح والإِحاطة بتفصيلاتها. بالرغم مِن أنَّ روحنا هي أقرب شيء لدينا مِن جميع ما حولنا. وبسبب الفوارق التي تفصل بين جوهرة الروح وبين ما نأنس بهِ مِن عوالم المادة، فإِنّنا لن نحيط بأسرار وكنه الروح، أعجوبة الخلق، والمخلوق الذي يتسامىٰ علىٰ المادة.

---

١ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢١٥.

ولكن كل هذا لا يمنعنا مِن رؤية أبعاد الروح بعين العقل، وأن نتعرف علىٰ النظم والأُصول العامّة الحاكمة عليها.

إنَّ أهم أصل يجب أن نعرفُه هو قضية أصالة واستقلال الروح، في مقابل آراء المذاهب الوضعية التي تذهب إلىٰ مادية الروح، وأنّها مِن افرازات الذهن والخلايا العصبية ولا شيء غير ذلك!

وسنبحث هذا الموضوع هنا ونتوسع فيه، لأنَّ مسألة (بقاء الروح) وقضية (التجرد المطلق أو عالم البرزخ) يعتمدان علىٰ هذا الأمر.

ولكن قبل الورود في البحث لا بدَّ من ذكر ملاحظة هامّة، وهي أن تعلق الروح بجسم الإنسان ليست ـ وكما يظن البعض ـ مِن نوع الحلول، وإنّما هي نوع مِن الإرتباط والعلاقة القائمة علىٰ أساس حاكمية الروح علىٰ الجسم وتصرفها وتحكمها به، حيثُ يشبهها البعض بعلاقة تعلق المعنىٰ وارتباطه باللفظ.

هذه المسألة ـ طبعاً ـ ستتوضح أكثر ضمن حديثنا عن استقلال الروح.

والآن لنرجع إلىٰ أصل الموضوع.

لا يشك أحدٌ في أنَّ الإنسان يختلف عن الحجارة والخشب، لأنّنا نشعر ـ بشكلٍ جيِّد ـ بأنّنا نختلف عن الجمادات، بل وحتىٰ عن النباتات، فنحن نفهم ونتصوّر ونصمِّم، ونريد، ونحب، ونكره، و ... ألخ.

إلّا أنَّ الجمادات والنباتات ليس لها أيّ مِن هذه الإحساسات، لذلك فثمّة فرق أساسي بيننا وبينها ويتمثل في امتلاكنا للروح الإنسانية.

ثمّ إنَّهُ لا الماديون ولا أي مجموعة فكرية مذهبية أُخرىٰ تنكر أصل وجود الروح، ولذلك يعتبرون علوماً مِثل علم النفس (سيكولوجيا)، وعلم العلاج النفسي (بسيكاناليزم) مِن العلوم المفيدة والواقعية، وهذين العلمين بالرغم مِن أنّهما يعيشان مراحل طفولتهما بلحاظ بعض العوامل والقضايا، ولكنّهما مع ذلك يدخلان اليوم ضمن المناهج الدراسية في الجامعات، حيث يقوم أساتذة كبار بالبحث والتحقيق

فيهما، وكما سنلاحظ، فإنَّ النفس والروح ليستا حقيقتين مُنفصلتين، بل هما مراحل مُختلفة لحقيقةٍ واحدة.

وإنّنا هُنا سنطلق كلمة (النفس) عندما يتعلق الحديث بالإرتباط بين الروح والجسم والتأثير المتبادل لكلٍ مِنهما علىٰ الآخر. أمّا عندما يكون الحديث عن الظواهر الروحية مع غض النظر عن البدن فإنّنا سنطلق عليها كلمة (الروح).

و خلاصة القول:

أنّه لا ينكر أحد حقيقة وجود الروح والنفس عندنا.

والآن ينبغي أن نتفحَّص مجالات السجال والحرب بين المذاهب المادية مِن جهة، وبين مجموع هذه المذاهب وتيارات ومذاهب الفلاسفة الروحيين والميتافيزيقيين مِن جهةٍ أُخرىٰ.

إنَّ العلماء الإلهيين والفلاسفة الروحيين يعتقدون بأنَّ الإنسان وبالإضافة إلىٰ المواد التي تدخل في تشكيل جسمه، ينطوي وجوده علىٰ حقيقة جوهرية أُخرىٰ لا تتجلىٰ فيها صفات المادة، وإن جسم الإنسان يخضع لتأثيرها بشكلٍ مُباشر وفاعل.

وبعبارة أُخرىٰ، فإنَّ الروح هي حقيقة من حقائق ما وراء الطبيعة (أي ميتافيزيقية) حيث أنَّ تركيبها وفعاليتها تختلف عن تركيب وفاعلية عالم المادة؛ صحيح أنّها مرتبطة مع عالم المادة، إلَّا أنّها ليست مادة ولا تملك خواص المادة.

في المقابل هُناك الفلاسفة الماديون الذين يقولون: إنّنا لا نعرف موجوداً مستقلاً عن المادة يسمىٰ بالروح، أو أي اسمٍ آخر، وإنَّ كل ما موجود هو هذه المادة الجسمية و آثارها الفيزيائية أو الكيميائية.

إنّنا نملك جهازاً يسمّىٰ (الذهن والأعصاب) وهو يقوم بقسمٍ مهم مِن أعمالنا الحياتية، وهو مثل باقي الأجهزة المادية حيث يخضع في نشاطه لقوانين المادة.

إنّنا نملك غدداً تحت اللسان تُسمّىٰ الغدد اللعابية والتي تقوم بفاعلية فيزيائية

وكيميائية، فعندما يدخل الطعام إلىٰ الفم تقوم هذه الغدد بالعمل بشكلٍ أوتوماتيكي حيثُ تقوم بإفراز السائل بالمقدار الذي يحتاجه الطعام حتىٰ يلين ويُمضغ بشكلٍ جيِّد، فهناك ـ أطعمة تحتوي علىٰ سوائل وهناك أطعمة قليلة السوائل أو جافّة، وكل نوع مِن هذه الأطعمة يحتاج إلىٰ مقدارٍ معين مِن هذه السوائل (اللعاب).

المواد الحامضية تزيد مِن عمل هذه الغدد، خاصّة عندما تكون كثافة الطعام كبيرة، حتىٰ يحصل الطعام علىٰ كميّة أكبر مِن السوائل ليلين، ومن ثمّ لا تصاب جدران المعدة بضرر.

عندما نبلع الطعام ينتهي عمل هذه الغدد والقنوات. وخلاصة القول: إنَّ هُناك نظاماً عجيباً يتحكم بهذه الغدد والقنوات بحيث أنّها إذا فقدت تعادلها لمدّة ساعة، فإمّا أن يسيل اللعاب بشكلٍ دائم عبر الشفتين، أو أن يكون الفم جافاً بحيث لا يمكن ابتلاع الطعام. هذا هو العمل الفيزيائي للعاب، إلّا أنّنا نعلم أنَّ العمل الأهم للعاب هو عمله الكيمياوي، فهناك مواد مُتنوعة مُتداخلة معهُ حيث تتفاعل مع الطعام وتقلل مِن تعب المعدة.

الماديون يقولون: إن عقلنا وأعصابنا يشبهان عمل الغدد اللعابية وما شابهها مِن أجهزة الجسم مِن حيث العمل الفيزيائي والكيميائي (حيث يسمّىٰ المجموع فيزيوكيميائي) وهذا العمل الفيزيوكيميائي نحنُ نسمّيه بـ «الظواهر الرّوحية أو «الرّوح».

الماديون يقولون: عندما نُفكّر تصدر سلسلة مِن الأمواج الكهربائية مِن عقلنا، هذه الأمواج يمكن التقاطها اليوم بواسطة أجهزة خاصّة وتدوينها علىٰ الأوراق ودراستها، خاصّة في مستشفيات الأعصاب، حيث يتمّ تشخيص الأمراض العصبية ومعالجتها، وهذه هي الفعالية الفيزيائية لعقلنا.

إضافة إلىٰ هذا، فإنَّ خلايا العقل عند التفكير، وكذلك عندِ النشاطات العصبية المختلفة، تقوم بمجموعة مِن الأفعال والانفعالات الكيمياوية.

لذلك فإنَّ الروح والصفات الروحية ليست سوىٰ الخواص الفيزيائية والأفعال الكيميائية للخلايا العقلية والعصبية.

إنَّ الماديين يستفيدون مِن كل هذا العرض لبلورة النتائج التالية:

١ ـ بما أنَّ نشاط الغدد اللعابية وآثارها المختلفة لم تكن موجودة قبل وجود جسم الإنسان، بل إنّها وُجدت بعد وجوده، لذا فإنَّ النشاطات الروحية تظهر بعد ظهور الدماغ والجهاز العصبي، وتموت هذه الفعاليات بموت الإنسان.

٢ ـ الروح من خواص الجسم، إذن فهي مادية وليس لها أي صفات ميتافيزيقية.

٣ ـ الروح خاضعة لجميع القوانين التي تحكم جسم الإنسان.

٤ ـ ليس هُناك وجود مستقل للروح بدون جسم، ولا يمكن أن يكون ذلك.

دلائل الماديين علىٰ عدم استقلال الروح

لقد أورد الماديون شواهد لإثبات دعواهم بأنَّ الروح والفكر وسائر الظواهر الروحية هي قضايا مادية، أي تكون انعكاساً للخواص الفيزيائية والكيميائية للخلايا العصبية والدماغية، ونستطيع أن نشير هُنا إلىٰ هذه الشواهد مِن خلال هذه النقاط:

١ ـ «يمكن الإشارة وبسهولة إلىٰ تعطُّل قسم مِن الأغراض الروحية عند عطل أو إصابة قسم مِن المراكز العصبية أو سلسلة مِن الأعصاب»[1].

فمثلاً تمّ إختبار حالة رُفعَ فيها قسم مِن دماغ الطير، ولم يؤد ذلك إلىٰ موته، بل إنَّهُ فقد قسماً كبيراً مِن معلوماته، مثلاً يفقد شهيته للطعام فإذا أعطيناه طعاماً فإنَّهُ يأكلهُ ويهضمه، ولكنّا إذا لم نعطه ووضعنا الحَب أمامه فإنَّهُ لا يأكل وسيموت مِن الجوع.

---

١ ـ پيسيكولوجى دكتور آرانى، ص ٢٣.

كما شوهد أنَّ إصابة دماغ الإنسان نتيجة للحوادث أو الأمراض ببعض الضربات أو الصدمات، يؤدي إلىٰ فقدان الدماغ لجزء كبير مِن نَشاطه، حيث ينسىٰ الإنسان جانباً مِن معلوماته.

وقد قرأنا قبل فترة في الصحف أنَّ شاباً مُثقفاً من مدينة (الأهواز) الايرانية تعرض لضربة علىٰ دماغه في حادثة، فنسي جميع أحداث حياته الماضية حتىٰ أنَّهُ نسي أمّه وأُخته ونسي نفسهُ وعندما جاؤوا بهِ إلىٰ بيته والمكان الذي وُلِدَ وترعرع فيه، فإنَّهُ لم يعرف هذا المكان وبدا فيه غريباً.

إنَّ هذه الأُمور وما شابهها تثبت وجود علاقة قريبة بين نشاطات الخلايا الدماغية والظواهر الروحية.

٢ ـ «عندما نفكر تكثر التغييرات المادية علىٰ سطح الدماغ .. الدماغ يحتاج إلىٰ طعام أكثر، ويطرح مواد فسفورية أكثر. ولكن عند النوم فإنَّ الدماغ لا يقوم بالتفكير، لذا فإنَّهُ يحتاج إلىٰ طعام قليل، وهذا يعتبر دليلاً علىٰ أنَّ الآثار الفكرية للإنسان تترشح من فعاليات مادية»[١].

٣ ـ تُظهر التجارب أن وزن أدمغة المفكرين هي أكثر مِن الحد المتوسط (الحد المتوسط لدماغ الرجل في حدود (١٤٠٠) غرام، والحد المتوسط لدماغ المرأة أقل مِن هذا بقليل)، وهذا دليل آخر ـ بزعم الماديين ـ علىٰ مادية الروح.

٤ ـ إذا كانت قوة التفكير والظواهر الروحية دليلاً علىٰ الوجود المستقل للروح، فيجب أن نقبل ذلك أيضاً في الحيوانات، لأنّها تملك قدرة الإدراك.

والخلاصة: إنّ الماديين في أدلتهم بأننا ندرك ونحس بأنَّ روحنا ليست موجوداً مستقلاً، والتطورات المتعلقة بمعرفة الإنسان ودراسته تُؤيد هذهِ الحقيقة.

وَمِن مجموع هذه الإستدلالات، يستنتج هؤلاء أنَّ التقدم الفيزيولوجي الإنساني

---

١ ـ البشر في النظرة المادية، دكتور آراني، ص ٢.

والحيواني يوضحان يوماً بعد آخر حقيقة وجود العلاقة القربية بين الظواهر الروحية والخلايا الدماغية.

نقد هذه النظرية:

الخطأ الكبير الذي وقع فيه الماديون في أدلتهم واستنتاجاتهم، أنّهم خلطوا بين (وسائل العمل) و (القائم بالعمل).

ولأجل معرفة هذا الخلط نذكر هنا مثالاً للتوضيح نرجو أن يدقق فيه القاريء الكريم جيداً:

مُنذ زمان غاليلو وحتىٰ يومنا الحاضر، حصل تحوُّل كبير في دراسة حركة الأفلاك والأجرام السماوية، فغاليلو الإيطالي استطاع وبمعونة أحد صانعي العوينات الزجاجية مِن صناعة مجهر صغير، فطار غاليلو بهِ فرحاً، بحيث أنّهُ شرَعَ عند المساء بدراسة نجوم السماء بواسطة مجهره الذي أظهر لهُ أوضاعاً عجيبة إذ أنّهُ شاهد عالم لم يستطيع أي إنسان مشاهدته حتىٰ ذلك اليوم. لقد فهم غاليلو أنّهُ توصّل إلىٰ اكتشاف مهم، ومُنذ ذلك اليوم أصبحت دراسة أسرار العالم الأعلىٰ في متناول الإنسان.

لقد كان الإنسان حتىٰ ذلك اليوم مثل الفراشة التي لم تكن ترى مِن حولها سوىٰ بعض سيقان الشجر، أمّا عندما صنع الإنسان التسكوب فإنَّهُ استطاع أن يشاهد مِن حوله مقداراً مِن أشجار الغابة الكبيرة.

لقد تطّور العمل في التسكوب حتىٰ وصل إلىٰ وضعه الراهن حيث بنيت مختبرات كبيرة ومراصد جبارة يبلغ قطر عدساتها عدّة امتار لقد نصبت هذه المراصد في أعالي الجبال المرتفعة حيثُ يتميز الأفق بصفاءٍ خاص ممّا يسهل على الفلكيين دراسة النجوم، وبواسطة هذه المراصد الجبارة استطاع الإنسان أن يُشاهد عوالم أُخرىٰ كان عاجزاً عن مشاهدتها بالعين المجرّدة قبل ذلك.

والآن لِنتصوّر أن الإنسان يكون بمقدوره مستقبلاً أن يتوصل إلىٰ صناعة مرصد بقطر (١٠٠) متر بحيث يكون حجم الأجهزة المستخدمة فيه بحجم مدينة بكاملها. فما هي يا ترىٰ العوالم التي سوف تنكشف لهُ بواسطة ذلك؟

والآن نطرح هذا السؤال: لو أخذت مِنّا هذه المجاهر والعدسات، أفلا يتعطّل قسم مِن معلوماتنا ومعارفنا حول السماوات ... وهل الناظر الأصلي نحنُ أم التلسكوب والمجهر؟

هل المجهر والتلسكوب وسيلة نستطيع بواسطتها الرؤيا والمشاهدة، أم أنّها هي التي تقوم بالعمل والنظر الحقيقي؟

وفيما يخصُ الدماغ لا يستطيع أي شخص أن يُنكر أنّهُ بدون الخلايا الدماغية لا يمكن أن تتمّ عملية التفكير، ولكن هل الدماغ هو وسيلة عمل للروح، أم أنّهُ هو الروح؟

وخلاصة القول: إنّ جميع الأدلة التيذكرها الماديون تُثبت وجود الإرتباط بين خلايا العقل والدّماغ وبين إدراكاتنا، إلّا أنَّ أياً مِنها لا يُثبت أنَّ الدماغ يقوم بالإدراك، بل أنّهُ مجرّد وسيلة لذلك.

وهنا يتّضح لماذا لا يفهم الموتىٰ شيئاً، إذ أنّهم وبسبب عدم وجود الإرتباط بين الروح والبدن يعجزون عن ذلك، وبالتالي فإنَّ الموت لا يعني فناء الروح وانعدامها. ومثل الميت مَثَلُ السفينة أو الطائرة التي عُطّل فيها جهاز اتصالها (اللاسلكي) فالسفينة والطائرة بمن فيهما موجودون إلّا أنَّ اتصالهم مع الساحل أو المطار مقطوع بسبب فقدانهم لوسيلة الإرتباط والإتصال.

أدلة استقلال الروح

كان الكلام حتىٰ الآن عن الماديين الذين يصرّون علىٰ أنَّ الظواهر الروحية هي افرازات لخلايا الدماغ، ويعتبرون الفكر والإبداع والحب والتنفر والغضب وجميع

العلوم، مِثل القضايا المادية التي تخضع لأسلوب العمل المختبري وتشملها قوانين المادة، إلّا أنَّ الفلاسفة الذي يعتقدون باستقلالية الروح ذكروا أدلة قاطعة علىٰ نفي هذه العقيدة، منها:

أوّلاً: ادراك الواقع الخارجي

إنَّ أوّل سؤال يمكن أن نطرحهُ علىٰ الماديين، هو أنّهُ إذا كانت الأفكار والظواهر الروحية هي نفسها الخواص (الفيزيكيميائية) للدماغ، ففي مثل هذه الحالة ينبغي أن تنعدم الخلافات والفروق بين عمل الدماغ وبين عمل المعدة أو الكلية أو الكبد، حيثُ أنّ عمل المعدة هو التركيب الأساس ومجموعةٌ مِن الفعاليات الفيزيائية والكيميائية، إذ بواسطة نشاط معين وإفرازات حامضية تتم عملية هضم الطعام ويصبح جاهزاً للإمتصاص مِن قبل الجسم. وإذا كان اإفراز اللعاب عملاً فيزيائياً وكيميائياً في آنٍ واحد، فإنّنا نرىٰ أنَّ العمل الروحي يختلف عن هذه الأعمال.

إن كل أعمال أجهزة الجسم لها تشابه بدرجة معينة مع بعضها البعض، ما عدا (الدماغ) الذي لهُ وضع استثنائي، إنَّ أجهزة الجسم مرتبطة جميعاً بجوانب داخلية، في حين أنَّ الظواهر الروحية لها جهة خارجية وتخبرنا عن الواقع الخارجي المحيط بنا.

ولأجل توضيح هذا الكلام يجب ذكر بعض الملاحظات:

الملاحظة الأُولىٰ: هل هُناك عالم خارج وجودنا؟

من البديهي وجود مثل هذا العالم، أمّا المثاليين الذين يُنكرون وجود العالم الخارجي ويقولون بأنَّ كل ما وجود هو (نحن) و (تصوراتنا) ويعتبرون العالم الخارجي مجموعة مِن التصورات والأحلام التي تُشاهد في النوم، فهؤلاء علىٰ خطأ، وقد أثبتنا خطأهم هذا في أحد الأبحاث، وأثبتنا أنّه كيف يتحول هؤلاء المثاليون إلىٰ واقعيين في العمل، إذ أن ما يفكرون بهِ في محيط مكتباتهم يَنسونَهُ

عِندما يتجولون في الشارع ويتنقلون مِن مكانٍ إلىٰ آخر.

الملاحظة الثّانية: هل ندرك ونعلم بوجود العالم الخارجي، أم لا؟

بالطبع الجواب علىٰ هذا السؤال بالإيجاب، لأنّنا نملك معرفة كبيرة عن العالم الخارجي، وعندنا معلومات كثيرة عن الموجودات المحيطة بنا.

والآن نصل إلىٰ هذا السؤال: هل هُناك وجود للعالم الخارجي في داخل وجودنا؟ طبعاً لا، ولكن ارتساماته وصورته منعكسة في أذهاننا حيث نستفيد مِن خاصية (انعكاس الواقع الخارجي) لإدراك العالم الخارجي.

هذا الإدراك الذهني للعالم الخارجي ـ في الحقيقة ـ ليس من الخواص الفيزيكيميائية للدماغ لوحدها، إذ أنَّ هذه الخواص وليدة إحساسنا وتأثرنا بالعالم الخارجي، وفي الاصطلاح: فإنّها معلولة لها. ونفس الشيء يقال بالنسبة لتأثير الطعام علىٰ معدتنا، فهل تأثير الطعام علىٰ معدتنا والنشاطات الفيزيائية والكيميائية تكون سبباً لمعرفة المعدة بالأطعمة؟

إذن كيف يستطيع الدماغ أن يتعرف علىٰ عالمه الخارجي؟

بعبارة أُخرىٰ نقول: في التعرف علىٰ الموجودات الخارجية هُناك حاجة إلىٰ نوع مِن الإحاطة بها، وهذه الإحاطة ليست مِن عمل الخلايا الدماغية، إذ الخلايا الدماغية تتأثر بالخارج فقط، وهذا التأثر مَثَلَهُ كمثل سائر أجهزة الجسم، وهذا الموضوع ندركهُ نحنِ بشكلٍ جيد.

وإذا كان مجرّد التأثُّر بالخارج دليلاً علىٰ إدراكنا ومعرفتنا بالواقع الموضوعي الخارجي، فيجب أن تتساوىٰ في ذلك معدتنا ولساننا وأن يكون لها نفس قابلية الفهم، في حين أنّنا نعرف أنَّ واقع الحال ليس كذلك. وخلاصة القول: إنَّ الوضع الإستثنائي لإدراكنا دليل علىٰ أنَّ هُناك حقيقة أُخرىٰ كامنة فيها، بحيث أنَّ نظامها والقوانين المتحكمة فيه تختلف عن القوانين والنظم الفيزيائية والكيميائية. (فتدبّر ذلك).

ثانياً: وحدة الشخصية

الدليل الآخر علىٰ استقلال الروح وتمايزها هو مسألة وحدة الشخصية في طول عمر الإنسان.

إذا أردنا نشك في كل شيء، فإنّنا لا نستطيع أن نشك في موضوع وجودنا (أي مقولة: أنا موجود) وليس ثمّة شك في وجودي وفي علمي بوجودي أو ما يصطلح عليه بـ «العلم الحضوري» وليس «العلم الحصولي» أي أنّني موجود عند نفسي وغير مُنفصل عنها.

علىٰ أي حال إنَّ معرفتنا بأنفسنا من أوضح معلوماتنا، ولا تحتاج إلىٰ استدلال وإثبات.

أمّا بالنسبة للإستدلال المشهور الذي استدَّل به الفيلسوف الفرنسي ديكارت حول وجوده، والذي يقول فيه (بما أنّني أفكر فإذن أنا موجود) فهو استدلال زائد وغير صحيح، لأنّهُ قبل أن يثبت وجوده اعترف مرّتين بوجوده (المرّة الأُولىٰ عِندما يقول: إنّني، والثّانية عندما يقول: أنا) هذا مِن جانب.

ومِن جانبٍ ثانٍ فإنّ (إنّني) هذه منذ بداية العمر حتىٰ نهايته واحدة فـ (إنّني اليوم) هي نفسها (إنّني بالأمس) وهي نفسها (إنّني مُنذ عشرين عاماً) فـ (أنا) مُنذ الطفولة وحتىٰ الآن تعبير عن شخصٍ واحد لا أكثر، إنّني نفس ذلك الشخص الذي كُنت وسأبقىٰ إلىٰ آخر عمري نفس ذلك الشخص، وليس شخصاً آخر، طبعاً خلال هذه الفترة يكون الإنسان قد درس وتعلم ووصل إلىٰ مراحل عالية في العلم، ولكن في جميع الأحوال يبقىٰ هو هو، ولا يصبح إنساناً آخر، وهكذا في تعامل الآخرين معه حيث يعتبره الآخرون شخصية واحدة منذ أوّل حياته وإلىٰ آخر لحظة فيها باسم واحد وجنسية معينة.

والآن لِنرىٰ ما هو هذا الكائن المتوغّل في اعماقنا؟ فهل هو ذرات وخلايا جسدنا ومجموعة الخلايا الدماغية وتأثيراتها؟ إنَّ كل هذه الأُمور قد تغيَّرت علىٰ

مدىٰ عمرنا عِدَّة مرّات، تقريباً في كل سبع سنوات مرَّة واحدة، حيثُ نعرف أَنَّهُ في كل يوم تموت ملايين الخلايا في جسدنا لتحل محلها ملايين أُخرىٰ جديدة، ومثلها في ذلك مثل البناء الذي يتمّ إِخراج الطابوق القديم مِنهُ ووضع طابوق جديد في مكانه فلو استمر التعمير في هذا البناء فإنّ البُنية الأساسية لن تتغير، ولكن يبقى البيت هو نفس ذاك البيت برغم أنَّ الناس السطحيين لا يلتفتون لذلك. ومثل خلايا الجسم التي تموت وتحيا كمثل المسبح الكبير الذي يدخلهُ الماء ببطء ويخرج مِن طرفٍ آخر. طبيعي أنَّ ماء هذا المسبح سيتغير بعد مدّة بشكلٍ كامل بالرغم مِن عدم التفات الناس إِلىٰ ذلك، إِذ يظنون أنَّ ماء المسبح ما زال علىٰ حاله لم يتغيَّر.

وبشكلٍ عام، إِنَّ كل موجود يحصل علىٰ الطعام ومِن جانب ثانٍ يستهلك هذا الطعام، فإِنَّهُ في الواقع يتجدَّد ويتغيَّر بالتدريج.

لذا فإِنَّ إِنساناً في السبعين مِن عمره لا يبعد أن يكون جسمه قد تغَّير عشر مرات، وإِذا كانَ الأمر كما يقول الماديون، مِن أنَّ الإِنسان هو نفس جسمه وأجهزته الدماغية والعصبية وخواصه الفيزيائية والكيميائية، ففي هذه الحالة يجب أن يكون الـ (أنا) قد تغيّر عشر مرات خلال هذه السنوات السبعين! ولهذا يكون هذا الإِنسان ليس الإِنسان السابق، إِلَّا أنَّ هذا الكلام لا يقبلهُ أي وجدان.

ومِن هُنا يتّضح أن ثمّة حقيقة واحدة ثابتة علىٰ طول العمر، هي غير الأجزاء المادية، هذه الحقيقة لا تتغيَّر كالأجزاء المادية، وهي أساس وجودنا وتتحكم في حياتنا وهي سبب وحدة شخصيتنا.

الحذر مِن هذا الإِشتباه!

البعض يتصوّر أن الخلايا الدماغية لا تتغيَّر، ويقولون: لقد قرأنا في الكتب الفسيولوجية أنَّ عدد الخلايا الدماغية واحد وثابت مُنذ البداية وحتىٰ نهاية العمر، وهي لا تزيد ولا تنقص وإِنَّما تكبر. لذلك إِذا أصيبت بخلل فلن تكون قابلة للعلاج.

وعلىٰ هذا الأساس فإنّنا نملك وحدة ثابتة في مجموع بدننا. هـذه الوحـدة هـي الخلايا الدماغية التي تحفظ لنا وحدة شخصيتنا.

إنَّ هذا الكلام ـ في الواقع ـ يمثل اشتباهاً كبيراً، فهو خلط بين مسألتين، إذ أن ما أثبتهُ العلم مِن ثبات عدد الخلايا الدماغية منذ البداية حتىٰ النهاية وأنّها غير قابلة للزيادة والنقصان، لا يعني أنَّ الذرات المكوَّنة لهذه الخلايا لا تتغيَّر. فكما قُلنا: إنَّ خلايا الجسم التي تأخذ الطعام وتطرد الذرات القديمة بـالتدريج تكـون خـاضعة للتغيير، مَثلها في ذلك مَثل ذلك الشخص الذي يأخذ المال مِن طرف وينفقه مِـن طرفٍ آخر، فهذا الشخص سيتغير رأس ماله بالتدريج، بالرغم مِن أن مقدار رأس المال لم يتغيَّر. وكذلك يُمكن أن نذكّر بمثال ماء المسبح.

لذلك، يتبيّن أنَّ الخلايا الدماغية ليست ثابتة، بل متغيّرة مثل سائر خلايا الجسم.

ثالثاً: عدم تطابق الكبير مَع الصغير

افترضوا أنّنا جلسنا علىٰ ساحل البحر، وشاهدنا أمامنا عدداً مِن الزَوارق مـعَ باخرة كبيرة، ثمّ نظرنا إلىٰ جانب الشمس فرأيناها تميل للغروب، بينما القمر بـدأ يبزغ مِن الجانب الآخر. وعلىٰ الشاطىء هُناك صفوف مِن طيور الماء الجميلة وقد اقترب بعضها نحو الماء. ونشاهد علىٰ الطرف الآخر جـبلاً عـظيماً تـناطح قـمتهُ السماء علواً. والآن، إزاء هذا المنظر، لِنغمض عيوننا بُرهة مِن الزمَن ونـتخيل مـا شاهدناه: جبل عظيم، بحرٌ واسع، سفينة كبيرة، كل هذه الأُمور ترتسم في مخيلتنا كاللوحة الكبيرة للغاية في مقابل روحنا، أو في داخل روحنا.

والسؤال هُنا: أين مكان هذا المخطط فـي وجـودنا ... هـل تسـتطيع الخـلايا الدماغية الصغيرة والمحدودة للغاية أن تستوعب حجم اللوحة الكبيرة والمـخطط الكبير؟ الإجابة ـ طبعاً ـ هي النفي، ولذلك لا بدّ أنّنا نمتلك قسماً آخر في وجودنا يكون فوق المادة الجسمية، وهو مِن السعة بمقدار بحيث يستوعب كل هذه المناظر

والمخططات واللوحات.

وإلاَّ فهل نستطيع تنفيذ مخطط لبناية ذات مساحة (٥٠٠) متر علىٰ قطعة أرض ذات مساحة بضعة مليمترات؟

الجواب ـ طبعاً ـ سيكون بالنفي، لأنَّ موجوداً أكبر لا يمكنهُ الإنـطباق عـلىٰ موجودٍ أصغر مع احتفاظه بكبره وسـعته، إذ مِـن ضـرورات الإنـطباق أن يكـونا مُتساويين، أو أن يكون أحدهما أصغر مِن الثّاني، فيمكن حينذاك تنفيذ الصغير علىٰ الكبير.

مع هذا الوضع كيف يُمكن لخلايا دماغنا الصـغيرة اسـتيعاب الصـور الذهـنية الكبيرة؟

إنّنا نستطيع تصوّر الكرة الأرضية بحزامها الذي يبلغ أربـعين مـليون مـتر فـي أذهاننا، ونستطيع أن نتصوَّر ذهنياً كرة الشمس التي تَكبُر الأرض بـمقدار مـليون ومئتي ألف مَرَّة، وكذلك يُمكننا تصوّر المجرات والتي هي أكبر مِن الشمس بملايين المرّات. ولكن كل هذه الصور لا يمكن ارتسامها عملياً في خلايا الدماغ الصغيرة، وذلك وفقاً لقاعدة عدم انطباق الكبير على الصغير.

إذن يجب أن نعترف ونقرّ بوجود كامن فينا هو أكبر مِـن جسـمنا فـي قـدرة استيعابه وإحاطته بالأشياء والمخططات والموجودات الكبيرة:

سؤال مهم:

يُمكن أن يقول البعض: إن تصوراتنا الذهنية هي مثل المايكروفيلم أو الخرائط الجغرافية التي تحتوي علىٰ مقياس للرسم مِثل (١)/١٠٠٠٠٠٠ أو (١)/١٠٠٠٠٠٠٠٠ حيث يرمز هذا المقياس

إلىٰ مقدار التصغير وكذلك كثيراً ما يحدث لادراك عـظمة بـاخرة كـبيرة جـداً وتصوير حجمها أن أحد الأشخاص يقف علىٰ عرشتها ويؤخذ لهما صورة لكـي

يعرف الناظر لها عظمة حجمها من خلال رؤية الشخص الواقف عليها.

وتصوراتنا الذهنية علىٰ مِنوال الصور المصغَّرة وذات مقايس رسم معينة، وعندما نكبّرها بنفس المقدار فإنّنا نحصل علىٰ المخطط أو الحجم الصحيح والواقعي. وبالطبع فإنّ المخططات والأحجام الصغيرة يُمكن أن تستوعبها الخلايا الدماغية.

في الجواب نقول: إنَّ المايكروفيلم يتمّ تكبيرة بواسطة (البرجكتر والشاشة الكبيرة التي تنعكس عليها الصور) كما أنَّ الخرائط الجغرافية نستطيع التعرُّف علىٰ ما تطويه مِن أحجامٍ حقيقية بواسطة الأرقام الموجودة تحت الخرائط. فعندما نضرب المساحات بهذا الرقم نحصل علىٰ الخريطة الكبيرة الواقعية مجسمة في أذهاننا.

والآن نطرح هذا السؤال: أين هي هذه الشاشة أو الصفحة العظيمة التي ينعكس عليها مايكروفيلم الذهن؟ هل تُمثل الخلايا الدماغية الصفحة أو الشاشة المعنية؟

بالطبع لا، لأنَّ الخريطة الجغرافية الصغيرة التي نضربها بمقياس الرسم لتتحوَّل إلىٰ حجمها الحقيقي، لا يمكن أن يكون مكانها الخلايا الدماغية الصغيرة في حجمها.

وبعبارة أوضح نقول: بالنسبة إلىٰ المايكروفيلم والخارطة الجغرافية، فإنّنا نرىٰ أنَّ الشيء الموجود في الخارج هو الفيلم والخارطة الصغيرة، إلَّا أنَّهُ في صورنا وإدراكاتنا الذهنية تكون الصور بمقدار وجودها الخارجي، ولابدّ بالتالي مِن مكان يستوعبها، فهل يمكن للخلايا الدماغية وهي بمساحتها وحجمها المعروف أن تستوعب كل هذه الأحجام العظيمة؟

وخلاصة القول: إنّنا نتصوّر الصور الذهنية للأشياء بنفس أحجامها وسعتها في موضوعاتها الخارجية، وهذا التصوّر العظيم لا يمكن أن ينعكس في الخلايا الدماغية، لذلك فهي تحتاج إلىٰ مكان ومحل خاص، وهكذا ندرك أن فينا وجوداً حقيقياً أكبر مِن هذه الخلايا وفوقها جميعاً.

رابعاً: عدم تشابه الظواهر الروحية مع الأوضاع المادية

هُناك دليل آخر علىٰ استقلال الروح وعدم ماديتها، ففي الظواهر الروحية نشاهد خواصاً وأوضاعاً معينة تختلف عن الخواص والأوضاع المادية، وليس ثمّة تشابه بينهما. ومثال ذلك ما يلي:

١ ـ الموجودات المادية تحتاج إلىٰ الزمان ولها بعد تدريجي.

٢ ـ بمرور الزمن تبلىٰ هذه الموجودات المادية.

٣ ـ مِن صفاتها أنّها قابلة للتقسيم إلىٰ أجزاءٍ مُتعدِّدة.

ولكن الظواهر الذهنية ليست لها هذه الآثار والخواص، حيثُ أنّنا نستطيع أن نتصوّر عالماً كعالمنا الحالي في ذهننا دون الحاجة إلىٰ مرور الزمن والتدرّج.

وإضافة إلىٰ ذلك، فإنَّ اللقطات الموجودة في الذهن مُنذ عهد الطفولة لا تصبح قديمة ولا تستهلك أو تُبلىٰ بمرور الزمن، بل تحتفظ بنفس شكلها، ويُمكن أن يُستهلك دماغ الإنسان، إلّا أنَّ صورة البيت المتجسّدة في الدماغ مُنذ عشرين عامّا ثابتة فيه لا تتغيَّر ولا تستهلك ولها نوع مِن الثبات الذي هو صفة عالم ما وراء الطبيعة.

إنَّ روحنا تُظهر خلاقية عجيبة اتجاه الصور، وفي لحظة واحدة وبدون أي مقدمة يمكن رسم صور معينة في أذهاننا كالكرات السماوية والمجرات والكائنات الأرضية والجبال وما شابهها. إنَّ هذه الخاصية ليست لكائنٍ مادي، بل هي دليل لكائن ما فوق المادة.

إضافة إلىٰ ذلك فإنّنا لا نشك في أن (٢ + ٢ = ٤) حيثُ يُمكن تجزئة طرفي المعادلة، مثلاً تجزئة الرقم (٢) أو الرقم (٤) إلّا أنَّ هذا مفهوم التساوي هذا لا يمكن تجزئته، فنقول مثلاً: إنَّ التساوي لهُ نصفان وكل نصف هو غير النصف الآخر، فالتساوي مفهوم لا يقبل التجزئة، فإمّا أن يكون موجود أو غير موجود، إذ لا يمكن تنصيفه أبداً.

لذا فإنَّ هذا النوع مِن المفاهيم الذهنية غير قابل للتقسيم، ولهذا السبب فهي ليست مادية، إذ لو كانت مادية لكان يمكن تجزئتها، ولهذا السبب فإنَّ روحنا التي هي مركز للمفاهيم غير المادية لا يمكن أن تكون مادية، لذا فإنّها فوق المادة. (فدقق في ذلك)[١].[٢]

١ ـ عرض وتلخيص عن كتاب: المعاد وعالم ما بعد الموت، الفصل المتعلق باستقلال الروح.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٩/١١٠ ـ ١٢٩.

٩١

ماهو الأجل المسمّىٰ و المعلّق؟

☑ لا شكّ أن للإنسان أجلاً محتوماً وأجلاً معلّقاً.

الأجل المحتوم الذي هو نهاية إستعداد الجسم للبقاء، وبحلوله ينتهي كلّ شيء بأمر الله.

الأجل المعلّق أو المخروم الذي ينتفي بانتفاء شرائطه، مثلاً إنسان ينتحر فلو أنّه لم يقم بتلك الكبيرة فإنّه سيبقى لسنوات أُخرى يواصل حياته. أو أنّه نتيجة تعاطي المشروبات الكحولية والمواد المخدّرة وممارسة الشهوات بدون قيد أو شرط، يفقد الجسم قدراته في مدّة قصيرة. في حال أنّه بالإبتعاد عن هذه الأُمور يستطيع أن يعيش لسنوات طويلة أُخرى.

هذهأُمور قابلة للإدراك والتجربة بالنسبة إلى الجميع، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.

كذلك فإنّه فيما يخصّ الأقدار فإنّ هناك أُموراً ترتبط بالأجل المخروم، وهي أيضاً غير قابلة للإنكار.

وعليه فإذا ورد في الروايات أنّ الإنفاق في سبيل الله أو صلة الرحم تطيل العمر وتدفع أنواعاً من البلاء، فهي في الحقيقة تقصد هذه العوامل.

وإذا لم نفصل بين الأجل المخروم والأجل المحتوم لا يمكننا إدراك كثير من الامور المتعلّقة بالقضاء والقدر، وتأثير الجهاد والسعي والعمل الدائب في الحياة، وسوف تبقى هذه الأُمور غير قابلة للحلّ.

هذا البحث يمكن توضيحه بمثال واحد بسيط وهو الآتي:

لو اشترى أحدهم سيارة جديدة بحيث يتوقّع من صناعتها أن تدوم عشرين عاماً، بشرط المحافظة عليها وصيانتها، وفي هذه الحالة فإنّ الأجل الحتمي لهذه السيارة هو عشرون عاماً، ولكن لو لم تتحقّق لها الصيانة المطلوبة وقام صاحبها بتسليمها إلى أشخاص لا مبالين وغير عارفين بقيادة السيارات، أو أن يحملها فوق طاقتها، أو أن يقودها بعنف في طرق وعرة يومياً، فإنّ أجلها المحتوم ذلك يمكن أن يهبط إلى النصف أو العشر، وذلك هو الأجل المخروم، ونحن نعجب كيف أنّ بعض المفسّرين لم يلتفتوا إلى هذه القضية الواضحة.[١]

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطبيعي والذاتي الإستعداد القابلية للبقاء مدّة طويلة، ولكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها وبين الوصول إلى الحد الطبيعي الأعلى، افترض سراجاً نفطياً يستطيع أنّ يبقىٰ مشتعلاً مدّة عشرين ساعة مع الأخذ بنظر الإعتبار سعته النفطية، غير أن هبوب ريح قوية، أو هطول المطر عليه أو عدم العناية به، يكون سبباً في قصر مدّة الإضاءة، فإذا لم يصادف السراج أي مانع، وظل مشتعلاً حتى آخر قطرة من نفطه ثمّ انطفأ نقول: إنّه وصل إلى أجله المحتوم، وإذا أطفأته الموانع قبل ذلك، فيكون عمره «أجل» غير محتوم.

والحال كذلك بالنسبة للإنسان، فإذا توفرت جميع ظروف بقاءة وزالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته، فإن بنيته تضمن بقاءه مدّة طويلة إلى حد معيّن، ولكنّه إذا تعرض لسوء التغذية، أو ابتلى بنوع من الإدمان، أو إذا انتحر، أو أعدم

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٤/٤٥ ـ ٤٦.

لجريمة ومات قبل تلك المدّة، فإنّ موته في الحالة الأُولىٰ يكون أجلاً محتوماً، وفي الحالة الثّانية أجلاً غير محتوم.

وبعبارة أُخرىٰ: الأجل الحتمي يكون عندما ننظر إلى «مجموع العلل التـامّة»، والأجل غير الحتمي يكون عندما ننظر إلى «المقتضيات» فقط.

استناداً إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأُمور، من ذلك مثلاً ما نقرؤه في الرّوايات والأحاديث من أن صلة الرحم تطيل العمر، وقطعها يقصر العمر، وواضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمي.

أمّا قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١].

فهو الأجل المحتوم، أي أنّ الإنسان قد وصل إلى نهاية عمره، وهو لا يشمل الموت غير المحتوم السابق لأوانه.

ولكن علينا أن نعلم ـ على كل حال ـ أنّ الأجلين يعينهما الله، الأوّل بصورة مطلقة، والثّاني بصورة معلقة أو مشروطة، وهذا يشبه بالضبط قولنا: إنّ هذا السراج ينطفيء بعد عشرين ساعة بدون قيد ولا شرط، ونقول إنّه ينطفيء بعد ساعتين إذا هبت عليه ريح، كذلك الأمر بالنسبة للإنسان والأقوام والملل، فنقول: إنّ الله شاء أن يموت الشخص الفلاني أو أن تنقرض الأُمّة الفلانية بعد كذا من السنين، ونقول إنّ هذه الأُمّة إذا سلكت طريق الظلم والنفاق والتفرقة والكسل والتهاون فإنّها ستهلك في ثلث تلك المدّة، كلا الأجلين من الله، الأوّل مطلق والآخر مقيد بشروط.

جاء عن الإمام الصادقعليه السلام تعقيباً على هذه الآية قوله: «هما أجلان: أجل محتوم وأجل موقوف» كما جاء عنه في أحاديث أُخرىٰ أنّ الأجل الموقوف قابل للتقديم والتأخير، والأجل الحتمي لا يقبل التغيير[٢].[٣]

---

١ ـ الأعراف، ٣٤.

٢ ـ تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٥٠٤.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٢٠٦/٤ ـ ٢٠٧.

٩٢

كيف ينسجم تجسيد الأعمال مع العلوم المعاصرة؟

☑ المطّلعون على الآيات القرآنيّة يعلمون جيداً بأنّ بعضاً منها يتحدّث عن «تجسيم» الأعمال يوم القيامة.

أي أنّ عمل كلّ شخص يعرض أمامه في ذلك اليوم خيراً كان أو شراً، ويكون موجباً لنشوته وسعادته أو عذابه ومعاناته، موجباً للفخر ولاكـرامـة أو للـفضيحة والعار.

فهل من الممكن أن تبقىٰ أعمال الإنسان في حين أنّها عـبارة عـن مـجموعة حركات تمحى وتزول حال انقضائها؟ وهل من الممكن أن يتحوّل «العمل» الذي هو جزء عوارض وجود الإنسان إلى مادّة وجسد ويظهر بصورة مستقلّة؟

إنّ الكثير من المفسّرين عجزوا عن الإجابة عن هذه الاسئلة، فما كان لهم من حيلة إلّا القول بالحذف والتقدير فقالوا مـثلاً أنّ المـراد بـ (حـضور الأعـمال) أو مشاهدة العمل «حضور وشهادة جزاء العمل وثوابه وعقابه».

ولكننا نعتقد اليوم بأنّ لكلّ من هذه المسائل جواب و علىٰ هذا الأساس لا نجد

أي دليل لانكار ظواهر هذه الآيات التي تدلل على تجسّد أعمال الإنسان.[١]

والاحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة ومن جملتها احاديث المعراج، حيث لما عرج بالرسولﷺ مرّ على الجنة والنار فرأىٰ كل زمرة من العاصين تعذب بعذاب شبيه بأعمالهم، كذلك شاهد أعمال الصالحين وهم منعمون برفقة أعمالهم.

وما الاخبار الواردة حول الغيبة وتجسمها على صورة قطعة لحم متعفنة يتناولها المغتاب الّا دليلاً آخر على هذا المعنىٰ.

ويمكن ان نستنتج من مجموع الروايات والآيات بأن أعمال الانسان تتجسم في عالم البرزخ والقيامة في صور متناسبة مع العمل. وان تعبير ﴿الّذين يَأكُلون أموالَ اليَتمىٰ ظُلماً إنَما يَأكُلونَ في بُطونِهم ناراً﴾[٢] يدل على ان باطن العمل يتمتع بنوع من التجسم فأكل مال اليتيم يتجسم في باطنه على شكل نار محرقة ومن لم تكن له عين باصرة لا يرى حقيقة هذا الامر.

من هنا نقول انه ليس من الضروري حمل جميع هذه الآيات والروايات على المعنى المجازي والكنائي أو ايجاد تأويل أو تقدير لها مع العلم بأنه لا يوجد أي مانع من العمل بظواهر مثل هذه الآيات وكما سنبين ذلك لاحقاً.

تجسم الاعمال في منطق العقل:

الاشكال الاول الذي يرد على مسألة تجسم الاعمال ـ كما يتضح من بعض كلمات المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ـ هو ان العمل من جنس «العرض» لا «الجوهر» فلا يحمل خواص المادة ولا هو مادة بنفسه لذا فهو ينعدم بعد حدوثه.

والاشكال الثاني: هو ان العمل يمحي ويزول بعد وجوده، لذا فاننا لا نجد اثاراً

---

١ ـ نفحات القرآن، ج ٦، ص ٩٧.

٢ ـ سورة النساء: الآية ١٠.

من أحاديثنا وأفعالنا الماضية الاّ ما أحدثت تغييرا فـي بـعض المـواد المـوجودة كتحول الحصى والخشب والجص الى بيت معين، وهذا ليس بتجسم وانما هو تحّول ناشيء من العمل (تأمل).

ولكن اذا أخذنا النكتتين ادناه بنظر الاعتبار فسوف تتضح الاجابة عن الشبهتين السالفتين وكذلك تتضح مسألة تجسم الاعمال:

النكتة الاولىٰ: لقد اثبت اليوم بأن المادة لا تفنىٰ بل ان أعمالنا تظهر على شكل طاقات مختلفة.

فان تحدّثنا فستنتقل اصواتنا علىٰ شكل أمواج صوتية الى الفضاء المحيط بـنا وتصطدم بالاجسام التي تعترضها من جدران وأبنية وأجسام اخرىٰ وتـتحول الى طاقة اخرىٰ، ومن الممكن ان يتغير شكل هذه الطاقات مرات عـديدة ولكـنها لن تفنىٰ، وما حركات أيدينا وارجلنا الاّ نوعاً من الطاقة وهذه الطاقة (الميكانيكية) لا تفنىٰ ابداً وانما تتحول الى طاقة حرارية أو طاقة اخرىٰ.

والخلاصة: ليست المادة لا تفنىٰ فقط بل وحتى طاقتها فهي ثابتة ولا تفنىٰ أيضاً ولكنها تتحول من شكل الى آخر.

النكتة الثانية: وقد تم اثباتها بشكل قاطع من خلال بحوث العلماء وتـجاربهم وهي: ان هناك علاقة قريبة بين المادة والطاقة، اي ان المادة والطاقة مظهران لحقيقة واحدة. فالمادة عبارة عن طاقة (متراكمة) اما الطاقة فـهي مـادة غـير مـتراكـمة (منتشرة)، لذا يمكن ان تحول احداهما الى الاخرىٰ تحت شروط معينة. فالطاقة الذرية هي تحول المادة الى طاقة، وبتعبير آخر ان الطاقة الذرية: هي انشطار نواة الذرة وتحرير طاقتها الكامنة. ولقد اثبت العلماء بأن الطـاقة الحـراريـة للشـمس تحصل نتيجة الانفجارات الذرية فيها، ولهذا السبب تفقد مقداراً كبيراً من وزنها كل اربع وعشرين ساعة ولو ان هذا النقصان ضئيل قياساً بوزن وحجم الشمس.

بلا شك وكما ان المادة قابلة للتحول الى طاقة كذلك الطاقة فانها قابلة للتحول

الى مادة، اي اذا تراكمت الطاقة المنتشرة فانها تأخذ حالة الجسم المادي.

وعلى هذا الاساس لا يوجد أي مانع من عدم فناء ومحو أعمالنا وأقوالنا التي هي طاقات مختلفة وارجاعها مرة اخرىٰ بأمر الله على صورة جسم.

ومن المسلَّم له ان كل عمل سيكون جسماً بما يتناسب مع خواصه وصفاته، فالطاقات التي تبذل في سبيل الاصلاح وخدمة الناس والتقوى تظهر على شكل صورة جميلة تتناسب مع ذلك العمل.

اما الطاقات التي تستعمل في مجال الظلم والجور والقبائح والفساد فتتجسم على شكل صورة قبيحة مخيفة.

وعلى هذا الاساس تعتبر حالة تجسّم الاعمال احدىٰ المعاجز العلمية للقرآن، وكما اتضح ان بقاء الطاقة وتحول المادة اليها وبالعكس لم تكن مطروحة آنذاك، فان الآيات والروايات تحدثت عن هذا الأمر بشكل واضح، وبناءً على ذلك لم تكن هناك مشكلة لا من حيث كون الاعمال من جنس «العرض» ولا من حيث اذ أنها ـ كما اشرنا ـ لا تفنىٰ وان العرض والجوهر وجهان لحقيقة واحدة ويتضح هذا المعنىٰ أكثر بالالتفات الى حركة الجوهر حيث ان القائلين بحركة الجوهر يستدلون بالحركات التي تقع في العرض ويرون ان العرض والجوهر لاينفكان عن بعضهما البعض.

ومن المناسب ان نشير الى هذه النكتة في نهاية الموضوع:

ان العالم الفرنسي (لافوازيه) استطاع بعد جهود حثيثة ان يكتشف اصل بقاء المادة واثبت ان مواد العالم لا تفنىٰ أبداً بل تتحول من شكل الى آخر.

ولم يمر طويلاً الّا واكتشف (بيركوري وزوجته) ولأول مرة العلاقة بين الطاقة والمادة من خلال تجاربه علىٰ المواد النشطة اشعاعياً (وهي اجسام تتكون من ذرات غير ثابتةٍ تتحول بعض أجزاءها تدريجياً الى طاقة) وبهذا الاكتشاف تبدل قانون بقاء المادة الى قانون بقاء (المادة ـ الطاقة).

وبهذا تزلزل أصل بقاء المادة وحلّ محله أصل بقاء مجموعة (المادة ـ الطاقة)، واخذت عملية تحول المادة الى طاقة عن طريق انشطار الذرة بعداً علمياً واسع النطاق.

ومن خلال هذا تبين بأن هناك علاقة قريبة بين انشطار المادة والطاقة ويمكن ان تتحول احداهما الى الاخرىٰ، وبعبارة اخرىٰ ان المادة والطاقة شكلان لحقيقة واحدة.

ان هذا الاكتشاف العلمي الكبير أحدث تحولاً واسعاً في مجال البحوث والتجارب العلمية التي اثبتت وحدة العالم أكثر فأكثر.

ان هذا المبدأ في مسألة المعاد وبحث تجسم الاعمال ودفع الاشكالات التي كان الأقدمون يطرحونها حول هذه المسألة كان له أكبر الاثر في ازالة موانع اثبات تجسم الاعمال.[1]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٦ ص ١١١ ـ ١١٤.

٩٣

هل في القيامة بعث للحيوانات؟

☑ ما من شك أنّ الشّرط الأُوّل للمحاسبة والجـزاء هـو «العـقل والإدراك» ويستتبعهما (التكليف والمسؤولية».

يقول أصحاب هذا الرأي: إنّ لديهم ما يثبت أن للحيوانات إدراكاً وفهماً بمقدار ما تطيق، ومن ذلك أن حياة كثير من الحيوانات تجري وفـق نـظام دقـيق ومـثير للعجب، ويدلّ على إرتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذي لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحير في بناء بيوتها وخلاياها، ولم يستحسن فهمها وإدراكها؟ فعلى الرغم من أنّ بعضهم يعزوا ذلك كـله إلى نـوع مـن الالهـام الغريزي، فليس ثمّة دليل على أنّ هذه الأعمال تجري بصورة غريزية لا عقلية.

ما الدليل على أنّ هذه الأعمال ـ حسبما يدل ظاهرها ـ ليست ناشئة عن تعقل وإدراك؟ كثيراً ما يحدث أنّ الحيوان يبتكر ـ إستجابة لظرف من الظروف ـ شيئاً لم يسبق له أن مرّ به وجربه، فالشاة التي لم يسبق لها أن رأت ذئباً في حياتها تفزع منه أوّل ما تراه وتدرك خطره عليها، وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

إن العلاقة التي تتكون بين الحيوان وصاحبه تدريجياً دليل آخر على هذا الأمر، فكثير من الكلاب المفترسة الخطرة تعامل أصحابها ـ بل وحـتى أطـفالهم ـ كـما يعاملهم الخادم العطوف.

ويحكى الكثير عن وفاء الحيوانات وعن تقديمها كثيراً من الخدمات الإنسانية ولا شك أنّ هذه أُمور ليس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التي تقع في ظروف خاصّة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة.

نشاهد اليوم أنّ حيوانات مختلفة يجري تدريبها لأغراض متنوعة، فالكلاب البوليسية تدرب للقبض على المجرمين، والحمام الزاجل لنقل الرسائل، وحيوانات أُخرىٰ ترسل لابتياع بعض الحوائج من السوق، وحيوانات أُخرىٰ للصيد، وهي كلها تؤدي مهماتها بكل دقة وإتقان (حتى أنّهم افتتحوا مؤخراً مدارس خاصّة لتعليم مختلف الحيوانات)!

فضلاً عن ذلك كلّه، فإنّ هناك بعض الآيات التي تدل ـ بوضوح ـ على أنّ للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روي عن أبي ذر قال: بيّنا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله ﷺ **«أتدرون فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندري، قال: «ولكن الله يدري وسيقضي بينهما»**[1].

وفي رواية بطرق أهل السنة عن رسول الله ﷺ قال: **«إنّه يحشر هذه الأُمم يوم القيامة ويقتص من بعضها لبعض حتى يقتص للجماء من القرناء»**[2].

وفي الآية (٥) من سورة التكوير يقول سبحانه: **﴿وإذا الوحوش حشرت﴾** وهي دليل آخر على ذلك.[3]

---

١ ـ تفسير مجمع البيان، ونور الثقلين في تفسير الآية المذكورة.

٢ ـ تفسير المنار، ذيل الآية، والجماء عكس القرناء: الحيوان الفاقد للقرن.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٢٧١/٤ ـ ٢٧٣.

٩٤

ما هو عالم البرزخ؟

وأين هو؟

وما هو الدليل لإثبات وجود هذا العالم بين الدنيا والآخرة؟

وهل يكون البرزخ للجميع، أم لمجموعة معيّنة؟

وأخيراً ماذا سيكون وضع المؤمنين والصالحين والكفّار والمسيئين فيه؟

هذه أسئلة أشارت الآيات والأحاديث السابقة إليها، لهذا نجيب عنها حسبما يسمح به وضع هذا الكتاب.

☑ تعني كلمة «البرزخ» في الأصل الشيء الذي يقع حائلاً بين شيئين، ثمّ استعملت لكلّ ما يقع بين أمرين. ولهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على عالم يقع بين عالم الدنيا والآخرة.

والدليل على وجود عالم البرزخ، أو عالم القبر، أو عالم الأرواح، نجده في الأدلّة النقلية، فقد دلّ عليه صريح آيات القرآن أحياناً وظاهرها أحياناً أُخرىٰ.

والآية ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ظاهرة في وجود عالم البرزخ. رغم أنّ البعث رغب في القول بأنّ كلمة «البرزخ» في هذه الآية تعني العائق والمانع من

العودة إلى الدنيا، غير أنّ هذا المعنى يبدو غريباً، لأنّ عبارة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دليل على وقوع عالم البرزخ بين الدنيا والآخرة، وليس بين الإنسان والدنيا.

ومن الآيات التي تصرّح بوجود مثل هذا العالم، الآيات الخاصّة بحياة الشهداء، مثل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآية (١٦٩) من سورة آل عمران، والخطاب فيها موجّه إلى النّبي ﷺ. أمّا الآية (١٥٤) من سورة البقرة فإنّها خطاب لجميع المؤمنين: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

وعالم «البرزخ» ليس للمؤمنين ذوي الدرجة الرفيعة كالشهداء فقط، بل للكفّار الطغاة كفرعون وأعوانه أيضاً، وهذا ما صرّحت به الآية (٤٦) من سورة المؤمن ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.[١]

والأحاديث متواترة بهذا الصدد، فلا نقاش في وجود عالم البرزخ أساساً، والمهمّ أن نعرف حياة البرزخ وشكلها، فقد ذكرت له صورة مختلفة، أوضحها أنّ أرواح البشر بعد ترك هذه الدنيا، تدخل أجساماً لطيفة سامية عن آثار هذه المادّة القذرة، إلّا أنّها على شكل أجسامنا، ويقال لكلّ منها (الجسم المثالي) وهو ليس مجرداً تمام التجريد، ولا هو ماديّاً محضاً. إنّه يمتاز بتجرّد برزخي معيّن، وشبّهه بعضهم بما عليه الروح في أثناء ما يراه النائم، إذ تسرّ الروح رؤية النعم، وتعذّبها مشاهدة المناظر المؤلمة، ولذلك أثّر في جسمنا هذا، إذ نبكي عند رؤية حلم مزعج، ونفزع مذعورين من هول ما نرى، أو نضحك من أعماقنا من طرافة ما نحلم به في نومنا.

ويرى جماعة أنّ الروح تقوم بنشاط في الجسم المثالي، بل يرون أكثر من ذلك، ألا وهو قدرة الأرواح القويّة على إكتساب حالة التجرّد البرزخي في يقظة الإنسان أيضاً. أي تنفصل الروح عن الجسم. وتتحرّك في الجسم المثالي برغبتها أو بالتنويم

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٠/٥٠٦ ـ ٥٠٧.

المغناطيسي، تتحرّك في العالم لتطّلع على بعض القضايا[١].

بل إنّ البعض قال بوجود الجسم المثالي في جسم كلّ إنسان، وأنّه ينفصل عنه في بداية الحياة البرزخية، ويمكن أن يقع ذلك كما قلنا في هذه الدنيا.

وإذا رفضنا جميع هذه الصفات للجسم المثالي، فلا يمكن نفي الموضوع أصلاً، بسبب إشارةِ أحاديث عديدة إليه، ولانعدام المانع العقلي منه.

وبهذا يتّضح جواب الإعتراض القائل بأنّ الإعتقاد بالجسم المثالي يستوجب الإعتقاد بالتناسخ، الذي يعني إنتقال الروح من جسم إلى آخر.

لقد ردّ الشيخ البهائي هذا الإحتجاج بوضوح، فقال: إنّ التناسخ الذي يرى بطلانه جميعُ المسلمين، هو عودة الروح بعد تفسّخ الجسم الذي كانت فيه إلى جسم آخر في هذه الدنيا.

أمّا إختصاص الروح بالجسم المثالي في عالم البرزخ حتّى يوم القيامة، ثمّ عودتها إلى الجسم الأوّل بأمر من الله تعالى لا علاقة له بالتناسخ، والسبب أنّنا ننفي التناسخ بشدّة ونكفّر الذي يعتقد به، هو قولهم بأزليّة الأرواح وإنتقالها الدائمي من جسم إلى آخر، وإنكارهم المعاد الجسماني في عالم الآخرة[٢].

والقول بوجود الجسم المثالي في باطن الجسم المادّي يُجلي الجواب عن هذا الإشكال، إذ لا تنتقل الروح من جسم إلى آخر، بل تترك بعض قوالبها، وتستمرّ في قالب آخر في حياتها البرزخية.[٣]

---

١ ـ يصرّح العلّامة المجلسي في تناوله هذا الموضوع في بحار الأنوار: إنّ تشبيه البرزخ بالحلم وما يتراءى للإنسان وارد في كثير من الرّوايات، ويمكن أن تكون للنفوس القويّة السامية عدّة أجسام مثالية، وبهذا تفسّر الأحاديث القائلة بحضور الأئمّة الميامين لدى المحتضرين حين نزعهم الأخير. (بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ٢٦١).

٢ ـ بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ٢٧٧.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٠/٥١١ ـ ٥١٤.

٩٥

هل الدنيا والآخرة تقعان علىٰ طرفي نقيض؟

في الواقع إنّنا نرىٰ في كثيرٍ مِن الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها المادية.

ففي بعض الآيات اعتبر المال خيراً (سورة البقرة آية ١٨٠).

وفي آيات كثيرة وصفت العطايا والمواهب المادية بأنّها فضل اللّه ﴿وابتغوا مِن فضل اللّه﴾[١].

وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[٢].

وفي آياتٍ كثيرة أُخرىٰ وصفت نعم الدنيا بأنها مسخّرة لنا ﴿سخر لكم﴾.

وإذا أردنا أن نجمع كل الآيات التي تهتم بالإمكانات المادية وتؤكد عليها، وتجعلها في سياقٍ واحد، فستكون أمامنا مجموعة كبيرة مِنها.

---

١ ـ الجمعة، ١٠.

٢ ـ البقرة، ٢٩.

ولكن، وبرغم الأهمية الكبرىٰ التي تختص بها النعم المادية، فإنَّ القرآن الكريم استخدم تعابير أُخرىٰ تحقِّرها وتحطّ مِنها بقوة، إذ نقرأ في سورة النساء، آية (٩٤)، قوله تعالىٰ: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ وفي مكانٍ آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾[١]. وفي سورة العنكبوت آية (٦٤)، نقرأ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب﴾ أمّا في الآية (٣٧) مِن سورة النّور، فإنا نلتقي مع قوله تعالىٰ: ﴿رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر اللّه﴾.

هذه المعاني المزدوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً في الأحاديث والرّوايات الإسلامية، فالدنيا في وصفٍ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام هي «مسجدُ أحباء اللّه، ومصلىٰ ملائكة اللّه، ومهبط وحي اللّه، ومتجر أولياء اللّه»[٢].

وفي جانبٍ آخر، نرىٰ أنَّ الأحاديث والرّوايات الإسلامية تعتبر الدنيا دار الغفلة والغرور، وما شابه ذلك.

والسؤال هنا: هل تتعارض هذه المجاميع من الآيات والرّوايات فيما بينها؟

☑ في الواقع، عندما تلام الدنيا، فإنَّ اللوم ينصب علىٰ أُولئك الناس الذين لا هدف لهم ولاهمّ سواها. مِن هنا نقرأ في الآية (٢٩) مِن سورة النجم قوله تعالىٰ: ﴿ولم يرد إلّا الحيٰوة الدنيا﴾. وبعبارة أُخرىٰ، فإنَّ الذم الذي يَرد للدنيا يقصد به الأشخاص الذين باعوا آخرتهم بدنياهم. ولا يتناهون عن أي منكرٍ وجريمة في سبيل الوصول إلىٰ أهدافهم المادية، وفي هذا السياق نقرأ في الآية (٣٨) مِن سورة التوبة: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا مِن الآخرة﴾.

ثمّ إنَّ الآيات التي نبحثها تشهد علىٰ ما نقول، إذ أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿مَن كان يريد

---

١ ـ الحديد، ٢٠.

٢ ـ نهج البلاغة، باب الكلمات القصار، جملة رقم ١٣١.

العاجلة ...﴾ هو خطاب لأُولئك الذين يستهدفون هذه الحياة العادية الزائلة، ويقفون عندها.

وعادةً فإن استخدام تعابير «المزرعة» أو «المتجر» وما شاكلهما في تشبيه الحياة الدنيا ووصفها، يعتبر دليلاً حياً علىٰ هذا الموضوع.

وخلاصة القول: إِنَّهُ إذا تمت الإستفادة مِن مواهب الدنيا وعطاياها التي تُعتبر مِن النعم الإلٰهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً في نظام الخلق والوجود، وتمت الإستفادة في سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوي، فإنَّ ذلك يعتبر أمراً جيداً، وتمتدح معه الدنيا. أمَّا إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سَيُصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغي والظلم.

وما أجمل وصف الإمام علي عليه السلام للدنيا حينما يقول: «مَن أَبصر بها بصرته، ومَن أَبصر إليها أعمته»[1]. وفي أنَّ الفرق بين الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة، هو نفس الفرق الذي نستفيده، بين «إليها» و«بها»، إذ تعني الأُولىٰ أنَّ الدنيا هدف، بينما تعني الثّاني أنّها مجرد وسيلة![2]

إنّ الإسلام يعد الثروة عاملاً مهمّاً نحو الآخرة! وقد عبّر القرآن عن المال بالخير في الآية (١٨٠) من سورة البقرة ﴿إن ترك خيراً﴾ أي مالاً.

ونقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الصدد «نعم العون الدنيا على طلب الآخرة»[3].

بل حتى الآيات في سورة القصص التي تذم قارون أشدّ الذم، لأنّه اغتر بالمال، هي شاهد بليغ على هذا الموضوع.. غاية ما في الأمر أنّ الإسلام يقبل بالثروة التي

١ ـ راجع نهج البلاغة، الخطبة رقم (٨٢).

٢ ـ تفسير الأمثل: ٨/٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

٣ ـ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، الحديث ٥ من الباب ١٦ من أبواب مقدمات التجارة.

بواسطتها تبتغى الدار الآخرة، كما قال علماء بني إسرائيل لقارون **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾**.

والإسلام يرضى بالثروة التي نرى فيها **«أحسن كما أحسن الله إليك»** ولكن للجميع!.

والإسلام يوافق على ثروة يتحقق فيه القول **«لا تنس نصيبك من الدنيا»** ويمدحها.

وأخيراً فإنّ الإسلام لا يطلب ثروةً ينبغي بها الفساد في الأرض وتُنسى بها القيم الإنسانية.. وتكون نتيجتها الإبتلاء بمسابقة جنون التكاثر، أو أن ينفصل الإنسان عن ذاته ويحتقر الآخرين، وربّما تجرّه إلى مواجهة الأنبياء كما فعل قارون في مواجهته لموسى عليه السلام !.

يريد الإسلام الثروة لتكون وسيلة لملء الفراغ الإقتصادي، وأن يستفيد منها الجميع، ولتكون ضماداً لجراح المحرومين، وللوصول بها إلى اشباع الحاجات الإجتماعية وحلّ مشاكل المستضعفين...

فالعلاقة بين هذه الثروة وهذه الأهداف المقدّسة ليست علاقة دنيوية، أو ارتباطاً بالدنيا، بل هي علاقة أخروية.

كما نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن أحد أصحابه جاءه شاكياً أمره، وقال: والله إنّا لنطلي الدنيا ونُحبّ أن نؤتاها. فقال عليه السلام : **«تحبّ أن تصنع بها ماذا؟»** قال: اعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر فقال الامام الصادق عليه السلام : **«ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»**[١].

ومن هنا يتّضح فساد عقيدة طائفتين في هذا المجال:

طائفة من المسلمين، أو بتعبير أدق: ممن يتظاهرون بالإسلام، ويبعيدون عن

---

١ ـ «وسائيل الشيعة، ج ١٢، ص ١٩ الحديث الثّالث الباب السابع من أبواب مقدمات التجارة.

تعاليمه، فيعرّفون الإسلام على أنّه محامٍ عن المستكبرين.

وطائفة من الأعداء المغرضين الذين يريدون أن يمسخوا وجه الإسلام الأصيل، ويجعلوه معادياً للثروة، وأنّه يقف الى جانب الفقراء فحسب.

وأساساً فإنّ أُمّة فقيرة لا تستطيع أن تعيش وحدها مرفوعة الرأس حرّة كريمة!.

فالفقر وسيلة للإرتباط بالاجنبي والتبعية

والفقر أساس الخزي في الدنيا والآخرة!

والفقر يدعو الإنسان إلى الإثم والخطيئة.

كما نقرأ في حديث للإمام الصادق في هذا الصدد «غنىً يحجزك عن الظلم، خير من فقر يحملك على الإثم»[1].

إنّ على المجتمعات الإسلامية أن تسعى ـ مهما استطاعت ـ نحو التقدم لتكون غنيّة غير محتاجة، ولتبلغ مرحلة الإكتفاء الذاتي، وأن تقف على أقدامها وأن لا تضحّي باستقلالها وعزّتها وشرفها من أجل الفقر المذلّ الموجب للتبعية وتعلم أن منهج الإسلام الأصيل هو هذا لا غير.[2]

---

١ ـ وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ١٧، الحديث السابع الباب السادس من أبواب مقدمات التجارة.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٢ / ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

٩٦

هل للمخترعين والمكتشفين ثواب إلهي؟

من خلال مطالعتنا في تأريخ العلوم والإختراعات والإكتشافات نرى أنّ هناك مجموعة من العلماء إستطاعوا أن يقدّموا خدمات جليلة للبشرية وتحمّلوا في سبيل خدمة البشرية منتهى الشدّة والصعوبة ليقدّموا إختراعاتهم وإكتشافاتهم للناس، فعلى سبيل المثال مخترع الكهرباء «أديسون» تحمّل الصعاب ويُقال فقد حياته في هذا الطريق لكنّه أضاء العالم، وحرّك المعامل، وببركة إختراعه وجدت الآبار العميقة حيث اخضّرت الأرض وتغيّرت الدنيا. و «باستور» الذي إكتشف المكروب، وأنقذ ملايين الناس من الموت المحتوم .. فهؤلاء وعشرات مثلهم كيف يجعلهم الله في جهنّم لكونهم غير مؤمنين؟ مع أنّ هناك أفراداً لم يقدّموا أيّة خدمة للإنسانية طول حياتهم، ويدخلون الجنّة!

☑ إنّ العمل في حدّ ذاته ليس كافياً من وجهة نظر العقيدة الإسلامية، بل قيمته في النيّة والقوى المحرّكة له، فكثيراً ما نشاهد من أعمال الخير كبناء مدرسة أو مستشفى أو أي عمل آخر وهدف صاحبه في الظاهر هو خدمة المجتمع الإنساني،

إلّا أنّه تحت هذا الغطاء شيء آخر وذاك هو حفظ جاهه أو ماله أو جلب أنظار الناس إليه، وتحكيم منافعه المادية، أو حتّى ستر خيانته بعيداً عن أنظار الآخرين!

وعلى العكس، فمن الممكن أن يعمل شخص عملاً صغيراً، إلّا أنّه مخلص في نيّته صادق، والآن يجب أن نحقّق في ملفات هؤلاء الرجال العظام من وجهة نظر عملهم وكذلك الأسباب والدوافع، وهي لا تخرج من أحد أُمور:

ألف: ـ يكون الهدف من الإختراع أحياناً عملاً تخريبيّاً (كما في إكتشاف الطاقة النووية حيث كان الهدف الأوّل منها صناعة القنابل النووية) ويمكن الإستفادة منها لخدمة الإنسان، إلّا أنّه لم يكن الهدف الأصلي من إختراعها، فقيمة عمل هذه المجموعة من المخترعين واضح تماماً.

ب: ـ وقد يكون هدف المخترع أو المكتشف الربح المادّي أو الشهرة، فحكمه ـ في الحقيقة ـ حكم التاجر الذي يقوم بتأسيس الخدمات العامّة لكي يحصل على أرباح أكثر، ويقوم بتشغيل العمّال وإنتاج المحاصيل الزراعية للبلد، فالهدف من كلّ ذلك هو الحصول على أكبر واردٍ ممكن، ولو كان هناك عمل أكثر ربحاً لركض وراءه.

بالطبع فإنّ هذه التجارة لو كانت طبقاً للموازين الشرعيّة، فإنّها ليست حراماً، إلّا أنّها لا تحتسب عملاً مقدّساً ومهمّاً.

ومثل هؤلاء المخترعين والمكتشفين ليسوا قليلين على طول التاريخ، فطريقة تفكيرهم أن يقدّموا العمل الأكثر ربحاً ـ حتّى لو كان مضرّاً بالمجتمع ـ (فمثلاً صناعة الأدوية لها من الفوائد ٢٠٪ بينما في صناعة الهيروئين ٥٠٪ فهم يرجّحون الثّاني على الأوّل) فحكم هذه المجموعة واضح أيضاً، حيث لم يطلبوا من الله ولا من الناس أي شيء وجزاؤهم الربح والشهرة فقط.

ج: ـ هناك مجموعة ثالثة لا شكّ في أنّ دوافعها إنسانية، أو إلهيّة إذا كانت الجماعة مؤمنة، وأحياناً يمضون سنين طويلة في زوايا المختبرات بكامل الفاقة

والحرمان على أمل أن يقدّموا خدمة لبني جنسهم، أو هديّة للعالم، ليحلّوا أغلال المتعبين، ويمسحوا التراب من وجوب المعذّبين. فإذا كان هؤلاء الأفراد مؤمنين ودوافعهم إلهيّة فمصيرهم واضح.

وأمّا إذا كانوا غير مؤمنين ودوافعهم إنسانيّة، فسوف يحصلون على الجزاء المناسب من الله بلا أدنى شكّ، هذا الجزاء يمكن أن يكون في الدنيا أو الآخرة، فالله عزّوجلّ عالم وعادل لا يحرمهم من ذلك، ولكن كيف؟ تفاصيله غير واضحة لنا، ويمكن أن نقول: (إنّ الله لا يضيّع أجر هؤلاء المحسنين فيما إذا كانوا غير مقصّرين لعدم إيمانهم).

وليس عندنا أي دليل من أنّ الآية ﴿إنّ الله لا يضيّع أجر المحسنين﴾ لا تشمل هؤلاء الأفراد، فإطلاق المحسنين في القرآن ليس خاصّاً بالمؤمنين فقط، ولذلك نرى أنّ إخوة يوسف لما حضروا عنده وهم لا يعرفوه ويظنّون أنّه عزيز مصر قالوا: ﴿إنّا نراك من المحسنين﴾.[١]

وكذلك الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرَاً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يَرَهُ﴾ تشمل هؤلاء الأفراد.

عن علي بن يقطين عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «كان في بني إسرائيل رجل مؤمن وجاره كافر، وكان هذا الجار الكافر يحسن إلى جاره المؤمن، فعندما إرتحل من الدنيا بنى له الله بيتاً يمنعه من نار جهنّم. وقيل له: إنّ هذا بسبب حسن سيرتك مع جارك المؤمن»[٢].

وعن النّبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ ابن جدعان أقلّ أهل جهنّم عذاباً» قالوا: لماذا يارسول الله؟ قال «إنّه كان يطعم الطعام» وعبدالله بن جدعان أحد مشركي مكّة

---

١ ـ يوسف، ٩٠.

٢ ـ البحار، ج٣، طبعة كمباني ص٣٧٧.

المعروفين ومن زعماء قريش[١].

وعن النّبي ﷺ قال لعدي بن حاتم الطائي «رفع عن أبيك العذاب الشديد بسخاء نفسه»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أتى رسول الله وفد من اليمن وكان فيهم رجل أعظمهم كلاماً وأشدّهم في محاجة النّبي ﷺ، فغضب النّبي ﷺ حتّى التوى عرق الغضب بين عينيه، وتغيّر وجهه وأطرق إلى الأرض فأتاه جبرئيل فقال: ربّك يقرئك السلام ويقول لك: هذا رجل سخي يطعم الطعام، فسكن عن النّبي ﷺ الغضب ورفع رأسه وقال: لولا أنّ جبرئيل أخبرني عن الله عزّوجلّ أنّك سخي تُطعم الطعام، لشدوت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك، فقال له الرجل: وإنّ ربّك ليحبّ السخاء؟ فقال: نعم، قال: إنّي أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا رددت عن مالي أحداً»[٣].

وهنا يأتي هذا السؤال والذي يمكن أن نستفيده من بعض الآيات وكثير من الرّوايات ، وهو: هل أنّ الإيمان والولاية شرط لقبول الأعمال والدخول إلى الجنّة؟ فإذا كان كذلك فإنّ أفضل أعمال الكفّار ليس مقبولاً عند الله.

ويمكن أن نجيب على هذا السؤال بأنّ مسألة «قبول الأعمال» شيء، و «الجزاء المناسب» شيء آخر. فمثلاً المشهور بين علماء المسلمين أنّ الصلاة بدون حضور القلب أو مع إرتكاب بعض الذنوب كالغيبة غير مقبولة عند الله، ونحن نعلم أنّ مثل هذه الصلوات صحيحة شرعاً، وتحتسب طاعة لأوامر الله وتفرغ بها ذمّة المصلّي والطاعة لا تكون بدون أجر. ولذلك فقبول العمل هو الدرجة العالية للعمل، ونحن

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٨٢.

٢ ـ البحار، ج٢، ص٦٠٧.

٣ ـ البحار، ج٢.

نقول هذا أيضاً: إذا كانت الخدمات الإنسانية مصاحبة للإيمان فلها أعلى المضامين، ولكن في غير هذه الصورة لا تكون بدون مضمون وجزاء، وجزاء العمل لا ينحصر بدخول الجنّة.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ٤٨٦/٧ ـ ٤٨٩.

٩٧

ماهي صحيفة الأعمال و ماهي فلسفتها؟

نقرأ في سورة الأسراء الآية ١٣: ﴿وَكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اِقْرَأْ كِتابَكَ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: ماهذا الكتاب و ما هو الهدف منه؟

ممّا لا شك فيه أنّها ليست مِن جنس الكتب والورق والصحف العادية، لذا فإنّ بعض المفسّرين قالوا بأنّ صحيفة الأعمال ليست سوىٰ «روح الإنسان» والتي تكون جميع الأعمال مُثبتة فيها[1] لأنّ أي عملٍ نعملهُ سيكون لهُ أثرٌ في روحنا شئنا أم أبينا.

وقد تكون صحيفة الأعمال، هي أعضاء جسمنا وجلودنا، والأعظم مِن ذلك هو أنَّ الصحيفة قد تكون مُتضَمّنة في الأرض والهواء والفضاء الذي يحيطنا والذي نعيش فيه، لأنَّ هذه المفردات هي وعاء أعمالنا، فترتسم الأعمال في أفق الأرض الهواء والوجود الذي حولنا، هذا الوجود الذي تنحت في ذراته أعمالنا أو آثارها وعلىٰ الأقل.

---

١ ـ راجع تفسير الصافي في شأن تفسير هذه الآية.

وإذا كانت هذه الآثار غير محسوسة اليوم، ولا يمكن دركها في الحياة الدنيا هذه، إلّا أنَّ ذلك ـ بدون شك ـ لا يعني عدم وجودها؛ فعندما نرزق بصراً جديداً آخر (في يوم القيامة) فسوف يكون بإمكاننا أن نرىٰ جميع هذه الأُمور، ونقرؤها.

علىٰ أنَّ استخدام الآية الكريمة لِتعبير (اقرأ) ينبغي أن لا يُغيِّر من تفكيرنا شيئاً إزاء ما ذهبنا إليه آنفاً، لأنَّ كلمة «اقرأ» تتضمّن مفهوماً واسعاً، وتدخل الرؤيا بمفهومها الواسع هذا، فنحن مثلاً وفي تعابيرنا العادية التي نستخدمها يومياً نقول: قرأتُ في عيني فلان ما الذي يُريد أن يفعلهُ، أو أنّنا عرفنا مِن نظرتنا إلىٰ فلان، بقية القصّة، وعرفنا بقية العمل الذي يريد أن يفعله. كما أنّنا في عالم اليوم أخذنا نستخدم كلمة «اقرأ» بخصوص الأشعة التي تؤخذ للمرضىٰ، هذا بالرغم مِن أنَّ الأشعة، هي صورة تخضع للمشاهدة لا للقراءة، وهذا المِثال والأمثلة التي سبقته تؤكد ما ذهبنا إليه أنَّ المشاهدة تدخل في إطار المعنىٰ الواسع للقراءة.

وقد تقدم في الآيات السابقة أنَّ تفصيلات صحيفة الأعمال هذه، لا يمكن إنكارها بأي وجه، لأنَّ الآثار الحقيقية الموضوعية (أي الخارجية) والتكوينية للعمل تشبه كثيراً الصوت المسجَّل للإنسان، أو الصورة المأخوذة له، أو بصمات أصابعة، وأيّاً مِن هذه الآثار لا يجد الإنسان إلىٰ نكرانها سبيلاً![١]

فلسفة كتاب الاعمال

مما لا شك فيه ان البيان المفصل لكتاب الاعمال في الآيات القرآنية والروايات، مع الأخذ بعين الاعتبار ان هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا واقوالنا ونياتنا الّا احصاها يهدف بالدرجة الاولىٰ الىٰ الآثار التربوية له.

إن القرآن اتخذ من بيان جميع المعارف الواقعة وسيلة لتهذيب النفوس وتكامل

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٨/٤٢٦ ـ ٤٢٧.

الارواح وتنمية مكارم الاخلاق وتقوية عامل التقوىٰ عند الانسان كما انذر الناس كافة ليراقبوا افعالهم واقوالهم وسلوكهم وصرح بأن كل شيء في كتاب وسوف تعرض الاعمال من خلاله يوم القيامة من غير نقصان.

حقاً ان الاحاطة العلمية لله تعالىٰ هي فوق كل شيء ومن يؤمن ايماناً كاملاً بالاحاطة العلمية لله وحضوره الوجودي في كل شيء وفي كل زمان لا حاجة له بكتاب الاعمال ولكن في الغالب يمكن ان يكون الالتفات لهذه الحقيقة منشأً لكثير من الآثار علىٰ اغلب الناس فمن يعلم بأن هناك اشرطة لتسجيل صوته اينما كان وهناك جهاز مجهز بافلام لتصوير كل حركاته وسكناته، سرها وعلنها، ظاهرها وباطنها، وأن هذه الاشرطة والافلام سوف تعرض علىٰ شكل ملف كامل غير قابل للانكار في احدىٰ المحاكم الكبيرة، فيقيناً ان مثل هذا الانسان سوف يراقب كل افعاله وأقواله وسلوكه بشكل كامل وتكون التقوىٰ هي الحاكمة علىٰ ظاهره وباطنه.

ان الايمان بكتاب الاعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الّا احصاها والايمان بالملائكة الذين يراقبون الانسان ليلاً ونهاراً ويحصون عليه كل اعماله، وكذلك الاعتقاد بأن هذه الصحف سوف تنشر يوم القيامة في ساحة المحشر ويكشف فيها عن جميع السرائر فتوجب الخزي والفضيحة امام الاصدقاء والاعداء، كلها لها اثر عجيب في الكف عن الذنوب وارتكاب المآثم.

هذا علىٰ عكس كتاب الابرار الذي يكون موجباً للفخر والكرامة في المحشر وحتىٰ انه افضل واعلىٰ وأكثر تأثيراً مما ذكر في مقال الشريط والقلم، وهذا عامل مهم جداً للتزود من الاعمال الصالحة ولولا ضعف الايمان احياناً ووجود حجب الغفلة التي تكون العامل في ابعاد الانسان عن هذه الحقائق المهمة لكان الاعتقاد بهذا المبدأ القرآني كافياً لتربية وتزكية كل انسان.[1]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٦ ص ٨٩ ـ ٩٠.

٩٨

ماهي موازين القيامة؟

☑ إنّ الذين يعتقدون بأن موازين القيامة تشبه موازين هذه الدنيا قد اجبروا على القول بأن هناك نوعاً من الأوزان والاثقال حتى يمكن وزنها بمثل هذه الموازين.

ولكن القرآن يدلل بأن المقصود بالميزان هو وسيلة لقياس الاوزان بمعناها العغام وذلك لأننا نعلم ان لكل شيء وسيلة وزن تناسبه. فمثلاً وسيلة قياس الحرارة يقال لها ميزان الحرارة أو المحرار ووسيلة قياس الهواء «ميزان الهواء» أو المحرار ايضاً.

وبناءً على ذلك فان المراد بـ(موازين الاعمال) هم الذين تقاس اعمال الاخيار والاشرار بأعمالهم.. كما ينقل المرحوم العلّامة المجلسي عن الشيخ المفيد (إنّ أمير المؤمنين والائمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين)[١].

وقد نقل في (اصول الكافي ومعاني الاخبار) عن الامام الصادق عليه السلام ان شخصاً

---

١ ـ بحار الانوار: المجلد ٧ ص ٢٥٢.

سأل الامام الصادق؈ عن معنى الآية ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، فقال: (هم الانبياء والأوصياء)[1].

ونقرأ في احدىٰ الزيارات المطلقة لأمير المؤمنين؈ قوله: (السلام على ميزان الاعمال)[2].

فان هذه الشخصيات العظيمة موازين الاعمال، فالاعمال التي تشابه اعمال هذه الشخصيات تعتبر ثقيلة في الميزان والاعمال التي لا تشابه اعمالهم تعتبر خفيفة أو لا وزن لها أصلاً فأولياء الله هم موازين الاعمال في هذه الدنيا ولكن تبرز وتتجسد هذه المسألة في العالم الآخر.[3]

١ ـ تفسير البرهان: المجلد ٣ ص ٦١. اصول الكافي: المجلد ١ ص ٤١٩ وقد ورد نظير هذا الحديث في تفاسير اخرىٰ.

٢ ـ المرحوم المحدِّث القمي في كتابه (مفاتيح الجنان) ولقد أورد هذه الزيارة.. كزيارة أولىٰ من الزيارة المطلقة.

٣ ـ نفحات القرآن ج ٦ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

٩٩

ما هي حقيقة الصراط؟

☑ إنّ أهل الدنيا ليس لهم اطلاع مفصل عن الحقائق المتعلقة بيوم القيامة وعالم ما بعد الموت حيث هو عالم فوق هذا العالم، ولكن هذا الامر لايمنع من المعرفة الاجمالية بهذا الموضوع.

ويستفاد من الروايات الاسلامية ان الصراط جسر علىٰ جهنم في طريق الجنة ويرده كل بر وفاجر فالابرار يمرون عليه بسرعة ويصلون الىٰ النعم الالهية غير المتناهية اما الفجار فتزل اقدامهم ويردون في نار جهنم.

ولقد ورد في بعض الروايات ان سرعة عبور الناس علىٰ الصراط ترتبط بمستوىٰ ايمانهم واخلاصهم واعمالهم الصالحة.

فقد ورد في حديث عن الامام الصادقعليه السلام انه قال: (منهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبوا، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً.)[1].

---

١ ـ امالي الصدوق: مجلس ٣٣.

وهنا يطرح هذا السؤال:

لماذا يجب المرور عبر جهنم للوصول الىٰ الجنة ؟

هناك نكات لطيفة سنتعرض لها وهي:

إن اصحاب الجنة عندما يمرون علىٰ جهنم يدركون قيمة الجنّة افضل ادراك ومن جهة اخرىٰ ان وضع الصراط هناك عبارة عن تجسم لأعمالنا في هذه الدنيا لذا يجب المرور عبر جهنم (المحرقة للشهوات..) من اجل الوصول الىٰ جنة التقوىٰ، ومن جهة ثالثة هذا انذار جدي لكافة المجرمين والمذنبين حيث ان مصيرهم يؤول الىٰ العبور من هذا الممر الخطير.

لذا ورد في حديث (مفضل بن عمر) يقول سألت الامام الصادق عليه السلام عن الصراط فقال: (الصراط طريق الىٰ معرفة الله سبحانه وتعالىٰ) ثم قال: «هما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا، فهو الامام المفروض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدىٰ بهداه مر علىٰ الصراط الذي هو جسر جهنم في الاخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم»[١].

وفي تفسير الامام الحسن العسكري عليه السلام[٢] فسر الصراطين (صراط الدنيا والآخرة) الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر من الغلو وارتفع عن التقصير واما الصراط في الآخرة فهو طريق المؤمنين الىٰ الجنّة.

وهناك نكتة مهمة اشارت اليها الروايات الاسلامية، وهي انه من العسير العبور علىٰ هذا الطريق فقد ورد حديث عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن الامام

---

١ ـ معاني الاخبار: ص ٣٢ حديث ١.

٢ ـ بحار الانوار: ٨ ص ٦٩ ص ١٨.

الصادق عليه السلام ايضاً (ان علىٰ جهنم جسراً ادق من الشعر وأحدّ من السيف)[١].

نعم هكذا الصراط (المستقيم) وحقيقة (الولاية) و (العدالة) في هذه الدنيا فهو ادق من الشعرة وأحد من السيف وهذا يرجع الىٰ ان الخط المستقيم خط واحد دقيق لا أكثر اما الخطوط الاخرىٰ فهي منحرفة نحو اليمين أو الشمال ومن الطبيعي ان يكون صراط القيامة هكذا فهو تجسم عيني للصراط الدنيوي، ومع هذا فهناك طائفة تمر علىٰ هذا الطريق الخطر سريعة في ظل ايمانها وأعمالها الصالحة.

بلا شك ان التمسك بالرسول الاكرم واهل بيته الطاهرين يسهل اجتياز هذا الطريق المخوف، فقد جاء في حديث عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله **(اذا كان يوم القيامة ونصب الصراط علىٰ جهنم لم يجز عليه الّا من كان معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب) عليه السلام**[٢].

ولقد ورد نفس هذا المعنىٰ بتعبير آخر يتعلق بـ فاطمة الزهراء عليها السلام ومن البديهي ان ولاية الامام علي عليه السلام وولاية الزهراء عليها السلام هما من ولاية الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله ولايمكن الفصل بين القرآن والإسلام وسائر الائمة المعصومين، فاذا لم يكن هناك ارتباط ايماني واخلاقي مع هؤلاء العظام فلا يمكن الجواز علىٰ الصراط، وتوجد في هذا المجال روايات عديدة، وللمزيد من المعلومات راجع كتاب بحار الانوار المجلد ٨ وبالأخص هذه الروايات: (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧).

ونختم حديثنا بالاشارة الىٰ البعد التربوي للايمان والاعتقاد بمثل هذا الصراط حيث هو صراط مخوف مرعب متزلزل تشوبه الاخطار، صراط ادق من الشعر وأحد من السيف، صراط له عدة مواقف وفي كل موقف يُسأل فيه عن شيء فأما

---

١ ـ ميزان الحكمة الحكمة: المجلد ٥ ص ٣٤٨ ووردت كلمة «الصراط» في حديث الإمام الصادق بدل جملة «إنّ علىٰ جهنّم جسراً» (البحار ج ٨ ص ٦٤ الحديث ١.

٢ ـ بحار الانوار: المجلد ٨ ص ٦٨ حديث ١١.

الاول فيسأل عن الصلاة وأما الثاني فعن الامانة وصلة الرحم والثالث عن العدالة وما شابه ذلك، ممر لا يمكن لأحد العبور عليه واجتيازه الّا اذا كان معه جواز فيه ولاية الرسول الاعظم وولاية الامام عليعليه السلام والتخلق بأخلاقهم والسير علىٰ نهجهم.

وفي النهاية نقول انه ممر تتوقف قدرة اجتيازه علىٰ قدر نور الايمان والعمل الصالح، ومن لم يقدر علىٰ اجتيازه فسيقع حتماً في نار جهنم وسوف لن يصل الىٰ موضع النعم الالهية المادية والمعنوية (الجنة) ابداً.

مما لا شك فيه ان الاهتمام بمثل هذه المفاهيم والاعتقاد بها له اثار واسعة في افعال الانسان وتربيته فتحثه علىٰ التخلق بأخلاق اولياء الله وتمنحه البصيرة في انتخاب سبل حياته والتمييز الدقيق بين الحق والباطل.[1]

١ ـ نفحات القرآن ج ٦ ص ١٥٧ ـ ١٥٩.

١٠٠

ماهي حكمة الشفاعة؟ و هل تكون الشفاعة مشجّعة على الذنب؟

☑ الشفاعة لا هي تشجيع على الذنب، ولا هي بـالضوء الأخـضر لركـوب المعاصي، ولا هي من اسباب التخلّف، ولا هي شيء يشبه الواسطة في مجتمعات عالم اليوم، بل هي مسألة تربويّة تحضىٰ باهميّة بالغة ولها آثار ايجابيّة في الجوانب المختلفة من جملة ذلك:

أـ بعث الأمل ومواجهة روح اليأس:

كثيراً ما يتغلب هوىٰ النفس علىٰ الانسان ويدفعه لارتكاب الذنوب الكـبرىٰ، فتتغلب من بعد ذلك روح اليأس عليه، مما يدفعه لارتكاب المزيد منها حتّىٰ يغدو غارقاً في الذنوب لأنه يتصور انه قد تجاوز الحد وغرق فماذا يفرق ان انغمس في الماء لقامة واحدة أو لمائة قامة!

لكن الاعتقاد بشفاعة اولياء الله يقدّم له الأمل، فلو وقف عند هذا الحد واصلح نفسه، فقد يُعفىٰ عمّا سلف منه وذلك عن طريق شفاعة الابرار والصالحين، وعلىٰ

هذا فان الأمل بالشفاعة يساعد علىٰ الكف عن ارتكاب المزيد من الذنوب والعودة الىٰ الصلاح والتقوىٰ.

ب ـ ايجاد العلاقة المعنوية مع اولياء الله:

إن الشفاعة مرهونة بوجود نوع من العلاقة بين الشفيع والمشفوع له، وهي رابطة معنوية منبثقة من الايمان وبعض الخصال الفاضلة وفعل الحسنات.

ومن المؤكد ان مرتجي الشفاعة يسعىٰ دوماً لاقامة نوع من العلاقة مع الشفعاء وفعل ما يرضيهم ولا ينسف جسور العودة من خلفه، ولا يفسخ عرىٰ الصداقة والمحبّة عن آخرها. وسيكون مجموع هذه الاجراءات عوامل مؤثرة في تربيته، وسبباً لابتعاده عن صف المجرمين بالتدريج، أو ان يقوم علىٰ اقل تقدير ببعض الاعمال الصالحة الىٰ جانب المعاصي والذنوب، لانقاذ نفسه بالتدريج من الوقوع في حبائل الشيطان.

ج ـ نيل شروط الشفاعة:

وردت في الآيات شروط مختلفة للشفاعة واهمها استحصال الإذن من الله بذلك، ومن البديهي ان من يرتجي الشفاعة لابد وان يحاول التمهيد للحصول علىٰ الإذن، اي يفعل ما يُرضي الله.

فقد ورد في بعض الآيات ان الشفاعة يوم القيامة لا تنفع الّا من رضي الرحمن قوله وأذِن له بالشفاعة (طه / ١٠٩).

وجاء في الآية (٢٨) من سورة الانبياء انهم: ﴿لا يَشفَعُون إلّا لِمن ارتضىٰ﴾، وتقول الآية (٨٧) من سورة مريم ان الشفاعة لا تكون الّا لمن ﴿اتخَذ عِند الرحمٰن عَهداً﴾، وكما قلنا سابقاً فان هذه المقوّمات لا تتحقق الّا في ظل الايمان بالله وبمحكمته العادلة والاعتراف بحُسن العمل الصالح وقبح السّيئات والاقرار بصحة

جميع القوانين والتعليمات الالهية.

بالاضافة الىٰ ذلك فقد ورد في بـ ـض الآيـات المـارّة ان الشـفاعة لا تشـمل الظالمين، وبناءً علىٰ هذا يتوجّب علىٰ من يرتجي نيل الشفاعة الخروج من صف الظالمين (بغض النظر عن المعنىٰ الذي تفسر به كلمة الظلم).

ومن مجموع هذه العوامل يتعيّن علىٰ كل من يأمل الفوز بالشفاعة اعادة النظر في اعماله السالفة واتخاذ القرارات الافضل بشأن سيرته المستقبلية. وهـذه ايـضاً تعتبر بذاتها نقطة ايجابية ومن العوامل التربوية الفاعلة.

د ـ الاهتمام بسلسلة الشفعاء:

تُعتَبر الاشـارات الواردة بـخصوص الشـفعاء فـي الآيـات الشـريفة، وكـذلك التصريحات التي نقلتها لنا الروايات، دليلاً آخر علىٰ الأبعاد التربوية للشفاعة.

جاء في حديث عن النبيﷺ انه قال: **«الشـفعاء خـمسة: القـرآن، والرَّحِـم، والأمانة، ونبيّكم، واهل بيت نبيّكم»**[١].

وجاء في مسند احمد حديث آخر عن النبي الكريمﷺ قال فيه: **«تعلّموا القرآن فانّه شافع يوم القيامة»**[٢].

وورد نفس هذا المعنىٰ في نهج البلاغة في كلام مولىٰ المتّقين امير المؤمنين‹ع› قال فيه: **«فانّه شافع مشفع»**[٣].

ويُستفاد من عدّة روايات اخرىٰ بأن افضل الشفاعة التوبة، فعن علي‹ع› قال: **«لا شفيع أنجح من التوبة»**[٤].

---

١ ـ ميزان الحكمة: المجلد ٥، الصفحة ١٢٢.

٢ ـ مسند احمد: المجلّد ٥، الصفحة ٢٥١ (طبعة بيروت دار صادر).

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة، ١٧٦.

٤ ـ نهج البلاغة: الكلمات القصار، الكلمة ٣٧١.

وصرّحت بعض الأحاديث ايضاً بشفاعة الانبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، كالحديث المنقول عن النبيﷺ انه: **«الشفاعة للانبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، واقل المؤمنين شفاعة من يشفع ثلاثين انساناً»**(١).

وجاء في حديث عن الامام الصادقؑ انه قال: **«اذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فاذا وقفنا بين يدي الله عزوجل قيل للعابد: انطلق الىٰ الجنّة، وقيل للعالم: قِف تشفّع للناس بحسن تأديبك لهم»**(٢).

يظهر من هذه التعابير وخاصة الأخير منها ان الشفاعة نتاج العلاقة المعنوية القائمة مع الصلحاء والابرار والمؤمنين والعلماء.

أمّا عن الشهداء فقد روي عن النبيﷺ انه قال: **«ويشفع الرجل منهم في سبعين ألفاً من اهل بيته وجيرانه»**(٣).

وحتىٰ ان بعض الروايات اشارت الىٰ أنَّ: **«شافع الخلق، العمل بالحق ولزوم الصدق»**(٤).

وصفوة القول التي يمكن استخلاصها من مجموع هذه الروايات وغيرها الواردة في المصادرِ الاسلامية ان الشفاعة من المسائل التربوية المهّمة في الإسلام والتي تعكس القيم الاسلامية السامية من خلال الاهتمام بنوع الشفعاء، وتحث جميع المسلمين للالتزام بهذه القيم والصفات التي يتمتع بها الشفعاء، وتشجّع علىٰ تقوية وتوثيق العلاقات معهم، وتجلو عنها كل تفسير خاطيء وكل تحريف باطل(٥)(٦).

---

١ ـ بحار الانوار: المجلد ٨، الصفحة ٥٨ الحديث ٧٥.

٢ ـ بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٥٦، الحديث ٦٦.

٣ ـ مجمع البيان: المجلد ٢ الصفحة ٥٣٨، (ذيل الآية ١٧١ من سورة آل عمران).

٤ ـ غرر الحكم.

٥ ـ ذكر في تفسير الميزان: وبعد ان وضّح الشفاعة بأنّها تأثير الأسباب في المسببات ـ انَّ

١٠١

ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد ؟

☑ إنّ التصور بوجود تعارض بين الشفاعة والتوحيد هو واحد من الاشكالات المعروفة بشأن موضوع الشفاعة، ومَـرَدُّ ذلك هـو الاعـلام المكـثف الذي وظّـفهُ الوهابيون ضد هذه المسألة، ولهذا ينبغي الالتفات اليها جيّداً:

تدور عقائد الوهابيين بشكل اساسي حول عددٍ من المحاور، واكثرها وضوحاً هي مسألة التوحيد في الافعال والتوحيد في العبادة. فهم يفسّرون فرعي التوحيد هذين وكأنّهما يتعارضان مع موضوع الشفاعة والتوسل بأرواح الانبياء والأوليـاء

⇦الشفعاء يقسمون الىٰ فريقين في عـالم التشـريع وعـالم التكـوين، فـمن جـملة الشـفعاء التشريعيين: التوبة والعمل الصالح والايمان والقرآن والأنبياء والملائكة والمؤمنين ويستدل في هذا الصدد بالآيات الدالة علىٰ تأثير هذه الامور في هؤلاء الاشخاص في غفران الذنوب (رغم ان عنوان الشفاعة غير موجود فيها) كالآية (٥٤) من سورة الزمـر، والآيـة (٢٨) مـن سـورة الحديد، والآية (٩) ومن سورة المائدة، والآية (١٦) من سورة المائدة والآية (٦٤) من سورة النساء، والآية (٧) من سورة المؤمن، والآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

٦ ـ نفحات القرآن ج ٦، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٣.

وشفاعتهم بين يدي الله. ولهذا السبب فقد اعتبروا جميع فرق المسلمين التي تعتقد بهذه الامور (باستثناء الوهابيين) مشركة، ولا تعجبوا لو قلنا إنهم يعتبرون أرواح غيرهم واموالهم واعراضهم مباحة مثلما كان يفعل عرب الجاهلية المشركون.

وانطلاقاً من هذا المعتقد فقد أراقوا دماء الكثير من المسلمين من الحجاز والعراق، ونهبوا أموالهم، وارتكبوا جرائم كثيرة لم يسبقهم إليها احدٌ في الإسلام.

ولمؤسِّس هذه الفرقة وهو محمد بن عبد الوهاب (المتوفىٰ عام ١٢٠٦) كتابٌ يعرف باسم «رسالة القواعد الأربع» يقول فيه حول هذا الموضوع:

ان الخلاص من الشرك يكون بمعرفة اربع قواعد:

الاولىٰ: ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يقِرون بان الله تعالىٰ هو الخالق الرزاق المدبر ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَٰرَ وَمَن يُخرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلأمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللهُ فَقُلْ أَفَلاَتَتَّقُونَ﴾ سورة يونس ـ ٣١.

الثانية: انهم يقولون ما دعونا الاصنام وتوجهنا اليهم إلا لطلب القرب والشفاعة ﴿وَيعبدون مِن دُون الله مالا يَضُرهُم وَلا يَنفَعُهم وَيَقُولون هؤلاء شفَعاؤنا عِند الله﴾. سورة يونس ـ ١٨.

الثالثة: انه ﷺ ظهر علىٰ قوم متفرقين في عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الانبياء والصالحين، وبعضهم الاشجار والاحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: ان مشركي زماننا اغلظ شركاً من الاولين، لأن أُولئك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالىٰ: ﴿فَاذا رَكِبُوا

في الفُلك دَعَوا الله مُخلِصِينَ لَه الَدين فَلَما نجَاهُم إلىٰ البَر إاذ هُم يُشرِكُون﴾[١].

والغريب في الامر هو تمسكهم بهذه الأقاويل التي لا تعدو ان تكون مجرد سفسطة ومغالطة، فيبيحون وبهذه البساطة أرواح واموال خصومهم، ويجيزون قتلهم، كما يقول الشيخ «سليمان» وهو من زعماء هذه الفرقة الضالة في كتابه «الهدية السنيّة» بأن الكتاب والسُنّة يشهدان علىٰ أنّ كلّ من يجعل الملائكة والانبياء أو بعض الاصحاب واهل البيت كابي طالب وابن عباس واسطة بينه وبين الله عزوجل ليشفعوا له عند الله تعالىٰ لقربهم منه كما يشفع الىٰ السلاطين بواسطة المقرّبين منه فمثل هذا الشخص كافر ومشرك، ومباح دمه وماله حتىٰ لو كان يشهد الشهادتين ويصلي ويصوم[٢].

لقد اثبتوا تمسكهم بهذا الحكم القبيح والمخزي اي اباحة دماء واموال المسلمين من خلال الاحداث التاريخية المختلفة ومنها الحادثة المشهورة لقتل اهالي الطائف في الحجاز قتلاً جماعياً وذلك (في صفر عام ١٣٤٣)، والقتل الجماعي لأهالي كربلاء في العراق (في ١٨ ذي الحجة عام ١٢١٦) وهذا ما ورد في الكثير من التواريخ.

النقاط الخاطئة في هذا الاستدلال:

١ـ ان الآيات القرآنيّة تثبت لنا هذه الحقيقة وهي ان الشفاعة مبدأ اسلامي وقرآني بديهي الّا آنهاتضّمنت شروطاً للشفيع وللمشفوع له. وعلىٰ هذا فلا يمكن لأحد ان يتحدث باسم الإسلام والقرآن وينكر هذا المبدأ بجميع دلائله البيّنة، واننا

---

١ ـ «رسالة الاربع قواعد» تأليف محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابيين: من الصفحة ٢٤ الىٰ الصفحة ٢٧ وفقاً لما نقله كتاب كشف الارتياب الصفحة رقم ١٦٣.

٢ ـ الهدية السنية: الصفحة ٦٦.

لنعجب كيف انهم يعتبرون انفسهم مسلمين وينكرون هـذا المـبدأ الذي يُـعَدُّ مـن ضرورات الإسلام والقرآن، فهل ينكر المُسلم ضرورات الإسلام واحكام القرآن؟

٢ـ إن الشفاعة التي ذكرها القرآن وذبَّ عنها، شفاعة يـرتبط خـطّها الأصـيل بـ«اذن الله» ومالم يأذن بالشفاعة فلا يحق لشفيع ان يشفع، وبتعبير آخر فان هذه الشفاعة صادرة من الاعلىٰ ومشروطة بـاذن الله، وهـي ليست كشـفاعة حـاشية السلاطين الجائرين، فهي صـادرة مـن الاسـفل وقـائمة عـلىٰ اسـاس العـلاقات الشخصية.

إن شفاعةً كهذه تُعَد تأكيداً لمسألة التوحيد لأن خطّها الاصلي يصدر عـن الله تعالىٰ وهذا هو التوحيد البعيد عن أي لون من ألوان الشرك. لكن الوهابيين الذين تشابهت عليهم الشفاعة القرآنية مع الشفاعة الشيطانية لحواشي السلاطين انكـروا هذا المبدأ واعتبروه مضاداً لاصل التوحيد. وفي الحقيقة انهم قد اعـترضوا عـلىٰ اوهامهم في هذا الطرح، لا علىٰ مبدأ الشفاعة القرآنية.

٣ـ الشفاعة في حقيقتها سبب للنجاة، كما هو الاعتقاد بوجود الأسباب في عالم الخلقة والتكوين (كتأثير اشعة الشمس وتساقط المطر في نمو الاعشاب) لا يتنافىٰ مطلقاً مع مبدأ التوحيد. لأن تأثير هذه الاسباب يـتحقق بـاذن الله وأمـره، وفـي الحقيقة ان عملها هو نوع من الشفاعة التكوينية، كما ان وجود مثل هذه الاسباب في عالم الشريعة للمغفرة والنجاة بإن الله لا يتعارض مع التوحيد بل هو تأكيد له، وهذا هو ما نطلق عليه اسم الشفاعة التشريعية.

٤ـ إن الشفاعة التي يرفُضها القرآن في عبادة الأصنام هي انهم كانوا يـجعلون كثيراً من الاشياء الخالية من أيّة ميزة أو خاصية شفيعة لهـم الىٰ الله؟ ولذا صَـرّح مطلع الآية (١٨) من سورة يونس وهي الآية التي يستندون عـليها بـالخصوص:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلآءِ شُفَعٰؤُنَا عِندَ ٱللهِ﴾

هذا من جهة؛

ومن المؤكد ان هذا لا علاقة له بشفاعة الانبياء والأولياء، فهذا الكلام يـخص الاصنام وهي الاحجار العارية عن اي عقل وأحاسيس.

ومن جهة اخرىٰ، فالقرآن يذم الشفاعة القائمة علىٰ أساس الاعتقاد باستقلال الشفيع، وتأثيره في مصير الناس بلا إذن من الله، ولذا جاء في الآية (٣) من سورة الزمر وهي من الآيات التي يستندون اليها: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ووفقاً لهذه الآية فانهم كانوا يعتبرون معبوديهم اولياء، وقيّمين وحماة وحافظين لهم، فكانوا يعبدونهم، وكلا هذين الفعلين (إعتبارهم أولياء وعبادتهم) شرك.

أما اذا لم يعبد أولياء الله وانبياءه وملائكته، بل يحترمهم ويكرّمهم ويرىٰ فيهم شفعاء له بين يدي الله وبأذنه، فهو غير مشمول بهذه الآية قطعاً.

وبسبب عدم احاطة الوهابيين بالآيات القرآنـية الواردة بـخصوص الشـفاعة، ومسألة الكفر والايمان والشروط التـي حـدَّدها الله للشـفيع والمشـفوع له، فـقد اشتبهت عليهم هذه المسألة مع ما كان يعتقد به عبدة الاوثـان، وبـهذه الشـاكـلة التَبَسَتْ عليهم الحقيقية.

٥ـ اما قول الوهابيين بأن عبدة الأوثان العرب كانوا يعتقدون بان كلّ شيء بما فيه المالكية والرازقية لله تعالىٰ، وكانت مشكلتهم تتمثل فقط في شفاعة ووساطة الأوثان، فهو خطأ آخر من أخطائهم الناتجة عن الافتقار العلمي وعـدم المـامهم بالآيات القرآنية. وذلك لأنهم ـ اي عبدة الاصنام ـ كانوا ينسبون بعض هذه الصفات للاصنام كما يفهم هذا المعنىٰ من الآيات الشريفة ومن جملتها الآية (٦٥) من سورة العنكبوت التي جاء فيها: ﴿فاذا رَكِبُوا في الفلكِ دَعَوا الله مُخلِصِين لَه الّدين فَلمّا نَجّاهم الىٰ البرِّ إذا هُم يُشركون﴾.

يتبيَّن من هذا التعبير انهم كانوا في الأوضاع العادية يتوسلون بـالاصنام لحـل مشاكلهم، وفي الشدائد يتعلّقون بالله فقط.

الآية (٤٩) من سورة الرعد فيها امر للنبيﷺ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَٰتِ﴾.

لو كان المشركون يعتقدون بتفرد الله في الخالقية وينظرون الىٰ الأصنام نظرة الشفيع فلا معنىٰ لهذا السؤال، لانهم سيقولون في الجواب: إننا لا نعتبرهم خالقين، ونعدّهم واسطة فقط بين الخالق والمخلوق، وهل يجب في الواسطة ان يكون خالقاً او شريكاً في الخلق؟ لفضح اكاذيبهم ان يسألهم ماذا خلقوا؟

تبين الآية (١١١) من سورة الاسراء انّهم كانوا يظنّون اصنامهم انداداً لله في المالكية والحاكمية علىٰ العالم، وحتىٰ انّهم كانوا يعتقدون ان الأصنام تعين الله في بعض المشاكل: ﴿وقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ ٱلذُّلِ وَكَبِّرْهُ وتَكْبِيراً﴾.

تمثل كل واحدة من هذه الجمل الثلاث نفياً لواحد من معتقدات عبدة الاوثان، الذين كانوا يظنون أنَّ: (الملائكة بنات الله)، (يرجىٰ الالتفات الىٰ ان كلمة الولد تعني كلا المعنيين البنت والولد أي الذكر والانثىٰ)[1] وأنهم شركاء له في الخلق وانهم اعوانه وأولياؤه.

ومن الواضح انّ هذه المعتقدات لو لم يكن لها وجود في تلك البيئة، لما كان لهذه التعابير القرآنية ايُّ مفهوم.

ومما يسترعي الإنتباه ان القرآن الكريم وصف عبدة الاوثان بـ«المشركين» واعتبر عملهم «شِركاً». فلو لم يكونوا يعتقدون بنوع من الشِّركة بين الله والاصنام وكانوا يحسبونها شفعاء فقط بين يدي الله، اذن لما كان هذا التعبير صحيحاً بشأنها، لأن كلمة «الشرك والمشرك» دالتان علىٰ انهم كانوا يعتبرون الأصنام شركاء لله في

---

١ ـ الولد بمعنىٰ المولود وتُطلق علىٰ الصغير والكبير والذكر والأنثىٰ والمفرد والجمع (راجع مفردات الراغب).

الربوبيّة، وحل المشاكل والخلقة وامثال ذلك. «كانت الاصنام الحجرية والخشبية في عقيدتهم رمزاً ومظهراً للصالحين والملائكة».

وبعبارة اخرىٰ كانوا يقولون بنوع من الاستقلال لتلك الاصنام في تدبير شؤون العالم، وبتعبيرهم كانوا يعتبرونها أنداداً لله، لا مجّرد وسطاء بين يديه.

والتعابير الواردة في الآيات القرآنية المختلفة تكشف لنا عن هذا الموضوع بكل وضوح، جاء مثلاً في الآية (٢٢) من سورة العنكبوت: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

وهذه اشارة لاعتقاد المشركين بان الاصنام اولياؤهم وانصارهم (من دون الله)، كما تُصرح بذلك الآية (١٠) من سورة الجاثية: ﴿وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم مَا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

تكرر في القرآن الكريم تعبير «من دون الله» في وصف معتقدات المشركين، وهذا دليل علىٰ انهم كانوا يتخذون موجودات من دون الله لتكون لهم انصار واولياء، وهذا شرك في الربوبية لا مسألة شفاعة.

وصفوة القول ان القرآن الكريم قد اورد في آياته المختلفة اعتراضين رئيسيين علىٰ المشركين، وهما اولاً: انهم اعتبروا هذه الكائنات الفاقدة للاحساس وللسمع والبصر مصدراً مؤثراً، وثانياً انهم يرون فيها انداداً لله في التدبير والربوبية.

وقد كان لعبدة الاصنام في العصر الجاهلي آراء وكلمات متناقضة طبعاً. فهم لا يطرحون أقوالهم بلا اي تناقض أو تهافت، شأن اي انسان منطقي وَواعٍ لذا فهم في نفس الوقت الذي يعتبرون الاصنام شركاء لله في حل المشاكل ويصوّرونها وكأنها اولياء وانصار لهم من دون الله، فانهم كانوا يطرحون ايضاً قضية الشفاعة بين يدي الله، وهذا لايدل مطلقاً علىٰ عدم الاعتقاد بالشرك في الافعال.

وهذا ما يستخلص من دراسة مجموعة الآيات، واستقراء جميع احوالهم، ثم انهم لايعتبرون الشفاعة مطلقاً منوطة ورهينة باذن الله.

وبناءً علىٰ هذا فاننا نستنتج وبكل ثقة لو ان الانسان تمسك بأولياء الله فقط (لا الاصنام الحجرية والخشبية)، واعتبرهم ـ دون غيرهم ـ شفعاء له بين يدي الله (لا شركاء له في الولاية والنصرة والتدبير)، وان شفاعتهم لا تحصل الّا بـاذن الله (لا بصورة مستقلة عنه)، فلا اعتراض عليه ابداً فـي مـثل هـذه الحـالة. وانـما يـرد الاعتراض حينما يغفل المرء عن واحدٍ من هـذه المـبادىء الثـلاثة أو بأجـمعها، ويسلك الطريق الخاطىء.[1]

---

١ ـ نفحات القرآن ج ٦ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٦.

فروع الدين

الصلاة

١٠٢

ماهي فلسفة الوضوء والغسل؟

☑ الشيء الذي لا يختلف عليه إثنان، هو أنّ للوضوء فائدتين واضحتين: إحداهما صحية والأُخرىٰ أخلاقية معنوية، فغسل الوجه واليدين في اليوم خمس مرّات أو على الأقل ثلاث مرات، لا يخفى أثره في نظافة الإنسان وصحته، أمّا الفائدة الأخلاقية المعنوية فهي في الأثر التربوي الذي يخلفه قصد التقرّب إلى الله في نفس الإنسان حين يعقد النيّة للوضوء بالأخصّ حين ندرك أنّ المفهوم النفسي للنية يعني أن حركة الإنسان أثناء الوضوء والتي تبدأ من الرأس وتنتهي بالقدمين ـ هي خطوات في طاعة الله.

ونقرأ في رواية عن الإمام علي بن موسى الرّضاﷺ قوله: «إنّما أُمر بالوضوء وبدىء به لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إيّاه، مطيعاً له فيما أمره نقياً من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس،

وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار»[1].

وتتوضح فلسفة الوضوء أكثر في الحديث عن فلسفة الغسل، والذي سنتناوله فيما يلي:

فلسفة الغسل:

قد يسأل البعض لماذا أمر الإسلام بغسل كامل الجسم لدى حصول «الجنابة» في حين أن عضواً معيناً واحداً يتلوث أو يتسخ في هذه الحالة؟

فهل هناك فرق بين البول الخارج من ذلك العضو، وبين «المني» الخارج منه أثناء الجنابة بحيث يجزي غسل العضو وحده في حالة التبول، بينما يجب غسل الجسم كله بعد خروج المني من العضو؟

لهذا السّؤال جوابان، مجمل ومفصل، وهما كما يلي:

فالجواب المجمل يتلخص في أن خروج المني من الإنسان لا ينحصر أثره في العضو الذي يخرج منه، أي أنّه ليس كالبول والفضلات الأخرى.

والدليل على هذا القول هو تأثر الجسم كله أثناء خروج المني من العضو بحيث تطرأ على خلايا الجسم كلها حالة من الإسترخاء والخمول، وهذه الحالة هي الدليل على تأثير الجنابة على أجزاء الجسم كلها، وقد أظهرت بحوث العلماء المتخصصين ـ في هذا المجال ـ أن هناك سلسلتين عصبيتين نباتيتين في جسم الإنسان، هما السلسلة السمبثاوية (الأعصاب المحركة) والسلسلة شبه السمبثاوية (الاعصاب الكابحة) تمتدان في كافة أجزاء الجسم وأجهزته الداخلية، وتتولى السلسلة السمبثاوية تحفيزاً جهزة الجسم على العمل وتسريع عملها، بينما السلسلة شبه السمبثاوية تعمل عكس الأُولىٰ، فتحدّ عمل أجهزة الجسم وتبطئها فالأُولىٰ تلعب

١ ـ وسائل الشيعة، ج ١، ص ٢٥٧.

دور جهاز دفع البنزين في السيارة من أجل تحريكها والأُخرىٰ يكون دورها دور الكابح فيها لإيقافها عن الحركة، وبالتوازن الحاصل في عمل هاتين السلسلتين العصبيتين تعمل جمع أجهزة جسم الإنسان بصورة متوازنة أيضاً.

وقد تحدث في جسم الإنسان ـ أحياناً ـ فعاليات تعيق استمرار هذا التوازن فيطغى عمل أحد السلسلتين العصبيتين على عمل الجملة الأُخرىٰ، ومن هذه الفعاليات وصول الإنسان إلى الذروة في اللذة الجنسية، أي ما يسمى بحالة «الأُوركازم» التي تقترن بخروج المني من عضو الإنسان.

وفي هذه الحالة يطغى عمل السلسلة العصبية شبه السمبثاوية الكابح على عمل السلسلة العصبية الأُخرىٰ التي هي السمبثاوية الدافعة فيختل التوازن بصورة سلبية في جسم الإنسان.

وقد ثبت بالتجربة أن الشيء الذي يمكنه إعادة التوازن بين عمل تلك السلسلتين العصبيتين، هو وصول الماء إلى جسم الإنسان، ولما كانت حالة «الأوركازم» التي يصل إليها الإنسان لدى «الجنابة» تؤثر بصورة محسوسة عل أجهزة جسم الإنسان وتخل بتوازن السلسلتين العصبيتين المذكورتين، لذلك أمر الإسلام بأن يباشر الإنسان غسل كل جسمه بعد كل مقاربة جنسية، أو لدى خروج «المني» منه، حيث يعود بهذا الغسل التوازن بين عمل السلسلتين العصبيتين السمبثاوية وشبه السمبثاوية في كل أجزاء الجسم، فتعود لها حالتها الطبيعية في الحركة والحياة[1].

وبديهي أنّ فائدة الغسل لا تنحصر في الذي تحدثنا عنه قبل قليل، بل أنّ الغسل يعتبر أيضاً نوعاً من العبادة التي لها آثار أخلاقية لا تنكره، ولهذا السبب يبطل

---

١ ـ ونقرأ في رواية عن الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «إنّ الجنابة خارجة من كل جسده فلذلك وجب عليه تطهير جسده كله» وفي هذه الرواية إشارة للبحث الذي تناولناه أعلاه ـ من وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٦٦.

الغسل إن لم يكن مقترناً بنيّة الطاعة والتقرب إلى الله سبحانه، لأنّ الحقيقة هي أنّ الجسم والروح كليهما يتأثران أثناء خروج «المني» من الإنسان أو لدى حصول المقاربة الجنسية ـ فالروح تجر بذلك وراء الشهوات المادية ويدفع الجسم إلى حالة الخمول والركود.

وغسل الجنابة يعتبر غسلاً للجسم بما يشمله من عملية إيصال الماء إلى جميع أجزائه، ويعتبر غسلاً للروح بما يحتويه من نية الطاعة والتقرب إلى الله، أي أنّ لهذا الغسل أثرين مادي وروحي، يدفع الأثر المادي منه الجسم إلى استعادة حالة النشاط والفعالية، ويدفع الأثر الروحي الإنسان للتوجه إلى الله وإلى المعنويات.

أضف إلى ذلك كلّه أنّ وجوب غسل الجنابة في الإسلام هو أيضاً من أجل إبقاء جسم الإنسان المسلم طاهراً، كما هو رعاية للجانب الصحي في حياة الإنسان، وقد يوجد الكثير من الناس ممن لا يعتنون بنظافة أجسامهم لكن هذا الأمر والواجب الإسلامي يجبرهم على غسل أجسامهم بين فترة وأُخرىٰ ولا يقتصر التهاون في غسل الجسم على إنسان العهود القديمة، بل حتى في عصرنا الحاضر هناك الكثير ممن لا يعتنون بغسل أجسامهم، بل يتهاونون في هذا الأمر الحياتي المهم (وطبيعي أن حكم غسل الجنابة حكم عام، وقانون كلي يشمل حتى الشخص الذي غسل جسمه قبل حصول الجنابة بقليل).

إنّ الجوانب الثلاثة المذكورة فيما سبق ـ توضح بمجموعها سبب وجوب الغسل لدى خروج المني من الإنسان سواء كان في أثناء النوم أو اليقظة وكذلك بعد المقاربة الجنسية (حتى لو لم تؤد إلى خروج المني)[١].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٦١٧/٣ ـ ٦٢١.

١٠٣

ماهي فلسفة التيمم؟

يتساءل كثيرون: ما الفائدة من ضرب اليدين بالتراب ومسح الجبين وظهر اليدين بهما خاصّة أنّنا نعلم أن كثيراً من الأتربة ملوثة، وناقلة للميكروبات والجراثيم؟

في جواب هذه الأسئلة نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: الفائدة الخلقية، فإن التيمم إحدى العبادات، وتتجلى فيها روح العبادة بكل معنى الكلمة، لأن الإنسان يمس جبهته التي هي أشرف الأعضاء في بدنه بيديه المتربتين ليظهر بذلك خضوعه لله وتواضعه في حضرته ولسان حاله يقول: يا ربّي إنّ جبهتي وكذا يداي خاضعات أمامك إلى أبعد حدود الخضوع والتواضع، ثمّ يتوجه عقيب هذا العمل إلى القيام بالصلاة وسائر العبادات المشروطة بالغُسل والوضوء، وبهذا الطريق يزرع التيمم في نفس الإنسان روح الخضوع لله، وينمي فيه صفة التواضع في حضرة ذي الجلال، ويدرّبه على العبودية له سبحانه، والشكر لأنعمه تعالى.

الثّانية: الفائدة الصحية، فقد ثبت اليوم بأنّ التراب بحكم احتوائه على

كميات كبيرة من البكتريا تزيل التلوثات، إن البكتريات الموجودة في التراب والتي تعمل على تحليل الموارد العضوية وإبادة كل أنواع العفونة، توجد ـ في الأغلب ـ بوفرة في سطح الأرض، والأعماق القريبة التي يمكن لها الإنتفاع بنور الشمس والهواء بصورة أكثر، ولهذا عند ما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحيوان في الأرض، وكذا ما يشابهها من المواد العضوية، نجدها تتحلل في مدّة قصيرة تقريباً وتتلاشى بؤر التعفن على أثر هجوم البكتريات عليها، ومن المسلّم أنّ هذه الخاصّية لو لم تكن في التربة لتحولت الكرة الأرضية في مدّة قصيرة إلى بؤرة عفونة قاتلة.

إنّ للتربة خاصّية تشبه مواد «الأنتوبيوتيك» التي لها أثر فعال جدّاً في قتل وإبادة الميكروبات.

وعلى هذا لا يكون التراب عارياً عن التلوث فقط، بل هو مطهر فعال للتلوثات، ويمكنه ـ من هذه الجهة ـ أن يحل محل الماء بفارق واحد، هو أن الماء يحلل الميكروبات، ويذهب بها معه، في حين أن مفعول التراب يقتصر على قتل الميكروبات فقط.

ولكن يجب الإنتباه إلى أنّ التراب الذي يستعمل في التيمم يجب أن يكون طاهراً نظيفاً، كما أشار اليه القرآن الكريم في تعبيره الجميل إذا يقول: ﴿طيباً﴾.

والجدير بالإنتباه أنّ التعبير ب«الصعيد» المشتق من «الصعود» يشير إلى أن أفضل أنواع التربة الذي ينبغي أن تختاره للتيمم هو التربية الموجودة في سطح الأرض، يعني تلك التربة التي هي عرضة لأشعة الشمس والمليئة بالهواء والبكتريا المبيدة للميكروبات، فإذا كانت تلك التربة المستعملة في التيمم طيبة وطاهرة أيضاً كان التيمم بها ينطوي على الآثار المذكورة من دون أن يكون فيه أي ضرر أو أية مضاعفات[١].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٣ / ٢٤٩ ـ ٢٥١.

١٠٤

ما هو اسلوب غسل اليدين و مسح الرأس و الأرجل في الوضوء؟

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[1]

لقد ذكرت الآية حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء، فأشارت إلى أنّ الغسل يكون حتى المرفقين ـ وقد جاء التصريح بالمرفقين في الآية لكي لا يتوهم بأنّ الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العادة في غسل الأيدي.

ويتبيّن من هذا التوضيح أنّ كلمة «إلى» الواردة في الآية هي لمجرّد بيان حد الغسل وليست لبيان أُسلوبه كما التبس على البعض، حيث ظنوا أنّ المقصود في الآية هو غسل اليدين ابتداء من أطراف الأصابع حتى المرفقين (وراج هذا الأُسلوب لدى جماعات من أهل السنة).

ولتوضيح هذا الأمر نقول: أنّه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفة

---

١ ـ المائدة: ٦.

من حد ارضيتها لغاية متر واحد، فالمفهوم من ذلك أنّه لا يطلب أن يبدأ الصباغ عمله من تحت إلى فوق، بل إنّ ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحة المراد صبغها لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا الأساس فإن الآية أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذي يجب غسله منها لا أُسلوب وكيفية الغسل.

وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيتعليهم السلام أُسلوب الغسل وفق سنّة النّبيصلى الله عليه وآله وسلم وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

ويجب الإنتباه إلى أنّ المرفق ـ أيضاً ـ يجب غسله اثناء الوضوء، لأن الغاية في مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغيّي، أي أن الحدّ يدخل في حكم المحدود[1].

إنّ حرف (بـ) الوارد مع عبارة «برؤوسكم» في الآية يعني التبعيض، كما صرّحت به بعض الروايات وأيده البعض من علماء اللغة، والمراد بذلك بعض من الرأس، أي مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعة أنّ هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلاً باليد، بينما الرائج بين البعض من طوائف السنّة في مسح كل الرأس وحتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآية الكريمة.

إنّ اقتران عبارة «ارجلكم» بعبارة «رؤوسكم» دليل على أنّ الأرجل يجب أن تمسح هي ـ أيضاً ـ لا أن تغسل، وما فتح اللام في «ارجلكم» إلّا لأنّها معطوفة محلاً على «رؤوسكم» وليست معطوفة على «وجوهكم»[2] [3].

---

١ ـ لقد ذكر «سيبويه» الذي هو من مشاهير علماء اللغة العربية أنّه متى ما كان الشيء الوارد بعد (إلى) والشيء الوارد قبلها من جنس واحد، ويدخل هذا (المابعد) في الحكم ـ أمّا لو كانا من جنسين مختلفين فيعتبر خارجاً عن الحكم ـ فلو قيل: أمسك إلى آخر ساعة من النهار، يكون المفهوم من هذه الجملة أن الإمساك يشمل الساعة الأخيرة أيضاً، بينما لو قيل: أمسك إلى أول الليل فإن أوّل الليل لا يدخل ضمن حكم الإمساك (المنار، ج ٦، ص ٢٢٣).

٢ ـ ليس هناك من شك بأنّ عبارة «وجوهكم» تفصلها مسافة كبيرة نسبياً عن عبارة

١٠٥

لماذا وجب الاتّجاه نحو القبلة في الصلاة؟

نقرأ في سورة البقرة الآية ١١٥ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، الله موجود في كل جهة ومكان، فلماذا وجب الإتجاه نحو القبلة في الصلاة؟

واضح أن الإتجاه نحو القبلة لا يعني تحديد ذات الباري تعالى في مكان وفي جهة، بل إن الإنسان موجود مادي، ولابدّ أن يصلي باتجاه معين، ثم إن ضرورة الوحدة والتنسيق في صفوف المسلمين تفرض اتجاههم في الصلاة نحو قبلة واحدة، وإلّا ساد الهرج والفوضى، وتفرّقت الصفوف وتشتتت.

أضف إلى ذلك أن الكعبة التي جعلت قبلة للمسلمين بقعة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والإتجاه نحوها يوقظ في النفوس ذكريات المسيرة التوحيديّة.[٤]

⇦«أرجلكم» لذلك يستبعد أن تكون الأخيرة معطوفة على «وجوهكم»، إضافة إلى ذلك فإنّ الكثير من القراء قد قرأوا عبارة «أرجلكم» بكسر اللام.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٦١٢/٣ ـ ٦١٣.

٤ ـ تفسير الأمثل: ٣٥٢/١.

١٠٦

ما هو أسرار تغيير القبلة؟

☑ تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، أولئك الذين قالوا إن الأحكام ينبغي أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هي الكعبة، فلماذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، وإن كانت بيت المقدس فلِمَ هذا التغيير؟!

وأعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم ولإعلامهم المضّاد. قالوا إن تغيير القبلة تمّ بدافع عنصري، وزعموا أن النّبي اتجه أوّلاً إلى قبلة الأنبياء السابقين، ثم عاد إلى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! وقالوا: إن محمّداً ﷺ أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، ولما يئس منهم استبدل الكعبة بها.

واضح مدى القلق والاضطراب الذي تتركه هذه الوساوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم والإيمان في كل زواياه، ولم يتخلص بعد تماماً من رواسب الشرك والعصبية.

لذلك تصرّح الآية ١٤٣ من سورة البقرة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أن تغيير القبلة إختبار كبير لتمييز

المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة مايلي:

لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين، فقد أُمر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقّق الإنفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، حدث الإنفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأعرق مركز للأنبياء.

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا علىٰ قبلتهم الأُولىٰ (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وُضعوا في بوتقة الإختبار، لتخليصهم ممّا علّق في نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه.

إن الله سبحان ليس له مكان ومحل ـ كما ذكرنا ـ والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولإحياء ذكريات خط التوحيد، وتغييرها لا يغيّر شيئاً، المهم هو الإستسلام الكامل أمام الله، وكسر أوثان التعصب واللجاج والأنانية في النفوس.(١)

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١/٤١١ ـ ٤١٢.

١٠٧

ماهي حكمة وجوب الصلاة؟

يبيّن القرآن الكريم فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَرِ﴾[1].

طبيعة الصلاة ـ حيث أنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد ـ فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر. فالإنسان الذي يقف للصلاة، ويكبّر، يرى الله أعلى من كل شيء وأسمى من كل شيء، ويتذكر نعمه فيحمده ويشكره، ويثني عليه وينعته بأنّه رحمان رحيم، ويذكر يوم الجزاء «يوم الدين» ويعترف بالعبودية له، ويطلب منه العون، ويستهديه الصراط المستقيم، ويتعوذ به من طريق المغضوب عليهم، ويلتجىء إليه (مضمون سورة الحمد).

فلا شك أنّ قلب مثل هذا الإنسان وروحه سوف تدبّ فيها حركة نحو الحقّ، واندفاع نحو الطهارة، ونهوض نحو التقوى.

يركع لله.. ويضع جبهته على الأرض ساجداً لحضرته، ويغرق في عظمته، وينسى أنانيته وذاتيّاته جميعاً.

---

١ ـ العنكبوت: ٤٥.

ويشهد بوحدانيته وبرسالة النّبيﷺ.

ويصلي ويسلم على نبيّه، ويرفع يديه متضرعاً بالدعاء ليجعله في زمرة عباده الصالحين.

جميع هذه الأُمور تمنح وجوده موجاً من المعنوية، وتكون سداً منيعاً بوجه الذنوب.

ويتكرر هذا العمل عدة مرّات «ليل نهار» فحين ينهض صباحاً يقف بين يدي ربّه وخالقه ليناجيه..

وعند منتصف النهار وبينما هو غارق في حياته المادية يفاجأ بصوت تكبير المؤذن، فيقطع عمله ويسرع إلى حضرته، بل في آخر النهار بداية الليل أيضاً وقبل أن يدلف إلى فراش الدعة والراحة، يدعوه ويطلب منه حاجته، ويجعل قلبه مركز أنواره.

وبغض النظر عن كل ما تقدم فإنّ الإنسان حين يتهيأ لمقدمات الصلاة، يطهّر بدنه ويبعد عنه مسائل الحرام والغصب، ويتجه إلى الحبيب، فكلّ هذه الأُمور لها تأثير رادع لنوازع الفحشاء والمنكر.

غاية ما في الأمر أنّ كل صلاة ـ بحسب شروط الكمال وروح العبادة لها ـ أثر رادع ناهٍ عن الفحشاء والمنكر، فتارة تنهى نهياً كليّاً وأُخرىٰ جزئياً.. ومحدوداً.

ولا يمكن لأحد أن يصلي ولا تدع الصلاة فيه أثراً حتى لو كانت الصلاة صورية، وحتى لو كان ملوّثاً بالذنب! وبالطبع فإنّ مثل هذه الصلاة قليلة الفائدة ومثل هؤلاء الأفراد لو لم يصلّوا صلاةً كهذه لكانوا أسوأ ممّا هم عليه.

ولنوضّح أكثر فنقول: النهي عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

كما نقرأ في حديث عن النّبيﷺ أنّ شاباً من الأنصار أدّىٰ الصلاة معه، ولكنّه

كان ملوثاً بالذنوب القبيحة، فأخبروا النّبي ﷺ فقال: **«إن صلاته تنهاه يوماً»**[١].

هذا الأثر للصلاة له أهمية قصوى إلى درجةٍ أنّنا نجده في الرّوايات الإسلامية معياراً لقبول الصلاة وعدمها، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر؟! فبقدر ما منعته قبلت منه!»**[٢].

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة **﴿وَلَذِكْرُ ٱللهِ أَكْبَرُ﴾**.

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة أُخرىٰ في الصلاة، أي أن أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلي للنهي عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر الله، وكونه أكبر لأنّه العلّة والأساس للصلاة!.

وأساساً... فإنّ ذكر الله فيه حياة القلوب ودعتها، ولا شيء يبلغ مبلغه **﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾**[٣].

ولا ريب أنّ روح العبادة بجميع أقسامها ـ صلاة كانت أم غيرها ـ هو ذكر الله، فأذكار الصلاة، وأفعالها ومقدماتها، جميعها في الواقع تحيي ذكر الله في قلب الإنسان.!

وممّا يلفت النظر أن في الآية (١٤) من سورة طه إشارة إلى هذه الحكمة الأساسية من الصلاة، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلاً: **﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي﴾**.

في حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال: لا شيء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب الله أكبر من ذكر الله، فسألوه: حتى الجهاد في سبيل الله؟! فقال: أجل، فالله يقول: ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

---

١ ـ مجمع البيان، ذيل الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ الرعد، ٢٨.

تأثير الصلاة في تربية الفرد والمجتمع:

بالرغم من أن فائدة الصلاة لا تخفى على أحد، لكن التدقيق في متون الروايات الإسلامية يدلنا على لطائف ودقائق أكثر في هذا المجال!.

١ ـ إنّ روح الصلاة وأساسها وهدفها ومقدمتها ونتيجتها... وأخيراً حكمتها وفلسفتها، هي ذكر الله، كما بيّنت في الآية على أنّها أكبر النتائج.

وبالطبع فإنّ الذكر المراد هنا، هو الذكر الذي يكون مقدمة للفكر، والفكر الذي يكون باعثاً على العمل، كما ورد عن الإمام الصادقعليه السلام في تفسير جملة ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال: «ذكر الله عندما أحلّ وحرّم» أي على أن يتذكر الله فيتبع الحلال ويغضي أجفانه عن الحرام[١].

٢ ـ إنّ الصلاة وسيلة لغسل الذنوب والتطهر منها، وذريعة إلى مغفرة الله، لأنّ الصلاة ـ كيف ما كانت ـ تدعوا الإنسان إلى التوبة وإصلاح الماضي، ولذلك فإننا نقرأ في حديث عن النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله إذ سأل بعض أصحابه: «لو كان على باب دار أحدكم نهر واغتسل في كل يوم منه خمس مرات أكان يبقي في جسده من الدرن شيء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري كلما صلّى كفرت ما بينهما من الذنوب»[٢].

وعلى هذا فإنّ الجراح التي تخلفها الذنوب في روح الإنسان، وتكون غشاوة على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة وينجلي بها صدأ القلوب!

٣ ـ إنّ الصلوات سدّ أمام الذنوب المقبلة، لأنّ الصلاة تقوي روح الإيمان في الإنسان، وتربّي شجيرة التقوى في قلب الإنسان، ونحن نعرف أن الإيمان والتقوى هما أقوى سدّ أمام الذنوب، وهذا هو ما بيّنته الآية المتقدمة عنوان «النهي عن

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٢٠٠.

٢ ـ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٧ (الباب الثّاني من أبواب أعداد الفرائض الحديث ٣).

الفحشاء والمنكر»، وما نقرؤه في أحاديث متعددة من أن أفراداً كانوا مذنبين، فذكر حالهم لأئمّة الإسلام فقالوا: لا تكترثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم... وقد أصلحتهم.

٤ ـ إن الصلاة توقظ الإنسان من الغفلة، وأعظم مصيبة على السائرين في طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم وخلقهم، ويغرقوا في الحياة المادية ولذائـذها العابرة!

إلّا أنّ الصلاة بما أنّها تؤدى في أوقات مختلفة، وفي كل يوم وليلة خمس مرات، فإنّها تخطر الإنسان وتنذره، وتبيّن له الهدف من خلقه، وتنبهه إلى مكانته وموقعه في العالم بشكل رتيب، وهذه نعمة كبرى للإنسان بحيث أنّها في كل يوم وليلة تحثه وتقول له: كن يقظاً.

٥ ـ إنّ الصلاة تحطّم الأنانية والكبر، لأنّ الإنسان في كل يوم وليلة يصلي سبع عشرة ركعة، وفي كل ركعة يضع جبهته على التراب تواضعاً لله، ويرى نـفسه ذرة صغيرة أمام عظمة الخالق، بل يرى نفسه صفراً بالنسبة إلى ما لا نهاية له!.

ولأمير المؤمنين علي عليه السلام كلام معروف تتجسد فيه، فلسفة العبادات الإسلامية بعد الإيمان بالله، فبيّن أوّل العبادات وهي الصلاة مقرونة بهذا الهدف إذ قال: **«فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر»**[1].

٦ ـ الصلاة وسيلة لتربية الفضائل الخُلقية والتكامل المـعنوي للإنسـان، لأنّـها تخرج الإنسان عن العالم المحدود وتدعوه إلى ملكوت السماوات، وتجعله مشاركاً للملائكة بصوته ودعائه وابتهاله، فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطة إلى الله أو أن هناك «حاجباً» يمنعه... فيتحدث مع ربّه ويناجيه!.

إن تكرار هذا العمل في اليوم والليلة ـ وبالإعتماد عـلى صـفات الله الرحـمن الرحيم العظيم، خاصة بالاستعانة بسور القرآن المختلفة بعد سورة الحمد التي هي

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار ٢٥٢.

خير محفزٍ للصالحات، والطهارة ـ له الأثر في تربية الفضائل الخُلقية في وجود الإنسان!

لذلك نقرأ في تعبير الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن حكمتها قوله: «الصلاة قربان كل تقيّ!»[1].

٧ ـ إن الصلاة تعطي القيمة والروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ في الإنسان روح الإخلاص... فهي مجموعة من النية الخالصة والكلام الطاهر «الطيب» والأعمال الخالصة... وتكرار هذه المجموعة في اليوم والليلة ينثر في روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحة ويقوّي فيه روح الإخلاص.

لذلك فإنّنا نقرأ في بعض ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في ضمن وصاياه المعروفة بعد أن ضربه ابن ملجم بالسيف ففلق هامته، أنّه قال: «الله الله في صلاتكم فإنها عمود دينكم»[2].

ونعرف أنّ عمود الخيمة إذا انكسر أو هوى، فلا أثر للأوتاد والطنب مهما كانت محكمة... فكذلك إرتباط عباد الله به عن طريق الصلاة، فلو ذهبت لم يبق لأي عمل آخر أثر.

ونقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردّت ردّ سائر عمله!».

ولعل الدليل على هذا الحديث هو أن الصلاة رمزٌ للعلاقة والإرتباط بين الخالق والمخلوق! فإذا ما أدّيت بشكل صحيح، وكان فيها قصد القربة والإخلاص «حيّاً» كان وسيلة القبول لسائر الأعمال، وإلّا فإنّ بقية أعماله تكون مشوبة وملوّثة وساقطةً من درجة الاعتبار.

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ١٣٦.

٢ ـ نهج البلاغة، ومن كتاب له «وصية له» ٤٧.

٨ ـ إنّ الصلاة ـ بقطع النظر ـ عن محتواها، ومع الإلتفات إلى شرائط صحتها، فإنّها تدعوا إلى تطهير الحياة! لأنّنا نعلم أن مكان المصلي، ولباس المصلي، وبساطه الذي يصلي عليه، والماء الذي يتوضأ به أو يغتسل منه، والمكان الذي يتطهر فيه «وضوء أو غسلاً» ينبغي أن يكون طاهراً من كل أنواع الغصب والتجاوز على حقوق الآخرين. فإنّ من كان ملوّثاً بالظلم والغصب والبخس في الميزان والبيع وآكلاً للرشوة ويكتسب أمواله من الحرام... كيف يمكن له أن يهيء مقدمات الصلاة!؟ فعلى هذا فإنّ تكرار الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ـ هو نفسه ـ دعوة إلى رعاية حقوق الآخرين!

٩ ـ إنّ للصلاة ـ بالإضافة إلى شرائط صحتها ـ شرائط لقبولها، أو بتعبير آخر: شرائط لكمالها، ورعايتها ـ أيضاً ـ عامل مؤثر ومهم لترك كثير من الذنوب!.

وقد ورد في كتب الفقه ومصادر الحديث روايات كثيرة تحت عنوان موانع قبول الصلاة، ومنها «شرب الخمر» إذ جاء في بعض الرّوايات: لا تقبل صلاة شارب الخمر أربعين يوماً إلّا أن يتوب[١].

كما نقرأ في روايات متعددة أنّ من جملة «من لا تقبل صلاته «الإمام الظالم»[٢].

كما صُرّح في بعض الرّوايات بأنّ الصلاة لا تُقبل من «مانع الزكاة».

كما أنّ هناك بعض الرّوايات تقول: «إنّ الصلاة لا تقبل ممن يأكل السحت والحرام، ولا ممن يأخذه العجب والغرور» وهكذا تتّضح الحكمة والفائدة الكبيرة من وجود هذه الشروط.

١٠ ـ إنّ الصلاة تقوي في الإنسان روح الإنضباط والإلتزام، لأنّها ينبغي أن تؤدى في أوقات معينة، لأنّ تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣١٧ و ٣٢٠.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ٨٤ ص ٣١٨.

وكذلك الآداب والأحكام الأُخرىٰ في موارد النية والقيام والركوع والسجود وما شابهها، إذ أن رعايتها تجعل الإستجابة للإلتزام في مناهج الحياة ممكناً وسهلاً.

كل هذه من فوائد الصلاة ـ بغض النظر عن صلاة الجماعة ـ وإذا أضفنا إليـها خصوصية الجماعة، حيث أنّ روح الصلاة هي الجماعة، ففيها بركات لا تحصى ولا تعدّ، ولا مجال هنا لشرحها وبيانها، مضافاً الى أن الجميع يدرك خيراتها وفوائدها على الإجمال.

ونختم كلامنا في مجال حكمة الصلاة وفلسفتها وأسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضاعليه إذ سئل عنها فأجاب بما يـلي: «إن عـلة الصـلاة أنّـها إقـرار بالربوبية لله عزّوجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يـدي الجـبار جـل جـلاله بـالذل والمسكنة والخضوع والاعتراف، والطلب للإقالة مـن سـالف الذنـوب، ووضـع الوجه على الأرض كل يوم إعظاماً لله عزّوجلّ، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذللاً، راغباً طالباً للزيادة في الدين والدنيا مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عزّوجلّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سـيده ومـديره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي ومانعاً له عن أنواع الفساد»[1] [2].

١ ـ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٤.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٢/٣٩٨ ـ ٤٠٧.

١٠٨

ماهي حكمة إقامة الصلوة في اوقات محدّدة؟

يقول البعض: إنّهم لا ينكرون فلسفة واهمية الصّلاة وآثارها التربوية، ولكـنهم يسألون عن ضرورة إقامتها في أوقات محددة، ويرون أن الأحسن أن يترك الناس أحراراً لكي يؤدي كل منهم الصّلاة متى ما سنحت له الفـرصة أو مـتى مـا وجـد استعداداً روحياً لأداء هذه الفريضه؟

☑ إنّ التّجربة قد أثبت أنّ القضايا التربوية لو لم تخضع لشروط وقيود معينة، فإن العديد من الناس سيتجاهلون ويتركون هذه القضايا، وسيؤدي هذا التجاهل إلى أن تتزلزل أركانها، لذلك فإن القـضايا التـربوية يـجب أن تـخضع لقـيود خـاصّة ويخصص لأدائها أوقات محددة، وأن لا يسمح لأحد بتخطي هذه القيود أو تجاهل تلك الأوقات، خاصّة وإنّ أداء فريضة كالصّلاة وفي وقت معين وبصورة جـماعية يظهر عظمتها وهيبتها وتأثيرها القوي الذي لا يمكن لأحد نكرانـه، والصّـلاة فـي الحقيقة من أهم العوامل في تربية الإنسان وتكوين شخصيته الإنسانية.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٤٢٨/٣.

الصوم

١٠٩

ماهي حكمة وجوب الصوم؟

☑ للصوم أبعاد متعددة وآثار غزيرة مادية ومعنوية في وجود الإنسان، وأهمها البعد الأخلاقي، التّربوي.

من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان، و«تقوية» إرادته، و«تعديل» غرائزه.

علىٰ الصائم أن يكف عن الطعام والشراب علىٰ الرغم من جوعه وعطشه، وهكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسي، ليثبت عملياً أنه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف والمضجع، وأنه يستطيع أن يسيطر علىٰ نفسه الجامحة وعلىٰ أهوائه وشهواته.

الأثر الروحي والمعنوي للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

مثل الإنسان الذي يعيش إلى جوار أنواع الأطعمة والأشربة، لا يكاد يحس بجوع أو عطش حتى يمدّ يده إلى ما لذّ وطاب كمثل شجرة تعيش إلى جوار نهر وفير المياه، ما إن ينقطع عنها الماء يوماً حتى تذبل وتصفرّ.

أما الأشجار التي تنبت بين الصخور وفي الصحاري المقفرة، وتتعرض منذ أوائل

إنباتها إلى الرياح العاتية، وحرارة الشمس المحرقة حيناً، وبرودة الجوّ القارصة حيناً آخر، وتواجه دائماً أنواع التحديات، فإنها أشجار قوية صلبة مقاومة.

والصوم له مثل هذا الأثر في نفس الإنسان، فبهذه القيود المؤقتة يمنحه القدرة وقوة الإرادة وعزيمة الكفاح، كما يبعث في نفسه النور والصفاء بعد أن يسيطر علىٰ غرائزه الجامحة.

بعبارة موجزة: الصوم يرفع الإنسان من عالم البهيمية إلى عالم الملائكة وعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في سورة البقرة الآية ١٨٣ تشير إلى هذه الحقائق.

وهكذا الحديث المعروف: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ»[١] يشير إلى هذه الحقائق.

وعن عليعليه السلام عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن طريق مجابهة الشيطان، قال: «الصَّوْمُ يُسَوِّدُ وَجْهَهُ، وَالصَّدَقَةُ تُكْسِرُ ظَهْرَهُ، وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالْمُواظَبَةُ عَلَى الْعَمَلِ الصّالِحِ يَقْطَعُ دابِرَهُ، وَالإِسْتِغْفَارُ يَقْطَعُ وَتِينَهُ»[٢].

وفي نهج البلاغة عرض لفلسفة العبادات، وفيه يقول أمير المؤمنين عليعليه السلام: «وَالصِّيَامَ ابْتِلاَءً لإِخْلاَصِ الْخَلْقِ»[٣].

وروي عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَاباً يُدْعَى الرَّيَّانْ، لاَ يَدْخُلُ فِيهَا إِلَّا الصَّائِمُونَ».

يقول المرحوم الصدوق في «معاني الأخبار» معلقاً علىٰ هذا الحديث: إنما سمي هذا الباب بالريّان لأن مشقة الصائم إنما تكون في الأغلب من العطش، وعند ما يدخل الصائمون من هذا الباب يرتوون حتى لا يظمأوا بعده أبداً[٤].

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٦.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

٣ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٥٢.

٤ ـ بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٢.

الأثر الإجتماعي للصوم لا يخفى علىٰ أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع. الموسرون يحسّون بما يعانيه الفقراء المعسرون، وعن طريق الاقتصاد في استهلاك المواد الغذائية يستطيعون أن يهبوا لمساعدتهم.

قد يمكن تحسيس الأغنياء بما يعانيه الفقراء عن طريق الكلام والخطابة، لكن المسألة حين تتخذ طابعاً حسّيّاً عينيّاً لها التأثير الأقوى والأبلغ. الصوم يمنح هذه المسألة الهامة الإجتماعية لوناً حسياً، لذلك يقول الإمام الصادقعليه السلام في جواب عن سؤال بشأن علّة الصوم: «إِنَّما فَرَضَ اللهُ الصِّيَامَ لِيَسْتَوِيَ بِهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَذٰلِكَ إِنَّ الْغَنِيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسَّ الْجُوعِ فَيَرْحَمَ الْفَقِيرَ، وَإِنَّ الغَنِيَّ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئاً قَدَرَ عَلَيْهِ فَأَرَادَ اللهُ تَعَالىٰ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَأَنْ يُذِيقَ الْغَنِيَّ مَسَّ الْجُوعِ وَالْأَلَمِ، لِيَرُقَّ عَلَى الضَّعِيفِ وَيَرْحَمَ الْجَائِعَ»[١].

ترى، لو أن الدول الغنية في العالم صامت عدّة أيّام فـي السـنة وذاقت مـرارة الجوع، فهل يبقى في العالم كل هذه الشعوب الجائعة؟!

الآثار الصحية للصوم

أهمية «الإمساك» في علاج أنواع الأمراض ثابتة في الطبّ القديم والحـديث. البحوث الطبّية لا تخلو عادة من الحديث عن هذه المسألة، لأن العامل في كثير من الأمراض الإسراف في تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائية الزائدة تتراكم فـي الجسم علىٰ شكل مواد دهنية، وتدخل هي والمواد السكرية في الدم، وهذه المواد الزائدة وسط صالح لتكاثر أنواع الميكروبات والأمراض، وفي هذه الحالة يكـون الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الأمراض، وللقضاء علىٰ هذه المزابل المتراكمة في الجسم.

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج ٧، أول كتاب الصوم، ص ٣.

الصوم يحرق الفضلات والقمامات المتراكمة في الجسم، وهو في الواقع عملية تطهير شاملة للبدن.

إضافة إلى أنه استراحة مناسبة لجهاز الهضم وتنظيف له، وهذه الاستراحة ضرورية لهذا الجهاز الحساس للغاية، والمنهمك في العمل طوال أيام السنة.

بديهي أن الصائم ينبغي أن لا يكثر من الطعام عند «الإفْطار» و«السُّحُور» حسب تعاليم الإسلام، كي تتحقق الآثار الصحية لهذه العبادة، وإلّا فقد تكون النتيجة معكوسة.

العالم الروسي «الكسي سوفورين» يقول في كتابه:

«الصوم سبيل ناجح في علاج أمراض فقر الدم، وضعف الأمعاء، والإلتهابات البسيطة والمزمنة، والدمامل الداخلية والخارجية، والسل، والاسكليروز، والروماتيزم، والنقرس والإستسقاء، وعرق النساء، والخراز (تناثر الجلد)، وأمراض العين، ومرض السكر، وأمراض الكلية، والكبد والأمراض الأُخرىٰ.

العلاج عن طريق الإمساك لا يقتصر علىٰ الأمراض المذكورة، بل يشمل الأمراض المرتبطة بأُصول جسم الإنسان وخلاياه مثل السرطان والسفليس، والسل والطاعون أيضاً»[١].

عن رسول الله ﷺ قال: «صُومُوا تَصُحُّوا»[٢].

وعنه ﷺ أيضاً: «الْمِعْدَةُ بَيْتُ كُلِّ دَاءٍ وَالْحَمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ»[٣].

---

١ ـ كتاب «الصوم طريقة حديثة لعلاج الأمراض»، ص ٦٥، الطبعة الأُولىٰ.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

٣ ـ بحار الأنوار، ج ١٤، من الطبعة القديمة.

الخمس

١١٥

ألا يعد تخصيص نصف الخمس لبني هاشم تبعيضاً بين المسلمين؟!

يتصوّر بعضٌ أن هذه الضريبة الإسلامية الشاملة لخمس الكثير من الأموال، أي نسبة (عشرين المائة) حيث يعطى نصفها للسادة من أبناء الرسولﷺ، نوعٌ من التمييز العنصري أو ملاحظة العلاقات العائلية، وأنّ هذا الأمر لا ينسجم وروح العدالة الإجتماعية للإسلام وكونها شاملة لجميع العالم.

☑ إنّ هؤلاء لم يدرسوا ظروف هذا الحكم وخصوصياته بدقة كافية، فالإجابة على هذا السؤال كامنة في تلك الخصوصيات.

وتوضيح ذلك:

أوّلاً: إن نصف الخمس المتعلق ببني هاشم إنّما يعطى للمحتاجين والفقراء منهم فحسب، ولما يكفيهم لسنة واحدة لا أكثر، فبناءً على ذلك تصرف هذه الأموال على المقعدين عن العمل والمرضى واليتامىٰ من الصغار، أو من يكون في ضيق وحرج، لسبب من الاسباب ولهذا فإنّ القادرين على العمل «بالفعل أو بالقوّة» والذين

بإمكانهم أن يديروا حياتهم المعاشية، ليس لهم بأي وجه أن يأخذوا شيئاً من الخمس.

أمّا ما يقوله بعض السواد بأنّ السّادة يمكنهم أخذ الخمس حتى ولو كان ميزاب بيتهم من ذهب فهو كلام ساذج ولا أساس له أبداً.

ثانياً: إنّ المحتاجين والضعفاء من سادات بني‌هاشم لا يحق لهم أخذ شيء من الزكاة، فلهذا جاز لهم أن يأخذوا من هذا القسم من الخمس فحسب.[١]

ثالثاً: إذا زاد القسم المختصص لبني هاشم عن احتياجاتهم فإنّه يرجع إلى بيت المال حتى يُنفق في مصارف أُخرىٰ، كما أنّه إذ نقص هذا السهم عن حاجتهم يدفع الباقي من بيت المال إليهم أو من سهم الزكاة.

وبملاحظة تلك النقاط الثلاث يتّضح لنا عدم وجود فرق ـ في الواقع ـ من النّاحية الماديّة بين السادة وغيرهم.

فالمحتاجون من غيرهم يمكنهم سدّ حاجتهم من الزّكاة ويحرمون من الخمس، والمحتاجون من السادة يسدّون حاجتهم من الخمس ويحرمون من الزّكاة.

فيوجد في الحقيقة صندوقان، هما صندوق الخمس وصندوق الزكاة، فيحق لكلٍ من القسمين الأخذ من أحد الصندوقين وبصورة التساوي فيما بينهما، أي ما يحتاجه كلٌّ لعام واحد (فتأمل).

فالذين لم يُمعنوا النظر في هذه الشروط والخصوصيات تصوّروا من بيت المال أكثر من غيرهم أو أنّهم يتمتعون بإمتياز خاص.

والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا قلنا بعدم الفرق بين الإثنين آخر

١ ـ إنّ حرمة أخذ بني‌هاشم الزكاة مسلم بها وقد وردت في أكثر كتب الحديث وفتاوى العلماء وكتبهم الفقهية، فهل يعقل بأنّ الإسلام قد فكّر في شأن الفقراء والمحتاجين من غير بني‌هاشم ولم يعالج قضية المحتاجين من بني هاشم؟ فتركهم لحالهم.

الامر، فما جدوى هذه الخطة إذاً؟!

ويمكن أن ندرك جواب هذا التساؤل بملاحظة شيء واحد، وهو أنّ بين الزكاة والخمس بوناً شاسعاً، إذ أنّ الزكاة من ضرائب الأموال العامّة للمجتمع الإسلامي فتصرف عموماً في هذه الجهة، ولكن الخمس من ضرائب الحكومة الإسلامية فيصرف على القيادة والحكومة الإسلامية وتؤمن حاجتها منه.

فالتحريم على السادة من مدّ أيديهم للأموال العامّة، «الزّكاة» كان في الحقيقة ليجتنبوا عن هذا المال باعتبارهم أقارب النّبي، ولكيلا تكون ذريعة بيد الأعداء بأنّ النّبي ﷺ سلط أقرباءه على الإموال العامّة.

إلّا أنّه ـ من جانب آخر ـ ينبغي سدّ حاجة الضعفاء والفقراء من السادة، لذلك جعلت هذه الخطة لسدّ حاجتهم من ميزانية الحكومة الإسلامية لا من الميزانية العامّة ففي الحقيقة أنّ الخمس ليس إمتيازاً لبني هاشم، بل هو لإبعادهم من أجل الصالح العام ولئلا ينبعث سوء الظن بهم[١] [٢].

١ ـ وإذا لاحظنا أنّ في بعض الرّوايات التعبير بـ «كرامة لهم من أوساخ الناس» فهو ليُقنع بني هاشم من هذه الحرمة من جانب، وليفهم الناس أن يؤدوا الزّكاة إلى المحتاجين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٥/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢.

الزكاة

١١١

ماهي حكمة الزّكاة؟

☑ إذا علمنا أنّ الإسلام يظهر على أنّه مذهب أخلاقي أو فلسفي أو عقائدي بحت، بل ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية في الحياة، وكذلك إذا علمنا أن تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النّبي الأكرمﷺ، وإذا علمنا أن الإسلام يهتم اهتماماً خاصّاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقية في المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال والزكاة التي تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أن في كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم ويرعاهم ويقوم بشؤونهم.

وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإنّ الدولة هي التي تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم.

وكذلك العاملون في الدولة الإسلامية، الحكام والقضاة، وسائل الإعلام والمراكز الدينية وغيرها، فكل قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى ميزانية خاصّة ومبالغ طائلة

لا يمكن تهيئتها دون أن يكون هناك نظام مالي محكم منظم.

وعلى هذا الأساس أولىٰ الإسلام الزكاة ـ التي تعتبر في الحقيقة نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح، وعلى الأموال الراكدة ـ اهتماماً خاصاً، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت ـ جنباً إلى جنب ـ مع الصلاة في كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

وأكثر من هذا أننا نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الدولة الإسلامية إذا طلبت الزكاة من شخص أو أشخاص وامتنع هؤلاء من ذلك فسوف يحكم بارتدادهم، وإذا لم تنفع النصيحة معهم ولم يؤثر الموعظة فيهم، فإنّ الإستعانة بالقوّة العسكرية لمقابلتهم أمر جائز.

وفي رواية عن الإمام الصادقعليه السلام: «**من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن، ولا مسلم، ولا كرامة**».[1]

وممّا يلفت النظر أنّ الرّوايات قد أظهرت أن تعين الزكاة بهذا المقدار يبيّن دقة حسابات الإسلام، فإنّ المسلمين جميعاً لو أدّوا زكاة أموالهم بصورة دقيقة وكاملة فسوف لن يبقى فقير أو محروم في كافة أنحاء البلاد الإسلامية. ففي رواية عن الصادقعليه السلام: «**ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً... وإن الناس ما افتقروا، ولا احتاجوا، ولا جاعوا، ولا عروا إلّا بذنوب الأغنياء**»[2].

وكذلك يفهم من الرّوايات أنّ أداء الزكاة سبب لحفظ أصل الملك والأموال وتحكيم أسسها، بحيث أنّ الناس إذا أهملوا تطبيق هذا الأصل الإسلامي المهم فإنّ الفاصلة والتفاوت بين الطبقات سيصل إلى حد يعرض أموال الأغنياء إلى الخطر.

---

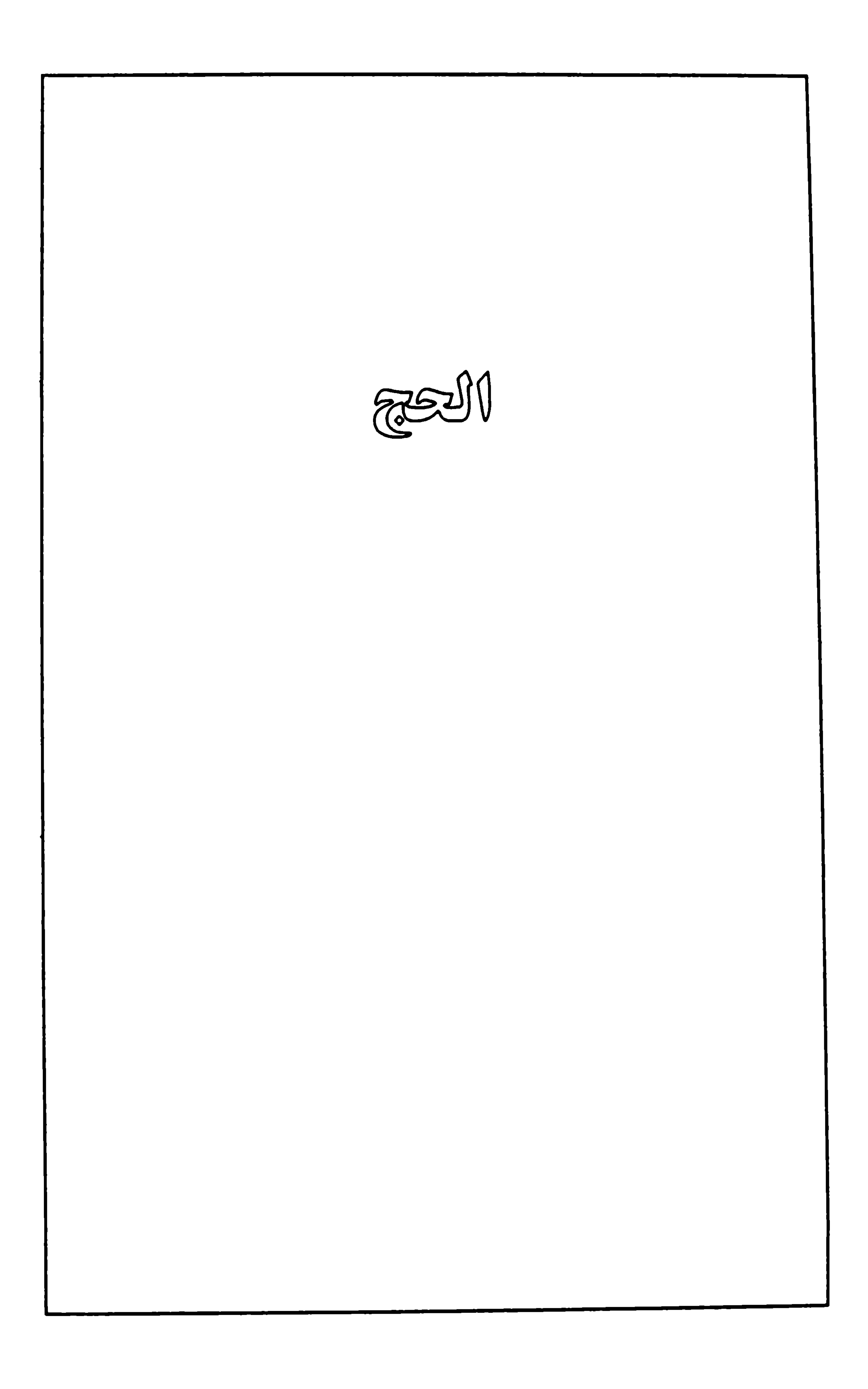
١ ـ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٠، باب ٤، حديث ٩.

٢ ـ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤، باب ١ من أبواب الزكاة حديث ٦.

في حديث عن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام: «حَصّنوا أموالكم بالزكاة»[١]. وبهذا المضمون نقلت روايات أُخرىٰ عن النّبيصلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنينعليه السلام[٢].

١ ـ وسائل الشيعة، ج٦، ص ٦، باب ١، من أبواب الزكاة، حديث ١١.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٦/٩٦ ـ ٩٧.



الحج

١١٢

ماهي فلسفة الحجّ وأسراره؟

☑ إنّ لشعائر الحجّ بركات كثيرة جدّاً في نفسيّة الفرد والمجتمع الإسلامي. ويمكنها ـ إن أُجريت وفق أُسلوب صحيح ـ أن تحدث في المجتمعات الإسلامية تبدّلاً جديداً كلّ عام.

وتمتاز هذه المناسك بأربعة أبعاد مهمّة:

١ ـ البعد الأخلاقي للحج:

أهمّ جانب في فلسفة الحجّ التغيّر الأخلاقي نحو الأحسن الذي يحصل عند الناس، فمراسم الإحرام تبعد الإنسان بشكل تامّ عن الأُمور المادية والإمتيازات الظاهرية والألبسة الفاخرة، ومع تحريم الملذّات، وبناء الذات الذي يعتبر من واجبات المحرم يبتعد الفرد عن عالم المادّة، ويدخل إلى عالم النور والصفاء والتسامي الروحي. وترى الإنسان قد إرتاح فجأةً من عبء الإمتيازات الموهومة، والدرجات والرتب والنياشين.

ثمّ تلي عمليّة الإحرام مراسم الحجّ الأُخرىٰ تباعاً، وفيها تتوطّد علاقة الإنسان الروحيّة مع خالقه ـ لحظة بعد أُخرىٰ ـ وتتوثّق. فينقطع عن ماضيه الأسود المملوء آثاماً وذنوباً، ويتّصل بمستقبل واضح كلّه نور وصفاء. خاصّةً أنّ مراسم الحجّ تثير في الإنسان إهتماماً كبيراً ـ في كلّ خطوة يخطوها ـ بإبراهيم عليه السلام محطّم الأصنام، وإسماعيل عليه السلام ذبيح الله. وأمّه هاجر عليها السلام. ويتجلّى للحجّاج جهادهم وتضحياتهم، إضافةً إلى كون أرض مكّة عامّة، والمسجد الحرام وبيت الكعبة ومحلّ الطواف حولها خاصّة، تذكّر الحاجّ بالرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وقادة الإسلام العظام وجهاد المسلمين في صدر الإسلام، فيتعمّق أثر هذه الثورة الأخلاقية بدرجة يشاهد فيها الحاج في كلّ زاوية من زوايا المسجد الحرام وأرض مكّة المقدّسة وجه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي عليه السلام، وسائر قادة المسلمين، ويسمع قعقعة سيوفهم وصهيل خيولهم.

أجل، إنّ هذه الأُمور كلّها تتّحد وتتضامن لتمهّد لثورة أخلاقية في القلوب المستعدّة. وبشكل لا يمكن وصفه تفتح في حياة الفرد صفحة جديدة. ولهذا نصّت الأحاديث الإسلامية على أنّ الذي يؤدّي الحجّ تامّاً صحيحاً «**يخرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أُمّه**»[1]!

فالحجّ ولادة ثانية للمسلم. يستهلّ بها حياة إنسانية جديدة، ولا حاجة هناك لإعادة القول بأنّ هذه البركات وتأثيرها وما نشير إليه بعد هذا ليست نصيب من إقتنع من مكاسب الحجّ بقشرته ورمي اللب جانباً. كما أنّها ليست نصيب من يعتبر الحجّ سياحة للتنفيس عن الخاطر، أو للتظاهر والرياء، أو طريقاً للحصول على متاع شخصي دنيوي، وهو في الحقيقة لم يتوصّل إلى معنى الحج الحقيقي، فكان نصيبه ما يستحقّه!

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلّد ٩٩، الصفحة ٢٦.

٢ ـ البعد السياسي للحجّ

ذكر أحد كبار فقهاء المسلمين أنّ مراسم الحجّ في الوقت الذي تستبطن أخلص وأعمق العبادات، هي أكثر الوسائل أثراً في التقدّم نحو الأهداف السياسيّة الإسلامية. فجوهر العبادة التوجّه إلى الله، وجوهر السياسة التوجّه إلى خلق الله، وهذان الأمران إمتزجا في الحجّ بدرجة أصبحا كنسيج واحد.

إنّ الحجّ عامل مؤثّر في وحدة صفوف المسلمين.

الحجّ عامل مهمّ في مكافحة التعصّب القومي والعنصري والتقوقع في حدود جغرافية.

والحجّ وسيلة لتحطيم الرقابة التي تفرضها الأنظمة الظالمة، وتدمير هذه الأنظمة المتسلّطة على رقاب الشعوب الإسلامية.

والحجّ وسيلة لنقل الأنباء السياسية للبلدان الإسلامية من نقطة إلى أُخرىٰ.

وأخيراً الحجّ عامل مؤثّر في تحطيم قيود العبودية والإستعمار وتحرير المسلمين.

ولهذا السبب كان موسم الحجّ زمن الجبابرة كبني أُميّة وبني العبّاس الذين كانوا يسيطرون على الأراضي الإسلامية المقدّسة، ويراقبون كلّ تحرّك تحرّري إسلامي ليقمعوه بقوّة، كان الموسم متنفّساً للحرية ولإتّصال فئات المجتمع الإسلامي الكبير بعضها مع بعض، لطرح القضايا السياسيّة المختلفة التي تهمّ كلّ مسلم.

وعلى هذا الأساس قال أمير المؤمنين علي ﷺ في معرض حديثه عن فلسفة الفرائض والعبادات «الحجّ تقوية للدّين»[1].

كما أنّ أحد السياسيين الأجانب المشهورين قال: «الويل للمسلمين إن لم

---

١ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٥٢.

يعرفوا معنى الحجّ، والويل لأعدائهم إذا أدرك المسلمون معنى الحجّ»!

وإعتبرت الأحاديث الإسلامية الحجّ جهاد الضعفاء، إذ يمكن للشيوخ والنساء الضعيفات المشاركة في الحجّ ليظهروا عظمة الأُمّة الإسلامية. وليدخلوا الرعب في قلوب أعداء الإسلام بمشاركتهم في صفوف المصلّين المتراصّة في دوائر تحيط ببيت الله الحرام. وهي توحّد الله وتكبّره.

٣ـ البعد الثقافي للحجّ

يمكن أن يؤدّي إلتقاء المسلمين أيّام الحجّ دوراً فعّالاً في التبادل الثقافي في المجتمع الإسلامي، خاصّةً إذا لاحظنا أنّ إجتماع الحجّ العظيم يمثّل بشكل حقيقي فئات المسلمين من أنحاء العالم، حيث لا تصنّع في المشاركة في حجّ بيت الله الحرام. فالحجّاج جاؤوا من شتّى المجموعات والعناصر والقوميات، وقد إجتمعوا رغم إختلاف ألسنتهم.

لهذا ذكرت الأحاديث الإسلامية أنّ من فوائد الحجّ نشر أخبار آثار رسول الله ﷺ في أنحاء العالم الإسلامي. يقول «هشام بن الحكم» أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام المخلصين نقلاً عن هذا الإمام العظيم عليه السلام أنّه قال حول فلسفة الحجّ والطواف حول الكعبة: **«إنّ الله خلق الخلق ... وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الإجتماع من الشرق والغرب، وليتعارفوا ولينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد ...، ولتعرف آثار رسول الله ﷺ وتعرف أخباره ويذكر لا ينسى»**[1].

ولهذا السبب كان المسلمون يجدون في الحجّ متنفّساً من جور الخلفاء

---

١ ـ وسائل الشيعة، المجلّد الثامن، الصفحة ٩.

والسلاطين الظلمة الذين منعوا المسلمين من نشر هذه الأحكام، لحلّ مشاكلهم بالإجتماع بأئمّة الهدى عليهم السلام في المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة، وبكبار علماء المسلمين، لينهلوا من مناهل القرآن النقيّة والسنّة النبويّة الشريفة.

ومن جهة ثانية يمكن أن يكون الحجّ مؤتمراً ثقافياً إسلامياً يحضره مفكّروا العالم الإسلامي في أيّام الحجّ في مكّة المكرّمة، ليتحاوروا فيما بينهم ويعرضوا نظرياتهم وأفكارهم على الآخرين.

وقد أصبحت الحدود بين البلدان الإسلامية ـ الآن ـ سبباً لتشتّت ثقافتهم الأصيلة، وإقتصار تفكير مسلمي كلّ بلد بأنفسهم فقط، حتّى تقطّعت أواصر المجتمع الإسلامي الموحّد. بينما يستطيع الحجّ أن يغيّر هذا الوضع.

وما أجمل ما قاله الإمام الصادق عليه السلام في ختام الحديث السابق الذي رواه هشام بن الحكم: «ولو كان كلّ قوم إنّما يتكلّمون على بلادهم وما فيها هلكوا، وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح، وعميت الأخبار»[١].

٤ ـ البعد الإقتصادي للحجّ

خلافاً لما يراه البعض، فإنّ مؤتمر الحجّ العظيم يمكن أن يستفاد منه في تقوية أُسس الإقتصاد في البلدان الإسلامية. بل إنّه وفق أحاديث إسلامية معتبرة يشكّل البعد الإقتصادي جزءاً مهمّاً من فلسفة الحجّ.

فما المانع من وضع أُسس سوق مشتركة إسلامية خلال إجتماع الحجّ العظيم، ليوسّع المسلمون مجال التبادل التجاري فيما بينهم بشكل تعود منافعهم إليهم لا إلى أعدائهم. ومن أجل تحرير إقتصادهم من التبعيّة الأجنبية، وهذا العمل عبادة وجهاد

---

١ ـ المصدر السابق.

في سبيل الله، ولا يمكن أن يكون حبّاً للدنيا وطمعاً فيها.

ولذا أشار الإمام الصادق عليه السلام في الحديث السابق خلال شرحه فلسفة الحجّ، إلى هذا الموضوع بصراحة بإعتبار أنّ أحد أهداف الحجّ، تقوية العلاقات التجارية بين المسلمين.

وجاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية (١٩٨) من سورة البقرة ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم﴾. قال عليه السلام: «فإذا أحلّ الرجل من إحرامه وقضى فليشتر وليبيع في الموسم»[١].

وكما يبدو فإنّ هذا العمل لا إشكال فيه، بل فيه ثواب وأجر.

وبهذا المعنى جاء في نهاية حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لبيان فلسفة الحجّ بشكل مسهب: (ليشهدوا منافع لهم)[٢] إشارة إلى المنافع المعنوية والماديّة. والأخيرة على رأي بعضهم معنوية أيضاً.

فالحجّ بإختصار عبادة عظيمة لو اُستفيد منها بشكل صحيح في تشكيل مؤتمرات متعدّدة سياسيّة وثقافية وإقتصادية، لحلّ مشاكل العالم الإسلامي، ومفتاحاً لحلّ معضلات المسلمين، وقد يكون هو المراد من حديث الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»[٣].

كما قال الإمام علي عليه السلام «الله الله في بيت ربّكم، لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا»[٤] أي لا يمهلكم الله إن تركتم بيت ربّكم خالياً.

ولأهميّة هذا الموضوع الذي خصّص له باب في الأحاديث الإسلامية تحت

---

١ ـ تفسير العياشي، حسبما جاء في تفسير الميزان، المجلّد الثّاني، ص٨٦.
٢ ـ بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٣٢.
٣ ـ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ١٤.
٤ ـ نهج البلاغة، الوصيّة، ٤٧.

عنوان «وجوب إجبار الوالي الناس على الحجّ» فإذا أراد المسلمون تعطيل الحجّ في عام من الأعوام، فعلى الحكومات الإسلامية أن ترسلهم بالقوّة إلى مكّة[١].

الحجّ عبادة مهمّة تبني الإنسان:

السفر للحجّ ـ في الحقيقة ـ هو سفر عظيم، إذ أنّه سفر إلهي، وساحة واسعة لبناء النفس والجهاد الأكبر.

مراسم الحجّ توضّح ـ في الواقع ـ عبادة ممزوجة ـ بصورة عميقة ـ بخاطرات جهاد إبراهيم وإبنه إسماعيل وزوجته هاجر، فلو أغفلنا عن هذه النقطة أثناء مطالعتنا الأمور الخاصّة بأسرار الحجّ، فإنّ الكثير من مراسمه ستبدو لنا كألغاز، نعم إنّ مفتاح حلّ هذه الألغاز هو الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الإمتزاج العميق.

فعندما نأتي إلى مكان ذبح الأضاحي في أرضي (منىٰ) نتعجّب لأيّ شيء تذبح هذه الأضاحي؟ فهل أنّ ذبح الحيوان يمكن أن يكون حلقة من مجموعة حلقات العبادة؟

إلّا أنّنا عندما نتذكّر إيثار إبراهيم عليه السلام الذي أراد ذبح أعزّ أعزّائه وأطيب ثمار عمره (إسماعيل) في تلك الأرض في سبيل الله، العملية التي غدت سنّة فيما بعد وبعنوان ذبح الأضاحي في منىٰ، ندرك فلسفة هذا العمل.

فالذبح إشارة إلى إجتياز كلّ شيء في سبيل التوجّه إلى الله، وهو مظهر لإخلاء القلب من كلّ شيء عدا ذكر الله، ويمكن إستمداد التربية الكافية من هذه المناسك، إذا تجسّد لنا مشهد ذبح إسماعيل، ومعنويات الأب وإبنه إسماعيل أثناء عملية

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج٨، ص١٥.

الذبح، وهذا المشهد يجعل معنويات الإنسان تسطع بأنوارها[١].

أمّا أثناء توجّهنا إلى رمي الجمرات (وهي ثلاثة أعمدة مبنية من الحجر يرميها الحجّاج أثناء تأديتهم لمراسم الحجّ، وفي كلّ مرّة يرمون سبعة أحجار عليها وفق مراسم خاصّة) فيتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ماذا يعني رمي هذا المقدار من قطع الحجارة على عمود من الحجر لا روح فيه؟ وأي مشكلة سيحلّ هذا العمل؟

إلّا أنّنا عندما نتذكّر أنّها تمثّل جهاد الموحّد إبراهيم ضدّ وساوس الشيطان الذي ظهر له ثلاث مرّات في الطريق، وهو مصمّم على أن يثني إبراهيم عن عزمه في ساحة الجهاد الأكبر، وكلّما ظهر له رماه بالحجر، فإنّ محتوى هذه الشعيرة يتوضّح أكثر.

فمعنى هذه الشعيرة هو أنّكم طوال فترة عمركم تعيشون في ساحة الجهاد الأكبر ضدّ وساوس الشيطان، وإن لم ترموا هذا الشيطان وتبعدوه عنكم فلن تنتصروا أبداً.

وإن كنتم تنتظرون أن يشملكم الله بلطفه ورحمته، كما شمل إبراهيم بذلك وبعث إليه بالسلام وأبقى رسالته وذكراه خالدتين في العالمين، عليكم أن تسيروا على خطاه.

وفور ما نصل إلى الصفا والمروة ونشاهد أفواجاً أفواجاً من الناس تنساب من هذا التل الصغير إلى ذلك التل الأصغر، وتعود مرّة أُخرى من هنا إلى هناك. وتكرّر هذا العمل من دون أن تحصل على شيء، وأحياناً تهرول وأحياناً أُخرى تمشي، ومن الطبيعي أن يثير هذا العمل العجب، فماذا يفعل هؤلاء هنا، وما هي المفاهيم التي يحملها هذا العمل؟

---

١ ـ ممّا يؤسف له أنّ مراسم ذبح الأضاحي في عصرنا الحالي لا تتمّ بالشكل المطلوب، ولذا على علماء الإسلام أن يبذلوا الجهد لإنقاذ هذه المراسم العظيمة.

إلّا أنّنا لو رجعنا إلى الوراء، وإستذكرنا الجهود التي بذلتها تلك المرأة المـؤمنة (هاجر) لإنقاذ حياة إبنها الرضيع (إسماعيل) في تلك الأرض القـاحلة والحـارقة. وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى أعطاها ما تريد بعد جهدها وسعيها، عندما فجّر عين زمزم من تحت رجلي ولدها الرضيع، فجأة ترجـع بـنا عـجلة الزمـن إلى الوراء، ويكشف لنا عن الحجب، ونشاهد أنفسنا في تلك اللحظة واقفين قرب هاجر ﷺ، فنشترك معها في السعي والجهد، لأنّ الذي لا يسعى ولا يبذل الجهد في سبيل الله، لا يصل إلى نتيجة.

وبسهولة نستطيع تلخيص ما قلناه، وهو أنّ الحجّ يجب أن يقترن بـتعلّم هـذه الرموز، وتتجسّد ذكريات إبراهيم وإبنه وزوجته خطوة خطوة، كي يـدرك الحـاجّ فلسفة الحجّ وتشعّ أنوار آثاره الأخلاقية العميقة في نفوس الحجيج، فبدون تـلك المعاني والدروس يكون الحجّ مجرّد قشر ليس أكثر.

الجهاد

١١٣

ماهو الهدف من الجهاد في الإسلام؟ والجهاد الإبتدائي لماذا؟

☑ الجهاد في الإسلام على ثلاثة أقسام:

١ ـ الجهاد الإبتدائي:

نعلم أنّ الله عزّوجلّ قد أنزل على البشريّة شرائع وبرامج لسعادة البشر وتحريرهم وتكاملهم وإيصالهم إلى السعادة والرفاه، وأوجب على الأنبياء عليهم السلام أن يبلّغوا هذه الشرائع والإرشادات إلى الناس، فلو تصوّر أحد الأفراد أو طائفة من الناس أنّ إبلاغ هذه الشرائع للناس سوف يعيقه عن نيل منافعه الشخصيّة وسعى لإيجاد الموانع ووضع العصي في عجلات الدعوة الإلهيّة، فللأنبياء الحقّ في إزالة هذه الموانع بطريقة المسالمة أوّلاً وإلّا فعليهم استخدام القوّة في إزالة هذه الموانع عن طريق الدّعوة لنيل الحريّة في التبليغ.

وبعباره أُخرى: أنّ الناس في جميع المجتمعات البشريّة لهم الحقّ في أن يسمعوا مقالة منادي الحقّ وهم أحرار في قبول دعوة الأنبياء، فلو تصدّى فرد أو جماعة

لسلب هذا الحقّ المشروع للناس وحرمانهم منه ومنعوا صوت الحقّ من الوصول إلى الناس ليحرّرهم من قيود الأسر والعبوديّة الفكريّة والإجتماعيّة، فلأتباع الدين الحقّ في الإستفادة من جميع الوسائل لتهيئة هذه الحريّة، ومن هنا كان (الجهاد الإبتدائي) في الإسلام وسائر الأديان السماويّة ضروريّاً.

وكذلك إذا استخدم البعض القوّة والإرهاب في حمل جماعة من المؤمنين على ترك دينهم والعودة إلى الدين السابق لهم، فللمؤمنين الحقّ في الإستفادة من جميع الوسائل لرفع هذا الإكراه والإرهاب.

٢ ـ الجهاد الدفاعي

هل من الصحيح أن يواجه الإنسان هجوماً وعدواناً عليه ولا يدافع عن نفسه؟ أو أن يقوم جيش معتدي بالهجوم على بعض الشعوب الأُخرى ولا تقوم تلك الشعوب بالدفاع عن نفسها وعن بلدها بل تقف موقف المتفرّج؟

هنا نجد أنّ جميع القوانين السماويّة والبشريّة تبيح للفرد أو الجماعة الدّفاع عن النفس والإستفادة ممّا وسعهم من قوّة في هذا السبيل، ويسمّى مثل هذا الجهاد بـ (الجهاد الدفاعي) ومن ذلك غزوة الأحزاب وأُحد ومؤتة وتبوك وحنين ونظائرها من الحروب الإسلاميّة الّتي لها جنبة دفاعيّة.

٣ ـ الجهاد من أجل دحر الشرك وعبادة الأوثان

الإسلام يدعوا البشريّة إلى اعتناق الدّين الخاتم الأكمل وهو يحترم مع ذلك حريّة العقيدة، وبذلك يُعطي أهل الكتاب الفرصة الكافية للتّفكير في أمر إعتناق الرّسالة الخاتمة، فإن لم يقبلوا بذلك فإنّه يعاملهم معاملة الأقليّة المعاهدة (أهل الذّمة) ويتعايش معهم تعايشاً سلميّاً ضمن شروط خاصّة بسيطة وميسورة، لكنّ الشرك والوثنيّة ليسا بدين ولا عقيدة ولا يستحقّان الإحترام، بل هما نوع من

الخرافة والحمق والإنحراف ونوع من المرض الفكري والأخلاقي الّذي ينبغي أن يستأصل مهما كلّف الثمن.

كلمة حريّة العقيدة واحترام أفكار الآخرين تصدق في مواقع يكون لهذه العقيدة والأفكار على أقلّ تقدير أساس من الصحّة. أما الإنحراف والخرافة والضلال فليست بأشياء تستحق الإحترام، ولذلك يأمر الإسلام بضرورة إقتلاع جذور الوثنيّة من المجتمع ولو كلّف ذلك خوض الحرب، وضرورة هدم آثار الشرك والوثنيّة بالطرق السلميّة أوّلاً، فإن تعذّرت الطرق السلميّة فبالقوّة.[1]

يتّضح ممّا تقدّم الردّ على الإعلام الصليبي ـ المسموم ضدّ الإسلام ـ القائل «إنّ الإسلام انتشر بالسيف»، إذ لا قول أبلغ ولا أفصح من ﴿لا إكراه في الدين﴾ الذي أعلنه القرآن.

هؤلاء الحاقدون يتناسون هذا الإعلان القرآني الصريح، ويحاولون من خلال تحريف مفهوم الجهاد وأحداث الحروب الإسلامية أن يثبتوا مقولتهم، بينما يتّضح بجلاء لكلّ منصف أنّ الحروب التي خاضها الإسلام كانت إمّا دفاعية، وإمّا تحريرية، ولم يكن هدف هذه الحروب السيطرة والتوسّع، بل الدفاع عن النفس، أو إنقاذ الفئة المستضعفة الرازحة تحت سيطره طواغيت الأرض وتحريرها من ربقة العبودية لتستنشق عبير الحرية وتختار بنفسها الطريق الذي ترتئيه.

والشاهد الحيّ على هذا هو ما تكرّر حدوثه في التاريخ الإسلامي، فقد كان المسلمون إذا افتتحوا بلداً تركوا أتباع الأديان الأُخرى أحراراً كالمسلمين.

أمّا الضريبة الصغيرة التي كانوا يتقاضونها منهم باسم الجزية، فقد كانت ثمناً للحفاظ على أمنهم، ولتغطية ما تتطلّبه هذه المحافظة من نفقات، وبذلك كانت أرواحهم وأموالهم وأعراضهم مصونة في حمى الإسلام. كما أنّه كانوا أحراراً في

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/٢٦ ـ ٢٩ .

أداء طقوسهم الدينية الخاصّة بهم.

جميع الذين يطالعون التاريخ الإسلامي يعرفون هذه الحقيقة، بل إن المسيحيين الذين كتبوا في الإسلام يعترفون بهذا أيضاً. يقول مؤلّف «حضارة الإسلام او العرب»: **«كان تعامل المسلمين مع الجماعات الأُخرى من التساهل بحيث إنّ رؤساء تلك الجماعات كان مسموحاً لهم بإنشاء مجالسهم الدينية الخاصّة»**.

وقد جاء في بعض كتب التاريخ أنّ جمعاً من المسيحيين الذين كانوا قد زاروا رسول الله ﷺ للتحقيق والإستفسار أقاموا قدّاساً في مسجد النبي في المدينة بكلّ حرّية.(١)

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/٢٦١ ـ ٢٦٢.

١١٤

لماذا لم يلغ الإسلام مسألة الرق؟

يعترض البعض علىٰ الإسلام بأنّه: لماذا لم يلغ هذا الدين الإلهي مسألة الرق تماماً مع ما يحتويه من القيم الإنسانية السامية، ولم يعلن تحرير كلّ العبيد من خلال إصدار حكم قطعي؟!

صحيح أنّ الإسلام أوصىٰ كثيراً بالرقيق، إلّا أنّ المهم هو تحريرهم بدون قيدشرط، فلماذا يكون الإنسان مملوكاً لإنسان آخر مثله، ويفقد الحرية التي هي أعظم عطايا الله سبحانه؟!

☑ يجب القول في جملة موجزة: إنّ للإسلام برنامجاً دقيقاً مدروساً لتحرير العبيد، تؤدي نهايته إلىٰ تحرير جميع العبيد تدريجياً، دون أن يكون لهذه الحرية ردّ فعل سلبي في المجتمع.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٦/٣٣٤.

خطة الإسلام لتحرير العبيد

إنّ ما يغفل عنه غالباً هو أنّ ظاهرة سلبية إذا توغّلت في مفاصل المجتمع، فهناك حاجة إلىٰ فترة زمنية لاقتلاع جذورها، ولكلّ حركة غير مدروسة ردّ فعل سلبي، تماماً كما إذا ابتلي إنسان بمرض خطير، وقد استفحل هذا المرض في بدنه، أو من اعتاد علىٰ تناول المخدارات لعشرات السنين حتىٰ تطبع علىٰ هذه الطبيعة المستهجنة، ففي هذه الموارد يجب الإعتماد علىٰ برامج زمنية لعلاجه قد تطول وقد تقصر.

ونقول بأسلوب أكثر صراحةً: لو أنّ الإسلام كان قد أصدر أمراً عاماً بتحرير كل العبيد، فربّما كان الضرر أكثر، وقد يهلك منهم عدد أكثر، لأنّ الرقيق كانوا يشكلون نصف المجتمع أحياناً، وليس لهم عمل مستقل يتكسبون به، ولا دار أو ملجأ، أو وسيلة ما لإدامة الحياة.

إنّ هؤلاء لو تحرّروا في ساعة معينة من يوم معين فستظهر علىٰ الساحة فجأةً جماعة عظيمة عاطلة عن العمل، وعندها ستكون حياتهم مهددة وربّما أدّىٰ إلىٰ إرباك نظام المجتمع، وعندما يلح عليه الحرمان فسيجد نفسه مضطراً إلىٰ الهجوم علىٰ ممتلكات الآخرين، فتنشب الصراعات والإشتباكات ونزف الدماء.

هنا ندرك الغاية من التحرير التدريجي، وذلك ليستوعبهم المجتمع ولا يشمئز منهم، وحينئذٍ سوف لا تتعرض أرواحهم للخطر، كما لا يتهدد أمن المجتمع، وقد اتبع الإسلام هذا البرنامج الدقيق تماماً.

إنّ تطبيق وترجمة هذا البرنامج الإنساني علىٰ أرض الواقع العملي له قواعد كثيرة نذكر هنا رؤوس نقاطها بصورة موجزة وكفهرس، أمّا تفصيلها فيحتاج إلىٰ كتاب مستقل:

المادة الأولىٰ: غلق مصادر الرق

لقد كان للرق علىٰ طول التاريخ أسباب كثيرة، فلم يقتصر الإستعباد علىٰ أسرىٰ الحرب، والمدينين الذين يعجزون عن أداء ديونهم، حيث كانت القوّة والغلبة تبيح الإسترقاق والإستعباد، بل إنّ الدولة القوية كانت ترسل فرق من جيوشها وهم مدجّجون بأنواع الأسلحة إلىٰ الدول الأفريقية المتخلفة وأمثالها، ليأسروا شعوب تلك الدول جماعات جماعات، ثمّ يرسلونهم بواسطة السفن إلىٰ أسواق بلدان آسيا وأوربا.

لقد منع الإسلام كلّ هذه المسائل، ووقف حائلاً دونها، ولم يبح الإسترقاق إلّا في مورد واحد، وهو أسرىٰ الحرب، وحتىٰ هذا لم يكن يتصف بالوجوب والإلزام، بل إنّ الإسلام قد أجاز ـ وكما قلنا في تفسير الآيات المذكورة ـ إطلاق سراح الأسرىٰ مقابل فدية يؤدّونها تبعاً لمصلحة الإسلام والمسلمين.

ولم تكن في تلك الأيام سجون يسجن فيها أسرىٰ الحرب حتىٰ يتبيّن وضعهم وماذا يجب فعله معهم، بل كان الطريق الوحيد هو تقسيمهم بين العوائل، والإحتفاظ بهم كرقيق.

من البديهي أنّ هذه الظروف إذا تغيّرت فلا دليل علىٰ أنّ إمام المسلمين ملزم بأن يرضىٰ برق الأسرىٰ، بل هو قادر علىٰ تحريرهم إمّا منّاً أو فداءً، لأنّ الإسلام خيّر الإمام المسلمين في هذا الأمر، كي يقدم علىٰ اختيار الأصلح من خلال مراعاة المصلحة، وبهذا فإنّ مصادر الرق الجديدة قد أُغلقت في الإسلام.

المادة الثانية: فتح نافذة الحرية

لقد وضع الإسلام برنامجاً واسعاً لتحرير العبيد، بحيث أنّ المسلمين لو عملوا بموجبه فإنّ كلّ العبيد كانوا سيتحررون في مدة وجيزة وبصورة تدريجية، وكان المجتمع سيستوعبهم ويؤمّن لهم ما يحتاجونه من اللوازم الحياتية، من عمل

ومسكن وغير ذلك.

وإليك رؤوس نقاط هذا البرنامج:

أ ـ إنّ أحد الموارد الثمانية لصرف الزكاة في الإسلام شراء العبيد وعتقهم[١]. وبهذا فقد خصصت ميزانية دائمية في بيت المال لتنفيذ هذا الأمر، وهي مستمرة حتىٰ إعتاق العبيد جميعاً.

ب ـ ولتكميل هذا المطلب وضع الإسلام أحكاماً يستطيع العبيد من خلالها أن يعقدوا اتفاقيات مع مالكيهم، علىٰ أن يؤدّوا إليهم مبلغاً من المال يتفق عليه مقابل الحصول علىٰ حريتهم. وقد جاء في الفقه الإسلامي فصل في هذا الباب تحت عنوان المكاتبة[٢].

ج ـ إنّ عتق العبيد يعتبر أحد أهم العبادات والأعمال الصالحة في الإسلام، وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام من السابقين في هذا المضمار، حتىٰ كتبوا في أحوال علي عليه السلام أنّه أعتق ألف مملوك من كد يده[٣].

د ـ لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعتقون العبيد لأدنىٰ عذر ليكونوا قدوة للآخرين، حتىٰ أنّ أحد غلمان الإمام الباقر عليه السلام عمل عملاً صالحاً، فقال له الإمام: **«إذهب فأنت حر، فإنّي أكره أن أستخدم رجلاً من أهل الجنّة»**[٤].

وجاء في أحوال الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام، أنّ جارية كانت تسكب عليه الماء، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: **﴿والكاظمين الغيظ﴾**، قال: **«قد كظمت غيظي»** قالت: **﴿والعافين عن الناس﴾**، قال: **«عفا الله**

---

١ ـ التوبة، الآية ٦٠.

٢ ـ كان لنا بحث مفصل حول المكاتبة وأحكامها الرائعة في ذيل الآية (٣٤) من سورة النور.

٣ ـ بحار الأنوار، المجلد ٤١، صفحة ٤٣.

٤ ـ الوسائل، المجلد ١٦، صفحة ٣٢.

عنك»، قالت: ﴿والله يحبّ المحسنين﴾ قال: «فاذهبي فأنت حرّة لوجه الله»[١].

هـ ـ ورد في بعض الرّوايات الإسلامية أنّ العبيد يتحرّرون تلقائياً بعد مرور سبع سنين، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «من كان مؤمناً فقد عتق بعد سبع سنين، أعتقه صاحبه أم لم يعتقه، ولا يحل خدمة من كان مؤمناً بعد سبع سنين»[٢].

وروي في هذا الباب حديث من النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «ما زال جبرئيل يوصيني بالمملوك حتىٰ ظننت أنّه سيضرب له أجلاً يعتق فيه»[٣].

و ـ إذا كان العبد مشتركاً بين اثنين، وأعتق أحدهما نصيبه، وجب عليه شراء نصيب شريكه وإعتاق العبد[٤].

وإذا أعتق مالك العبد بعضه سرت الحرية إلىٰ باقيه فيعتق جميعه[٥].

ز ـ إذا ملك إنسان أباه، أو أمّه، أو أجداده، أو أبناءه، أو عمّه، أو عمّته، أو خاله، أو خالته، أو أخاه، أو أخته، أو ابن أخيه، أو ابن اخته، فإنّهم يعتقون فوراً.

ح ـ إذا استولد المالك جاريته فلا يجوز بيعها، وتعتق من سهم ولدها من الميراث. وقد كان هذا الأمر سبباً في عتق الكثير من العبيد، لأنّ الجواري كن بمنزلة زوجات مالكيهن، وكان لهن أولاد منهم.

ط ـ لقد جعل عتق العبيد كفارةً لكثير من الذنوب من الإسلام، ككفارة القتل الخطأ، وكفارة ترك الصوم عمداً، وكفارة اليمين، وغيرها.

ي ـ إذا عاقب المالك عبده ببعض العقوبات الشديدة، فإنّ العبد ينعتق تلقائياً[٦].[٧]

---

١ ـ نور الثقلين، المجلد ١، ص ٣٩٠.

٢ ـ وسائل الشيعة، المجلد ١٦، صفحة ٣٦.

٣ ـ المصدر السابق، صفحة ٣٧.

٤ ـ الشرائع، كتاب العتق، وسائل الشيعة، المجلد ١٦، صفحة ٢١.

٥ ـ الشرائع، كتاب العتق.

٦ ـ وسائل الشيعة، المجلد ١٦، صفحة ٢٦.

١١٥

ماهي الجزية و ماحي حكمتها؟

☑ «الجزية» مأخوذة من مادة الجزاء، ومعناها المال المأخوذة من غير المسلمين الذين يعيشون في ظلّ الحكومة الإسلامية، وهذه التسمية لأنّها جزاء حفظ أموالهم وأرواحهم (هذا ما يستفاد من كلام الراغب في مفرداته فلا بأس بمراجعتها).

تُعدّ الجزية ضريبةً مالية «إسلامية» وهي تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضي، أو بتعبير آخر: هي ضريبة مالية سنوية على الرؤوس.

ويعتقد بعضهم أنّها ليست من أصل عربي، بل هي فارسية قديمة وأصلها «كزيت» ومعناها الأموال التي تؤخذ للدعم العسكري، أو ما يصطلح عليه في عصرنا بـ «المجهود الحربي». لكن الكثير يعتقدون أن هذه الكلمة «الجزية» عربية خالصة.

وكما ذكرنا آنفاً فهي مأخوذة من الجزاء، لأنّ الضريبة التي تدفع، إنّما هي جزاء

٧ـ تفسير الأمثل: ١٦/٣٣٧ ـ ٣٤٠.

الأمن الذي توفره الحكومة الإسلامية للأقليات المذهبية.

والجزية، كانت قبل الإسلام، ويعتقد بعضهم أن أوّل من أخذ الجزية هو كسرى أنوشروان الملك الساساني، ولو لم نسلّم بأنّه الأوّل فلا أقل من أن أنوشروان كان يأخذ من أبناء وطنه الجزية، وكان يأخذ ممن لم يكن موظفاً في الدولة وعمره أكثر من عشرين عاماً وأقل من خميس عاماً، مبلغاً سنوياً يتراوح بين ١٢ و٨ و٦ و ٤ درهم، على أنّه ضريبة سنوية على كل فرد.

وذكروا أن فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هي الدفاع عن موجودية الوطن واستقلاله وأمنه، وهي وظيفة عامّة على جميع الناس، فبناءً على ذلك متى ما قام جماعة فعلاً بالمحافظة على الوطن ولم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون ويتّجرون ـ مثلاً ـ فإن على الجماعة الثّانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

وما لدينا من القرائن يؤيد فلسفة الجزية ... سواء قبل الإسلام أو بعده.

فمسألة السنّ في من يعطي الجزية في عصر أنوشروان الذي ذكرناه آنفاً «وهي أنّ الجزية تقع على من عمره عشرون عاماً إلى خميس عاماً» دليل واضح على هذا المطلب، لأنّ أصحاب هذه المرحلة، من العمر كانوا قادرين على حمل السلاح والمساهمة في الحفاظ على أمن البلاد، إلّا أنّهم كانوا يدفعون الجزية لأعمالهم وكسبهم.

والشاهد الآخر على ذلك أنّه لا تجب الجزية «في الإسلام» على المسلمين، لأنّ الجهاد واجب عليهم جميعاً، وعند الضرورة يجب على الجميع أن يتجهوا نحو ساحات القتال ليقفوا بوجه العدوّ، إلّا أنّه لما كانت الأقليات المذهبية في حلٍّ من أمر الجهاد، فعليها أن تدفع المال مكان الجهاد، ليكون لهم نصيب في الحفاظ على أمن الوطن الذي يتمتعون بالحياة فيه.

ثمّ إن سقوط الجزية عن الأطفال والشيوخ والمقعدين والنساء والعُمي، دليل

آخر على هذا الموضوع.

ممّا ذكرناه يتّضح أن الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكـتاب إزاء مـا يتحمله المسلمون من مسؤولية في الحفاظ عليهم وعلى أموالهم.

فبناء على ذلك فإنّ من يزعم أنّ الجزية نوع من أنواع حق التسخير، لم يلتفت إلى روحها وحكمتها وفلسفتها، وهي أن أهل الكتاب متى دخلوا في أهل الذمة فإنّ الحكومة الإسلامية يجب عليها أن ترعاهم وتحافظ عليهم وتمنعهم من كل أذى أو سوء. وهكذا فإنّ أهل الذمة عند دفعهم الجزية، بالإضافة إلى التمتع بـالحياة مـع المسلمين في راحه وأمان فليس عليهم أي تعهد مـن المسـاهمة فـي القـتال مـع المسلمين وفي جميع الأُمـور الدفـاعية ـ ويـتّضح أن مسـؤوليتهم إزاء الحكـومة الإسلامية أقل من المسلمين بمراتب.

أي أنّهم يتمتعون بجميع المزايا في الحكومة الإسلامية بدفعهم مـبلغاً ضـئيلاً، ويكونون سواءً هم والمسلمون. في حين أنّهم لا يواجـهون الأخـطار ومشـاكـل الحرب.

ومن الإدلة التي تؤيد فلسفة هذا الموضوع، أنّه في المعاهدات التي كانت ـ في صدر الإسلام بين المسلمين وأهل الكتاب في شأن الجزية، تصريح بأنّ على أهل الكتاب أن يدفعوا الجـزية، وفـي قـبال ذلك عـلى المسـلمين أن يـمنعوهم (أي يحفظوهم) وأن يدافعوا عنهم اذا داهمهم العدو الخارجي.

وهذه المعاهدات كثيرة، ونورد مثلاً منها، وهي المعاهدة التي تمت بين خالد بن الوليد مع المسيحيين الذين كانوا يقطنون حول «الفرات»:

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذّمة والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلّا فلا، كتب سنة

اثنتى عشرة في صفر»[١].

والذي يسترعي النظر هو أننا نقرأ في هذه المعاهدة وأمثالها أنّه متى ما قصّر المسلمون في الحفاظ على أهل الذمة أو لم يمنعوهم، فالجزية تعاد إليهم أو لا تؤخذ منهم عندئذٍ أصلاً.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ الجزية ليس لها مقدار معين وميزانها بحسب استطاعة من تجب عليهم، غير أنّ المستفاد من التواريخ أنّها عبارة عن مبلغ ضئل قد لا يتجاوز الدينار[٢] في السنة، وربّما قُيد في المعاهدة أن على دافعي الجزية أن يدفعوا بمقدار استطاعتهم جزيةً.

ومن جميع ما تقدم ذكره يتّضح أنّ جميع ما أثير من شبهات أو إشكالات في هذا الصدد، باطل لا إعتبار له، ويثبت أن هذا الحكم الإسلامي حكم عادل ومنصف.[٣]

---

١ ـ نقلاً عن تفسير المنار، ج ١٠، ص ٢٩٤.

٢ ـ من المناسب أن أشير إلى أن المقصود بالدينار ليس هو الدينار المتعارف بينا كالدينار العراقي أو الدنيار الأردني أو الدينار الكويتي وهلّم جراً، بل هو الدينار الذهبي الذي يعادل مثقالاً ونصف أو أدنى من ذلك بقليل.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٥/٥٨٦ ـ ٥٨٩ .

١١٦

ما هي فلسفة تحريم القتال في اشهر الحرام؟

نقرأ في سورة التوبة الآية ٣٦ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه وهو: ماهي فلسفة تحريم القتال في الأشهر الأربعة (ذي القعدة وذي الحجة ومحرّم ورجب)؟

☑ كان تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة أحَدَ الطرق لإيقاف الحروب الطويلة الأمد ووسيلة للدعوة نحو الصلح والدعة. لأنّ المحاربين إذا وضعوا أسلحتهم في هذه الأشهر الأربعة، وأخمدت نيران الحرب ووجدت الفرصة للتفكير، فمن غير المستبعد أن تنتهي الحرب ويحل السلام محلّه. لأنّ الشروع المجدد بعد إيقاف القتال وانطفاء نار الحرب في غاية الصعوبة، ولا ننسى أن المقاتلين في حرب فيتنام خلال العشرين سنةً من الحرب كانوا يواجهون صعوبة كبيرة لإيقاف القتال خلال أربع وعشرين ساعة لبداية العام الميلادي الجديد. إلّا أنّ الإسلام جعل لأتباعه قراراً بإيقاف القتال خلال أربعة أشهر، وهذا الأمر بنفسه يدل على روح

السلام في الإسلام والمطالبة بالصلح.

إلّا أنّ العدو إذا أراد أن يستغلّ هذا القانون الإسلامي، وأن ينتهك حرمة هذه الأشهر فعلى المسلمين أن يواجهوه بالمثل[1].

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٦/٤٧.

حقوق المرأة في الإسلام

١١٧

ماهي حقوق المرأة في الإسلام؟

مع ظهور الإسلام وانتشار تعاليمه السامية، دخلت حياة المرأة مرحلة جـديدة بعيدة كلّ البعد عمّا سبقها. في هذه المرحلة أصبحت المرأة مستقلّة ومتمتّعة بكـلّ حقوقها الفردية والإجتماعية والإنسانية.

تقوم تعاليم الإسلام بشأن المرأة على أساس الآيات التـي نـدرسها فـي هـذا المبحث حيث يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فالمرأة بموجب هذه الآية تتمتّع بحقوق تعادل ما عليها من واجبات ثقيلة في المجتمع.

الإسلام اعتبر الرجل كالمرأة كائناً ذا روح إنسـانيّة كـاملة، وذا إرادة وإخـتيار، ويطوي طريقه على طريق تكامله الذي هو هدف الخلقة، ولذلك خاطب الرجـل والمرأة معاً في بيان واحد حين قال: ﴿يا أيّها النّاس... ويا أيّها الذين آمنوا﴾. وضع لهما منهجاً تربوياً وأخلاقياً وعلمياً ووعدهما معاً بالسعادة الأبـدية الكـاملة فـي الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[١].

وأكّد أنّ الجنسين قادران على إنتهاج طريق الإسلام للوصول إلى الكمال المعنويّ والماديّ ولبلوغ الحياة الطيّبة المفعمة بالطمأنينة، نظير ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

الإسلام يرى المرأة كالرجل إنساناً مستقلاً حرّاً، وهذا المفهوم جاء في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]. و ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[٤].

هذه الحريّة قرّرها الإسلام للمرأة والرجل، ولذلك فهما متساويان أمام قوانين الجزاء: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٥].

لمّا كان الاستقلال يستلزم الإرادة والإختيار، فقد قرّر الإسلام هذا الاستقلال في جميع الحقوق الإقتصادية، وأباح للمرأة كلّ ألوان الممارسات المالية، وجعلها مالكة عائدها وأموالها، يقول سبحانه في سورة النساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[٦].

كلمة «اكتساب» ـ خلافاً لكلمة «كسب» ـ لا تستعمل إلّا فيما يعود نتيجته على الإنسان نفسه[٧].

---

١ ـ غافر: ٤٠.

٢ ـ النحل: ٩٥.

٣ ـ المدّثر: ٢٨.

٤ ـ فصّلت: ٤٦.

٥ ـ النور: ٢.

٦ ـ النساء: ٣٢.

٧ ـ راجع مفردات الراغب، هذا طبعاً حين تتقابل كلمتي: كسب واكتساب.

ولو أضفنا إلى هذا المفهوم القاعدة العامّة القائلة: **«الناس مسلّطون على أموالهم»** لفهمنا مدى الإحترام الذي أقرّه الإسلام للمرأة بمنحها الاستقلال الإقتصادي، ومدى التساوي الذي قرّره بين الجنسين في هذا المجال.

فالمرأة ـ في مفهوم الإسلام ـ ركن المجتمع الأساسي، ولايجوز التعامل معها على أنّها موجود تابع عديم الإرادة يحتاج إلى قيّم.

المفهوم الصحيح للمساواة

وهنا ينبغي الإلتفات إلى مسألة الإختلافات الروحية والجسمية بين المرأة والرجل، وهي مسألة التفت إليها الإسلام بشكل خاصّ وأنكرها بعضهم منطلقين من تطرّف في أحاسيسهم.

إن أنكرنا كلّ شيء فلا نستطيع أن ننكر الإختلافات الصارخة بين الجنسين في الناحية الجسمية والناحية الروحية، وهذه مسألة تناولتها تأليفات مستقلّة ملخّصها:

إنّ المرأة قاعدة إنبثاق الإنسان، وفي أحضانها يتربّى الجيل ويترعرع، وهي لذلك خلقت لتكون مؤهلة جسمياً لتربية الأجيال، كما أنّ لها من الناحية الروحية سهماً أوفى من العواطف والمشاعر.

وهل يمكن مع هذا الإختلاف الكبير أن ندّعي تساوي الجنسين في جميع الأعمال واشتراكهما المتساوي في كلّ الأُمور؟!

أليست العدالة أن يؤدّي كلّ كائن واجبه مستفيداً من مواهبه وكفاءاته الخاصّة؟!

أليس خلافاً للعدالة أن تقوم المرأة بأعمال لا تتناسب مع تكوينها الجسمي والروحي؟!

من هنا نرى الإسلام ـ مع تأكيده على العدالة ـ يجعل الرجل مقدّماً في بعض الأُمور مثل الإشراف على الأُسرة و... ويدع للمرأة مكانه المساعد فيها.

العائلة والمجتمع يحتاج كلّ منهما إلى مدير، ومسألة الإدارة في آخر مراحلها

يجب أن تنتهي بشخص واحد، وإلّا ساد الهرج والمرج.

فهل من الأفضل أن يتولّى هذه المسؤولية المرأة أم الرجل؟ كلّ المحاسبات البعيدة عن التعصّب تقول: إنّ الوضع التكويني للرجل يفرض أن تكون مسؤولية إدارة الأُسرة بيد الرجل، والمرأة تعاونه.

مع إصرار المصرّين ولجاج المتعصّبين على إنكار الواقع، فإنّ وضع الحياة الواقعية في عالمنا المعاصر وحتّى في البلدان التي منحت المرأة الحرّية والمساواة بالشكل الكامل ـ على زعمهم ـ يدلّ على أنّ المسألة على الصعيد العملي هي كما ذكرناه وإن كانت المزاعم خلاف ذلك.(١)

القيمة المعنويّة للرّجل والمرأة:

القرآن يساوي بين الرجل والمرأة عند الله، وفي مسألة الوصول إلى الدرجات المعنوية، ولا يفرق بينهما بسبب اختلافهما في الجنس، ولا يعتبر الفروق العضوية وما يلحقها من الفروق في المسؤوليات الإجتماعية دليلاً على اختلافهما في إمكانية الحصول على درجات التكامل الإنساني وبلوغهما للمقامات المعنوية الرفيعة، بل يعتبرهما في مستوى واحد ـ من هذه الجهة ـ ولذلك ذكرهما معاً.

الآيات القرآنية نزلت في عصر كان المجتمع البشري فيه يشك في إنسانية جنس المرأة أساساً، بل ويعتقد أنها كائن ملعون، وأنها منبع كل إثم وإنحراف وموت وفساد.

لقد كان الكثير من الشعوب الماضية تذهب في نظرتها السلبية تجاه المرأة إلى درجة أنها تعتقد أحياناً إنّ عبادة المرأة وما تقدمه في سبيل الله لا تقبل، وكان الكثير من اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة كائن نجس وشرير وأنّها من عمل الشّيطان، وكان

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/١٥٤ ـ ١٥٧.

الرّوم وبعض اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة ليست ذات روح إنسانية أساساً، وأن الرجل وحده هو الذي يحمل بين جنبيه مثل هذه الروح دون غيره.

والملفت للنظر أن العلماء المسيحيين في أسبانيا كانوا يبحثون ـ حتى إلى الآونة الأخيرة ـ في أن المرأة هل تملك ـ مثل الرجل ـ روحاً إنسانية أم لا؟ وأن روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟

وقد توصلوا ـ بعد مداولات طويلة ـ إلى أن للمرأة روحاً برزخية، وهي نوع متوسط بين الروح الإنسانية والروح الحيوانية، وأنه ليس هناك روح خالدة ـ بين أرواح النساء ـ إلّا روح مريم[1].

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتهمون الإسلام أنّه دين الرجال دون النساء.

إنّ بعض الإختلاف في نوع المسؤوليات الإجتماعية الذي يقتضيه اختلافات في التركيب العضوي والعاطفي لدى الرجل والمرأة لا يضرّ بالمرأة وقيمتها المعنوية أساساً، ولهذا لا يختلف الرجل والمرأة من هذه الجهة، فأبواب السعادة والتكامل الإنساني مفتوحة في وجهيهما كليهما على السواء كما ذكرنا ذلك عند البحث في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ﴾.[2]

---

١ ـ راجع كتاب وستر مارك، وكتاب «حقوق المرأة في الإسلام» والكتب الباحثة في مذاهب البشر وعقائدهم.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣/٥٥ ـ ٥٧.

١١٨

ماهي فلسفة الحجاب؟

☑ ممّا لا شكّ فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين في عصرنا الذي سمّوه بعصر التعري والحرية الجنسية، ليس حديثاً سارّاً حيث يتصوّرونه أُسطوره يعود لعصور خلت.

إلّا أنّ الفساد الذي لا حدّ له، والمشاكل المتزايدة والناتجة عن هذه الحريّات التي لا قيد لها ولاحدود، أدى بالتدريج إلى ايجاد الأُذن الصاغية لهذا الحديث.

وقد تمّ حلّ كثير من القضايا في بيئات إسلامية ودينية أُخرىٰ، خاصّة في أجواء إيران بعد الثورة الإسلامية، وأُجيب عن الكثير من هذه الأسئلة بشكل مقنع.

ومع كل هذا تستوجب أهمية الموضوع بحث هذه القضية بحثاً واسعاً وعميقاً.

والقضية المطروحة (نقولها مع الإعتذار): هل من الصحيح أن تُستغل النساء للتلذّذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس (باستثناء المجامعة) وأن يَكُنْ تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الأُمور خاصّة لأزواجهنّ؟

إنّ النقاش يدور حول هذا السؤال: هل يجب بقاء النساء في سباق لا نهاية له في عرض أجسامهنّ، وتحريك شهوات وأهواء الرجال؟ أو يجب تصفية هذه الأُمور

من أجواء المجتمع، وتخصيصها بالأُسرة والحياة الزوجية؟!

الإسلام يساند الأسلوب الثّاني. ويعتبر الحجاب جزءاً من هذا الأُسلوب. في الوقت الذي يساند فيه الغربيون والمتغربون الشهوانيون الأُسلوب الأوّل!

يقول الإسلام: إنَّ الأُمور الجنسية سواءً كانت مجامعة أو استلذاذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاصّ بالأزواج، ومحرّم على غيرهم. لأنّ ذلك يؤدّي إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة ﴿ذلك أزكى لكم﴾ التي جاءت في الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

١ ـ إنّ تعري النساء وما يرافقه من تجميل وتدلل ـ وما شاكل ذلك ـ يحرك الرجال ـ خاصّة الشباب ـ ويحطّم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبي، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية. فأعصاب الإنسان محدودة التحمّل، ولا تتمكن من الإستمرار في حالة الهيجان؟

ألم يقل أطباء علم النفس بأنّ هذه الحالة من الهيجان المستمر سبب للأمراض النفسية؟

خاصّة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز في الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب في أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كلّ حادثة مهمّة امرأة!

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟

وهل هذا العمل عقلاني؟

الإسلام يريد للرجال والنساء المسلمين نفساً مطمئنة وأعصاباً سليمة ونظراً وسماعاً طاهرين، وهذه واحدة من فلسفات الحجاب.

٢ ـ تبيّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكّك الأُسرة في العالم، بسبب زيادة التعرّي، لأنّ الناس أتباع الهوىٰ غالباً، وهكذا يتحوّل حبّ الرجل من امرأة

إلى أخرىٰ، كلّ يوم، بل كل ساعة.

أمّا في البيئة التي يسودها الحجاب (والتعاليم الإسلامية الأُخرىٰ) فالعلاقة وثيقة بين الزوج وزوجته، ومشاعرهما وحبهما مشترك.

وأمّا في سوق التعري والحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترىٰ، أو في أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمته، وتنهار أُسس الأُسر بسرعة كانهيار بيت العنكبوت، ويتحمل هذه المصيبة الأبناء بعد أن يـفقدوا أولياءهم ويفقدوا حنان الأُسرة.

٣ ـ انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعين يعتبران من أنكىٰ نتائج إلغاء الحجاب، ولا حاجة إلى إحصائية بهذا الصدد، فشواهـدها ظـاهرة فـي المـجتمع الغربي، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

لا نقول: إنّ السبب الرئيسي في إزدياد الفحشاء والأبناء غيرالشرعيين ينحصر في إلغاء الحجاب وعدم الستر، ولا نقول: إنّ الإستعمار المشؤوم والقضايا السياسية المخربة ليس لها دور قوي فيه، بل نقول: إن التعري من الأسباب القوية لذلك.

وكما نعلم فإن انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غـير الشـرعيين مـصدر أنـواع الجرائم في المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً.

وبهذا تتضح الأبعاد الخطرة لهذه القضية.

وعندما نسمع أنّ الولادات غير الشرعية في بريطانيا بلغت بحسب إحصائياتهم خمسمائة ألف طفل كلّ عام، وأنّ علماءها حذّروا المسؤولين من مغبة هذا الوضع، ليس لأنّه ـ كما يقولون ـ بسبب مخالفته للقضايا الأخلاقية والدينية، وإنّما بسبب الخطر الذي أوجده هؤلاء الأبناء لأمن المجتمع، فقد وجدوا أنّهم يـمثّلون القسـم الأعظم من ملفات القضايا الخاصّة بالجرائم.

ومن هنا ندرك أهمية هذه القضية، وأنّها كارثة حتى للذين لا يؤمنون بدين ولا يهتمون بأخلاق.

وكلّما انتشر الفساد الجنسي في المجتمعات البشرية اتّسع التهديد لهذه المجتمعات وتعاظم الخطر عليها، وقد برهنت دراسات العلماء في التربية علىٰ ظهور الأعمال المنافية للعفة، وتفشّي الإهمال في العمل والتأخر، وعدم الشعور بالمسؤولية، في المدارس المختلطة والمنشئات التي يعمل فيها الرجال والنساء بشكل مختلط.

٤ ـ قضية «ابتذال المرأة» وسقوط شخصيتها في المجتمع الغربي ذات أهمية كبيرة لا تحتاج إلىٰ أرقام، فعندما يرغب المجتمع في تعري المرأة، فمن الطبيعي أن يتبعه طلبها لادوات التجميل والتظاهر الفاضح والإنحدار السلوكي، وتسقط شخصيّة المرأة في مجتمع يركز علىٰ جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلةً إعلاميّة يُروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كلّ قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنّه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقىٰ لها من إنسانيتها سوىٰ أنّها أداةٌ لإتباع شهواتِ الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر!

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

ومن المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، وتشتهر وتكسب المال الوفير، وتنحطّ إلىٰ حد الإبتذال في المجتمع، ليرحب بها مسيّرو هذا المجتمع المنحط خلقيّاً، في المهرجانات والحفلات الساهرة؟!

هكذا حال المرأة في المجتمع الغربي، وقد كان مجتمعنا قبل انتصار الثورة الإسلامية كذلك، ونشكر الله على إنهاء تلك المظاهر المنحطة في بلادنا بعد تأسيس الجمهورية الإسلامية، فقد عادت المرأة إلى مكانتها السامية التي أرادها الله لها، وها هي ذي تمارس دوراً إيجابياً في المجتمع مع محافظتها على حجابها الإسلامي، حتى أنها ساهمت بشكل فعّال خلف جبهات الحرب بمختلف الأعمال لدعم الجبهة والجهاد في سبيل الله.

وكان هذا جانباً من الفلسفة الحيوية لموضوع الحجاب في الإسلام. وهو ينسجم مع تفسيرنا.

الإشكال الذي يورده معارضو الحجاب:

نصل هنا إلى الإنتقادات التي يطرحها معارضو الحجاب، فنبحثها بشكل مضغوط:

١ ـ أهم الإنتقادات التي يذكرها معارضو الحجاب أنّ النساء يشكلن نصف المجتمع، والحجاب يجعلهنّ في معزل عن المجتمع، ويكون ذلك سبباً في تأخرهنّ الثقافي، وانعدام الإستفادة من هذه الطاقات العظيمة في ازدهار الإقتصاد. وإذا شغر مكانهنّ في المنشئات الثقافية والإجتماعية أصبحن موادَّ استهلاكيّة ليست بذات جدوىٰ للمجتمع.

إلّا أنّ هؤلاء المتمسّكين بهذا المنطق غفلوا عن عدّة أُمور، أو تغافلوا عنها، للأسباب التالية: ـ

أوّلاً: من الذي قال: إنَّ الحجاب الإسلامي يعزل المرأة عن المجتمع؟

لئن صعب علينا الجواب عن هذا السؤال في السابق، فما نظن أنّنا بعد قيام الجمهورية الإسلامية المباركة بحاجة إلىٰ دليلٍ على نهضةِ المرأة نهضةٍ كريمةً ومشاركتها في تشييد المجتمع الإسلامي المنشود مشاركةً تحقق النفع للمرأة والأُسره والحكومة والأُمة، فهي مسؤولة في الدوائر والمصانع والمتاجر، وفي النشاط السياسي في المسيرات والمظاهرات، في الإذاعة والتلفزيون، وفي المراكز الصحيّة ـ خاصّة في معالجة جرحي الحرب ـ وفي المدارس والجامعات، حتّى في ساحة الحرب ومجاهدة العدو.

وباختصار: إنّ الواقع الإجتماعي في بلدنا خير جواب عن هذا السؤال: وإذ كنّا نتحدث في السابق عن إمكانية حدوث ذلك، فإنّنا اليوم نراه ماثلاً بين أعيننا. وكما

يقول الفلاسفة: خير دليل على إمكان وجود الشيء حدوثه، ولا حاجة للبرهنة على وجود الواقع.

ثانياً: إضافة إلىٰ ذلك، ألا تُعتبر إدارة المنزل وتربية الأبناء الأصحّاء رجال المستقبل ـ الذين يديرون عجلة الإقتصاد والسياسة في البلاد ـ عملاً؟

إن الذين لا يعدّون هذه المسؤولية للمرأة أمراً ايجابياً جاهلون بحقيقة دور المرأة في الأُسرة وفي التربية، وفي بناء مجتمع سليم فعّال، بل لا يعترفون إلّا بمغادرة الرجال والنساء المنازل صباحاً ـ كالغربيين ـ ليلتحقوا بالدوائر والمصانع. ويجعلون أبناءهم تحت رعاية الآخرين، في دور الحضانة، أو يغلقوا عليهم المنازل ليعيشوا في معتقل دون رعاية، حتى يعود الوالدان من العمل وقد أرهقهما التعب!

هؤلاء غافلون عن أنّ إفتقاد الأطفال للرعاية والعطف، يؤدي إلى تحطّم شخصيتهم ويعرض المجتمع إلى الخطر.

٢ ـ كما يتذرع معارضو الحجاب بادعائهم بأنّه يعوق المرأة عن نشاطها الإجتماعي ولا ينسجم مع العصر الحديث، ويقولون: كيف تحفظ المرأة حجابها وطفلها وعملها في آن واحد؟!

إنّهم غافلون عن أنّ الحجاب ليس العباءة ونحوها، بل هو غطاء الجسم، فإن تسنىٰ للمرأة الإحتجاب بالعباءة فذلك حسن، وإلّا كفاها غطاءُ الرأس واللباس المحتشم حجاباً. وقد لبّت نساؤنا الريفيات وخاصّة العاملات ـ في مزارع الرز المملوكة لعوائلهن ـ هذا اللباس، حيث يمارسن الحراثة والبذار والإهتمام بالزرع ثمّ حصاده، وبرهنّ عمليّاً على إمكانية محافظة المرأة علىٰ حجابها دون أن يمنع ذلك ممارستها لا شقّ الأعمال.

٣ ـ يعترض المخالفون للحجاب قائلين: إنّ الحجاب يفصل بين الرجال والنساء، ويزيد في حرص الرجال بدلاً من إخماد هذا الحرص، لأنّ (المرء حريص على ما منع).

وهذه سفسطة واضحة، فلو قارن المرء بين مجتمعنا على عهد الطاغوت واليوم لتجلّى له الحقّ صريحاً. فبالأمس كان نزع الحجاب إجبارياً، واليوم يسود الحجاب الإسلامي مجتمعنا كله، والفساد كان ينتشر بالأمس في كل أنحاء البلاد، ويسيطر التسيب على معظم الأسر، ويزداد الطلاق بنسبة عالية، وترتفع نسبة المواليد غير الشرعية، وآلاف المصائب الأُخرىٰ. ونحن لا نجزم بأنّ كل الفساد قد زال في بلادنا واقتلعت جذوره، إلّا أنّه ممّا لا شك فيه أنّه قد انخفض بدرجة كبيرة، واستعاد مجتمعنا سلامته بدرجة كبيرة.

وإذا استمر الوضع علىٰ هذا المنوال بعون من الله، فإنّنا سنتمكن من حلّ جميع المشاكل. ويبلغ مجتمعنا مرتبة الطهارة الكاملة، ويحفظ للمرأة مكانتها الرفيعة.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١١/٨٠ ـ ٨٦.

١١٩

لماذا يرث الرّجل ضعف المرأة؟

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضعف ما ترثه المرأة، إلّا أنّه بالإمعان والتأمل يتّضح أنّ المرأة ترث ـ في الحقيقة ـ ضعف ما يرثه الرجل إذا لاحظنا القضية من جانب آخر، وهذا إنّما هولأجل ما يوليه الإسلام من حماية لحقوق المرأة.

توضيح ذلك: إن هناك وظائف أنيطت بالرجل (وبالأحرى كلّف بادائها تجاه المرأة) تقتضي صرف وإنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأة، في حين لا يجب على المرأة أي شيء من هذا القبيل.

إنّ على الرجل (الزوج) أن يتكفل نفقات زوجته حسب حاجتها من المسكن والملبس والمأكل والمشرب وغير ذلك من لوازم الحياة كما أن عليه أن ينفق على أولاده الصغار أيضاً، في حين أُعفيت المرأة من الإنفاق حتى على نفسها، وعلى هذا يكون في إمكان المرأة تدخر كل ما تحصله عن طريق الإرث، وتكون نتيجة ذلك أن الرجل يصرف وينفق نصف مدخوله على المرأة، ونصفه فقط على نفسه، في حين يبقى سهم المرأة من الإرث باقياً على حاله.

ولمزيد من التوضيح نلفت نظر القارىء الكريم إلى المثال التالي: لنفترض أنّ

مجموع الثروات الموجودة في العالم والتي تقسم تدريجاً ـ عن طريق الإرث ـ بين الذكور والإناث هو (٣٠) ميليارد دينار، والآن فلنحاسب مجموع ما يحصل عليه الرجال ونقيسه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث.

فلنفترض أن عدد الرجال والنساء متساوٍ فتكون حصة الرجال هو (٢٠) ميلياردأ، وحصة النساء هي (١٠) ميلياردات.

وحيث أن النساء يتزوجن ـ غالباً ـ فإن الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال، وهذا يعني أن تحتفظ النساء بـ (١٠) ميلياردات (وهو سهمهنّ من الإرث)، ويشاركن الرجال في العشرين ميلياردأ، لأن على الرجال أن يصرفوا من سمهمهم على زوجاتهم وأطفالهم.

وعلى هذا يصرف الرجال (١٠) ميلياردات على النساء (وهو نصف سهمهم من الإرث) فيكون مجموع ما تحصل عليه النساء ويملكنه هو (٢٠) ميلياردأ وهو ثلثا الثروة العالمية في حين لا يعود من الثروة العالمية على الرجال إلّا (١٠) ميلياردات، أي ثلث الثروة العالمية (وهو المقدار الذي يصرفه الرجال على أنفسهم).

وتكون النتيجة أنّ سهم المرأة التي تصرفه وتستفيد منه وتتملكه واقعاً هو ضعف سهم الرجل، وهذا التفاوت إنّما لكونهنّ أضعف من الرجال على كسب الثروة وتحصيلها (بالجهد والعمل)، وهذا ـ في حقيقته ـ حماية منطقية وعادلة قام بها الإسلام للمرأة، وهكذا يتبيّن أنّ سهمها الحقيقي أكثر ـ في النظام الإسلامي ـ وإن كان في الظاهر هو النصف.

ومن حسن الصدف أنّنا نقف على هذه النقطة إذا راجعنا التراث الإسلامي حيث أنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بداية الإسلام وخالج بعض الأذهان، فكان الناس يسألون أئمّة الدين عن سرّ ذلك بين حين وآخر، وكانوا يحصلون على إجابات متشابهة في مضمونها ـ على الأغلب ـ وهو أن الله إذ كلف الرجال بالإنفاق على النساء وأمهارهنّ، جعل سهمهم أكثر من سهمهنّ.

إن أبا الحسن الرضا﵇ كتب إليه في ما كتب من جواب مسائله علّة إعطاء النساء نصف ما يعطي الرجال من الميراث: لأن المرأة إذا تزوجت أخذت، والرجل يعطي، فلذلك وفرّ على الرجال، وعلّة أُخرىٰ في إعطاء الذكر مثل ما يعطى الأُنثى لأن الأُنثى من عيال الذكر إن احتاجت، وعليه أن يعولها وعليه نفقتها، وليس على المرأة أن تعول الرجل ولا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفرّ على الرجال لذلك[1].[2]

١ ـ البرهان، ج ١، ص ٣٤٧.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣/١٣١ ـ ١٣٣ .

١٢٠

دية المرأة نصف دية الرجل، لماذا؟

☑ قد يظن البعض أن قانون القصاص الإسلامي قد انتقص المرأة حين قرّر أن «الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أي إن الرجل ـ قاتل المرأة ـ لا يقتص منه.

وليس الأمر كذلك، مفهوم الآية لا يعني عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل ـ كما هو مبين في كتب الفقه ـ يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف ديته.

بعبارة أُخرىٰ: المقصود من عدم قصاص الرجل بالمرأة، هو القصاص دون شرط، أمّا إذا دُفعت نصف ديته فيجوز قتله.

واضح أن دفع نصف دية الرجل القاتل، لا يعني إنتقاص الإسلام للمرأة، بل يعني جبران الضرر المالي الذي يصيب عائلة الرجل القاتل بعد قتله، (تأمل بدقّة).

ولمزيد من التوضيح نقول: الرجال يتحملون غالباً مسؤوليات إعالة الأُسرة، ويؤمنون نفقاتها الإقتصادية، ولا يخفىٰ الفرق بين أثر غياب الرجل وغياب المرأة علىٰ العائلة اقتصادياً، ولو لم يراع هذا الفرق لأُصيبت عائلة المقتص منه بأضرار

مالية، ولوقعت في حرج اقتصادي، ودفع نصف الدية يحول دون تزلزل تلك العائلة اقتصادياً. ولا يسمح الإسلام أن يتعرض أفراد أُسرة لخطر اقتصادي وتغمط حقوقهم تحت شعار «المساواة».

قد تكون امرأة في أُسرتها عضوة فعالة اقتصادياً أكثر من الرجل، ولكن الأحكام والقوانين لا تقوم علىٰ أساس الحالات الإستثنائية، بل علىٰ أساس الوضع العام، وفي هذه الحالة يجب أن نقارن كل الرجال بكل النساء. (تأمل بدقّة)[١].

١ ـ تفسير الأمثل: ١/٥١٠ ـ ٥١٢.

١٢١

ماهي حكمة الصّداق للمرأة؟

☑ لمّا كانت المرأة ـ في العصر الجاهلي ـ لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها ـ الذي هو حقها المسلّم ـ إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، ويعتبرونه حقّاً مسلّماً لهم لا لها، وربّما جعلوا التزوج بامرأة صداقاً لإمرأة أُخرىٰ، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، وكان هذا هو صداق الزوجتين.

ولقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد والأعراف الظالمة، واعتبر الصداق حقّاً مسلّماً خاصاً بالمرأة، وأوصى الرجال مرّات عديدة وفي آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

على أنه ليس للصداق حدّ معين في الإسلام، فهو أمر يتبع إتفاق الزوجين، وإن تأكد في روايات كثيرة على التخفيف في المهور، ولكن هذا لا يكون حكماً إلزامياً، بل هو أمر مستحب.

وها هنا ينطرح هذا السؤال، وهو إذا كان الرجل والمرأة يستفيدان من الزواج بشكل متساو، وكانت رابطة الزوجية قائمة على أساس مصالح الطرفين فلماذا

يجب على الرجل أن يدفع مبلغاً ـ قليلاً أو كثيراً ـ إلى المرأة بعنوان الصداق والمهر؟ ثمّ ألا ينطوي هذا الأمر على إساءة إلى شخصية المرأة، ألا يسبغ هذا الأمر صبغة البيع والشراء على مشروع الزواج؟

إنّ هذه الأُمور هي التي تدفع بالبعض إلى أن يعارضوا بشدّة مبدأ المهر ومسألة الصداق، ويقوىٰ هذا الاِتجاه لدى المتغربين خاصّة ما يجدونه من عدم الأخذ بهذا المبدأ في الزيجات الغربية، في حين أن حذف الصداق والمهر من مشروع الزواج ليس من شأنه رفع شخصية المرأة فقط، بل يعرض وضعها للخطر.

وتوضيح ذلك هو، أنّه صحيح أنّ المرأة والرجل يستفيدان من مشروع الزواج، وإقامة الحياة الزوجية على قدم المساواة، ولكن لا يمكن إنكار أنّ الأكثر تضرراً لدى افتراق الزوج عن زوجته هي المرأة، وذلك:

أوّلاً: إنّ الرجل ـ بحكم قابلياته الجسدية الخاصّة ـ يمتلك ـ عادة ـ سلطاناً ونفوذاً وفرصاً أكثر في المجتمع، وهذه هي حقيقة ساطعة مهما حاول البعض إنكارها عند الحديث حول المرأة، ولكن الوضع الإجتماعي وحياة البشر ـ حتى في المجتمعات الغربية والأوروبية التي تحظى فيها النساء بما يسمّىٰ بالحرّية الكاملة ترينا بوضوح ـ وكما هو مشهود للجميع ـ إنّ الفرص وأزمة الأعمال المربحة جدّاً هي في الأغلب في أيدي الرجال.

هذا مضافاً إلى أنّ أمام الرجال إمكانيات أكثر لإختيار الزوجات، وإقامة حياة عائلية جديدة بينما لا تتوفر مثل هذه الإمكانيات للمرأة، فإن النساء الثيبات ـ خاصّة تلك التي يصبن بهذه الحالة بعد مضي شطر من أعمارهنّ، وفقدان شبابهنّ وجمالهنّ ـ يمتلكن فرصاً أقل للحصول على أزواج لهنّ.

بملاحظة هذه النقاط يتضح أنّ الإمكانات التي تخسرها المرأة بالزواج أكثر من الإمكانات التي يفقدها الرجل بذلك، ويكون الصداق والمهر ـ في الحقيقة ـ بمثابة التعويض عن الخسارة التي تلحق بالمرأة، ووسيلة لضمان حياتها المستقبلية، هذا

مضافاً إلى أنّ المهر والصداق خير وسيلة رادعة تردع الرجل عن التفكير في الطلاق والإفتراق.

صحيح أنّ المهر ـ في نظر القوانين الإسلامية يتعلق بذمّة الرجل من لحظة إنعقاد الرابطة الزوجية وقيامها بين الرجل والمرأة، ويحق للمرأة المطالبة به فوراً، ولكن حيث أن الغالب هو أن يتخذ الصداق صفة الدّين المتعلق في الذّمة يكون لذلك بمثابة توفير للمرأة تستفيد منه في مستقبلها، كما يعتبر خير دعامة لحفظ حقوقها، إلى جانب أنه يساعد على حفظ الرابطة الزوجية من التبعثر والتمزق (طبعاً هناك استثناءات لهذا الموضوع، ولكن ما ذكرناه صادق في أغلب الموارد).

وأمّا تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطىء، واعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأن الإسلام لا يعطي للصداق الذي يقدمه الرجل إلى المرأة صفة الثمن كما لا يعطي المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع والشراء، وأفضل دليل على ذلك هو صيغة عقد الزواج الذي يعتبر فيه الرجل والمرأة كركنين أساسيين في الرابطة الزوجية، في حين يقع الصداق والمهر على هامش هذا العقد، ويعتبر أمراً إضافياً، بدليل صحّة العقد إذا لم يرد في صيغة البيع والشراء وغير ذلك من المعاملات المالية إذ بدونه تبطل هذه المعاملات (طبعاً لابدّ من الإنتباه إلى أن على الزوج ـ إذا لم يذكر الصداق ضمن عقد الزواج ـ أن يدفع إلى المرأة مهر المثل في صورة الدخول بها).

من كلّ ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، وبمثابة الدعامة القوية التي تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، ولعل التعبير بالنِّحلة التي هي بمعنى العطية في الآية إشارة إلى هذه النقطة.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/١٠٢ ـ ١٠٥.

١٢٢

كيف سمح الإسلام التنبيه الجسدي للمرأة؟

نقرأ في سورة النساء الآية ٣٤ ﴿وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ يمكن أن يعترض معترض في هذا المقام قائلاً: كيف سمح الإسلام للرجال بأن يتوسلوا بأسلوب التنبيه الجسدي المتمثل بالضرب؟

☑ إنّ الجواب على هذا الإعتراض يبدو غير صعب بملاحظة معنى الآية والروايات الواردة لبيان مفادها وما جاء في توضيحها في الكتب الفقهية، وأيضاً بملاحظة ما يعطيه علماء النفس اليوم من توضيحات علمية في هذا المجال، ونلخص بعض هذه الأمور في نقاط:

أوّلاً: إنّ الآية تسمح بممارسة التنبيه الجسدي في حق من لا يحترم وظائفة وواجباته، الذي لا تنفع معه أية وسيلة أُخرىٰ، ومن حسن الصدف أن هذا الأسلوب ليس بأمر جديد خاص بالإسلام في حياة البشر، فجميع القوانين العالمية تتوسل بالأساليب العنيفة في حق من لا تنجح معه الوسائل والطرق السلمية لدفعه إلى تحمل مسؤولياته والقيام بواجباته، فإن هذه القوانين ربّما لا تقتصر على وسيلة

الضرب، بل تتجاوز ذلك ـ في بعض الموارد الخاصّة ـ إلى ممارسة عقوبات أشد تبلغ حدّ الإعدام والقتل.

ثانياً: إنّ التّنبيه الجسدي المسموح به هنايجب أن يكون خفيفاً، وأن يكون الضرب ضرباً غير مبرح، أي لا يبلغ الكسر والجرح، بل ولا الضرب البالغ حد السواد كما هو مقرر في الكتب الفقهية.

ثالثاً: إنّ علماء التحليل النفسي ـ اليوم ـ يرون أن بعض النساء يعانين من حالة نفسية هي «المازوخية» التي تقتضي أن ترتاح المرأة لضربها وأن هذه الحالة قد تشتد في المرأة إلى درجة تحس باللّذة والسكون والرضا إذا ضربت ضرباً طفيفاً.

وعلى هذا يمكن أن تكون هذه الوسيلة ناظرة إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدي الخفيف بمثابة علاج نفسي لهم.

ومن المسلم أنّ أحد هذه الأساليب لو أثر في المرأة الناشزة ودفعها إلى الطاعة، وعادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، ويعمد إلى إيذائها، ومضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب واستقامت في سلوكها ولهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله:

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾.

ولو قيل: إن مثل هذا الطغيان والعصيان والتمرد على الواجبات الزوجية والعائلية قد يقع من قبل الرجال أيضاً، فهل تشمل هذه المراحل الرجال أيضاً؟ أي أيمكن ممارسة هذه الأمور ضد الرجل كذلك، أم لا؟

نقول في الإجابة على ذلك: نعم إنّ الرجال العصاة يعاقبون حتى بالعقوبة الجسدية أيضاً ـ كما تعاقب النساء العاصيات الناشزات ـ غاية ما هنالك أن هذه العقوبات حيث لا تتيسر للنساء، فإن الحاكم الشرعي مكلف بأن يذكر الرجال المتخلفين بواجباتهم وظائفهم بالطرق المختلفة وحتى بالتعزير (الذي هو نوع من العقوبة الجسدية).

وقصّة الرجل الذي أجحف في حق زوجته ورفض الخضوع للحق، فعمد الإمام عليعليه السلام إلى تهديده بالسيف وحمله على الخضوع، معروفة.

ثمّ أنّ الله سبحانه ذكّر الرجال مرّة أُخرىٰ في ختام الآية بأن لا يسيئوا استخدام مكانتهم كقيمين على العائلة فيجحفوا في حق أزواجهم، وأن يفكروا في قدرة الله التي هي فوق كل قدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾.[1]

١ ـ تفسير الأمثل: ٢٢١/٣ ـ ٢٢٢.

١٢٣

كيف يجوز للرجال تعدد الزوجات دون النساء؟

☑ لقد أجاز القرآن الكريم تعدد الزوجات (ولكن بشرائط ثقيلة وفي حدود معينة) وقد أثارت هذه الإباحة جماعة، فانطلقوا يوجهون إليها الإعتراضات والإشكالات، وتعرض هذا القانون الإسلامي لهجمة كبيرة من المعارضين الذين تسرعوا في إصدار الحكم عن هذا القانون الإسلامي متأثرين بالأحاسيس، ودون أن يتناولوه بالدرس والتمحيص، والتأمل والتحقيق. وكان الغربيون أكثر هذه الجماعة معارضة لهذا القانون وهجوماً عليه، متسائلين كيف يجوز للإسلام أن يسمح للرجال أن يقيموا لأنفسهم حريماً ويتخذوا زوجات متعددة على نحو ما كان شائعاً في الجاهلية؟

كلّا، إنّ الإسلام لم يسمح لأحد بأن يقيم حريماً بالمعنى الذي تصورتم، ولا أنّه أباح تعدد الزوجات دون قيد أو شرط، ودون حدّ أو قانون.

ولتوضيح هذه الحقائق نقول: إن دراسة البيئات المختلفة قبل الإسلام تكشف لنا أنّ تعدد الزوجات دونما عدد معين كان أمراً عادياً وشائعاً، لدرجة أنّ بعض الوثنيين أسلموا وتحت الرجل منهم عشر زوجات أو أقل، من هنا لم تكن مسألة

تعدد الزّوجات ممّا أبدعه الإسلام، نعم إنّ ما فعله الإسلام هو وضع هذا الأمر في إطار الحاجة والضرورة الحيوية الإنسانية، وتقييده بطائفة من القيود والشروط الثقيلة.

إنّ قوانين الإسلام وتشريعاته تدور على محور الحاجات الإنسانية، وتقوم على أساس مراعاة الضرورات الحيوية في دنيا البشر، لا الدعاية الظاهرة ولا المشاعر الموجهة توجيهاً غير صحيح، ومسألة تعدد الزوجات من هذا القبيل أيضاً. فقد لوحظت هي الأُخرىٰ من هذه الزاوية، لأنّه لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ الرجال أكثر تعرضاً من النساء لخطر الفناء والموت بسبب كثرة ما يحيط بهم من الحوادث، المختلفة.

فالرجال يشكلون القسم الأكبر من ضحايا الحروب، والمعارك.

كما أنّه لا يمكن إنكار أنّ أعمار الرجال من الناحية الجنسية أطول من أعمار النساء في هذا المجال، فالنساء يفقدون القدرة الجنسية (والقدرة على الإنجاب) في سن معين من العمر قريب، في حين يبقى الرجال متحفظين بهذه الطاقة والقدرة مدّة أطول بكثير.

كما أنّ النساء ـ في فترة العادة الشهرية وشيء من فترة الحمل ـ يعانين من موانع جنسية بصورة عملية في حين لا يعاني الرجل من أي مانع جنسي من هذا النوع.

هذا كلّه مضافاً إلى أن هناك نساء يفقدون أزواجهنّ لبعض الأسباب، فلا يتيسر لهن أن يجلبن اهتمام نظر الرجال إلى أنفسهن كزوجة أُولىٰ، فإذا لم يسمح بتعدد الزوجات، وجب أن تبقى تلك النسوة بلا أزواج، كما نقرأ ذلك في الصحف المختلفة حيث يشكو هذا النوع من النساء الأرامل من صعوبات الحياة ومشكلات العيش بسبب تحديد مسألة تعدد الأزواج أو إلغائها بالمرّة، وحيث يعتبرن المنع من التعدد نوعاً من القوانين الظالمة الجائرة والمعادية لهنّ.

بالنظر إلى هذه الحقائق، وعندما يضطرب التوازن بين عدد النساء والرجال نجد

أنفسنا مضطرين لأن نختار أحد طرق ثلاث هي:

١ ـ أنْ يقنع كل رجل بزوجة واحدة فقط في جميع الحالات والموارد، ويبقى العدد الإضافي من النساء بلا أزواج إلى اخر أعمارهن، ويكبتن حاجاتهنّ الفطرية ويقمعن غرائزهنّ الباطنية الملتهبة.

٢ ـ أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة بصورة مشروعة ثمّ يترك حرّاً لإقامة علاقات جنسية مع من شاء وأراد من النساء اللائي فقدن ازواجهن لسبب وآخر على غرار اتّخاذ الأخدان والعشيقات.

٣ ـ أنْ يسمح لمن يقدر أن يتزوج بأكثر من واحدة ولا يقع في أية مشكلة من الناحية «الجسمية» و«المالية» و«الخلقية» من جراء هذا الأمر، كما ويمكنه أن يقيم علاقات عادلة بين الزوجات المتعددة وأولادهن، أن يسمح لهم بأن يتزوجوا بأكثر من واحدة (على أن لا يتجاوز عدد الأزواج أربعاً)، وهذه هي ثلاث خيارات وطرق لا رابع لها.

وإذا أردنا اختيار الطريق الأوّل يلزم أن نعادي الفطرة والغريزة البشرية، ونحارب جميع الحاجات الروحية والجسمية لدى البشر، ونتجاهل مشاعر هذه الطّائفة من هذه النّسوة، هذه الحرب والمعركة التي لن يكون فيها أي انتصار، وحتى لو نجح هذا الطرح وكتب له التوفيق، فإن ما فيها من الجوانب اللاإنسانية أظهر من أن تخفى على أحد.

وبعبارة أُخرىٰ أن تعدد الزوجات في الموارد الضرورية يجب أن لا ينظر إليه أو يدرس من منظار الزوجة الأُولىٰ، بل يجب أن يدرس من منظار الزوجة الثانية أيضاً.

إنّ الذين يعالجون هذه المسألة وينظرون إلى خصوص مشاكل الزوجة الأُولىٰ في صورة تعدد الزوجات هم أشبه بمن يطالع مسألة ذات زوايا ثلاث من زاوية واحدة، لأن مسألة تعدد الزوجات ذات ثلاث زوايا، فهي يجب أن تطالع من ناحية

الرجل، ومن ناحية الزوجة الأُولىٰ، ومن ناحية الزوجة الثانية أيضاً، ويجب أن يكون الحكم بعد ملاحظة كل هذه الزوايا في المسألة، ويتمّ على أساس مراعاة مصلحة المجموع في هذا الصعيد.

وإذا اخترنا الطريق الثاني وجب أن نعترف بالفحشاء والبغاء بصورة قانونية، هذا مضافاً إلى أن النساء العشيقات اللائي يجعلن أنفسهنّ في متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهم الجنسية يفتقدن كل ضمانة وكل مستقبل، ويعني ذلك سحق شخصيتهنّ سحقاً كاملاً ـ في الحقيقة ـ إذ يصبحن حينئذ مجرد متاع يقتنى عند الحاجة ويترك عند ارتفاعها دون التزام ومسؤولية، ولا شك أن هذه الأُمور ممّا لا يسمح به أي عاقل مطلقاً.

وعلى هذا الأساس لا يبقىٰ إلّا الطريق الثالث، وهو الطريق الذي يلبي الحاجات الفطرية والغريزية للنساء، كما أنه يجنب هذه الطائفة من النساء ويحفظهنّ من عواقب الفحشاء والإنزلاق إلى الفساد، وبالتالي ينقذ المجتمع من مستنقع الأثام والذنوب.

على أن من الواجب أن نلتفت إلى أنّ السماح بتعدد الزوجات مع أنّه ضرورة إجتماعية في بعض الموارد ومع أنّه من أحكام الإسلام القطعية، إلّا أن توفير شرائطه يختلف اختلافاً كبيراً عن الأزمنة الماضية، لأن الحياة كانت في العصور السابقة ذات نمط بسيط ومواصفات سهلة، ولهذا كانت رعاية المساواة والعدالة بين الزوجات المتعددات أمراً ممكناً وميسراً لأكثر الناس، في حين يجب على الذين يريدون الأخذ بهذا القانون الإسلامي في هذا العصر أن يراعوا مسألة العدالة من جميع الجوانب، وأن يقدموا على هذا الأمر إذا كانوا قادرين على الوفاء بجميع شروطه.

وبالجملة يجب أن لا يقدم أحد على هذا العمل بدافع الهوى والهوس.

هذا والملفت للنظر هنا هو أن الذين يعارضون مبدأ عدد الزوجات (كالغربيين)

قد واجهوا طوال تأريخهم ظروفاً ألجأتهم إلى هذا المبدأ بصورة واضحة.

ففي الحرب العالمية الثانية برزت حاجة شديدة في البلاد التي تعرضت لويلات الحرب هذه وبالأخص ألمانيا، إلى هذا الموضوع مما دفع بطائفة من المفكرين في سياق البحث عن حلّ لهذه المشكلة إلى إعادة النظر في مسألة المنع عن تعدد الزوجات، إلى درجة أنّهم طلبوا من الجامع «الأزهر» بالقاهرة البرنامج الإسلامي حول تعدد الزوجات للدراسة، ولكنهم اضطروا ـ وتحت ضغوط شديدة من جانب الكنائس ـ إلى التوقف عن المضي في دراسة هذا البرنامج، وكانت النّتيجة هو تفشي الفحشاء والفساد الجنسي الشديدين في جميع البلاد التي تعرضت للحرب وويلاتها.

هذا بغض النظر عن أنّه لا يمكن إنكار ما يحس به طائفة من الرجال من الميل إلى اتّخاذ زوجات متعددة، فإن كان هذا الميل والرغبة ناشئين من الهوى والهوس لم يكن جديراً بالنظر، أمّا إذا كانا ناشئين عن عقم الزوجة عن إنجاب الأولاد من جانب، ورغبة الرجل الشديدة في الحصول على أبناء له ـ كما هو الحال في كثير من الموارد ـ من جانب آخر، فهو ميل ورغبة منطقيان وجديران بالاهتمام والرعاية.

كما أنّه لو كانت الرغبة في تعدد الزوجات ناشئة من الميل الجنسي الشديد لدى الرجل وعدم قدرة الزوجة الأُولىٰ على تلبية هذا الميل كما ينبغي، ولهذا يرى الرجل نفسه مضطراً إلى اتخاذ زوجة ثانية حتى لا يقدم على إشباع هذه الحاجة من طريق غير مشروع لإمكان إشباعه من طريق مشروع، وفي هذه الصورة أيضاً لا يمكن إنكار منطقية هذا الميل لدى الرجل، ولهذا تكون إقامة العلاقات مع النساء المتعددات أمراً رائجاً عملياً حتى في البلاد التي تحظر تعدد الزوجات، فيعقد الرجل الواحد علاقات غير مشروعة مع نساء عديدات.

إن المؤرخ الفرنسي المعروف «غوستاف لوبون» يعتبر قانون تعدد الزوجات الذي يقرّه الإسلام ضمن حدود وشروط خاصّة ـ من مزايا هذا الدين، ويكتب عند

المقارنة بينه وبين طريقة العلاقات الجنسية الحرّة غير المشروعة الرائجة في الغرب قائلاً: «وفي الغرب حيث الجو والطبيعة لا يساعدان على تعدد الزوجات، وبرغم أنّ القوانين الغربية تمنع التعدد، ولكن الغربيين قلما تقيدوا بهذه القوانين وخرقوها بعلاقاتهم السرّية الآثمة.

ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنىٰ مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، بل أرى ما يجعله أسنى منه»[١].

طبعاً لا يمكننا إنكار أنّ هناك بعض أدعياء الإسلام ممن يستخدمون هذا القانون الإسلامي من دون مراعاة الروح الإسلامية فيه فيتخذون حريماً كلّه فساد وفجور ويتعدون على حقوق أزواجهم، بيد أنّ هذا ليس هو عيب في هذا القانون الإسلامي ولا يجوز اعتبار أعمالهم القبيحة وأفعالهم الرخيصة هذه من الإسلام، فهي ليست من أحكام الإسلام في شيء. ترى أي حكم أو قانون جيد من الأحكام والقوانين لم يستغله النفعيون والمصلحيون استغلالاً سيئاً؟

سؤال

ثمّ انّ هاهنا من يسأل أنّه قد تتوفر الشرائط والكيفيات المذكورة أعلاه بالنسبة إلى إمرأة أو نساء، فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس صعباً كما يمكن أن يتصور، وذلك:

أوّلاً: إنّ الرغبة الجنسية لدى الرجال (على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس) أقوى وأشدّ بأضعاف من النساء، وأن المرض النفسي الذي تصرّح به أكثر الكتب النفسية والطبية هو «البرود الجنسي» لدى المرأة في حين أن الأمر في

---

١ ـ حضارة العرب، ص ٣٩٨.

الرجال هو العكس، ولا يقتصر هذا الأمر على البشر، ففي عالم الحيوانات كـذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسية من إناثها.

ثانياً: إنّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوي على أية مشاكل إجتماعية وحقوقية، في حين أنّ السماح بتعدد الأزواج للنساء (أي لو أنّنا سمحنا لإمـرأة أن تـتزوج برجلين) يسبب مشاكل كثيرة أبسطها هو ضياع النسب، إذ لا يعرف في هذه الصورة إلى من ينتسب الولد، ولا شك أن مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أي واحد من الرجال، بل ويعتقد بعض العلماء أن الولد المجهول الأب قلّما يحظى حتى بحبّ الأُمّ واهتمامها به، وبهذه الصورة يصاب الولد الناشيء من مثل المـرأة ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحية العاطفية، كما أنّه يكون ـ بطبيعة الحال ـ مجهول الحال من الناحية الحقوقية أيضاً.

ولعلّه لا يحتاج إلى التذكير بأن التوسل بوسائل منع الحمل للحيلولة دون إنعقاد النطفة، وحصول ولد لا يورث الإطمئنان مطلقاً، ولا يكون دليلاً قاطعاً على عدم حمل الزوجة بولد، لأن ثمّة كثيراً من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن في استخدامها فيلدن وينجبن أولاداً، ولهذا لا يمكن لأية امرأة أن تسمح لنـفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتماداً على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأة بتعدد الأزواج أمراً منطقياً، في حين أنّه بالنسبة للرجال ـ ضمن الشروط المذكورة سابقاً ـ أمر منطقي، وعـملي أيضاً.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/٩٣ ـ ١٠٠.

١٢٤

ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟

نقرأ في سورة النساء الآية ٣ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً﴾ وفي الآية ١٢٩ من نفس هذه السورة ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ هنا يثار سؤال ماهو المقصود من العدالة في هذه الآية؟ أهي العدالة في الجوانب المادية كالمضاجعة وتوفير وسائل العيش وتحقيق الرّفاه والمتطلبات المعيشية؟ أم أنّ المراد أيضاً هو العدالة في نطاق القلب والعواطف والأحاسيس الإنسانية؟ وبعبارة صريحة: العدالة في الحبّ والرغبة، مضافاً إلى العدالة في الجوانب المادية؟

☑ لا شكّ أنّ مراعاة العدالة في الميل القلبي، والحبّ، والرغبة شيء خارج عن نطاق القدرة البشرية.

فمن ذا يستطيع أن يضبط حبّه من جميع الجوانب، ويعطيه الحجم الذي يريد، والحال أنّ موجباته وعوامله خارجة عن نطاق قدرته، وإطار إرادته؟

ولهذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هذه العدالة حيث قال سبحانه في الآية ١٢٩ من نفس هذه السّورة ـ النساء: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي لا يمكنكم مهما أردتم أن تعدلوا بين الأزواج في الميل القلبي،

والحبّ والمودّة.

إذن فلا ضير في الحبّ والميل القلبي الذي لا يوجب تفضيل بعض الأزواج في المواقف العملية، وعلى هذا الأساس فإن ما يجب على الرجل مراعاته هو العدالة بين أزواجه في الجوانب العملية الخارجية أي في نوع التعامل العملي خاصّة إذ يستحيل مثل هذه المراعاة في المجال العاطفي.

من هذا الكلام يتّضح بجلاء إن الذين أرادوا من ضمّ قوله تعالى: ﴿وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة﴾ إلى قوله تعالى في الآية (١٢٩): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أن يستنتجوا حرمة تعدد الأزواج مطلقاً بحجّة استحالة مراعاة العدالة بينهن قد وقعوا في خطأ كبير، لأن العدالة المستحيلة مراعاتها ـ كما أسلفنا ـ هي العدالة في المجال العاطفي، ـ وليس هذا من شرائط جواز التعدد في الأزواج، بل إن من شرائط جوازه هو مراعاة العدالة في المجال العملي.

ويشهد بذلك ما جاء في ذيل الآية (١٢٩) من نفس هذه السّورة حيث يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي أنّكم إذ لا تقدرون على مراعاة المساواة الكاملة في محبّة الزوجات وودّهنّ، فلا أقل أن لا تميلوا في حبّ بعض الأزواج ميلاً شديداً يحملكم على أن تذروا التي لا تميلون إليها، فلا هي ذات زوج ولا أيم.

وخلاصة القول ونتيجته، هي أن الذين أمسكوا بقسم من هذه الآية، ونسوا القسم الآخر وتورطوا في رفض تعدد الزوجات في خطأ يدهش كل محقق، ويستغرب منه كل باحث.[1]

ويفهم من الروايات الإسلامية أنّ أوّل من طرح هذا الرأي هو «ابن أبي العوجاء» وكان من أصحاب المذهب المادي، ومن المعاصرين للإمام الصّادقعليه السلام، وجاء

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/٩١ ـ ٩٣.

طرحه لرأيه هذا في نقاش له مع المفكر الإسلامي المجاهد «هشام بن الحكم» فلما أعيى «هشاماً» الجواب توجه من بلدته الكوفة إلى المدينة المنورة «لمعرفة الجواب» فقدم على الإمام الصّادقعليه السلام فتعجب الإمام من مقدمه قبل حلول موسم الحج أم العمرة، ولكن هشاماً أخبر الإمام بسؤال ابن أبي العوجاء، فكان جواب الإمام الصّادقعليه السلام على السؤال هو أنّ المقصود بالعدالة الواردة في الآية الثّالثة من سورة النساء، هي العدالة في النفقة (وضرورة رعاية الحقوق الزوجية وأُسلوب التعامل مع الزوجة) أمّا العدالة الواردة في الآية (١٢٩) من نفس السورة (والتي اعتبر تحقيقها أمراً مستحيلاً) فالمقصود بها العدالة في الميول القلبية. (وعلى هذا الأساس فإن تعدد الزوجات ليس ممنوعاً ولا مستحيلاً إذا روعيت فيه الشروط الإسلامية)، فلما رجع هشام بالجواب إلى ابن ابي العوجاء حلف هذا الاخير أن هذا الجواب ليس من عندك[١].

ومعلوم أنّ تفسيرنا لكلمتي العدالة في الآيتين بمعنين يختلف أحدهما عن الآخر، إنّما هو للقرينة الواضحة الواردة مع كل من الآيتين المذكورتين، لأنّ الآية الأخيرة تأمر الإنسان أن لا يميل ميلاً شديداً لإحدى زوجاته ويترك الأُخريات في الحيرة من شأنهنّ، ولهذا فهي تدل على جواز تعدد الزوجات مع اشتراط أن لا يحصل إجحاف بحق إحداهنّ لحساب الأُخرىٰ، مع الإذعان باستحالة تحقق المساواة في الحب القلبي لكلا الزوجتين، أمّا في الآية الثّالثة من سورة النساء فقد ورد التصريح في أوّلها بجواز تعدد الزوجات.[٢]

---

١ ـ تفسير البرهان...

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣/٤٧٩ ـ ٤٨٠.

١٢٥

ماهي حكمة الزّواج المؤقّت؟

☑ إنّه قانون عام إن الغريزة البشرية الطبيعية إذا لم تلّب بصورة صحيحة سلك الإنسان لإشباعها وتلبيتها طريقاً منحرفاً، لأن من الحقائق المسلمة غير القابلة للإنكار أن الغرائز الطبيعية لا يمكن أن يقضى عليها بالمرّة وحتى أننا إذا استطعنا أن نقضي عليها ـ افتراضاً ـ لم يكن هذا العمل عملاً صحيحاً، لأنّه حرب على قانون من قوانين الخلقة.

وعلى هذا فإنّ الطريق الصحيح هو أن نشبع هذه الحاجة، ونلبي هذه الغريزة بطريقة معقولة، وأن نستفيد منها في سبيل البناء.

على أننا لا يمكننا أن ننكر أنّ الغريزة الجنسية هي إحدى أقوى الغرائز الإنسانية إلى درجة أن بعض المحللين النفسانيين إعتبرها الغريزة الإنسانية الأصيلة التي إليها ترجع بقية الغرائز الأُخرىٰ.

فإذا كان الأمر كذلك ينطرح سؤال في المقام وهو أنّه قد يكون هناك من لا يمكنه ـ وفي كثير من الظروف والأحوال ـ أن يتزوج بالزواج الدائم في سن خاص، أو يكون هناك من المتزوجين من سافر في رحلة طويلة ومهمّة بعيدة عن الأهل

فيواجه مشكلة الحاجة الجنسية الشديدة التي تتطلب منه التلبية والإرضاء.

خاصّة وإنّ هذه المسألة قد اتّخذت في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه الزواج ـ بسبب طول مدّة الدراسة وبعد زمن التخرج وبعض المسائل الإجتماعية المعقدة التي قلّما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا في سن مبكرة، أي في السن التي تعتبر فترة الفوران الجنسي لدى كل شاب ـ اتّخذت صفة أكثر عنفاً وضراوة. ترى ما الذي يجب عمله في هذه الحالة؟

هل يجب حثّ الناس على أن يقمعوا هذه الغريزة (كما يفعل الرهبان والراهبات)؟

أو أنّه يجب أن يفسح لهم المجال لأن يتحرروا جنسياً فيفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا، فتتكرر الصورة المقرفة؟

أو أن نسلك طريقاً ثالثة تخلو عن مشاكل الزواج الدائم، كما وتخلو عن مفاسد التحرر الجنسي أيضاً؟

وخلاصة القول إن الزواج الدائم لم يكن لا في السابق ولا في الحاضر بقادر على أن يلبي كل الإحتياجات الجنسية، ولا أن يحقق رغبات جميع الفئات والطبقات في الناس، فنحن لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما وهما: إمّا أن نسمح بالفحشاء والبغاء ونعترف به (كما هو الحال في المجتمعات المادية اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصورة قانونية) أو أن نعالج المسألة عن طريق الزواج المؤقت (المتعة) فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكرة البغاء، وفكرة المتعة، على هذا السؤال الملح؟

إنّ أُطروحة الزواج المؤقت (المتعة) ليست مقيدة بشرائط النكاح الدائم لكي يقال بأنّها لا تنسجم ولا تتلاءم مع عدم القدرة المالية، أو لا تتلاءم مع ظروف الدراسة، كما لا تنطوي على اضرار الفحشاء والبغاء ومفاسده وويلاته.

مؤاخذات على الزواج المؤقت:

نعم هناك مؤاخذات تؤخذ على الزواج المؤقت لابدّ أن نذكرها هـنا، ونـجيب عليها باختصار.

١ ـ ربّما يقال: ما الفرق بين «الزواج المـؤقت» و«الزنـا»، أليس كـلاهما بـيع للجسد لقاء دفع مبلغ معين، وفي الحقيقة ليس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء والزنا، نعم غاية الفرق بين الأمرين هو إجراء ما يسمّىٰ بالصيغة، وهي ليست سوى عبارة بسيطة.

والجواب هو: إن الذين يرددون هذا الكلام كأنّهم لم يطّلعوا أصلاً على مـفهوم الزواج المؤقت وحقيقته، لأنّ الزواج المؤقت ليس عبارة عن مجرّد كلمتين تـقال وينتهي كل شيء، بل ثمّة مقررات نظير ما في الزواج الدائم، يعني أن المرأة المتمتع بها تكون ـ طوال المدّة المضروبة في الزواج المؤقت خاصّة بالرجل المتمتع، ثـمّ عندما تنتهي المدّة المذكورة يجب على المرأة أن تعتد، يعني أن تمتنع من الزواج مطلقاً برجل آخر لمدّة خمسة وأربعين يوماً على الأقل، حتى يتبيّن أنّها حملت من الرجل الأوّل أو لا، على أنّها يجب أن تعتد حتى إذا توسلت بوسائل لمنع الحمل أيضاً وإذا حملت من ذلك الرجل وأتت بوليد وجب أن يتكفله ذلك الرجـل كـما يتكفل أمر ولده من الزواج الدائم ويجري عليه من الأحكام كل ما يجري على الولد الناشيء من الزواج الدائم، في حين أن الزنا والبغاء لا ينطوي على أي شيء مـن هذه الشروط والحدود، فهل يمكن أن نقيس هذا الزواج بالبغاء؟

نعم إنّ بين الزواج المؤقت والزواج الدائم بعض الفروق من حيث التوارث بين الزوجتين[١] والنفقة وبعض الأحكام، ولكن هذه الفروق لا تسبب في أن يـجعل «الزواج المؤقت» في رديف البغاء، خـلاصة القـول: إنّ المـتعة نـوع مـن الزواج

١ ـ طبعاً ليس هناك أي فرق بين أولاد الزواج المؤقت وأبناء الزواج الدائم من هذه النواحي.

بمقررات الزواج والنكاح.

٢ ـ إنّ «الزواج المؤقت» يتيح لبعض الأشخاص من طلاب الهوى أن يسيء استعمال هذا القانون، وأن يرتكبوا كل فاحشة تحت هذا الستار لدرجة أن ذوي الشخصيات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج، بل وتأنف منه كما أن ذوات الشخصية من النساء يأبين ذلك أيضاً.

والجواب هو: وأي قانون في عالمنا الراهن لم يسأ استعماله؟ وهل يجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضيه الفطرة البشرية وتمليه الحاجة الإجتماعية الملحة بحجّة أن هناك من يسيء استعماله، أم أن علينا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحيح؟

لو أنّ البعض استغل موسم الحج لبيع المخدرات على الحجيج ـ افتراضاً ـ فهل يجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن، أم نمنع من اشتراك الناس في هذا المؤتمر الإسلامي العظيم؟

وهكذا الأمر في المقام، واذا لاحظنا بعض الناس من ذوي الشخصيات يكره الأخذ بهذا القانون الإسلامي (أي الزواج المؤقت) لم يكشف ذلك عن عيب في القانون، بل يكشف عن عيب في العاملين به، أو بتعبير أصح: يكشف عن عيب في الذين يسيئون استخدام القانون.

فلو أنّ الزواج المؤقت اتّخذ في المجتمع المعاصر صورته الصحيحة، وقامت الحكومة الإسلامية بتطبيقه على النحو الصحيح، وضمن ضوابطه ومقرراته الخاصّة به، أمكن المنع من سوء استخدام المستغلين لهذا القانون، كما لم يعد ذوو الشخصيات يكرهون هذا القانون ويرفضونه عند وجود ضرورة إجتماعية أيضاً.

٣ ـ يقولون: إنّ «الزواج المؤقت» يسبب في أن يحصل في المجتمع أطفال بلا أُسر، تماماً كما يحصل من البغاء من الأولاد الغير الشرعيين.

والجواب هو: إنّ الإجابة على هذه المؤاخذة تتّضح تماماً ممّا قلناه، لأنّ الأولاد

غير الشرعيين غير مرتبطين بآبائهم ولا أُمهاتهم من الناحية القانونية، في حين إن الأولاد الناتجين من الزواج المؤقت لا يختلفون في أي شيء عن الأولاد الناشئين من الزواج الدائم حتى في الميراث وسائر الحقوق الإجتماعية، وهذا الإعتراض نشأ من عدم الإنتباه إلى هذه الحقيقة الساطعة في صعيد الزواج المؤقت.

«راسل» والزواج المؤقت:

في خاتمة هذا البحث من المفيد الإشارة إلى موضوع هام ذكره في هذا المجال العالم الإنجليزي المعروف «برتراند راسل» في كتابه: «الزواج والأخلاق» تحت عنوان «زواج إختياري».

لقد كتب راسل بعد أن ذكر اقتراحاً لأحد قضاة محاكم الشباب يدعى «بن بي ليندسي» في مجال «الزواج الودّي أو الزواج الإختياري» قائلاً: وفق هذا الإقتراح يجب أن يكون الشباب قادرين على أن يدخلوا في نوع جديد من الزواج يختلف عن الزواج المتعارف (الدائم) من ثلاث نواح:

أوّلاً: أن لا يقصد الطرفان الحصول على أبناء، ولهذا يجب أن يتعرفوا على أفضل السبل لمنع الحمل.

وثانياً: أن يتمّ الإفتراق بين الطرفين بأبسط الطرق وأسهلها.

وثالثاً: أن لا تستحق المرأة أي نفقة من الرجل بعد وقوع الإفتراق والطلاق بينهما.

ثمّ إنّ راسل بعد أن يذكر خلاصة ما اقترحه «ليندسي» يقول: وإنّي لأتصور أن مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور كبير من الشباب وخاصّة الطلبة الجامعيين على الزواج المؤقت ولدخلوا في حياة مشتركة مؤقتة، حياة تتمتع

بالحرية، وخالصة من كثير من التبعات والعواقب السئية للعلاقات الجنسية الطائشة، الراهنة»[١].

إنّ هذا الطرح ـ كما تلاحظ أيّها القارىء الكريم ـ حول الزواج المؤقت يشابه إلى حدّ كبير قانون الزواج المؤقت الإسلامي، غاية ما هنالك إنّ الشروط التي قرّرها الإسلام في صعيد «الزواج المؤقت» أوضح وأكمل من نواحي كثيرة ممّا اعتبر في ذلك الطرح (الذي اقترحه ليندسي)، هذا مضافاً إلى أن المنع من تكـون الولد فـي الزواج المؤقت الإسلامي غير محضور وإنّ الإنفصال سهل، كما أنّه لا تجب النفقة في هذا الزواج على الرجل.[٢]

---

١ ـ من كتاب (زناشوئي وأحلاق)، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٣/١٨٥ ـ ١٩١.

١٢٦

هل نسخ حكم الزواج المؤقّت في عهد النّبيﷺ؟

☑ لقد إتفق عامّة علماء المسلمين، بل قامت ضرورة الدين على أنّ الزواج المؤقت (المتعة) كان أمراً مشروعاً في صدر الإسلام والكلام حول دلالة الآية ٣٤ من سورة النساء: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ على مشروعية المتعة لا ينافي قطعية وجود أصل الحكم لأنّ المخالفين يرون ثبوت مشروعية هذا الحكم في السنة النبوية)، بل كان المسلمون في صدر الإسلام يعملوا بهذا الحكم، والعبارة المعروفة المروية عن عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرمهما ومعاقب عليهما، متعة النساء ومتعة الحج»[1] دليل واضح على وجود هذا الحكم في عصر النّبيﷺ، غاية ما في الأمر أن من خالف هذا الحكم ادعى أنّه قد نسخ في ما بعد، وحرم هذا النوع من الزواج.

---

١ ـ كنز العرفان، ج ٢، ص ١٥٨، ولقد روي الحديث المذكور عن تفسير القرطبي والطبري بعبارات تشابه العبارة أعلاه، كما أن هذا الحديث جاء في السنن الكبرى للبيهقي، ج ٧، كتاب النكاح.

ولكن الملفت للنظر هو أنّ الروايات الناسخة لهذا الحكم التي ادعوها مضطربة اضطراباً كبيراً، فبعضها يقول: إنّ النّبيﷺ نفسه هو الذي نسخ هذا الحكم، وعلى هذا يكون الناسخ لهذا الحكم القرآني هو السنة النبوية، وبعضها يقول: إنّ ناسخه هو آية الطلاق إذ يقول سبحانه: ﴿إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدّتهن﴾ في حين أنّ هذه الآية لا ترتبط بالمسألة المطروحة في هذا البحث لأنّ هذه الآية تبحث في الطلاق، في حين أن الزواج المؤقت (أو المتعة) لا طلاق فيه، والإفتراق بين الطرفين في هذا الزواج يتمّ بانتهاء المدّة المقررة.

إنّ القدر المتيقن في المقام هو أن أصل مشروعية هذا النوع من الزواج في زمن النّبيﷺ أمر قطعي ومفروغ عنه، وليس ثمّة أي دليل يمكن الإطمئنان إليه ويثبت نسخ هذا الحكم، ولهذا فلابدّ من أن نحكم ببقاء هذا الحكم، بناء على ما هو مقرر وثابت في علم الأصول.

والعبارة المشهورة المروية عن «عمر» خير شاهد على هذه الحقيقة، وهي أنّ هذا الحكم لم ينسخ في زمن رسول اللهﷺ ... وإلخ.

ثمّ إن من البديهي أنّه لا يحق لأحد إلّا النّبيﷺ أن ينسخ الأحكام، فهو وحده يحق له ـ وبأمر من الله سبحانه وإذنه ـ أن ينسخ بعض الأحكام، وقد سد باب نسخ الأحكام بعد وفاة النّبي تماماً، وإلّا لإستطاع كل واحد أن ينسخ شيئاً من الأحكام الإلهية حسب اجتهاده ومزاجه، وحينئذ لا يبقى شيء من الشريعة الخالدة الأبدية، وهذا مضافاً إلى أنّ الإجتهاد في مقابل النص النّبوي لا ينطوي على أية قيمة أبداً.

والملفت للنظر أننا نقرأ في صحيح الترمذي الذي هو من صحاح أهل السنة المعروفة، وكذا عن الدارقطني[1] أن رجلاً من أهل الشام سأل «عبد الله بن عمر» عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال ابن عمر: حسن جميل، قال: فإن أباك كان ينهىٰ

---

١ ـ تفسير القرطبي، ج ٢، ص ٧٦٢، ذيل الآية (١٩٥) البقرة.

عنها، فقال: ويلك فإن كان أبي نهى عنها وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به أفبقول أبي آخذ، أم بأمر رسول الله ﷺ قم عنّي[١].

وقد ورد نظير هذا الحديث وبنفس الصورة التي قرأتها حول زواج المتعة عن «عبد الله بن عمر» في صحيح الترمذي[٢].

وجاء في كتاب «المحاضرات» للراغب أنّ رجلاً من المسلمين كان يفعلها (أي المتعة) فقيل له: عمّن أخذت حلّها؟ فقال: عن عمر، فقالوا: كيف ذلك وعمر هو الذي نهى عنها وعاقب على فعلها؟ فقال: لقوله: متعتان كانتا على عهد رسول‌الله، وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء، فأنا أقبل روايته في شرعيتها على عهد رسول الله ﷺ، وما أقبل نهيه من قبل نفسه[٣].

ثمّ إن هناك مطلباً آخر لابدّ أن نذكر به هنا وهو أن الذين ادعوا نسخ هذا الحكم (أي انتساخه) قد واجهوا مشكلات عديدة.

أوّلاً: أنّه صرّح في روايات عديدة في مصادر أهل السنة بأنّ هذا الحكم لم ينسخ في عهد رسول الله ﷺ أبداً، بل نهي عنه في عهد عمر، وعلى هذا يجب على مدعي النسخ أن يجيبوا على هذه الروايات البالغة ـ عدداً ـ عشرين رواية،

---

١ ـ المراد من متعة الحج التي حرّمها عمر هو لو أننا صرفنا النظر عن حج التمتع، فإن حج التمتع عبارة عن الأمر التالي: إن يحرم الشخص أوّلاً، ثمّ بعد الإتيان بمناسك «العمرة» يخرج من احرامه (فيحلّ له كل شيء حتى الجماع) ثمّ يحرم من جديد ليؤدي مناسك الحج من تاسع ذي الحجّة، وقد كان الناس في الجاهلية يبطلون هذا العمل ويستغربون ممن يدخل مكّة أيام الحج ثمّ يأتي بالعمرة ويخرج من إحرامه قبل أن يأتي بالحج، ولكن الإسلام أباح هذا وقد صرّح بهذا الأمر في الآية (١٨٦) من سورة البقرة.

٢ ـ شرح اللمعة الدمشقية، ج ٢، كتاب النكاح.

٣ ـ كنز العرفان، ج ٢، ص ١٥٩ الهامش.

جمعها العلّامة الأميني‏ مفصلة في الجزء السادس من «الغدير» وها نحن نشير إلى نموذجين منها.

١ ـ روي في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه كان يقول: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيّام على عهد رسول الله‏ﷺ وأبي‌بكر حتى ـ ثمّ ـ نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث[١].

٢ ـ وفي حديث آخر في كتاب «الموطأ» لمالك و«السنن الكبرى» للبيهقي روي عن «عروة بن زبير» إنّ خولة بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إنّ ربيعة بن أميّة استمتع بامرأة مولدة فحملت منه فخرج عمر رضي الله عنه يجرّ رداءه فزعاً فقال: هذه المتعة لو كنت تقدمت فيه لرجمته. (أي أمنع منها من الآن)[٢].

٣ ـ وفي كتاب «بداية المجتهد» تأليف «ابن رشد الأندلسي» نقرأ أيضاً أنّ جابر بن عبد الله الأنصاري كان يقول: تمتعنا على عهد رسول الله‏ﷺ وأبي‌بكر ونصفاً من خلافة عمر ثمّ نهى عنها عمر الناس[٣].

والمشكلة الأُخرىٰ هي أنّ الروايات التي تتحدث عن نسخ حكم المتعة في عهد رسول الله مضطربة ومتناقضة جدّاً، فبعضها يقول نسخ في خيبر وبعضها يقول: نسخ يوم فتح مكّة، وبعض يقول: في معركة تبوك وآخر يقول: يوم أوطاس وما شابه ذلك، ومن هنا يتبيّن إن هذه الأحاديث المشيرة إلى النسخ موضوعة برمتها لما فيها من التناقض البيّن والتضارب الواضح.

من كل ما قلناه اتّضح أنّ ما كتبه صاحب تفسير المنار حيث قال: «وقد كنّا قلنا

---

١ ـ الغدير، ج ٦، ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

٢ ـ الغدير، ج ١، ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

٣ ـ بداية المجتهد كتاب النكاح.

في (محاورات المصلح والمقلد) التي نشرت في المجلدين الثالث والرابع: من المنار أن عمر نهى عن المتعة اجتهاداً منه وافقه عليه الصحابة ثمّ تبيّن لنا أنّ ذلك خطأ فنستغفر الله منه»[١].

إنّه حديث العصبية لأنّ هناك في مقابل الرّوايات المتضاربة المتناقضة التي تتحدث عن انتساخ حكم المتعة في عهد رسول الله ﷺ روايات تصرّح باستمرار المسلمين على ممارسة هذا الأمر (أي المتعة) إلى عهد عمر، وعلى هذا ليس المقام مقام الإعتذار ولا الإستغفار، فالشواهد التي ذكرناها سابقاً تشهد بأن كلامه الأوّل مقترن بالحقيقة وليس كلامه الثّاني كذلك.

ولا يخفى أنّه لا «عمر» ولا أي شخصية أُخرىٰ حتى أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهم خلفاء النّبي ﷺ بقادرين على نسخ أحكام ثبتت في عهد رسول الله ﷺ بل لا معنى للنسخ ـ أساساً ـ بعد وفاة النّبي ﷺ وانسداد باب الوحي وانقطاعه، وحملهم كلام «عمر» على الإجتهاد مثير للعجب، لأنّه من «الإجتهاد» في مقابل «النص»[٢].

---

١ ـ تفسير المنار، ج ٥، ص ١٦.
٢ ـ تفسير الأمثل: ١٨١/٣ ـ ١٨٥ .

١٢٧

ماهي حكمة المحلّل؟

☑ كما أنّ الزّواج أمر ضروريٌّ وحياتيٌّ بالنّسبة للإنسان، فكـذلك الطّـلاق تحت شرائط خاصّة يكـون ضـروريّاً أيـضاً، ولذلك نـجد أنّ الإسـلام (وخـلافاً للمسيحيّة المحرّفة) يُبيح الطّلاق، ولكن بما أنّه يؤدّي إلى تشتيت العائلة وإلى إنزال ضربات موجعة بالفرد والمجتمع، فقد وضعت شروط متنوعة للحيلولة دون وقوع الطّلاق قدر إمكان.

إنّ موضوع الزواج المجدّد أو «المحلّل» واحد من تلك الشـروط، إذ أنّ زواج المرأة من رجل جديد بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاثاً يعتبر عائقاً كبيراً بـوجه استمرار الطلاق أو التمادي فيه. فالذي يريد أن يطلّق زوجته الطلاق الثالث، يشعر أنّه إن فعل ذلك فلن تعود إليه وتكون من نصيب غيره، وهذا الشعور يجرح كرامته، ولذلك فهو لن يقدم على هذا العمل عادةً إلّا مضطرّاً.

في الحقيقة أنّ قضية «المحلّل» أو الأصحّ زواج المرأة برجل آخر زواجاً دائمياً يعتبر مانعاً يقف بوجه الرجال من ذوي الأهواء المتقلّبة والمخادعين لكي لا يجعلوا من النساء ألاعيب بين أيديهم وغرضاً لخدمة أهوائهم، وأن لا يمارسوا ـ بلا حدود

ـ قانون الطلاق والعودة.

إنّ شروط هذا الزواج (كأن يكون دائمياً) تدلّ على أنّ هذا الزواج ليس هدفه إيجاد وسيلة لإيصال الزوجة إلى زوجها الأول، لأنه يحتمل أن لا يطلقها الزوج الثاني، لذلك فلا يمكن استغلال هذا القانون ورفع العائق عن طريق زواج مؤقّت.

ومع الإلتفات إلى ما ذُكر أعلاه يمكن القول أنّ هدف الزّواج الثاني بعد ثلاث طلقات والسّماح لكلّ من الزوجين في تشكيل حياة زوجيّة جديدة من أجل أن لا يصبح الزّواج هذا الرّباط المقدّس مدعاة للتّغالب وفق أهواء الزوج الأوّل ومشتهياته الشّيطانية. وفي نفس الوقت إذا طلّقها الزوج الثاني فإنّ طريق العودة والرّجوع سيكون مفتوحاً أمامهما فيجوز للزّوج الأوّل نكاحها من جديد، ولذلك أُطلق على الزوج الثاني (المحلّل).

ومن هنا يتّضح أنّ البحث يخص الزّواج الواقعي الجاد بالنّسبة إلى المحلّل، أمّا إذا قصد شخص منذ البداية أن يتوسّل بزواج مؤقّت، واعتبر القضية مجرّد شكليّات يحلّها (المحلّل) فإنّ زواجاً هذا شأنه لا يُؤخذ به ويكون باطلاً. كما أنّ المرأة لا تحلّ لزوجها الأوّل، ولعلّ الحديث المذكور (لعن الله المحلّل والمحلّل له)[١] يشير إلى هذا النوع من المحلّلين، وهذا الأُسلوب من الزّواج الظّاهري والشكلي.

وذهب البعض إلى أنّ الزوج الثاني إذا قصد الزّواج الدائمي الجدّي، ولكن كانت نيّته أن يفتح طريق عودة المرأة ورجوعها إلى الزّوج الأوّل، فإن هذا الزّواج يُعتبر باطلاً أيضاً. وذهب البعض أيضاً إلى أنّه في هذه الحالة يقع الزّواج صحيحاً رغم أن نيّته هي إرجاع المرأة إلى زوجها الأوّل، ولكنّه مكروهاً بشرط أن لا يُذكر هذا المعنى كالجزء من شرائط العقد.

ومن هنا يتضح أيضاً الضجّة المفتعلة للمغرضين الّذين اتّخذوا من (المحلّل)

---

١ ـ مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٣١، ونقل هذا الحديث تفسير القرطبي والمنار والمراغي.

ذريعة لِشن حملاتهم الظّالمة على أحكام الإسلام ومقدّساته. فهذه الضجّة المفتعلة دليل على جهلهم وحقدهم على الإسلام، وإلّا فإنّ هذا الحكم الإلهي بالشّرائط المذكورة عامل على منع الطّلاق المتكرّر والحدّ من التصرّفات الهوجاء لبعض الأزواج، ودافعٌ على إصلاح الوضع العائلي وإصلاح الحياة الزوجيّة.[١]

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/١٦٥ ـ ١٦٧.

١٢٨

ماهي فلسفة العدّة؟

العدّة وسيلة للعودة والصّلح

نقرأ في سورة البقرة الآية ٢٨٨ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ هنا يطرح سؤال وهو: ماهي فلسفة العدّة؟

☑ أحياناً ينشأ في مناخ الأُسرة وبسبب عوامل مختلفة بعض الإختلافات الجزئيّة وتتهيّأ الأرضيّة النفسيّة لكلٍّ من الزّوجين بشكلٍ يشتد فيه حس الانتقام وتنطفأ فيه أنوار العقل والوجدان. وفي الغالب تكون حالات الفرقة وتشتّت العائلة ناشئة من هذه الموارد والحالات، ولكن يُشاهد في كثير من الحالات أنّ كلّ من الزّوجة والزّوج بعد حصول النّزاع والفُرقة بفترة قليلة من الزّمان يصيبهم النّدم وخاصّة بعد مشاهدة إنهدام الأُسرة وتلاشي المحيط العائلي الدّافيء لتصبَّ حياتهم في بحر المشاكل المختلفة.

وهنا تقول الآية مورد البحث: أنّ على النّساء العدّة والصبر ريثما تهدأ تلك الأمواج النفسيّة وتنقشع سحب النّزاع والعداوة عن سماء الحياة المشتركة، وخاصّة

إذا أخذنا بنظر الإعتبار حكم الإسلام في وجوب بقاء المرأة وعدم خروجها من بيت زوجها طيلة مدّة العادة حيث يبعث ذلك على حُسن التفكّر وإعادة النّظر في قرار الطّلاق ممّا يؤثّر ذلك كثيراً في رسم وصياغة علاقاتها مع زوجها، ولذلك نقرأ في سورة الطّلاق آية (١) **﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ... لا تدري لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرا﴾**.

وفي الغالب نلحظ أنّه يكفي لإستعادة المناخ الملائم والأجواء الدّافئة للأُسرة قبل الطّلاق قليل من تقوية المحبّة وإعادة المياه إلى مجاريها.

العدّة وسيلة لحفظ النّسل

إنّ إحدىٰ الأغراض المهمّة للعدّة هو إتّضاح حالة المرأة بالنّسبة إلى الحمل، فصحيح أنّ رؤية المرأة لدم الحيض مرّة واحدة دليل على عدم الحمل، ولكن أحياناً ترى المرأة دم العادة حين الحمل أيضاً وفي بدايته، فمن أجل رعاية هذا الموضوع والحكم بشكل كامل كان على المرأة أن تصبر لترى العدّة ثلاث مرّات وتطهر منها حتّى تقطع تماماً بعدم حملها من زوجها السّابق فيمكنها بعد ذلك الزّواج المجدّد، وطبعاً هناك فوائد أُخرىٰ للعدّة سنشير إليها في مواردها.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/١٥١ ـ ١٥٢.

فلسفة بعض المحرمات
في الإسلام

١٢٩

ماهي حكمة تحريم القمار؟

☑ أضرار القمار لا تخفى على أحد، ولمزيد من التوضيح نذكر باختصار جانباً من المآسي المترتّبة على هذه الظاهرة الخطرة:

القمار أكبر عوامل الهياج والانفعال

يجمع علماء النفس على أنّ الهياج النفسي هو العامل الأساسي في كثير من الأمراض، مثل: نقص الفيتامينات، وقرحة المعدة، والجنون، والأمراض العصبية والنفسية الخفيفة والحادّة. والقمار أكبر عامل على إثارة الهياج، حتّى أنّ عالماً أمريكياً يقول: في أمريكا يموت ألفا شخص سنوياً نتيجة هياج القمار، وقلب لاعب البوكر «نوع من القمار» تزيد عدد ضرباته على مائة ضربة في الدقيقة، وقد يؤدّي القمار إلى سكتة قلبيّة ودماغيّة أيضاً، ومن المؤكّد أنّه يدفع إلى شيخوخة مبكّرة.

إضافة إلى ما سبق فإنّ المقامر ـ كما يقول العلماء ـ يصاب بتوتّر روحي، بل أنّ جميع أجهزة جسمه تصاب بحالة استثنائيّة، كأن يزداد ضربان القلب وتزداد نسبة

السكّر في الدم، ويختلّ ترشّح الغدد الداخلية، ويشحب لون الوجه، وتقلّ الشهية، ويمرّ المقامر بعد اللعب بفترة حرب أعصاب وحالة أزمة نفسية، وقد يلجأ إلى الخمور والمخدّرات لتهدئة أعصابه، فيزيد في الطين بلّة وتتضاعف بذلك أضرار القمار.

ويقول عالم آخر: المقامر إنسان مريض يحتاج إلى إشراف نفسي مستمر، ويجب تفهيمه بأنّ الفراغ الروحي هو الذي يدفعه لهذا العمل الشنيع، كي يتّجه لمعالجة نفسه.

علاقة القمار بالجرائم

إحدى مؤسسات الإحصاء الكبرى ذكرت: أنّ ٣٠ بالمائة من الجرائم ناتجة مباشرة عن القمار، و ٧٠ بالمائة من الجرائم ناتجة بشكل غير مباشر عن القمار أيضاً.

الأضرار الإقتصادية للقمار

الملايين بل المليارات من ثروات الأفراد تبدّد سنوياً على هذا الطريق، إضافة إلى المقدار الهائل من الوقت ومن الطاقات الإنسانية.

وجاء في أحد التقارير: في مدينة «مونت كارلو» حيث توجد أكبر دور القمار في العالم، خسر شخص خلال مدّة ١٩ ساعة من اللعب المستمر أربعة ملايين دولار، وحين أُغلقت دار القمار اتّجه مباشرة إلى الغابة، وانتحر بإطلاق رصاصة على رأسه، ويضيف التقرير: أنّ غابات «مونت كارلو» تشهد باستمرار انتحار مثل هؤلاء الخاسرين.

الأضرار الإجتماعية للقمار

القمار يصدّ أصحابه عن التفكير بالعمل الجادّ الإنتاجي المثمر في الحقل

الإقتصادي، ويشدّهم دائماً إلى أمل الحصول على ثروة طائلة بدون عناء عن طريق القمار، وهذا يؤدّي إلى إهدار الطاقات الإنتاجية لهـؤلاء المـقامرين وبـالتالي إلى ضعف الإنتاج على قدر نسبتهم.

المقامرون وعوائلهم يعيشون عادة حياة طفيلية فـي الجـانب الإقـتصادي ولا ينتجون، بل يجنون ثمار الآخرين، وقد يضطرّون في حالات الإفلاس إلى السرقة.

أضرار القمار فادحة إلى درجة دفعت حتّى ببعض البلدان غـير الإسـلامية إلى اعلان منعه، كما حدث في بريطانيا عام ١٨٥٣، وأمريكا عـام ١٨٥٥، والإتـحاد السوفيتي عام ١٨٥٤، والمانيا عام ١٨٧٣.

ولابأس أن نشير في الخاتمة إلى إحصائية أجراها بعض المـحقّقين تـذكر أنّ القمار وراء ٩٠ بالمائة من السرقات، و ١٠ بالمائة من المفاسد الخلقية، و ٤٠ بالمائة من الإعتداءات بالضرب والجرح، و١٥ بالمائة من الجرائم الجنسية، و ٣٠ بالمائة من الطلاق، و ٥ بالمائة من عمليات الإنتحار.

لو أردنا أن نعرّف القمار تعريفاً شاملاً علينا أن نقول: إنّه إهدار للمال والشرف، للحصول على أموال الآخرين بالخدعة والتزْوير، وللترويح عن النفس أحياناً، ثمّ عدم الحصول على كلا الهدفين.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٢/ ١٢٠ ـ ١٢٢.

١٣٠

ما هو الغناء؟ و ما هي حكمة تحريمه؟

☑ لا يواجهنا إشكال مهم في حرمة الغناء، إنّما الإشكال الصعب هو تشخيص موضوع الغناء، فهل أنّ كلّ صوت حسن غناء؟

من المسلّم أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه قد ورد في الرّوايات الإسلامية، وسيرة المسلمين تحكي أيضاً، أن اقرؤوا القرآن وأذّنوا بصوت حسن.

هل أنّ الغناء كلّ صوت فيه ترجيع ـ وهو تردّد الصوت في الحنجرة ـ؟ هذا أيضاً غير ثابت.

والذي يمكن إستفادته من مجموع كلمات فقهاء وأقوال أهل السنّة في هذا المجال، أنّ الغناء هو كلّ لحن وصوت يطرب، ويشتمل على اللهو والباطل.

وبعبارة أوضح: الغناء هو الأصوات والألحان التي تناسب مجالس الفسق والفجور، وأهل المعصية والفساد.

وبتعبير آخر: الغناء يقال للصوت الذي يحرّك القوى الشهوانية في الإنسان، بحيث يشعر الإنسان في تلك الحال بأنّه لو كان إلى جانب هذا الصوت خمر ومسكر وإباحة وفساد جنسي، لكان ذلك مناسباً جدّاً!

وهناك مسألة تستحقّ الإنتباه، وهي أنّ بعض الألحان تعدّ أحياناً غـناءً ولهـواً باطلاً بذاتها ومحتواها، مثال ذلك أشعار العشق والغرام والأشعار المفسدة التي تُقرأ بألحان وموسيقى راقصة.

وقد تكون الألحان بذاتها غناءً أحياناً أُخرى، مثال الأشعار الجـيدة، أو آيـات القرآن والدعاء والمناجاة التي تُقرأ بلحن يناسب مجالس الفاسدين والفسّاق، وهو حرام في كلام الصورتين «فتأمّل».

وثمّة مسألة ينبغي ذكرها، وهي أنّه يذكر للغناء مـعنيان: مـعنى عـامّ، ومـعنى خاصّ، والمعنى الخاصّ هو ما ذكرناه أعلاه، أي الموسيقى والألحان التي تحرّك الشهوات، وتناسب مجالس الفسق والفجور.

والمعنى العامّ هو كلّ صوت حسن، فمن فسّر الغناء بالمعنى العـامّ قسّـمه إلى قسمين: غناء حلال، وغناء حرام.

والمراد من الغناء الحرام: هو ما قيل أعلاه، والمراد من الغناء الحلال: الصـوت الحسن الجميل والذي لا يكون باعثاً على الفساد، ولا يـناسب مـجالس الفسـق والفجور.

وبناءً على هذا فلا يوجد إختلاف ـ تـقريباً ـ فـي أصـل تـحريم الغـناء، بـل الإختلاف في كيفية تفسيره.

ومن الطبيعيّ أن يكون للغناء موارد شكّ ـ ككلّ المفاهيم الأُخرى ـ وأنّ الإنسان لا يعلم حقّاً هل أنّ الصوت الفلاني يناسب مجالس الفسق والفجور، أم لا؟ وفـي هذه الصورة يحكم بالحلّية بحكم أصل البراءة، وهذا ـ طبعاً ـ بعد الإحاطة الكافية بالمفهوم العرفي للغناء طبق التعريف أعلاه.

ومن هنا يتّضح أنّ الأصوات والموسيقى الحماسية التي تناسب ساحات الحرب أو الرياضة وأمثالها لا دليل على حرمتها.

ومن الطبيعي أنّ هناك بحوثاً أُخرىٰ في باب الغناء، من قبيل بعض الإستثناءات

التي قبلها جماعة وأنكرها آخرون، ومسائل أُخرى ينبغي الكلام عنها في الكتب الفقهيّة.

والكلام الأخير هو أنّ ما ذُكر أعلاه يتعلّق بالغناء، وأمّا إستعمال الآلات الموسيقية وحرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

فلسفة تحريم الغناء:

إنّ التدقيق في مفهوم الغناء ـ مع الشروط التي قلناها في شرح هذا المفهوم ـ تجعل الغاية من تحريم الغناء واضحة جدّاً.

فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلاً: الترغيب والدعوة إلى فساد الأخلاق.

لقد بيّنت التجربة ـ والتجربة خير شاهد ـ أنّ كثيراً من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسيقى وألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى، واتّجهوا نحو الشهوات والفساد.

إنّ مجلس الغناء ـ عادةً ـ يُعدّ مركزاً لأنواع المفاسد، والدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

ونقرأ في بعض التقارير التي وردت في الصحف الأجنبية أنّه كان في مجلس جماعة من الفتيان والفتيات فعُزفت فيه موسيقى خاصّة وعلى نمط خاص من الغناء، فهيّجت الفتيان والفتيات إلى الحدّ الذي هجم فيه بعضهم على البعض الآخر، وعملوا من الفضائح ما يخجل القلم عن ذكره.

وينقل في تفسير (روح المعاني) حديثاً عن أحد زعماء بني أُميّة أنّه قال لهم: إيّاكم والغناء فإنّه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنّه ينوب عن

الخمر، ويفعل ما يفعل السكر[١]. وهذا يبيّن أنّه حتّى أُولئك كانوا مطّلعين على مفاسده أيضاً.

وعندما نرى في الرّوايات الإسلامية: أنّ الغناء ينبت النفاق، فإنّه إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ روح النفاق هي روح التلوّث بالفساد والإبتعاد عن التقوى.

وإذا جاء في الرّوايات أنّ الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه غناء، فبسبب التلوّث بالفساد، لأنّ الملائكة طاهرة تطلب الطهارة، وتتأذّى من هذه الأجواء الملوّثة.

ثانياً: الغفلة عن ذكر الله:

إنّ التعبير باللهو الذي فسّر بالغناء في بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أنّ الغناء يجعل الإنسان عبداً ثملاً من الشهوات حتّى يغفل عن ذكر الله.

في حديث عن علي عليه السلام: «كلّ ما ألهى عن ذكر الله (وأوقع الإنسان في وحل الشهوات) فهو من الميسر»[٢] ـ أي في حكم القمار ـ.

ثالثاً: الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء والموسيقى ـ في الحقيقة ـ أحد العوامل المهمّة في تخدير الأعصاب، وبتعبير آخر: إنّ الموادّ المخدّرة ترد البدن عن طريق الفمّ والشرب أحياناً كالخمر.

وأحياناً عن طريق الشمّ وحاسّة الشمّ كالهيروئين.

وأحياناً عن طريق التزريق كالمورفين.

وأحياناً عن طريق حاسّة السمع كالغناء.

ولهذا فإنّ الغناء والموسيقى المطربة قد تجعل الأفراد منتشين أحياناً إلى حدّ يشبهون فيه السكارى، وقد لا يصل إلى هذه المرحلة أحياناً، ولكنّه يوجد تخديراً

---

١ ـ تفسير روح المعاني، الجزء ٢١، صفحة ٦٠.

٢ ـ وسائل الشيعة، الجزء ١٢، صفحة ٢٣٥.

خفيفاً، ولهذا فإنّ كثيراً من مفاسد المخدّرات موجودة في الغناء، سواء كان تخديره خفيفاً أم قويّاً.

«إنّ الإنتباه بدقّة إلى سيرة مشاهير الموسيقيين يبيّن أنّهم قد واجهوا تدريجيّاً مصاعب وصدمات نفسية خلال مراحل حياتهم حتّى فقدوا أعصابهم شيئاً فشيئاً، وابتُلي عدد منهم بأمراض نفسية، وجماعة فقدوا مشاعرهم وساروا إلى دار المجانين، وبعضهم أُصيبوا بالشلل والعجز، وبعضهم أُصيب بالسكتة، حيث إرتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسيقى»[١].

وقد جاء في بعض الكتب التي كتبت في مجال لآثار المضرّة للموسيقى على أعصاب الإنسان، حالات جمع من الموسيقيين والمغنّين المعروفين الذين أُصيبوا بالسكتة وموت الفجأة أثناء أداء برامجهم، وزهقت أرواحهم في ذلك المجلس[٢].

وخلاصة القول فإنّ الآثار المضرّة للغناء والموسيقى على الأعصاب تصل إلى حدّ إيجاد الجنون، وتؤثّر على القلب وتؤدّي إلى إرتفاع ضغط الدم وغير ذلك من الآثار المخرّبة.

ويستفاد من الإحصاءات المعدّة للوفيّات في عصرنا الحالي بأنّ معدّل موت الفجأة قد إزداد بالمقارنة مع السابق، وقد ذكروا أسباباً مختلفة كان من جملتها الغناء والموسيقى.

رابعاً: الغناء أحد وسائل الإستعمار:

إنّ مستعمري العالم يخافون دائماً من وعي الشعوب، وخاصّة الشباب، ولذلك فإنّ جانباً من برامجهم الواسعة لإستمرار وإدامة الإستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة والجهل والضلال، وتوسعة وسائل اللهو المفسدة.

---

١ ـ تأثير الموسيقى على النفس والأعصاب، صفحة ٢٦.

٢ ـ يراجع المصدر السابق صفحة ٩٢ وما بعدها.

إنّ المخدّرات لا تتّصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هي أحد الوسائل السياسية المهمّة، فإنّ السياسات الإستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء ونوادي القمار ووسائل اللهو الفاسدة الأُخرى، ومن جملتها توسعة ونشر الغناء والموسيقى، وهي من أهمّ الوسائل التي يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، ولهذا فإنّ الموسيقى تشكّل القسم الأكبر من وقت إذاعات العالم ووسائل الإعلام الأساسية.(١)

١ ـ تفسير الأمثل: ١٣ /٢١ ـ ٢٦.

١٣١

ماهي فلسفة تحريم الزنا؟

☑ يمكن الإشارة إلىٰ خمسة عوامل في فلسفة تحريم الزنا، وهي:

١ ـ شياع حالة الفوضىٰ في النظام العائلي، وانقطاع العلاقة بين الأبناء والآباء، هذه الرابطة التي تختص بكونها سبباً للتعارف الإجتماعي، بل إنّها تكون سبباً لصيانة الأبناء، ووضع أُسس المحبّة الدائمة في مراحل العمر المختلفة، والتي هي ضمانة الحفاظ علىٰ الأبناء.

إنَّ العلاقات الإجتماعية القائمة فىٰ أساس العلاقات العائلية ستتعرض للانهيار والتصدّع إذا شاع وجود الابناء غير الشرعيين «أبناء الزنا»، وللمرء أن يتصّور مصير الأبناء فيما إذا كانوا ثمرّة للزنا، ومقدار العناء الذي يتحملونه في حياتهم مِن لحظة الولادة وحتىٰ الكبر.

وعلاوة علىٰ ذلك، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأُسري الذي يعتبر عاملاً في الحدّ الجريمة من في المجتمع الإسلامي، وحينئذٍ يتحول المجتمع الإنساني بالزنا إلىٰ مجتمع حيواني تغزوه الجريمة والقساوة من كل جانب.

٢ ـ إنَّ إشاعة الزنا في جماعةٍ ما، ستقود إلىٰ سلسلة واسعة مِن الإنحرافات

أساسها التصرفات الفردية والإجتماعية المنحرفة لذوي الشهوات الجامحة. وما ذكر في هذا الصدد من القصص عن الجرائم والإنحرافات المنبعثة عن مراكز الفحشاء والزنا في المجتمعات يوضح هذه الحقيقة، وهي أنّ الانحرافات الجنسية تقترن عادة بأبشع الوان الجرائم والجنايات.

٣ ـ لقد أثبت العلم ودلّت التجارب علىٰ أنّ إشاعة الزنا سبب لكثير مِن الأمراض والمآسي الصحية وكل المعطيات تشير إلىٰ فشل مُكافحة هذه الأمراض مِن دون مُكافحة الزنا أصلاً. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز في المجتمعات المعاصرة، ونتائجها الصحية والنفسية المدمّرة).

٤ ـ إنّ شياع الزنا غالباً ما يؤدي إلىٰ محاولة إسقاط الجنين وقطع النسل، لأنّ مِثل هؤلاء النساء «الزانيات» لا يرضين بتربية الأطفال، وعادة ما يكون الطفل عائقاً كبيراً أمام الإنطلاق في ممارسة هذه الأعمال المنحرفة، لذلك فهن يُحاولن إسقاط الجنين وقطع النسل.

أمّا النظرية التي تقول، بأنّ الدولة يمكنها ـ من خلال مؤسسات خاصّة ـ جمع الأولاد غير الشرعيين وتربيتهم والعناية بهم، فإنّ التجارب أثبتت فشل هذه المؤسسات في تأدية أهدافها، إذ هناك صعوبات التربية، وهناك النظرة الإجتماعية لهؤلاء، ثمّ هناك ضغوطات العزلة والوحدة وفقدان محبّة الوالدين وعطفهما، كل هذه العوامل تؤدي إلىٰ تحويل هذه الطبقة مِن الأولاد الىٰ قساة وجناة وفاقدي الشخصية.

٥ ـ يجب أن لا ننسىٰ أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية وحسب، بل المشاركة في تأسيس الحياة علىٰ أساس تحقيق الإستقرار الفكري والأنس الروحي للزوجين. وأمّا تربية الأبناء والتعامل مع قضايا الحياة، فهي آثار طبيعية للزواج، وكل هذه الأُمور لا يمكن لها أن تثمر مِن دون أن تختص المرأة بالرجل وقطع دابر الزنا وأشكال المشاعية الجنسية.

في حديث عن الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام يقول: سمعت رسـول اللّـهصلى الله عليه وآله وسلم يقول: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأمّا اللاتي في الدنيا، فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء. وأمّا اللّواتي في الآخرة، فغضب الرب، وسوء الحساب، والدخول في النّار، أو الخلود في النّار»[1].[2]

١ ـ تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٤.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٨/٤٦٥ ـ ٤٦٧.

١٣٢

ماهي فلسفة تحريم الميول الجنسية لأمثالها؟

☑ بالرغم من أنّ العالم الغربي مليء بالإنحرافات الجنسية، وأنّ هذه الأعمال السئية قد باتت متعارفة بحيث سمع أنّ بعض الدول كبريطانيا وطبقاً لقانون صدر بكل وقاحة من المجلس النيابي «البرلمان» فيها يجوز هذا الموضوع «اللـواط أو السحاق» ولكن شيوع هذه المنكرات لا يخفف من قبحها ومن مفاسدها الأخلاقية والإجتماعية والنفسية.

بعض أتباع المذاهب المادّيه الذين تلوّثوا بمثل هذه المنكرات يقولون: نحن لا نجد محذوراً طبيّاً في هذا الامر.

ولكنّهم لم يلتفتوا لى أنّ كل انحراف جنسي له أثره السلبي في روحية الإنسان وبنائه النفسي يفقده توازنه.

توضيح ذلك، أنّ الإنسان الطبيعي والسليم يميل إلى المخالف من جنسه، أي أنّ الرجل يميل إلى المرأة، والمرأة تميل إلى الرجـل، وهـذا المـيل ن أشـدّ الغـرائـز المتجذرة فيه، والضامن لبقاء نسله، فأيّ عمل يؤدّي إلى تحوير هذا الميل الطبيعي عن مساره فسيوجد نوعاً من المرض والإنحراف النفسي في الإنسان.

فالرجل الذي يميل إلى نظيره من جنسه، ليس رجلاً كاملاً، وقد عُدّ هذا الإنحراف في كتب الأُمور الجنسية «هموسكواليسيم» أي الميل الجنسي للمماثل من أهم الإنحرافات.

والإستمرار على هذا العمل وإدامته يميت في الفرد الميل الجنسي إلى المخالف. والشخص الذي يسلّم نفسه لممارسة هذا العمل معه يشعر شيئاً فشيئاً «بإحساسات المرأة» ويورث هذا العمل الطرفين «الفاعل والمفعول» ضعفاً مفرطاً في الجنس حتى أنّه لا يستطيع بعد مدّة على المعاشرة الطبيعية مع جنسه المخالف.

ومع ملاحظة أنّ الإحساسات الجنسيّه [بالنسبة للرجل والمرأة] لها تأثيرها في أعضاء بدن كل منهما، كما أنّ لها تأثيرها على روحية كلٍّ منهما وأخلاقه. تتّضح أنّ فقدان الإحساسات الطبيعية إلى أي درجة سيؤثر على روح الإنسان وجسمه حتى أنه من الممكن أن يبتلى الأفراد هؤلاء بالضعف الجنسي الذي يؤدّي إلى عدم القدرة على الإنجاب والتوليد.

وهؤلاء الأشخاص ـ غالباً ـ ليسوا أصحاء من الناحية النفسيّة، ويحسون في داخلهم أنّهم غرباء عن أنفسهم وغرباء عن مجتمعهم ... ويفقدون بالتدريج القدرة على الإرادة التي هي أساس لكم نجاح وشرط من شروطه، ويتكرس في روحهم نوع من الإضطراب والقلق.

وإذا لم يصمموا على إصلاح أنفسهم فوراً، ولم يستعينوا عند الضرورة والحاجة بالطبيب النفسي أو الطبيب الجسمي فسيغدو هذا العمل عندهم عادة يصعب تركها، فمن وعلى كلّ حال، فإنّ أي وقت لترك هذا العمل القبيح لا يعدّ خارجاً عن أوانه، بل لابدّ من التصميم الجاد.

ولا ريب أنّ الحيرة والإضطراب النفسي قد يجرّ هؤلاء إلى استعمال المواد المخدرة والمشروبات الكحولية، كما يجرّهم إلى انحرافات أخلاقية أُخرىٰ، وهذا بنفسه شقاء عظيم.

الطريف أنّنا نقرأ في الرّوايات الإسلامية عبارة موجزة وذات معنى كبير تشير إلى هذه المفاسد، ومن هذه الرّوايات ما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رجلاً سأله: لم حرّم الله اللواط؟ فقال سلام الله عليه: «من أجل أنّه لو كان إيتان الغلام حلالاً لإستغنى الرجال عن النساء وكان فيه قطع النسل وتعطيل الفروج وكان في اجازة ذلك فَساد كبير»[1].

وما يجدر ذكره أنّ أحد العقوبات الشرعية لهذا العمل أنّ الإسلام حرم الزواج من أخت المفعول وأُمّه وبنته على الفاعل، أي إذا تحقق اللواط قبل الزواج فعندئذٍ يحرم الزواج منهنّ حرمة مؤبدة.[2]

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٢.

٢ ـ تفسير الأمثل: ٧/٢٨ ـ ٣٠.

١٣٣

ماهي حكمة تحريم المشروبات الكحولية؟

☑ **ألف: أثر الكحول في العمر** ذكر أحد علماء الغرب المشهورين أنه لو كان عدد الوفيات بين الشباب المدمنين البالغة أعمارهم بين ٢١ إلى ٢٣ سنة يصل إلى ٥١ شاباً، فإنّ عدد الوفيات من غير المدمنين في تلك الأعمار لا يبلغ ١٠ أشخاص.

وقال عالم مشهور آخر: الشباب في سنّ العشرين الذين يتوقّع أن تطول أعمارهم إلى خمسين عاماً، لا يعمّرون بسبب معاقرة الخمرة أكثر من خمسة وثلاثين عاماً.

التجارب التي أجرتها شركات التأمين على الحياة أثبتت أنّ أعمار المدمنين على الكحول أقلّ من أعمار غيرهم بنسبة ٢٥ ـ ٣٠ بالمائة.

وتذكر إحصائيات أُخرى أنّ معدّل أعمار المدمنين على الكحول يبلغ حوالي ٣٥ ـ ٥٠ سنة، بينما معدّل العمر الإعتيادي مع رعاية القواعد الصحية يبلغ ستين عاماً فصاعداً.

ب: أثر الكحول على النسل

٣٥ بالمائة من عوارض الإدمان الحادّة تنتقل إلى الوليد إذا كان أبوه ـ حين

انعقاد النطفة ـ سكراناً. وإن كان الوالدان سكرانين فترتفع نسبة هذه العوارض إلى مائة في المائة. وهذه إحصائيات تبيّن آثار الإدمان على الجنين:

الأطفال الذين ولدوا قبل موعد ولادتهم الطبيعي: من أبوين مدمنين ٤٥ بالمائة. ومن أُمّ مدمنة ٣١ بالمائة. ومن أب مدمن ١٧ بالمائة.

الأطفال الذين ولدوا وهم لا يحملون مقوّمات استمرار الحياة: من أب مدمن ٦ بالمائة، ومن أمّ مدمنة ٤٥ بالمائة.

الأطفال الذين لا يتمتّعون بطول طبيعي: من والدين مدمنين ٧٥ بالمائة، ومن أمّ مدمنة ٤٥ بالمائة.

وأخيراً الأطفال الذين يفتقدون القوّة العقلية والروحية الكافية: من أُمّهات مدمنات ٧٥ بالمائة، ومن آباء مدنين ٧٥ بالمائة أيضاً.

ج: أثر الكحول في الأخلاق

العاطفة العائلية في الشخص المدمن تضعف، ويقلّ انشداده بزوجته وأبنائه، حتّى يحدث أن يقدم المدمن على قتل أبنائه بيده.

د: أضرار الكحول الإجتماعية

حسب الإحصائيّة التي نشرها معهد الطب القانوني في مدينة (نيون) عام ١٩٦١، كانت الجرائم الإجتماعية للمدمنين على النحو التالي:

القتلة: ٥٠ بالمائة، المعتدون بالضرب والجرح بين المدمنين: ٧٧,٨ بالمائة، السرقات بين المدمنين: ٨٨,٥ بالمائة، الجرائم الجنسية المرتبطة بالمدمنين: ٨٨,٨ بالمائة. هذه الإحصائيات تشير إلى أنّ الأكثرية الساحقة من الجرائم ترتكب في حالة السكر.

هـ: الأضرار الإقتصادية للمشروبات الكحوليّة

أحد علماء النفس المشهورين يقول: من المؤسف أنّ الحكومات تحسب ما تدر عليها المشروبات الكحولية من ضرائب، ولا تحسب الميزانية الضخمة التي تنفق

لترميم مفاسد هذه المشروبات. فلو حسبت الحكومات الأضرار الناتجة من المشروبات الكحولية، مثل زيادة الأمراض الروحية، وإهدار الوقت والإصطدامات الناتجة عن السكر، وفساد الجيل، وانتشار روح التقاعس والتحلّل، والتخلّف الثقافي، والمشاكل التي تواجه رجال الشرطة ودور الحضانة المخصّصة لرعاية أبناء المخمورين، وما تحتاجه جرائم المخمورين من مستشفيات وأجهزة قضائيّة وسجون، وغيرها من الخسائر والأضرار الناتجة عن تعاطي الخمور، وقارنت هذه الخسائر بما تحصل عليه من ضرائب على هذه المشروبات لوجدت أنّ الأرباح تكاد تكون تافهة أمام الخسائر، هذا إضافة إلى أنّ الخسائر المؤسفة الناتجة عن المشروبات الكحولية لا يمكن حسابها بالدولار، لأنّ موت الأعزّاء وتشتّت العوائل وتبدّد الآمال وفقدان الأدمغة المفكّرة لا يمكن حسابه بالمال.

أضرار المشروبات الكحولية فظيعة للغاية، حتّى أنّ أحد العلماء قال: لو أنّ الحكومة ضمنت لي غلق حانات الخمور لضمنت لها غلق نصف المستشفيات ودور المجانين.

ممّا تقدّم يتّضح بجلاء معنى الآية الكريمة بشأن الخمر، فلو كان في الخمرة فائدة تجارية، ولو كان السكران يحسب لحظات غفلته عن عمومه أثناء السكر فائدة له، فإنّ الأضرار التي تترتب عليها أكثر بكثير وأوسع دائرة وأبعد مدىً من فوائدها، حتّى لا يمكن المقارنة بين الاثنين.(١)

لتوكيد الأمر نضيف هنا أُموراً أُخرىٰ هي مجموعة من الإحصاءات المختلفة كل واحدة منها تعتبر شهادة وافية تدل على عظم تلك الأضرار وعمق تأثيرها.

١ ـ في إحصائية صدرت في بريطانيا بشأن الجنون الكحولي ومقارنته بالجنون العادي، جاء أنّه في مقابل (٢٢٤٩) مجنوناً بسبب الإدمان على الخمر هناك (٥٣)

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١١٧/٢ ـ ١٢٠.

مجنوناً فقط لأسباب مختلفة أُخرىٰ[١].

٢ ـ وفي إحصاء آخر من أمريكا أنّ ٨٥٪ من المصابين بأمراض نفسية هم من المدمنين على الخمر[٢].

٣ ـ يقول عالم إنجليزي اسمه (بـنتام): أنّ المشروبات الكحولية تحول أهالي الشمال إلى أناس حمقىٰ وبله، وأهالي الجنوب إلى مجانين، ثمّ يضيف: إنّ الديـن الإسلامي يحرم جميع أنواع المسكرات، وهذا واحد من مميزات الإسلام[٣].

٤ ـ لو أجري إحصاء عن السكارىٰ الذين إنتحروا، أو ارتكبوا الجرائم وحطموا العوائل، لكان لدينا رقم رهيب[٤].

٥ ـ في فرنسا يموت كلّ يوم ٤٤٠ شخصاً ضحية للخمور[٥].

٦ ـ تقول إحصائية أُخرىٰ من أمريكا: أنّ عدد المرضى النفسانيين خلال سنة واحدة بلغ ضعف قتلاها في الحرب العالمية الثّانية، ويرى العـلماء الأمـريكان أنّ السببين الرئيسيين لهذا هما المشروبات الكحولية والتدخين[٦].

٧ ـ جاء في إحصائية وضعها عالم يدعىٰ (هوگر) نشرها في مـجلة (العـلوم) بمناسبة عيد تأسيسها العشرين، قال فيها: أنّ ٦٠٪ من القـتل المـتعمد، ٧٥٪ مـن الضرب والجرح و ٣٠٪ من الجرائم الأخلاقية (بما فيها الزنا بالمحارم!) و ٢٠٪ من جرائم السرقة، سببها المشروبات الكحولية، وعن هذا العـالم نـفسه أنّ ٤٠٪ مـن

---

١ ـ كتاب «ندوة الكحول»، ص ٦٥.

٢ ـ كتاب «ندوة الكحول»، ٦٥.

٣ ـ تفسير الطنطاوي، ج؟، ١٦٥.

٤ ـ دائرة المعارف فريد و جدي، ج ٣، ص ٧٩٠.

٥ ـ الآفات الإجتماعية في قرننا، ص ٢٠٥.

٦ ـ مجموعة منشورات الجيل الجديد.

الأطفال المجرمين قد ورثوا آثار الكحول[١].

٨ ـ إنّ الخسائر التي تصيب الإقتصاد البريطاني من جراء تغيب العمال عن العمل بسبب إدمانهم على الخمر تبلغ سنوياً نحو ٥٠ مليون دولار، وهو مبلغ يكفي لإنشاء الآلاف من رياض الأطفال والمدارس الإبتدائية والثانوية.

٩ ـ الإحصاءات التي نشرت عن خسائر الإدمان على الكحول في فرنسا تقول: أنّ الخزينة الفرنسية تتحمل سنوياً مبلغ (١٣٧) مليارد فرنك، إضافة إلى الأضرار الأُخرىٰ كما يلي:

٦٠ مليار فرنك للصرف المحاكم والسجون.

٤٠ مليار فرنك للصرف على الإعانات العامّة والمؤسسات الخيرية.

١٠ مليارات من الفرنكات للصرف على المستشفيات الخاصّة لمعالجة المدمنين على المسكرات.

٧٠ مليار فرنك للصرف على الأمن الإجتماعي.

وهكذا يتّضح أنّ عدد المرضى النفسانيين ومصحات الأمراض العقلية وجرائم القتل والمخاصمات الدموية والسرقة والإغتصاب وحوادث المرور، تتناسب تناسباً طردياً مع عدد حانات الخمور.

١٠ ـ أثبتت الدوائر الإحصائية في أمريكا أنّ القمار كان السبب المباشر في ٣٠٪ من الجرائم، وفي إحصائية أُخرىٰ عن جرائم القمار نرىٰ وللأسف الشديد أن ٩٠٪ من جرائم السرقة و ٥٠٪ من الجرائم الجنسية و ١٠٪ من فساد الأخلاق و ٣٠٪ من الطلاق و ٤٠٪ من الضرب والجرح و ٥٪ من حوداث الإنتحار إنما هي بسبب القمار[٢].[٣]

---

١ ـ ندوة الكحول، ص ٦٦.

٢ ـ المصدر السابق.

١٣٤

ماهي حكمة تحريم لحم الخنزير؟

☑ الخنزير ـ حتى عند الأوروبيين المولعين بأكل لحمه ـ رمز التحلل الجنسي. وهو حيوان قذر للغاية، وتأثير تناول لحمه علىٰ التحلل الجنسي لدى الإنسان مشهود.

حرمة تناول لحمه صرحت بها شريعة موسى عليه السلام أيضاً. وفي الأناجيل شُبّه المذنبون بالخنزير، كما أن هذا الحيوان مظهر الشيطان في القصص.

ومن العجيب أن أُناساً يرون بأعينهم قذارة هذا الحيوان حتى إنه يأكل عذرته، ويعلمون احتواء لحمه علىٰ نوعين خطرين من الديدان، ومع ذلك يصرّون علىٰ أكله.

دودة «التريشين» التي تعيش في لحم هذا الحيوان تتكاثر بسرعة مدهشة، وتبيض في الشهر الواحد خمسة عشر ألف مرة، وتسبب للإنسان أمراضاً متنوعة كفقر الدم، والغثيان، وحمّى خاصة، والإسهال، وآلام المفاصل، وتوتر الأعصاب،

٣ ـ تفسير الأمثل: ٤/١٤١ ـ ١٤٣.

والحكّة، وتجمع الشحوم داخل البدن، والإحساس بالتعب، وصعوبة مضغ الطعام وبلعه، والتنفس و .... .

وقد يوجد في كيلو واحد من لحم الخنزير (٤٠٠) مليون دودة من هذه الديدان!! ولذلك أقدمت بعض البلدان الأوروبية في السنوات الماضية علىٰ منع تناول لحم هذا الحيوان.

وهكذا تتجلى عظمة الأحكام الإلهية بمرور الأيّام أكثر فأكثر.

يقول البعض أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضي علىٰ ديدان هذا الحيوان، ولكن علىٰ فرض اننا استطعنا بواسطة العقاقير، أو بالاستفادة من الحرارة الشديدة في طبخه، إلّا أن أضراره الأُخرىٰ ستبقىٰ. وقد ذكرنا أن للأطعمة تأثيراً علىٰ أخلاق الإنسان عن طريق تأثيرها علىٰ الغدد والهورمونات وذلك الأصل علمي مسلّم، وهو أن لحم كل حيوان يحوي صفات ذلك الحيوان أيضاً. من هنا تبقى للحلم الخنزير خطورته في التأثير علىٰ التحلل الجنسي للآكلين، وهي صفة بارزة في هذا الحيوان.

ولعل تناول لحم هذا الحيوان أحد عوامل التحلّل الجنسي في أوربا.[١]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١/ ٤٩٠ ـ ٤٩٣.

١٣٥

ماهي فلسفة تحريم الجماع في ايّام الحيض؟

☑ الجماع في أيّام الحيض، إضافة إلى ما فيه من اشمئزاز، ينطوي على أذى وضرر ثبت لدى الطبّ الحديث، ومن ذلك احتمال تسبيب عقم الرجل والمرأة، وإيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس والتهابات الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، ودخول مواد الحيض المليئة بمكروبات الجسم في عضو الرجل، وغير ذلك من الأضرار المذكورة في كتب الطب، لذلك ينصح الأطباء باجتناب الجماع في هذه الحالة.

خروج دم الحيض يعود إلى احتقان الرحم وتسلّخ جداره، ومع هذا الإحتقان يحتقن المبيض أيضاً، ودم الحيض في البداية يكون متقطّعاً باهت اللون ثمّ يزداد ويحمرّ ويعود في الأخير إلى وضعه المتقطّع الباهت(١).

الدم الخارج في أيّام العادة الشهرية هو الدم الذي يتجمّع شهرياً في العروق الداخلية للرحم من أجل تقديم الغذاء للجنين المحتمل. ذلك لأنّ مبيض المرأة يدفع

---

١ ـ مقتبس من إعجاز القرآن: ص ٥٥ ـ ٥٦.

كلّ شهر ببويضة إلى الرحم، وفي نفس الوقت تمتلىء عروق الرحم بالدم استعداداً لتغذية الجنين فإن انعقد الجنين يستهلك الدم لتغذيته، وإلّا يخرج بشكل دم حيض. من هنا نفهم جانباً آخر لحظر الجماع في هذه الفترة التـي يكـون الرحـم خـلالها غيرمستعد استعداداً طبيعياً لقبول نطفة الرجل، حيث يواجه أذى من جراء ذلك.[1]

١ ـ تفسير الأمثل، ٢/١٣١.

١٣٦

ماهي حكمة تحريم الزواج بالمحارم؟

نقرأ في سورة النساء، الآية ٢٣: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَاقَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

☑ في هذه الآية أشار سبحانه إلى النساء اللاتي يحرم نكاحهنّ والزواج بهنّ، ويمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب وهي:

١ ـ الولادة التي يعبّر عنها بالإرتباط النّسبي.

٢ ـ الزّواج الذي يعبّر عنه بالإرتباط السّببي.

٣ ـ الرّضاع الذي يعبّر عنه بالإرتباط الرّضاعي.

وقد أشار في البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النّسب وهنّ سبع طوائف إذ يقول ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾.

ويجب التّنبيه إلى أنّ المراد من «الأُمّ» ليس هي التي يتولد منها الإنسان دونما

واسطة فقط، بل يشمل الجدّة من ناحية الأب ومن ناحية الأُمّ وإن علون، كما أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسطة، بل تشمل بنت البنت وبنت الابن وأولادهما وإن نزلن، وهكذا الحال في الطوائف الخمس الأُخرىٰ.

ومن الواضح جدّاً أنّ الإنسان يبغض النكاح والزواج بهذه الطوائف من النسوة، ولهذا تحرمه جميع الشعوب والجماعات (إلّا من شذ وهو قليل)، وحتى المجوس الذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح في مصادرهم الأصلية ينكرونه ويشجبونه اليوم، وإن حاول البعض أن يردّ هذه المبغوضية إلى العادة والتقليد القديم، ولكن عمومية هذا القانون وشيوعه لدى جميع أفراد البشر وطوائفه وفي جميع القرون والأعصار تحكي ـ عادة ـ عن فطرية هذا القانون، لأن التقليد والعادة لا يمكن أن يكون أمراً عامّاً ودائمياً.

هذا مضافاً إلى أنّ هناك حقيقة ثابتة اليوم، وهي أنّ الزواج بين الأشخاص ذوي الفئة المشابهة من الدم ينطوي على أخطار كثيرة، ويؤدي إلى انبعاث أمراض خفية وموروثة، وتشددها و تجددها (لأنّ هذا النوع من الزواج يولد هذه الأمراض، بل يساعدها على التشدد والتجدد والإنتقال) إلى درجة أنّ البعض لا يستحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين (فضلاً عن المحارم المذكورة هنا) مثل الزواج الواقع بين أبناء وبنات العمومة[1] ويرون أنّه يؤدي هو الآخر أيضاً إلى أخطار تصاعد الأمراض الوارثية.

إلّا أنّ هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أية مشكلة لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب) فإنّه لا شك يسبب مضاعفات خطيرة لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهرة وحدة الدم وتشابهه.

---

١ ـ طبعاً إنّ الإسلام لم يحرّم التزاوج بين أبناء وبنات العمومة، لأنّ هذا النوع من التزاوج ليس مثل الزواج بالمحارم في الخطورة، واحتمال ظهور مثل هذه الحوادث الخطيرة في هذا النوع من الزواج أقل، وقد لاحظنا بأنفسنا موارد ونماذج عديدة من نتائج هذا النوع من الزواج حيث يكون الأولاد ـ في هذه الحالة ـ أكثر سلامة وأفضل فكراً وموهبة من غيرهم.

هذا مضافاً إلى ضعف الرغبة الجنسية والتجاذب الجنسي لدى المحارم عـادة. لأنّ المحارم ـ في الأغلب ـ يكبرون معاً، ويشبّون معاً، ولهذا لا ينطوي الزواج فيما بينهم على عنصر المفاجأة وصفة العلاقة الجديدة، لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم، فلا يكون أحدهم جديداً على الآخر، بل العلاقة لديهم علاقة عادية ورتيبة، ولا يمكن أن يكون بعض الموارد النادرة مقياساً لإنتزاع القوانين الكلية العامّة أو سبباً لنقض مضاداتها، ونحن نعلم أن التجاذب الجنسي شرط أساسي لدوام العلاقة الزوجية واستمرار الرابطة العائلية، ولهذا إذا تمّ التزواج بين المـحارم فـإن الرابـطة الزوجية الناشئة من هذا الزواج ستكون رابطة ضعيفة مهزوزة وقصيرة العمر.

﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾

يشير الله سبحانه في هذه الآية إلى المحارم الرّضاعية والقرآن وإن اقتصر فـي هذا المقام على الإشارة إلى طائفتين من المحارم الرضاعية، وهي الأم الرضـاعية والأُخت الرضاعية فقط، إلّا أنّ المحارم الرضاعية ـ كما يستفاد من روايات عديدة ـ لا تنحصر في من ذكر في هذه الآية، بل تحرم بالرّضاعة كل من يحرم من النساء بسبب «النسب» كما يصرّح بذلك الحديث المشهور المروي عن رسـول الله ﷺ «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب»[1].

على أن بيان مقدار الرّضاع الموجب للحرمة والشروط والكيفية المعتبرة فـيه، وغير ذلك من التفاصيل والخصوصيات متروك للكتب الفقهية.

وفلسفة حرمة الزواج بالمحارم الرضاعية هـي، أن نشوء ونبات لحم المرتضع وعظمه من لبن إمرأه معينة تجعله بمثابة إبنها الحقيقي، فالمرأة التي تـرضع طـفلاً مقداراً معيناً من اللبن ينشأ وينبت معه ومنه للطفل لحم وعظم، فإنّ هذا النوع من الرضاع يجعل الطفل شبيهاً بأبنائها وأولادها لصيرورته جزء من بدنها كما هم جزء من بدنها، فإذا هم جميعاً (أي الأخوة الرضاعيون والأخوة النسبيون كأنّهم أُخـوة بالنسب.

---

١ ـ من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ١٥٥، وغيره.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يشير ـ في المرحلة الأخيرة ـ إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتي يحرم الزواج بهنّ ويذكرهنّ ضمن عدّة عناوين:

١ ـ ﴿وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني أن المرأة بمجرّد أن تتزوج برجل ويجري عقد النكاح بينهما تحرم أُمها وأُم أُمها وإن علون على ذلك الرجل.

٢ ـ ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ يعني أنّ مجرّد العقد على إمرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثّاني، بل يشترط أن يدخل بها أيضاً مضافاً على العقد عليها.

إنّ وجود هذا القيد في هذا المورد ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ يؤيد كون حكم أُمّ الزوجة الذي مرّ في الجملة السابقة ﴿وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ غير مشروط بهذا الشرط، وبعبارة أُخرىٰ إن هذا القيد هنا يؤيد ويؤكّد إطلاق الحكم هناك، فتكون النتيجة أن بمجرّد العقد على إمرأة تحرم أُمّ تلك المرأة على الرجل وإن لم يدخل بتلك المرأة، لخلو ذلك الحكم من القيد المشروط هنا في مورد الرّبيبة.

ثمّ أنّ قيد ﴿فِى حُجُورِكُم﴾ وإن كان ظاهره يفهم منه أنّ بنت الزوجة من زوج آخر إذا لم ترب في حجر الزوج الثاني لا تحرم عليه، ولكن هذا القيد بدلالة الروايات، وقطعية هذا الحكم ـ ليس قيداً احترازياً ـ بل هو في الحقيقة إشارة إلى نكتة التحريم ـ لأن أمثال هذه الفتيات اللاتي تقدم أُمّهاتها على زواج آخر، هنّ في الأغلب في سنين متدنية من العمر، ولذلك غالباً ما يتلقين نشأتهنّ وتربيتهنّ في حجر الزوج الجديد مثل بناته، فالآية تقول إن بنات نسائكم من غيركم كبناتكم أنفسكم، فهل يتزوج أحد بابنة نفسه؟ واختيار وصف الربائب التي هي جمع الرّبيبة (لتربية الزوج الثاني إيّاها فهي مربوبته) إنّما هو لأجل هذا.

ثمّ يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلاً: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي إذا لم تدخلوا بأُمّ الرّبيبة جاز لكم نكاح بناتهنّ.

٣ ـ ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ[1] أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ والمراد من حلائل الأبناء

---

١ ـ الحلائل جمع الحليلة، وهي من مادة حل، وهي بمعنى المحللة، أي المرأة التي تحل

زوجاتهم، وأمّا التعبير بـ «من أصلابكم» فهو في الحقيقة لأجل أن هذه الآية تبطل عادة من العادات الخاطئة في الجاهلية، حيث كان المتعارف في ذلك العهد أن يتبنىٰ الرجل شخصاً ثمّ يعطي للشخص المتبني كل أحكام الولد الحقيقي، ولهذا كانوا لا يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجة الولد الحقيقي تماماً، والتبني والأحكام المرتبة عليها لا أساس لها في نظر الإسلام.

٤ ـ ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ يعني أنّه يحرم الجمع بين الأُختين في العقد، وعلى هذا يجوز الزواج بالأُختين في وقتين مختلفين وبعد الإنفصال عن الأُخت السابقة.

وحيث أنّ الزواج بأُختين في وقت واحد كان عادة جارية في الجاهلية، وكان ثمّة من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهي المذكور بقوله: ﴿إِلَّا مَاقَدْ سَلَفَ﴾ يعني إنّ هذا الحكم كالأحكام الأُخرىٰ لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم الله على هذا الفعل وإن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأُختين، ويفارقوا الأُخرىٰ، بعد نزول هذا الحكم.

يبقى أن نعرف أنّ سرّ تحريم هذا النمط من الزواج (أي التزوج بأُختين في وقت واحد) في الإسلام لعلّه أن بين الأُختين بحكم ما بينهما من نسب ورابطة طبيعية ـ علاقة حبّ ومودّة، فإذا أصبحتا متنافستين في ظل الإنتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلك المودّة والمحبّة والعلاقة الودية بطبيعة الحال، وبهذه الصورة يحدث هناك تضاد عاطفي في وجود كل من الأُختين يضرّ بحياتهما، لأن كلّ واحدة منهما ستعاني حينئذٍ وبصورة دائمية من صراع حالتين نفسيتين متضادتين هما دافع الحب، وغريزة التنافس، وهو صراع نفسي مقيت ينطوي على مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها[1].

⇦للإنسان، أو من مادة حلول معنى المرأة التي تسكن مع الرجل في مكان واحد وتكون بينهما علاقة جنسية، لأن كل واحد منهما يحل مع الآخر في الفراش.

١ ـ تفسير الأمثل: ٣/١٧٠ ـ ١٧٥.

متفرقات

١٣٧

ماهي الحكمة من خلق الإنسان؟

☑ قلّ أن نجد من لا يسأل نفسه أو غيره عن الهدف من خلق الإنسان! فدائماً تولّد جماعة وتمضي جماعة أُخرى وتنطفيء إلى الأبد، فما المراد من هذا المجيء والذهاب؟!

والحقّ أنّنا ـ كأُناس لو لم نكن نعيش على وجه هذه الكرة الأرضية فماذا سيحدث؟ وهل يجب علينا أن نعرف لِمَ نأتي ولِمَ نمضي؟ ولو أردنا أن نعرف السرّ فهل نستطيع ذلك؟! وهكذا تترى الأسئلة الأُخر على فكر الإنسان وتحيط به ...

وعندما يطرح هذا السؤال من قبل الماديين فالظاهر أنّهم لا جواب لهم عليه، لأنّ المادّة أو الطبيعة ليس لها عقل ولا شعور حتّى يكون لها هدف لذلك، فقد أراحوا أنفسهم من هذا السؤال وهم يعتقدون بعبثيّة الخلق وأنّه لا هدف من ورائه! وكم هو مثير ومقلق أن يتّخذ الإنسان لجزئيات حياته سواءً أكانت للعمل أم الكسب أو الصحّة أو الرياضة أهدافاً منظّمة وأن يعتقد أنّ الحياة بمجموعها ضرب من العبث واللغو!؟

لذلك فلا مجال للعجب أنّ جماعة من الماديين حينما يفكّرون في هذه المسائل يتركون هذه الحياة التي لا هدف ورائها ويقدّمون على الإنتحار!

إلّا أنّ هذا السؤال حين يلقيه معتقد بالله، فإنّه لا يواجه طريقاً مسدوداً، لأنّه يعلم

أنّ خالق هذا العالم حكيم وقد خلق هذا العالم عن حكمة حتماً وإن جهلناها، وهذا من جانب، ومن جانب آخر حين يرى أعضاءه عضواً عضواً يجد لكلّ فلسفة وحكمة وهدفاً، لا الأعضاء المهمّة ظاهراً كالقلب واللسان والعروق والأعصاب بل حتّى الأظفار وخطوط اليد والبنان وتقوّس القدم أو هيأة اليد وفسلجتها كلّ له فلسفة يعرفها العلم الحديث المعاصر!

فإلى أيّ درجة من السذاجة أن يُرى لجميع هذه الأعضاء أهدافاً إلّا أنّ المجموع يكون بلا هدف!!

وأي قضاءٍ متهافت أن نجد لكلّ بناء في المدينة فلسفة خاصّة ـ إلّا أنّنا نقضي على المدينة بأنّها لا فلسفة فيها ولا هدف من ورائها!!

ترى هل من الممكن أن يبني مهندس ما بناءً عظيماً فيه الغرف والأبواب والنوافذ والأحواض والحدائق و «الديكورات» وكلّ من هذه الأُمور هو لأمر خاصّ ولهدف معيّن، إلّا أنّ مجموع البناء لا هدف من ورائه؟!

هذه الأُمور هي التي تمنح المؤمن بالله والمعتقد به الإطمئنان بأنّ خلقه له هدف عظيم، وعليه أن يسعى ويجدّ حتّى يكتشفه بقوّة العقل والعلم.

والعجيب أنّ أصحاب نظرية العبث (في الخلق) حين يردون أيّة زاوية من زوايا العلوم الطبيعية ـ يبحثون عن الهدف لتفسير الظواهر المختلفة ولا يهدأون حتّى يجدوا الهدف! حتّى أنّهم لا يرتضون أن تبقى غدّة صغيرة في بدن الإنسان دون عمل وغاية، ولربّما يقضون سنوات بالبحث عن الحكمة من وجود مثل هذه الغدّة .. إلّا أنّهم حين يبلغون أصل خلق الإنسان يقولون بصراحة: لا هدف من ورائه.

فما أعجب هذا التناقض!!

وعلى كلّ حال فالايمان بحكمة الله تعالى من جانب، وملاحظة فلسفة أجزاء (وجود) الإنسان من جانب آخر، كلّ ذلك يدعونا إلى الإيمان أنّ وراء خلق الإنسان هدفاً كبيراً.

والآن ينبغي علينا أن نبحث عن هذا الهدف وأن نحدّده ما بوسعنا ـ وأن نسير

في منهاجه اللاحب.

إنّ ملاحظة مقدّمة يمكن لها أن تسلّط الأضواء على هدفنا للكشف عن هذا المجهول المظلم.

نحن دائماً نقصد في أعمالنا إلى هدف ما، وعادةً يكون هذا الهدف إشباع حاجة ورفعها وإتمام النواقص. وحتّى الخدمة للآخرين أو إنقاذ مبتلى من بلائه .. أو قمنا بعمل إنساني وآثرنا سوانا على أنفسنا فذلك أيضاً نوع من الحاجات المقدّسة، وبرفعها نزداد معنوية وكمالاً!

ولمّا كنّا نقيس أحياناً صفات الله مع أنفسنا فقد يخطر مثل هذا التصوّر وهو ما هي الحاجة عند الله حتّى ترتفع بخلقنا؟ أو إذا كانت الآيات الآنفة تقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فنقول ما هي حاجته إلى العبادة؟!

مع أنّ هذه التصوّرات ناشئة من المقايسة بين صفات الخالق والمخلوق والواجب والممكن؟!

وحيث أنّ وجودنا محدود فإنّنا نسعى وراء إشباع حاجاتنا، وأعمالنا جميعها تقع في هذا المسير .. إلّا أنّ هذا غير وارد في وجود مطلق، فينبغي البحث عن هدف أفعاله في غير وجوده، فهو عين فيّاضة ومبدأ النعمة الذي يكتنف الموجودات في كنف حمايته ورعايته وإنمائه والسلوك بها إلى الكمال، وهذا هو الهدف الواقعي لعبوديتنا .. وهذه فلسفة عباداتنا وإبتهالاتنا، فهي جميعاً دروس تربوية لتكاملنا.

وأساساً فإنّ أصل الخلق هو خطوة تكاملية عظيمة، أي مجيء الشيء من العدم إلى الوجود، ومن ا   الى مرحلة العدد.

وبعد هذه الخطو   ئاملية العظيمة تبدأ مراحل تكاملية أُخرى .. فجميع المناهج الدينية والإلهيّة تسلك بالإنسان في هذا المسير![1]

١٣٨

لماذا لم يخلق الله الإنسان كاملاً منذ البداية؟

☑ إنّ أساس هذا الإشكال هو الغفلة عن هذه النقطة، وهي أنّ العنصر الأصلي للتكامل هو التكامل الإختياري، وبتعبير آخر فإنّ التكامل يعني أن يطوي الإنسان الطريق بنفسه وإرادته وتصميمه، فإذا أخذوا بيده وأوصلوه بالقوّة والجبر فليس هذا إفتخاراً ولا تكاملاً.

فمثلاً: لو أنفق الإنسان فلساً واحداً من ماله بإرادته وتصميمه، فقد طوى من طريق الكمال الأخلاقي بتلك النسبة، في حين أنّه لو أُجبر على إنفاق الملايين من ثروته، فإنّه لم يتقدّم خطوة واحدة في ذلك الطريق، ولذلك صرّح القرآن بهذه الحقيقة في الآيات المختلفة، وهي أنّ الله سبحانه لو شاء لأجبر الناس على أن يؤمنوا، إلّا أنّ هذا الإيمان لا نفع فيه لهؤلاء: ﴿ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً﴾.[١][٢]

---

١ ـ يونس، ٩٩.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٠/١٤١.

١٣٩

ماهو الهدف من تكامل الإنسان؟

ينقدح هنا سؤال وهو أنّ الهدف من خلقنا هو التكامل الإنساني، إلّا أنّه ما الهدف من هذا التكامل؟!

☑ والجواب يتّضح بهذه الجملة أيضاً وهو أنّ التكامل هو الهدف النهائي أو بتعبير آخر «غاية الغايات».

وتوضيح ذلك: لو سألنا طالب المدرسة علام تدرس أو لم تدرس؟! فيجيب حتّى أدخل الجامعة!

ولو سألناه ثانية ما تستفيد من الجامعة؟ فيقول مثلاً سأكون طبيباً أو مهندساً جديراً!

فتقول له ما تصنع بشهادة «الدكتوراه» أو الهندسة؟ فيقول: لأبرز نشاطاتي وفعاليّاتي الإيجابية المثبتة ولكي يكون ربح وفير!

فنقول له ما تصنع بالربح الوفير؟ فيقول: لتكون حياتي منعمة وأعيش مكرماً ومرفّهاً.

وأخيراً نوجّه إليه هذا السؤال .. لِمَ تريد الحياة المنعمة؟

وهنا نراه يجيب بلحن آخر فيقول: حَسَنٌ[١] لتكون حياتي منعمة وأعيش مكرماً ومرفّهاً علي: أي إنّه يكرّر جواب السؤال السابق!

وهذا دليل على أنّ ذاك هو الجواب النهائي، وكما يصطلح عليه بأنّه «غاية الغايات» لعمله، وليس وراءه جواب آخر! وإنّه هو الهدف النهائي .. كلّ هذا هو في المسائل الماديّة وهكذا الحال في الحياة المعنوية، فحين يسأل علام مجيىء الأنبياء ونزول الكتب من السماء، ولِمَ هذه التكاليف الشرعية والمناهج التربوية؟ فنجيب: للتكامل الإنساني والقرب من الله!.

وإذا سألوا: ما المراد من التكامل الإنساني والقرب من الله؟ نقول: هو القرب من الله، أيّ أنّ هذا هو الهدف النهائي، وبتعبير آخر أنّنا نريد كلّ شيء للتكامل والقرب من الله .. وأمّا القرب من الله فلنفسه (أي للقرب من الله).[٢]

---

١ ـ حسنٌ: خبر لمبتدأ محذوف تقديره كلامكم أو سؤالكم حسن.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٧/ ١٤٠ ـ ١٤١.

١٤٠

الاختبار الإلهي، لماذا؟

☑ في مجال الإختبار الالهي تطرح بحوث كثيرة، وأوّل ما يتبادر للذهن في هذا المجال هو سبب هذا الإختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله عنهم. فهل أن الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الإختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟!

والجواب أن مفهوم الإخبتار الالهي يختلف عن الإختبار البشري.

إختباراتنا البشرية ـ هي كما ذكرت آنفاً ـ تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الإلهي قصده «التربية».

في أكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الإختبار الإلهي، باعتباره سنّة كونية لا تنقض من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من القوّة إلى الفعل، وبالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أن الفولاذ يتخلص من شوائبه عند صهره في الفرن، كذلك الإنسان يخلص وينقىٰ في خضمّ الحوادث، ويصبح أكثر قدرة علىٰ مواجهة الصعاب والتحديات.

الإختبار الإلهي يشبه عمل زارع خبير، ينثر البذور الصالحة في الأرض

الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة وتبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدريج، وتقاوم الحوادث المختلفة كالرّياح العاتية والبرد الشديد والحر اللافح، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تصعيد معنويات القوات المسلحة، يؤخذ الجنود إلى مناورات وحرب إصطناعية، يعانون فيها من مشاكل العطش والجوع والحر والبرد والظروف الصعبة والحواجز المنيعة.

وهذا هو سرُّ الإختبارات الإلهية.

يقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١].

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في بيان سبب الإختبارات الإلهية: «... وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوابُ وَالْعِقَابُ»[٢].

أي أن الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلابدّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عباده ليتجلّىٰ ما يضمرونه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابليّاتهم من القوّة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم يكن الإختبار الإلهي لما تفجرت هذه القابليات، ولما أثمرت الكفاءات، وهذه هي فلسفة الإختبار الإلهي في منطق الإسلام.[٣]

---

١ ـ آل عمران، ١٥٤.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٩٣.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١/٤٤٥ ـ ٤٤٦.

١٤١

هل أنّ السعادة والشقاوة ذاتيان؟

نقرأ في سورة هود، الآية ١٠٥ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل السعادة والشقاوة ذاتيان؟

☑ ١ ـ أراد البعض أن يثبت من الآية المتقدمة كون السعادة والشقاء ذاتيين، في حين أنّ الآيات المتقدمة لا تدل على هذا الأمر فحسب، بل تثبت بوضوح كون السعادة والشقاء اكتسابيين، إذ تقول ﴿فأمّا الذين شقوا﴾ أو تقول ﴿وأمّا الذين سُعدوا﴾ فلو كان كل من الشقاء والسعادة ذاتيين لكان ينبغي أن يُقال «أمّا الأشقياء وأمّا السعداء» وما أشبه ذلك التعبير، ومن هنا يتّضح بطلان ما جاء في تفسير الفخر الرازي ممّا مؤداه: «إنّ هذه الآيات تحكم من الآن أنّ جماعة في القيامة سعداء وجماعة أشقياء، ومن حكم الله عليه مثل هذا الحكم ويعلم أنه في القيامة إمّا شقي أو سعيد، فمحال عليه أن يغير ذلك وإلّا للزم ـ في الآية ـ أن يكون ما أخبر الله به كذباً ويكون علمه جهلاً!! وهذا محال».... فكل ذلك لا أساس له .

وهذا هو الإشكال المعروف على «علم الله» في مسألة الجبر والإختيار والذي

أُجيب عليه قديماً بأنه:

إذا لم نرد تحميل أفكارنا وآراؤنا المسبقة على آيات القرآن الكريم، فإنّ مفاهيمها تبدو واضحة، إنّ هذه الآيات تقول: ﴿يوم يأتي﴾ يكون فيه جمع من الناس سعداء من خلال أعمالهم، وجمع آخر أشقياء بسبب أعمالهم، والله سبحانه يعلم من الذي اختار طريق السعادة باختياره، وبإرادته، ومن الذي خطا خطوات في مسير الشقاء بإرادته. وهذا المعنى يعطي نتيجة معاكسة تماماً لما ذكره الرازي حيث أنّ الناس اذا كانوا مجبورين على هذا الطريق فإنّ علم الله سيكون جهلاً (والعياذ بالله)، لأنّ الجميع اختاروا طريقهم وانتخبوه بإرادتهم ورغبتهم.

الشاهد في الكلام أنّ الآيات المتقدمة تتحدث عن قصص الأقوام السابقين، حيث عوقبت عقاباً جماعة عظيمة منهم ـ بسبب ظلمهم وانحرافهم عن جادة الحق والعدل، وبسبب التلوث بالمفاسد الأخلاقية الشديدة، والوقوف بوجه الأنبياء والقادة الإلٰهيين ـ أليماً في هذه الدنيا ... والقرآن يقص علينا هذه القصص من أجل إرشادنا وتربيتنا وبيان طريق الحق من الباطل، وفصل مسير السعادة عن مسير الشقاء.

وإذا كنّا ـ أساساً ـ كما يتصوّر الفخر الرازي ومن على شاكلته ـ محكومين بالسعادة والشقاء الذاتيين، ونؤخذ دون إرادتنا بالسيئات أو الصالحات، فإنّ «التعليم والتربية» سيكونان لغواً وبلا فائدة ... ومجيء الأنبياء ونزول الكتب السّماويّة والنصيحة والموعظة والتوبيخ والملامة والمؤاخذة والسؤال والمحاكمة والثواب ... كل ذلك يُعدّ غير ذي فائدة، أو يُعدّ ظلماً.

الاشخاص الذين يرون الناس مجبورين على عمل الخير أو الشرّ، سواءً كان هذا الجبر جبراً إلهياً، أو جبراً طبيعياً، أو جبراً اقتصادياً، أو جبراً اجتماعياً متطرفون في عقيدتهم هذه في كلامهم فحسب، أو في كتاباتهم، ولكنّهم حتى أنفسهم لا يعتقدون ـ عند العمل ـ بهذا الإعتقاد، ولهذا فلو وقع تجاوز على حقوقهم فإنّهم يرون المتجاوز مستحقاً للتوبيخ والملامة والمحاكمة والمجازاة ... وليسوا مستعدين

أبداً للإغضاء عنه بحجة أنه مجبور على هذا العمل وأنّ من الظلم عقابه ومجازاته. أو يقولوا إنه لم يستطع أن لا يرتكب هذا العمل لأنّ الله أراد ذلك، أو أنّ المحيط أجبره، أو الطبيعة ... وهذا بنفسه دليل آخر على أنّ أصل الإختيار فطري.

وعلى كل حال لا نجد للجبر مسلكاً في أعمالنا اليومية يرتبط بهذه العقيدة، بل أعمال الناس جميعاً تصدر عنهم بصورة حرّة ومختارة وهم مسؤولون عنها. وجميع الأقوام في الدنيا يقبلون حرية الإرادة، بدليل تشكيل المحاكم والإدارات القضائية لمحاكمة المتخلفين.

وجميع المؤسسات التربوية في العالم تقبل بهذا الأصل ضمناً، وهو أنّ الإنسان يعمل بإرادته ورغبته، ويمكن بإرشاده وتعليمه وتربيته أن يتجنب الأخطاء والإشتباهات والأفكار المنحرفة.

واقع الانسان بين السعادة والشقاوة

٢ ـ الطريف أنّ لفظ «شقوا» في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبني للمعلوم، ولفظ «سُعِدُوا» ورد بصيغة المبني للمجهول، ولعل في هذا الإختلاف في التعبير إشارة لطيفة الى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الإنسان يطوي طريق الشقاء بخطاه، ولكن لابدّ لطيّ طريق السعادة في الإمداد والعون الإلهي، وإلّا فإنّه لا يوفّق في مسيره، ولا شكّ أنّ هذا الإمداد والعون يشمل أُولئك الذين يخطون خطواتهم الأُولىٰ بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والجدارة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).[1]

---

١ ـ تفسير الأمثل: ٧/٦٢ ـ ٦٤.

١٤٢

ما هو الفرق بين الإسلام والإيمان؟

نقرأ في سورة الحجرات الآية ١٤: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، هنا يثار سؤال وهو ما الفرق بين الإسلام والإيمان؟

☑ وطبقاً لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «الإسلام» و«الايمان» في أنّ: الإسلام له شكل ظاهري قانوني، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين وتجري عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعي وباطني، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجري على اللسان أو ما يبدو ظاهراً!

الإسلام ربّما كان عن دوافع متعدّدة ومختلفة بما فيها الدوافع الماديّة والمنافع الشخصية، إلّا أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوي، ويسترفد من منبع العلم، وهو الذي تظهر ثمرة التقوىٰ اليانعة علىٰ غصن شجرته الباسقة!

وهذا ما أشار إليه الرّسول الأكرم ﷺ في تعبيره البليغ الرائع: «الإسلام علانية

والإيمان في القلب»(١).

كما إنّا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق يقول فيه: **الإسلام يحقن الدم وتؤدّىٰ به الأمانة وتستحلُّ به الفروج والثواب علىٰ الإيمان**(٢).

وربَّما كان لهذا السبب أنّ بعض الروايات تحصر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظي، في حين أنّ الإيمان إقرار باللسان وعمل بالأركان، إذ تقول الرواية «**الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل**»(٣).

وهذا المعنىٰ نفسه وارد في تعبير آخر في بحث الإسلام والإيمان، يقول «فضيل بن يسار» سمعت الإمام الصادق عليه السلام

يقول: **إنّ الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر في القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء**(٤).

وهذا التفاوت في المفهومين فيما إذا اجتمع اللفظان معاً، إلّا أنّه إذا انفصل كلٌّ عن الآخر فربَّما أطلق الإسلام علىٰ ما يُطلق عليه بالإيمان، أي أنّ اللفظين قد يستعملان في معنىٰ واحد أحياناً.(٥)

---

١ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص١٣٨.
٢ ـ الكافي، ج ٢، باب أنّ الإسلام يحقن به الدم، الحديثان ١، ٢.
٣ ـ المصدر السابق.
٤ ـ أصول الكافي، ج ٢، باب أنّ الإيمان يشرك الإسلام، الحديث ٣.
٥ ـ تفسير الأمثل: ١٦/٥٧١ ـ ٥٧٢.

١٤٣

ماهو المقصود من الشّيطان في القرآن؟

☑ كلمة الشيطان من مادة «شطن» و«الشاطن» هو الخبيث والوضيع. والشيطان تطلق علىٰ الموجود المتمرد العاصي، إنساناً كان أو غير إنسان، وتعني أيضاً الروح الشريرة البعيدة عن الحق. وبين كل هذه المعاني قدر مشترك.

والشّيطان اسم جنس عام، وإبليس اسم علم خاص، وبعبارة اُخرىٰ، الشيطان كل موجود مؤذٍ مغوٍ طاغ متمرّد، إنساناً كان أم غير إنسان ، وإبليس اسم الشيطان الذي أغوى آدم ويتربّص هو وجنده الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يفهم أن كلمة الشيطان تطلق علىٰ الموجود المؤذي المضر المنحرف الذي يسعى إلى بث الفرقة والفساد والاختلاف. مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّما يُريدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ...﴾[١].

وفي استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة علىٰ استمرار إرادة الشيطان علىٰ هذا النحو.

---

١ ـ المائدة، ٩١.

والاستعمال القرآني لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الإلهية، كقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[١].

كلمة الشيطان أُطلقت علىٰ إبليس أيضاً بسبب فساده وإنحرافه.

والميكروبات المضرّة تشملها كلمة الشيطان أيضاً، كما ورد عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لاَ تَشْرَبُوا الْمَاءَ مِنْ ثُلْمَةِ الْإِنَاءِ وَلاَ مِنْ عُرْوَتِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ عَلَى الْعُرْوَةِ وَالثُّلْمَةِ»[٢].

وروي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «وَلاَ يُشْرَبُ مِن أُذُنِ الْكُوزِ، وَلاَ مِنْ كَسْرِهِ إِنْ كَانَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَشْرَبُ الشَّيَاطِينِ»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لاَ يُطَوِّلَنَّ أَحَدُكُمْ شَارِبَهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّخِذُهُ مَخْبَئاً يَسْتَتِرُ بِهِ»[٤].

ومن الواضح أننا لا نقصد أن معنى كلمة الشيطان هو الميكروب أينما وردت هذه الكلمة، بل نقصد أن الكلمة لها معانٍ متعددة، أحد مصاديقها الواضحة «إبليس» وجنده وأعوانه. ومصداقها الآخر أفراد البشر المفسدون المنحرفون. ووردت في مواضع أُخرىٰ بمعنى الميكروبات المؤذية (تأمل بدقّة)![٥]

---

١ ـ الأنعام، ١١٢.

٢ ـ كتاب الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة والأشربة، باب الأواني.

٣ ـ كتاب الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة والأشربة، باب الأواني.

٤ ـ كتاب الكافي، ج ٦، ص ٤٨٧، ح ١١.

٥ ـ تفسير الأمثل: ١/١٧٢ ـ ١٧٤.

١٤٤

ماهي حقيقة الجنّ؟

☑ الجن كما جاء في المفهوم اللغوي هو نوع من الخلق المستور، وقد ذكرت له مواصفات كثيرة في القرآن منها:

١ ـ إنّهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان المخلوق من التراب: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.[١]

٢ ـ إنّهم يمتلكون الإدراك والعلم والتمييز بين الحق والباطل والقدرة على المنطق والإستدلال، (كما هو واضح من آيات سورة الجن).

٣ ـ إنّهم مكلّفون ومسؤولون (كما في آيات سورة الجن والرحمن).

٤ ـ وفيهم المؤمنون والصالحون والطالحون: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.[٢]

---

١ ـ الرحمٰن، ١٥.

٢ ـ الجن، ١١.

٥ ـ إنّهم يحشرون وينشرون : ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾.[1]

٦ ـ لهم القدرة على النفوذ في السماوات وأخذ الأخبار واستراق السمع، ولكنّهم منعوا من ذلك فيما بعد: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾.[2]

٧ ـ كانوا يوجدون ارتباطاً مع بعض الناس لإغوائهم بما لديهم من العلوم المحدودة التابعة إلى بعض الأسرار الروحية: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾.[3]

٨ ـ ويوجد فيهم من يتمتع بالقدرة الفائقة كما وجود في أوساط الإنس: ﴿قَالَ عِفْرِيْتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.[4]

٩ ـ لهم القدرة على قضاء بعض الحوائج التي يحتاجها الإنسان ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾[5].

١٠ ـ إنّ خلقهم كان قبل خلق الإنسان: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَهُ مِن قَبْلُ﴾[6] ولهم خصائص أُخرىٰ

بالإضافة إلى ذلك فإنّه يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الإنسان هو نوع أفضل من الجن، وبخلاف ما هو مشهور على الألسن لأنّهم أفضل منّا، ودليل اختيار الأنبياء من الإنس، وإنّهم آمنوا بنبي الإسلام الذي هو من الإنس واتبعوه، وهكذا وجوب

---

١ ـ الجن، ١٥.

٢ ـ الجن، ٩.

٣ ـ الجن، ٦.

٤ ـ النمل، ٣٩.

٥ ـ سبأ، ١٢ ـ ١٣.

٦ ـ الحجر، ٢٧.

سجود الشيطان لآدمعليه السلام كما صرّح القرآن بذلك ،وكون الشيطان من أكابر طائفة الجن (الكهف ٥٠) هو دليل على أفضلية بني الإنسان على الجنّ.

إلى هنا كان الحديث عن أُمور تستفاد من القرآن المجيد حول هذا الخلق المستور والخالية من كل الخرافات والمسائل غير العلمية، ولكنّنا نعلم أن السذج والجهلاء ابتدعوا خرافات كثيرة فيما يخص هذا الكائن بما يتنافي مع العقل والمنطق، منها ما نسب إليهم الأشكال الغريبة والعجيبة والمرعبة، وأنّهم موجودات سامة وذوات أذناب! مؤذية، ومبغضة، سيئة التصرف والسلوك إذ يمكن أن تحرق دوراً بمجرّد أن يسكب إناء ماء مغلي في بالوعة مثلاً، وأوهام أُخرىٰ من هذا القبيل، في حين أنّ أصل الموضوع إذا تمّ تطهيره من هذه الخرافات قابلاً للقبول، لأننا لا نملك دليلاً على حصر الموجودات الحية بما نحن نراه، بل يقول علماء العلوم الطبيعية: إنّ الكائنات التي يستطيع الإنسان أن يدركها بحواسه ضئيلة بالنسبة للموجودات التي لا تدرك بالحواس.

وفي الفترة الأخيرة وقبل أن يكشف المجهر هذه الكائنات الحية، لم يصدق أحد أنّ هناك الآلاف المؤلفة من الموجودات الجية المتواجدة في قطرة الماء أو الدم لا يمكن للإنسان أن يراها ويقول أيضاً: إنّ أعيننا ترىٰ ألواناً محددة، وكذا آذاننا تسمع أمواجاً صوتية محددة، والألوان والأصوات التي لا ندركها بآذاننا وأعيننا أكثر بكثير من تلك التي تدرك، وعندما تكون الدنيا بهذا الشكل لا يبقىٰ موضع للتعجب من وجود هذه الكائنات الحية، والتي لا يمكن لنا إدراكها بالحواس، ولم لا نتقبل ذلك عندما يخبرنا انسان صادق كالنّبي العظيمصلى الله عليه وآله.

على أي حال فإنّ القرآن المجيد قد أخبرنا من جهة بوجود الجن وخصوصياته المذكورة سلفاً، ومن جهة أُخرىٰ ليس هناك دليل عقلي على عدم وجود الجن، ولهذا لابدّ من الإعتقاد بهم، وتجنب الأقوال التي لا تليق بهم كما في خرافات العوام.

وممّا يلاحظ أيضاً أنّ لفظ الجن يطلق أحياناً على مفهوم أوسع يشمل أنواعاً من الكائنات المستورة أعم من الكائنات ذوات العقل والإدراك ولفاقدة لهما. وحتى مجاميع الحيوانات التي ترىٰ بالعين والمختفية في الأوكار أيضاً. والدليل على ذلك روايات وردت عن النّبيﷺ حيث قال: **«خلق اللّه الجن خمسة أصناف: صنف كالريح في الهواء، وصنف حيات، وصنف عقارب، وصنف حشرات الأرض، وصنف كنبي آدم عليهم الحساب والعقاب»**[١].

وبالتوجه إلى هذه الرّوايات ومفهومها فسوف تحلّ الكثير من المشاكل التي تطرح في الرّوايات والقصص الخاصّة بالجن.

ففي رواية وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: **«لا تشرب الماء من ثلمة الإناء ولا عروته، فإنّ الشيطان يقعد على العروة والثلمة»**.[٢] لأنّ الشيطان هو من الجن، ولأنّ ثلمة الإناء وعروته محل لإجتماع المكروبات المتنوعة. فلا يستبعد أن يكون الجن والشيطان بمفهومه العام شاملاً لمثل هذه الكائنات. وإن كان المعنى الخاص له هو الكائن ذو فهم وشعور وإنّه مكلّف ومسؤول. والرّوايات كثيرة في هذا الباب.[٣]

---

١ ـ سفينة البحار، ج١، ص١٨٦ (مادة الجن).

٢ ـ الكافي، ج٦، ص ٣٨٥، كتاب الأشربة، باب الأواني، الحديث ٥.

٣ ـ تفسير الأمثل: ١٩/١١٦ ـ ١١٩ .

١٤٥

ماهي حقيقة الملائكة؟

☑ تعرّض القرآن الكريم كثيراً لذكر الملائكة .. فقد تحدّثت آيات عديدة عن صفات، خصائص، مأموريات، ووظائف الملائكة. حتّى أنّ القرآن الكريم جعل الإيمان بالملائكة مرادفاً للإيمان بالله والأنبياء والكتب السماوية، ممّا يدلّل على أهميّة هذه المسألة الأساسية.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ وَمَلائَكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.[١]

وممّا لا شكّ فيه أنّ وجود الملائكة من الأمور الغيبية التي لا يمكن إثباتها بتلك الصفات والخصائص إلّا بالأدلّة النقلية، ويجب الإيمان بها على أنّه إيمان بالغيب.

وبالجملة يطرح القرآن الكريم خصائص الملائكة كما يلي:

١ ـ الملائكة موجودات عاقلة لها شعور، وهم عباد مكرمون من عباد الله ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[٢].

---

١ ـ البقرة، ٢٨٥.

٢ ـ الأنبياء، ٢٦.

٢ ـ مطيعون لأوامر الله ولا يعصونه أبداً: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.(١)

٣ ـ أنّ لهم وظائف مهمّة وكثيرة التنوّع كلّفوا بها من قبل الباري عزّوجلّ.

مجموعة تحمّل العرش ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾.(٢)

مجموعة تدبّر الأمر ﴿فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾(٣).

وأُخرى لقبض الأرواح ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ...﴾.(٤)

وآخرون يراقبون أعمال البشر ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.(٥)

مجموعة تحفظ الإنسان من المخاطر والحوادث ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.(٦)

وأُخرى مأمورة بإحلال العذاب والعقوبة على أقوام معيّنة ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾(٧)

وآخرون يمدّون المؤمنين حال الحرب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا

---

١ ـ الأنبياء، ٢٧.
٢ ـ الحاقة، ١٧.
٣ ـ النازعات، ٥.
٤ ـ الأعراف، ٣٧.
٥ ـ الإنفطار، ١٠ ـ ١٣.
٦ ـ الأنعام، ٦١.
٧ ـ هود، ٧٧.

تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[١].

وأخيراً مجموعة لتبليغ رسالات الوحي وإنزال الكتب السماوية للأنبياء ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنـذِرُوا أَنَّـهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَـا فَاتَّقُونِ﴾.[٢]

ولو أردنا الإسترسال في ذكر وظائف الملائكة لطال البحث واتّسع.

٤ ـ الملائكة دائمو التسبيح والتقديس لله سبحانه وتعالى ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.[٣]

٥ ـ وبناءً على أنّ الإنسان بحسب إستعداده للتكامل يمكنه أن يكون أعلى مقاماً وأشرف موضعاً من الملائكة فقد سجدت الملائكة بدون إستثناء لخلق آدم، وعدّوا آدم معلّماً لهم «الآيات ٣٠ ـ ٣٤ سورة البقرة».

٦ ـ إنّ الملائكة يظهرون بصورة الإنسان للأنبياء وغير الأنبياء، كما نقرأ في الآية (١٧) من سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾.

كذلك يذكر القرآن الكريم تجلّيهم بصورة إنسان لإبراهيم ولوط (هود ـ ٦٩ و٧٧) كما أنّه يستفاد من أواخر تلك الآيات أنّ قوم لوط أيضاً رأوهم بتلك الصورة الإنسانية السوية «هود ـ ٧٨».

فهل أنّ ذلك الظهور بالشكل الإنساني، له واقع عيني، أم هو بصورة تمثّل وتصرّف في قوّة الإدراك؟ ظاهر الآيات القرآنية يشير إلى المعنى الأوّل، وإن كان بعض من كبار المفسّرين قد إختار المعنى الثاني.

٧ ـ يستفاد من الروايات أنّ أعداد الملائكة كثيرة بحيث انّه لا يمكن مقايسة

---

١ ـ الأحزاب، ٩.

٢ ـ النحل، ٢.

٣ ـ الشورى، ٥.

أعدادهم بالبشر بأي شكل من الأشكال، فحينما سئل الإمام الصادق عليه السلام: هل الملائكة أكثر أم بنو آدم؟ قال: «والذي نفسي بيده لملائكة الله في السموات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبّحه ويقدّسه، ولا في الأرض شجرة ولا مدر إلّا وفيها ملك موكّل بها يأتي الله كلّ يوم بعملها والله أعلم بها، وما منهم أحد إلّا ويتقرّب كلّ يوم إلى الله بولايتنا أهل البيت، ويستغفر لمحبّينا ويلعن أعداءنا، ويسأل الله أن يرسل عليهم العذاب إرسالاً»[١].

٨ ـ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتزوجون، فقد ورد عن الإمام الصادق في حديث طويل قوله: «إنّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، وإنّما يعيشون بنسيم العرش»[٢].

٩ ـ لا ينامون ولا يضعفون ولا يغفلون، ففي الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام «وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، فليس فيهم فترة ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية هم أعلم خلقك بك، ... ولا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، لم يسكنوا الأصلاب ولم تضمّهم الأرحام» الحديث[٣].

١٠ ـ إنّ لهم مقامات، ومراتب متفاوتة ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[٤].

وكذلك نقرأ في الحديث المذكور عن الإمام الصادق عليه السلام: «وإنّ لله ملائكة ركعاً إلى يوم القيامة، وإنّ لله ملائكة سجداً إلى يوم القيامة»[٥].

---

١ ـ بحار الأنوار، الجزء ٥٩، صفحة ١٧٦ حديث ٧.

٢ ـ المصدر السابق، صفحة ١٧٤ ـ حديث ٤. وقد نقلت روايات متعدّدة في هذا الشأن فراجع.

٣ ـ بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ١٧٥، ح ٦.

٤ ـ الصافات، ١٦٤ ـ ١٦٦.

٥ ـ بحار الأنوار، المجلد ٥٩، صفحة ١٧٤ ـ حديث ٤.

ولمزيد الإطلاع على أوصاف الملائكة وأصنافهم يراجع كتاب «السماء والعالم» من بحار الأنوار، أبواب الملائكة (المجلد ٥٩ ـ الصفحات ١٤٤ ـ إلى ٣٢٦) وكذلك نهج البلاغة الخطب (١ و٩١ ـ خطبة الأشباح ـ و١٠٩ و١٧١).

هل أنّ الملائكة بتلك الأوصاف التي ذكرناها، موجودات مجردة أم مادية؟

لا شكّ أنّ من غير الممكن أن تكون الملائكة بهذه الأوصاف من هذه المادّة الكثيفة، ولكن لا مانع من أن تكون أجساماً لطيفة الخلق، أجساماً فوق هذه المادّة المألوفة لنا.

إثبات (التجرد المطلق) للملائكة من الزمان والمكان والجزئية، ليس بالأمر الهيّن، والوصول إلى تلك النتيجة ليس وراءه كثير فائدة، المهمّ هو أن نعرف الملائكة بالصفات التي وردت في القرآن والروايات الثابتة. وأنّها من الموجودات العلوية الراقية عند الله في مقامها ومكانتها، ولا نعتقد لها بغير مقام العبودية لله سبحانه، وأن نعلم بأنّ الإعتقاد بأنّها شريكة مع الله في أمر الخلق أو في العبادة كفر محض وشرك بيّن.

نكتفي بهذا القدر من التفصيل حول الملائكة ونوكّل التفاصيل الأكثر إلى الكتب التي كتبت بهذا الشأن.

ونرى في الكثير من عبارات «التوراة» لدى الحديث عن الملائكة عبارة «الآلهة» وهو تعبير مشرك ومن علائم تحريف التوراة الحالية، ولكن القرآن الكريم نقي من هذه التعبيرات، لأنّه لا يرى لها سوى مقام العبودية والعبادة لله تعالى وإطاعة أوامره، وحتّى أنّ القرآن يصرّح في بعض آياته يتفوّق الإنسان الكامل على الملائكة في المرتبة والمقام.(١)

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٦/١٤ ـ ٢٠.

١٤٦

ماهي الرجعة وهل هي ممكنة؟

☑ «الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها في عبارة موجزة بهذا النحو: «بعد ظهور المهديعليه السلام وبين يدي القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخلّص، وطائفة من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا.. فالطائفة الأُولىٰ تصعد في مدارج الكمال... والطائفة الثّانية تنال عقابها الشديد!.

يقول «الشريف المرتضى» الذي هو من أعاظم الشيعة: إنّ الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه، أن الله تعالى يعيد عند ظهور الإمام المهديعليه السلام أقواماً ممن كان قد تقدم موته من شيعته ليفوز بثواب نصرته ومعونته ومشاهدة دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق وعلوّ كلمة أهله!

ثمّ يضيف السيد المرتضى قائلاً: والدلالة على صحة هذا المذهب أن الذي ذهبوا إليه ممّا لا شبهة على عاقل في أنّه مقدور لله تعالى غير مستحيل فينفسه، فإنا نرى كثيراً من مخالفينا ينكرون الرجعة إنكار من يراها مستحيلة غير مقدورة، وإذا ثبت جواز الرجعة ودخولها تحت المقدور، فالدليل إلى إثباتها إجماع الإمامية على وقوعها[١].

١ ـ سفينة البحار، ج ١، ص ٥١١، مادة رجع.

ويظهر بالطبع ـ من كلمات بعض قدماء علماء الشيعة وكذلك من كلام العلامة «الطبرسي» في مجمع البيان ـ أن «الأقليّة» القليلة من الشيعة لا تؤمن بهذه العقيدة، أي «الرجعة» وفسّروها بعودة حكومة أهل البيتﷺ، لا رجوع الأشخاص وحياتهم بعد موتهم في هذه الدنيا، إلّا أنّ مخالفة هذه القلة لا تؤثر في الإجماع.

وعلى كل حال، فهنامطالب كثيرة، ومن أجل ألّا نخرج عن أسلوب بحثنا نشير إليها بإيجاز في مايلي:

١ ـ لا ريب أنّ إحياء جماعة من الموتى في هذه الدنيا ليس محالاً!... كما أن إحياء جميع البشر في يوم القيامة ممكن، والتعجب من هذه المسألة كتعجب المشركين «من أهل الجاهلية» من مسألة المعاد، والسخرية منها كالسخرية من المعاد!... لأنّ العقل لا يحكم على مثل هذا الأمر بالإستحالة... وقدرة الله واسعة بحيث أنّ هذه الأُمور عندها سهلة يسيرة هيّنة!.

٢ ـ جاء ذكر الرجعة في القرآن المجيد إجمالاً، ووقوعها في خمسة مواطن في شأن الأُمم السالفة.

ألف: في ما يتعلق بالنّبي الذي مرّ على قريةٍ وهي خاوية على عروشها، وعظام أهلها نخرة متفرقة هنا وهناك. فتساءل في نفسه وقال: **﴿أنّى يحيى هذه الله بعد موتها﴾** فأماته الله مئة عام ثمّ أحياه فقال له: كم لبثت؟! قال: لبثت يوماً أو بعض يوم قال: بل لبثت مئة عام «مؤدّى الآية ٢٥٩ ـ من سورة البقرة».

وسواءً كان هذا النّبي عزيراً أم سواه، فلا فرق في ذلك، المهم أنّ القرآن صرح بحياته بعد موته في هذه الدنيا فأماته الله مئة عام ثمّ بعثه!.

ب ـ يتحدث القرآن ـ في الآية (٢٤٣) من سورة البقرة ذاتها ـ عن جماعة أُخرىٰ خرجت من ديارها خوفاً من الموت، وامتنعت من الذهاب إلى سوح القتال بحجّة مرض الطاعون، فأماتها الله ثمّ أحياها **﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال الله لهم موتوا ثمّ أحياهم إنّ الله لذو فضلٍ على الناس**

ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين لم يتحملوا وقوع مثل هذه الحادثة غير المألوفة، وعدوها مثالاً فحسب، إلّا أنّ من الواضح أنّ مثل هذه التأويلات إزاء ظهور الآية ـ بل صراحتها ـ لا يمكن المساعدة عليه!.

ج ـ وفي الآيتين ٥٥ و ٥٦ من سورة البقرة أيضاً، يتحدث القرآن عن بني إسرائيل فيقول: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾.

د ـ ونقرأ في الآية (١١٠) ضمن معاجز عيسى قوله تعالىٰ: ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾.

ويدل هذا التعبير على أنّ المسيح﴿ع﴾ أحيا الموتى فعلاً، بل التعبير بالفعل المضارع (تخرج) يدلّ على أنّه أحيا الموتى مراراً، وهذا الأمر بنفسه يعد نوعاً من الرجعة لبعضهم!

هـ ـ وأخيراً ففي الآيتين (٧٢) و (٧٣) من سورة البقرة، إشارة إلى مقتل رجل من بني إسرائيل ووقوع الجدال والنزاع في شأن قاتله، وما أمرهم الله أن يفعلوه بضرب القتيل ببعض البقرة ـ الواردة خصائصها في الآية ٧٢ ـ إذ يقول سبحانه: ﴿وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

وبالإضافة إلى هذه المواطن الخمسة التي أشرنا إليها، فهناك مواطن أخرُ في القرآن، منها قصّة أصحاب الكهف، وهي قصّة تشبه الرجعة. وقصّة الأربعة من الطير التي أمر إبراهيم أن يذبحها فأتينه سعياً بعد ذبحهن وتفريقهن على رأس كل جبل جزءاً منهنّ، ليتّضح له إمكان المعاد للناس ويكون مجسداً برجوع هذه الطيور إلى الدنيا.

وعلى كل حال! كيف يمكن أن يؤمن الشخص بالقرآن وأنّه كتاب سماوي، ثمّ

ينكر هذه الآيات الواضحة في الرجعة؟ وهل الرجعة ـ أساساً ـ إلّا العودة للـحياة بعد الموت؟!

أوليست الرجعة مثلاً مصغراً من القيامة في هذه الدنيا.

فمن يؤمن بالقيامة بمقياسها الواسع، كيف يمكنه أن يعترض على مسألة الرجعة وأن يسخر منها؟! وأن يقول قائل كأحمد أمين المصري في كتابه «فجر الإسلام» اليهودية ظهرت بالتشيع بالقول بالرجعة[١].!!

وأي فرق بين كلام أحمد أمين هذا، وإنكـار عـرب الجـاهلية لمسألة المـعاد الجسماني؟!

٣ ـ ما ذكرناه ـ إلى هنا ـ يثبت إمكان الرجعة، وأمّا ما يؤيد وقوعها فروايات كثيرة نقلها الثقات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وحيث لا يسع بحثنا نقلها والتحقيق فيها، فيكفي أن نذكر ما عدّه المرحوم العلّامة المجلسي في بحار أنواره وما جمعه منها، إذ يقول: وكيف يشك مؤمن بحقيّة الأئمة الأطهار عليهم السلام فيما تواتر عنهم في قريبٍ من مائتي حديث صريح *، رواها نيّفٌ وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم.. فإذا لم يكن مثل هذا متواتراً ففي أيّ شيء يمكن دعوى التواتر **؟![٢]

١ ـ انظر عقائد الإمامية ـ للشيخ محمّدرضا المظفر ص ٧١.

* ـ يعني «بالرجعة».

** ـ بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٢٢.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٢/١٣٩ ـ ١٤٢.

١٤٧

ما هو الهدف من الرجعة؟

☑ مع ملاحظة ما يستفاد من الرّوايات الإسلامية من أنّ هذا الموضوع ليس عامّاً بل يختصّ بالمؤمنين الخلّص الذين هم في مرحلة عالية من الإيمان، والكفار والطغاة الظلمة الذين هم في مرحلة منحطة من الكفر والظلم.. فيبدو أن الرجعة لهاتين الطائفتين للدنيا ثانيةً هي من أجل إكمال الطائفة الأُولىٰ حلقتها التكاملية، وأن تذوق الطائفة الثّانية جزاءها الدنيوي.

وبتعبير آخر: إن الطائفة المؤمنة «خالصة الإيمان» الذين واجهوا الموانع والعوائق في مسير تكاملهم المعنوي في حياتهم ولم يتكاملوا الكمال اللائق باستعدادهم، فإنّ حكمة الله تقتضي أن يتكاملوا عن طريق الرجعة لهذه الدنيا وأن يكونوا شهداء الحكومة العالميّة للحقّ والعدل، وأن يساهموا في بناء هذه الحكومة، لأنّ المساهمة في بناء مثل هذه الحكومة من أعظم الفخر!.

وعلى عكس الطائفة الآنفة الذكر، هناك طائفة من المنافقين والجبابرة المعاندين، ينبغي أن ينالوا جزاءهم الدنيوي بالإضافة إلى جزاءهم الأخروي، كما ذاق ـ قوم فرعون وثمود وعاد وقوم لوط جزاءهم ـ ولا طريق لأن يذوقوا عذاب

الدنيا إلّا بالرجعة!.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في بعض أحاديثه **«إن الرجعة ليست بعامة، وهي خاصّة، لا يرجع الّا من محض الإيمان محضاً، أو محض الشرك محضاً»**[١].

ولعل الآية (٩٥) من سورة الأنبياء **﴿وحرام على قرية أهلكناها إنّهم لا يرجعون﴾** تشير إلى هذا المعنى أيضاً. لأنّها تتحدث عن عدم رجوع أُولئك الذين ذاقوا عذابهم الشديد في هذه الدنيا، فيتّضح منها أن أُولئك الذين لم يذوقوا مثل هذا الجزاء ينبغي أن يرجعوا، فيذوقوا عذابهم **«فلاحظوا بدقة»**.

كما يرد هذا الإحتمال أيضاً، وهو أنّ رجعة «الطائفتين هاتين» في ذلك المقطع الخاص من الزمان هي بمثابة درسين كبيرين وآيتين مهمتين من آيات عظمة الله ـ ومسألة القيامة و«المبدأ والمعاد» ـ للناس، ليبلغوا أسمى درجات الكمال المعنوي بمشاهدتهما ويزداد إيمانهم... ولا يكونوا مفتقرين إلى شيء أبداً.*

١ ـ بحار الانوار، ج ٥٣، ص ٣٩.

* ـ تفسير الأمثل: ١٢/١٤٢ ـ ١٤٥.

١٤٨

ما هي حقيقة وفلسفة التوكّل؟

«التوكّل» في الأصل من «الوكالة» وكما قال الراغب: التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك. ونحن نعلم أنّ الوكيل الصالح له أربع خصال رئيسيّة: العلم الكافي، والأمانة، والقدرة، والمبالغة في رعاية مصلحة موكّله. فإنتخاب الوكيل المحامي يتمّ في الأعمال التي لا يستطيع الإنسان نفسه أن يدافع عنها، فيستفيد من مساعدة قوّة الآخرين في حلّ مشاكله.

وعلى ذلك فالتوكّل على الله يتمّ في حالة عدم إستطاعة الإنسان من حلّ المشاكل الحياتية وفي مقابل الأعداء وإصرار المخالفين، وأحياناً في الطرق المسدودة التي تواجهه في مسيرة أهدافه. ولذلك فهو يستند إلى الله جلّ وعلا ويستمر في سعيه، بل حتّى لو كان مستطيعاً في أداء أعماله، فيجب أن يعلم أنّ الله هو المؤثّر الأصلي، لأنّ الله تعالى في نظر المؤمن هو منبع لكلّ القدرات.

والنقطة التي تقابل التوكّل على الله هي التوكّل على غيره، يعني الإتّكالية في الحياة والتبعية للآخرين، وعدم الإستقلاليّة، يقول علماء الأخلاق: التوكّل الثمرة

المباشرة لتوحيد أفعال الله، لأنّه ـ وكما قلنا ـ من وجهة نظر المؤمن يرتبط كلّ ما في الكون بالنهاية بذات الله المقدّسة، ولذلك فالموحّد يرى أنّ جميع أسباب القدرة والنصر من عند الله.

فلسفة التوكّل

نستفيد ممّا ذكرناه أنّه:

أوّلاً: إنّ الإنسان سوف تزداد مقاومته للمشاكل الصعبة لتوكّله على الله الذي هو منبع جميع القدرات والإستطاعات.

ولهذا السبب فعندما إنهزم المسلمون في «أُحد» يقول تعالى: **﴿الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**.[١]

وهناك نماذج أُخرىٰ للمقاومة والثبات في ظلّ التوكّل، ومن جملتها الآية ١٢٢ من آل عمران يقول تعالى: **﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾**.

وفي الآية (١٢) من سورة إبراهيم يقول تعالى: **﴿ولنصبرنّ على ما آذيتمونا﴾**.

وفي الآية (١٥٩) آل عمران **﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكّلين﴾**.

وكذلك يقول القرآن الكريم: **﴿إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون﴾**.[٢]

نستفيد من مجموع هذه الآيات أنّ القصد من التوكّل أن لا يحسّ الإنسان

---

١ ـ آل عمران، ١٧٣.

٢ ـ النحل، ٩٩.

بالضعف في مقابل المشكلات العظيمة، بل بتوكّله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكّل عامل من عوامل القوّة وإستمداد الطاقة وسبب في زيادة المقاومة والثبات. وإذا كان التوكّل يعني الجلوس في زاوية ووضع إحدى اليدين على الأُخرىٰ، فلا معنى لأنّ يذكره القرآن بالنسبة للمجاهدين وأمثالهم.

وإذا إعتقد البعض أنّ التوكّل لا ينسجم مع التوجه إلى العلل والأسباب والعوامل الطبيعيّة، فهو في خطأ كبير، لأنّ فصل العوامل الطبيعيّة عن الإرادة الإلهيّة يعتبر شركاً بالله، أو ليست هذه العوامل تسير بأوامر ومشيئة الله؟

نعم إذا إعتقدنا أنّ العوامل مستقلّة عن إرادته فهي لا تتناسب مع روح التوكّل. فهل من الصحيح أن نفسّر التوكّل بهذا التّفسير، مع أنّ الرّسول الأكرمﷺ الذي هو رأس المتوكّلين لم يغفل من إستخدام الخطط الصحيحة والإستفادة من الفرص المتاحة وأنواع الوسائل والأسباب الظاهرية لتحقيق أهدافه، إنّ هذا يثبت أنّ التوكّل ليس له مفهوم سلبي.

ثانياً: إنّ التوكّل ينجّي الإنسان من التبعية التي هي أصل الذلّ والعبودية، ويمنحه الحرية والإعتماد على النفس.

«التوكّل» و «القناعة» لهما جذور مشتركة، وفلسفتهما متشابهة، وفي نفس الوقت متفاوتة، ولا بأس هنا أن نذكر عدّة روايات في مجال التوكّل وأصله وجذوره:

عن الإمام الصادقؑ قال: «إنّ الغنا والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا»[1] وقد عرّف الإمام التوكّل بأنّه موطن العزّة وعدم الحاجة للآخرين.

وعن النّبي ﷺ قال: سألت جبرئيل: ما هو التوكّل؟ قال: (العلم بأنّ المخلوق

---

١ ـ أُصول الكافي، المجلّد الثّاني، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه حديث ـ ٣.

لا يضرّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وإستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هو التوكّل)[١].

وسئل الإمام الرضاعليه السلام: ما حدّ التوكّل؟ فقال: «أن لا تخاف مع الله أحداً»[٢].[٣]

١ ـ بحار الأنوار، ج ١٥ القسم الثّاني في الأخلاق، ص ١٤ الطبعة القديمة.

٢ ـ سفينة البحار، المجلد الثّاني، ص ٦٨٢.

٣ ـ تفسير الأمثل: ٧/٤٧٢ ـ ٤٧٥.

١٤٩

ماهي فلسفة الدعاء؟

☑ الجاهلون بحقيقة الدعاء وآثاره التربويّة والنفسية. يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف النّاس عن الفعّالية والنشاط وعن تطوير الحياة، ويدفعهم بدلاً من ذلك إلى التوسّل بعوامل غيبية.

ويقولون: إن الدعاء تدخّل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد، وفعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعي إلى الطلب منه والتضرّع إليه؟!

ويقولون أيضاً: إنّ الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضي بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه!

هؤلاء، ـ كما ذكرنا ـ يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربوية والنفسية والإجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحياناً إلى الملجأ الذي يلوذ به في الشدائد، والدعاء يضيء نور الأمل في نفس الإنسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية واجتماعية. وعلىٰ حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

«ابتعاد الأُمّة عن الدعاء يعني سقوط تلك الأُمّة! المجتمع الذي قمع في نفسه روح الحاجة إلى الدعاء سوف لا يبقى مصوناً عادة من الفساد والزوال.

ومن نافلة القول أنه من العبث الإكتفاء بالدعاء لدى الصباح وقضاء بقية اليوم كالوحش الكاسر، لابدّ من مواصلة الدعاء، ومن اليقظة المستمرة، كي لا يزول أثره العميق من نفس الإنسان».(١)

وأُولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديري لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعني ترك العلل والوسائل الطبيعية واللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للإستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، وأعيتنا الوسيلة، نلجأ إلى الدعاء، وبهذا اللجوء إلى الله يحيى في أنفسنا روح الأمل والحركة، ونستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعية.

«الدعاء ـ إضافة إلى قدرته في بث الطمأنينة في النفس ـ يؤدي إلى نوع من النشاط الدماغي في الإنسان، وإلى نوع من الإنشراح والإنبساط الباطني وأحياناً إلى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة ... صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والإنشراح والسرور، والثقة بالنفس، والإستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين في نفوسنا. وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية والأخلاقية بشكل أفضل، وأكثر. لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جداً ـ مع الأسف ـ في عالمنا اليوم»(٢).

ممّا تقدم نفهم الرد علىٰ من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا والتسليم، لأن

---

١ ـ الدعاء، الطبيب وعالم النفس الشهير «الكسيس كاريل».

٢ ـ الدعاء للكسيس كاريل.

الدعاء ـ كما ذكرنا ـ نوع من كسب القابلية علىٰ تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتناهي.

بعبارة أُخرىٰ: الإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول علىٰ فيض الباري تعالى. وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلك، الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والإنسان ـ عن طريق الدعاء ـ يزداد إرتباطاً بالله تعالى، وكما أن كلّ العبادات ذات أثر تربوي كذلك الدّعاء له مثل هذا الأثر.

والقائلون أن الدعاء تدخّل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلّهية تغدق علىٰ الإنسان حسب استعداده وكفاءته ولياقته، وكلّما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مَنْزِلَةً لاٰتُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ»[١].

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»[٢].

ويقول: «إنّ أحدث العلوم الإنسانية ـ أعني علم النفس ـ يعلّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن الأطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والإيمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والاضطراب والخوف والهيجان الباعثة علىٰ أكثر أمراضنا»[٣].[٤]

---

١ ـ أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٨، باب فضل الدعاء والحثّ عليه، حديث ٣.

٢ ـ آئين زندگي (فارسي)، ص ١٥٦.

٣ ـ المصدر نفسه: ص ١٥٢.

٤ ـ تفسير الأمثل: ١/٥٣٢ ـ ٥٣٥.

١٥٠

لماذا لا تستجاب دعواتنا؟

☑ دراسة شروط استجابة الدعاء توضّح لنا كثيراً من الحقائق الغامضة في مسألة الدعاء، وتبين لنا آثاره البناءة، والروايات الإسلامية تذكر شروطاً لاستجابة الدعاء منها:

١ ـ ينبغي لمن يدعو أن يسعى أولاً لتطهير قلبه وروحه، وأن يتوب من الذنب، وأن يقتدي بحياة قادة البشرية الإلٓهيين.

عن الإمام الصادقعليه السلام: **«إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ، وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلاَةِ عَلَى النَّبِّي وَآلِهِ، وَالْإِعْتِرافِ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ الْمَسْأَلَة»**[1].

٢ ـ أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غصب وظلم، وأن لا يكون طعامه من حرام. عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعاؤُهُ فَلْيَطِبْ مَطْعَمَهُ**

---

١ ـ سفينة البحار، ج ١، ص ٤٤٨ و ٤٤٩.

وَمَكْسَبَهُ»[١].

٣ ـ أن لا يفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّ ضدّ كل ألوان الفساد. لأنّ الله لا يستجيب ممن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن النّبيﷺ: «لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ»[٢].

ترك هذه الفريضة الإلّهية (فريضة المراقبة الإجتماعية) يؤدي إلى خلوّ الساحة الإجتماعية من الصالحين، وتركها للمفسدين، وعند ذاك لا أثر للدعاء، لأن هذا الوضع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الإنسان نفسه.

٤ ـ العمل بالمواثيق الإلّهية، الإيمان والعمل الصالح والأمانة والصلاح من شروط استجابة الدعاء، فمن لم يف بعهده أمام بارئه لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابة دعائه.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليعليه السلام، وشكا له عدم استجابة دعائه، فقال الإمام:

«إِنَّ قُلُوبَكُمْ خَانَتْ بِثَمَانِ خِصَالٍ:

أَوَّلُهَا: إِنَّكُمْ عَرَفْتُمُ اللهَ فَلَمْ تُؤَدُّوا حَقَّهُ كَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْكُمْ مَعْرِفَتُكُمْ شَيئاً.

وَالثَانِيَةُ: إِنَّكُمْ آمَنْتُمْ بِرَسُولِهِ ثُمَّ خَالَفْتُمْ سُنَّتَهُ، وَأَمَتُّمْ شَرِيعَتَهُ فَأَيْنَ ثَمَرَةُ إِيمانِكُمْ؟!

وَالثَّالِثَةُ: إِنَّكُمْ قَرَأْتُمْ كِتَابَهُ الْمُنْزَلَ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَقُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ثُمَّ خَالَفْتُمْ!

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

وَالرَّابِعَةُ: إِنَّكُم قُلتُم تَخَافُونَ مِنَ النَّارِ، وَأنتُم فِي كُلِّ وَقتٍ تَقدُمُونَ إلَيها بِمَعاصِيكُم فَأينَ خَوفُكُم؟!

وَالْخَامِسَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي الْجَنَّةِ، وأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ تَفْعَلُونَ مَا يُبَاعِدُكُمْ مِنها فَأَيْنَ رَغْبَتُكُمْ فِيهَا؟

وَالسَّادِسَةُ: إِنَّكُمْ أَكَلْتُمْ نِعْمَةَ الْمَوْلىٰ فَلَمْ تَشْكُرُوا عَلَيْهَا!

وَالسَّابِعَةُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِعَداوَةِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾، فَعَادَيْتُمُوهُ بِلاَ قَوْلٍ، وَوَالَيتُمُوهُ بِلاَ مخَالَفَةٍ.

وَالثَّامِنَةُ: إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ عُيُوبَ النَّاسِ نَصْبَ أَعْيُنِكُمْ وَعُيُوبَكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ تَلُومُونَ مَنْ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِاللَّوْمِ مِنْهُ فَأَيُّ دُعَاءٍ يُسْتَجَابُ لَكُمْ مَعَ هَذا، وَقَدْ سَدَدْتُمْ أَبْوَابَهُ وَطُرُقَهُ؟ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا أَعْمَالَكُمْ وَأَخْلِصُوا سَرَائِرَكُمْ وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَسْتَجِيبُ اللهُ لَكُمْ دُعَاءَكُمْ»[١].

هذا الحديث يقول بصراحة: إن وعد الله باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفيذ المواثيق الإلٰهية، وإن عمل الإنسان بهذه المواثيق الثمانية المذكورة فله أن يتوقع استجابة الدعاء، وإلّا فلا.

العمل بالأُمور الثمانية المذكورة باعتبارها شروطاً لاستجابة الدعاء كافٍ لتربية الإنسان ولاستثمار طاقاته علىٰ طريق مثمر بنّاء.

٥ ـ من الشروط الأُخرىٰ لاستجابة الدعاء العمل والسعي، عن علي عليه السلام: «الدَّاعِي بِلاَ عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلاَ وَتَرٍ»[٢].

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل في الدعاء.

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٣٧.

بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط إستجابة الدعـاء فـي أنفسنا، ويحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الإنسان وتجديداً لمسيرته، وإصلاحاً لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامي أنه مخدّر؟![١]

١ ـ تفسير الأمثل: ١/٥٣٦ ـ ٥٣٨.

١٥١

ماهي النظرة الصائبة لمسألة «الجبر والإختيار»؟

☑ تعتبر مسألة (الجبر والإختيار) من أقدم المسائل المبحوثة بين أوساط العلماء، يرى فبعضهم حرية اختيار الإنسان، ومنهم من يرى بأنّ الإنسان مجبور في أعماله، وكلّ منهما يمتلك جملة من الأدلة التي أوصلته لما يرى.

ومن اللطيف أنّ كلا الفريقين، يقبلون عملياً بأنّ الإنسان مختار في أفعاله.

وبعبارة أُخرى: إنّ البحث والنقاش الدائر بين العلماء لا يتعدى دائرة البحث العلمي، أمّا على الصعيد العملي فالكل متفقون على حرية الإختيار للإنسان.

وهذا يظهر لنا بوضوح بأنّه أصل حرية الإرادة والإختيار من الأُصول التي انطوت عليها الفطرة الإنسانية، ولولا الوساوس المختلفة لاتفق الجميع على حقيقة حرية الإرادة في الإنسان.

إنّ الوجدان النوعي والفطرة الإنسانية عموماً من أوضح أدلة الإختيار، وقد تجلت بصور متنوعة في حياة لإنسان.

وعليه.. فإذا كان الإنسان لا يقبل بالإختيار ويعتبر نفسه مجبوراً في أعماله فلماذا إذن:

١ ـ يندم على بعض الأعمال التي يقوم بها أو لم ينجزها، ويضع تجربته كعبرة ليعتبر به مستقبلاً، فإذا لم يكون مختاراً، فلماذا الندم؟!

٢ ـ يلام ويُوبّخ كلّ مَن يسيء، فلماذا يلام إن كان مجبوراً في فعله؟!

٣ ـ يُمدح ويحترم صاحب العمل الصالح.

٤ ـ يسعى الناس جاهدين لتربية وتعليم أبنائهم ليضمنوا لهم مستقبلاً زاهراً، وإذا كانت الأعمال جبرية، فلماذا هذا التعليم.

٥ ـ يسعى العلماء قاطبة لرفع المستوى الأخلاقي في المجتمع؟

٦ ـ يتوب الإنسان على ما فعل من ذنوب، أو هل للجبر مِن توبة؟!

٧ ـ يتحسر الإنسان على تقصيره فيما يطلب منه؟

٨ ـ يحاكم المجرمون والمنحرفمون في كل دول العالم، ويحقق معهم حسب قوانينهم؟

٩ ـ تضع جميع الأُمم (المؤمنة أم الكافرة) العقوبات للمجرمين؟

١٠ ـ مَن يقول بالجبر يصرخ متغنياً في وجه المحاكم لمعاقبة مَن اعتدى عليه؟

والخلاصة: إن لم يكن للإنسان اختيار، فما معنى الندم؟ ولماذا يلام ويوبخ؟ أمِن العقل أن يلام الإنسان على فعل فعله قهراً؟! ثمّ لماذا يمدح أهل الخير والصلاح؟ فإن كان ما فعلوه خارج عن إرادتهم فلا معنى لتشجيعهم.

والقبول بوجود تأثير للتربية والتعليم على سلوك الإنسان يفقد (الجبر) معناه تماماً، وكذا الحال بالنسبة للمسائل الأخلاقية، فلا مفهوم لها بدون الإعتراف أولاً بحرية الإنسان...

ثمّ إن كنّا قد جعلنا على أعمالنا جبراً، فهل يبق للتوبة من معنى؟! ولِمَ الحسرة والحال هذه؟! بل إنّ محاكمة الظالم ظلم واضح، والأكثر ظلماً معاقبته؟!!

وكلّ ما ذكر يدلل على أنّ حرية الإرادة وعدم الجبر أصل تحكم به الفطرة الإنسانية، وهو ما ينسجم تماماً والوجدان البشري العام، والكل يعمل على ضوء

هذا الأصل، ولا فرق في ذلك بين عوام الناس أو خواص العلماء والفلاسفة، ولا يستثنى من ذلك حتى الجبريين أنفسهم، وكما قيل في هذا الجانب: (الجبريون اختياريون من حيث لا يعلمون).

والقرآن الكريم حافل بما يؤكّد هذه الحقيقة، ونظراً لكثرة الآيات التي تؤكّد على حرية إرادة الإنسان ـ مضافاً الى الآية المبحوثة: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَآبًا﴾ ـ سنكتفي بذكر ثلاث آيات من القرآن الحكيم.

ففي الآية (٣) من سورة الدهر: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾.

وفي الآية (٢٩) من سورة الكهف، يقول تعالى: ﴿فمن شاء فيؤمن ومَن شاء فليكفر﴾.

وجاء في الآية (٢٩) من سورة الدهر أيضاً: ﴿إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾.

الحديث حول (الجبر والتفويض) طويل جدّاً، وقد كتبت في ذلك كتب ومقالات عديدة، وما ذكرناه لا يتعدى كونه إلقاء نظرة سريعة ومختصرة على ضوء (القرآن) و(الوجدان)، ونختم الحديث بذكر ملاحظة مهمّة وهي: إنّ الدوافع النفسية والإجتماعية قد اختلطت مع الإستدلال الفلسفي عند الكثيرين ممن يقولون بالجبر.

فكثير ممن اعتقدوا بالجبر، أو (القضاء والقدر) بمعناه الجبري إنّما توسلوا به للفرار من المسؤولية: أو أنّهم جعلوها غطاءً لفشلهم الناتج عن تقصيرهم وتساهلهم في أداء وظائفهم، أو جعلوها مبرراً لإتباع أهوائهم ونزواتهم الشيطانية.

استغل المستعمر ـ في بعض الأحيان ـ هذه المقولة، وجدّ على نشر وتأكيد هذه العقيدة الباطلة لتحكيم سيطرته على الرقاب، بعد أن يوهم الناس بأنّهم مجبورون من قبل اللّه على أن يعيشوا تحت سطوة الحاكم الموجود قضاءً وقدراً ليأمن المستعمِر من المقاومة، يكسب رضاهم وتسليمهم له!

فالإعتقاد بهذا الرأي... يعني تبرير كلّ ما يقوم به الطغاة والجناة، وتبرير جميع

ذنوب المذنبين، وبالنتيجة: لا يبقى فرق بعد بين الصالح والطالح، والمطيع والعاصي!!...[١]

الإختيار والعدالة

قوله تعالىٰ: في سورة فصّلت، الآية ٢٦: ﴿ومارَبّك بظلام للعبيد﴾ دليل واضح على قانون الإختيار وحرية الإرادة، وفيه حقيقة أنّ الله لا يعاقب أحداً بدون سبب، ولا يزيد في عقاب أحد دون دليل، فسياستهُ في عباده العدالة المحضة، لأن الظلم يكون بسبب النقص والجهل والاهواء النفسية، والذات الإلهية المقدسة منزّهة عن كلّ هذه العيوب والنواقص.

المهم هنا أنّ القرآن وفي هذه الآيات البينات نفىٰ الجبر الذي يؤدي الىٰ اشاعة الفساد وارتكاب أنواع القبائح، والاعتقاد به يؤدي إلى إلغاء أي نوع من المسؤولية والتكليف، بينما الجميع مسؤولون عن أعمالهم، نتائجها تعود بالدرجة الأولىٰ عليهم.

لذلك نقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسىٰ الرضاﷺ في الإجابة على هذا السؤال: هل يجبر الله عباده علىٰ المعاصي؟

فقال: «لا، بل يخيرهم ويمهلهم حتىٰ يتوبوا».

فسئلﷺ مجدداً: هل كلف عباده ما لا يطيقون؟

أجاب الإمامﷺ: «كيف يفعل ذلك وهو يقول:﴿وما ربّك بظلام للعبيد﴾».

ثم أضاف الإمام الرضاﷺ: «إنّ أبي موسىٰ بن جعفر نقل عن أبيه جعفر بن محمّد من زعم أنّ الله يجبر عباده علىٰ المعاصي أو يكلفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا

---

١ ـ تفسير الأمثل: ١٩/ ٣٦٤ ـ ٣٦٧.

ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلوا وراءه ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»[١].

إنّ هذا الحديث الشريف يشير ـ ضمناً ـ إلى هذه الملاحظة الدقيقة. وهي إنّ الجبريين ينتهون في عقيدتهم إلى القول بـ «التكليف بما لا يطاق» لأنّ الإنسان إذا كان مجبوراً على الذنب من ناحية، وممنوعاً عنه من ناحية أُخرىٰ، فهذا يكون مصداقاً واضحاً للتكليف بما لا يُطاق.[٢]

وقد يتوهّم بعض السذّج من العبارة أعلاه أنّها تعني التفويض المطلق للعباد، فجاءت الآية التالية لتنفي هذا التصور وتضيف: ﴿وما تشاءُون إلّا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

وهذا في الحقيقة إثبات لأصل مشهور هو (الأمر بين الأمرين)، إذ يقول من جهة: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ فعليكم أن تختاروا ما تريدون، ويضيف من جهة أُخرىٰ: ﴿وما تشاءُون إلّا أن يشاء الله﴾ أي ليس لكم لإستقلال الكامل، بل إن قدرتكم واستطاعتكم وحريتكم لا تخرج عن دائرة المشيئة الإلهية، وهو قادر علىٰ أن يسلب هذه القدرة والحرية متىٰ شاء.

من هذا يتّضح أنّه لا جبر ولا تفويض في الأوامر، بل إنّها حقيقة دقيقة وظريفة بين الأمرين، أو بعبارة أُخرىٰ: إنّها نوع من الحرية المرتبطة بالمشيئة الإلهية، إذ يمكن سلبها متىٰ يشاء ليتسنىٰ للعباد تحمل ثقل المسؤولية الذي يعتبر رمزاً للتكامل من جهة، ومن جهة أُخرىٰ أن لا يتوهموا استغنائهم عن الله تعالىٰ.

والخلاصة، أنّ هذه الآية تدعو الانسان إلىٰ أن لا يتوهّم أنّه مستغنٍ عن رعاية الله وتوفيقه. وفي نفس الوقت تؤكد حريته في أعماله وسلوكه.

ويتضح هنا أنّ تمسك بعض المفسّرين القائلين بالجبر كالفخر الرازي بهذه الآية

---

١ ـ عيون أخبار الرضا، نقلاً عن نور الثقلين، المجلد ٤، صفحة ٥٥٥.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٥/٤٢٨ ـ ٤٢٩.

بسبب الخلفيات الذهنية المسبقة في هذه المسألة، فيقول:

واعلم أنّ هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر![١]

نعم، إذا فَصَلنا هذه الآية عن الآيات السابقة فهناك محلّ لهذا الوهم. ولكن بالإلتفات إلىٰ ما ورد من تأثير الإختيار في آية، وفي آية أُخرىٰ تأثير المشيئة الالهية، يتّضح بصورة جيدة مفهوم (الأمر بين الأمرين).

وعجيب أن أنصار التفويض يتمسكون بتلك الآية التي تتحدث عن الإختيار المطلق فقط، وأنصار الجبرية يتمسكون بالآية التي تشير إلىٰ الجبر فقط، ويريد كل منهما تبرير أحكامهم المسبقة بتلك الآية، والحال أنّ الفهم الصحيح للكلام الإلهي (أو أي كلام آخر) يستوجب ضمّ الآيات جنباً إلىٰ جنب، وترك التعصب والقضاء بالأحكام المسبقة.

ولعلّ آخر الآية: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾. يشير حكمه إلىٰ هذا المعنىٰ، لأنّ حكمة الله تستوجب إعطاء الحرية للعباد في سلوك طريق التكامل، وإلّا فإنّ التكامل الإجباري لا يعدّ تكاملاً، بالإضافة إلىٰ أنّ حكمة الله لا تتفق مع فرض الأعمال الخيرة علىٰ أُناس وفرض الأعمال الشريرة علىٰ أُناس آخرين، ثمّ أنّه يثيب الجماعة الأُولىٰ ويعاقب الثانية.[٢]

---

١ ـ تفسير الفخر الرازي ج ٣٠ ص ٢٦٢.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٩/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

١٥٢

هل يتصوّر تضادّ بين فرضيّة التكامل و الإيمان بالله؟

☑ إنّ القرآن قد تناول مسألة خلق الإنسان بشكل مختصر ومكثف تـقريباً، لأنّ الهدف الأساسي من التناول هو الجانب التربوي في الخلق، وورد نظير ذلك في أماكن أُخرىٰ من القرآن، كما في سورة السجدة، والمؤمنون، وسورة ص، وغيرها.

وبما أنّ القرآن الكريم ليس كتاباً للعلوم الطبيعية بقدر ما هو كتاب حياة الإنسان يرسم له فيه أساليب التربية وأسس التكامل. فلا ينتظره منه أن يتناول جزئيات هذه العلوم من قبيل تفاصيل: النمو، التشريح، علم الأجنّة، علم النبات وما شابه ذلك، إلّا أنّه لا يمنع من أن يتطرق بإشارات مختصرة إلىٰ قسم من هذه العلوم بما يتناسب مع البحث التربوي المراد طرحه.

بعد هذه المقدمة نشرع بالموضوع من خلال بحثين:

١ ـ التكامل النوعي من الناحية العلمية.

٢ ـ التكامل النوعي وفق المنظور القرآني.

في البدء، نتناول البحث الأوّل وندرس المسألة وفق المقاييس الخاصة للمعلوم الطبيعية بعيداً عن الآيات والرّوايات:

ثمة فرضيتان مطروحتان في أوساط علماء الطبيعة بشأن خلق الكائنات الحية بما فيها الحيوانات والنباتات:

ألف: فرضية تطوّر الانواع (ترانسفور ميسم) والتي تقول: إنّ الكائنات الحية لم تكن في البداية علىٰ ما هي عليه الآن، وإنّما كانت علىٰ هيئة موجودات ذات خلية واحدة تعيش في مياه المحيطات، وظهرت بطفرة خاصة من تعرقات طين أعماق البحار.

أيْ أنّها كانت موجودات عديمة الروح، وقد تولدت منها أوّل خلية حية نتيجة لظروف خاصّة.

وهذه الكائنات الحية لصغرها لا ترىٰ بالعين المجرّدة وقد مرت بمراحل التكامل التدريجي وتحولت من نوع إلىٰ آخر.

وتمّ انتقالها من البحار إلىٰ الصحاري ومنها إلىٰ الهواء.. فتكونت بذلك أنواع النباتات والحيوانات المائية والبرية والطيور.

وإن أكمل مرحلة وأتمّ حلقة لهذا التكامل هو الإنسان الذي نراه اليوم، الذي تحول من موجودات تشبه القرود إلىٰ القرود التي تشبه الإنسان ثمّ وصل إلىٰ صورته الحالية.

ب ـ فرضية ثبوت الأنواع (فيكنسيسم)، والتي تقول: إنّ أنواع الكائنات الحية منذ بدايتها وما زالت تحمل ذات الأشكال والخواص، ولم يتغير أيٌّ من الأنواع إلىٰ نوع آخر، ومن جملتها الإنسان فكان له صورته الخاصّة به منذ بداية خلقه.

وقد كتب علماء كلا الفريقين بحوثاً مطولة لإثبات عقيدتهم، وجرت مناظرات ومنازعات كثيرة في المحافل العلمية حول هذه المسألة، وقد اشتد النزاع عندما عرض كل من (لامارك) العالم الفرنسي المعروف المتخصص بعلوم الأحياء والذي عاش بين أوخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، و(داروين) عالم الأحياء الإنكليزي الذي عاش في القرن التاسع عشر نظراتهما في مسألة تطوّر

الانواع بأدلة جديدة.

وممّا ينبغي التنوية إليه، هو أنّ معظم علماء اليوم يميلون إلىٰ فريضة تـطوّر أو تكامل الانواع هذه خصوصاً في محافل العلوم الطبيعية.

أدلة القائلين بالتكامل:

يمكننا تلخيص أدلتهم بثلاثة أقسام:

الأوّل: الأدلة المأخوذة من الهياكل العظمية المتحجرة للكائنات الحيّة القـديمة فإن الدراسات لطبقات الأرض المختلفة (حسب اعتقادهم) تُظهر أن الكائنات الحيّة قد تحولت من صور بسيطة إلىٰ أُخرىٰ أكمل وأكثر تعقيداً، ولا يمكن تفسير ما عثر عليه من متحجرات الكائنات الحية إلّا بفرضية التكامل هذه.

الثّاني: مجموع القرائن التي جمعت في (التشريح المقارن).

ويؤكّد هؤلاء العلماء عبر بحوثهم المطولة المفصلة: إنّنا عندما نشرّح الهياكـل العظمية للحيوانات المختلفة ونقارنها فيما بينها، نجد أن ثمّة تشابهاً كبيراً فيما بينها، ممّا يشير إلى أنّها جاءت من أصل واحد.

الثّالث: مجموع القرائن التي حُصِلَ عليها من (علم الأجنَّة).

فيقولون: إنّنا لو وضعنا جميع الحيوانات في حالتها الجنينية ـ قـبل أن تأخـذ شكلهاالكامل ـ مع بعضها، فسنرىٰ أنّ الأجنَّة قبل أن تتكامل في رحم أُمهاتها أو في داخل البيوض تتشابه إلىٰ حد كبير.. وهذا ما يؤكّد علىٰ أنّها قد جـاءت فـي الأصل من شيء واحد.

أجوبة القائلين بثبوت الأنواع:

إلّا أن القائلين بفرضية ثبوت الأنواع لديهم جوابٌ واحد لجميع أدلة القـائلين بالتكامل وهو: أن القرائن المذكورة لا تملك قوّة الإقناع، والذي لا يمكن إنكاره أن

الأدلة الثلاثة توجد في الذهن احتمالاً ظنياً لمسألة التكامل، إلّا أنّها لا تقوىٰ أن تصل إلىٰ حال اليقين أبداً.

وبعبارة أوضح: إنّ إثبات فرضية التكامل وانتقالها من صورة فرض علمي إلىٰ قانون علمي قطعي.. إمّا أن يكون عن طريق الدليل العقلي، أو عن طريق الحس والتجربة والإختيار، ولا ثالث لها.

أمّا الأدلة العقلية والفلسفية فليس لها طريق إلىٰ هذه المسائل كما نعلم، وأما يد التجربة والإختيار فأقصر من أن تمتد إلىٰ مسائل قد امتدت جذورها إلىٰ ملايين السنين.

إنّ ما ندركه بالحس والتجربة لا يتعدىٰ بعض الحالات السطحية، ولفترة زمنية متباعدة، علىٰ شكل طفرة وراثية (موتاسيون) في كل من الحيوان والنبات.

فمثلاً.. نرىٰ أحياناً في نسل الأغنام العادية ولادة مفاجئة لخروف ذي صوف يختلف عن صوف الخراف العادية، فيكون أنعم وأكثر ليناً من العادية بكثير، فيكون بداية لظهور نسل جديد يسمّىٰ (أغنام مرينوس).

أو أنّ حيوانات تحصل فيها الطفرة الوارثية فيتغير لون عيونها أو أظفارها أو شكل جلودها وما شابه ذلك.. لكنّه لم يشاهد لحدّ الآن طفرة تؤدي إلىٰ حصول تغيير مهم في الأعضاء الأصلية لبدن أيّ حيوان، أو يتبدل نوع منها إلىٰ نوع آخر.

بناء علىٰ ذلك.. يمكننا أنْ نتخيل أنّ نوعاً من الحيوان يتحول إلىٰ نوع آخر بطريق تراكم الطفرة الوراثية، كأن تتحول الزواحف الى طيور ولكنّ ذلك ليس سوىٰ حدس و مجرّد تخيل لا غير، ولم نر الطفرات الوارثية قد غيرت عضواً أصلياً لحيوان ما إلىٰ صورة أُخرىٰ.

نخلص ممّا تقدم إلىٰ النتيجة التالية: إن الأدلة التي يطرحها أنصار فرضية (الترانسفور ميسم) لا تتجاوز كونها فرضاً لا غير، لذا نرىٰ أنصارها يعبرون عنها بـ(فرضية تطوّر الانواع) ولم يجرأ أيّ منهم من تسميتها بالقانون أو الحقيقة العلمية.

نظرية التكامل و.. الإيمان بالله:

الكثير ممّن يحاولون تصوير نوع من التضاد بين هذه الفرضية ومسألة الإيمان بالله، ولعل الحق يعطىٰ لهم من جهة، حيث أنّ العقيدة الداروينية في واقعها قد أوجدت حرباً شعواء بين أصحاب الكنيسة من جانب ومؤيدي داروين من جانب آخر، حتىٰ وصل الصراع ذروته بين الطرفين في تلك الفترة بعدما لعب الظرف السياسي وكذا الإجتماعي دورهما (ممّا لا يسع المجال لشرح ذلك هنا)، فكانت النتيجة أن اتهم أصحاب الكنيسة الداروينية بأنّها لا تنسجم مع الإيمان بالله.

وقد كشفت الأيّام عن عدم وجود تضاد بين الأمرين، فإنّنا سواء قبلنا بفرضية التكامل أو نفيناها لفقدانها الدليل، فلا يمنع من الإيمان بالله بكلا الإحتمالين.

فإذا قبلنا بالفرضية فلكونها قانوناً علمياً مبنياً علىٰ العلة والمعلول، ولا فرق في العلاقة بين العلة والمعلول في عالم الكائنات الحية وبقية الموجودات، فهل يعتبر اكتشاف العلل الطبيعية من قبيل نزول الأمطار، المد والجزر في البحار، الزلازل وما شابهها، مانعاً من الإيمان بالله؟ الجواب بالنفي قطعاً. إذن فاكتشاف وجود رابطة وعلاقة تكاملية بين أنواع الموجودات الحية لا يؤدي إلىٰ تعارض مع مسألة الإيمان بالله كذلك.

إذن، فالأشخاص الذين يتصورون أن كشف العلل الطبيعية ينافي الإيمان بوجود الله هم الذين يذهبون هذا المذهب وإلّا فإنّ كشف هذه العلل ليس ـ فقط ـ لا يتعارض مع التوحيد، وإنّما سيعطينا أدلة جديدة من عالم الخليقة لإثبات وجوده سبحانه وتعالىٰ.

وممّا ينبغي ذكره: أنّ داروين قد تبرأ من تهمة الإلحاد وصرح في كتابه (أصل الأنواع) قائلاً: إنّني مع قبولي لتكامل الأنواع فإنّي اعتقد بوجود الله، واساساً فإنّه بدون الاعتقاد بوجود الله لا يمكن توجيه مسألة التكامل.

وقد كُتب عن داروين بما نصه: (إنّه بقي مؤمناً باللّه الواحد رغم قبوله بـالعلل الطبيعية في ظهور الأنواع المختلفة من الأحياء، وقد كان إحساسه بـوجود قـدرة مافوق البشر يشتد في أعماقه كلما تقدم في السن، معتبراً أن لغز الخلق يبقىٰ لغزاً محيراً للإنسان)(١).

كان يعتقد أن توجيه هذا التكامل النوعي المعقد والعجيب، وتحويل كائن حي بسيط جدّاً إلىٰ كل هذه الأنواع المختلفة من الأحياء لا يتمّ إلّا بوجود خطة دقيقة يضعها ويسيرها عقل كلي.

وهو كذلك.. إذ كيف يمكن إيجاد كل هذه الأنواع العجيبة والمحيرة والتي لكل منها تفصيلات وشؤون واسعة، من مادة واحدة بسيطة جداً وحقيرة.. كيف يـمكن ذلك بدون الإستناد علىٰ علم وقدرة مطلقين؟!

النتيجة: إنّ الضجّة المفتعلة في وجود تضاد بين عقيدة التكامل النـوعي وبـين مسألة الإيمان باللّه إنّما هي بلا أساس وفاقدة للدليل (سواء قبلنا بالفرضية أو لم نقبلها).

تبقىٰ أمامنا مسألة جديرة بالبحث وهي: هل أنّ فرضية تطور الأنواع تتعارض مع ما ذكره القرآن حول قصة خلق آدم، أو لا؟(٢) و سنتعرّض لهـا فـي السـؤال الآتي(٣).

١ ـ الداروينية، تأليف محمود بهزاد، الصفحة ٧٥ و ٧٦.

٢ ـ تفسير الامثل:

٣ ـ تفسير الأمثل: ٧١/٨.

١٥٣

هل يتصوّر تضادّ بين فرضيّة التكامل النوعي وما نطق به القرآن في خلق آدم؟

☑ الجدير بالذكر أن كلاً من مؤيدي ومنكري فرضية التكامل النوعي ـ نعني المسلمين منهم ـ قد استدل بآيات القرآن الكريم لإثبات مقصوده، ولكنّهما في بعض الأحيان وتحت تأثير موقفهما قد استدلا بآيات لا ترتبط بمقصودهما إلّا من بعيد، ولذلك سنتطرق إلىٰ الآيات القابلة للبحث والمناقشة.

أهم آية يتمسك بها مؤيدو الفرضية، الآية الثّالثة والثلاثون من سورة آل عمران ﴿إنّ اللّه اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم، وآل عمران علىٰ العالمين﴾.

فيقولون: كما أنّ نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران كانوا يعيشون ضمن أُممهم فاصطفاهم اللّه من بينهم فكذلك آدم، أي ينبغي أنّه كان في عصره وزمانه أناس باسم «العالمين» فاصطفاه اللّه من بينهم، وهذا يشير إلىٰ أن آدم لم يكن أوّل إنسان علىٰ وجه الأرض، بل كان قبله أناس آخرون، ثمّ امتاز آدم من بينهم بالطفرة الفكرية والروحية فكانت سبباً لاصطفائه من دونهم.

هذا وذكروا آيات أُخر ولكنّها من حيث الأصل لا ترتبط بمسألة البحث، ولا

يعدو تفسيرها بالتكامل أن يكون تفسيراً بالرأي، وبالبعض الآخر مع كونه ينسجم مع التكامل النوعي إلّا أنّه ينسجم مع الثبوت النوعي والخلق المستقل لآدم كذلك، ولهذا ارتأينا صرف النظر عنها.

أمّا ما يؤخذ علىٰ هذا الإستدلال فهو أنّ كلمة «العالمين» إنْ كانت بمعنىٰ الناس المعاصرين لآدم عليه السلام وأنّ الإصطفاء كان من بينهم، كان ذلك مقبولاً، أمّا لو اعتبرنا «العالمين» أعم من المعاصرين لآدم، حيث تشمل حتىٰ غير المعاصرين، كما روي في الحديث المعروف عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في فضل فاطمة عليها السلام حيث قال: «**أمّا إبنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين**»، ففي هذه الحال سوف لا تكون لهذه الآية دلالة علىٰ مقصودهم، وهو شبيه بقول قائل: إنّ اللّه تعالىٰ اصطفىٰ عدّة أشخاص من بين الناس جميعاً في كل القرون والأزمان، وآدم عليه السلام أحدهم، وعندها سوف لا يكون لازماً وجود أناس في زمان آدم كي يطلق عليهم اسم «العالمين» أو يصطفي آدم من بينهم، وخصوصاً أن الإصطفاء إلهي، واللّه عزّوجلّ مطلع علىٰ المستقبل وعلىٰ كافة الأجيال في كل الأزمان[1].

وأمّا مؤيدو ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآيات مورد البحث وما شابهها، حيث نقول إن اللّه تعالىٰ خلق الانسان من تراب من طين متعفن.

ومن الملفت للنظر أن هذا التعبير قد ورد في صفة خلق «الإنسان» ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأٍ مسنون**﴾ ـ الآية السادسة والعشرون من سورة الحجر ـ وأيضاً في صفة خلق «البشر» ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون**﴾ ـ الآية الثامنة والعشرون من سورة الحجر ـ وفي مسألة سجود الملائكة بعد خلق شخص آدم أيضاً (لاحظ الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة الحجر).

---

١ ـ وهناك احتمال آخر وهو: أن اصطفاء آدم من بين أولاده بعد أن مرّت عليهم مدّة ليست بالطويلة فتشكل من بينهم مجتمع صغير.

عند الملاحظة الأُولىٰ للآيات يظهر أن خلق آدم كان من الحمأ المسنون أوّلاً، ومن ثمّ اكتملت هيئته بنفخ الروح الإلٰهية فيه فسجد له الملائكة إلّا إبليس.

ثمّ إنّ أُسلوب تتابع الآيات لا ينم عن وجود أيٍّ من الأنواع الأُخرىٰ منذ أن خلق آدم من تراب حتىٰ الصورة الحالية لبنيه.

وعلى الرغم من استعمال الحرف «ثمّ» في بعض من هذه الآيات لبيان الفاصلة بين الأمرين، إلّا أنّه لا يدل أبداً علىٰ مرور ملايين السنين ووجود آلاف الأنواع خلال تلك الفاصلة.

بل لا مانع إطلاقاً من كونه إشارة إلىٰ نفس مرحلة خلق آدم من الحمأ المسنون، ثمّ مرحلة خلقه من الصلصال، فخلق بدن آدم، ونفخ الروح فيه.

وذلك ما ملاحظه في استعمال «ثمّ» في مسألة خلق الإنسان في عالم الجنين والمراحل التي يطويها.. **﴿يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة... ثمّ نخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدكم﴾**[١].

فهذه الآية المباركة تدلل علىٰ أن استعمال «ثم» يعبر عن وجود فاصلة ليس من الضروري أن تكون طويلة، فيمكن كونها فاصلة طويلة أو قصيرة.

وخلاصة ما ذكر: أن الآيات القرآنية وإن لم تتطرق مباشرة لمسألة التكامل النوعي أو ثبوت الأنواع، لكنّ ظاهرها (في خصوص الإنسان) ينسجم مع مسألة الخلق المستقل، وإنْ لم يكن بالتصريح المفصل، لأنّ أكثر ما يدور ظاهر الآيات حول الخلق المستقل المباشر، أمّا ما يتعلق بخلق سائر الأحياء (من غير الإنسان) فقد سكت القرآن عنه.[٢]

---

١ ـ سورة الحج، ٥.

٢ ـ الأمثل: ٨/٧١ ـ ٧٩.

١٥٤

ماهي حقيقة الرؤيا؟

☑ يلزمنا هنا أن نبيّن النظرات المختلفة في حقيقة الرؤيا، ونشير إليها بأسلوب مكثف مضغوط.

والتفاسير في حقيقة الرؤيا كثيرة ويمكن تصنيفها الى قسمين هما:

١ ـ التّفسير المادي ٢ـ التّفسير المعنوي

١ـ التّفسير المادي:

يقول الماديون: يمكن أن تكون للرؤيا عدّة علل:

ألف: قد تكون الرؤيا نتيجة مباشرة للأعمال اليومية، أي أنّ ما يحدث للإنسان في يومه قد يراه في منامه.

ب ـ وقد تكون الرؤيا عبارة عن سلسلة من الأماني، فيراها الإنسان في النوم كما يرى الظمآن في منامه الماء، أو أن إنساناً ينتظر مسافراً فيراه في منامه قادماً من سفره.

ج ـ وقد يكون الباعث للرؤيا الخوف من شيءٍ ما، وقد كشفت التجارب أن

الذين يخافون من لص يرونه في النوم.

أمّا فرويد وأتباعه فلديهم مذهب خاص في تفسير الأحلام، إذ أنّهم بعد شرح بعض المقدمات يقولون: إنّ الرؤيا عبارة عن إرضاء الميول المكبوتة التي تحاول الظهور على مسرح الوعي بعد تحويرها وتبدّلها في عملية خداع الأنا.

ولزيادة الإيضاح يقولون: ـ بعد قبول أن النفس البشرية مشتملة على قسمين «الوعي» وهو ما له ارتباط بالأفكار اليومية والمعلومات الإرادية والإختيارية للإنسان، و«اللّاوعي» وهو ما خفي في باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق ـ فكثيراً ما يحدث أن تكون لنا ميول لكننا لم نستطع إرضاءها ـ لظروف ما ـ فتأخذ مكانها في ضمير الباطن: وعند النوم حين يتعطل جهاز الوعي تمضي في نوع من إشباع التخيل الى الوعي نفسه، فتنعكس أحياناً دون تغيير [كمثل العاشق الذي يرى في النوم معشوقته] وأحياناً تتغير أشكالها وتنعكس بصور مناسبة، وفي هذه الحالة تحتاج الرؤيا الى تعبير.

فعلى هذا تكون الأحلام مرتبطة بالماضي دائماً ولا تخبر عن المستقبل أبداً، نعم يمكن أن تكون وسيلة جيدة لقراءة «ضمير اللاوعي!».

ومن هنا فهم يستعينون لمعالجة الأمراض النفسيّة المرتبطة بضمير «اللاوعي» باستدراج أحلام المريض نفسه.

ويعتقد بعض علماء التغذية أنّ هناك علاقة بين الرؤيا وحاجة البدن للغذاء، فمثلاً لو رأى الإنسان في نومه دماً يقطر من أسنانه، فتعبير ذلك أنّ بدنه يحتاج الى فيتامين (ث) وإذا رأى في نومه أن شعر رأسه صار أبيضاً، فمعناه أنّه مبتلى بنقص فيتامين (ب).

٢ ـ التّفسير المعنوي

وأمّا الفلاسفة الميتافيزقيون فلهم تفسير آخر للرؤيا، حيث يقولون: إنّ الرؤيا والأحلام على أقسام:

١ ـ الرّؤيا المرتبطة بماضي الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢ ـ الرؤيا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال (وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسي.

٣ ـ الرّؤيا المرتبطة بالمستقبل والتي تخبر عنه.

وممّا لا شك فيه أنّ الأحلام المتعلقة بالحياة الماضية وتجسّد الأُمور التي رأها الإنسان في طول حياته ليس لها تعبير خاص ... ومثلها الأطياف المضطربة أو ما تسمىٰ بأضغاث أحلام التي هي افرازات الأفكار المضطربة، كالأطياف التي تمرّ بالإنسان وهو في حال الهذيان أو الحمّى، فهي ـ أيضاً ـ لا يمكن أن تكون تعبيراً عن مستقبل الحياة ... ولهذا فإنّ علماء النفس يستفيدون من هذه الأحلام ويتخذونها نوافذ للدخول الى ضمير اللّاوعي في البشر، ويعدّونها مفاتيح لعلاج الأمراض النفسيّة، ويكون تعبير الرؤيا عند هؤلاء لكشف الأسرار النفسية وأساس الأمراض، لا لكشف حوادث المستقبل في الحياة!

أمّا الاحلام المتعلقة بالمستقبل فهي على نحوين:

قسم منها أحلام واضحة وصريحة لا تحتاج الى تعبير ... وأحياناً تتحقق بشكل عجيب في المستقبل القريب أو البعيد دون أي تفاوت.

وهناك قسم آخر من هذه الأحلام التي تتحدث عن المستقبل، ولكنّها في الوقت ذاته غير واضحة، وقد تغيّرت نتيجة العوامل الذهنية والروحيّة الخاصّة فتحتاج الى تعبير.

ولكل من هذه الأحلام نماذج ومصاديق كثيرة، ولا يمكن إنكارها جميعاً، لأنّها لا في المصادر المذهبية أو الكتب التأريخية ـ فحسب ـ بل تتكرر في حياتنا أو حياة من نعرفهم بشكل لا يمكن عدّه من باب المصادفات والإتفاقات!.[١]

---

١ ـ الأمثل: ١٢٩/٧ ـ ١٣١.

١٥٥

ماهو المقصود من سنن الله الثابتة؟

في سورة الأحزاب الآية ٦٢ ﴿سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ ذكر القرآن أنّ إحدى سنن الله التي لا تقبل التغيير هي إقتلاع جذور التآمر بهجوم عامّ، وقد كانت هذه السنّة جارية في الأُمم السابقة.

وقد ورد نظير هذا التعبير في مواضع أُخرى من القرآن، ومن جملتها ما ورد في الآية (٣٨) من سورة الأحزاب هذه، فبعد أن أجاز سبحانه مخالفة سنّة جاهلية خاطئة وإلغاءها في مسألة مطلقة الابن بالادّعاة، يقول: ليس للنبي أيّ ذنب إذا ما نفّذ أوامر الله مهما كانت.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾.

وفي الآية (٤٣) من سورة فاطر، وبعد أن هدّد الكافرين والمجرمين بالفناء والهلاك، يقول سبحانه: ﴿فهل ينظرون إلّا سنّة الأوّلين فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾.

وفي الآية (٨٥) من سورة غافر، وبعد أن صرّح بأنّ إيمان الكفّار العنودين من الأقوام الماضين عند مشاهدتهم عذاب الإستئصال لم ينفعهم شيئاً، يضيف: ﴿سنّة الله

التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾.

وفي الآية (٢٣) من سورة الفتح، وبعد أن ذكر إنتصار المؤمنين وهزيمة الكفّار في الحروب، وأن ليس لهم ولي ولا نصير، يضيف: **﴿سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾.**

وكذلك في الآية (٧٧) من سورة الإسراء عندما يبيّن مؤامرة إبعاد النّبي أو قتله، يضيف: **﴿وإذاً لا يلبثون خلافك إلّا قليلاً سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾.**

يستفاد من مجموع هذه الآيات جيّداً أنّ المراد من السنّة في مثل هذه الموارد: القوانين الإلهيّة الثابتة والأساسية، سواء التكوينية منها أم التشريعية، التي لا تتغيّر مطلقاً.

وبتعبير آخر: فإنّ لله سبحانه في عالم التكوين والتشريع قوانين وأُصولاً ثابتة، كالقوانين الأساسية والدساتير المسنونة بين شعوب العالم والتي لا تتبدّل، ولا تكون عرضةً للتغيير، وهذه القوانين الإلهية كانت حاكمة على الأقوام الماضين، وتحكّمنا اليوم، وستكون حاكمة في المستقبل على الأجيال الآتية.

إنّ نصرة النّبي، وهزيمة الكفّار، ووجوب تنفيذ أوامر الله والعمل بموجبها، حتّى وإن أدّت إلى إثارة سخط الناس وعدم رضاهم، عدم جدوى التوبة حين نزول العذاب الإلهي، وأمثال ذلك هي جزء من هذه السنن الخالدة.[١]

---

١ ـ الأمثل: ١٣/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

١٥٦

هل أنّ إصابة العين لها حقيقة؟

نقرأ في سورة القلم الآية ٥١ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ...﴾ هنا يطرح سؤال: هل إنّ اصابة العين لها حقيقة؟

☑ يعتقد الكثير من الناس أنّ لبعض العيون آثاراً خاصّة عندما تنظر لشيء بإعجاب، إذ ربّما يترتّب على ذلك الكسر أو التلف، وإذا كان المنظور إنساناً فقد يمرض أو يجنّ ..

إنّ هذه المسألة ليست مستحيلة من الناحية العقلية، حيث يعتقد البعض من العلماء المعاصرين بوجود قوّة مغناطيسية خاصّة مخفية في بعض العيون بإمكانها القيام بالكثير من الأعمال، كما يمكن تدريبها وتقويتها بالتمرين والممارسة، ومن المعروف أنّ «التنويم المغناطيسي» يكون عن طريق هذه القوّة المغناطيسية الموجودة في العيون.

إنّ (أشعة ليزر) هي عبارة عن شعاع لا مرئي يستطيع أن يقوم بعمل لا يستطيع أي سلاح فتّاك القيام به، ومن هنا فإنّ القبول بوجود قوّة في بعض العيون تؤثّر على

الطرف المقابل، وذلك عن طريق أمواج خاصّة ليس بأمر مستغرب.

ويتناقل الكثير من الأشخاص أنّهم رأوا بأمّ أعينهم أشخاصاً لهم هذه القوّة المرموزة في نظراتهم، وأنّهم قد تسبّبوا في إهلاك آخرين (أشخاص وحيوانات وأشياء) وذلك بإصابتهم بها.

لذا فلا ينبغي الإصرار على إنكار هذه الأُمور. بل يجدر تقبّل إحتمال وجود مثل هذا الأمر من الناحية العقلية والعلمية.

كما جاء في بعض الرّوايات الإسلامية ـ أيضاً ـ ما يؤيّد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية كما في الرواية التالية: «إنّ أسماء بنت عميس قالت: يارسول الله إنّ بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقه العين». (المقصود من (الرقية) هي الأدعية التي يكتبونها ويحتفظ بها الأشخاص لمنع الإصابة بالعين ويقال لها التعويذة أيضاً)[١].

وجاء في حديث آخر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: النّبي رقى حسناً وحسيناً فقال: «أُعيذكما بالكلمات التامّة وأسمائه الحسنى كلّها عامّة، من شرّ السامّة والهامّة، ومن شرّ كلّ عين لامّة، ومن شرّ حاسد إذا حسد» ثمّ التفت النّبي إلينا فقال: هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق[٢].

وجاء في نهج البلاغة أيضاً: «العين حقّ، والرقى حقّ»[٣] [٤].

---

١ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٤١.

٢ ـ نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠٠.

٣ ـ نهج البلاغة، من الكلمات القصار جملة (٤٠٠)، (نقل هذا الحديث أيضاً في صحيح البخاري، ج ٧، ص ١٧١ باب (العين حقّ) ولما ذكرناه فالعين حقّ) وكذلك في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي)، كما نقل هذا المعنى من منابع مختلفة ج ٤، ص ٤٥١.

٤ ـ الأمثل: ١٨/٥٦٢ ـ ٥٦٣.

١٥٧

هل للتفاؤل والتشاؤم (الفأل والطيرة) حقيقة؟

مسألة التطيّر والتفاؤل والتشاؤم قد تكون منتشرة في مختلف المجتمعات البشرية، فيتفاءلون بأُمور وأشياء ويعتبرونها دليل النجاح، ويتشاءمون بأمور وأشياء ويعتبرونها آية الهزيمة والفشل. في حين لا توجد أية علاقة منطقية بين النجاح والإخفاق وبين هذه الأُمور، وبخاصّة في مجال التشاؤم حيث كان له غالباً جانب خرا في غير معقول.

إنّ هذين الأمرين وإن لم يكن لهما أي أثر طبيعي إلّا أنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسي لا ينكر، وإنّ التفاؤل غالباً يوجب الأمل والتحرك، والتشاؤم يوجب اليأس والوهن والتراجع.

ولعله لأجل هذا لم يُنْه في الرّوايات والأحاديث الإسلامية عن التفاؤل، بينما نهي عن التشاؤم بشدّة، ففي حديث معروف مروي عن النّبيﷺ قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه» وقد شوهد في أحوال النّبي الأكرمﷺ الهداةعليهم السلام ـ أنفسهم ـ أنّهم ربّما تفاءلوا بأشياء، مثلاً عندما كان المسلمون في «الحديبية» وقد منعهم الكفار من لدخول إلى مكّة جاءهم «سهيل بن عمرو» مندوب من قريش، فلمّا علم النّبيﷺ

بإسمه قال متفاءلاً باسمه: «قد سهل عليكم أمركم»[١].

وقد أشار العالم المعروف «الدميري» وهو من كتّاب القرن الثامن الهجري، في إحدى كتاباته إلى نفس هذا الموضوع، وقال: إنّما أحب النّبيﷺ الفأل لأنّ الإنسان إذا أمل فضل الله كان على خير، وإن قطع رجاءه من الله كان على شر، والطيرة فيها سوء ظن وتوقع للبلاء[٢].

ولكن في مجال التشاؤم الذي يسمّيه العرب «التطير» و«الطيرة» ورد في الأحاديث الإسلامية ـ كما أسلفنا ـ ذم شديد، كما أُشير إليه في القرآن الكريم مراراً وتكراراً أيضاً، وشجب بشدّة[٣].

ومن جملة ذلك ما روي عن النّبيﷺ أنّه قال: «الطيرة شرك»[٤] وذلك لأن من يعتقد بالطيرة كأنّه يشركها في مصير الإنسان.

وتشير بعض الأحاديث أنّه إذا كان للطيرة أثر سيء فهو الأثر النفسي، قال الإمام الصادقعليه السلام: **«الطيرة على ما تجعلها، إن هونتها تهونت، وإن شددتها تشدّدت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً»**[٥].

وورد أنّ طريقة مكافحة الطيرة تتمثل في عدم الإعتناء بها. فقد روي عن النّبيﷺ أنّه قال: **«ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن. قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض (أي لا تعتنِ بها) وإذا حسدت فلا تبغ (أي لا تعمل بوحي منه شيئاً) وإذا ظننتَ فلا تحقق»**.

---

١ ـ الميزان، المجلد ١٩، الصحفة ٨٦.

٢ ـ سفينة البحار، المجلد الثاني، الصفحة ١٠٢.

٣ ـ مثل سورة «يس» الآية (١٩)، وسورة النمل الآية (٤٧)، والآية المطروحة على بساط البحث هنا.

٤ ـ الميزان في ذيل الآية المبحوثة هنا.

٥ ـ الميزان، في ذيل الآية المبحوثة هنا.

والعجيب أنّ مسألة الفأل والطيرة كانت ولا تـزال مـوجودة حـتى فـي البـلاد الصناعية المتقدمة، وفي أوساط من يسمّون بالمثقفين، بل وحتى النوابغ المعروفين، ومن جملتها: يعتبر المرور من تحت السلم عند الغربيين ـ وسقوط المملحة، وإهداء سكين، أموراً يتشاءم بها بشدّة.

على أنّ وجود الفأل الجيد ـ كما قلنا ـ ليس مسألة مهمّة، بل لها غـالباً آثـارٌ حسنة طيبة، ولكن يجب مكافحة عوامل التشـاؤم وفكـرة الطـيرة، ونـبذها مـن الأذهان، وأفضل وسيلة لمكافحتها هي تقوية روح التوكل، والثقة بالله والإعـتماد عليه كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الإسلامية.[١]

---

١ ـ الأمثل: ١٧٣ ـ ١٧٥ .

١٥٨

هل يتعارض القصاص مع العقل والعواطف الإنسانية؟

ثمّة فئة يحلو لها أن توجه إلى الإسلام ـ دون تفكير ـ إعتراضات وكثير شبهات، خاصة بالنسبة لمسألة القصاص. يقول:

١ ـ الجريمة لا تزيد علىٰ قتل إنسان واحد، والقصاص يؤدّي إلى تكرار هـذا العمل الشنيع.

٢ ـ القصاص ينمّ عن روح الإنتقام والتشفّي والقسوة، ويجب إزالة هذه الروح عن طريق التربية، بينما يعمّق القصاص هذه الروح.

٣ ـ القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لابدّ أن يكون القاتل مصاباً بمرض نفسي، ويجب علاجه، والقصاص ليس بعلاج.

٤ ـ قوانين النظام الإجتماعي يجب أن تتطور مع تطور المـجتمع. ولا يـمكن لقانون سُنّ قبل أربعة عشر قرناً أن يطبق اليوم.

٥ ـ من الأفضل الإستفادة من القاتل بتشغيله في معسكرات العمل الإجـباري، وبذلك نستفيد من طاقاته ونصون المجتمع من شروره.

هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعتراضات.

☑ لو أمعنا النظر في آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب علىٰ كل هذه الإعتراضات: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

فالحياة الإجتماعية لا يمكن أن تطوي مسيرتها الحياتية التكاملية، دون إقتلاع العوامل المضرّة الهدامة فيها. ولما كان القصاص في هذه المواضع يضمن استمرار الحياة والبقاء، فإن الشعور بضرورة القصاص أودع علىٰ شكل غريزة في وجود الإنسان.

أنظمة الطب والزراعة والرعي قائمة علىٰ أساس هذا الأصل العقلي، وهو إزالة الموجودات المضرة الخطرة. فنرى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطورة علىٰ بقية أعضاء الجسد، وتقتلع النباتات والأغصان المضرة من أجل استمرار نمو النباتات المفيدة بشكل صحيح.

أُولئك الذين يرون في الإقتصاص من القاتل قتلاً لشخص آخر، ينظرون إلى المسألة من منظار فردي. ولو أخذوا بنظر الإعتبار مصلحة المجتمع، وعلموا ما في القصاص من دور في حفظ سائر أفراد المجتمع وتربيتهم، لأعادوا النظر في أقوالهم.

إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضو الفاسد من جسد الإنسان، وكقطع الغصن المضر من الشجرة. ولا أحد يعترض علىٰ قطع ذلك العضو وهذا الغصن. هذا بشأن الإعتراض الأول.

وبالنسبة إلى الإعتراض الثاني، لابدّ من الإلتفات إلى أن تشريع القصاص لا إرتباط له بمسألة الإنتقام. لأن الهدف من الإنتقام إطفاء نار الغضب المتأججة لمسألة شخصية، بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون استمرار الظلم في المجتمع، وحماية سائر الأبرياء.

وبشأن الإعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسياً، ولا تصدر هذه الجريمة من إنسان طبيعي، لابدّ أن نقول: هذا الكلام صحيح في بعض المواضع، والإسلام لم يشرع حكم القصاص للقاتل المجنون وأمثاله، ولكن لا يمكن اعتبار المرض عذراً

لكل قاتل، إذ لا يخفي ما يجرّ إليه ذلك من فساد، ومن تشجيع القتلة علىٰ إرتكاب جرائمهم.

ولو صح هذا الإستدلال بالنسبة للقاتل لصح أيضاً بشأن جميع المعتدين علىٰ حقوق الآخرين. لأن الإنسان العاقل المعتدل لا يعتدي إطلاقاً علىٰ الآخرين. وبذلك يجب حذف كل القوانين الجزائية، ويجب إرسال المعتدين والمجرمين إلى مستشفيات الأمراض النّفسية بدل السجون.

أمّا ادعاء عدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسبب تطور المجتمع، وبسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعة الي ترتكب في عصرنا الراهن، وأمام التجاوزات الوحشية التي تنتشر في بقاع مختلفة من عالمنا بسبب الحروب وغير الحروب.

ولو أُتيح للبشرية أن تقيم مجتمعاً إنسانياً متطوراً تطوراً حقيقياً، فإن مثل هذا المجتمع يستطيع أن يلجأ إلى العفو بدل القصاص، فقد أقرّ الإسلام ذلك، ومن المؤكد أن المجتمع المتطور في آفاقه الإنسانية سيفضّل عفو القاتل. أمّا في مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفظع الجرائم تحت عناوين مختلفة، فإن إلغاء قانون القصاص لا يزيد في جرائم المجتمع إلّا اتساعاً وضراوة.

وحول حفظ القتلة في السجون، فإن هذه العملية لا تحقق هدف الإسلام من القصاص. فالقصاص ـ كما ذكرنا ـ يستهدف حفظ حياة المجتمع، والحيلولة دون تكرار القتل والجريمة. السجون وأمثالها لا تستطيع أن تحقق هذا الهدف (خاصة السجون الحالية التي هي أفضل من أكثر بيوت المجرمين). ولا أدل علىٰ ذلك من ارتفاع إحصائيات جرائم القتل خلال فترة قصيرة، في البلدان التي ألغت حكم الإعدام. ولو كانت أحكام السجن عرضة للتقلّص بسبب أحكام العفو ـ كما هو سائد اليوم ـ فإن المجرمين يعمدون إلى إرتكاب جرائمهم دون تخوّف أو تردّد.[١]

---

١ ـ الأمثل: ١/٥٠٨ ـ ٥١٠.

١٥٩

أليست عقوبة قطع اليد نوعاً من العنف؟

☑ الذي يستفاد من مجموع الروايات الإسلامية هو أن تنفيذ هذا الحد الإسلامي (أي قطع اليد) مقيد بشروط كثيرة، لا يجوز ـ بدون تحققها ـ المباشرة بإجراء الحدّ، ومن هذه الشروط.

١ ـ أن يكون الحدّ الأدنى لثمن الشيء المسروق مبلغ ربع دينار[١].

٢ ـ أن تتمّ السرقة من مكان محفوظ، أي أن تكون من دار أو محل للكسب أو من جيوب ومخابىء داخلية.

٣ ـ أن لا تكون السرقة في زمن الجفاف أو المجاعة التي يعاني الناس فيها من الجوع لعدم حصولهم على المواد الغذائية.

٤ ـ أن يكون السارق ـ أثناء ارتكابه لجريمة السرقة ـ بالغاً عاقلاً حر الإرادة.

٥ ـ لا يطبق حدّ السرقة في حالة سرقة الأب من مال ولده، أو الشريك من مال

---

١ ـ الدينار الوارد في هذا الحكم يبلغ مثقالاً شرعياً من الذهب المسكوك ويعادل ثمانية عشر حبة أي ثلاثة أرباع المثقال المتعارف.

شريكه المخصوص بالشركة.

٦ ـ وقد استثنيت الفاكهة المسروقة من البساتين من حدّ السرقة.

٧ ـ كما استثنيت من ذلك حالة اشتباه السارق بين ماله ومال غيره.

وهناك شروط أُخرىٰ تطرقت إليها كتب الفقه في باب السرقة.

ويجب هنا التأكيد على أنّ السرقة حرام سواء تحققت الشروط المذكورة أعلاه فيها أو لم تتحقق، وأما هذه الشروط فهي مختصة بموضوع الحدّ والعقوبة الخاصّة بالسرقة.

والسّرقة بأي شكل حصلت، ومهما كان مبلغ وثمن الشيء المسروق، حرام في الإسلام.

المقدار الذي يجب قطعه من يد السّارق:

لقد اشتهر لدى فقهاء الشيعة ـ استناداً على روايات أهل البيت عليهم السلام ـ أنّ حدّ السرقة يتحقق بقطع أربع من أصابع يد السارق اليمنى فقط دون زيادة، بينما قال فقهاء السنّة بأكثر من ذلك.

حدّ السرقة وأقاويل اعداء الإسلام:

كثيراً ما كرر أعداء الإسلام أو حتى بعض المسلمين من الذين يجهلون أسرار التشريع الإسلامي، أنّ هذه العقوبة الإسلامية تتسم بالعنف الشديد، وأنّها لو نفذت في عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أيدي الكثير من الناس، وإن هذا سيؤدي بالإضافة إلى حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسة سيؤدي إلى فضيحة الفرد طيلة حياته بسبب الأثر البارز الذي يخلفه حد السرقة مدى العمر.

وللردّ على هذا الإعتراض يجب الإنتباه إلى الحقيقة التالية:

أوّلاً: لقد بيّنا فيما سبق أن حكم السرقة ـ وفق الشروط التي ذكرناها ـ لا يشمل

كل سارق، فهذا الحكم يشمل فقط تلك المجموعة من السراق الذين يشكلون خطراً على المجتمع.

ثانياً: إنّ إحتمال تنفيذ عقوبة السرقة يقل نظراً للشروط الخاصّة التي يجب توفرها حتى تثبت الجريمة علىٰ المتهم بالسرقة.

ثالثاً: إنّ أكثر الإعتراضات التي يوردها الأفراد الذين يجهلون أو الذين لا يعرفون الكثير عن القوانين الإسلامية، منشؤها النظرة الآحادية الجانب التي يرون ويبحثون بها الحكم الإسلامي بعيداً عن الأحكام الأخرى، أي أنّهم يفترضون هذا الحكم في مجتمع بعيد كل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أنّ الإسلام ليس حكماً واحداً فقط، بل يشتمل على مجموعة كبيرة من الأحكام لو طبقت في مجتمع معين لأدت إلى تحقيق العدالة الإجتماعية ومكافحة الفقر والجهل، ولأدت إلى تحقيق التعليم والتربية الصحيحين، ولنشرت الوعي والورع والتقوى بين الناس، وبهذا يتّضح لنا ندرة احتمال بروز حوادث تحتاج إلى تطبيق هذا الحكم أو العقوبة الإسلامية.

ويجب أن لا يجرنا هذا القول إلى الوهم بأنّ هذا الحكم الإسلامي لا يجب تطبيقه في المجتمعات المعاصرة، بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ كل الشروط المذكورة بنظر الإعتبار اثناء إصدار الحكم في هذا المجال.

وخلاصة القول: إنّ الحكومة الإسلامية مكلّفة بأن توفر لكل أفراد الأُمّة احتياجاتها الأولية وأن توفر لهم التعليم اللازم، وتربي فيهم الملكات والخصال الفاضلة الخيرة، وتحسن إعدادهم من الناحية الأخلاقية، وطبيعي أنّه إذا حصل هذا الأمر فلا يظهر في محيط كهذا إلّا القليل النادر ممن يرتكبون مخالفة أو جريمة.

رابعاً: إنّ ما نلاحظه اليوم من ارتفاع في عدد السرقات ناجم عن عدم تطبيق هذا الحكم الإسلامي، بينمايندر في البيئات التي تطبق هذا الحكم بروز مثل هذه الحوادث، فهي تتمتع بوضع أمني جيد فيما يخص حماية أموال الناس، فزوار بيت

الله الحرام كثيراً ما تركوا حقائبهم في الأزقة والطرقات دون عين تحرسها فلم يجرؤ أحد على مد يده إليها الىٰ أن يأتي موظفو ادارة المفقودات ويحملوها الى الادارة حتىٰ يأتي صاحبها ويستردها بعد ذكر العلامات الخاصّة. وأغلب المحلات تفتقد إلى الأبواب والأوصدة الكافية. وفي هذا الحال لا تمتد يد سارق نحوها. أو يكونوا فقدوا شيئاً ثمّ راجعوا لذلك إدارة المفقودات فوجده عندها.

والأمر الملفت للنظر هو أن هذا الحكم الإسلامي وعلى الرغم من تطبيقه لعدّة قرون، حيث كان المسلمون ومنذ عصر صدر الإسلام يعيشون آمنين مطمئنين في ظله. فهو لم ينفذ طيلة تلك الفترة إلّا بحق عدد قليل من الأفراد.

فهل يعتبر قطع عدد من الأيدي الآثمة لكي ينعم المجتمع لقرون عديدة بالأمن ثمناً غالياً لهذا الأمن؟!

يقول البعض: إنّ تنفيذ حدّ أو عقوبة السرقة في سارق من أجل ربع دينار يعتبر منافياً للإحترام الفائق الذي يفرضه الإسلام لحياة الإنسان المسلم وحمايتها من كل خطر. بحيث أنّ الإسلام فرض دية باهظة مقابل قطع أربعة أصابع من يد أي إنسان، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلى العالم الإسلامي الكبير الشريف المرتضى علم الهدى قبل حوالي ألف سنة. وجاء السؤال في البيت التالي: ـ

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار؟[1]

فأجاب السّيد المرتضى رحمة الله ببيت آخر هو:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذل الخيانة فافهم حكمة الباري[2][3]

---

١ ـ يجب الإنتباه إلى أن الخمسمائة دينار إنّما تدفع دية قطع خمسة أصابع، وقد أسلفنا أن المذهب الشيعي يرى عقوبة السارق في قطع أربعة أصابع من اليد.

٢ ـ ذكر هذه الحادثة (الألوسى» في تفسيره، ج ٣، ص ٦، لكنّه ذكر اسم (علم الدين السخاوي) بدل اسم (علم الهدى).

١٦٠

هل كان الصحابة كلهم صالحين؟

☑ إنّ علماء أهل السنة يعتقدون ـ عادة ـ بأن جميع أصحاب النّبي فاضلون وصالحون ومن أهل الجنّة.

إنّنا هنا نحلّل ونفصل هذا الموضوع المهم الذي يعتبر أساساً ومنبعاً لإختلاف كثيرة أُخرىٰ في المسائل الإسلامية.

حاول بعض إخواننا أهل السنة أن يستنتج من ما أولاه القرآن للمهاجرين السابقين «الأوائل» من إهتمام واحترام، أنّهم لن يرتكبوا ذنباً إلى آخر عمرهم وحياتهم. وذهبوا إلى اكرامهم واحترامهم جميعاً دون استثناء، ودون الاعتراض على هذا وذاك، وكيف ذلك؟! ثمّ عمموا هذا القول على جميع الصحابة ـ فضلاً عن المهاجرين ـ وذلك لثناء القرآن عليهم في بيعة الرضوان وغيرها، وذهبوا عملاً إلى أنّ الصحابة ـ دون النظر إلى اعمالهم ـ أفراد متميزون. فلا يحق لأيّ شخص توجيه النقد لهم والتحقيق في سلوكهم. يجوز بأيّ وجه أن يوجه النقد إليهم.

---

٣ ـ الأمثل: ٣/٦٩٩ ـ ٧٠٣.

ومن جملة هؤلاء المفسّر المعروف صاحب المنار، إذ حمل حملة شعواء على الشيعة، لأنّهم ينتقدون المهاجرين الأولين، ولم يلتفت إلى أن مثل هذا الإعتقاد لا يتضاد وروح الإسلام وتاريخه!!

فلا ريب أنّ للصحابة ـ وعلى الخصوص المهاجرين منهم ـ حرمةً خاصّة، إلّا أنّ هذه الحرمة كانت قائمة ما داموا في طريق الحق ويضحّون من أجل الحق، لكن من المقطوع به أن نظرة القرآن إلى بعضهم أو حكمه قد تغير منذ انحرف عن النهج القويم والصراط المستقيم.

فمثلاً، كيف يمكننا أن نبرىء طلحة والزبير من نقضهما بيعة إمامهما الذي انتخبه المسلمون «بغض النظر عن تصريح النّبي بمقامه وشأنه» وكانا من ضمن المسلمين الذين بايعوه؟ وكيف يمكن تبرأتهما من دماء سبعة عشر ألف مسلم قتلوا في حرب الجمل، مع أنّه لا عذر لمن يفسك دم إنسان واحد أمام الله مهما كان، فكيف بهذا العدد الهائل الذين سفكت دماؤهم؟

ترى هل يمكن أن نعدّ عليّاًعليه السلام وأصحابه في حرب الجمل على الحق كما نعدّ أعداءه فيها على الحق أيضاً؟! ونعد طلحة والزبير ومن معهما من الصحابة على الحق كذلك؟! وهل يقبل العقل والمنطق هذا التضاد الفاضح؟

وهل يمكننا أن نغض النظر من أجل عنوان «تنزيه الصحابة» ولا نلتفت إلى التأريخ وننسى كل ما حدث بعد النّبيصلى الله عليه وآله ونضرب عرض الجدار قاعدة ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾؟

مالكم كيف تحكمون؟!

وما يمنع أن يكون الإنسان من أهل الجنّة ومؤيداً للحق يوماً، ويكون من أهل النّار ومؤيداً للباطل ومن أعداء الحق يوماً آخر؟ ... فهل الجميع معصومون؟ ألسنا نرى التغييرات في أحوال الأشخاص بأم أعيننا؟!

قصة «اصحاب الردّة» وارتداد جمع من المسلمين بعد رحلة الرسولصلى الله عليه وآله

مذكورة في كتب أهل السُنّة والشّيعة، وأن الخليفة الأوّل تصدى لهم وقاتلهم، فهل يعقل أنّ أحداً من «اصحاب الردّة» لم ير النّبيﷺ ولم يكونوا في عدّة الصحابة؟

والأعجب من ذلك أنّ بعضاً تشبت بالإجتهاد للتخلص من الطريق المسدود والتناقض في ذلك، وقالوا: إن أمثال طلحة والزبير ومعاوية ومن لفّ لفهم قد اجتهدوا فأخطأوا وليسوا مذنبين، بل هم مثابون مأجورون بأعمالهم من قبل الله! فما أفضح هذا المنطق؟!

فهل الثورة على خليفة النّبيﷺ ونقض البيعة وهدر دماء الآلاف من الأبرياء من أجل رئاسات دنيوية وحب المال، موضوع معقد ومبهم ولا يعرف أحد ما فيه من سوء؟!

ترى هل في سفك كل تلك الدماء البرئية أجر وثواب عند الله؟!

فإذا أردنا تبرئة جماعة من الصحابة ممّا ارتكبوه من جرائم، فسوف لا نرى مجرماً أو مذنباً في الدنيا، وسنبرىء بهذا المنطق جميع القتلة والمجرمين والجبابرة.

إنّ مثل هذا الدّفاع غير المنطقي ـ عن الصحابة ـ سيسبب النظرة السيئة إلى أصل الإسلام.

والخلاصة، أنّنا لا سبيل لنا إلّا احترام الجميع خاصّة أصحاب النّبيﷺ ماداموا لم ينحرفوا عن مسير الحق والعدل ومناهج الإسلام، وإلّا فلا[١].

إنّ كثيراً من مفسّري أهل السنة نقلوا حديثاً، وهو أن حميد بن زياد قال: ذهبت إلى محمّد بن كعب القرظي وقلت له: ما تقول في أصحاب رسول اللهﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول اللّهﷺ في الجنّة، محسنهم ومسيئهم! فقلت: من أين قلت هذا؟ فقال: إقرأ هذه الآية: ﴿والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار﴾ إلى قوله تعالى ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ثمّ قال: لكن قد اشترط في التابعين أن يتبعوا

---

١ ـ تفسير الأمثل: ج ٥، ص ٥٠٩.

الصحابة في أعمال الخير (ففي هذه الصورة فقط هم من الناجين، أمّا الصحابة فلم يشترط عليهم هذا الشرط)[1].

إلّا أنّ هذا الإدعاء لا يمكن قبوله، وهو مردود بأدلة كثيرة:

أوّلاً: إن الحكم المذكور في الآية يشمل التابعين أيضاً. والمقصود من التابعين ـ كما أشرنا سابقاً ـ كل الذين يتبعون المهاجرين والأنصار السابقين في معتقداتهم وأهدافهم وبرامجهم، وعلى هذا فإنّ كل الأُمّة بدون استثناء ناجية.

وأمّا ما ورد في حديث محمّد بن كعب، من أنّ الله سبحانه وتعالى قد ذكر قيد الإحسان في التابعين، أي أتباع الصحابة في أعمالهم الحسنة، لا في ذنوبهم، فهو أعجب البحوث وأغربها، لأنّ مفهوم ذلك إضافة الفرع إلى الأصل، فعندما يكون شرط نجاة التابعين أن يتبعوا الصحابة في أعمالهم الحسنة، فاشتراط هذا الشرط على الصحابة أنفسهم يكون بطريق أولى.

وبتعبير آخر فإنّ الله تعالى يبيّن في الآية أن رضاه يشمل كل المهاجرين والأنصار السابقين الذين كانت لهم برامج وأهداف صالحة، وكل التابعين لهم، لا أنّه قد رضي عن المهاجرين والأنصار، الصالح منهم والطالح، أمّا التابعون فإنّه يرضى عنهم بشرط.

ثانياً: إنّ هذا الموضوع لا يناسب الدليل العقلي بأي وجه من الوجوه، لأنّ العقل لا يعطي أي امتياز لأصحاب النّبيﷺ، فما الفرق بين أبي جهل وأمثاله، وبين من آمنوا أوّلاً ثمّ انحرفوا عن الدين؟

ولماذا لا تشمل رحمة الباري والرضوان الإلهي الاشخاص الذين جاؤوا بعد النّبيﷺ بسنوات وقرون، ولم تكن تضحياتهم وجهادهم أقل ممّا عمله أصحاب النّبيﷺ، بل قد امتازوا بأنهم لم يروا نبي الإسلامﷺ، لكنّهم عرفوه وآمنوا به؟

---

١ ـ تفسير المنار، وتفسير الفخر الرازي في ذيل الآية أعلاه.

إنّ القرآن الذي يقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ كيف يرضى هذا التبعيض والتفرقة غير المنطقية؟

إنّ القرآن الذي يلعن الظالمين والفاسقين في آياته المختلفة، ويعدهم ممّن استوجب العقاب والعذاب الإلهي، كيف يوافق ويقرّ هذه الصيانة غير المنطقية للصحابة في مقابل الجزاء الإلهي؟!

هل إنّ مثل هذه اللعنات والتهديدات القرآنية قابلة للإستثناء، وأن يخرج من دائرتها قوم معينون؟ لماذا ولأجل أي شي؟!

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك، ألا يعتبر مثل هذا الحكم بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للصحابة ليرتكبوا من الذنب والجريمة ما يحلو لهم؟

ثالثاً: إنّ هذا الحكم لا يناسب المتون التأريخية الإسلامية، لأنّ كثيراً ممّن كان في صفوف المهاجرين والأنصار قد انحرف عن طريق الحق، وتعرض لغضب الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم الملازم لغضب الله عزّوجلّ. ألم نقرأ في الآيات السابقة قصّة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وكيف انحرف وأصبح مورد لعنة وغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

ونقول بصورة أوضح: إذا كان مقصود هؤلاء أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يرتكبوا أي معصية، وكانوا معصومين، فهذا من قبيل إنكار البديهيات.

وإن كان مقصودهم أنّ هؤلاء قد ارتكبوا المعاصي، وعملوا المخالفات، إلّا أنّ الله تعالى راضٍ عنهم رغم ذلك، فإنّ معنى ذلك أن الله سبحانه قد رضي بالمعصية!

من يستطيع أن يبرىء ساحة طلحة والزبير اللذين كانا في البداية من خواص أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك عائشة زوجة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من دماء سبعة عشر ألف مسلم أريقت دماؤهم في حرب الجمل؟ هل أنّ الله عزَّوجَلّ كان راضياً عن إراقة هذه الدماء؟!

هل إنّ مخالفة علي عليه السلام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي إذا لم نقبل النّص على خلافته فرضاً، فعلى الأقل كان قد انتخب بإجماع الأُمّة ـ وشهر السلاح بوجهه

وبوجه أصحابه الأوفياء شيء يرضى الله عنه؟

في الحقيقة، إنّ أنصار نظرية (تنزيه الصحابة) بإصرارهم على هذا المطلب والمبحث قد شوهوا صورة الإسلام الطاهر الذي جعل الإيمان والعمل الصالح هو المعيار والأساس الذي يستند عليه في تقييم الأشخاص في كل المجالات وعلى أي الأحوال.

وآخر الكلام إن رضى الله سبحانه وتعالى في الآية التي نبحثها قد اتخذ عنواناً كلياً، وهو الهجرة والنصرة والإيمان والعمل الصالح، وكل الصحابة والتابعين تشملهم رحمة الله ورضاه ما داموا داخلين تحت هذه العناوين، فإذا خرجوا منها خرجوا بذلك عن رضى الله تعالى.

ممّا قلنا يتّضح بصورة جلية أنّ قول المفسّر العالم ـ لكنّه متعصب ـ أي صاحب المنار، الذي يشن هنا هجوماً عنيفاً وتقريعاً لاذعاً على الشيعة لعدم اعتقادهم بنزاهة الصحابة جميعاً، لا قيمة له، إذ الشيعة لا ذنب لهم إلّا أنّهم قبلوا حكم العقل وشهادة التاريخ، وشواهد القرآن وأدلّته التي وردت في هذه المسألة، ولم يعتبروا الإمتيازات الواهية، والأوسمة التي أعطاها المتعصبون للصحابة بدون استحقاق.[1]

---

١ ـ الأمثل: ١٨٩/٦ ـ ١٩٢.

١٦١

مَن هو ذو القرنين؟

نقرأ في سورة الكهف الآية ٨٣ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: من هو ذو القرنين؟

☑ ذكر المفسّرون كلاماً كثيراً عن شخصية ذي القرنين الوارد في القرآن الكريم، فمن هو؟ وعلىٰ أي واحد من الشخصيات التأريخية المعروفة تنطبق أوصافه ويمكن أن نرجع الآراء إلىٰ ثلاث نظريات أساسية هي:

النظرية الأُولىٰ: يرىٰ البعض أنَّ «ذو القرنين» ليسَ سوىٰ «الإسكندر المقدوني»، لذا فإنّهم يسمونه «الاسكندر ذو القرنين» ويعتقد هؤلاء بأنَّهُ سيطر بعد وفاة أبيه علىٰ دول الروم والمغرب والمصر، وبنىٰ مدينة الإسكندرية، ثمّ سيطر بعد ذلك علىٰ الشام وبيت المقدس، ثمّ ذهب مِن هناك إلىٰ «أرمينيا»، وفتح العراق وبلاد فارس، ثمّ قصد الهند والصين، ومِن هناك رجع إلىٰ خُراسان، وقد بنىٰ مدناً كثيرة، ثمّ جاءَ إلىٰ العراق ومَرِضَ في مدينة «زور» وتوفي فيها.

ويقول البعض: إِنَّهُ لم يُعمَّر أكثر مِن (٣٦) سنة. أمّا جسده فقد ذهبوا بِهِ إِلى الإسكندرية ودفنوه هناك[١].

النظرية الثّانية: ويرىٰ جمع مِن المؤرخين أنَّ «ذو القرنين» كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمّون بـ «تبّع» وجمع ذلك «تبابعه») وقد دافع عن هذه النظرية «الأصمعي» في تأريخ العرب قبل الإسلام، و«ابن هشام» في تأريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و«أبوريحان البيروني» في كتاب «الآثار الباقية».

ويمكن لنا أن نلمح في شعر شعراء (الحميرية) وهم مِن أقوام اليمن، وبعضاً مِن شعراء الجاهلية تفاخراً بكونِ «ذو القرنين» مِن قومهم[٢].

وفقاً لهذه النظرية يكون سد ذو القرنين هو سد «مأرب» المعروف.

النظرية الثّالثة: وهي أحدث النظريات في هذا المجال وردت عن المفكر الإسلامي المعروف (أبو الكلام آزاد) الذي شغل يوماً منصب وزير الثقافة في الهند. وقد أورد رأيه في كتاب حققه في هذا المجال.

وطبقاً لهذه النظريه فإِنَّ ذا القرنين هو نفسه (كورش الكبير) الملك الأخميني.

أمّا النظريتان الأُولىٰ والثّانية فإِنّها لا تدعمها أدلة قوية، ومضافاً إِلىٰ ذلك فإِنّ صفات الإسكندر المقدوني أو ملوك اليمن لا تنطبق مع الصفات الذي ذكرها القرآن لذي القرنين.

مِن ناحية ثالثة فإِنَّ الإسكندر لم يبنَ سداً معروفاً. أمّا سد مأرب في اليمن فإِنَّهُ لا يتطابق مع الصفات الواردة في سدّ «ذو القرنين». الذي بُني مِن الحديد والنحاس، وقد أُنشيء لصد هجوم الأقوام الهمجية، في حين أنَّ سد مأرب مُكوَّن مِن المواد

---

١ ـ يمكن ملاحظة ذلك في تفسير الفخر الرازي، والكامل لابن الأثير (الجملد الأوّل صفحة ٢٨٧). ويعتقد البعض أن أوّل مَن قال بهذه النظرية هو الشيخ ابن سينا في كتابه الشفاء.

٢ ـ الميزان، ج ١٣، ص ٤١٤.

العادية، ووظيفته خزن المياه ومنعها مِن الطغيان والفيضان، وقد ذكر القرآن شرحاً لذلك في سورة «سبأ».

لكل هذه الأسباب سنركز البحث علىٰ النظرية الثّالثة، ونرىٰ مِن الضروري ـ هنا ـ الإنتباه بدقة إلىٰ الأُمور التالية:

أ: لماذا سمي ذو القرنين بهذا الإسم؟

البعض يعتقد أن سبب التسمية تعود إلىٰ وصوله للشرق والغرب، حيثُ يعبِّر العرب عن ذلك بقرني الشمس.

البعض الآخر يرىٰ بأنَّهُ عاش قرنين أو أنَّهُ حَكَمَ قرنين، وأمّا ما مقدار القرن فهناك آراء مُختلفة في ذلك.

البعض الثّالث يقول: كان يوجد علىٰ طَرَفي رأسه بروز (قرن)، ولهذا السبب سَمِّي بذي القرنين.

وأخيراً فإنَّ البعض يعتقد بأنَّ تاجهُ الخاص كان يحتوي علىٰ قرنين.

بالطبع هناك آراء آخرىٰ في ذلك، إلّا أنَّ ذكرها جميعاً يُطيل بنا المقام؛ وسوف نرىٰ أنَّ مِبتكر النظرية الثّالثة (أبو الكلام آزاد) استفاد كثيراً مِن هذا اللقب لإثبات نظريته.

ب: لو لاحظنا بدقة مِن آيات القرآن الكريم لاستفدنا أنَّ ذا القرنين كانت لهُ صفات ممتازة هي:

* هيّأ لهُ الله جلَّ وعلا أسباب القوّة ومقدمات الإنتصار، وجعلها تحت تصرفه وفي متناول يده.

* لقد جهز ثلاثة جيوش مهمّة: الأوّل إلىٰ الغرب، والثّاني إلىٰ الشرق؛ والثّالث إلىٰ المنطقة التي تضم المضيق الجبلي، وفي كل هذه الأسفار كان لهُ تعامل خاص معَ الأقوام المختلفة حيث ورد تفصيل ذلك في الآيات السابقة.

* كان رجلاً مؤمناً تتجلىٰ فيه صفات التوحيد والعطف، ولم ينحرف عن طريق

العدل، ولهذا السبب فقد شملهُ اللطف الإلهي الخاص، إذ كـان نـاصراً للـمحسنين وعدوّاً للظالمين، ولم يكن يرغب أو يطمع بمال الدنيا كثيراً.

* كان مؤمناً بالله وباليوم الآخر.

* لقد صنع واحداً مِن أهم وأقوىٰ السدود، السد الذي استفاد لصنعه مِن الحديد والنحاس بدلاً مِن الطابوق والحجارة. (وإذا كانت هناك مواد أُخرىٰ مستخدمة فيه، فهي لا يعتبر شيئاً بالقياس الىٰ الحديد والنحاس) أمّا هدفه مِن بنائه فقد تمثل في مساعدة المستضعفين في قبال ظلم يأجوج ومأجوج.

* كان شخصاً مشهوراً بين مجموعة مِن الناس، وذلك قبل نزول القرآن، لذا فإنَّ قريش أو اليهود سألوا رسول الله ﷺ عنه، كما يصرح بذلك الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ: ﴿يسئلونك عن ذي القرنين﴾.

ولا يمكن الإستفادة بشيء مِن صريح القرآن للدلالة علىٰ أنَّهُ كان نبيّاً، بالرغم مِن وجود تعابير تُشعِر بهذا المعنىٰ، كما مرَّ ذلك في تفسير الآيات السابقة.

ونقرأ في العديد مِن الرّوايات الإسلامية الواردة عن الرّسول ﷺ وأئمّة أهـل البيت عليهم السلام أنَّهُ: «لم يكن نبيّاً بل عبداً صالحاً»[1].

ج: أساس القول في النظرية الثّالثة (في أنَّ ذا القرنين هو كورش الكبير) قـائم علىٰ أصلين وهما:

الأصل الأوّل: وفق العديد مِن الرّوايات الواردة في سبب نزول هذه الآيات فإنَّ الذي سأل عن «ذو القرنين» هم قوم مِن اليهود، أو أنَّ قريشاً قامت بالأمر بتحريض مِن اليهود، لذا يجب العثور علىٰ أصل هذا الموضوع في كتاب اليهود.

وَمِن الكتب المعروفة عند اليهود، هو كتاب «دانيال» حيث نقرأ في الفصل الثامن مِنهُ، ما يلي: «حينما ملك (بل شصّر) عُرضت لي وأنا دانيال رؤيا بعد الرؤيا الأُولىٰ

---

١ ـ يراجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٩٤ و ٢٩٥.

التي شاهدتها. وذلك حينما كنت أسكن قصر (شوشان) في بلاد (عيلام) فقد رأيت وأنا في المنام بأنّي علىٰ مقربة مِن نهر (أولاي) وأن كبشاً يقف قرب النهر وكان لهُ قرنان طويلان، ووجدتهُ يضرب بقرنيه غرباً وشمالاً وجنوباً، ولم يتقدم أحد أمامه، ولأنّهُ لم يكن يوجد أحد أمامه، لذا فإنّهُ كان يتصرف وفقاً لما يريد، وكان يكبر»[١].

وبعد ذلك نقل عن دانيال في هذا الكتاب قوله: «وقد تجلّىٰ لهُ جبرائيل (أي لدانيال) وفسّر منامه هكذا: إنّ الكبش ذا القرنين الذي رأيتهُ فإنّهُ مِن ملوك المدائن وفارس (أو ملوك ماد وفارس).

لقد استبشر اليهود مِن رؤيا دانيال وعلموا بأنّ فترة عبوديتهم ستنتهي مِن قبضة البابليين.

ولم تمض مُدّة طويلة حتىٰ ظهر (كورش) علىٰ مسرح الحكم في إيران ووحّد بلاد (ماد وفارس) وشكّل مِنهما مملكة كبيرة؛ وكما قالَ دانيال، فإنّ الكبش كان يضرب بقرنه الغرب والشرق، فإنّ كورش قامَ بالفتوحات الكبيرة في الجهات الثلاث، وحرّر اليهود وسمح لهم بالعودة إلىٰ فلسطين.

والطريف ما نقرؤه في التوراة في كتاب «أشعيا» فصل (٤٤) رقم (٢٨): «ثمّ يقول بخصوص كورش: إنّهُ كانَ راعياً عِندي (أي عند الرب) وسيقوم بتنفيذ مشيئتي».

يجب الإنتباه إلىٰ أنّ وصف كورش ورد في بعض تعبيرات التوراة علىٰ أنّهُ «عقاب المشرق» والرجل المدبّر الذي يأتي مِن مكانٍ بعيد. (كتاب أشعيا فصل ٤٦ رقم ١١).

الأصل الثّاني: لقد تمّ العثور في القرن التاسع عشر الميلادي علىٰ تمثالٍ لكورش في طول إنسان تقريباً، وذلك بالقرب مِن مدينة «اصطخر» بجوار نهر

---

١ ـ كتاب دانيال، الفصل الثامن، الجمل ١ ـ ٤.

«المرغاب» ويظهر مِن هذا التمثال أنَّ لكورش جناحين مِن الجانبين يشبهان جناح العقاب، وعلىٰ رأسه تاج يُشاهد فيه قرنان يشبهان قرنا الكبش.

فضلاً عمّا يطويه هذا التمثال مِن نموذج قيّم لفن النحت القديم، فقد جلب انتباه العلماء، حتىٰ أنَّ مجموعة مِن العلماء الألمان سافروا إلىٰ إيران لأجل رؤيته فقط.

عند تطبيق ما ورد في التوراة علىٰ مواصفات التمثال تبلور في ذهن العلّامة (أبو الكلام آزاد) احتمال في وجود اشتراك بين «ذو القرنين» وكورش، وأنَّ الأخير لم يكن سوىٰ «ذو القرنين» نفسه. فتمثال كورش لهُ جناحان كجناحَيْ العُقاب، وهكذا توضحت شخصية «ذو القرنين» التأريخية لمجموعة مِن العلماء.

وممّا يؤيِّر هذه النظرية الأوصاف الأخلاقية المذكورة لكورش في التأريخ.

يقول «هرودوت»، المؤرخ اليوناني: لقد أعطىٰ كورش أمراً إلىٰ قواته بألّا يضربوا بسيوفهم سوىٰ المحاربين، وأن لا يقتلوا أي جندي للعدوّ إذا انحنىٰ. وقد أطاع جيشهُ أوامره، بحيث أنَّ عامّة الناس لم تشعر بمصائب الحرب ومآسيها.

ويكتب عنهُ «هرودوت» أيضاً: لقد كان كورش ملكاً كريماً، وسخياً عطوفاً، ولم يكن مثل بقية الملوك في حرصهم علىٰ المال، بل كان حريصاً علىٰ إفشاء العدل، وكان يتسم بالعطاء والكرم، وكان ينصف المظلومين ويحب الخير.

ويقول مؤرّخ آخر هو (ذي نوفن): لقد كانَ كورش ملكاً عادلاً وعطوفاً، وقد اجتمعت فيه فضائل الحكماء، وشرف الملوك؛ فالهمة الفائقة كانت تغلب علىٰ وجوده، وكان شعاره خدمة الإنسانية، وأخلاقه إفشاء العدل، كما أنَّ التواضع والسماحة كانا يغلبان الكبر والعجب في وجوده.

الطريف في الأمر أنَّ هؤلاء المؤرّخين الذين ذكروا كورش في الأوصاف الآنفة الذكر، كانوا مِن كُتاب التأريخ الغرباء عن قوم كورش، ومِن غير أبناء وطنه، حيثُ كانوا مِن (اليونان)، والمعروف أنَّ أهل اليونان تعرضوا لهزيمة منكرة علىٰ يد كورش عندما فتح «ليديا»!

ثمّ إنَّ أنصار هذا الرأي يقولون: إنَّ الأوصاف المذكورة في القرآن الكريم حول «ذو القرنين» تتطابق مع الأوصاف التأريخية لكورش.

والأهم من ذلك أنَّ كورش قد سافر أسفاراً نحو الشمال والشرق والغرب، وقد وردت قصة هذه الأسفار مُفصَّلة في حياته، وهي تتطابق مع الأسفار الثلاثة لذي القرنين الوارد ذكرها في القرآن الكريم.

فأوّل جيش لهُ كانَ قد أرسله إلىٰ بلاد «ليديا» الواقعة في شمال آسيا الصغرىٰ، وهذه البلاد كانت تقع غرب مركز حكومة كورش.

وعندما نضع خارطة الساحل الغربي لآسيا الصغرىٰ أمامنا، فسوف نرىٰ أنَّ القسم الأعظم مِن الساحل يغرق في الخلجان الصغيرة وخاصةً قرب «أزمير» حيثُ يكون الخليج بشكل يشبه شكل العين. والقرآن يبيّن أنَ «ذو القرنين» في سفره نحو الغرب أحسَّ بأنَّ الشمس غرقت في عينٍ مِن اللجن.

هذا المشهد، هو نفس المنظر الذي شاهده «كورش» حينما تطمس الشمس في الخلجان الساحلية لتبدو لعين الناظر وكأنّها غارقة في تلك الخلجان الساحلية.

أمّا الجيش الثّاني فقد كان باتجاه الشرق، وفي وصفه يقول المؤرخ «هرودوت»: إنَّ هذا الهجوم الكورشي في الشرق كانَ بعد فتح «ليديا» وخاصّة بعد عصيان بعض القبائل الهمجية التي اجبرت بعصيانها كورش علىٰ هذا الهجوم.

وتعبير القرآن الذي يقول: ﴿حتىٰ إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع علىٰ قوم لم تجعل لهم مِن دونها ستراً﴾ هو إشارة إلىٰ سفر «كورش» إلىٰ أقصىٰ الشرق حيث شاهدَ أنَّ الشمس تشرق علىٰ أناس لم يجعلوا لهم ما يظلّهم مِن حرّ الشمس، وهذه إشارة إلىٰ أنَّ القوم كانوا مِن سكنة الصحارىٰ الرحَّل.

أمّا الجيش الثّالث فقد أرسله نحو الشمال باتجاه جبال القوقاز حيثُ وصلَ إلىٰ المضيق المحصور بين الجبلين، وبنىٰ هناك سدّاً محكماً بطلب من أهل المنطقة، لكي يتحصنوا به عن هجمات القبائل الهمجية مِن قوم يأجوج ومأجوج.

المضيق يسمىٰ في الوقت الحاضر مضيق «داريال» حيث يمكن مشاهدته في الخرائط المُنتشرة في الوقت الحاضر، ويقع بين «والادي كيوكز» و «تفليس» في نفس المكان الذي ما زال يظهر فيه حتىٰ الآن الجدار الحديدي الأثري، والذي هو نفس السد الذي بناه «كورش»، إذ ثمّة تطابق واضح بينهُ وبين ما ذكر القرآن مِن صفات وخصائص لسدَّ ذي القرنين.

هذه هي خلاصة الأدلة التي تدعم صحة النظرية الثّالثة حول شخصية «ذو القرنين»[١].

صحيح أنَّ ثمّة نقاطاً مُبهمة في هذه النظرية، إلاَّ أنّها في الوقت الحاضر تعتبر أفضل النظريات في تشخيص شخصية «ذو القرنين» وتطبيق مواصفاتها القرآنية علىٰ الشخصيات التأريخية.

أين يقع سد ذي القرنين؟

بالرغم من محاولة البعض المطابقة بين سد ذي القرنين وبين جدار الصين الذي لا يزال موجوداً ويبلغ طوله مئات الكيلومترات، إلَّا أنَّ الواضح أنَّ جدار الصين لا يَدخل في بنائه الحديد ولا النحاس، ومضافاً إلىٰ ذلك لا يقع في مضيق جبلي ضيق، بل هو جدار مبني مِن مواد البناء العادية ويبلغ طول مئات الكيلومترات، وما زال موجوداً حتىٰ الآن.

البعض يرىٰ في سد ذي القرنين أنّه سد مأرب في اليمن، ولكن هذا السد برغم وقوعه في مضيق جبلي، إلَّا أنَّهُ أنشيء لمنع السيل ولخزن المياه، ولم يدخل النحاس والحديد في بنائه.

ولكن بالإستناد إلىٰ شهادة العلماء وأهل الخبرة فإنَّ السد ـ كما أشرنا لذلك قبل

١ ـ لمزيد مِن التفاصيل يمكن مُراجعة كتاب «ذو القرنين أو كورش الكبير».

قليل ـ يقع في أرض القوقاز بين بحر الخزر والبحر الأسود، حيث توجد سلسلة جبلية كالجدار تفصل الشمال عن الجنوب، والمضيق الوحيد الذي يقع بين هذه الجبال الصخرية هو مضيق «داريال» المعروف، ويشاهد فيه جدار حديدي أثري حتىٰ الآن، ولهذه المرجحات يعتقد الكثيرون أنَّ سد «ذو القرنين» يقع في هذا المضيق، وأنَّ المتبقي مِن مواصفات آثاره دليل مؤيِّد لذلك.

الطريف في الأمر أنَّهُ يوجد نهر علىٰ مقربة من ذلك المكان يُسمىٰ «سائرس» أي «كورش» إذ كان اليونان يسمون كورش بـ (سائرس).

الآثار الأرمنية القديمة كانت تطلق علىٰ هذا الجدار اسم «بهاك كورائي» والتي تعني «مضيق كورش» أو «معبر كورش» وهذا دليل آخر علىٰ أنَّ كورش هو الذي بنىٰ السد[١] [٢].

---

١ ـ للمزيد مِن التفاصيل يراجع المصدرين السابقين.

٢ ـ الأمثل: ٩/٣٦٢ ـ ٣٧١.

١٦٢

لماذا يرفل بعض العصاة والظالمين في النعيم ولا يلقون جزائهم؟

☑ إنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ الله سبحانه ينبّه العصاة الذين لم يتوغّلوا في الخطيئة ولم يغرقوا في الآثام غرقاً، فهو سبحانه ينبّههم بالنذر تارةً، وبما يتناسب مع أعمالهم من البلاء والجزاء تارة أُخرىٰ، فيعيدهم بذلك إلى جادة الحق والصواب. وهؤلاء هم الذين لم يفقدوا بالمرّة قابلية الهداية، فيشملهم اللطف الإلهي، فتكون المحن والبلايا نعمة بالنسبة إليهم، لأنها تكون بمثابة جرس إنذار لهم تنبّههم من غفلتهم، وتنتشلهم من غفوتهم كما يقول الله سبحانه: ﴿ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون﴾[١].

ولكن الذين تمادوا في الذنوب وغرقوا فيها، وبلغ طغيانهم نهايته فإنّ الله يخذلهم، ويكلهم إلى نفوسهم، أيّ أنّه يملي لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبة والعذاب المهين.

---

١ ـ الروم، ٤١.

هؤلاء هم الذين نسفوا كلّ الجسور، وقطعوا كلّ علاقاتهم مع الله، ولم يتركوا لأنفسهم طريق لا العودة إلى ربّهم، وهتكوا كل الحجب، وفقدوا كل قابلية للهداية الإلهية، وكل أهلية للّطف الرّباني.

إن الآية ١٧٨ من سورة آل عمران تؤكد هذا المفهوم وهذا الموضوع إذ تقول: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾.

ولقد استدلت بطلة الإسلام زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بهذه الآية في خطابها المدوي والساخن أمام طاغية الشام «يزيد بن معاوية» الذي كان من أظهر مصاديق العصاة والمجرمين الذين قطعوا جميع جسور العودة على أنفسهم بما ارتكبوه من فظيع الفعال، وما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت:

«أظننت يا يزيد ... أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأُمور متّسقة، وحين صفا لك مُلكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله عزّوجلّ: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾».

جواب على سؤال:

إنّ الآية الحاضرة تجيب ضمناً على سؤال يخالج أذهان كثير من الناس وهو: لماذا يرفل بعض العصاة والمجرمين في مثل هذا النعيم، ولا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟

فإنّ القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشّائع قائلاً: إنّ هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير والإصلاح، وهم بالتالي من الّذين تقتضي سُنّة الخلق ومبدأ حرّية الإنسان واختياره أن يتركوا لشأنهم، ويوكّلوا إلى أنفسهم ليصلوا إلى مرحلة السقوط الكامل،

ويستحقوا الحدّ الأكثر من العذاب والعقوبة.

هذا مضافاً إلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنية من أنّه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعم الوافرة وهو بذلك يستدرجهم، أي أنّه يأخذهم فجأة وهم في ذروة التنعم، ويسلبهم كلّ شيء وهم في أوج اللّذة والتمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقي، ويواجهوا في هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعاً على النفس، وأكثر مرارة كما نقرأ في الكتاب العزيز: ﴿فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[1].

ومثل هؤلاء ـ في الحقيقة ـ مثل الذي يتسلق شجرة، فإنّه كلّما إزداد رقياً ازداد فرحاً في نفسه، حتى إذا بلغ قمتها فاجأته عاصفة شديدة، فهوىٰ على أثرها من ذلك المترفع الشاهق إلى الأرض فتحطمت عظامه، فتبدل فرحه البالغ إلى حزن شديد.[2]

---

١ ـ الأنعام، ٤٤.

٢ ـ الأمثل: ١٣/١٤ ـ ١٦.

١٦٣

لماذا تعيش الأُمم الكافرة في الرخاء؟

نقرأ في سورة الأعراف، الآية ٩٦ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هنا يطرح سؤال يدور كثيراً بين جماعة من الناس، وهو: إذا كان الإيمان والتقوى يبعثان على نزول أنـواع البـركات الإلـهية، ويكون العكس موجباً لسلب البركات، فلماذا نشاهد الشعوب غيرالمؤمنة ترفل في الرخاء والرفاه، في حين يعيش جماعة من أهل الإيمان بعسر ومشقّة؟

☑ إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظة نقطتين:

١ ـ إنّ تصوّر أنّ الشعوب غيرالمؤمنة الفاقدة للتقوىٰ ترفل في النعمة والرخـاء وتغرق في السعادة هو تصور خاطيء ينبع من اشتباه أكبر، وهو إعتبار الثروة دليلاً على السعادة.

إنّ الناس يتصورون ـ عادة ـ أنّ كل شعب امتلك صناعة أكثر تقدماً، وثروة أكبر، كان أسعد من غيره، في حين لو تسنى لنا أن ننفذ إلى أعـماق هـذه المـجتمعات ونلاحظ الآلام الممضة التي تحطم روح هذه الشعوب وجسمها عن كثب، فسوف

نُسلّم أن أكثر تلك الشعوب هي من أشقى سكان الأرض.

هذا بغض النظر عن أنّ هذا التقدم النسبيّ إنّما هو نتيجة استخدامهم لأُصول ومباديء مثل السعي والإجتهاد، والنظم والشعور بالمسؤولية التي هي جزء من تعاليم الأنبياء، ومن صلب توجيهاتهم.

في هذه الأيّام ـ التي نكتب فيها هذا القسم من التّفسير ـ نشرت الجرائد والصحف أنّه حدث في نيويورك ـ التي هي واحدة من أكبر نقاط العالم المادي ثروة وأكثرها تقدماً ـ حادث جدّ عجيب على أثر انقطاع فجائي للتيار الكهربائي، وذلك الحادث هو أنّ كثيراً من الناس هاجموا المحلات والمخازن وسرقوا كل ما فيها بحيث أن ثلاثة آلاف من المغيرين على المحلات اعتقلوا بواسطة البوليس.

إنّ من المسلّم أن عدد المغيرين ـ في الواقع ـ أكثر بأضعاف من هذا العدد، وهذا العدد هم الذين لم يمكنهم الفرار والهرب والنجاة من قبضة البوليس، كما أنّه من المسلّم أن المغيرين لم يكونوا سراقاً محترفين هيّأوا أنفسهم من قبل لمثل هذه الإغارة العمومية، لأنّ الحادثة المذكورة كانت حادثة فجائية.

من هذا نستنتج أنّه مع حالة إنقطاع عابر للتيار الكهربائي يتحول عشرات الالآف من سكان مدينة ثرية ومتقدمة ـ كما يشاؤون تسميتها ـ إلى لصوص وسراق، إن هذا لا يدل على الإنحطاط الخلقي لدى شعب من الشعوب فحسب، بل يدل على فقدان الأمن الإجتماعي الشديد أيضاً.

والخبر الآخر الذي نقلته الصحف، ويكمل ـ في الحقيقة ـ هذا الخبر، وهو أن أحد الشخصيات المعروفة كان يقيم في تلك الأيّام في نيويورك، في أحد الفنادق الشهيرة ذات العشرات من الطوابق، قال: إنّ انقطاع التيار الكهربائي تسبب في أن يمسي التجول في معابر وصالات ذلك الفندق عملاً بالغ الخطورة، بحيث أنّ مسؤولي الفندق ما كانوا يسمحون لأحد بأن يغادر مكانه إلى غرفته منعاً من أن يتعرض للمغيرين داخل صالات الفندق، ولهذا نظموا المسافرين والنزلاء في

جماعات مكونة من عشرة أو أكثر، وتولى موظفون مسلحون إيصالهم إلى غرفهم تحت حراسة مشددة.

ثمّ يضيف ذلك الشخص المذكور: أنّه ما لم يعانِ من الجوع الشديد لم يجرؤ على الخروج من غرفته.

ولكن انقطاع التيار الكهربائى هذا يقع في البلاد المتأخرة الشرقية كثيراً، ولكن لا تحدث مثل هذه المشاكل، وهذا يفيد أن سكان البلدان المتقدمة رغم كونهم يمتلكون ثروة عظيمة، وصنائع عظيمة، لا يملكون أدنى قدر من الأمن في بيئتهم.

هذا مضافاً إلى أنّ شهود عيان يقولون: إنّ القتل والإغتيال في تلك البيئات كشرب الماء من حيث السهولة واليسر.

ونحن نعلم أنّنا أعطينا الدنيا كلها لأحد وكان يعيش في مثل هذه الظروف، كان من أشقى أهل الأرض... على أنّ مشكلة الأمن هي واحدة من مشكلاتهم، وإلّا فهناك مفاسد إجتماعية أُخرىٰ كل واحد منها بدوره حالة مؤلمةً جداً ... ومع الإلتفات إلى هذه الحقائق فلا معنىٰ لتوهّم أنّ الثروة سعادة.

٢ ـ أمّا ما يقال عن سبب تخلّف المجتمعات المتحلية بالإيمان والتقوى، فإذا كان المقصود من الإيمان والتقوى هو مجرّد ادعاء الإسلام وإدعاء أتباع مبادىء الأنبياء وتعاليمهم، فالاعتراض وجيه. ولكننا لا نعتبر حقيقة الإيمان والتقوى إلّا نفوذهما في جميع أعمال الإنسان، وجميع شؤون الحياة، وهذا أمر لا يتحقق بمجرّد الإدعاء والزعم.

إنّ من المؤسف جدّاً أن نجد التعاليم الإسلامية ومبادىء الأنبياء متروكة أو شبه متروكة في كثير من المجتمعات الإسلامية، فملامح هذه المجتمعات ليست ملامح مجتمعات المسلمين الصادقين الحقيقيين.

لقد دعا الإسلام إلى الطهارة والإستقامة والأمانة والإجتهاد والجد، فأين تلك الأمانة والإجتهاد؟

إنّ الإسلام يدعو إلى العلم والمعرفة واليقظة والوعي، فأين ذلك العلم والوعـي واليقظة؟!

وإن الإسلام يدعو إلى الإتحاد والتضامن ووحدة الصفوف والتفاني، فهل سادت هذه الأصول والمبادىء في المجتمعات الإسلامية الحاضرة بصورة كاملة، ومع ذلك بقيت متخلّفة؟!

لهذا يجب أن نعترف بأنّ الإسلام شيء، والمسلمون اليوم شيء آخر.[١]

١ ـ الأمثل: ١٢٧/٥ ـ ١٣٠.

١٦٤

اذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟

نقرأ في سورة هود الآية ٦: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ يستفاد من هذه الآية أنّ الله تعالى قد تكفّل برزق جميع الموجودات الحيّة، وايصاله اليها اينما كانت، ولكن يبرز هذا السؤال وهو:

لماذا ماتت و تموت مجاميع من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ ألم يؤمَّن رزقُها؟!

☑ في الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار:

أوّلاً: إنّ تأمين وضمان الرزق لا يعني اعداده للانسان العاقل والمكلّف وارساله الى بيته، أو وضعه في فمه كالقمة، بل قد اعدت الارضيّة اللازمة، وسعي الانسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضيّة وايصالها الى مرحلة الفعل، حتى مريم عليها السلام عندما كانت في ذلك الوضع الصعب وفي تلك الصحراء القاحلة حيث هيّأ لها الله تعالىٰ رزقها رطباً جنياً على جذع النخلة أمرها بأن تسعىٰ وخاطبها ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة﴾.

ثانياً: لو أنّ النّاس ـ في الماضي والمستقبل ـ يقومون بهضم حقوق الآخـرين ويسلبون ارزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلاً على عدم تأمين البـارىء تـعالى للـرزق، وبتعبير آخر: اضافة الى مسألة السعي والاجتهاد فإنّ وجود العـدالة الاجـتماعيّة يعتبر سراً في التوزيع العادل للارزاق، واذا قيل: لماذا لا يمنع الله ظـلم الظـالمين؟ نقول: انّ أساس حياة البشر يقوم على الحريّة وليس على الاجبار والاكـراه كـي يخضع الجميع للامتحان، وإلّا فلا يحصل التكامل «تأمل جيداً».

ثالثاً: هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر علىٰ هذه الكرة الأرضيّة وغير أنّه يجب أن تكشف وتستخدم بذكائهم ومعرفتهم، واذا قصَّر الإنسان في هذا المـجال فالذنب ذنبه.

لا يجب أن ننسىٰ أن بعض مناطق افريقيا التي يموت شعبها جوعاً تعتبر مـن اغنىٰ مناطق العالم، إلّا أنّ العوامل المدمّرة جعلتهم يهيمون في ليلٍ مظلم.(١)

---

١ ـ نفحات القرآن، ج ٢، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

١٦٥

لماذا تأخّر المسلمون؟

☑ يستفاد من القرآن الكريم بصورة جيدة أنّنا إذا أصبنا بأي نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا في جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص في العمل، وإذا اجتمع الجهاد والإخلاص ـ فبناء على وعد الله ـ فإن النصر والهداية حتميّان.

ولو فكّرنا جيداً لاستطعنا أن نعزو جميع المشاكل والمصائب في المجتمع الإسلامي الى التقاعد عن الجهاد وعدم الإخلاص، فهما مصدرها.

فلم تأخر المسلمون، الذين كانوا متقدمين بالأمس!؟

ولم يمدون يد الحاجة إلى الأجانب في كل شيء، حتى في الثقافة والقوانين، وحتى نظمهم الخاصة.

ولم يعتمدون على غيرهم من أجل حفظ أنفسهم من التيارات السياسية والهجومات العسكرية.

لم كان الآخرون جالسين يوماً على مائدة المسلمين التي كان خوانها مبسوطاً بالعلم والثقافة والمعرفة، واليوم أصبح المسلمون جالسين على مائدة الآخرين؟!!

وأخيراً، لم نرى المسلمين أسرى في قبضة الآخرين، وأراضيهم مغصوبة من قبل الظالمين؟

الإجابة على جميع هذه الأسئلة منحصرة في سبب واحد، هو «نسيانهم الجهاد» أو «عدم الخلوص في النية».

أجل، لقد اهملوا الجهاد في الميادين العلمية والثقافية والسياسية والإقتصادية والعسكرية، وتغلّب عليهم حب النفس وعشق الدنيا وطلب الراحة والنظرة الضيقة والأغراض الشخصيّة، حتى أصبح قتلاهم على أيديهم أكثر من قتلاهم على أيدي أعدائهم!.

إنّ استغراب بعض المسلمين الذى أنبهروا بحضارة الغرب الرأسمالي أو الشرق الإشتراكي، وعمالة بعض الرؤساء والزعماء، ويأس وانزواء العلماء والمفكرين كل ذلك سلبهم التوفيق الى الجهاد، وكذلك حرمهم من الإخلاص.

ومتى ما ظهر قليل من الإخلاص بين صفوفنا، وتحرك مجاهدونا حركة ذاتية، فإن النصر يكون حليفنا واحداً بعد الآخر... وتتقطع غلال الأسر... ويتبدل اليأس إلى أمل مشرق، وسوء الخط الى حسن الحظ، والذلة إلى العزة ورفعة الرأس، كما تتبدل الفرقة والشتات إلى الوحدة والإنسجام.

أجل إن الذين يجاهدون في سبيل الله تشملهم هدايته، ومن البديهي أنّه مع هداية الله، فلا ضلال ولا خسران، ولا انهزام.

وعلى كل حال، فإنّ كل إنسان يلمس هذه الحقيقة القرآنية.. في سعيه واجتهاده، حيث يجد الأبواب مفتوحة عندما يعمل لله وفي سبيل الله، وتنتهي مشاكله السهلة والصعبة وتضحى بسيطة متحملة.[١]

---

١ ـ الأمثل: ١٢/٤٥٥ ـ ٤٥٦.

١٦٦

ماهي قصّة فدك؟

☑ «فدك»: إحدى القرى المثمرة في أطراف المدينة، وتبعد ١٤٠كم عن خيبر تقريباً. ولمّا سقطت قلاع «خيبر» في السنة السابعة للهجرة، الواحدة تلو الأُخرى أمام قوّة المسلمين، واندحر اليهود .. جاء ساكنو فدك يطلبون الصلح مع رسول الله ﷺ وأعطوا نصف أراضيهم وبساتينهم لرسول الله واحتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، وتعهّدوا للرسول بزراعة أراضيه وأخذ الأُجرة عوض الجهد الذي يبذلونه.

ومن خلال ملاحظة التفاصيل التي وردت حول (الفيء) في سورة الحشر الآية ٧، فإنّ هذه الأرض كانت من مختّصات الرّسول ﷺ ومن صلاحيته أن يصرفها في شؤونه الشخصية، أو ما يراه من المصارف الأُخرى التي أُشير إليها في الآية السابعة من نفس هذه السورة، لذلك فإنّ الرّسول ﷺ وهبها لإبنته فاطمة عليها السلام.

وهذا الحديث صرّح به الكثيرون من المؤرّخين والمفسّرين من أهل السنّة والشيعة، ومن جملة ما ورد في تفسير الدرّ المنثور، نقلاً عن ابن عبّاس في تفسير

قوله تعالى: ﴿فآت ذا القربى حقّه﴾[١] أنّه ﷺ عندما نزلت هذه الآية عليه أعطى فدكاً لفاطمة. (أقطع رسول الله فاطمة فدكاً)[٢].

وجاء في كتاب كنز العرفان، أنّه جاء في حاشية مسند (أحمد) حول مسألة صلة الرحم أنّه نقل عن أبي سعيد الخدري أنّ الآية أعلاه عندما نزلت على الرّسول ﷺ دعا الرّسول فاطمة، وقال: «يافاطمة لك فدك»[٣].

وقد أورد الحاكم النيسابوري هذا المعنى في تأريخه[٤].

وقد ذكر ابن أبي الحديد قصّة فدك بصورة مفصّلة في شرح نهج البلاغة[٥]، كما ذكرت كذلك في كتب أُخرى كثيرة.

إلّا أنّ بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان يعتقد أنّ وجود (فدك) بيد زوجة الإمام علي عليه السلام تمثّل قدرة إقتصادية يمكن أن تستخدم في مجال التحرّك السياسي الخاصّ بالإمام علي عليه السلام. ومن جهة أُخرى كان هنالك موقف وتصميم على تحجيم حركة الإمام عليه السلام وأصحابه في المجالات المختلفة. لذا تمّت مصادرة تلك الأرض بذريعة الحديث الموضوع: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث). مع أنّ (فدك) كانت بيد فاطمة عليها السلام، وذو اليد لا يطالب بشهادة أو بيّنة. والجدير بالذكر أنّ الإمام علي عليه السلام قد أقام الشهادة على أنّ رسول الله ﷺ قد منح فدكاً إلى فاطمة. إلّا أنّهم مع كلّ هذا لم يرتّبوا أثراً على هذه الشهادة.

وقد إستعملت قضيّة فدك عبر العصور التأريخية المختلفة كموضوع يراد التظاهر من خلاله بالودّ لأهل البيت عليهم السلام من قبل بعض الخلفاء وذلك لمآرب سياسيّة،

---

١ ـ الروم، الآية ٣٨.

٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٧٧.

٣ ـ كنز العمّال، ج ٢، ص١٥٨.

٤ ـ يراجع كتاب فدك، ص ٤٩.

٥ ـ شرح ابن أبي الحديد، ج١٦، ص٢٠٩ وما بعدها.

فكانوا يرجعون فدكاً لآل الرّسول تارةً، ويصادرونها ثانية، وقد تكرّر هذا الفعل عدّة مرّات في فترات حكم خلفاء بني أُميّة وبني العبّاس.

وقصّة فدك وما رافقها من أحداث مؤلمة وقعت في صدر الإسلام هي من أكثر القصص ألماً وحزناً، وفي نفس الوقت تكاد أن تكون من أكثر حـوادث التـاريخ عبرةً، ولابدّ من التوقّف عندها والتأمّل في أحداثها المختلفة ضمن بحث مـحايد دقيق.

والجدير بالملاحظة أنّه روى مسلم في صحيحه قال: (حدّثني محمّد بن رافع، أخبرنا حُجين، حدّثنا ليث بن عقيل، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة، أنّها أخبرته أنّ فاطمة بنت رسول أرسلت إلى أبي بكر الصدّيق تسأله ميراثها من رسول الله ممّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنّ رسول الله قال: «لا نورّث ما تركناه صدقة إنّما يأكل آل محمّد في هذا المال» وانّي والله لا أُغيّر شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عـهد رسول الله ... فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك. قال: فهجرته فلم تكلّمه حتّى توفّيت)(١).(٢)

---

١ ـ صحيح مسلم، ج٣ ص١٣٨٠، حديث ٥٢ عن كتاب الجهاد.

٢ ـ تفسير الأمثل: ١٨/١٨٣ ـ ١٨٦ .

١٦٧

هل كان ابو طالب مسلماً؟

☑ جميع علماء الشيعة وجمع من علماء أهل السنة، ومثل ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة والقسطلاني في «إرشاد الساري» وزيني دحلان في حاشية السيرة الحلبية، ويعتبرون أبا طالب من مؤمني الإسلام، وهناك في المصادر الإسلامية الأصيلة دلائل كثيرة على هذا.

ومن يطالع هذه الأدلة يندفع للتساؤل بدهشة: ما السبب الذي حدا ببعضهم إلى كره أبي طالب وتوجيه مثل هذا الإتهام الكبير إليه؟!

كيف يكون هدفاً لمثل هذا الإتهام من كان يدافع بكل كيانه ووجوده عن رسول الله ﷺ ولطالما وقف هو وابنه في مواقع الخطر يدرآن عن حياة رسول الله ﷺ كل خطر؟!

هنا يرى المحققون المدققون أنّ التيار المناويء لأبي طالب تيار سياسي ينطلق من عداء «شجرة بني أُمية الخبيثة» لمكانة علي عليه السلام.

ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذي تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين علي عليه السلام، بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كل من كان

له بأي شكل من الأشكال نوع من القرابة من أميرالمؤمنين عليعليه السلام لم ينج من هذه الحملات اللئيمة. وفي الحقيقة كان ذنب أبي طالب الوحيد أنّه والد الشخصية الإسلامية الكبرىٰ عليعليه السلام.

ونذكر هنا بإيجاز مختلف الأدلة التي تثبت إيمان أبي طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصة في الموضوع.

١ ـ كان أبو طالب يعلم، قبل بعثة الرّسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم، أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوة، فقد كتب المؤرخون أنّه في رحلته مع قافلة قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّداً البالغ يومئذ الثّانية عشرة من العمر، وفي غضون الرحلة رأىٰ منه مختلف الكرامات، ثمّ عندما مرّت القافلة بالراهب (بحيرا) الذي أمضىٰ سنوات طوالاً في صومعته على طريق القوافل التجارية، استلف محمّدصلى الله عليه وآله وسلم نظر الراهب الذي راح يدقق في وجهه وملامحه، ثمّ التفت إلى الجمع سائلاً: من منكم صاحب هذا الصبي؟ فأشار الجمع إلى أبي طالب الذي قال له: هذا ابن أخي، فقال بحيرا: إنّ لهذا الصبي شأناً، إنّه النّبي الذي أخبرت به وبرسالته الكتب السماوية، وقد قرأت فيها تفاصيل ذلك كله[1].

ولقد كان أبو طالب قبل ذلك قد أدرك من الوقائع والقرائن التي رآها من ابن أخيه أنّه سيكون نبي هذه الأُمّة.

وبموجب ما يذكره الشهرستاني صاحب «الملل والنحل» وغيره من علماء السنة أنّ سماء مكّة قد جست بركتها عن أهلها سنة من السنين، فواجه الناس سنة جفاف شديد، فأمر أبو طالب أنّ يأتوه بابن أخيه محمّد، فأتوه به وهو رضيع في قماطه، فوقف تجاه الكعبة، وفي حالة من التضرع والخشوع أخذ يرمي بالطفل

١ ـ ملخص ما ورد في سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩١، وسيرة الحلبي، ج ١، ص ١٣١، وكتب أُخرىٰ.

ثلاث مرات إلى أعلىٰ ثمّ يتلقفه وهو يقول: يا ربّ بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً. فلم يمض إلّا بعض الوقت حتى ظهرت غمامة من جانب الأُفق وغطت سماء مكّة كلّها وهطل مطر غزير كادت معه مكّة أن تغرق.

ثمّ يقول الشهرستاني: هذه الواقعة، التي تدل على علم أبي طالب بنبوة ابن أخيه ورسالته منذ طفولته تؤكّد إيمانه به. وهذا أبيات أنشدها أبو طالب بعد ذلك بتلك المناسبة:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان عدل لا يخيس شعيرة ... ووزان صدق وزنه غير عائل

إنّ حكاية إقبال قريش على أبي طالب عند الجفاف، واستشفاع أبي طالب إلى الله بالطفل قد ذكرها غير الشهرستاني عدد آخر من كبار المؤرخين، وقد أورد العلّامة الاميني صاحب كتاب «الغدير» هذه الحكاية وذكر أنّه نقلها من «شرح البخاري» و«المواهب اللدنية» و«الخصائص الكبرىٰ» و«شرح بهجة المحافل» و«السيرة الحلبية» و«السيرة النبوية» و«طلبة الطالب»[1].

٢ ـ إضافة إلى كتب التّأريخ المعروفة، فانّ بين أيدينا شعراً لأبي طالب جمع في «ديوان أبي طالب»، ومنه الأبيات التّالية:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي ... ولقد دعوت وكنت ثمّ أميناً
ولقد علمت بأنّ دين محمّد ... من خير أديان البرية دينا

١ ـ «الغدير»، ج ٧، ص ٣٤٦.

كما قال أيضاً:

ألم تـعلموا أنـا وجـدنا مـحمّداً رسولاً كموسى خط فـي أوّل الكـتب
وإنّ عـليه فـي العـباد مـحبّة ولا حيف في من خصّه الله بالحبّ[1]

يذكر ابن أبي الحديد طائفة كبيرة من أشعار أبي طالب (التي يقول عنها ابن شهر آشوب في «متشابهات القرآن» أنّها تبلغ ثلاثة آلاف بيت) ثمّ يقول: إن هذه الأشعار لا تدع مجالاً للشك أنّ أبا طالب كان يؤمن برسالة ابن أخيه.

٣ ـ ثمّة أحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ تؤكّد شهادته بإيمان عمه الوفي أبي طالب، من ذلك ما ينقله لنا صاحب كتاب «أبو طالب مؤمن قريش» فيقول: عندما توفي أبو طالب رثاه رسول الله ﷺ وهو على قبره، قائلاً: «وا أبتاه! وا أبا طالباه واحزناه عليك! كيف أسلو عليك يا من ربيتني صغيراً، واجبتني كبيراً، وكنت عندك بمنزلة العين من الحدقة والروح من الجسد»[2].

وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يقول: «ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[3].

٤ ـ من المتفق عليه أنّ رسول الله ﷺ قد أمر بقطع كل رابطة صحبة له بالمشركين، وكان ذلك قبل وفاة أبي طالب بسنوات، وعليه فانّ ما أظهره رسول الله ﷺ من الحبّ والتعلق بأبي طالب يدل على أنّه كان يرى في أبي طالب تابعاً لمدرسة التوحيد، وإلّا فكيف ينهىٰ الآخرين عن مصاحبة المشركين، ويبقى

١ ـ هاتان القطعتان وردتا في «خزانة الأدب» و«وتاريخ ابن كثير» و«شرح ابن أبي الحديد» و«فتح الباري» و«بلوغ الارب» و«تاريخ أبي الفداء» و«السيرة النبوية» وغيرها نقلاً عن «الغدير»، ج ٨.

٢ ـ «شيخ الأباطح» نقلاً عن «أبو طالب مؤمن قريش».

٣ ـ الطبري، نقلاً عن «أبو طالب مؤمن قريش».

هو على حبّه العميق لأبي طالب؟

٥ ـ في الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أدلة وافرة على إيمان أبي طالب وإخلاصه، ولا يسع المجال هنا لذكرها، وهي أحاديث تستند إلى الاستدلال المنطقي والعقلي، كالحديث المنقول عن الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قال ـ بعد أن سئل عن إيمان أبي طالب وأجاب الإيجاب ـ: «إنّ هنا قوماً يزعمون أنّه كافر ... واعجبا كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد نهاه الله أن تقرّ مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن (أي في أكثر من آية) ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها من المؤمنات السابقات، فأنّها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه»[1].

٦ ـ وإذا تركنا كل هذا جانباً، فاننا قد نشك في كل شيء إلّا في حقيقة كون أبي طالب كان على رأس حماة الإسلام ورسول الإسلام، وكانت حمايته تتعدى الحدود المألوفة بين أبناء العشيرة والعصبيات القبلية ولا يمكن تفسيرها بها.

ومن الأمثلة الحيّة على ذلك حكاية (شعب أبي طالب) يجمع المؤرخون على أنّه عندما حاصرت قريش النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين محاصرة إقتصادية وإجتماعية وسياسية شديدة وقطعت علائقها بهم، ظل أبو طالب الحامي والمدافع الوحيد عنهم مدّة ثلاث سنوات ترك فيها كل أعماله، وسار ببني هاشم إلى واد بين جبال مكّة يعرف بشعب أبي طالب فعاشوا فيه، وقد بلغت تضحياته حداً أنّه، فضلاً عن بنائه الأبراج الخاصّة للوقوف بوجه أي هجوم قد تشنه قريش عليهم، كان في كل ليلة يوقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نومه ويأخذه إلى مضجع آخر يعده له ويجعل ابنه الحبيب إليه علياً عليه السلام في مكانه، فإذا ما قال له ابنه علي عليه السلام: يا أبة، إنّ هذا سيوردني موارد الهلكة، أجابه أبو طالب عليه السلام: ولدي عليك بالصبر، كل حي إلى ممات، لقد جعلت

---

١ ـ كتاب «الحجة» و«الدرجات الرفيعة» نقلاً عن «الغدير» ج ٨، ص ٣٨٠.

فداء ابن عبدالله الحبيب، فيرد عليعليه السلام: يا أبه، ما قلت لك ذلك خوفاً من الموت في سبيل محمّدصلى الله عليه وآله، بل كنت أريدك أن تعلم مدى طاعتي لك واستعدادي للوقوف إلى جانب محمّدصلى الله عليه وآله[1].

إنّنا نرى أن من يترك التعصب، ويقرأ ـ بغير تحيز ـ ما كتبه التّأريخ بحروف من ذهب عن أبي طالب، سيرفع صوته مع صوت ابن أبي الحديد منشداً:

ولولا أبـــو طـــالب وابـــنه   لما مـثل الديـن شـخصاً وقـاماً
فـــذاك بـــمكّة آوى وحـــامى   وهذا بيثرب جس الحماما[2][3]

---

١ ـ الغدير، ج ٧، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ بتصرف.
٢ ـ الغدير، ص ٨٦.
٣ ـ الأمثل: ٤/٢٤٥ ـ ٢٥٠.

١٦٨

ما هي كبائر الإثم؟

☑ هناك كلام طويل بين المفسّرين من جهة، والفقهاء والمحدّثين من جهة أُخرى في شأن الذنوب الكبيرة المشار إليها في بعض الآيات من القرآن[١].

فبعضهم يعتقد أنّ جميع الذنوب تعدّ من الكبائر، لأنّ كلّ ذنب ـ أمام الخالق الكبير يعدّ ذنباً كبيراً.

في حين أنّ بعضهم ينظر إلى الذنوب نظرةً نسبيّة فيرى كلّ ذنب بالنسبة إلى ما هو أهمّ منه صغيراً وبالعكس.

وقال آخرون إنّ الكبائر ما جاء الوعيد من قبل الله في القرآن بإرتكابها!

وربّما قيل إنّ الكبائر ما يجري عليها «الحدّ» الشرعي.

إلّا أنّ الأفضل أنّ يقال بأنّه مع ملاحظة أنّ التعبير بالذنوب الكبيرة دليل على عظمها، فكلّ ذنب فيه أحد الشروط التالية يعدّ كبيراً:

أ ـ الذنوب التي ورد الوعيد من قبل الله في شأنها والعذاب لمرتكبها.

١ ـ كما في النساء الآية (٣١) والشورى الآية (٣٧) والنجم الآية (٣٢).

ب ـ الذنوب المذكورة في نظر أهل الشرع ولسان الرّوايات بأنّها عظيمة.

ج ـ الذنوب التي عدّتها المصادر الشرعيّة أكبر من الذنوب التي هي من الكبائر.

د ـ وأخيراً الذنوب المصرّح بها في الرّوايات المعتبرة بأنّها من الكبائر!.

وقد ورد ذكر الكبائر في الرّوايات الإسلامية مختلفاً عددها فيه، إذ جاء في بعضها أنّها سبع «قتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والعودة إلى دار الكفر بعد الهجرة، ورمي المحصنات بالزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من [الزحف] الجهاد»[١].

وقد جاء في بعض الرّوايات ذكر هذا النصّ: «كلّما أوجب عليه الله النار» [مكان عقوق الوالدين].

وجاء في بعض الرّوايات أنّها «عشر»، وأوصلتها روايات أُخر إلى «تسع عشرة» كبيرةً! وربّما ترقّى هذا العدد إلى أكثر ممّا ذكر في بعض الرّوايات أيضاً[٢].

وهذا التفاوت في عدد الكبائر هو لأنّ الذنوب الكبيرة ليست بمرتبة واحدة، فبعضها أهمّ من بعض، وبتعبير آخر يعدّ أكبر الكبائر، فبناءً على هذا لا تضادّ بين الرّوايات في إختلاف العدد.[٣]

---

١ ـ الوسائل، ج ١١ ـ أبواب جهاد النفس الباب ٤٦ الحديث ١.

٢ ـ لمزيد الإيضاح يراجع المصدر السابق الباب ٤٦ من أبواب جهاد النفس وقد جاء في هذا الباب سبع وثلاثون رواية ..

٣ ـ الأمثل: ١٧/٢٥٦ ـ ٢٥٨.

١٦٩

لماذا يجب ذكر اسم الله حين الذبح؟

وهل ذكر اسم الله او غير الله حين الذبح يؤثّر على اللحم من ناحية صحيّة؟

☑ تحريم لحوم هذه الحيوانات لايلزم بالضرورة أن تكون لها اضرار صحية حتى؟ يقال: إن ذكر اسم الله أو غير الله حين الذبح لاربط له بالامور الصّحية. فليس من الحتم أن تكون للحم آثار صحية حتى تكون محرمة. لان المحرمات في الإسلام لها أبعاد مختلفة، فتارة بسبب الصحة وحفظ البدن وأُخرى يكون للتحريم جانب معنوي وأخلاقي وتربوي، فهذه اللحوم تبعد الإنسان عن الله، ولها تأثير نفسي وتربوي سلبي علىٰ الآكل، لأنها من سنن الشرك والوثنية وتعيد إلى الذهن تلك التقاليد الخرافية.(١)

١ ـ الأمثل: ٤٩٣/١.

١٧٠

ماهو رأي الإسلام في الرهبانيّة؟

نقرأ في سورة الحديد الآية ٢٧، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ هنا يطرح هذا السؤال وهو ما هو رأي الإسلام في مسألة الرهبانيّة؟

☑ أخذت الرهبانية من «الرهبة» التي جاءت بمعنى الخوف من الله، وكما يقول الراغب في المفردات، الخوف الذي يكون ممزوجاً بالزهد والإضطراب والترهّب يعني: (التعبّد والعبادة) .. والرهبانية بمعنى: (شدّة التعبّد).

وإذا فسّرنا الآية أعلاه بأي شكل، فإنّها ترينا أنّها كانت نوعاً من الرهبانية الممدوحة بين المسيحيين، بالرغم من أنّها لم تكن أصلاً وإلزاماً فيما جاء به السيّد المسيح من عند الله تعالى، إلّا أنّ أتباع السيّد المسيح عليه السلام أخرجوا (الرهبانية) من حدودها وجرّوها إلى الإنحراف والتحريف، ولهذا فإنّ الإسلام ندّد فيها بشدّة، حتّى أنّ الكثير من المصادر الإسلامية أوردت الحديث المعروف: «لا رهبانية في الإسلام»[1].

---

١ ـ جاء هذا الحديث في مجمع البحرين في مادّة (رهب) كما ذكر ذلك في النهاية لإبن الأثير.

ومن جملة الممارسات القبيحة للمسيحيين في مجال الرهبانية تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرّغ (للرهبنة) والإنزواء الإجتماعي، وإهمال كافّة المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، والركون إلى الصوامع والأديرة البعيدة، والعيش في محيط منزوٍ عن المجتمع .. بالإضافة إلى جملة من المفاسد التي حصلت في الأديرة ومراكز الرهبان، كما سنشير إلى جوانب منها في هذا البحث إن شاء الله.

وبالرغم من أنّ هؤلاء الرجال البعيدين عن الدنيا (الرهبان والراهبات) قد أدّوا خدمات إيجابية كثيرة كتمريض المصابين بأمراض خطرة كالجذام وما شابهه، بالإضافة إلى القيام بالتبليغ والإرشاد بين أقوام بدائية متوحّشة، وقيامهم ببرامج للدراسة والتحقيق .. إلّا أنّ هذه الأمور تعتبر قليلة الأهميّة قياساً إلى المفاسد التي إقترنت معها.

وأساساً فإنّ الإنسان مخلوق إجتماعي، وتكامله المادّي والمعنوي مبتنٍ على هذا الأساس، وما جاءت به الأديان السماوية لا ينفي دور الإنسان في المجتمع، بل يحكم قواعده وأُسسه بصورة أفضل.

إنّ الله سبحانه أوجد الغريزة الجنسية في الإنسان لحفظ النسل، وكلّ مذهب أو قانون يتعارض مع هذه الغريزة فإنّه باطل.

الزهد الإسلامي الذي يعني البساطة في الحياة والإبتعاد عن الكماليات، وعدم الوقوع في أسر المال والموقع ـ لا يرتبط أصلاً بمسألة الرهبانية، لأنّ الرهبانية تعني الإنفصال والغربة عن المجتمع، والزهد يعني التحرّر من الماديّات والترفّع عن المغريات لكي تتمّ المعايشة بصورة إجتماعية أفضل.

ونقرأ في قصّة «عثمان بن مظعون» في موت ولده أنّه لم يعد يخرج للعمل حزناً عليه، وإنشغل في العبادة وترك كلّ عمل سواها وجعل من بيته مسجداً ... فعندما وصل خبره للرسول ﷺ، أحضره وقال له: «ياعثمان، إنّ الله تبارك وتعالى لم

يكتب علينا الرهبانية، إنّما رهبانية أُمّتي الجهاد في سبيل الله»[١].

وذلك إشارة إلى أنّ الإعراض عن الحياة الماديّة والإنزواء الإجتماعي، وتعطيل الأعمال بصورة سلبية، يجب أن يصبّ في مسير إيجابي، وذلك بالجهاد في سبيل الله. ثمّ أنّ الرّسول الكريم ﷺ بيّن له بعض فضائل صلاة الجماعة، والتـي هـي تأكيد على نفي الرهبانية في الشرع الإسلامي.

وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عندما سأله أخوه علي بن جعفر: **الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح في الأرض أو يترهّب في بيت لا يخرج مـنه قال عليه السلام: «لا».**

وتوضيح ذلك: إنّ السياحة التي نهي عنها في هذه الرواية، هي تلك الممارسة التي تكون على مستوى الرهبانية ويمكن أن نطلق عليها (الرهبانية السيّارة) وذلك أنّ بعض الأفراد قبل أن يوفّروا لأنفسهم المستلزمات الأساسية لحياتهم من سكن أو عمل أو مصدر عيش .. فإنّهم يقومون بالسياحة والتجوّل في ربوع الدنيا وبدون تهيئة مستلزمات الطريق من الزاد والمال .. بل يعتمدون على أخذ المساعدات من الناس عند كلّ نقطة يصلون إليها، ظانّين أنّ ذلك نوعاً من الزهد وترك الإنشـغال بالدنيا.

إلّا أنّ الإسلام كما نفى الرهبانية الثابتة، فإنّه قد نفى الرهـبانية السـيّارة أيـضاً إنسجاماً مع التعاليم الإسلامية، فإنّ الزهد والصلاح مهمّ للإنسان المسلم، شريطة أن يكون في قلب المجتمع وليس في الإنزواء والغربة عنه والبعد منه.

المصدر التأريخي للرهبانية

لم تكن الرهبانية موجودة بشكلها الحالي في القرون الأُولى للتاريخ المسيحي،

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١١٤ باب النهي عن الرهبانية، حديث ١.

وقد ظهرت بعد القرن الميلادي الثالث في حكم الإمبراطور الروماني (ديسيوس) ـ وقتاله الشديد لأتباع السيّد المسيح عليه السلام، ونتيجة لما لحق بهم من الأذى من قبل هذا الإمبراطور المتعطّش للدماء، فإنّهم لجأوا إلى الجبال والصحاري[1].

وجاء هذا المعنى بصورة أدقّ في الروايات الإسلامية حيث نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لابن مسعود: «هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟

فقلت: الله ورسوله أعلم.

فقال صلى الله عليه وآله: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضبت أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرّات، فلم يبق منهم إلّا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام (يعنون محمّداً) ـ فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه، ومنهم من كفر».

ثمّ قال: «أتدري ما رهبانية أُمّتي؟»

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحجّ والعمرة»[2].

والمؤرّخ المسيحي المشهور (ويل دورانت) ينقل في تأريخه المعروف في ج١٣ بحثاً مفصّلاً حول الرهبانية، حيث يعتقد أنّ إرتباط الراهبات (النساء التاركات للدنيا) بالرهبان بدأ منذ القرن العاشر الميلادي[3].

وبدون شكّ فإنّ هذه الظاهرة الإجتماعية ـ كما هو شأن كلّ ظاهرة أُخرى لها أُسساً روحية بالإضافة إلى الأُسس التأريخية، حيث يمكن الإشارة إلى هذه

---

١ ـ دائرة المعارف القرن العشرين مادّة (رهب).

٢ ـ تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٤٣ بتلخيص قليل، ونقل حديث آخر شبيه بهذا في الدرّ المنثور، ج٦، ص١٧٧.

٣ ـ تاريخ ويل دورانت، ج١٣، ص٤٤٣.

الحقيقة، وهي أنّ مسألة ردّ الفعل الروحي للأشخاص والأقوام تختلف فيما بينها مقابل الإندحارات والمصاعب التي يواجهوها. حيث يميل البعض نتيجة لذلك إلى الإنزواء والإنشغال بالأُمور الشخصية فقط، ويبعدون أنفسهم بصورة كاملة عن المجتمع والنشاطات الإجتماعية، في الوقت الذي يتعلّم آخرون من الإنتكاسات والمصاعب دروس الإستقامة والصلابة والقدرة على تحدّي المشاكل ومقاومتها.

ومن هنا فإنّ القسم الأوّل يلتمس طريق الرهبانية أو أي سلوك مشابه له، بعكس القسم الثاني الذي يصبح أكثر تماساً بالمجتمع وأقوى في مواجهة تحديّاته.

المفاسد الأخلاقية والإجتماعية الناشئة من الرهبانية

إنّ الإنحراف عن قوانين الخلقة غالباً ما يكون مصحوباً بإنفعالات سلبية، وبناءً على هذا فلا عجب فيمن يبتعد عن الحياة الإجتماعية التي هي جزء من فطرته أن يصاب بردود فعل شديدة، لذلك فإنّ الرهبانية ـ لأنّ منهجها خلافاً لطبيعة الإنسان وفطرته ـ فإنّها استبطنت مفاسد كثيرة من جملتها:

أوّلاً: أنّ الرهبانية تتعارض مع طبيعة الإنسان المدنية وبالتالي فإنّها تؤدّي بالمجتمعات الإنسانية إلى الإنحطاط والتخلّف.

ثانياً: ليست الرهبانية عائقاً عن كمال النفس وتهذيب الروح والأخلاق فقط، بل تجرّ إلى الإنحرافات الأخلاقية والكسل وسوء الظنّ والغرور والعجب والتشاؤم وما إلى ذلك، وعلى فرض أنّ الإنسان إستطاع أن يصل إلى فضيلة أخلاقية في حالة الإنزواء، فإنّها في الواقع لا تعدّ كذلك، إذ أنّ الفضيلة أن يحرّر الإنسان نفسه من التلوث الأخلاقي في قلب المجتمع.

ثالثاً: إنّ ترك الزواج والإعراض عنه، والذي هو من مبادىء الرهبانية، ليس فقط يعوق عن الكمال، بل هو سبب لظهور العقد والأمراض النفسية وما إلى ذلك.

ونقرأ في دائرة المعارف أنّ بعض الرهبان كانوا يعتبرون الإهتمام بجنس المرأة

عمل شيطاني، لحدّ أنّهم منعوا وجود أُنثى أي حيوان في الدير خوفاً من الروح الشيطانية لهذه الأُنثى التي قد تدنّس روحانيّتهم وتسبّب لها إنتكاسة.

ومع هذه الحالة فإنّ التأريخ يذكر لنا فضائح عديدة من الأديرة إلى حدّ أن وصفها (ويل دورانت) بأنّها بيوت للفحشاء والدعارة، ومراكز لتجمّع عبّاد البطون وطلّاب الدنيا واللاهين، بحيث أنّ أفضل المشروبات كانت توجد في الأديرة.

وطبقاً لشهادة التأريخ فإنّ السيّد المسيح عليه السلام لم يتزوّج أبداً، وهذا لم يكن بسبب موقف له من سنّة الزواج، بل لقصر عمره، وإنشغاله المستمر في مسؤولياته الرسالية التي كانت تستدعي منه السفر والتجوّل والتبليغ في المناطق النائية في العالم، وهي التي لم تسمح له بالزواج.

إنّ البحث حول الرهبانية يستحقّ كتاباً مستقلاً، وإذا أردنا أن نستفيض في هذا البحث فإنّنا سنخرج عن بحث التّفسير.

ونهي بحثنا هذا بحديث للإمام علي عليه السلام تعقيباً على المفهوم الذي طرحته الآية التالية حيث تقول الآية: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾[1]

فقد قال عليه السلام في تفسيرها: «هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري»[2].[3]

---

١ ـ الكهف، الآية ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢ ـ كنز العمّال، ج ٢، والحديث ٤٤٩٦.

٣ ـ الأمثل: ١٨/٨٣ ـ ٨٩.

١٧١

ماهو المقصود من المكاشفة والشهود القلبي؟

☑ إن أحد مصادر المعرفة هو «الشهود القلبي والمكاشفة».

وقبل كل شيء ينبغي تعريف هذا المصدر المجهول عند أكثر الناس، كي يتضح فرقه عن «الوحي» و«الالهام» و«الفطرة» و«الادراكات العقلية»، ولكي لا يحملَهُ الجهلة علىٰ «اتباع الظن».

ومن جهة اخرىٰ، لكي نحول دون استغلال هذا العنوان من قبل البعض، والنظر اليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر.

ان الكائنات علىٰ قسمين:

١ـ الكائنات التي يمكن إِدراكها بالحواس وهي «عالم الحس».

٢ـ الكائنات الخفية عن حواسنا وتلك هي «عالم الغيب».

لكن الانسان ـ أحياناً ـ ينفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكّنه من معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته)، وبتعبير آخر: تتكشف له بعض حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق عالم الحس، بل أوضح وأوثق.

ويقال لهذه الحالة «المكاشفة» أو «الشهود الباطني».

وهذا العلم هو المراد في الايتين (٥ و ٦) من سورة التكاثر حيث جاء فيهما: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾!

وقد جاء في المصادر الاسلامية المختلفة: إن «المجرمين» و«المؤمنين» تحصل لديهم هذه الحالة عند الاحتضار، فيشاهد المؤمنون عندها ملائكة الله المقدسين بينما يعجز الجالسون حولهم عن ذلك.

كما حصل هذا الامر لرسول الله ﷺ في غزوة الخندق عندما ضرب الرسول ﷺ الصخرة ثلاثاً وكان يظهر بريقاً في كل ضربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال: أضاءت الحيرة وقصور كسرىٰ في الاولى وفي الثانية أرض الشام والروم وفي الثالثة قصور صنعاء[1].

كما أنه قد حصل هذا لآمنة ام النبي الاكرم ﷺ عندما كانت حبلىٰ به حيث قالت: رأيت نوراً خرج مني شاهدت به قصور بلاد «بصرىٰ» في «الشام».

فهذه كلها لا وحي ولا إلهام قلبي، بل نوع من المشاهدة والادراك تختلف عن المشاهدة والإدراك الحسي.

وعلىٰ هذا، فالكشف والشهود ـ اختصاراً ـ عبارة عن: الدخول في عالم ما وراء الحس ومشاهدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنية، كالمشاهدة الحسية بل أقوىٰ، أو سماع تلك الحقائق بأُذن روحانية.

بالطبع لايمكن الوثوق بكلام كل من يدعي التحلي بهذه الملكة، إلاّ أنه ينبغي الاذعان بأصل وجود مصدر المعرفة، ثم عن كيفية الوصول إليه، ثم طرق تمييز المدعين الصادقين عن الكاذبين.[2]

---

١ ـ «الكامل في التاريخ»، الجزء ٢ الصفحة ١٧٩.

٢ ـ نفحات القرآن ج ١ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

١٧٢

كيف يمكن التوفيق بين تقسيم الأرزاق من قبل الله و السعي لطلب العيش؟

نقرأ في سورة الرعد الآية ٢٦ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ هنا يطرح هذا السؤال وهو أنّه كيف يمكن التوفيق بين تقسيم الأرزاق من قبل الله و السعي لطلب العيش؟

☑ لا نستفيد من الآية أعلاه فقط أنّ الرزق في زيادته ونقصانه بيد الله، بل نستفيد من آيات أُخر أنّ الله سبحانه وتعالى يبسط الرزق لمن يشاء وينقصه لمن يشاء، ولكن ليس كما يعتقده بعض الجهلاء من عدم الكسب والجلوس في زاوية البيت حتّى يبعث الله لهم الرزق، إن هؤلاء الأفراد ـ الذين يُعتبر تفكيرهم السلبي ذريعة لمن يقول بأنّ الدين أفيون الشعوب ـ قد غفلوا عن نقطتين أساسيتين هما:

أوّلاً: إنّ الإرادة والمشيئة الإلهيّة التي أشارت إليها الآيات القرآنية ليست مسألة إعتباطية وغير محسوبة، بل ـ وكما قلنا سابقاً ـ إنّ المشيئة الإلهيّة غير منفصلة عن حكمته جلّ وعلا وتدخل فيها الإستعدادات والتوفيقات.

ثانياً: إنّ هذه المسألة لا تعني نفي الأسباب، لأنّ عالم الأسباب هو عالم الوجود، وهذه العوالم وجدت بإرادة الله وهي غير منفصلة عن المشيئة التشريعيّة.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ إرادة الله في مجال بسط الرزق نقصه مشروطة بشرائط تتحكّم في حياة الناس، فالسعي والإخلاص والإيثار، وبعكس ذلك الكسل والبخل وسوء النيّة، لها دور فعّال وكبير، ولهذا السبب نرى القرآن الكريم يشير مراراً إلى أنّ الإنسان رهين بسعيه وإرادته وعمله، وما يستفيده من حياته إنّما هو بمقدار هذا السعي والإجتهاد ﴿ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾.

ولهذا فإنّ هناك باباً في السعي لتحصيل الرزق يذكره المحدّثون في موسوعاتهم الحديثة كـ «وسائل الشيعة» في باب التجارة، ويوردون أحاديث كثيرة في هذا المجال، كما أنّ هناك أبواباً أُخرىٰ تذمّ البطالة والكسل، ومن جملتها الحديث المرويّ عن الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «إنّ الأشياء لمّا إزدوجت إزدوج الكسل والعجز فنتجا بينهما الفقر»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام «لا تكسلوا في طلب معايشكم فإنّ آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّي لأبغض الرجل أن يكون كسلاناً عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل»[3].

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «إنّ الله تعالى ليبغض العبد النوّام، إنّ الله ليبغض العبد الفارغ»[4].[5]

---

١ ـ وسائل الشيعة، المجلّد ١٢، صفحة ٣٧.

٢ ـ وسائل الشيعة المجلّد ١٢ صفحة ٣٧ و ٣٨.

٣ ـ وسائل الشيعة المجلّد ١٢ صفحة ٣٨.

٤ ـ وسائل الشيعة المجلّد ١٢ صفحة ٣٧ و ٣٨.

٥ ـ الأمثل: ٧/ ٤٠٠ ـ ٤٠٢.

١٧٣

هل يجوز النّسخ في الأُحكام؟

☑ النسخ في اللغة الإزالة، وفي الإصطلاح تغيير حكم شرعي واحلال حكم آخر محله، من ذلك:

١ ـ المسلمون كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، واستمروا علىٰ ذلك ستة عشر شهراً، ثم نزل الأمر بتغيير القبلة، فوجب علىٰ المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

٢ ـ الآية ١٥ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بإمساكها في البيت حتى الوفاة، أو يجعل الله لها سبيلاً، والآية الثانية من سورة النور نسخت الآية المذكورة وبدّلت الحكم بمائة جلدة.

وهنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان في الحكم مصلحة فلماذا نُسخ؟ وإن لم يكن كذلك فلماذا شُرع ؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكماً غير قابل للنسخ؟

علماء الإسلام أجابوا منذ القديم علىٰ هذا السؤال، وتقرير هذا الجواب باختصار كما يلي:

نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطرة الإنسان وطبيعته، وبعضها الآخر تتغير بتغير الزمان وظروف البيئة، وهذه المتغيرات قد تضمن سعادة الإنسان في زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد في زمان آخر.

قد يكون نوع من الدواء نافعاً للمريض في ظرف زمني معين، وقد لا يكون نافعاً ـ بل ضاراً ـ في مرحلة نقاهة المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء في وقت، ثم يأمر بقطعه والإمتناع عن تناوله في وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيداً للطالب في مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة في المراحل الدراسة التالية. المنهج التعليمي الصحيح ينبغي أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب في كل مرحلة من مراحله الدراسية.

هذه المسألة تتضح أكثر في إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان والمجتمع الإنساني، هذا القانون لابدّ أن يتضمن متغيرات كي يكون المنهج التكاملي مفيداً لكل مراحل مسيرة المجتمع. وتزداد أهمية هذه التغييرات عند اندلاع الثورات الإجتماعية والعقائدية، وتزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير في كل مرحلة من مراحل الثورة.

لابدّ من التأكيد أنّ أُصول الأحكام الإلهية ثابتة لا يعتريها التغيير، فالتوحيد والعدالة الإجتماعية وسائر الأُصول والمبادىء المشابهة ثابتة لا تتغير، وإنما يطرأ التغيير علىٰ المسائل الفرعية والثانوية.

ومن الضروري أن نؤكد أيضاً أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، وتصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير (سنشرح مسألة خاتمية الرسالة في تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب).[١]

---

١ ـ الأمثل: ١/٣٣١ ـ ٣٣٣.

١٧٤

هل انّ سعود الأيّام و نحوستها أمر صحيح؟

☑ الشيء المتعارف بين الناس، هو أنّ بعض الأيّام سعيدة ومباركة، والبعض الآخر نحس ومشؤوم، مع وجود إختلاف كثير في تشخيصها.

ويدور الحديث حول مدى قبولها إسلامياً، وهل أنّها مأخوذة من تعاليم الإسلام أم لا؟.

من الناحية العقلية لا يعدّ إختلاف أجزاء الزمان من هذه الجهة محالاً، بأن يتّصف بعضها بالنحوسة والأُخرى بالبركة والسعد. ولا نملك أي إستدلال عقلي لإثبات أو نفي هذا المعنى، ولهذا نستطيع القول: إنّ هذا الأمر بهذا القدر شيء ممكن، ولكنّه غير ثابت من الناحية العقلية.

وبناءً على ذلك فإذا كانت لدينا دلائل شرعية لهذا المعنى ثبتت عن طريق الوحي فلا مانع من قبولها، بل الإلتزام بها.

وحول (نحس الأيّام) تشير الآيات القرآنية مرّتين إلى هذا الموضوع، الأُولى في الآيات مورد البحث، والثانية: في قوله تعالى: ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيّام نحسات**﴾[1][2].

---

١ ـ يجدر الإنتباه إلى أنّ نحسات جاءت صفة للأيّام، وذلك يعني أنّ الأيّام المذكورة وصفت

وفي مقابل «النحوسة» فإنّنا نلاحظ في بعض الآيات القرآنية تعبير (مبارك) كما في قوله تعالى حول ليلة القدر: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة﴾.[٣]

وقلنا إنّ «نحس» مأخوذ في الأصل من صورة الإحمرار الشديد في الأفق، الذي يشبه النار المتوهّجة الخالية من الدخان والتي يطلق عليها (النحاس). وبهذه المناسبة إستعمل في معنى الشؤم.

ومن هنا نلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يتطرّق لهذه المسألة إلّا من خلال إشارة مغلقة فقط. لكنّنا حينما نقرأ في الكتب الإسلامية، يواجهنا العديد من الرّوايات في هذا المجال، مع العلم أنّ الكثير منها ضعيف، وأنّ البعض الآخر منها موضوع أو ملفّق، أو مشوب بالخرافات. وليست جميعاً كذلك، بل هناك ما هو معتبر منها وموضع إطمئنان كما يؤكّد المفسّرون صحّة ذلك من خلال تفسير الآيات أعلاه.

ويذكر لنا المحدّث الكبير العلّامة المجلسي روايات عديدة في هذا المجال في بحار الأنوار[٤].

وفي هذا المجال نستطيع إيراد الملاحظات التالية:

أ ـ لقد ذكروا في روايات عديدة (سعد ونحس) الأيّام، وكذلك الحوادث التي وقعت فيها، حيث نقرأ في الرّواية التالية في أسئلة الشامي لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: (أخبرني عن يوم الأربعاء والتطيّر منه وثقله، وأي أربعاء هو). قال عليه السلام: «آخر أربعاء من الشهر، وهو المحاق، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، ويوم الأربعاء أرسل الله

⇦بالنحوسة، في الوقت الذي ذكرت كلمة (يوم) في الآية الكريمة (في يوم نحس مستمر) إضافة لـ (النحس) وليست وصفاً ولكن بقرينة الآية أعلاه يجب القول: إنّ الإضافة هنا تكون إضافة موصوف إلى صفة (يرجى الإنتباه).

٢ ـ فصّلت، ١٦.

٣ ـ الدخان، ٣.

٤ ـ بحار الأنوار، ج ٥٩ كتاب السماء والعالم، ص ١ ـ ٩١ وما بعدها.

عزّوجلّ الريح على قوم عاد»[١].

ومن هنا فإنّ الكثير من المفسّرين يرتّبون أثراً على هذه الرّوايات، ويعتبرون أنّ آخر أربعاء من كلّ شهر هو يوم نحس، ويطلقون عليه (أربعاء لا تدور) أي لا تتكرّر.

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ اليوم الأوّل من كلّ شهر هو سعد ومبارك، وذلك لأنّ آدم عليه السلام خلق في هذا اليوم، وكذلك فإنّ اليوم ٢٦ من كلّ شهر يوم مبارك، حيث: (ضرب موسى فيه البحر فانفلق)[٢].

كما أنّ اليوم الثالث من كلّ شهر، هو يوم نحس، نُزع عن آدم وحواء لباسهما وأُخرجا من الجنّة[٣].

كما أنّ اليوم السابع من كلّ شهر هو يوم مبارك، لأنّ نوح عليه السلام قد ركب في السفينة (ونجا من الغرق)[٤].

ونقرأ في الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المعنى حول يوم (النوروز) حيث يقول:

«... يوم مبارك إستوت فيه سفينة نوح على الجودي، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرائيل على النبي، وهو اليوم الذي حمل فيه رسول الله أمير المؤمنين على منكبه حتّى رمى أصنام قريش من فوق البيت الحرام فهشّمها ... وهو اليوم أمر النّبي أصحابه أن يبايعوا علياً بإمرة المؤمنين ...»[٥].

وقد إقترن سعد ونحس الأيّام بذكر بعض الوقائع التأريخية الحسنة والسيّئة كما

---

١ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٨٣ حديث (٢٥).
٢ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٠٥.
٣ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨.
٤ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦١.
٥ ـ بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٩٢.

في العديد من الرّوايات، فمثلاً ما ذكر عن يوم عاشوراء الذي إعتبره الأُمويون يوم سعد لمّا حقّقوا فيه وبظنّهم من إنتصار على أهل البيت عليهم السلام ... نلاحظ الرّوايات تنهى بشدّة عن التبرّك في مثل هذا اليوم، كما تحذر من إدّخار الأقوات السنوية فيه، والإبتعاد عن أجواء الإحتفالات التي كان يقيمها الأُمويون في هذا اليوم وكذلك تؤكّد على تعطيل الأعمال فيه.

ومن ملاحظة مجموعة الرّوايات السابقة، دفع البعض أن يفسّر مسألة سعد ونحس الأيّام على أنّها مجعولة من أجل شدّ المسلمين بهذه الحوادث التاريخيّة المهمّة، وحثّهم عمليّاً على تطبيق ما تستلزمه تلك الحوادث من التفاعل وما تفرزه من معطيات، وكذلك الإبتعاد عن محطّات الحوادث السيّئة وإجتناب سبلها.

ويمكن أن يصدّق هذا التّفسير في قسم من هذه الرّوايات ولا يصدق على القسم الآخر منها، ذلك لأنّ المستفاد من البعض منها أنّ هنالك تأثيراً ملموساً في بعض الأيّام (إيجاباً وسلباً) وليس لنا تفسير أو علم لهذا التأثير.

ب ـ ممّا يجدر الإنتباه إليه أنّ هنالك من يفرط في موضوع سعد ونحس الأيّام، بحيث إنّهم يمتنعون من الشروع بأي عمل إلّا بالإعتماد على هذه الخلفية، وبذلك يفوتون عليهم فرصاً كثيرة يمكن الإستفادة منها.

وبدلاً من التعمّق في البحث الموضوعي الذي تحسب فيه حسابات الربح والخسارة والإستفادة من الفرص والتجارب الثرية ... فإنّهم يرجعون كسب الأرباح إلى سعد الأيّام والإنتكاسات والخسارة إلى شؤم الأيّام ... وهذا المنهج يعبّر عن الإنهزام من الواقع والهروب من الحقيقة والإفراط في التعليل الخرافي لحوادث الحياة الذي يجب أن نحذّره ونتجنّبه بشدّة.

والجدير بنا في هذه المسائل أن لا نعطي آذاناً صاغية لأقوال المنجّمين والإشاعات المنتشرة في الأجواء الإجتماعية المتخلّفة، ولا لحديث أُولئك الذين يدّعون المعرفة المستقبلية لفأل الأشخاص، ونستمرّ في حياتنا العملية بجهد حثيث

وخطى ثابتة وبالتوكّل على الله وبروح موضوعية بعيدة عن التأثّر بهذه الحكايات والأقاويل، ونستمدّ من الله وحده العون والرعاية.

ج ـ إنّ مسألة الإهتمام بموضوع (سعد ونحس) الأيّام بالإضافة إلى أنّها ترشدنا للكثير من الحوادث التأريخيّة ذات العظة والعبرة، فإنّها أيضاً عامل للتوسّل بالله والتوجّه إلى رحاب عظمته السامقة، وإستمداد العون من ذاته القدسيّة، وهذا ما نلاحظه في روايات عديدة.

ففي الأيّام النحسة مثلاً نستطيع أن نطمئن نفسيّاً لممارستنا العملية وبكلّ تفاؤل وموفّقية، وذلك حينما ندعو الله ونطلب منه العون ونتصدّق على الفقراء، ونقرأ شيئاً من الآيات القرآنية ونتوكّل على الذات الإلهيّة المقدّسة.

روي عن علي بن عمر العطّار، أنّه قال: دخلت على أبي الحسن العسكري يوم الثلاثاء، فقال: لم أرك أمس؟ قال: كرهت الحركة في يوم الإثنين، قال: **«ياعلي من أحبّ أن يقيه الله شرّ يوم الإثنين، ليقرأ في أوّل ركعة من صلاة الغداة ﴿هل أتى على الإنسان ...﴾ ثمّ قرأ أبو الحسن: ﴿فوقّاهم شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسروراً﴾»**[1].

وفي هذا الصدد نقرأ الرّواية التالية أيضاً عن الحلبي عن أبي عبدالله الصادقعليه السلام، أيكره السفر في شيء من الأيّام المكروهة، الأربعاء وغيره؟ قال: **«افتتح سفرك بالصدقة، واقرأ آية الكرسي إذا بدا لك»**[2].

وذكر أيضاً عن الحسن بن مسعود أحد أصحاب الإمام علي الهادي عليه السلام أنّه قال: دخلت على أبي الحسن علي بن محمّد عليهما السلام، وقد نكبت إصبعي، وتلقّاني راكب فصدم كتفي، ودخلت في زحمة فخرقوا عليّ بعض ثيابي. فقلت: كفانا الله شرّك من

---

١ ـ بحار الأنوار، ج٥٩، ص٣٩، حديث ٧.

٢ ـ المصدر السابق، ص٢٨.

يوم فما أشأمك!. فقال ﷺ لي: «ياحسن هذا وأنت تغشانا ترمي بذنبك من لا ذنب له».

قال الحسن: فأناب إليّ عقلي، وتبيّنت خطأي، فقلت يامولاي: إستغفر لي.

فقال ﷺ: «ياحسن، ما ذنب الأيّام حتّى صرتم تتشاءمون منها إذا جوزيتم بأعمالكم».

قال الحسن: أنا أستغفر الله أبداً، وهي توبتي، يا ابن رسول الله.

قال ﷺ: «والله ما ينفعكم ولكنّ الله يعاقبكم بذمّها على ما لا ذمّ عليها فيه، أما علمت ياحسن أنّ الله هو المثيب والمعاقب والمجازي بالأعمال عاجلاً وآجلاً؟».

قلت: بلى يامولاي.

قال ﷺ: «لا تعد ولا تجعل للأيّام صنعاً في حكم الله».

قال الحسن: بلى يا ابن رسول الله[1].

إنّ هذا الحديث الهامّ يشير إلى أنّ التأثير الممكن حصوله في الأيّام مردّه إلى أمر الله، وليس للأيّام تأثير مستقل على حياة الإنسان، ولابدّ من إستشعار لطف الله دائماً، الذي لا غنى لنا عنه أبداً، وبذلك لا ينبغي أن نتصوّر الحوادث التي هي بمثابة كفّارة لأعمالنا وسيآتنا غالبا على أنّها مرتبطة بتأثير الأيّام ونبرّيء أنفسنا منها، ولعلّ هذا البيان أفضل طريق للجمع بين الأخبار المختلفة في هذا الباب.[2]

١ ـ تحف العقول، عن بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢ بإختصار.

٢ ـ الأمثل: ١٧/٣١٩ ـ ٣٢٤.

١٧٥

كيف تنسجم قصّة أصحاب الكهف مع العلوم الحديثة؟

☑ قد يشك البعض في طول المدة التي قضاها أصحاب الكهف في نومهم، ويعتبر أنَّ ذلك لا ينطق مع المعايير العلمية، لذلك يضعها في قسم الأساطير والقصص الخرافية (!!!) والذرائع التي يستند إليها هؤلاء هي:

أوّلاً: إنَّ هذا العمر الطويل أمرٌ غير مألوف في حياة الأشخاص العاديين المستيقظين، فكيف يصح تصوره لناسٍ نيام؟!

ثانياً: إذا اقتنعنا بهذا العمر الطويل بالنسبة للأشخاص العاديين الذين يُمارسون الحياة بشكلٍ طبيعي، فإنَّ ذلك غير ممكن بالنسبة للنائمين، لأنَّ هُناك مُشكلة الطعام والشراب، إذ كيف يمكن للإنسان أن يبقىٰ طيلة هذه المدّة بدون طعامٍ أو شراب، وإذا افترضنا مثلاً أنَّ الإنسان يحتاج يومياً إلىٰ كيلو غرام واحد مِن الطعام أو لتر واحد مِن الماء، فإنَّ أصحاب الكهف كانوا بحاجة، أثناء نومهم، إلىٰ (١٠٠) طن مِن الطعام و(١٠٠٠٠٠) لتر مِن الماء، ومِن الطبيعي أنَّ الجسم لا يستطيع خزن كل هذه الأحجام والكميات مِن الماء والطعام.

ثالثاً: إذا تجاوزنا كل الأُمور السابقة، فسوف تكون أمامنا مُشكلة جديدة، وهي

أن جسم الإنسان لا يستطيع أن يبقىٰ كل هذه الفترة الطويلة مِن دون أن تتأثّر أجهزته وتتضرّر بأضرارٍ فادحة.

إنَّ هذه الأُمور قد تبدو للوهلة الأُولىٰ مانعاً مِن التصديق بقصّة أصحاب الكهف، في حين أنَّ الأمر ليسَ كذلك، إذ يُمكن مُناقشة الأُمور السابقة وفقاً لما يلي:

أوّلاً: لا تعتبر قضية العمر الطويل قضية غير علمية، حيثُ أنّنا نعلم أنَّ طول عمر أي كائن حي ليسَ لها مِن الوجهة العلمية ميزان ثابت مِن حيث المدّة والعمر، بحيث يكون موت الكائن عندَ هذا الحد المُفترض أمراً حتمياً.

بعبارة أُخرىٰ: صحيح أنَّ الطاقة الجسمية للإنسان مهمّا بلغت فهي محدودة ولا بدَّ أن تنتهي، إلّا أنّ هذا الكلام لا يعني أنَّ جسم الإنسان ـ أو أي كائن حي آخر ـ ليست لهُ قابلية البقاء أكثر مِن المقدار المألوف والمتعارف عليه.

أي إن المسألة ليست كالقوانين الطبيعية، فمثلاً الماء يغلي في درجة حرارة (١٠٠) مئوية ويتجمد في درجة الصفر المئوي، فكذلك الإنسان إذا وصل إلىٰ عمر المائة سنة أو المائة وخمسين سنة فإنَّ قلبه سيتوقف عن العمل.

إنَّ المسألة ليست علىٰ هذه الشاكلة، بل إنَّ ميزان طول عمر الكائنات الحية يرتبط ارتباطاً كبيراً بوضعهم المعيشي، فعندما تتغيَّر الظروف بالكامل تكون الموازين قابلة للتغيير هي الأُخرىٰ.

والدليل علىٰ ما نقول، هو أنّنا لم نَر أحداً مِن علماء العالم قد حدَّدَ ميزاناً معيناً لمعر الإنسان، ومِن جانب ثان استطاعوا مِن خلال تجارب مختبرية مِن زيادة عمر بعض الكائنات إلىٰ الضعفين، أو الثلاثة في بعض الأحيان، واستطاعوا في أحيانٍ أُخرىٰ أن يفعلوا ذلك بنسبة (١٢) مرّة أو أكثر قياساً للعمر المألوف.

واليوم فإنَّ هؤلاء العلماء يأملون بأن الإنسان يمكنهُ ـ في المستقبل ومع ظهور أساليب علمية جديدة ـ أن يعيش عدَّة أضعاف عمره الطبيعي.

هذا فيما يخص أصل قضية طول العمر.

ثانياً: أمّا فيما يخص الطعام والشراب أثناء فترة النوم الطويل، فنقول: إنّ نوم أصحاب الكهف لو كان عادياً وطبيعياً فنستطيع عندها أن نقبل بالإشكالات والإعتراضات السابقة. أمّا مِن الوجهة العلمية فإنّ الأصول العلمية تقول: إنّ حاجة الجسم إلىٰ الطاقة الغذائيه أثناء النوم أقل مِن حاجته إليها اليقظة، إلّا أنّ الجسم مع ذلك لا يستطيع أن يدَّخر ما يلزمه مِن طاقة غذائية لنوم طويل كنوم أصحاب الكهف.

وهنا ينبغي الإلتفات إلىٰ أنّ هناك أنواعاً مِن النوم في عالم الطبيعة تكون فيها حاجة الجسم إلىٰ الغذاء قليلة للغاية، كما في حالة السُبات مثلاً.

حالة السُبات:

هناك العديد من الأحياء تنام في فصل الشتاء ويسمّىٰ نومها علمياً بـ«السُبات».

في هذا النوع مِن النوم تتوقف فعاليات الحياة تقريباً، وتكون بأضعف حالة.

فالقلب يتوقف عن العمل تقريباً، وبعبارة أصح تكون ضرباته قليلة للغاية بحيث لا يمكن الإحساس بها أبداً.

في هذه الحالات يُمكن تشبيه الجسم بالفرن العظيم الذي لا تبقىٰ فيه بعد انطفائه سوىٰ شُعلة أو شمعة صغيرة دائبة الإشتغال. وواضح أنّ الطاقة التي تحتاجها هذه الأفران (من النفط أو غير) للإشتعال الطبيعي يُعادل ما تحتاجه الشمعة الصغيرة مِن طاقة للإشتعال، لعشرات أو مئات السنين. (يمكن أن نطبّق المثال علىٰ ما نحنُ فيه فتكون حالة اشتعال الفرن الطبيعي في شبيهة بحالة اليقظة. أمّا حاله اشتعال الفرن علىٰ الشعلة الصغيرة فقط فهي شبيهة بحالة السُبات والنوم الطويل).

مِن جهة أُخرىٰ يقول العلماء عن سُبات بعض الأحياء: إنّنا إذا أخرجنا إحدىٰ الزواحف وهي في حالة سبات، فسوف نراها وكأنّها ميتة، فلا هواء في رئتيها، وضربات القلب ضعيفة بحيث لا يمكن الإحساس بها. ومن بين الحيوانات ذات الدم البارد نستطيع أن نعدِّد الفراشات والحشرات والحلزون والزحافات وكلها تقوم

بحاله السُبات. كما أنَّ بعض الحيوانات ذات الأثدية (ذات الدم الحار) تقوم بالسبات أيضاً. وفي فترة السبات تكون الفعاليات الحياتية ضعيفة للغاية، وتقوم الحيوانات السابتة باستهلاك المواد الدهنية المخزونة بالجسم بالتدريج»[١].

المقصود مِن كل هذا العرض هو أن نقول: إنَّ هناك نوعاً مِن النوم تكون الحاجة فيه إلىٰ الطعام قليلة جدّاً، وقد تصل النشاطات الحياتية في مثل هـذه الحـالة إلىٰ درجة الصفر.

وبالمناسبة، نذكر هُنا أنَّ هذا الأمر يُساعد في منع تلاشي أعـضاء الجسـم أو تضرُّر الأجهزة الجسمية، ويعين ـ أيضاً ـ علىٰ طول عمر الكائن الحي.

إنَّ السُبات بالنسبة للحيوانات التي لا تستطيع الحصول علىٰ غذائها فرصة ثمينة للغاية لكي تُديم حياتها عن هذا الطريق.

نموذج آخر: دفن المرتاضين

فيما يخص المرتاضين يُشاهد أنَّ بعضهم يتمّ وضعهُ بالتابوت ويـدفن أحـياناً تحت التراب لمدّة أسبوع، وذلك أمام عيون المشاهدين الحـيارىٰ التـي لا تكـاد تصدِّق ما ترىٰ، وبعد أن تنتهي المدَّة المقرَّرة يـتمّ إخـراجـه ويـجري لهُ التـدليك والتنفس الإصطناعي حتىٰ يعود إلىٰ حالته الطبيعية.

وحتىٰ لو افترضنا أن حاجة أجسادهم إلىٰ الطعام غير ملحّة، فإنَّ الحاجة إلىٰ الأوكسجين حاجة مهمّة للغاية ولا يمكن للجسم التخلّي عنها، إذا نعرف هُـنا أنَّ حساسية الخلايا المخية للاوكسجين وحاجتها إليه كبيرة للغاية، بحيث إذا حُرِمت مِنها لبضعة دقائق فإنّها ستتلف.

والآن يتساءل: كيف يتحمَّل الشخص المرتاض قلّة الأوكسجين مثلاً لمدّة قـد

---

١ ـ إقتباس عن دائرة المعارف الفارسية الجديدة، مادة (سُبات).

تصل إلىٰ حدود الأسبوع؟

الجواب علىٰ هذا السؤال ـ ومع مُراعاة ما ذكرناه قبل قليل ـ ليسَ بالأمر الصعب، ففي هذه المدَّة تتوقف (تقريباً) الفعاليات الحياتية لجسم المرتاض، لذا فإنَّ حاجة الخلايا للأوكسجين واستهلاكها لها ستقل بشدَّة، بحيث أنَّ الهواء الموجود في فضاء التابوت يكفي في هذه المدَّة لتغذية الخلايا.

تجميد جسم الإنسان وهو حي:

اليوم ثمّة نظريات كثيرة حول تجميد جسم الأحياء بما فيهم الإنسان (لزيادة العمر) وقد تمَّ تنفيذ قسم مِن هذه النظريات في الوقت الحاضر.

طبقاً لهذه النظريات، فإنَّه عند وضع جسم الإنسان أو أي حيوان في درجة حرارة تحت الصفر ـ بأُسلوبٍ خاص ـ فإنَّ حياته ستتوقف بدون أن يموت. وبعد مُدَّة معينة يوضع الكائن في درجة حرارية معينة حيثُ يرجع إلىٰ الحالة العادية.

وقد تمَّ اقتراح مجموعة حالات مِن هذه الحالة للإفادة منها في الرحلات الفضائية إلىٰ الكواكب البعيدة التي يستغرق الوصول إليها مئات أو آلاف السنين، حيثُ يتمّ تجميد أجسام روّاد الفضاء في محفظة خاصّة، وبعد سنين طويلة، وعند الإقتراب مِن الكواكب المعنية ترجع الحرارة العادية إلىٰ تلك المحفظة بشكلٍ أوتوماتيكي، وعندها سيعود هؤلاء الروّاد إلىٰ حالتهم العادية دون أن يحدث أي ضرر لهم.

ذكرت إحدىٰ المجلات العلمية أنَّ كتاباً صدر مُؤخراً حولَ تجميد جسم الإنسان بهدف إطالة عمره بقلم «روبرت نيلسون» وكانَ لهذا الكتاب صدىً واسعاً في عالم المعرفة. ففي المقالة التي نشرتها تلك المجلة في هذا المجال، ذكر الكاتب أنَّهُ تمَّ أخيراً إضافة فرع علمي جديد إلىٰ الفروع العلمية الأُخرىٰ، يتكفل التخصص في هذا المجال.

ونقرأ في تلك المقالة أيضاً: «لقد كانت الحياة الأبدية ـ علىٰ طـول التأريـخ ـ حُلماً مِن الأحلام الذهبيه والقديمة للإِنسان، وفي الوقت الحاضر فقد تحقق هـذا الحلم، والسبب يعود إلىٰ التقدُّم العجيب لعلمٍ حديث يسمّىٰ (كريونيك) وهو عـلم يرسل الإِنسان إلىٰ عوالم الإِنجماد، ويحفظهُ علىٰ شكل جسد مُنجمد علىٰ أمل أن يستطيع العلماء إعادته يوماً إلىٰ الحياة مرّة أُخرىٰ.

هل يمكن تصديق هذا الكلام؟ هُناك العديد مِن العلماء البارزين الذين يقومون بالتفكير في هذا الأمر مِن جوانبه المختلفة. وهناك نشريات كثيرة تقوم ببحث هذا الموضوع مثل (لايف) و(اسكواير) والصحف العالمية في مُـختلف أنـحاء العـالم. والأهم مِن ذلك أنَّ هُناك برنامج فـي هـذا المـجال هـو قـيد التـنفيذ فـي الوقت الحاضر[١].

لقد أعلنت الصحف قبل مُدَّة عن اكتشاف سمكّة مُنجمدة بـين ثـلوج القـطب الشمالي يعود عمرها إلىٰ آلاف السنين، كما تبيَّن ذلك مِن طبقات الثلج القشـرية، وبعد أن وُضعت السمكّة في ماء معتدل عادت إلىٰ حياتها الطبيعيه وبدأت بالحركة وسط دهشة الجميع.

ويتّضح مِن ذلك أنَّ الأجهزة الحياتية لا تتوقف بالكامل في حالات الإِنجماد، ولكن في هذه الظروف التي لا يمكن معها ممارسة الحياة الطبيعية يصبح عمل تلك الأجهزة بطيئاً للغاية.

ومن مجموع هذه الأحاديث يتبيّن أنّهُ بالإِمكان إيقاف الحياة أو تعويق حركتها بشدة والبحوث العلمية دعمت إِمكانية ذلك من جوانب مختلفة. وفـي مـثل هـذه الحالة يصل استهلاك البدن للطعام لدرجة الصفر تقريباً، وبذا يكفيه المخزون القليل المُدَّخر في الجسم لإِدامة الحياة البطيئة لسنوات طويلة.

ويجب أن لا يُفَسَّر كلامنا هذا بأنّنا نستهدف انكار الجانب الإِعجازي في نوم

١ ـ مجلة «دانشمند»، عدد ٤٧، ص ٤.

أصحاب الكهف، بل نريد أن نقرّب الأمر للأذهان من وجهة نظر العلم. إذ من المحتم أنَّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً كمنامنا في الليل، لقد كان نومهم ذا جنبة إستثنائية، لذلك فلا عجب في نوم هؤلاء هذه المدّة الطويلة (بإرادة الله) من دون أن يكونوا بحاجة إلىٰ الشراب والطعام، ومن دون أن تتضرَّر أجسامهم وأجهزتهم الحيويه.

والطريف في الأمر أنّنا نستفيد من آيات سورة الكهف أنَّ طبيعة نومهم كانت تختلف عن النوم العادي: **﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ... لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت مِنهم رُعباً﴾**[1]. إنَّ هذه الآية تدل علىٰ أن نومهم لم يكن نوماً عادياً، بل هو أشبه ما يكون بحالة الميت. (ذي العيون المفتوحة).

إضافة إلىٰ ذلك تفيد آيات السورة أنَّ نور الشمس لم يكن يشع داخل كهفهم، ولأنَّهُ من المحتمل أن يكون الكهف في جبال آسيا الصغرىٰ، وفي منطقة باردة، فإنَّ ذلك يعدّ مؤشراً علىٰ الحالة الإستثنائية لنومهم، ومِن جانبٍ آخر فإنَّ القرآن يقول: **﴿ونُقلبهّم ذات اليمين وذات الشمال﴾**[2].

ومِن الآية يتبيّن أنّهم لم يكونوا علىٰ حالةٍ واحدة، وأنَّ هناك عوامل وقوىٰ غيبية خفية غير واضحة لنا كانت تقلبهم نحو اليمين واليسار (احتمالاً في كل سنة مرَّة واحدة) حتىٰ لا تتضرَّر أجسامهم.

والآن وبعد أن اتّضحت الجوانب العلمية في هذا البحث، فإنَّ المعاد لم يعد يحتاج إلىٰ كلامٍ كثير، لأنَّ اليقظة بعد ذلك النوم الطويل تشبه الحياة بعد الموت وتقرّب إلىٰ الأذهان قضية المعاد[3] [4].

---

١ ـ الكهف، ١٨.

٢ ـ الكهف، ١٨.

٣ ـ لتفاصيلٍ أكثر يُراجع كتاب: المعاد والحياة بعد الموت.

٤ ـ الأمثل: ٩/٢٤٤ ـ ٢٥٣.

١٧٦

ما هو المقصود من السموات السبع؟

☑ إن الحديث عن (السموات السبع) ورد في سبع آيات من القرآن الكريم[١].

ومن بين جميع التفاسير المختلفة التي ذُكرت عن السموات السبع، يظهر أن التفسير الصحيح هو إنّ المقصود من «السموات السبع» هو المعنىٰ الحقيقي للسموات السبع، أي انّ السماء لا تعني الكرات، بل مجموعة النجوم والكواكب في العالم العلوي، والمقصود من العدد (سبعة) هو الرقم المعروف، وليس هو للكثرة.

أنّه ما يظهر من الآيات الاخرىٰ هو انّ كل ما نراه من نجوم ثابتةٍ، وسيّارة، ومجرّات، وسُحُبٍ يتعلّق (بالمجموعة السماويّة الأولىٰ) وعليه فهناك ست مجاميع عظيمة اخرىٰ (ست سموات) تلي هذه المجموعة العظيمة، حيث أنّ بعضها أكبر من البعض الآخر، وتلك خارجة عن متناول علم الإنسان (لحد الآن علىٰ الأقل).

---

١ ـ البقرة، ٢٩، الأسراء ٤٤، المؤمنون ٨٦، فصلت ١٢، الطلاق ١٢، الملك ٣، نوح ١٥ (واشير في آيتين (المؤمنون ١٧ ـ النبأ ١٢) الى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً أيضاً حيث يمكن أن يكونا اشارة الى السموات السبع أيضاً.

نقرأ في الآية ٦ من سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾.

وجاء في الآية ١٢ من سورة فصلت: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾.

ورد هذا المعنىٰ أيضاً باختلاف طفيفٍ في الآية الخامسة من سورة الملك.

والجدير بالذكر انّ المرحوم العلامة المجلسي قد ذكر هـذا الاحـتمال كأحـد التفاسير لهذه الآية اذ يقول: «الثالث: ما خطر بالبال القاصر، وهو أن تكون جميع الافلاك الثمانية التي اثبتوها لجميع الكواكب فلكاً واحداً مسمىٰ بالسماء الدنيا»[١].

صحيح أنّ معداتنا العلميّة الحديثة ثم تكشف استار عن العوالم الستة الاخرىٰ غير أنّه ليس هناك من دليل ينفيها من الناحية العلميّة أيضاً، ويحتمل أن يكشـف النقاب عن هذا السر في المستقبل.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أنّ هناك الآن براهين تلوح في الأفق عن وجود عوالم اخرىٰ شبيهة لما نقلناه آنفاً عن مرصد (بالومار) الشهير فيما يتعلّق بعظمة العالم، ونكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا «تمّ اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنةٍ ضوئيّة، لكن هناك فضاءاً عظيماً مهيباً ومظلماً لم يُر أي شيء من خلاله أبداً ويبعد مسافة مليار سنة ضوئيّة، إلّا أنّ مما لاشك فيه وجود مئات الملايين من المجرّات في ذلك الفضاء المهيب المظلم، حيث تصان الدنيا من خلال جاذبيّة تلك المجرات، ويُعتقد أنّ هذه الدنيا العـظيمة التي نراها ليست سوىٰ ذرّةٍ صغيرة متناهيةٍ من عالم أعظم، ولسنا نقطع بعدم وجود عالم آخر في مكان آخر من الدنيا»[٢].

يقول أحد العلماء في مقالٍ كتبه حول عظمة عالم الوجود، بعد ذكر المسافات

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٧٨.

٢ ـ مجلة الفضاء، العدد ٥٦، ١٣٥١ .

الهائلة والمذهلة للمجرّات، وبيان الأرقام المدهشة المحددة طبقاً الى السنة الضوئيّة ما يأتي:

«لا زال المنجّمون يعتقدون أنّهم لم يقطعوا سوىٰ منتصف طريق ما يُمكن رؤيته من العالم العظيم، ولا زال عليهم اكتشاف فضاءات أخر غير مكتشفة»[١]

وعليه فإنّ العوالم التي تكشّفت للبشر لحد الآن مع عظمتها ما هـي الاّ زاويـة صغيرة من هذا العالم الكبير، وتصلح للمطابقة مع مسألة السموات السبع.[٢]

١ ـ مجلة «نيوزويك» السنة ١٩٦٤ (لا ينبغي ان ننسىٰ إنّ هذه الشهادة تعود الى ما قـبل ٢٤ سنة).

٢ ـ نفحات القرآن: ٢/١٩١ .

١٧٧

هل انطفاء المنظومة الشمسيّة و النجوم يتماشى مع العلوم الحديثة؟

نقرأ في سورة التكوير ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ هنا يطرح هذا السؤال: هل انطفاء المنظومة الشمسيّة و النجوم يتماشىٰ مع العلوم الحديثة؟

☑ قبل البدء بالإجابة لابدّ من بيان بعض ما توصل إليه العلم الحديث بخصوص المنظومة الشمسية:

إنّ الشمس (التي تعتبر مركز المنظومة الشمسية) متوسطة الحجم نسبةً إلى بقية النجوم السابحة في السماء، ولكنّها نسبة إلى الأرض كبيرة جدّاً، حيث قدّر العلماء حجمها بما يعادل (١،٣٠٠،٠٠٠) مرة بقدر حجم الأرض، ونظراً لبعدها عن الإرض، (حيث قدرت بـ (١٥٠،٠٠٠،٠٠٠) كيلومتر)، فترىٰ لناظرينا بهذا الحجم المحدود...

ويكفينا أن نتلمس عظمة حجم الشمس، فيما لو فرضنا بإدخال الكرة الأرضية مع القمر في باطن الشمس وبذات الفاصلة الموجودة حالياً ما بين الأرض والقمر،

ففي هذه الحال. سوف لا يواجه القمر أية صعوبة بالدوران حول الأرض من دون أن يخرج من سطح الشمس!

أمّا درجة حرارة سطح الشمس فتبلغ (٦،٠٠٠) درجة مئوية، وتصل درجة حرارة أعماق الشمس إلى عدّة ملايين درجة مئوية!!

وإذا ما أردنا أن نزن الشمس بالأطنان، فسيواجهنا العدد (٢) وبيمينه (٢٧) صفراً، أي (ملياري مليار مليار طن)!

وتصل ألسنة نيران سطح الشمس في بعض الأوقات إلى ارتفاع (٦٠،٠٠٠) كيلومتر، وبإمكان تلك الألسنة أنْ تلف الأرض وما عليها و بكل يسر، لأنّ قطر الكرة الأرضية لا يتجاوز ألـ (١٢،٠٠٠) كيلومتر.

ومصدر حرارة ونور الشمس الخارجة منها، على خلاف ما يتصوره البعض من كونهما ناشئين من احتراق شيٍ ما، وكما يقول مؤلف كتاب (ولادة وموت الشمس)، أن لو كانت الشمس، عبارة عن جرم من الفحم الحجري الخالص، لما استمرت لهذا اليوم، ولو قدّرنا بدأ احتراقها منذ عصر أول فراعنة مصر، لكان في يومنا المعاش قد احتراق بأكمله ونفد، وإذا ما قيل بأيّة مادة أُخرىٰ غير الفحم الحجري، فلا تغيّر من النتيجة الحاصلة.

وحقيقة الأمر، أنّ مفهوم الإحتراق لا ينطبق على الشمس، بقدر ما ينطبق عليها مفهوم الطاقة الحاصلة من التجزئة الذريّة، ولمّا كانت الطاقة عظيمة جدّاً، فذرات الشمس في حالة تجزئة وتبديل إلىٰ طاقة وبشكل مستمر.

واستناداً إلى حسابات العلماء: فإنّ كلَّ ثانية تمرّ من عمر الشمس ينتقص من وزنها ما يقارب «اربعة ملايين طناً»! أمّا حجمها فلم يمسسه أيّ شيٍ من التغيير رغم مرور السنين المديدة على عمرها!

وينبغي التسليم أنّ خاتمة الشمس لابدّ منها، وعجلة الزمن الدائبة ستوصل إلى ذلك الحدث، ولابدّ من مجيٍ ذلك اليوم الذي سيشهد اضمحلال حجم هذا الجرم

الكبير وإخماد نوره، كما هو حال وشأن بقية النجوم[١].

فالعلم الحديث إذَنْ، قد أثبت الحقائق العلمية التي طرحها قبل ألف وأربعمائة سنة إلّا دليل قاطع على ما نقول.[٢]

---

١ ـ اقتبس هذا الكلام من ثلاثة كتب: (ولادة و موت الشمس)، (النجوم من دون تـلسكوب) و(بناء الشمس).

٢ ـ الأمثل: ١٩/٤٥٦ ـ ٤٥٨.

١٧٨

ماهو السحر؟

☑ الحديث عن السحر وتاريخه طويل، ونكتفي هنا بالقول إن جذوره ضاربة في أعماق التاريخ، ولكن بداياته وتطوراته التاريخية يلفّها الغموض ولا يمكن تشخيص أول من استعمل السحر.

وبشأن معناه يمكن القول: إنه نوع من الأعمال الخارقة للعادة، تؤثر في وجود الإنسان، وهو أحياناً نوع من المهارة والخفة في الحركة وإيهام للأنظار، كما إنه أحياناً ذو طابع نفسي خيالي.

والسحر في اللغة له معنيان:

١ ـ الخداع والشّعوذة والحركة الماهرة.

٢ ـ كل ما لطف ودقّ.

والراغب ذكر للفظ السحر ثلاثة معانٍ قرآنية:

الأوّل: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع.

الثّاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه.

الثّالث: هو اسم لفعل يزعمون أنه من قوّته يغيّر الصور والطبائع فيجعل الإنسان حماراً، ولا حقيقة لذلك[١].

نستنتج من دراسة ٥١ موضعاً من مواضع ذكر كلمة «سحر» في القرآن الكريم أن السحر ينقسم في رأي القرآن الكريم علىٰ قسمين:

١ ـ الخداع والشعبذة وخفة اليد وليس له حقيقة كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[٢] وقوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[٣] ويستفاد من هذه الآيات أن السحر ليس له حقيقة موضوعية حتى يمكنه التأثير في الاشياء، بل هو خفة حركة اليد ونوع من خداع البصر فيظهر ما هو خلاف الواقع.

٢ ـ يستفاد من آيات أُخرىٰ أن للسحر أثراً واقعياً، كقوله سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ كما مرّ في الآيات التي نحن بصددها.

وهل إن للسحر تأثيراً نفسياً فقط، أم يتعدى ذلك إلى الجسم أيضاً؟ لم تشر الآيات أعلاه إلى ذلك، ويعتقد بعض النّاس أن هذا التأثير نفسي لا غير.

جدير بالذكر أن بعض ألوان السحر كانت تُمارس عن طريق الإستفادة من خواص المواد الكيمياوية والفيزياوية لخداع النّاس. فيحدثنا التاريخ أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم وعصيّهم مادة كيمياوية خاصّة (ولعلها الزئبق)، كانت تتحرك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة أُخرىٰ، وتوحي للمشاهد أنها حيّة. وهذا اللون من السحر ليس بقليل في عصرنا الرّاهن.

---

١ ـ مفردات الراغب، مادة سحر.

٢ ـ طه، ٦٦.

٣ ـ الأعراف، ١١٦.

السّحر في رأي الإسلام

أجمعت الفقهاء علىٰ حرمة تعلم السحر وممارسته، وجاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مَنْ تَعَلَّمَ مِنَ السِّحْرِ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً فَقَدْ كَفَرَ وَكَانَ آخِرُ عَهْدِهِ بِرَبِّهِ»(١).

ولكن ـ كما ذكرناه يجوز تعلم السحر لإبطال سحر السحرة، بل يرتفع الجواز أحياناً إلى حد الوجوب الكفائي، لإحباط كيد الكائدين والحيلولة دون نزول الأذى بالنّاس من قبل المحتالين. دليلنا علىٰ ذلك حديث روي عن الإمام أبي عبد الله جعفر محمّد الصادق عليه السلام:

«كَانَ عِيَسىٰ بْنُ شَقفَىٰ سَاحِراً يَأْتِيهِ النَّاسُ وَيَأْخُذُ عَلىٰ ذَلِكَ الْأَجْرَ فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنَا رَجُلٌ كَانَتْ صِنَاعَتِي السِّحْرُ وَكُنْتُ آخِذُ عَلَيْهِ الْأَجْرَ وَكَانَ مَعَاشِي وَقَدْ حَجَجْتُ مِنْهُ وَمَنَّ اللهِ عَلَيَّ بِلِقَائِكَ وَقَدْ تُبْتُ إِلىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهَلْ لِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجٌ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ حُلَّ وَلاَ تَعْقُدْ»(٢).

ويستفاد من هذا الحديث أن تعلّم السحر والعمل به من أجل فتح وحلّ عقد السحر لا إشكال فيه.(٣)

---

١ ـ وسائل الشيعة، الباب ٢٥، من أبواب ما يكتسب به، حديث ٧.

٢ ـ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٠٥، ح ٥.

٣ ـ الأمثل: ١/٣٢٢ ـ ٣٢٤.

١٧٩

ما هو المقصود من التقيّة؟

صحيح أنّ الإنسان قد يضحّي حتّى بحياته من أجل هدف كبير ولصيانة الشرف ونصرة الحقّ وقمع الباطل، ولكن هل يجيز عاقل لنفسه أن تتعرّض للخطر دون أن يكون أمامه هدف هام؟

الإسلام يجيز الإنسان صراحة أن يمتنع عن إعلان الحقّ مؤقّتاً وأن يؤدّي واجبه في الخفاء حين يعرضه ذلك لخطر في النفس والمال والعرض وحين لا يكون للإعلان نتيجه مهمّة وفائدة كبيرة. كما جاء في هذه الآية، وكما جاء في الآية ١٠٦ من سورة النحل حيث يقول: **﴿إلّا من أُكره وقلبه مطمئّن بالإيمان﴾**.

إن كتب التاريخ والحديث الإسلامي مازالت تحفظ حكاية «عمّار» وأبيه وأُمّه إذ وقعوا في قبضة عبدة الأصنام الذين راحوا يعذّبونهم لكي يرتدّوا عن الإسلام. فرفض والدا عمّار ذلك فقتلهما المشركون. غير أنّ عمّاراً قال بلسانه ما أرادوا أن يقوله، ثمّ هرع باكياً إلى رسول الله ﷺ خوفاً من الله، فقال له رسول الله ﷺ: **«إن عادوا لك فعد لهم»** أي إذا قبضوا عليك مرّة أُخرى وطلبوا منك أن تقول شيئاً فقله، وبهذا هدأ روعه وزال عنه خوفه.

لابدّ من الإشارة إلى أنّ حكم التقية يختلف باختلاف الظروف، فهي قد تكون واجبة، وقد تكون حراماً، وقد تكون مباحة.

تجب التقية حيثما تتعرّض حياة الإنسان للخطر دونما فائدة تذكر. أمّا إذا كانت التقية سبباً في ترويج الباطل وضلالة الناس وإسناد الظالم فهي هنا حرام.

وهذا جواب لجميع الإعتراضات التي ترد بهذا الشأن. لو أنّ المعترضين دقّقوا في البحث لأدركوا أنّ الشيعة ليسوا منفردين بهذا الاعتقاد، بل أنّ التقية في موضعها حكم عقلي قاطع ويتّفق مع الفطرة الإنسانية.

فجميع عقلاء العالم ـ حين يرون أنفسهم أمام طريقين: إمّا الإعلان عن عقيدتهم والمخاطرة بالنفس والمال والكرامة، أو إخفاء معتقداتهم ـ يمعنون النظر في الظروف القائمة. فإن كان الإعلان عن العقيدة يستحقّ كلّ هذه التضحية بالنفس والمال والكرامة اعتبروا إعلانها عملاً صحيحاً، وإن لم يكن للإعلان نتيجة تذكر تركوا ذلك.

التقية أو تغيير أُسلوب النضال:

في تاريخ النضالات الدينية والإجتماعية والسياسية حالات إذا أراد فيها المدافعون عن الحقّ أن يناضلوا علانية، فإنّهم يتعرّضون للإبادة هم ومبادؤهم أو يواجهون الخطر على الأقلّ، مثل الحالة التي مرّ بها شيعة علي عليه السلام على عهد بني أُمية. في مثل هذه الحالة يكون الطريق الصحيح والمعقول هو أن لا يبدّدوا قواهم، وأن يواصلوا نضالهم غير المباشر في الخفاء. التقية في مثل هذه الحالات أشبه بتغيير أُسلوب النضال الذي يجنّبهم الفناء ويحقّق لهم النصر في الكفاح. إنّ الذين يرفضون التقية كلّية ويفتون ببطلانها لا ندري ما الذي يقترحونه في مثل هذه الحالات؟ أيرون الفناء خيراً، أم استمرار النضال بشكل صحيح ومنطقي؟

هذاالطريق الثاني هو ا لتقية، وأمّا الطريق الأوّل فليس بمقدور أحد أن يجيزه.[١]

إمتاز المسلمون الأوائل الذين تربّوا علىٰ يد النّبيﷺ بروح مُقاومةٍ عظيمة أمام أعدائهم، وسجل لنا التأريخ صوراً فريدة للصمود والتحدي، وها هو «ياسر» لم يلن ولم يدخل حتىٰ الغبطة الكاذبة علىٰ شفاه الأعداء، وما تلفظ حتىٰ بعبارة خالية من أيّ أثر علىٰ قلبه ممّا يطمح الأعداء أن يسمعوها منه، مع أنّ قلبه مملوءاً ولاءً وإيماناً بالله تعالىٰ وحبّاً وإخلاصاً للنّبيﷺ وصبر علىٰ حاله رغم مرارتها فنال شرف الشهادة، ورحلت روحه الطاهرة إلىٰ بارئها صابرة محتسبة تشكو إليه ظلم وجور أعداء دين اللّه.

وها هو ولدة «عمّار» الذي خرجت منه كلمةً بين صفير الأسواط وشدّة الآلام تنم عن حالة الضعف ظاهراً، وبالرغم من اطمئنانه بإيمانه وتصديقه لنبيّهﷺ، إلّا أنّه اغتمّ كثيراً وارتعدت فرائصه حتىٰ طمأنه النّبيﷺ بحلِّيّة ما فعل به حفظاً للنفس، فهدأ.

ويطالعنا تأريخ (بلال) عندما اعتنق الإسلام راح يدعو له ويدافع عن النّبيﷺ، فشدَّ عليه المشركون حتىٰ أنّهم طرحوه أرضاً تحت لهيب الشمس الحارقة، وما اكتفوا بذلك حتىٰ وضعوا صخرةً كبيرة علىٰ صدره وهو بتلك الحال، وطلبوا منه أنْ يكفر بالله ولكنّه أبىٰ أنْ يستجيب لطلبهم وبقي يردد: أحدٌ أحد، ثمّ قال: أُقسم بالله لو علمتُ قولاً أشد عليكم من هذا لقلته.

ونقرأ في تاريخ (حبيب بن زيد) أنّه لما أسره مسيلمة الكذاب فقد سأله: هل تشهد أنّ محمّداً رسول اللّه؟

قال: نعم.

ثمّ سأله: أتشهد أنّي رسول اللّه؟

---

١ ـ الأمثل: ٤٥٧/٢.

فأجابه ساخراً: إنّي لا أسمع ما تقول! فقطعوه إرباً إرباً[١].

والتأريخ الإسلامي حافل بصور كهذه، خصوصاً تأريخ المسلمين الأوائل وتأريخ أصحاب الأئمّة عليهم السلام.

ولهذا قال المحققون: إنّ ترك التقية وعدم التسليم للأعداء في حالات كهذه، عملٌ جائز حتىٰ لو أدىٰ الأمر إلىٰ الشهادة، فالهدف سامٍ وهو رفع لواء التوحيد وإعلاء كملة الإسلام، وخاصة في بداية دعوة النّبي صلى الله عليه وآله، حيث كان لهذا الأمر أهمية خاصّة.

ومع هذا، فالتقية جائزة في موارد، وواجبة في موارد أُخرىٰ، وخلافاً لما يعتقده البعض فإنّ التقية (في مكانها المناسب) ليست علامة للضعف، ولا هي مؤشر للخوف من تسلط الأعداء، ولا هي تسليم لهم، بقدر ما هي نوع من المراوغة المحسوبة لحفظ الطاقات الإنسانية وعدم التفريط بالأفراد المؤمنين مقابل موضوعات صغيرة وقليلة الأهمية.

وممّا تعارف عليه عند كل الشعوب أنْ تلجأ الأقليات المجاهدة والمحاربة إلىٰ أُسلوب العمل السرّي غالباً، وذلك لحفظ حياة الأفراد وتهيئة الظروف لإكثارهم، فتشكّل مجموعات سرّية وتضع لأنفسها برامجاً غير معلنة علىٰ غيرهم، حتىٰ أنّ البعض من أفرادهم يحاول أن يتنكر حتىٰ في زيه، وإذا ما تمَّ اعتقالهم من قبل السلطة المعادية لمبادئهم فيحاولون جهد الإمكان إخفاء حقيقة أمرهم كي لا تخسر المجموعة كل طاقاتها، ولتكون قادرة على مواصلة الطريق بالبقية المتبقية منهم.

والعقل لا يجيز في ظروف كهذه أن تعلن المجموعة المجاهدة قليلة العدد عن نفسها، لكي لا يعرفها العدو بسهولة وهو القادر علىٰ القضاء عليها بما يملك من بطش وتسلط.

---

١ ـ في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨٤.

فالتقية قبل أنْ تكون برنامجاً إسلامياً هي أسلوب عقلاني ومنطقي، ينفذه ويعمل به مَن يعيش صراعاً مع عدو قويّ متمكن منه.

ولذا فقد ورد تعبير (الترس) عن التقية في الأحاديث الشريفة. فعن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن»[١].

(لاحظوا أنّ التقية هنا شبّهت بالترس، والترس إنّما يستعمل في ميادين الحرب والقتال مع الأعداء لحفظ القوىٰ الثائرة).

وإذا رأينا أنّ الأحاديث الشريفة تعتبر التقية علامةً للدين والإيمان وتقدرها بتسعة أعشار الدين، فإنّما هو للسبب المذكور.

والمجال ـ في هذا الكتاب ـ لا يسع للخوض في تفصيل موضوع التقية، وكل ما أردنا بيانه هو أنّ مَنْ يستنكر التقية ويذمها إنّما هو جاهل بشروطها وفلسفتها.

وثمة حالات تحرم فيها التقية، حينما يكون حفظ النفس فيها سبباً لزوال الدين نفسه، أو قد تؤدي التقية لحدوث فساد عظيم، فيجب والحال هذه كسر طوق التقية واستقبال كل خطر يترتب علىٰ ذلك.[٢]

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج ١١، الحديث (٦) من الباب (٢٤) من أبواب الأمر بالمعروف.

٢ ـ الأمثل: ٨/٣٤٠ ـ ٣٤٣.

١٨٠

ماهي أسطورتا الآيات الشيطانية والغرانيق؟

☑ ذكروا حول هذا الموضوع قصة عرفت بـ«قصة الغرانيق»، هذه القصة تقول ان النبي ﷺ كان مشغولاً بقراءة سورة «النجم» امام المشركين، فوصل إلىٰ هذه الآية: ﴿أَ فَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وفي هذه الاثناء اجرىٰ الشيطان علىٰ لسانه هاتين الجملتين: (تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجىٰ)[1] فابتهج المشركون لسماعهم هاتين الجملتين، وقالوا: لم يذكر «محمد» آلهتنا بخير إلىٰ الآن ابداً، فسجد النبي وسجدوا معه ايضاً في تلك الحال، بعد ذلك تفرق مشركو قريش فرحين، فلم يمض وقت حتىٰ نزل جبرائيل واخبر النبي قائلاً: باني لم آتك بهاتين الجملتين ابداً!، انه من القاء الشيطان!! ونزل بالآية ٥١ من سورة الحج اعلاه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاَ نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كما

---

١ ـ «الغرانيق» جمع «غرنوق» نوع من الطيور المائية البيضاء او السوداء اللون... كما جاءت بمعاني اخرىٰ ايضاً (نقلاً عن قاموس اللغة).

حذر النبي والمؤمنين ايضاً من هذا الشيء[١].

مع هذا الحديث تكون عصمة الانبياء حتىٰ في تلقي الوحي، معرّضة للخطر ويزول الاعتماد عليها.

في البداية يجب فصل نص الآية عن الروايات الموضوعة التي حيكت حولها ولنظر ما تقول، ثم نتعرض لنقد وتحقيق الروايات:

من المحقق ان هذه الآية وبقطع النظر عن الهوامش المصطنعة، لا تخدش عصمة الانبياء فحسب، بل تعد من الادلة علىٰ عصمتهم ايضاً: اذ يقول: حينما يتمنىٰ الانبياء امنية صالحة («الامنية» تطلق علىٰ كل انواع الامل والرجاء، لكنها هنا تعني البعد الايجابي البنّاء لتحقيق اهداف الانبياء، لانها لو لم تكن ذات بعد ايجابي لما ألقىٰ فيها الشيطان القاءاته)، كان الشيطان ينقض عليهم ويلقي القاءاته لكن الله كان يبطلها علىٰ الفور، ويحكم آياته قبل ان تترك تلك الوساوس أثرها علىٰ ارادة الانبياء وتصرفاتهم.

(لايخفىٰ ان «الفاء» في (فينسخ الله) اشارة إلىٰ الترتيب المتصل، أي أن الله كان ينسخ ويزيل القاءات الشيطان مباشرة)، الدليل علىٰ هذا الكلام هو آيات القرآن الاخرىٰ التي تقول بصراحة: **﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾** (الاسراء / ٧٤).

نظراً إلىٰ أن الآية (٧٣)[٢] من نفس سورة الاسراء والتي سبقت هذه الاية، تبينّ ان الكفار والمشركين كانوا يسعون بوساوسهم إلىٰ حرف النبيﷺ عن الوحي

---

١ ـ ذكر معظم المفسرون هذا الحديث بتفاوت ضئيل وانتقدوه.

٢ ـ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ (الاسراء / ٧٢).

السماوي، فيتضح ان الله تعالىٰ لم يدع لهم المجال ابداً ليفلحوا بوساوسهم تلك (تأمل جيداً).

كما نقرأ في الاية (١١٣) من سورة النساء ايضاً: ﴿وَلَوْلاٰ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

هذه كلها تبين ان الله قد حفظ نبي الإسلام من كل انواع الانحراف ولم يفسح المجال ابداً بمنّه وفضله من نفوذ وساوس شياطين الانس والجن اليه.

هذا كلّه فيما لو حملنا «الامنية» علىٰ «الغاية» او «الخطّة» او «الشروع» (لان جذور هذه الكلمة الاصيلة تعود إلىٰ «التقدير والتصوّر والفرض»).

لكن لو حملنا «الامنية» علىٰ التلاوة، كما احتمله معظم المفسرين، بل وحتىٰ استشهدوا ببعض اشعار «حسان بن ثابت» لاثبات هذا المدعىٰ[١].

كما ان الفخر الرازي قال في تفسيره: فالحاصل من هذا البحث ان الامنية اما القراءة واما الخاطر[٢].

ففي هذه الصورة سيكون مفهوم الآية هو انّ الانبياء الالهيين، عندما كانوا يقرؤون آيات الله ومواعظه امام الكفار والمشركين كان الشياطين يلقون وساوسهم وسمومهم بين ثنايا كلماتهم لإغفال الناس، بالضبط كما طبقوا هذا الشيء في حق

---

١ ـ الشعر هو هذا:

تمنىٰ كتاب الله اول ليلة   وآخرها لاقىٰ حمام المقادر

جاء تمنىٰ الكتاب بمعنىٰ تلاوة الكتاب في «تاج العروس» القاموس وكذلك في متن «القاموس»، ثم ينقل الزهري ان «الامنية» تطلق علىٰ التلاوة لكون القارىء كلما انتهىٰ باية رحمة تمناها، وكلما وصل إلىٰ آية منها ذكر للعذاب تمنىٰ النجاة منه. لكن صاحب «مقاييس اللغة» يعتقد ان اطلاق هذه اللفظة علىٰ التلاوة انما هو لاجل وجود نوع من القياس ووضع كل اية في مكانها.

٢ ـ تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٣ الصفحة ٥١.

نبي الإسلامﷺ ايضاً، اي كما نقرأ في الآية ٢٦ من سورة فصلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ طبقاً لهذا المعنىٰ يتضح مفهوم الآية التي بعدها اي (الحج / ٥٣) ايضاً والتي تقول: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

كما ان من المتعارف اليوم ايضاً انه حينما يشرع مصلحو المجتمعات البشرية، بالقاء خطبهم البنّاءة وسط جمهور من الناس يسعىٰ المنحرفون الذين في قلوبهم مرض، إلىٰ محو آثار تلك الخطب بالقيل والقال والشعارات الفارغة والتعابير الشيطانية التافهة.

وهذا في الحقيقة اختبار لافراد المجتمع، وهنا ينحرف المرضىٰ القاسية قلوبهم عن طريق الحق، في حين يزداد ايمان المؤمنين شيئاً فشيئاً بحقانية الانبياء، والتمسك بدعوتهم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

علىٰ أية حال نستنتج من مجموع ما تقدم عدم وجود ما ينفي مسألة عصمة الانبياء من الخطأ والانحراف في الآية مورد البحث، بل هي علىٰ العكس من ذلك

---

١ ـ لكن تفسير الاية طبقاً للمعنىٰ الاخير لايخلو من الاشكال، لان الالقاءات الشيطانية في نفوس الانبياءﷺ مهما كانت تنسخ وتزال بالامدادات الالهية على الفور، لكنها لا يمكنها ان تكون اساساً لاختبار المنافقين والذين في قلوبهم مرض لبداهة عدم تحقق وجودٍ خارجي لهذه الوساوس، انما هي القاءات عابرة في نفوس الانبياء.

الا ان يقال بان المراد هو أنه حينما يريد الانبياء الالهيون تجسيد (امنياتهم وخططهم) وتنفيذها في الخارج، يشرع الشياطين بتحطيمها والقاء السموم والوساوس عليها، وهنا تتجسد ساحة الاختبار الساخنة. وطبقاً لهذا البيان فالانسجام والارتباط بين الآيات الثلاث (الحج / ٥٢ و ٥٣ و ٥٤) محفوظ وقائم.

العجيب ان بعض المفسرين ذكروا للاية الاولىٰ احتمالات وتفاسير مختلفة دون الحفاظ علىٰ انسجامها مع الايتين اللتين تليانها (تأمل جيداً).

تؤكد علىٰ هذه المسألة لانها تقول ان الله يحفظ انبياءه من القاءات الشيطان حين تلقّي الوحي أو التصميم علىٰ انجاز اعمال اخرىٰ.

والآن يجب ان نلتفت إلىٰ الروايات والاساطير التي ذكرت في هذا القسم، والتي دفعت بالبعض من الشياطين في الاونة الاخيرة إلىٰ تأليف كتاب «الآيات الشيطانية»، أملاً في ايجاد الفتنة والقاء السموم والشبهات حول سيرة النبيﷺ، لنعرف ما قيمة مثل هذه الروايات والاساطير؟

نقد الروايات المرتبطة باسطورة الغرانيق:

كما تقدم القول انّ الآيات السابقة لا تحتوي علىٰ ما يتنافىٰ وعصمة الانبياء، بل هي علىٰ العكس دليل علىٰ عصمتهم، لكن هناك قضايا عجيبة جداً يمكن مشاهدتها في الروايات المذكورة في بعض مصادر اهل السنّة من الدرجة الثانية والتي ينبغي التحقيق فيها علىٰ انفراد، هذه الروايات التي ذكرناها في بداية البحث، منقولة تارة عن ابن عباس واخرىٰ عن سعيد بن جبير وثالثة عن البعض من الصحابة او التابعين[1].

مع ان هذه الروايات لم تشاهد في اي مصدر لاتباع مذهب اهل البيتعليهم السلام، كما انه لا وجود لها ايضاً في كتب الصحاح الستة علىٰ حد قول بعض علماء اهل السنة، حتىٰ ان المراغي يقول في تفسيره: «وقد دس بعض الزنادقة في تفسير هذه الآية احاديث مكذوبة لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة، وأصول الدين تكذبها، والعقل السليم يرشد الىٰ بطلانها... ويجب علىٰ كل العلماء طرحها وراءهم ظهرياً،

---

١ ـ لمزيد من الاطلاع علىٰ طرق هذه الروايات عند اهل السنة يمكن الرجوع إلىٰ كتاب الدر المنثور الجزء ٤ الصفحة ٣٦٦ ـ ٣٦٨ ذيل الاية ٥٢ من سورة الحج.

ولا يضيعوا في تأويلها وتخريجها، ولا سيما بعد أن نصّ الثقات من المحدّثين علىٰ وصفها وكذبها»[١].

كما ونقرأ نفس هذا المعنىٰ بشكل آخر في تفسير «الجواهـر» لـ«الطـنطاوي» حيث يقول: «هذه الاحاديث لم تذكر في اي واحد من كتب الصحاح الستة مـثل موطأ مالك، صحيح البخاري، صحيح مسلم، جامع الترمذي، سنن ابن داود، وسنن النسائي[٢].

ولذا لم يذكره كتاب «تـيسير الوصـول لجـامع الاصـول» الجـامع للـروايـات التفسيرية للكتب الستة، وذلك عند تفسيره لآيات سورة النجم. ومن هنا فليس من اللائق الاهتمام بهذا الحديث او حتىٰ التحدث به، فضلاً عن التعليق عليه أورده... هذا الحديث كذب واضح!»[٣].

من الادلة التي يذكرها «الفخر الرازي» علىٰ كون هذا الحديث من الموضوعات قوله: وايضاً فقد روىٰ البخاري في صحيحه ان النبيﷺ قرأ سورة النجم وسـجد فيها المسلمون والمشركون والانس والجن، وليس فيه حديث «الغرانيق»، وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها بتاتاً حديث الغرانيق[٤].

لم يقتصر الامر علىٰ المفسرين الذين ذكرناهم فقط، بل هناك افراد اخرون ايضاً مثل «القرطبي» في تفسير «الجامع» وسيد قطب في «في ظلال القرآن» وغيرهما وعموم كبار مفسري الشيعة ايضاً، اعتبروا هذه الرواية من الخرافات والموضوعات ونسبوها إلىٰ اعداء الإسلام.

ومع كل هذا فلا عجب ان يضع اعداء الإسلام خصوصاً المستشرقون المعاندون

---

١ ـ تفسير المراغي الجزء ١٧ الصفحة ١٣٠ ذيل الآيات اعلاه.

٢ ـ يجب الالتفات إلىٰ ان سنن ابن ماجة هي من الصحاح الستة لا موطأ مالك.

٣ ـ تفسير الجواهر الجزء ٦ الصفحة ٤٦.

٤ ـ تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٣ الصفحة ٥٠.

الاموال الطائلة في خدمة هذه الرواية ويتناقلونها بكل جدية، وقد رأينا في الاونة الاخيرة كيف انهم شجعوا كاتباً شيطانياً لتأليف كتاب تحت عنوان «الآيات الشيطانية»، حيث انه وبعبارات وضيعة جداً ومن خلال قصة خيالية لم يقتصر علىٰ هتك مقدسات الإسلام ووضعها علىٰ محك الشك والترديد فحسب، بل أهان الانبياء العظام الذين تكن لهم الاحترام كل الاديان السماوية ايضاً (مثل ابراهيم علىٰ نبينا وآله وعليه السلام).

وليس عجيباً ايضاً ان يترجم النص الانكليزي لهذا الكتاب إلىٰ مختلف اللغات بسرعة، ويوزع في كل انحاء العالم، وحينما اصدر الامام الخمينيؒ فتواه التأريخية بارتداد كاتب هذا الكتاب اي «سلمان رشدي» ولزوم قتله، بادرت الدول الاستعمارية واعداء الإسلام إلىٰ حمايته بشكل منقطع النظير. هذه الحركة العجيبة اثبتت ان هناك من يقف وراء سلمان رشدي وان المسألة هي اكبر من مجرد تأليف كتاب معاد للاسلام، وإنها في الواقع خطة مدروسة من قبل الغرب المستعمر والصهيونية لضرب الإسلام من خلال وقوفهم معه بكل حزم.

لكن الصمود القوي للامام الخمينيؒ في فتواه، واستمرار نهجه من قبل نوابه، وما نالته تلك الفتوىٰ من القبول والترحاب من قبل غالبية الشعوب المسلمة في العالم خيب آمال المفتعلين، بل لا زال مؤلف هذا الكتاب وإلىٰ لحظة تدويننا لهذا البحث يعيش في محل مجهول بالكامل، تحت رقابة مشددة من قبل الدول الاستعمارية، ويبدو انه مضطر للعيش هكذا إلىٰ اخر لحظات حياته ان لم يقتل علىٰ ايدي نفس تلك الدول، فيما لو ارادت غسل ذلك العار الذي لحق بها نتيجة دفاعها عنه.

وبناءً علىٰ هذا فالدافع لـ«وضع» هذه الرواية المجعولة سيكون هو السبب في بقائها ايضاً، وبعبارة اخرىٰ هُناك محاولة من قبل اعداء الإسلام كانت قد بدأت في

السابق، ثم واصلت مسيرها بعد الف سنة او اكثر مدعومة من قبل طائفة اخـرىٰ وبشكل اكثر كثافة.

ومن هنا فلا حاجة لنقل التبريرات التي اثيرت بشأن هذا الحديث كالتي وردت في تفسير «روح المعاني» بشكل موسع، او في تفاسير اخرىٰ بشكل مركز. إذ ان الحديث الذي يكون اساسه خاوياً والذي اكد كبار علماء الإسلام علىٰ كونه مـن الموضوعات لا يستحق التوجيه والتفسير.

لكن هناك بعض الملاحظات ينبغي ذكرها لتوضيح المطلب ليس الا:

١ـ الصراع المرير لنبي الإسلامﷺ ورفض المساومة مع الاوثان والوثنية عند فجر الدعوة وإلىٰ اخر عمره، ليس بالشيء الخفي علىٰ احد من الاعداء الأصدقاء، وأهم شيء لم يساوم فيه ابداً او يتصالح او ينحرف هو نفس هذا المطلب، فكيف يمكن والحالة هذه ان يمدح اصنام المشركين بهذه الاوصاف ويذكرها بخير؟

تؤكد التعاليم الاسلامية ان الذنب الوحيد الذي لم يغفر ابداً هو الشرك وعـبادة الاوثان، ولذا اعتبر مسألة ضرب اماكن عبادة الاصنام واجبة علىٰ كل مكلف مهما كلف الثمن، كما ان القرآن من الفه إلىٰ يائه شاهد علىٰ ذلك ويشكل بنفسه قرينة واضحة علىٰ وضع حديث الغرانيق الذي ذكر فيه تمجيد ومدح الاوثان والوثنية.

٢ـ فضلاً عن ان الذين حاكوا اسطورة الغرانيق لم يلتفتوا إلىٰ هذا الموضوع وهو ان مروراً بسيطاً علىٰ آيات سورة النجم يبطل هذه الخرافة، ويـثبت عـدم وجـود الانسجام بين مدح وتمجيد الاوثان وجملة «تلك الغرانـيق العـلىٰ، ان شـفاعتهن لترتجىٰ» وبين الآيات التي تحف بها، اذ قد صرح في بداية نفس هذه السورة بان النبيﷺ لم ينطق عن هوىٰ النفس ابداً وان كل ما يقوله بالنسبة لعقائد وقـوانـين الإسلام انما هو من الوحي الالهي ﴿وَمٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ﴾ (النجم / ٣، ٤)، وتصرح الايات بأن النبيﷺ لم ينحرف ابداً عن طريق الحق ﴿مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَمٰا غَوىٰ﴾.

واي ضلال وانحراف أعظم من ياتي بحديث عن الشك وثناء الاصنام من بين آيات التوحيد؟ واي منطق اسوء من ان يضيف كلام الشيطان (تلك الغرانيق العلىٰ) الىٰ كلام الله تبعاً للهوىٰ.

والمثير هنا ان الايات الثانية تذم الاصنام والمشركين وتقول ﴿إِنْ هِيَ إِلّاٰ أَسْمٰاءٌ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَآبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اللهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (النجم / ٢٣).

اي عاقل يصدق ان شخصاً رزيناً حكيماً وفي مقام النبوة وابلاغ الوحي، يمدح الاصنام في الجملة السابقة ويذمها بشدة وعنف في جملتين بعدها؟! كيف يمكن توجيه هذا التناقض الصارخ بين الجملتين تباعاً؟

ومن هنا يجب الاعتراف بان الانسجام القائم بين آيات القرآن هو بشكل يرفض كل شائبة تضاف اليها من قبل المعاندين والمغرضين، يثبت كونها قطعة غريبة واضافة غير متجانسة وأنها ليست في محلها، هذا هو المصير الذي ابتلي به حديث الغرانيق بين طيات آيات سورة النجم.

وهنا يبقىٰ سؤال واحد، وهو البحث عن السر وراء كل هذه الشهرة، التي لاقاها موضوع تافه لا اساس له كهذا؟

جواب هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة ايضاً. اذ ان الفضل في شهرة هذا الحديث يعود بالدرجة الاولىٰ إلىٰ مساعي الاعداء والمرضىٰ، الذين يظنون انهم قد عثروا علىٰ وسيلة جديدة للطعن في مقام عصمة نبي الإسلام واصالة القرآن. وبناءً علىٰ هذا التحليل يتّضح شهرته بين الاعداء وهو مما لا يخفىٰ، اما شهرته بين المؤرخين الاسلاميين المسلمين فعلىٰ حد قول بعض علماء الإسلام، ناتج من كون هؤلاء المؤرخين يبحثون عن كل ما هو مثير وغريب وفريد من نوعه وان كان يفتقر إلىٰ الاصالة التأريخية لادراجه بين طيات كتبهم، ليزيدوا من جذابيتها قدر المستطاع، ونظراً لكونِ قصة كاسطورة الغرانيق حادثة غريبة تنسب إلىٰ حياة نبي الإسلامﷺ

فلم تخلُ منها كتبهم التأريخية، بل وحتىٰ الروائية منها بـغض النـظر عـن ضـعف اسانيدها وتفاهة محتواها. كما أن البعض ايضاً قد ذكرها للنقد والتحليل.

يتّضح من مجموع ما مر اعلاه ان آيات القرآن تشكل دليلاً واضحاً يوكّد علىٰ عصمة الانبياء، فضلاً عن خلوها مما يتنافىٰ وذلك المقام.[١]

١ ـ نفحات القرآن ج ٧ ص ١٦٠ ـ ١٧٠.